

دَارُ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ

كِتَابُ

صُنْحُ الْأَكْبَرِ

تَالِيفُ

الْشَيْخِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدِي

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٨ هـ
١٩١٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكُفر، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان رتبتهما ومعناها، وذكر ما يرادفها من الألفاظ)

أما رُتَبُهَا فإنها متأخرة - عنيد قُوَّة السُلطان - عن عَقْدِ الحِزْبِيَّة : لأن في الحِزْبِيَّة ما يدل على ضَعْفِ المعقود له، وفي الهدنة ما يدل على قُوَّتِهِ .

وأما معناها فالمُهادنة في اللغة المُصالحة، يقال : هَادَنَهُ يُهَادِنُهُ مُهادِنَةً إذا صالَحَهُ والاسم الهُدْنَةُ . وهى إما من هَدَنَ بفتح الدال يَهْدُنْ بِضَمِّهَا هُدُونًا إذا سَكَنَ ، ومنه قولهم : « هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنِ » . أى سَكُونٌ عَلَى غِلٍّ ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أى من باب قتل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضبطه في القاموس واللسان وكذا المحكم بالقلم يفيد أنه من باب ضرب، ففعل فيه لغتين .

(٢) هذا هو أحد شق التفصيل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظ أخرى :

أحدها — المَوَادعة، ومعناها المصالحة أيضا، أَخَذًا من قولهم : عليك بالمودع يريدون بالسكينة والوقار، فتكون راجعة إلى معنى السكون . وإما أَخَذًا من تَوَديع الثوب ونحوه : وهو جعله في صَوَان يَصُونُهُ ، لأنه بها تحصل الصيانة عن القتال . وإما أَخَذًا من الدعة : وهي الخفض والهناء ، لأن بسببها تحصل الراحة من تعب الحرب وكلفه .

الثاني — المُسَالمة ومعناها ظاهراً : لأن بوقوعها يَسَلِّمُ كُلُّ من أهل الجانبين من الآخر .

الثالث — المُقَاذاة، ومعناها [المُحَاكَمَةُ مُقَاذاةٌ من القَضَاءِ بمعنى الفصل والحكم] .

الرابع — المُوَاصَفةُ ، سُمِّيَتْ بذلك لأن الكاتب يَصِفُ ما وقع عليه الصلح من الجانبين . على أن الكُتَّابَ يُحْصُونَ لَفْظَ المَواصِفةِ بما إذا كانت المهادنة من الجانبين ، ولا شك أن ذلك جارٍ في لَفْظِ المَوَادعةِ والمُسَالمةِ والمُقَاذاةِ أيضاً : لأن المفاعلة لا تكون إلا بين اثنين إلا في ألفاظ قليلة مخفوفة ، على ما هو مقرر في علم العربية .

أما لَفْظُ الهُدْنَةِ فإنه يصدق أن يكون من جانب واحد، بأن يَعْقِدَ الأعلى الهدنة لمن هو دونه . على أنها عند التحقيق ترجع إلى معنى المفاعلة ، إذ لا لتصور إلا من اثنين .

وأما في الشَّرْعِ فعِبارةٌ عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة ، على ما سيأتي بيانه فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين مَلَكَينِ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدهما ونائب الآخر . وعلى ذلك رتب الفقهاء رحمهم الله باب الهدنة في كتبهم . قال صاحب

”مواد البيان“. وقد يتعاقد عطاء أهل الإسلام على التّوَادُّع والتّسَالِمِ واعتقاد المَوَدَّةِ والتّصافى، والتّوَازُرِ والتّعاون، والتّعاوُذِ والتّناصُرِ؛ ويشترطُ الأضعفُ منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده والتّفادى عنه بمعاطفته والالتقياد إلى اتّباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بيجيش، أو امتثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يُحصى.

قلتُ : وقد يكون المايكّان متساويين في الرتبة أو متقاربين، فيقع التّعاقدُ بينهما على المُسالمة والمُصافاة، والمُوازرة والمُعَاوَنَة، وكَفِّ الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دُونَ أَنْ يَلْتَرِمَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ شَيْئًا يَقُومُ بِهِ أَوْ إِنَاوَةً يَحْمِلُهَا إِلَيْهِ؛ ولكلِّ مقامٍ مقال، والكاتبُ الماهرُ يُوفِّي كلِّ مقامٍ حقّه، ويُعطى كلُّ فصلٍ من الفصول مستحقّه.

الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أَمَّا مُهَادَنَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ فَلأَصْلُ فِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ((فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)) الآية، وقوله : ((وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا)).

وما ثبت في صحيح البخاريّ من حديثِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أَنَّ قُرَيْشًا وَجَّهَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ صَدَّهُ قُرَيْشٌ عَنِ الْبَيْتِ - سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَاتِ [أَكْتُبْ] بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

«الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدرى ما هو؟ ولكن آكتبُ
«بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كما كُنْتَ تَكْتُبُ». فقال المسلمون: والله لا نكتبُ إلا
«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: آكتبُ:
«بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ - ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله - فقال سهيل:
«وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا نَاتَلَنَّاكَ؛
«ولكن آكتبُ محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وَاللَّهِ
«إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُونِي، آكتبُ محمد بن عبد الله، ثم قال النبي
«صلى الله عليه وسلم: على أن تَخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَتَطُوفُ بِهِ - فقال
«سهيل: وَاللَّهِ لَا تَخْذَلُ الْعَرَبُ أَنَّا قَدْ أَخَذْنَا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من
«الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فكتب - قال سهيل: وعلى أنه لا يأتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ
«وإن كان على دينِكَ إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا - قال المسلمون: سُبْحَانَ اللَّهِ!
«كيف يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا! فبينما هم كذلك، إذ جاء
«أَبُو جَنْدَلٍ يَرْسُفُ فِي قَبُورِهِ، وَقَدْ نَخَرَجَ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ
«أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ - فقال سهيل: هذا يا محمد أَوَّلُ مَا أَقْضَيْكَ عَلَيْهِ أَنْ
«تُرَدَّ إِلَى - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ -
«قال: فوالله [إِذَا] لَا أَصَالِحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا - قال النبي صلى الله
«عليه وسلم: فَأَجِزْهُ لِي - قال: ما أنا بِمُجِيزِهِ لَكَ - قال بلَى فافْعَلْ -!

« قال : ما أنا بفَاعِلٍ . قال مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ : بلى قد أَجَزَنَاهُ لَكَ . قال »
 « أَبُو جَنْدَلٍ : أَى مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ : أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا ؟ »
 « أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ ؟ وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ تَعَالَى . »
 « قال عمرُ بنُ الْخَطَّابِ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : «
 « أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا ؟ قال بلى ! قُلْتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى
 « الْبَاطِلِ ؟ قال بلى ! قُلْتُ : فَلَمْ نُعْطِ الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا ؟ قال : إِنِّى
 « رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِى » .

قلت : هذا ما أورده البخارىُّ في حديثٍ طَوِيلٍ ^(١) . والذي أورده أصحابُ
 السِّيرِ أَنَّ الْكَاتِبَ كَانَ عَلَى بَنِّ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَنَّ نُسخَةَ الْكِتَابِ :
 « هذا ما قاضى عليه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ سَهِيلَ بْنِ عَمْرِو عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ »
 « عَنْ النَّاسِ عَشْرَ سَنِينَ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَحَبِّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ »
 « وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، وَمِنْ أَحَبِّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ »
 « دَخَلَ فِيهِ » .

وأشهد في الْكِتَابِ عَلَى الصَّالِحِ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه في كتاب الصلح وهو في ج ٤ من " إرشاد السارى " للقسطلانى ومنه كان

الطرف الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن)

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكاتبات له من الدولة محل خطير ، ومن المملكة موضع كبير ؛ ويتعين على الكاتب أن يحلّ له فكره ، ويعمل فيه نظره ، ويتوفر عليه توقراً يحكم مبانیه ، ويهذب معانيه .

والذى يلزم الكاتب في ذلك نوعان :

النوع الأول

(ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهي الشروط الشرعية المعتمدة في صحة العقد ، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف العقود عليه : فإن كان المعقود عليه إقليماً : كالحند والروم ونحوهما ، أو مهادنة الكفار مطلقاً ، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نائيه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القرى والأطراف ، فلا حاجة للولاة المجاورين لهم عقد الصلح معهم .

الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة ، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين ، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط يأباه الإسلام : كما لو شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم ، أو أن يرده عليهم أسير مسلم أنفلت منهم ، أو شرط لهم على المسلمين

مَالٌ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَوْ شُرْطَ رَدِّ مُسْلِمَةٍ إِلَيْهِمْ، فَلَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ شُرْطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّحَّةَ .
 قَالَ الْغَزَالِيُّ : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَقُولَ : ^(١) عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدَّدْتُمُوهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسْلِمًا رَدَدْنَاهُ . فَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَخِيفَ عَلَيْهِمْ، جَازَ اتِّزَامُ الْمَسَالِ لَهُمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ، كَمَا يَحْزُرُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا تَعَجَّزْنَا عَنْ اتِّزَاعِهِ .

الرَّابِعُ — أَنْ لَا تَزِيدَ مَدَّةَ الْهُدْنَةِ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عِنْدَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْنِهِمْ، وَلَا يَحْزُرُ أَنْ تَبْلُغَ سَنَةً بِحَالٍ، وَفِيهَا دُونَ سَنَةٍ وَفَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَا يَحْزُرُ . أَمَّا إِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَهَنًا وَخَوْفٌ، فَإِنَّهُ تَجُوزُ الْمَهَادَنَةُ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ ؛ فَقَدْ هَادَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . وَلَا تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عَلَى الصَّحِيحِ، وَفِي وَجْهِ تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ لِلصَّلَاحَةِ . فَلَوْ أَطْلَقَ الْمُدَّةَ فَالصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا فَاسِدَةٌ ، وَقِيلَ : إِنْ كَانَتْ فِي حَالِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ حُمِلَتْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ : فَقَدْ قِيلَ تَحْمِلُ عَلَى الْأَقْلَ : وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ عَلَى الْأَكْثَرِ : وَهُوَ مَا يَقَارِبُ السَّنَةَ . وَلَوْ صَرَّحَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَحْزُرُ عَقْدُ الْهُدْنَةِ عَلَيْهِ : فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي حَالِ الْقُوَّةِ أَوْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي حَالِ الضَّعْفِ صَحَّ فِي الْمُدَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ وَبَطَلَ فِي الزَّائِدِ . فَإِنْ أَحْتَجَّ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَى الْعَشْرِ، عَقِدَ عَلَى عَشْرِ ثُمَّ عَشْرٍ ثُمَّ عَشْرٍ قَبْلَ تَقْضَى الْأُولَى، قَالَهُ الْقَوَارِئُ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِنَا الشَّافِعِيَّةِ . وَذَهَبَ أَصْحَابُ مَالِكٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنْ مُدَّتَّهَا غَيْرُ مُحْدَدَةٍ، بَلْ يَكُونُ مَوْكُولًا إِلَى اجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ .

(١) بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ بِقَدْرِ كَلِمَةٍ وَلَعَلَّهُ « نَهَادْتُمْ عَلَى الْخِ » .

النوع الثاني

(ماشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقود الصلح

الجارية بين زعماء المسلمين، وهى ضربان)

الضرب الأول

(الشروط العادية التى جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين

الملوك فى كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه فى تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يشترط عليه أن يكون لوليّه موالياً، ولعدوّه مُعادياً، ولمُسالمه مُسالمًا، ولمُحاربه مُحاربًا، ولا يُواطىء عليه عدوّاً، ولا يوقع عليه صلحاً، ولا يُوافق على ما يقدرُ فى أمره، ولا يقبل سؤالَ سائلٍ، ولا بدّلَ باذلٍ، ولا رسالةَ مرأسلٍ مما يخالف الاتفاق الجارى، والأخذ على يد من سعى فى نقض الصلح ونكث العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المخالفين له، وأنه إذا جنى من أهل مملكتهم جانٍ كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالجناية .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومطّرف ثغوره، وشاسع نواحيه — أيدي الداخلين فى جماعته، والمنضمين إلى حوزته، ولا يُجهز لها جيشاً، ولا يُحاول لها غزواً، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم فى مقارعة، ولا يتناوبهم بمكيّدة ظاهرة ولا باطنة، ولا يعاملهم بأذية جليّة ولا خفيّة، ولا يُطلق لأحدٍ ممن ينوب عنه فى إمارة جيشه، ومن يُنسب إلى جملته، ويتصرف

على إرادته - عَنَّا إلى شَيْءٍ من ذلك بوجهٍ من الوجوه، ولا سَبَبٍ من الأسباب، وأن لا يُجاوِزَ حُدُودَ مملكته إلى المملكة الأخرى بِنَفْسِهِ ولا بِعَسْكَرٍ من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترطَ عليه أن يُفْرِجَ عَمَّنْ هو في حوزته مَن أحاطت به رِبْقَةُ الأَثَرِ، ويُمَكِّنهم من المَسِيرِ إلى بلادهم: بأنفسهم وخدمهم وعبائهم وأتباعهم، وأصناف أموالهم، في أتم حراسةٍ، وأكمل خفارةٍ، دون كُفَّةٍ ولا مَثُونَةٍ تُلْحَقهم على إطلاقهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترطَ عليه ما لا يحمله إليه في كُلِّ سَنَةٍ، أو أن يُسَلِّمَ إليه ما يَخْتَارُهُ: من حُصُونٍ وقلاعٍ وأطرافٍ وسواحلٍ مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أَحَبَّ اتِّزَاعِهِ أو استضافته من بلادٍ من يَهادِنُهُ من مُلُوكِ الكُفَرِ؛ وأن يُنَبِّئَ مَنْ بها من أهلها، ويُقرِّرهم فيها بِحُرْمِهِم وأولادِهِم ومَواشِيهِم وأَزْوَاجِهِم وسِلاحِهِم وآلاتِهِم، دون أن يَلْتَمِسَ عن ذلك أو عن شَيْءٍ منه ما لا، أو يَطْلُبَ عنه بدلاً، وما يَخْرِطُ في هذا السِّلَكِ .

ومن ذلك - أن يشترطَ عليه عَدَمَ التَّعَرُّضِ لِتُجَّارِ مَمْلَكَتِهِ، والمُسَافِرِينَ مِنْ رَعِيَّتِهِ، بَرًّا وَبَحْرًا بَنُوجٍ من أنواع الأَذْيَةِ والإِضْرارِ، في أنفُسِهِم ولا في أموالِهِم، ولِلْجَاوِرِينَ لِلْبَحْرِ عَدَمَ رُكُوبِ المراكبِ الحَرَبِيَّةِ التي لا يَعتادُ التُّجَّارُ رُكُوبَ مِثْلِهَا .

ومن ذلك - أن يشترطَ عليه إِمضاء ما وَقَعَتْ عليه المَعاقدَةُ، وأن لا يَرجِعَ عن ذلك ولا عن شَيْءٍ مِنْهُ، ولا يُؤَخِّرَ شَيْئًا عن الوقتِ الذي ... (١)

ومن ذلك - أن يشترطَ عليه أنه إذا بَقِيَ من مُدَّةِ الهُدْنَةِ مُدَّةٌ قَرِيبَةٌ مما يَحتاج إلى التَّعْيِيءِ فِيهِ، أن يَعْلَمَهُ بما يُريدُهُ من مُهادَنَةٍ أو غَيْرِهَا .

(١) بياض بالأصول ولعله «الذي اتفق عليه» .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا آتقضى 'أمد الهدنة' على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك — أن يشترط ما لا يحمله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصوناً، أو بلاداً يُسلمها من بلاده، أو مما يغلب عليه من بلاد مُهادِنه، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاق مما لا تُحصى كثرة .

الضرب الثاني

(مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير أوضاعها، وترتيب

قوانينها، وإحكام معاقبها)

وذلك باعتماد أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه، ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج، كما سيأتى ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى . والذى ينبغى أن يُراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذى يكتب فيه الملك الذى تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها — أن يأتى فى ابتدائها ببراءة الاستهلال : إما بذكر تحسين موقع الصلح والتدب إليه ويمن عاقبته، أو بذكر السلطان الذى تصدر عنه الهدنة، أو السلطانين المتهادين، أو الأمر الذى ترتب عليه الصلح، وما يجرى هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجبه المقام .

ومنها — أن يأتى بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذى أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودعة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكفر، أحتج للإجابة إليها بالائتمار بأمر القرآن والأقياد إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطوعة على الصلح والإجابة إلى السلم بقوله: «وإن جئخوا للسلم فاجئح لها وتوكل على الله». وما وردت به السنة من مصالحته صلى الله عليه وسلم قريشاً عام الحديبية، وذكر ما سنع له من آيات الصلح وأحاديثه، وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وكفهم عن القتال وقوفاً عند ما حد لهم. وأنه لولا ذلك لشرعوا الأسنة إلى مخالفهم في الدين، وركضوا الجياد إلى جهاد من يلبهم من الملحدين.

وإن كان الصلح بين مسلمين أحتج بنحو قوله تعالى: «وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا فاصلحوا بينهما». وبأحاديث التحذير من تقتل المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا ألتق المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار» وما يجرى هذا المجزى.

ومنها - أن يراعى المقام في تجليل المتهادين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، ووصف كل واحد منهما بما يليق به: من التعظيم، أو التوسط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، ويجزى على حسب ذلك في الشدة واللين.

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سوى بينهما في التعظيم، وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد، إلا أن يكون أحدهما أسن من الآخر، فيراعى للأسن ما يجب له على الحد من التأديب معه، ويراعى للحد ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة.

وإن كانت الهدنة من قوى لضعيف، أخذ في الاشتداد، آتياً بما يدل على علو الكلمة، وأنيساط القدرة، وحصول النصرة، وأستكمال العدد، وظهور الأيد،

ووفور الجُندِ، وقُصور الملوك عن المطاولة، وعجزهم عن المحاولة، ونحو ذلك مما يخطر في هذا السلك، لا سيّما إذا كان القويّ مسلماً والضعيفُ كافراً، فإنه يجبُ الأزيادُ من ذلك، وذكُرُ ما للإسلام من العِزّة، وما توالى له من النُصرة؛ وذكُرُ الوقائع التي كانت فيها نُصرة المسلمين على الكُفّار في المواطن المشهُورة، والأماكن المعروفة، وما في معنى ذلك .

وإن كانت الهدنة من ضَعِيفٍ لِقَوِيٍّ، أَخَذَ في المُلَايَنَةِ بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجَلَادَةِ، وَمَسَاكِ الْقُوَّةِ، خصوصاً إذا كان القويّ المعقود معه الهدنة كافراً . وإن شَرَطَ له مالاً عند ضَعْفِ المسلمين للضَّرورة أتى في كلامه بما يقتضى أَنَّ ذلك رَغْبَةٌ في الصُّلحِ المأمور به، لا عن خَوَرٍ طِبَاعٍ وَضَعْفِ قُوَّةٍ، إذ الله تعالى يقول : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنها - أن يتَحَقَّظَ من سَقَطٍ يَدْخُلُ على الشريعة نَقِصَةً، إن كانت المهادنة مع أهل الكُفْرِ، أو يَجْرُ إلى سُلْطَانِهِ وَهِيصَةً، إن كانت بين مُسْلِمَيْنِ، ويتَحَدَّرُ كُلُّ الْحَدَرِ من خَلَلٍ يَتَطَرَّقُ إليه : من إِهْمَالِ شَيْءٍ من الشروط، أو ذِكْرٍ شرطٍ فيه خَلَلٌ على الإسلام أو ضررٌ على السلطان، أو ذِكْرٍ لَفْظٍ مُشْتَرَكٍ أو مَعْنَى مُلْتَبِسٍ يُوقِعُ شُبْهَةً تُوجِبُ السَّبِيلَ إلى التَّأْوِيلِ، وأن يأخُذَ المَأْخُذَ الواضِعَ الذي لا تَتَوَجَّهُ عليه مُعَارَضُهُ، ولا تَتَطَرَّقُ إليه مُنَاقَضُهُ، ولا يَدْخُلُهُ تَأْوِيلٌ .

ومنها - أن يُبَيِّنَ أن الهدنة وقعت بعد استِخَارَةِ الله تعالى وتَرْوِيَةِ النَّظَرِ في ذلك وظُهورِ الْخَيْرِ فيه، ومُشاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ وأهلِ الْحِجَى، ومُوافَقَتِهِمْ على ذلك .

ومنها - أن يُبَيِّنَ مَدَّةَ الْهُدْنَةِ . فقد تقدّم أن الصَّحِيحَ من مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ إذا لم تُبَيَّنِ المَدَّةُ في مُهَادَنَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ فَسَدَتْ الْهُدْنَةُ .

قال في "التعريف": وقد جرت العادة أن يحسبوها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمريّة. ويذكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها. أما في عقد الصّاح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك، بل ربّما قالوا: إن ذلك صار لازماً للأبد، حتى في الولد وولد الولد.

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بين الملّكين أنفسهم، أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما ونائب الآخر، ويستوفي ما يجب لكل قسم منها.

فإن كانت بين الملّكين أنفسهم بغير واسطة بين ذلك، ذكر ما أخذ عليهما من العهود والمواثيق، والأيمان الصادرة من كل منهما، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك.

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر، بين ذلك، وتعرض إلى المستند في ذلك: من حضور كتاب من الملّك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبيه، وأنه وصل على يده أو يد غيره، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه، مختم بختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه. ويتعرض إلى قيام البيّنة بها وثبوتها بمجلس الحكم ونحو ذلك من المستندات.

وإن كانت بين نائبين، بين ذلك وذكر مستند كل نائب منهما على ما تقدم ذكره. ويتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه باختياره وطواعيته، لا عن إكراه ولا إجبار، ولا قسر ولا غلبة، بل لما رأى لنفسه والمستبد به في ذلك من المصلحة والحظ. وأن كتاب الهدنة قرئ عليه وبين له فصلاً فصلاً، وترجم له بموثوق به، إن كان لا يعرف العربيّة ونحو ذلك.

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجري من التحليف في آخرها: على الوفاء، وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط، أو الخروج عن شيء من الالتزامات،

أو مُحَاوَلَةِ التَّأْوِيلِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، أَوِ السَّعْيِ فِي نَقْضِهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
وما في معنى ذلك :

فإن كانت بين مَلِكَيْنِ ، تعرّض إلى تَحْلِيفِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى التَّوْفِيقِ بِذَلِكَ .

وإن كانت بين أَحَدِهِمَا وَنَائِبِ الْآخَرِ ، حَلَفَ الْمَلِكُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَسَتَاتِي صُورَةَ
الْحَلِيفِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْمَدَنِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيْمَانِ ^(١) فِيمَا بَعْدُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - أَنْ يُحَرَّرَ أَمْرَ التَّارِيخِ بِالْعَرَبِيِّ وَمَا يُؤَرِّخُ بِهِ فِي مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُهَادِنِ : مِنْ
السُّرْيَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَلَهُمْ عَادَةٌ أَنْ يَحْسُبُوهَا مَدَّةَ
سِنِينَ شَمْسِيَّةٍ فَيَحَرَّرَ حَسَابَهَا بِالْقَمَرِيَّةِ ، وَيَذْكُرُ سِنِينَ وَأَشْهُرًا وَأَيَّامًا وَسَاعَاتٍ حَتَّى
يَسْتَكْمِلَ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ الْمُهَادِنِ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّارِيخِ مِنْ
المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ واستخراجها .

ومنها - أَنْ يَقَعَ الْإِشْهَادُ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمُتَعَاقِدِينَ بِذَلِكَ ، وَلَا بَأْسَ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ .
وقَدْ بَحَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ لِيُقْضَى عَلَى مَلِكِهِمْ
بِقَوْلِهِمْ وَإِنْ كَانَ مُحَالِفًا فِي الدِّينِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ «أَشْهَدُ عَلَى مُصَالِحَتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .
وَرَبَّمَا طَلَبَ النَّائِبُ عَنِ الْمَلِكِ الْغَائِبِ إِحْضَارَ نُسْخَةِ مُهَادَنَةٍ مِنْ جِهَةِ مُسْتَبَدِّهِ
عَلَى مَا وَقَعَ بِهِ الْعَقْدُ ، مَشْهُولَةً بِخَطِّ الْكُتَّابِ ، مَشْهُودًا عَلَيْهِ فِيهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،
أَوْ يُجَهَّزُ إِلَيْهِ نَسْخَةٌ يَكْتُبُ عَلَيْهَا خَطَّهُ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهَا أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . وَالْغَالِبُ
الْأَكْتِفَاءُ بِالرُّسُلِ فِي ذَلِكَ .

(١) أى الإيمان الواقعة في عقود الصلح ، وإلا فالإيمان بأنواعها تقدمت في ج ١٣ .

الفصل الثاني

في صورة ما يُكتب في المهادنات والسجلات، ومذاهب
الكتاب في ذلك ، وفيه طرفان

الطرف الأول

(فيما يستبدد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم - ويُحَدِّد منه نُسخٌ بالأبواب
السلطانية ، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلى ملوك الكُفَر)
ثم ما يُكتب في ذلك على نمطين :

النمط الأول

(ما يُكتب في طَرَّةِ الهدنة من أعلى الدَّرَج)

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صلح » أو « هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ المبتدأ وهو « هذا » وأُكْتَفِيَ
بالخبر عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابُ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدُ مُصَالَحَةٍ »
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقد صلح أنشأها لينسج على منوالها ، وهي :

هذا عَقْدُ صلح انتظمت به عُقُودُ المصالح ، وأنتسقت بواسطته سُبُلُ المنافع ؛
وتَحَدَّثَ بِحُسْنِ مُقَدِّمَتِهِ الغَادِي وَتَرْتَمَ بِحُسْنِ نَتِيجَتِهِ الرَّائِحُ . عاقَدَ عليه السلطانُ فلانٌ
فلاناً القائمَ في عَقْدِ هذا الصِّلح عن مُرسِلِهِ فلانٍ ، حَسَبَ ما فَوَّضَ إليه الأمرُ في ذلك
في كِتَابِهِ الوَاصِلِ على يَدِهِ ، المؤرَّخَ بكذا وكذا ، المُعَنُّونَ بِعُنوانِهِ ، المُخْتومَ بِطابعِهِ

المُتَعَارِفِ عَنْهُ - عَلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذًا وَكَذَا . وَيُشْرَحُ مُلَخَّصٌ مَا يَقَعُ مِنَ الشَّرُوطِ
الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الْإِتِّفَاقُ بَيْنَهُمَا فِي الصُّلْحِ إِلَى آخِرِهَا ؛ ثُمَّ يُقَالُ : عَلَى مَا شُرِّحَ فِيهِ .

الْمَطْرُ الشَّانِي

(مَا يُكْتَبُ فِي مَتْنِ الْهُدْنَةِ ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ)

النَّوْعُ الْأَوَّلُ

(مَا تَكُونُ الْهُدْنَةُ فِيهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ)

بأن يكون المملكان متكافئين ، [فيتعاقدان إما عَلَى حِصْنٍ ^(١) وإما عَلَى مَالٍ يُعْطِيهِ
الْمَلِكُ الْمَعْقُودُ لَهُ الْهُدْنَةُ لِعَاقِبَتِهَا ، كَمَا كَانَ يُكْتَبُ عَنْ صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .
وَالْكِتَابُ فِيهِ مَذْهَبَانِ :

الْمَذْهَبُ الْأَوَّلُ

(أَنْ تُفْتَحَ الْهُدْنَةُ بِلَفْظٍ : « هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ »)

أَوْ « هَذِهِ هُدْنَةٌ أَوْ مُوَادَعَةٌ أَوْ مُوَاصَفَةٌ أَوْ سَلْمٌ أَوْ صُلْحٌ » أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ

عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الطَّرَةِ)

وَعَلَى ذَلِكَ كُتِبَ كِتَابُ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ عَامَ
الْحَدِيثِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَصْلٍ مُشْرُوعِيَّتِهَا .

وهذه نسخة هُدْنَةٍ كُتِبَ بِهَا عَنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ ، لِلْمَلِكِ مَضْعُوفٍ ، بِاشْتِرَاطِ مَالٍ
يَقُومُ بِهِ الْمَضْعُوفُ لِلْقَوِيِّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ حُصُونٍ يَسَلِّمُهَا لَهُ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَهِيَ :

هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ ، وَأَجَلَ إِلَيْهِ ، مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فَلَانٌ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَتَهُ
وَشَرَّفَ بِهِ زَمَانَهُ - الْمَلِكُ فَلَانًا الْفُلَانِيَّ . هَادَنَهُ حِينَ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ رُسُلُهُ ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتِبَ ، وَأُمِّلَهُ ، يُنْهَلَهُ ، وَسَّالَهُ ، لِيَكْفَ عَنْهُ أَسْلَهُ ، حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،
وَسَمَاءُ تَحْجَاجِهِ بِالْذَّمِّ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ، فَرَأَى - سَدَّدَ اللَّهُ آرَاءَهُ - أَنْ الصُّلْحَ أَصْلَحَ ،
وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْجَحَ ، وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكُ (وَيُسَمِّيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدَهُ
وَنَسْلِهِ ، وَجَمِيعَ بِلَادِهِ ، وَكُلَّ طَارِفِهِ وَتِلَادِهِ ، وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ
وَأَعْمَالٍ ، وَعَسْكَرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُمُوعٍ وَحُشُودٍ ، وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّارِي ،
وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّارِي - هَذِهِ مُدَّتُهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتْلُوها ، مَدَّةٌ
كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَحْمِلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانٌ إِلَى بَيْتِ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ قَسِيمٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ
كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمِمَّا يَتَكَفَّلُ بِجَبَايَتِهِ مِنْ حِزْبَةِ أَهْلِ بِلَادِهِ
وَنَخْرَاجِ أَعْمَالِهِ ، عَلَى أَقْسَاطِ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُحْجُجُ مَعَهُ إِلَى تَكْلِيفِ مُطَالَبَةٍ ،
وَلَا إِلَى تَنَاوُلِهِ بِيَدِ مُغَالَبَةٍ .

عَلَى أَنْ يَكْفَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنْهُ بَأْسَ بَأْسَائِهِ ، وَخَيْلَةَ الْمُطْلَقَةِ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ
وَمَسَائِهِ ، وَيَضُمُّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانِهِمْ
وَسِرَاعِهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَنَاحِمَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاجِمَةِ لِدَوَاقِفِ أَمْدَادِهِ ،
وَيُرَدِّ عَنْهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدِي النَّهْبِ ،
وَيَكْفُ الْغَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذْيَ ، وَيُرَدِّ مَنْ نَزَحَ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،
مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُقَرَّرُ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُعْتَادَتَيْنِ ،
وَيُؤَمَّنَ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَتُجَارَهُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ
الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصُلُ عَلَيْهِمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ، وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ
مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤْخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ
الْمُجْرِمِ . وَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسَلِّمٍ مُتَنَصِّرٍ، ولا يرخص لذي عَمَى منهم ولا مُتَبَصِّرٍ .

وأنه كلما وردت إليه كتب مولانا السلطان فلان أو كتب نوابه، أو أحد [من المتعلقين] ^(١) بأشباهه، يسارع إلى أمثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يهمله .

وعليه أن لا يكون عينا للكفار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعدت الدار، ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه [وأولهم التتار] ^(٢) وأن يلتزم ما يلزمه من المسكة بالمسكنة، ويفعل ما تسكت عنه به الأئمة وما أشبهها من الأئسنة . وعليه أن ينهى ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملته، وينبئه على سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيم سماءه من أحوال ما هم عليه .

هذه هدنة تم عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها، وقام بحقوقها، ووقف عند [حدّها الملتزم به] ^(٣)، وصرف إليها عنان اجتهد به وبني عليها قواعد وفائه، وصان من التكدير فيها سرائر صفائه، سأل هر في هذه الهدنة المقررة، وأجابه مولانا السلطان إليها على شروطها المحترمة، وشهد به الحضور بالملكيتين وتضمنته هذه الهدنة المسطرة، وبالله التوفيق .

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك الشامية، لمتلك سيس، فإن في خلال كلام المقر الشهابي بعد قوله: ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه: «وأولهم التتار»، وقد تقدم في الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) » » (ص ١٦٩) ومما يأتي قريبا .

(٣) بيض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن ممتلك سيس كان يمالئ التتار ويميل إليهم، ويساعدهم في حرب المسلمين ويكثر في سوادهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مهادنة الملك القوى له .

وهذه نسخة هدية من هذا النمط، كتب بها أبو إسحق الصابي، عن صمصام الدولة، بن عضد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديلمي، بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم، حين حيل بينه وبين بلاده، وأئتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط ألتزمها، وحُصون يُسلمها، على ما سيأتي ذكره، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة، وشمس الملة، أبي كاليبجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين؛ كتبه لوردس ابن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم .

إنك سألت بسفارة أختينا وعدتنا، وصاحب جيشنا (أبي حرب ربار بن شهر اكونيه) تأمل حالك في تطاول حبسك، واعتياقك عن مراجعة بلدك؛ وبذلت - متى أفرج عنك، وخلى طريقك، وأذن لك في الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولينا وليا، ولعدونا عدوا، ولسلمنا سلما، ولحربنا حربا : من جميع الناس كلهم، على اختلاف أحوالهم وأديانهم، وأجناسهم وأجيالهم، ومقارهم وأوطانهم؛ فلا تصالح لنا ضدّا مبينا، ولا تواطئ علينا عدوا محالفا؛ وأن تكف عن تطرق الثغور والأعمال التي في أيدينا وأيدي الداخلين في طاعتنا : فلا تجهز إليها جيشا، ولا تحاول لها غزوا؛ ولا تبدأ أهلها بمنازعه، ولا تشرع لهم في مقارعه، ولا تتناولهم بمكيده ظاهرة ولا باطنة، ولا تقابلهم بأذية جلية ولا خفية؛ ولا تطلق لأحد ممن

ينوبُ عنك في قيادة جيوشك ، ومن يُنسبُ إلى جُماعتك ، ويتصرفُ على إرادتك -
الاجترأ على شئٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كلها ؛ وأن تُفرجَ عن جميع
المسلمين وأهل ذمتهم الحاصلين في محاسن الروم ، ممن أحاطت بعنقه رِبقةُ الأسر ،
وأشتملت عليه قبضةُ الحَصْرِ والقَمَر ، في قديم الأيام وحديثها ، وبعيد الأوقات
وقريبها ؛ المقيمين على أديانهم ، والمختارين للعودِ إلى أوطانهم ؛ وتُهَضِّمَ بما
يُنْهَضُ به أمثالهم ، وتمكِّنهم من البروزِ والمسيرِ بنفوسهم وحرَمهم وأولادهم وعيالاتهم
وأتباعهم ، وأصنافِ أموالهم ؛ موفورين مضمونين ، متبذرين محروسين ، غير
ممنوعين ، ولا مَعوقين ، ولا مُطالبين بمئونةٍ ولا كلفةٍ صغيرةٍ ولا كبيرة .

وأن تُسلمَ تَمَّةَ سبعةٍ من الحصون ، وهى : حصن أرحكاه المعروف بحصن
الهندرس ، وحصن السنانة ، وحصن حويب ، وحصن اكل ، وحصن انديب ،
وحصن حالى ، وحصن تل حرم ، برسائيقها ومزارعها إلى من نكاتبك بتسليمها إليه ،
مع من بها من طبقات أهلها أجمعين ، المختارين لسكناها والاستقرار فيها ، بحرَمهم
وأولادهم وأسبائهم ومواسيهم وأصنافِ أموالهم وغلاتهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم ،
ليكونَ جميعها حاصلاً فى أيدينا وأيدى المسلمين ، على غابر الأيام والسنين ؛ من غير
أن تلمسَ عنها أو عن شئٍ منها مالا ، ولا بدلاً ، ولا عوضاً من الأعواض كلها .

وعلى أنك تُمنحنى ما عقدته على نفسك من ذلك كله باباً باباً ، وتغنى به أولاً أولاً ،
مُنذ وقت وُصولك إلى أوائل أعمالك ، وإلى غايةِ استيلائك عليها ، ونفاذِ أمرِكَ
فيها ؛ ولا ترجعَ عن ذلك ولا عن بعضه ، ولا تُؤخِّر شيئاً منه عن الوقت الذى تقدر
فيه عليه ، ولا تُرخصَ لنفسك فى تجاوزِ له ولا عدولٍ عنه . ومتى سعت طائفةٌ من
الطوائف التى تُنسبُ إلى الروم والأرمن وغيرهم فى أمرٍ يخالفُ شرائطَ هذا الكتاب ،

كَانَ عَلَيْكَ مَنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْقَبُولِ مِنْكَ ، أَوْ مُجَاهِدَتَهُمْ
وَمُمانَعَتَهُمْ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْعُنُودِ عَنْكَ ، وَالْخِلَافِ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَصْرِفَهُمْ عَمَّا يَرُومُونَهُ ،
وَتَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يُحَاوِلُونَهُ ، بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ ، وَتَوْفِيقِهِ وَعَوْنِهِ .

وَأَشْرَطْتَ عَلَيْنَا بَعْدَ الَّذِي شَرَطْتَهُ لَنَا مِنْ ذَلِكَ التَّخْلِيَةَ عَنْ طَرِيقِكَ وَطَرِيقِ مَنْ
تَضَمَّنْتَهُ بِجُمْلَتِكَ ، وَأَشْتَمَلْتَ عَلَيْهِ رُفْقَتِكَ : مِنْ طَبَقَاتِ الْأَصْحَابِ وَالْأَتْبَاعِ ، فِي جَمِيعِ
أَعْمَالِنَا حَتَّى تَفْضَدَ عَنْهَا إِلَى مَا وَرَاءَهَا ، غَيْرَ مُعَوِّقٍ ، وَلَا مُعْتَقِلٍ ، وَلَا مُؤَذِّى ،
وَلَا مُعَارِضٍ ، وَلَا مُطَالِبٍ بِمُثُونَةٍ وَلَا كُفْلَةٍ ، وَلَا مُمْنُوعٍ مِنْ آيْتِاجِ زَادٍ وَلَا آلَةٍ ،
وَلَا تُؤْثِرُ عَلَيْكَ أَحَدًا نَاوَأَكَ فِي أَعْمَالِكَ ، وَنَازَعَكَ سُلْطَانَ بِلَادِكَ ، وَدَافَعَكَ عَنْهُ
وَنَاصَبَكَ الْعَدَاوَةَ فِيهِ : مَن يَنْتَسِبُ إِلَى الرُّومِ وَالْأَرَمَنِ وَالْخَزَرِيَّةِ وَسَائِرِ الْأُمَمِ الْمُضَادَّةِ
لَكَ ، وَلَا يُوقِعُ مَعَهُ صُلْحًا عَلَيْكَ ، وَلَا مُوَافَقَةً عَلَى مَا يَعُودُ بِثَلَمِكَ أَوْ قَدْحٍ فِي أَمْرِكَ ،
وَلَا يَقْبَلُ سُؤَالَ سَائِلٍ ، وَلَا بَذْلَ بَاذِلٍ ، وَلَا رِسَالَةَ مُرَاسِلٍ فِيهَا خَالَفَ شَرَائِطَ هَذَا
الْكِتَابِ أَوْ عَادَ بِإِعْلَالِهِ ، أَوْ إِعْلَالِ وَثِيقَةٍ مِنْ وَثَائِقِهِ .

وَمَتَى وَقَدْ إِلَيْنَا رَسُولٌ مِنْ جِهَةٍ أَحَدٍ مِنْ أَضْدَادِكَ ، رَاغِبًا إِلَيْنَا فِي شَيْءٍ يُخَالِفُ
مَا أَعْقَدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ - أَمْتَنَعْنَا مِنْ إِجَابَتِهِ إِلَى مُلْتَمَسِهِ ، وَرَدَدْنَاهُ خَائِبًا خَالِيًا مِنْ
طَلِبَتِهِ . وَإِذَا سَلِمَتِ الْحُصُونُ الْمَقْدَمَ ذَكَرْهَا إِلَى مَنْ نَكَاتِبُكَ بِالتَّسْلِيمِ إِلَيْهِ ، كَانَ لَكَ
عَلَيْنَا أَنْ نُقَرَّ مَنْ فِيهَا وَفِي رِسَالَتَيْهَا عَلَى نِعَمِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وَضِيَاعِهِمْ وَأَمْلَاكِهِمْ ،
وَأَنْ لَا تُزِيلَهُمْ عَنْهَا وَلَا عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا تَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا تَحْوِيهِ أَيْدِيهِمْ مِنْ جَمِيعِ
أَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْ تُجَرِّيَهُمْ فِي الْمَعَامِلَاتِ وَالْجَبَايَاتِ عَلَى رُسُومِهِمُ الْجَارِيَةِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي
عُومِلُوا عَلَيْهَا ، عَلَى مَرِّ السِّنِينَ ، وَإِلَى الْوَقْتِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ التَّسْلِيمُ ، مِنْ غَيْرِ فُسْخٍ
وَلَا تَنْبِيرٍ وَلَا تَقْضٍ وَلَا تَبْدِيلٍ .

فأنهينا إلى مولانا أمير المؤمنين الطائِع لله مَسَّالَتْ وَآتَمَسَتْ ، وَصَمِنَتْ وَشَرَطَتْ
وَأَشْرَطَتْ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَسْتَأْذَنَاهُ فِي قَبُولِهِ مِنْكَ ، وَإِقْبَاجِ الْمُعَاهَدَةِ عَلَيْهِ مَعَكَ ،
فَإِنَّ - أَدَامَ اللَّهُ تَمَكِّنَهُ - لَنَا فِيهِ ، وَأَمَرْنَا بِأَنْ تُحْكِمَهُ وَنُضَيِّهِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ أَنْتِظَامِ
الْأُمُورِ ، وَحَيَاطَةِ الثُّغُورِ ، وَصَلَاحِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالتَّنْفِيسِ عَنِ الْمَأْسُورِينَ .

فَأَمَضِينَاهُ عَلَى شَرَائِطِهِ ، وَتَرَاضَيْنَا جَمِيعًا بِهِ ، وَعَاقَدْنَاكَ عَلَيْهِ ، وَحَلَفْتَ لَنَا بِالْإِيمَنِ الْمُؤَكَّدَةِ
الَّتِي يَحْلِفُ أَهْلُ شَرِيعَتِكَ بِهَا ، وَيَتَخَرَّجُونَ مِنَ الْحَنْثِ فِيهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ ، وَأَشْهَدْنَا عَلَى
نَفْسِنَا ، وَأَشْهَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ اللَّهُ جَلَّ شَأْؤُهُ ، وَمَلَائِكَتِهِ الْمُقَرَّرِينَ ، وَأَنْبِيََاءَهُ الْمُرْسَلِينَ ،
وَأَخَانَا وَعُدَّتَنَا أَبَا حَرْبٍ رِبَارِ بْنِ شَهْرٍ كَوَيْهِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ حَضَرَ الْمَجْلِسَ
الَّذِي جَرَى فِيهِ ذَلِكَ ، بِاسْتِقْرَارِ جَمِيعِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلَزُومِهِ لَنَا وَلَكَ .

ثم حضر بعد تمام هذه الموافقة واستمرارها ، وثبوتها واستقرارها ، قُسْطَنْطِينُ
ابْنُ بَيْنِيرٍ أَخُو وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ ، وَأَرْمَانُوسُ بْنُ وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ ، فَوْقًا عَلَى هَذَا
الْكِتَابِ ، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْمًا ، وَأَسْتَوْعَبَهُ مَعْرِفَةً ، وَشَهِدَا عَلَى وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرٍ مَلِكِ الرُّومِ
بِإِقْرَارِهِ بِهِ ، وَالْتِزَامِهِ إِيَّاهُ . ثُمَّ تَبَرَّعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَنْ أُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ أَلْتِمَسَكَ
بِهِ وَالْمَقَامَ عَلَيْهِ مَتَى قَامَ وَرْدَسُ بْنُ بَيْنِيرٍ فِيمَا هُوَ مَوْسُومٌ بِهِ مِنْ مَلِكِ الرُّومِ ، وَجَعَلَ
جَمِيعَ الشَّرَاطِ الثَّابِتَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمَعْقُودِ بَعْضُهَا بِبَعْضِ أَمَانَةٍ فِي ذِمَّتِهِ ، وَطَوَقًا
فِي عُنُقِهِ ، وَعَهْدًا يُسْأَلُ عَنْهُ ، وَحَقًّا يُطَالَبُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِهِ ، وَصَارَ هَذَا الْعَقْدُ
جَامِعًا لَهُمْ وَلَنَا ، وَلِأَوْلَادِنَا وَأَوْلَادِهِمْ ، وَعَقَبِينَا وَعَقَبِهِمْ ، مَاعِشْنَا وَعَاشُوا ، يَلْزِمُنَا
وَلِيَأْتَهُمُ الْوَفَاءُ بِمَا فِيهِ عَلَيْنَا وَعَالِيهِمْ ، وَلَنَا وَلَهُمْ ، عَلَى مُرُورِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَاخْتِلَافِ
الْأَدْوَارِ وَالْأَعْوَامِ .

أَمْضَى وَأَنْفَذَ صَمَضَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِيجَارِ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى شَرَائِطِهِ
وَحُدُودِهِ ، وَالْتَزَمَهُ وَرْدَسُ بْنُ بَيْنِيرٍ الْمَعْرُوفُ بِسَفْلَارُوسَ مَلِكِ الرُّومِ ، وَأَخُوهُ

قُسْطَنْطِينُ ، وابنه أَرْمَانُوسُ بن وردس بن بينير ، وَصَّيْنُوا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَأَتَمَّهَدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِمْ بِالرِّضَا بِهِ ، طَائِعِينَ غَيْرِ مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، لَا عِلَّةَ بِهِمْ مِنْ مَرِيضٍ وَلَا غَيْرِهِ ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، وَفَسَّرَهُ لَهُمْ وَخَاطَبَهُمْ بِاللُّغَةِ الرُّومِيَّةِ مِنْ وَثِيقٍ بِهِ ، وَفَهَّمُوا عَنْهُ ، وَفَقَّهُوا مَعْنَى لَفْظِهِ ، وَأَحَاطُوا عِلْمًا وَمَعْرِفَةً بِهِ ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَوا نَفْسَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ ، وَتَمَكَّدُوا مِنْ إِيْثَارِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّ فِي ذَلِكَ حَظًّا لَهُمْ ، وَصَلَاحًا لِسَانِهِمْ ، وَذَلِكَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِينَ .

وَقَدْ كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى ثَلَاثِ نُسخٍ مُتَسَاوِيَاتٍ ، خُلِّدَتْ اثْنَتَانِ مِنْهَا بِدَوَاوِينَ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَسَلِمَتْ الثَّلَاثَةُ إِلَى وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرِ مَلِكِ الرُّومِ وَأَخِيهِ وَابْنِهِ الْمَذْكُورَيْنِ مَعَهُ فِيهِ .



وهذه نُسخة هُدِيَتْ مِنْ مَلِكٍ مُضْعُوفٍ لِمَلِكٍ قَوِيٍّ ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ^(١) ابْنُ أَحَدُ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ ، عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ أَتْبَاعِ « الْمَهْدِيِّ بْنِ تُوْمَرْتِ » الْقَائِمِ بِدَعْوَةِ الْمُوحِدِينَ ، مَعَ « دُونِ فَرَانْدَةِ » صَاحِبِ قَشْتَالَةَ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ بِعَقْدِ الصُّلْحِ عَلَى مُرْسِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ :

هَذَا عَقْدُنَا بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِشْرَاحِهِ ، وَاسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِنْجَادِهِ ؛ نِيَابَةً عَنِ الْإِمَارَةِ الْعَلِيَّةِ بِحُكْمِ اسْتِنَادَانَا إِلَى أَوَامِرِهَا الْعَالِيَةِ ، وَآرَائِهَا الْهَادِيَةِ . عَقْدْنَاهُ - وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ - لِقَشْتَالَةَ مَعَ فَلَانِ النَّائِبِ فِي عَقْدِهِ مَعَنَا عَنْ مُرْسَلِهِ إِلَيْنَا ، الْمَلِكِ الْأَجَلِّ الْأَسْنَى الْمُبْجَلِ « دُونِ فَرَانْدَةِ » مَلِكِ قَشْتَالَةَ ، وَطَلِيطَةَ ، وَقُرْطُبَةَ ، وَلِيُونَ ، وَبَلَنْسِيَّةِ - أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَمِيزَتَهُ بِتَقْوَاهُ - حِينَ وَصَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مَخْتُومٌ بِطَابِعِهِ الْمَعْلُومِ لَهُ الْمُتَعَارِفِ عَنْهُ ، تَفْوِيضًا مِنْهُ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ مَا يُعَقَّدُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَعَاقِدُنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ

السَّلمَ بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكورِ لعامَيْنِ أَثنين ، أولهما شَهْرُ الْحَرَمِ الذى هو أوَّلُ سَنَةِ تاريخِ هذا الْكِتَابِ ، الموافقُ من الْأَشْهُرِ الْعَجَمِيَّةِ شَهْرَ كَذَا ، على جميعِ ما تَحْتِ نَظَرِنَا الْآنَ من البلادِ الرَّاجِعَةِ إلى الدَّعْوَةِ الْمَهْدِيَّةِ - أَسْمَاهَا اللهُ تَعَالَى - حَوَاضِرَهَا وَتُغَوِّزَهَا ، مَوَاسِطِهَا وَأَطْرَافِهَا ، من جزيرةِ شَقَرٍ إلى بَيْعَةِ الْمَنْصُورَةِ وما يليها - حرسِ اللهِ جَمِيعَهَا - سِلْمًا مُحَافَظًا عَلَيْهَا من الْجَهْتَيْنِ ، مُحْفُوظًا عَهْدُهَا عِنْدَ أَهْلِ الْمِلَّتَيْنِ ؛ لَا غَدْرَ فِيهَا ، وَلَا إِخْلَالَ فِي مَعْنَى من معانيها ؛ وَلَا تُشْنُ فِي مُدْنِهَا غَارَهُ ، وَلَا تُدْعَرُ سَسِيَّارُهُ ، وَمَهْمَا وَقَعَ اغْوَارُ ، أَوْ حَدَثَ اقْدَارُ ، على جِهَةِ الْمَجَاهِرَةِ ، إِذَا اتَّصَلَتْ وَالْمُسَاوَرَةِ ؛ فَإِنْ كَانَ من جِهَةِ النَّصَارَى ، فعلى مَلِكِ قَشْتَالَةِ تَسْرِيجِ الْأَسَارَى ، وَرَدُّ الْغَنَائِمِ وَالنَّهْبِ ، وَالْإِنْصَافِ من الْغَنِيْمَةِ إِنْ عُدِمَتِ الْعَيْنُ ، وَأَعُوْزَ الطَّلَبِ . وَعَلَيْنَا مِثْلُ ذَلِكَ سَوَاءً ، لِيَقَابَلَ بِالْوَفَاءِ ، هَذَا بَعْدَ أَنْ يُتَّبَعَ الْأَمْرُ وَيُعْلَمَ من أَيْنَ كَانَ .

ومن هذه الْمَهَادَنَةِ أَنْ لَا يُتَسَبَّبَ إِلَى الْحُصُونِ بِالْغَدْرِ وَلَا بِالشَّرِّ ، وَلَا يَتَجَاوَزَ النَّصَارَى حُدُودَ بِلَادِهِمْ وَأَرْضِهِمْ بَشْيَءٍ من الْبِنَاءِ ، وَلَا يَصِلَ من بَلَدٍ قَشْتَالَةَ مَدَدِّ لُحَاظِنَا ، وَلَا مَعُونَةَ لُفَاتِنَا . وكل ما يَرْجِعُ إِلَى هذه الدَّعْوَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي الطَّاعَةِ من البلادِ بَعْدَ هَذَا الْعَقْدِ فِدَاخِلُ فِي السَّلمِ ، بِزِيَادَةِ نِسْبَتِهِ من الْمَالِ الَّذِي هُوَ شَرْطُ فِي صِحَّةِ هَذَا الْحُكْمِ . وَإِذَا بَقِيَ من مُدَّةِ هَذِهِ الْمُسَالَمَةِ شَهْرَانِ أَثْنَانِ ، فعلى مَلِكِ قَشْتَالَةِ أَنْ يُعْلِمَنَا بِغَرَضِهِ فِي الْمَهَادَنَةِ أَوْ سِوَاهَا ، إِعْلَامًا من مَذَابِ الْوَفَاءِ أَوْ نَاقِضِهَا .

وقد أَلْتَزَمَ رَسُولُ الْمَذْكُورِ لَنَا هَذِهِ الشَّرُوطَ ، وَأَحْكَمَ مَعَنَا - نِيَابَةً عَنْهُ فِيهَا - الْعُقُودَ وَالرُّبُوطَ ؛ عَلَى كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَالتَزَمْنَا فِي هَذَا السَّلمِ الْمَلِكِ قَشْتَالَةَ الْمَذْكُورَةِ - مِكَافَأَةً عَنْ وِفَاءِ عَهْدِهِ ، وَصِحَّةِ عَقْدِهِ - مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي كُلِّ عَامٍ من عَامِي هَذَا الصَّلَاحِ الْمَقْدَمِ الْوَصْفِ ، مَقْسَمًا ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْنَانٍ

في العام، ليتقاضاها ثِقَاتُهُ، وَيُوفَّى نَعْمَتُهَا عَلَى التَّمَامِ وَالْكَامِلِ، قَبَضَ مِنْهَا كَذَا لِيُوصِّلَهَا إِلَى مُرْسَلِهِ، وَالتَّرِيمَ لَهُ تَخْلِيصُ بَاقِي كَذَا عِنْدَ آتِقِضَاءِ كَذَا عَلَى أَوْفَى وَجْهِهِ وَأَتَمِّجِهِ؛ فَإِنْ وَفَّى لَهُ بِذَلِكَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا الْمُؤَقَّتَةَ، فَالسَّلَامُ بِأَقِيَّةٍ وَحُكْمُهَا ثَابِتٌ، وَإِلَّا فَالسَّلَامُ مَفْسُوخَةٌ وَلَا حُكْمَ لَهَا إِنْ عَجَزَ عَنِ الْوَفَاءِ لَهُ، بِحَصُولِ مَا بَقِيَ مِنَ الشُّرُوطِ فِي أَسْتِصْحَابِ الْحُكْمِ وَاتِّصَالِ الْعَمَلِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَعَلَى مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ أَمْضَى فَلَانٌ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - بِحُكْمِ النِّيَابَةِ، عَنِ الْأَمْرِ الْعَالِي - أَسْمَاهُ اللَّهُ - هَذَا الْعَقْدُ الصُّلَحِيُّ، وَأَشْهَدُ بِمَا فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَضْرَةِ الْمَفْصَلِ طُورِ (?) الْمَذْكُورِ، فَتَرْجِمَ لَهُ الْكِتَابُ وَبَيَّنَتْ لَهُ مَعَانِيَهُ، وَقَرَّرَ عَلَى مَضَامِينِهِ، فَالْتَزَمَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنِ مُرْسَلِهِ مَلِكٍ قَشْتَالَةَ حَسَبَ مَا فُوضَ إِلَيْهِ فِيهِ؛ وَأَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، فِي صِحَّتِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ فِي كَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِمَا يَرْضَاهُ، وَمُقَدِّمُ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ فِيمَا قَضَاهُ، بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامُ.

المذهب الثاني

(أَنْ تُفْتَحَ الْمُهَادَنَةُ قَبْلَ لَفْظِ «هَذَا» بِنَعْدِيَّةٍ)

وهذه نُسْخَةُ هُدْنَةٍ بَيْنَ مَلَائِكَيْنِ مُتَكَافِئَيْنِ دُونَ تَقْرِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ الْمَحْدِّثُ أَبُو الرَّبِيعِ بْنُ سَالِمٍ مِنْ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ، فِي عَقْدٍ صُلَحَ عَلَى بَلَنْسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ، وَهِيَ:

وَبَعْدُ، فَهَذَا كِتَابُ مُوَادَعَةٍ أَمْضَى عَقْدُهَا وَالتَّرَمَهُ، وَأُبْرِمَ عَهْدُهَا وَتَمَمَهُ؛ فَلَانٌ لِلدِّارِ أَرْغُونُ، وَقَوْمُطَ بَرْجَلُونَةُ، وَيَرْسَبُ مَقْتُ بَشْلَى، حَافِظَةُ (?) بِنَاطُورَةَ، بِنَ أَدْفُونَشَ، ابْنُ رِيْمُونْدَ، أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ لَهُ خَاتَمًا وَعِنَاوَانًا، الْمَعْهُودُ صَدُورُهُ فِي أَمْثَالِهَا مِنَ الْمَرَاوِضَاتِ الصُّلَحِيَّةِ تَضَرُّعًا وَإِعْلَانًا؛ مُتَضَمِّنًا مِنَ الْإِحَالَةِ فِي عَقْدِ الْمُسَالَمَةِ

عليه ، والتفويض في إبرام أسبائها والتزام فصولها وأبوابها إليه ؛ ما أوجب صحیح النظر ، وصريح الرأي المعتبر ؛ مقارنة فيه ، وموافقة منه على ما يحفظ حق المسلمين ويؤقيه ، جنوحاً منه إلى ما جئح إليه من ذلك مقتاضيه ، وتحرياً للعمل على شاكلة الصواب والإيثار لما يقتضيه ، بعد محاولات بلغ منها النظر غايته من الاجتهاد ، وإراغات قرن بها من استخارة الله تعالى واستنجاده ما رضى فيه من فضله العيم معهود التسديد والإيجاد ؛ فأجلى ذلك عن إمضاء عهد السلم ملك أرغون على بلنسية وكافة جهاتها أطرافاً ومواسط ، وتغوراً وبسائط ؛ وكذلك شاطبة ودانيه ، وما ينتظم معهما من أخوازهما ويرجع إلى حكم بلنسية وحالها من الجهة النائية والدانيه ؛ لمدة عامين اثنين ، شمسين متصلين ، وأيام متصلة بهما كذلك . وهذا يحصر أمره ، ويحقق عدده ؛ أن نفتحه بيوم الأحد الرابع والعشرين لشهر نوبر ، الموافق لعاشير ذى القعدة المؤرخ به هذا الكتاب ، الذى هو من عام أحد وعشرين وسمائة بتاريخ الهجرة - مسالمة تضع بها الحرب بين الجانبين أوزارها ، وتهدد للهدنة بين الطائفتين آثارها ، وترفع اللبنة (؟) عن ذكر من الملتين أذيتها وأضرارها ؛ البر والبحر فى ذلك سيان ، والمسايرة فيها بالأذى والمجاهرة ممنودان ، وحقيقة اللازم من ذلك غنى بليانه ووضوحه عن الإيضاح والتبيان ؛ لا التباس ولا إشكال ، ولا غائلة ولا احتيال ؛ ليس إلا الأمن الكافل لكافة من تستمل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين ، ومن تحويه بلاد ملك أرغون من الطوائف أجمعين . وكل منتم إلى خدمة هذه المملكة الأرغونية بما كان من وجوه الأتماء ، أو ناظر في جزء منها كائناً ما كان من الأجزاء ؛ فهو في هذا الحكم داخل ، وتحت هذا الرنط الصلحي واصل ؛ ولا حجة لمن كان له منهم حصن ينفرد به عن هذه المملكة ، على ما لهم في ذلك من العوائد المتعارفة . فإن نقض بجزء منه وذهب إلى أن يكون في حصنه منفرداً فهو

وما آختر، إذا تنكَّب الإضرار، فإن رام التطرُّق بشيء إلى أحد الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أرغون التطافر على استنزاله، والتظاهر على قتاله، حتى يكفوا ضرره، ويعفوا أثره.

والحدود الفاصلة بين الجزأين هي أوساط المسافات، على ما عرِف من مُتقدِّم المسلمات؛ ويدَّكُلُ فَرِيقٌ منهم مُطلقةً فيما وراءَ حدِّه بما شاء، من إنشاء برسم الإصلاح والانشاء؛ وكلٌّ من قصد المسلمين من رجال المملكة الأرغونية بريئاً من تبعَةِ الفساد فقبُولُ قصِّده مُباح، وليس في استخدايمه والإحسان إليه جُنَاح، والطريق للتجار المعهود وُصُولُهُمْ من بلاد أرغون إلى بلنسية في البرِّ والبحر مباحة الأتْيَاب، مُحَنُوفَةٌ بالأمانة التامة في الحيثية والذهاب؛ وعلى تجار البحر منهم أن يتجنَّبوا رُكُوبَ الأجناف الحرِّيَّة التي يُمكنُ بها الإضرار، ويستغنى عن (١) التجار؛ والاسترهابُ مرفوعٌ عن هؤلاء الواصلين برسم التجارة على اختلافهم، وتبائين أصنافهم؛ فيما لم تجنِّهِ أيديهم، ولا كان منسوباً إلى تعديهم؛ وكلُّ مُعتَقِلٍ من الطائفتين بأذنٍ شيءٍ يطرق إلى حُكْمِ هذه السِّلْمِ خلافاً، أو يُلْحِقُ بعهدِها إخلالاً؛ فعلى أهلِ موضعه الإنصافُ ممن جنَّاه، وصرفُ ماسلَبته يَدَاهُ، وإحضاره مع ذلك ليعاقبَ بما أتاه. وليس لأحدٍ من الطائفتين أن يتسبَّبَ بأسرٍ سأل، إلى الإنصاف من جنائية حال؛ بل يقومُ بدفع ذلك حيثُ يحب، ويطلبه في الموضع الذي ينبغي فيه الطلب؛ حتى يخاطبَ الناظرُ على المملكة التي تُسبِتُ إليها هذه الإذايه، وصدرت عن أهلها [تلك] الحنايه؛ بطلبِ الإنصافِ من عدوانها، وتعادُ عليه الأعذارُ في شأنها؛ وعليه - ولا بُدَّ - التخليصُ منها عملاً بالوفاء الذي يجبُ العملُ به، وقياماً بحقِّ العهد الذي أُكِّدَ الاعتلاقُ بسببه؛ ومتى غادر مغادرٌ من أحدِ الملتين حصناً من حصون

(١) بياض بالأصول ولعله « عن ركوها ».

الأخرى فله الأمان على الكمال، والرغى الحافظ للنفس والمال؛ حتى يلحق بأمانه، ويعود سائلاً إلى وطنه.

فعلى هذه الشروط المحققة، والربوط الموثقة، انعقد هذا السلم، وعلى من ذكر من المسلمين وأهل أرغون الحكم؛ وهذا الكتاب ينطق في ذلك بالحق اللازم للطائفتين، ويعرب عن حقيقة ما انعقد بين من سمي من أهل الملتين؛ وألزم كله عن ملك أرغون النائب عنه بتقويضه إليه، واستنابته إياه عليه؛ الزعيم بطره ابن فدايف بكدريش (?) على أتم وجوه الالتزام، وأبرم ذلك ملك أرغون بأوثق علائق الإبرام، وكل ذلك بعد أن بينت له الفصول المتقدمة غاية التبيين وأفهمها حق الإفهام؛ وألزم نفسه مع ذلك ووصول كتاب هذا الملك الذى تولى النيابة عنه فى هذا العقد، مصرحاً بالترامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمنه كتابه الذى أرسله، وأشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه، تحقيقاً لمناه، وتوثيقاً لمبناه، إن شاء الله تعالى.

النوع الثانى

(من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر - أن تكون الهدنة

من الجانبين جميعاً)

وفى الكتاب ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول

(أن تفتح الهدنة بلفظ : « هذه هدنة » ونحو ذلك)

قال فى "التعريف" : وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد البسملة : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجل له أجلاً ينتهى إليه؛ لما أقتضته المصلحة الجامعة، وحسنت به مواد

الآمال الطامعه ؛ تأكدت بينهما أسبابها ، وفُتحت بهما أبوابها ، وعليهما عهد الله على الوفاء بشرطها ، والآنهاء إلى أمدها ، ومدّ حبيل للموادة إلى آخر مددها ؛ ضربا لها أجلا أوله ساعة تاريخه وإلى نهاية المدة ، وهي مدة كذا وكذا ؛ على أن كل واحد منهما يُعْمَدُ بينه وبين صاحبه سيف الحرب ، ويكف ما بينهما من السهام الراشقة ، وتُعَقَّل الرماح الخطارة ، وتُقرَّ على مرابطها الخيل المغيرة ، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ، وما في بلاد كل منهما من الثغور والأطراف والموانئ والرساتيق والجهات والأعمال : برا وبحرا ، ومهلا وجبلا ، ونائيا ودائيا ، ومن فيها : من ممالكها المسمّى وبنيه ، وأهله وأمواله ، وجنوده وعساكره ، وخاص من يتعلّق به وسائره ؛ ورداياه على اختلاف أنواعهم ، وعلى أنفرادهم واجتماعهم ؛ البادية والحاضر ، والمقيم والسائر ، والتجار والسفارة ، وجميع المترددين من [سائر] الناس أجمعين . على أن يكون على فلان كذا و [على فلان] كذا [ويعين ما يعين] ^(١) : من مال ، أو بلاد ، أو مساعدة في حرب ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهض من حقه المقرر بواجبه ؛ وعليهما الوفاء المؤكّد الموثيق ، والمحافظة على العهد والتمسك بسببه الوثيق - هدنة صحيحة صريحة ، نطقا بها ، وتصادقا عليهما ، وعلى ما تضمّنته المواصفة [المستوعبة بينهما فيها ، وأشهدا الله عليهما بضمونها ، وتوثاقا على ديونها ، وشهد من حضر مقام كل منهما على هذه الهدنة وما تضمّنته من المواصفة] ^(١) ، وجرّت بينهما على حكم المناصفة ، رأيا فيها سُكون الجاح ، وخصّ طرف الطّاح .

وعلى أن على كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعية ، وحملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعيّة ؛ ومن نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أعيد ، وما أخذ منها باليد الغاصبة استُعيد ؛ وبهذا تمّ الإشهاد ، وقرئ على المسامع على رؤوس الأئمة .

المذهب الثاني

(أن تُفتَحِ الْهُدْنَةُ : بلفظ : « أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ »)

ويقدم فيه ذِكرُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ)

وعلى ذلك كانت الْهُدْنُ تُكتبُ بين ملوك الديار المصرية ، وبين ملوك الفرنج ، المتغلبين على بعض البلاد الشامية .

وهذه نسخة هُدْنَةٍ على هذا النمط : دون تقرير من الجانبين ؛ كُتِبَتْ بين الملك الظاهر « بيبرس البندقدارى » صاحب الديار المصرية ، وبين الاستيثار^(١) بحضن الأكراد والمرقب ، فى رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وستمائة ، وهى :

أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمَيْمُونَةُ بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أنى الفتح « بيبرس » الصالحى النجمي ، وبين المقدم الكبير الهام فلان مقدم بيت الاستيثار الفلاني بعكا ، والبلاد الساحلية ، وبين فلان مقدم حضن الأكراد ، وبين فلان مقدم حضن المرقب ، وجميع الإخوة الاستيثار ، لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة ألف وثمانمائة وتسعة وسبعين سنة

للاِسْكَنْدَر بن فيلبس اليوناني - على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة المباركة ، واقع عليها الاتفاق المبارك ، ومُسْتَقَرَّةٌ لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة ، وبلادها الموصوفة ، وقراها وضياعها ، وسبلها وجبلها ، وعامريها وغامريها ، ومزروعها ومعطائها ، وطرقاتها ومياهاها ، وقلاعها

(١) الاستيثار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاستيثارية .

(٢) بياض بالأصول .

وحُصُونِهَا - عَلَى مَا يُفَصِّلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُشْرَحُ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلدَّهَةِ الْعَيْنَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وعلى أن المستقرَّ بِمَمْلَكَةِ حِمَصَ المحروسة أن جميع المَوَاضِعِ والقُرَى والأراضي التي من نَهْرِ الْعَاصِي، وتغرب إلى الحدِّ المعروف من الغَرْبِ لبلدِ المُنَاصِفَاتِ : عامٍ أو دَائِرًا، وبما فيها من الغَلَّاتِ صَيفِيَا وَشَتَوِيَا، والعداد وغيرِها من الفوائد جميعها - تقرر أن يكون النِّصْفُ من ذلك للسلطانِ المَلِكِ الظاهرِ رُكْنِ الدُّنْيَا والدين أبي الفتح «بيبرس»، والنِّصْفُ لِبَيْتِ الْإِسْتِار .

وعلى أن كلاً من الجهتين يَتَّهِدُ ويَحْرِصُ في عمارة بَلَدِ المُنَاصِفَاتِ المذكورة بِمُجْهِدِهِ وطَاقَتِهِ، ومَن دخل إليها من الفلاحين بدَوَابٍّ، أو من التُّركِمان، أو من العَرَبِ، أو من الأكراد، أو من غيرهم، أو القُنَاة - كان عليهم العِدَادُ بِكَارِي الْعَادَةِ . ويكون النِّصْفُ للسلطانِ، والنِّصْفُ لِبَيْتِ الْإِسْتِار .

وعلى أن المَلِكِ الظاهرِ ينجي بَلَدَ المُنَاصِفَاتِ الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهَا من جميع عَسْكَرِهِ وَأَتْبَاعِهِ، ومَن هو في حُكْمِهِ وطَاعَتِهِ، ومن جميع المسلمين الدَّاخِلِينَ فِي طَاعَتِهِ كَافَّةً . وكذلك مُقَدَّمُ بَيْتِ الْإِسْتِارِ وَأَصْحَابُهُ يَحْمُونَ بِلَادَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ .

وعلى أن جميع من يتعدى نَهْرَ الْعَاصِي مُغَرَّبًا لِرُغْيِ دَوَابِّهِ : سواءً أَقَامَ أَوْ لَمْ يَقُمْ، كان عليه العِدَادُ سِوَى قُنَاةِ الْبَلَدِ ودَوَابِّهِ، ومن يخرجُ من مَدِينَةِ حِمَصَ ويعودُ إليها، ومن غَرَّبَ مِنْهُمْ ومَاتَ كان عليه العِدَادُ .

وعلى أن يكون أَمْرُ فَلَاحِي بَلَدِ المُنَاصِفَاتِ فِي الْحَبْسِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْحَبَايَةِ رَاجِعًا إِلَى نَائِبِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ، بِاتِّفَاقٍ مِنْ نَائِبِ بَيْتِ الْإِسْتِارِ، على أن يحكم فيه بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ مُسْلِمًا، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا يحكم فيه بِمُقْتَضَى دَوْلَةِ حِمَصَ الْأَكْرَادِ .

وَأَنْ يَكُونَ الْفَلَاحُونَ السَّاكِنُونَ فِي بِلَادِ الْمَنَاصِفَاتِ جَمِيعَهَا مُطْلَقِينَ مِنَ السَّخَرِ مِنَ الْجَانِبِينَ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ لَا يَأْخُذَ فِي بَلَدِ الْمَنَاصِفَاتِ الْمَذْكُورَةِ : مِنْ تَرْكَانٍ وَلَا عَرَبٍ وَلَا أَكْرَادٍ وَلَا غَيْرِهِمْ عِدَادًا وَلَا حَقًّا مِنْ حَقُوقِ بَلَدِ الْمَنَاصِفَاتِ ، إِلَّا وَيَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، وَالنِّصْفُ الْآخَرُ لِبَيْتِ الْأَسْتَبَارِ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ لَا يَتَقَدَّمُ بِمَنْعِ أَحَدٍ مِنَ الْفَلَاحِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِسُكْنَى بِلَادِ الْمَنَاصِفَاتِ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهَا ، وَالسَّكَنِ فِيهَا إِذَا اخْتَارُوا الْعُودَ . وَكَذَلِكَ بَيْتُ الْأَسْتَبَارِ لَا يَمْنَعُونَ أَحَدًا مِنَ الْفَلَاحِينَ الْمَعْرُوفِينَ بِسُكْنَى بِلَادِ الْمَنَاصِفَاتِ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهَا وَالسَّكَنِ فِيهَا إِذَا اخْتَارُوا الْعُودَ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكَ الظَّاهِرَ لَا يَمْنَعُ أَحَدًا مِنَ الْعُرَبَانِ وَالتُّرْكَانِ وَغَيْرِهِمْ : مِمَّنْ يُؤَدِّي الْعِدَادَ ، مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بَلَدِ الْمَنَاصِفَاتِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الْفَرَنْجِ الدَّاخِلِينَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ ، فَلَهُ الْمَنْعُ مِنْ ذَلِكَ . وَأَنْ تَكُونَ خُشَارَاتُ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِ تَرَعَى فِي بِلَادِ الْمَنَاصِفَاتِ آمِنَةً مِنَ الْفَرَنْجِ وَالتَّنَصَّارِ كَافَّةً . وَكَذَلِكَ خُشَارَاتُ بَيْتِ الْأَسْتَبَارِ وَخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِمْ تَرَعَى آمِنَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً فِي بَلَدِ الْمَنَاصِفَاتِ . وَعِنْدَ خُرُوجِ الْخُشَارَاتِ مِنَ الْمَرَاغَى وَتَسْلِيمِهَا لِأَصْحَابِهَا ، لَا يُؤْخَذُ فِيهَا حَقٌّ وَلَا عِدَادٌ وَلَا تُعَارَضُ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ مِصِيدَةُ السَّمِكِ الرُّومِيَّةُ مَوْحَا تَحْصَلَ مِنْهَا ، يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الْأَسْتَبَارِ . وَكَذَلِكَ الْمَصَايِدُ الَّتِي فِي الشَّطِّ الْغَرْبِيِّ مِنَ الْعَاصِي يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الْأَسْتَبَارِ . وَيَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْتَبَارِ فِي كُلِّ سَنَةٍ خَمْسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عَنِ الْقَشِّ ، وَيَكُونُ الْقَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ يَتَصَرَّفُ نَوَاقِبُهُ فِيهِ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ . وَيَكُونُ اللَّيْنُوفُ مَنَاصِفَةً : النِّصْفُ

منه للملك الظاهر والنصف لبنت الاسبتار . وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بإنشاء بيت الاسبتار، الذي كان حصل الحرب فيه، والبستان الذي هناك المعروف بإنشاء بيت الاسبتار أيضا يكون مناصفة . وأن يكون متولى أمرهما نائب من جهة نواب السلطان ونائب من جهة بيت الاسبتار ، يتولى أمرهما والتصرف فيهما وقبض مخصصيهما . وتقرر أن مهما يجدده بيت الاسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الاسبتار .

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة ، فهي شيزر ، وأبوقيس وأعماله ، وعيناب وأعمالها ، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الاسبتار وأعمالها ، وجميع أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها ، وقراها المستقرة بها ، وسبلها وجبلها وعامرها وغايرها .

وما استقر بمملكة الملك المنصور ، ناصر الدين « محمد » بن الملك المظفر أبي الفتح « محمود » بن الملك المنصور « محمد » بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهي : حماة المحروسة وقلاعها ومدنها ، والمعة وقراها وسبلها وجبلها وأنهارها ، ومنافعها وثمارها وعامرها وغايرها ، وبلاد رقية وبلاد بارين بحدودها ونحومها وعامرها ودائرها وجميع من فيها وما فيها - على أن الملك المنصور لا يرخص للتركان ولا للعرب أن ينزلوا بلد رقية وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون القلعة لبارين ، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الإخوة الاسبتارية والاتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنه إن تعدى أحد من أصحابه بأذية ، أو تعدى أحد من الفرانجة في بلاده بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فإن أنكشفت الأخيذة ،

أُعِدَّتْ . وَإِلَّا تُخَلَّفَ الْجِهَةُ الْمَدْعَى عَلَيْهَا أَنُهَا مَا عَلِمَتْ وَمَا أَحَسَّتْ ، وَكَمَا لَهُمْ ،
كَذَلِكَ عَلَيْهِمْ .

وَالْمُسْتَقَرُّ لِمَلِكَةِ الصَّاحِبِينَ : تَجَمُّ الدِّينِ وَجَمَالِ الدِّينِ ، وَالْأَمِيرِ صَارِمِ الدِّينِ نَائِبِي
الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَوَلَدِ الصَّاحِبِ رَضَى الدِّينِ ، وَهِيَ : مَضْيَافُ وَالرِّصَافَةُ وَجَمِيعُ
قِلَاعِ الدَّعْوَةِ وَحُصُونِهَا وَسَهْلُهَا وَوَعْرِهَا وَدَامِرِهَا وَدَائِرِهَا ، وَمُدْنُهَا وَبِلَادُهَا ،
وَضِيَاعِهَا وَطُرُقَاتِهَا ، وَمِيَادِهَا وَمَنَائِعِهَا ، وَجَمِيعُ بِلَادِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِجَبَلِ بَهْرَا وَاللُّكَّامِ ،
وَكُلُّ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ حُدُودُ بِلَادِ الدَّعْوَةِ وَتُحْوِمُهَا - أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ آمِنِينَ مِنْ عَلَى
الرَّصِيفِ الَّذِي بَشِيرَ إِلَى نِهَايَةِ الْأَرَاضِي اتَّقِ بِحُصُونِ الدَّعْوَةِ وَبِلَادِهَا . وَحِمَايَةُ
الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِعَرْطَارِ (؟) يَكُونُ لَهُ أَسُوءُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ . وَإِنْ عَلِمَ الْأَصْحَابُ أَنَّ أَحَدًا
مِنَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ قَدْ عَبَرَ إِلَى بَيْتِ الْإِسْبَتَارِ لِأَذِيَّةٍ ، أَعْلَمُوا بَيْتَ الْإِسْبَتَارِ قَبْلَ أَنْ تَجْرِيَ
أَذِيَّةٌ ، وَمَا لَمْ يُعْلَمُوا بِهِ عَلَيْهِمُ الْيَمِينُ أَنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَخْلِفُوا يَرُدُّوا الْأَذِيَّةَ
الَّتِي تَجْرِي .

وَتَقَرَّرُ أَنَّ يَكُونَ فَلَا حُجْرَ بَيْتِ الْإِسْبَتَارِ رَائِحِينَ وَغَائِدِينَ وَمَتَصَرِّفِينَ فِي بَيْعِهِمْ
وَشِرَائِهِمْ ، مَطْمَئِنِّينَ لَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَيْهِمْ . وَكَذَلِكَ جَمِيعُ فَلَا حِجْرٍ بِلَادِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ
لَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ مَطْمَئِنِّينَ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْإِسْبَتَارِيَّةِ ، وَإِنْ
تَعَدَّى أَحَدٌ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فِي سُوقٍ أَوْ طَرِيقٍ ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، تَكُونُ الْمَهْلَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ
يَوْمًا ؛ فَإِنْ رَدَّتِ الشَّكْوَى كُلُّهَا فَمَا يَكُونُ إِلَّا الْخَيْرَ بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ الْيَمِينُ
حَلَفَ ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ يَخْلَفُ وَإِلَّا يَرُدُّ الْأَذِيَّةَ . وَتَكُونُ الضَّيْعَةُ الَّتِي رَهْنًا عَبْدُ الْمَسِيحِ
رَبِيسُ الْمَرْقَبِ الْإِسْبَتَارِ ، وَهِيَ الْمَشِيرَةُ تَكُونُ آمَنَةً إِنْ كَانَ الْحَالُ أَسْتَغْنَى عَنْهَا إِلَى
أَخْرُوقَتٍ عِنْدَ كِتَابَةِ هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ بَيْنَ الْأَصْحَابِ وَأَصْحَابِهِمْ . وَيَحْمِلُ الْأَمْرُ
فِي الْحَقْرِ .

ويبطل ما هو على بلاد الدَّعْوَةِ المباركة من جميع ما لبَّيت الاستبَار على حماية مَضِيَّاف والرَّصَافَةِ، وهو في كُلِّ سَنَةٍ أَلْفٌ ومائتا دِينَارٍ قَوْمِيَّةٍ، ونَحْمَسُونَ مُدًّا حَنْطَةً، ونَحْمَسُونَ مُدًّا شَعِيرًا، ولا تَبْقَى قَطِيعَةٌ على بلاد الدَّعْوَةِ جَمِيعُهَا، ولا يَتَعَرَّضُ بَيْتُ الاستبَار ولا نَوَّابُهُمْ ولا غُلَمَائُهُمْ إلى طَلَبِ قَدِيمٍ من ذلك ولا جَدِيدٍ، ولا مُنْكَسَرٍ ولا مَاضٍ، ولا حَاضِرٍ ولا مُسْتَقْبَلٍ على اِخْتِلَافِهِ .

وتَقَرَّرُ أن تكونَ جَمِيعُ المَبَاحَاتِ من الجَهَتَيْنِ مُطْلَقَةً مِمَّا يَخْتَصُّ بِالمَلِكَةِ الحَضِيَّةِ، يَسْتَرْزِقُ بِهَا الصَّغَالِيكُ . وَأَنَّ نَوَّابَ المَلِكِ الظَّاهِرِ يَحْمُونَهُمْ من أَذِيَّةِ المُسْلِمِينَ من بلادِهِ المَذْكُورَةِ، وَأَنَّ نَوَّابَ بَيْتِ الاستبَار يَصُونُونَهُمْ وَيَحْرُسُونَهُمْ وَيَحْمُونَهُمْ من النِّصَارِيِّ وَالْفَرَنْجِيِّ من جَمِيعِ هَذِهِ البِلَادِ الدَّاخِلَةِ في هَذِهِ الهُدْنَةِ . ولا يَتَعَرَّضُ أَحَدٌ من المُسْلِمِينَ كَافَّةً من هَذِهِ البِلَادِ الدَّاخِلَةِ في [هَذِهِ] الهُدْنَةِ [إِلَى بِلَادِ الاستبَارِيَّةِ] بِأَذِيَّةٍ وَلَا إِيْغَارَةٍ، ولا يَتَعَرَّضُ أَحَدٌ من جَمِيعِ الْفَرَنْجِيَّةِ من هَذِهِ البِلَادِ الدَّاخِلَةِ في هَذِهِ الهُدْنَةِ بِحُدُودِهَا الْحَارِيَّةِ في يَدِ نَوَّابِ الاستبَار وفي أَيْدِيهِمْ، إِلَى بِلَادِ المَلِكِ الظَّاهِرِ بِأَذِيَّةٍ وَلَا إِيْغَارَةٍ .

وعَلَى أَنَّهُ مَتَى دَخَلَ في بِلَادِ المُنَاصِفَاتِ أَحَدٌ مِمَّنْ يَجِبُ عَلَيْهِ العِدَادُ وَأَسْتَعَنَ من ذَلِكَ، وَكَانَ عِدَادُ إِحْدَى الجَهَتَيْنِ حَاضِرًا : إِمَّا عِدَادُ دِيوانِ المَلِكِ الظَّاهِرِ، وَإِمَّا عِدَادُ بَيْتِ الاستبَار، فَلِنَائِبِ العِدَادِ الحَاضِرِ من إِحْدَى الجَهَتَيْنِ أن يَأْخُذَ من ذَلِكَ الشَّخْصِ المَتَنَعِ عَنِ العِدَادِ أَوِ الخَارِجِ من بَلَدِ المُنَاصِفَاتِ رَهْنًا بِمِقْدَارِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ من العِدَادِ، بِحَضُورِ رَئِيسٍ من رُؤَسَاءِ بَلَدِ المُنَاصِفَاتِ، وَيُتْرَكُ الرَّهْنُ عِنْدَ الرَّئِيسِ وَدِيْعَةً إِلَى أن يَحْضُرَ النَّائِبُ الأُخَرُ من الجِهَةِ الأُخْرَى، وَيُوصَلَ إِلَى كُلِّ من الجَهَتَيْنِ حَقُّهُ من العِدَادِ .

وإن خَرَجَ أَحَدٌ مِمَّنْ يَجِبُ عَلَيْهِ العِدَادُ، وَتَجَرَّ النَّائِبُ الحَاضِرُ عَن أَخْذِ رَهْنِهِ : فَإِنْ دَخَلَ بَلَدًا من بِلَادِ المَلِكِ الظَّاهِرِ، كَانَ عَلَى النَوَّابِ إِيْصَالُ بَيْتِ الاستبَار إِلَى حَقِّهِمْ

مما يجب على الخارج من العِدَاد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى ثواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العِدَاد . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحويّة وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفّار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميهم السلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات - من جميع المسلمين . ويحميهم بيت الاستتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصفات ، وخاص بيت الاستتار والمناصفات ، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . لا يكون عداداً على ما لها في المناصفات : من الدواب والغنم والبقر والجمال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

نَقَرِ مَنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وَعَلَى أَنْ يَكْشِفُوا عَنْ الْأَخِيذَةِ بِجُوهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ . وَمَتَى تَحَقَّقَتْ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ؛ فَإِنْ حَلَفُوا بِرْءٍ مِنْ الدَّعْوَى ، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ آمَنَعَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مِنَ الْيَمِينِ حَلَفَ الْمُدَّعَى ، وَلَا يَسْتَحِقُّ عَوَضَ مَا عَدِمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ . وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْأَمْرُ فِي الْقَتْلِ : عَوَضُ الْفَارِسِ فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِلِ بَرَكِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَاحِرِ تَاجِرٌ ، وَعَوَضُ الْفَلَّاحِ فَلَاحٌ . وَإِذَا انْقَضَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا الْمَذْكُورَةُ لَكَشْفِ الدَّعْوَى وَلَمْ يَحْلِفِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ لِلدَّعَى وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَوَضُ حَتَّى يَرُدَّ ، وَإِنْ رَدَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمْ يَحْلِفِ صَاحِبُ الدَّعْوَى بَطَلَتْ دَعْوَاهُ وَحُكِّمَ ، وَإِنْ حَلَفَ أَخَذَ الْعَوَضُ .

وَمَتَى هَرَبَ مِنْ إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أَحَدٌ ، وَمَعَهُ مَالٌ لغيره أُعِيدَ جَمِيعُ مَالِهِ ، وَكَانَ الْمَهَارِبُ مَخِيرًا بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْعُودِ . وَإِنْ هَرَبَ عَبْدٌ وَخَرَجَ عَنْ دِينِهِ ، أُعِيدَ ثَمَنُهُ ، وَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى دِينِهِ أُعِيدَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنَ الْقَاطِنِينَ فِي بِلَدِ الْمُنَاصِفَاتِ : مِنَ الْفَلَاحِينَ وَالْعَرَبِ وَالتَّرِكَمَانِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَالنَّصَارَى كَافَّةً لِإِغَارَةِ وَلَا أَذِيَّةٍ بِعِلْمِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبِلَادِ مُعَاهِدِيهِ ، [وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ] بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لِإِغَارَةٍ وَلَا أَذِيَّةٍ بِعِلْمِ بَيْتِ الْاِسْتِبَارِ وَلَا رِضَاهُمْ وَلَا إِذْنِهِمْ .

وَعَلَى أَنَّ الدَّعَاوِيَ الْمُنْتَقِمَةَ عَلَى هَذَا الصَّنْعِ يَحُلُّ أَمْرُهَا عَلَى شَرْطِ الْمُواصَافَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبَيْنَ مُعَاهِدِيهِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْاِسْتِبَارِ .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقض بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مُقدّم، إلى آخر المدة المذكورة، وهى : عَشْرَ سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ وَعَشْرَ سَاعَاتٍ ، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحداً من التركمان ، ولا من العربان، ولا من الأكراد ، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الاستبصار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم فى هذه الطوائف المذكورة، ويعلموا حاله، لئلا تبدؤ منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وبلد النصارى . ولنواب مولانا السلطان أن تركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاستبصار فى غد نزولهم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الاستبصار . وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما فى المناصفات، والحدود فى هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تخلى أمور المملكة الحصىة على ما كان مستقرا فى الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين « سنجر » .

هذا ما وقع الاتفاق والتراضى عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه ، وتأكيده لما شرح أعلاه . كُتِبَ فى تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هُدْنَةٍ من هذا النمط، عُدَّتْ بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين ملكة يبروت من البلاد الشامية ، فى شُهور سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها ، وهى :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» وبين الملكة الجليلة المصونة الفاهرة، فلانة آمنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحية مدة عشر سنين متوالية؛ أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع إيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية - على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك العادل، أبى بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز. والقاعدة المستقرة فى زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية، بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأما كتبها المضافة إليها: من حد جليل إلى حد صيدا، وهى المواضع الآتى ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراوق بحدودها، وسن الفيل بحدودها، والرح والشويف بحدودها، وانطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما فى هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمتتردين إلى بلاد السلطان فلان، وهى: الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلاؤها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلاؤها، وجبله والأذقية وقلاعها وبلاؤها، وحصص المحروسة وقلاعها وبلاؤها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلاؤها وما هو مختص بها، والمملكة الرحية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاؤها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاؤها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلاؤها ورعاياها

وَمَمَالِكُهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الشَّقِيقِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا وَرَعَايَاهَا، وَالْمَمْلَكَةُ
الْقُدْسِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْحَلَبِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْكَرْكِيَّةُ وَالشَّوْبَكِيَّةُ
وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ الْقِلَاعِ وَالْبِلَادِ وَالرَّعَايَا، وَالْمَمْلَكَةُ النَّابُلُسِيَّةُ، وَالْمَمْلَكَةُ الصَّرْحَدِيَّةُ،
وَمَمْلَكَةُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ جَمِيعُهَا : بَغْجُورُهَا، وَحُصُونُهَا، وَمَمَالِكُهَا، وَبِلَادُهَا،
وَسَوَاحِلُهَا، وَبَرِّهَا، وَبَحْرُهَا، وَرَعَايَاهَا، وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالسَّائِكِينَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ
الْمَمَالِكِ : الْمَذْكُورَةِ وَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ مَمَالِكِ السُّلْطَانِ وَبِلَادِهِ، وَمَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَى يَدِهِ وَيَدِ نَوَائِهِ وَغِلْمَانِهِ يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمُنْتَظَمًا فِي جُمْلَةِ
شُرُوطِهَا، وَيَكُونُ جَمِيعُ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ، مِنَ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةَ وَغِلْمَانِهَا، وَجَمِيعُ مَنْ هُوَ فِي حُكْمِهَا وَطَاعَتِهَا :
بَرًّا وَبَحْرًا، لِيلاً وَنَهَارًا، وَمَنْ مَرَاكِهَا وَشَوَانِيهَا . وَكَذَلِكَ رَعِيَّةُ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةَ وَغِلْمَانِهَا
يَكُونُونَ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ وَمِنْ جَمِيعِ نَوَائِهِ وَغِلْمَانِهِ
وَمَنْ هُوَ تَحْتَ حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ : بَرًّا وَبَحْرًا، لِيلاً وَنَهَارًا : فِي جَبَلَةٍ، وَاللَّادِيقِيَّةِ،
وَجَمِيعِ بِلَادِ السُّلْطَانِ، وَمَنْ مَرَاكِه وَشَوَانِيهِ .

وَعَلَى أَنْ لَا يُجَدِّدَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ التَّجَارِ الْمُرْتَدِّينَ رَسْمٌ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً، بَلْ يُجْرَوْنَ
عَلَى الْعَوَائِدِ الْمُسْتَمَرَّةِ، وَالْقَوَاعِدِ الْمُسْتَقَرَّةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَإِنْ عُدِمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
مَالٌ، أَوْ أَخَذَتْ أَخِيذَةً، وَصَحَّتْ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى رُدَّتْ إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً،
أَوْ قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . وَإِنْ خَفِيَ أَمْرُهَا كَانَتْ الْمُدَّةُ لِلْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،
فَإِنْ وَجِدَتْ رُدَّتْ، وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ حَلَفَ وَإِلَى تِلْكَ الْوَلَايَةِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، وَحَلَفَ
ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِمَّنْ يَخْتَارُهُمُ الْمُدَّعَى، وَبَرَّتْ جِهَتُهُ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَى . فَإِنْ أَبَى الْمُدَّعَى
عَلَيْهِ عَنِ الْيَمِينِ حَلَفَ الْوَالِي الْمُدَّعَى، وَأَخَذَ مَا يَدَّعِيهِ . وَإِنْ قُتِلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
خَطَأً كَانَ أَوْ عَمْدًا، كَانَ عَلَى الْقَاتِلِ فِي جِهَتِهِ الْعَوَضُ عَنْهُ نَظِيرُهُ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ،

وَبَرِيكِلْ بِيرِيكِلْ ، وَرَاجِلْ بَرَايِلْ ، وَفَلَّاحْ بَفَلَّاحْ . وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبِينَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمَالٍ لغيره ، رَدَّ مِنَ الْجَهْتَيْنِ هُوَ وَالْمَالُ ، وَلَا يُعْتَدَرُ بَعْدُ .
وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلا في هذه الهدنة .

وعلى أن المملكة فلانة لا تمكن أحدا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ؛ وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجربين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ؛ ولا تنقض بموت أحد من الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يوما ، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق ، في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» وولده الملك السعيد ، وبين الفرنج الاسبتارية ، على قلعة لُد بالشام ، في سنة تسع وستين وستمائة ، وهي :
استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس الصالح» قسيم أمير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين «محمد برکه خاقان» خليل أمير المؤمنين ؛ وبين المباشير المقدم الجليل افريز اولدكال مقدم جميع بيت اسبتار سرجوان بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الإخوة الاسبتارية ، لمدة عشرين

كواَمِلَ مُتَوَالِيَاتٍ مُتَابَعَاتٍ ، وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ ، أَوَّلُهَا مُسْتَهْلُ رَمَضَانَ سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِينَ
وَسِتْمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَحْمَدِيَّةِ ، الْمُوَافِقِ لِلثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ نَيْسَانَ سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ
وَأَثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ لِلْإِسْكَانْدَرِ بْنِ فِيلِبَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى أَنْ تَكُونَ قَلْعَةُ لَدٍّ بِكُلْهَا
وَرَبَضُهَا وَأَعْمَالُهَا ، وَمَا هُوَ مَذْسُوبٌ إِلَيْهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، بِحُدُودِهَا الْمَعْرُوفَةِ بِهَا مِنْ
تَقَادُمِ الزَّمَانِ ، وَمَا آسْتَقَرَّ لَهَا الْآنَ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ : مِنَ الْمَوَاضِعِ ، وَالْمَصَائِدِ ،
وَالْمَلَاَحَاتِ ، وَالْبَسَائِنِ ، وَالْمَعَاصِرِ ، وَالطَّوَاغِينِ ، وَالْجَزَائِرِ : سَمَائِلُهَا وَجَبَائِلُهَا ،
وَعَامِرِيهَا ، وَدَائِرِيهَا ، وَمَا يَحْرِي بِهَا مِنْ أَنْهَارٍ ، وَيَنْبُعُّ بِهَا مِنْ عُيُونٍ ، وَمَا هُوَ مَبْنِيٌّ بِهَا
مِنْ عِمَارَةٍ ، وَمَا آسْتَجَدَّ بِهَا مِنَ الْقَرَا حٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَكُلُّ مَا عُمِّرَ فِي أَرْضِي الْمُنَاصِفَاتِ
عَلَى دُورِهَا وَأَنْهَارِهَا ، وَمَا بِحُدُودِ ذَلِكَ مِنْ نَهْرٍ بِدَرَةٍ إِلَى جِهَةِ الشَّامِ ، وَمَا آسْتَقَرَّ
لِبَلَدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ إِلَى آخِرِ الْأَيَّامِ النَّاصِرِيَّةِ مِنَ الْحُدُودِ الْمَعْرُوفَةِ بِهَا وَالْمُسْتَقَرَّةِ
لَهَا ، وَحِصْنٍ بَرْغِينَ وَمَا يُنْسَبُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْبِلَادِ وَالضِّيَاعِ وَالْقُرَى الَّتِي كَانَتْ
مُنَاصِفَةً - تَكُونُ جَمِيعُ بِلَدَةِ وَهَذِهِ الْجِهَاتِ خَاصًا إِلَى آخِرِ الزَّائِدِ لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ،
وَلَا يَكُونُ لَبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَلَا لِلرَّقَبِ فِيهَا حَقٌّ وَلَا طَلَبٌ بِوَجْهِهِ وَلَا سَبَبٌ إِلَى حِينٍ
أَنْقِضَاءِ مُدَّةِ الْمُدَّةِ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ الزَّائِدِ ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ جَمِيعِ الْفَرَنْجَةِ فِيهَا تَعَلُّقٌ
وَلَا طَلَبٌ بِوَجْهِهِ وَلَا سَبَبٌ .

وَكَذَلِكَ مَهْمَا كَانَ مُنَاصِفَةً ، كَمَلْعَةِ الْعَلِيقَةِ فِي بِلَادِهَا لَبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ ، يَكُونُ
ذَلِكَ جَمِيعُهُ لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَالْخَاصِّ الشَّرِيفِ ، وَلَا يَكُونُ لِلرَّقَبِ فِيهَا شَيْءٌ
وَلَا لَبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ .

وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا هُوَ فِي بِلَادِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ جَمِيعُهَا وَقِلَاعُهَا مِنَ الْقُرَى - لَا تَكُونُ
فِيهَا مُنَاصِفَةً لَبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَلَا لِلرَّقَبِ ، وَلَا حَقٌّ ، وَلَا رَسْمٌ ، وَلَا شَرْطٌ ، وَلَا طَلَبٌ

في جميع بلاد الدَّعْوَة : مِصْيَافِ المحروسة ، والكَهْفِ ، والمنيقَةِ ، والقُدْمُوسِ ،
والخَوَاصِي ، والرُّصَافَةِ ، والعليقَةِ . وكلُّ ما هو في هذه القِلاع وفي بلادها من مُناصِفَةٍ ،
يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيه حديثٌ
ولا طلبٌ .

وعلى أن تكون بلاد المَرْقَبِ وحدودها من نهر لُدٍّ ومُقَبَّلًا ومُغَرَّبًا إلى حدود بلاد
مَرْقَبَةِ المعروفة بها ، الدَّاخلِ جميعها في الفتوح الشريف ، وأَسْتَقَرَّارها بِمُحْكَمِ ذلك
في الخاصِّ المبارك الشَّريف ، وَحَدَّ البُيُوتِ المحاذية لسُور الرِّبَضِ ، تستقرُّ جميعها
مناصِفَةً بين السُّلطانِ وبين بَيْتِ الاسبتارِ نِصْفَيْنِ بالسَّوِيَّةِ ، وما في جميع هذه البلاد :
من بَسَاتينَ ، وطَوَاحِينَ ، وعِمَائِرَ ، ومَصَايِدَ ، ومَلَاحَاتَ ، ووُجُوهِ العَيْنِ ، والمُسْتَغَلَّاتِ
الصَّيْفِيَّةِ والشَّتَوِيَّةِ ، والقَطَاطِنِ ، والحقوقِ المستخرجة ، وما هو مَزْرُوعٌ من الفدنِ
لأهل الرِّبَضِ وبِبادِرِها : يكونُ ذلك مُناصِفَةً بين السُّلطانِ وبين بَيْتِ الاسبتارِ
سرجوان بالسَّوِيَّةِ نِصْفَيْنِ .

وما هو دَاخِلُ الرِّبَضِ وداخل المَرْقَبِ ، فإنه مُطْلَقٌ من المَلِكِ الظاهرِ لِلْقَدَمِ
الكبيرِ افريز أو ولد كَالِ مَقْدَمِ بَيْتِ الاسبتارِ سرجوان وَخِيَالَتِهِ ، وَرِجَالِهِ وَحِمَائِهِ
وَرِجَالَتِهِ وَرِعِيَّتِهِ ، بِرِسْمِ إقامتهم وَسُكْنَاهُمْ من داخل الأسوار ، وعن سُورِ الرِّبَضِ
المحاذية للسُّورِ تكونُ مُناصِفَةً جميعها ، بما فيه من حقوقِ طُرُقَاتِ وأَحْكَارَ ،
وَمَرَاعِي المَوَاشِي على أَخْتِلَافِ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا ، وَجميعِ السَّخَرِيَّاتِ ، وكلِّ أَرْضِ
مَزْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ مِمَّا أُخِذَ مِنْهُ مِنْ حَقِّ أَوْ عِدَادٍ يكونُ مُناصِفَةً .

وكلُّ ما هو من المَوَاشِي والمَرَاسِي البَحْرِيَّةِ المعروفةِ جميعها بِمَحْضِنِ المَرْقَبِ : من
مِينَا بَلَدَةٍ إِلَى مِينَا القَنْطَرَةِ المُجَاوِرَةِ لِحُدُودِ مَرْقَبَةٍ - تكونُ هي وما يتحصَّلُ منها من

الحقوق المُستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وما ينعقد عليه ارتفاعها ،
وتشهد به الحسابات - جميعه مُناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مُناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من
حين أخذ بيت الأسبتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدية المباركة مُناصفة على العادة
الجارية ، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر
كائنا من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للترددين والمقيمين بالقلعة والربض : من عامة وغير
عامة ، وخیالة وغير خیالة ، على اختلاف أجناسهم ، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم
المعروفين بالإخوة الأسبتارية من الحبوب والمثونة والكسوة والخيل التي هي برسم
رؤسهم خاصة ، لا يكون عليها حق ، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك ،
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مُناصفة على ما شرحناه .

وعلى أنه لا يجي أحد من الإخوة الخيالة ، والوزراء ، والكُتاب ، والثواب ،
والمستخدمين شيئاً على اسم بيت الأسبتار ، ليستطلق الحق ويمنع من استيدائه ، ولو
أنه أقرب أخ إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط ،
أخذ جميع ماله مُستهلكاً للجهتين : للديوان السلطاني المعمور ، وليت الأسبتار ،
إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر ، صادراً ووارداً ، وكذلك في البر صادراً
ووارداً بعد المحاqqة على ذلك وصحته .

وعلى أن ثواب المبشرين المقدم الكبير ليت الأسبتار ، وولاته وكتابه ومستخدميه
وعلمائه ، يكونون آمينين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .
وكذلك علمائنا وولاتنا وثوابنا ومستخدمونا وكتائبنا ورعايا بلادنا يكونون آمينين

مُطْمَئِنِّينَ عَلَى نَفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَّقِينَ عَلَى مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخْذِ الْحُقُوقِ ، وَسَائِرِ الْمُقَاسِمَاتِ وَالطَّرَقَاتِ وَالْبَسَاتِينِ وَالطَّوَاحِينَ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقْرَّرةِ عَلَى الْفَدَنِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا . وكذلك الرَّأْسَةُ وَاسْتِخْرَاجُ وَجْهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارُيفِ الْجَارِي بِهَا الْعَادَةُ الْمَقْرَّرةِ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وعلى أن جميع الضمانات يَكُونُ ثَوَابُ السُّلْطَانِ وَثَوَابُ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ مُتَّفَقِينَ بِجُمْلَةٍ عَلَى ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَنْزِيلٍ فِي دِفَاتِرِ الدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَدِيَوَانِ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، وَلَا يُطْلَقُ وَلَا يُحْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ وَاحِدٌ دُونَ آخَرٍ .

وعلى أن أَى مُسْلِمٍ تَصَدَّرُ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ فِي تَأْذِيهِ ، يَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِيهِ نَائِبًا : مِنْ شَتَّى يَحِبُّ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطَعَ . أَوْ أَدَبَ بِحُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ : مِنْ شَتَّى ، وَقَطَعَ ، وَكَلَّ أَعْيُنٍ ، بِحَيْثُ لَا يُعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَضُورِ نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، حَاضِرٍ يُعَايِنُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جَنَاحَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ مَوَاشٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَأْدَى مُنَاصَفَةً لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ ^(١) . فَإِنْ كَانَ فِيهَا قِشَاشٌ وَبَضَائِعٌ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ بَعْدَ أَدَاءِ الْحَقِّ لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ وَكَانَتْ لِمُسْلِمٍ ، أُعِيدَتْ لِلخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصَارَى ، تُؤْخَذُ بِضَاعَتُهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنْ جِهَتَيْنَا ، بَعْدَ أَدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شيء يعود عليه الضمير .

تَبَقَى تَحْتَ يَدِ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، خَلا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذِمِّيًّا ، عَلَى اخْتِلَافِ جِنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ عَلَيْهِمْ آعْتَرَاضٌ ، وَيَحْمِلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْبِضَائِعِ لِلدِّيَّانِ الْمَعْمُورِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أَنْكَسَرَ مَرْكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ الْمَوَانِي بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ شَيْلَهُ إِلَى جِهَةِ يَخْتَارُهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يُنْبَعُ ، فَيُؤْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُ : إِنْ بَاعَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَيَكُونُ الْحَقُّ لِلْجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الْحَقُّ الْمَعْرُوفُ الْجَارِي بِهِ الْعَادَةُ .

وَعَلَى أَنَّ التُّجَّارَ السَّفَّارَةَ وَالْمُتَرَدِّدِينَ بِالْبِضَائِعِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مَتَى مَا خَرَجُوا مِنَ الْمَوَانِي الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفَارَةٍ الْجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لَا يُتَنَاوَلُ مِنَ الْخِفَارَةِ شَيْءٌ مَنَسُوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُخْرِجَهُمْ وَيُحْضِرَهُمْ إِلَى بَرِّ حُدُودِ الْمَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفْظِ الْجِهَتَيْنِ . وَمَتَى وَصَلَ التُّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالْتَرْتِيبُ عَلَى الْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الْحِفْظَ لِلطَّرَاقَاتِ صَادِرًا وَوَارِدًا ، بِحَيْثُ إِنَّهُمْ يَحْضِرُونَ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ ، وَإِلَى الْمَوَانِي بِالْمَرْقَبِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ ، طَيِّبِينَ آمِنِينَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ .

وَعَلَى أَنَّ غُلَامَانَ الْمُبَاشِيرِ الْمَقْدَمِ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ وَالْإِخْوَةَ وَالْخِيَالَةَ وَالرَّعِيَّةَ الْمَقِيمِينَ بِقَلْعَةِ الْمَرْقَبِ وَالرَّيْضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمَنْ يُلُودُ بِهِمْ وَيَتَعَلَّقُ ، فِي حَالِ صُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ إِلَى بِلَادِنَا الْجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي الْبَرِّ ، مِنَّا وَمِنْ تَوَالِينَا بِالْمَمْلَكَةِ وَالْبِلَادِ الْجَارِيَةِ فِي حَكْمِنَا ، وَمِنْ وَلَدِنَا الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، وَمِنْ أَمْرَائِنَا وَعَسَاكِرِنَا الْمَنْصُورَةِ . وَإِنْ قُتِلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أَخِيذَةٌ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِفِ بِبِلَادِ

المَرْقَب ، فيَقَعُ الكَشْفُ عن ذلك عِشرين يومًا : فَإِن وُجِدَ فاعِلُ ذلك ، يُؤْخَذُ الفاعِلُ بِذَنبِهِ . وإن لم يَظْهَرْ فاعِلُ ذلك مَدَّةَ عِشرين يومًا فيُؤْمَسِكُ رُؤَسَاءُ مَكَانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأُخِذَ الأَخِيذَةُ ، وَقَتِلَ القَتِيلُ ، إِن كَانَ أَخْذُ وَقْتٍ . مَكَانَ مَنْ قَتَلَ القَتِيلَ أو أَخَذَ الأَخِيذَةَ . أَقْرَبَ القُرْبَاءِ إِلَى الذِي قَطَعَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ أو قَتَلَ قَتِيلًا . فَإِن خَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، وَحُجِرَ عن إِحْضَارِهِ بعد عِشرين يومًا ، يُلْزِمُ أَهْلُ نُوَابِ الجِهَتَيْنِ مِنَ القُرْبَاءِ الأَقْرَبَ لذلك المَكَانِ بِأَلْفِ دِينَارٍ صُورِيَّةٍ : لِلدِّيوانِ السُلْطَانِيِّ النَّصْفُ ، وَلِنَقِيبِ الأَسْبَتَارِ النَّصْفُ ، وَلَا تُتْكَاسَلُ الوَلَاةُ فِي طَلَبِ ذلك ، وَيَكُونُ طَلَبُهُ يَدًا وَاحِدَةً ، وَلَا يَخْتَصُ الوَاحِدُ دُونَ الأُخَرِ . وَلَا يَحَابِي أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَخْذِ الفَّلَاحِ فِي هَذَا أو غَيْرِهِ فِي مَصْلَحَةِ عِمَارَةِ البَلَادِ ، وَأَسْتِخْرَاجِ الحُقُوقِ ، وَمُقَاسِمَةِ الغِلَالِ ، وَطَلَبِ المُفْسِدِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا .

وعلى أن لا تَغْيَرُ الهُدُنَةُ المُبَارَكَةُ بِأَمْرِ مِنَ الأُمُورِ ، لَا مِنْ جِهَتَيْنَا وَلَا مِنْ جِهَةٍ وَلَدِنَا المَلِكِ السَّعِيدِ ، إِلَى أَنْقِضَاءِ مُدَّتِهَا المَعِينَةُ أَعْلَاهُ وَفَرُوعُهَا . وَلَا تُتَغَيَّرُ بِتَغْيَرِ المَقْدَمِ المُبَاشِرِ لَبَيْتِ الأَسْبَتَارِ الحَاكِمِ عَلَى المَرْقَبِ وَغَيْرِهِ . وَإِذَا جَرَتْ قِضِيَّةٌ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ يَعْرِفُونَهَا نُوَابُنَا ، وَيَحَقِّقُ الكَشْفُ إِلَى مَدَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَن يَكُونُ لِلْبِدَايَةِ يَخْرُجُ مِنْهَا عَلَى مَنْ سَبَّ (٩) وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ دَيْنَهُ الذِي بَدَأَ مِنْ جِهَةٍ كُلِّ وَاحِدٍ . وَإِذَا تَغَيَّرَ النُّوَابُ بِالمَرْقَبِ وَحَضَرَ نَائِبٌ مُسْتَحْدٌ يَعْتَمِدُ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الهُدُنَةُ ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ المُواصِفَةِ . وَإِذَا تَسَحَّبَ مِنَ المُسْلِمِينَ أَحَدٌ عَلَى آخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، إِنْ كَانَ مَمْلُوكًا أو غَيْرَ مَمْلُوكٍ ، أو مَعْتُوقًا أو غَيْرَ مَعْتُوقٍ ، أو كَاتِبًا مَنْ كَانَ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى آخْتِلَافِ مَنَازِلِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ غُلَامًا أو غَيْرَ غُلَامٍ - يَرُدُّ بِجَمِيعِ مَا يُوجَدُ مَعَهُ ، إِنْ كَانَ قَلِيلًا أو كَثِيرًا يَرُدُّ . وَلَوْ أَنَّ المُتَسَحِّبَ دَخَلَ البَنِيْسَةَ وَجَلَسَ فِيهَا يُؤْمَسِكُ بِيَدِهِ وَيَخْرُجُ وَيَسَلِّمُ لِنُوَابِنَا بِجَمِيعِ مَا مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ خِيَلًا أو قِمَاشًا أو دَرَاهِمَ أو ذَهَبًا

وما يتعامل الناس به، يَسَلِّمُ بما معه إلى نوابنا على ما شَرَحْنَاهُ . وكذلك إذا تَسَحَّبَ أَحَدٌ من جِهَتِهِم من الفَرْنَجِ أو النَّصَارَى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وَصَلَ إلى جِهَةِ نَوَابِنَا يُمَسِّكُ وَيَسَلِّمُ بما يحضُرُ معه : من الخَيْلِ والأَقَشَةِ والعُدَّةِ وجميع ما يَصِلُ إن كان قليلاً أو كثيراً ، يُمَسِّكُهُ نَوَابِنَا وَيُسَلِّمُونَ ذلك بما معه لنائبِ المَقْدَمِ الماسِترِ المَقِيمِ بالمَرْقَبِ ، وأخذوا الخطوط بذلك بتَسْلِيمِهِ بما حضُرَ معه .

وعلى أنهم لا يكونُ لهم حديثٌ مع قَلْعَةِ العليقة ، ولا الرِّعِيَّةِ الذين فيها ، ولا مع نَوَابِ ابنِ الرِّدِّيِّ المقيمين فيها : لا بِكُتَّابٍ ، ولا بِمَشَافِهِةٍ ، ولا بِرِسَالَةٍ ، ولا بِقَوْلٍ ، ولا يَطْلُعُ أَحَدٌ من جِهَتِهِم إليهم ؛ ولا يَمَكُنُ أَحَدٌ من الحُضُورِ إليهم ، [والوصول] إلى جِهَتِهِم من القَلْعَةِ المذكورة ؛ ولا تُسَيَّرُ إليهم مَؤُونَةٌ ولا تجارة ولا جَلَبٌ على اختلاف أجناسه ، ولا تكونُ بينهم معاملة . وإن حضُرَ أَحَدٌ من جِهَةِ قَلْعَةِ العليقة إليهم يُمَسِّكُونَ وَيُسَلِّمُونَ لنوابنا ويأخذوا بذلك خُطُوطَهُمْ .

وعلى أنهم لا يَجِدُّونَ عِمَارَةَ قَلْعَةٍ ، ولا في القَلْعَةِ عِمَارَةً ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ؛ ولا [يعتمدون] لإصلاح شَيْءٍ منها إلا إذا عاينَهُ نَوَابِنَا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضَّرُورَةِ في ترميمِ يَرْمُونَهُ بعد أن يُعاينَهُ نَوَابِنَا من هذا التاريخ ؛ ولا يَجِدُّونَ عِمَارَةً في رَبَضِهَا ، ولا في سَوْرِهَا ، ولا في أبراجها ، ولا يَجِدُّونَ حَفَرَ خَنْدِقٍ ، وعِمَارَةَ خَنْدِقٍ ، أو تُجَدِّدُ بِنَايَةَ خَنْدِقٍ أو قَطْعُ جَبَلٍ ، أو تُحَصِّنُ عِمَارَةً ، أو تُحَصِّنُ بَقْطَعِ جَبَلٍ ، منسوباً لتَحْصِينِ يَمَنَعٍ أو يَدْفَعٍ . ولم نَأْذَنَ لهم بسوَى البِنَايَةِ [على] أثرِ الدُّورِ التي أحرقت عند دُخُولِ العَسَاكِرِ حُجْبَةَ المَلِكِ السَّعِيدِ . وقد أذنا لهم في عِمَارَةِ باطنِ الرَّبَضِ على أثرِ الأساسِ القديمِ .

وعلى أن صِهْيُونََ وأعمالها ، ورومه (؟) وأعمالها ، والقليعة وأعمالها ، وعِيْدُوبَ وأعمالها ، الجارية تحت نَظَرِ الأميرِ سَيِّفِ الدِّينِ محمد بنِ عثمانِ صاحبِ صِهْيُونََ -

يجرى حُكْم هذه البلاد المختصة به حُكْم بلادنا في المهادنة، بحُكْم أَنَّ بلادَه المذكورة جارية في ممالك الشريعة .

وعلى أنه لا يمكن بَيْت الأسيبار من دُخُول رَجُلٍ غَرِيبَةٍ في البرّ ولا في البحر إلى بلادنا، بأذنية ولا ضَرَرٍ يعودُ على الدولة ، وعلى بلادنا وحُصُوننا ورعيّتنا ، إلا أن يكونوا يداً غالبةً، صُحبةً ملكٍ مُتَوَجِّج .

وعلى أن البُرْجَ الداخِلَ في المناصفة ، وهو بُرْجُ معاوية الذي عند المحاصّة الداخلة في مناصب المرقب الآن ، يُحَرَّبُ ما يُحْصَنُ منه ، وهو النصف من البُرْج المذكور أعلاه . وأن الحُسْرَ المعروف بحُسْرِ بلدة لم يكن لبيت الأسيبار فيه شيء من البرن ، وأنه خالص للديوان المعمور دون بيت الأسيبار . وأن الدَّارَ المستجدةَ عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير، الذي هو عازر تكميل عمارة سَقَفِ القُبُوبِ بالحجارة والكلس ، لا تَكْمَلُ عمارتها ، ويبقى على حاله ، وهو في وَسَطِ القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه .

وعلى أن ثَوَابَ الأسيبار بالمرقب لا يُخْفُونَ شيئاً من مُقاصمات البلاد ولا شيئاً من حُقوقها الجارية بها العادة أن بيت الأسيبار يَسْتَخْرِجُونَهُ ولا يُخْفُونَ منه شيئاً ، وكلُّ ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الأسيبار قبل هذه الهدنة يُطْلَعُونَ ثَوَاباً عليه ولا يُخْفُونَ منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك .

وعلى أن السلطان يأمر ثَوَابَهُ بِحِفْظِ مُنَاصَفَاتِ بلادِ المرقب الداخلة في هذه الهدنة ، من المُفْسِدِينَ والمتلصّصِينَ والحرامية من هو في حُكْمِهِ وطاعته . وكذلك الماستر المقدم افريز أولدكال يلزم ذلك من الجهة الأخرى . ومتى وقع - والعياذُ بالله - فَسَخٌ بسبب من الأسباب ، كان الثَّجَّارُ والسُّفَّارُ آمِنِينَ من الجهتين إلى

أَنْ يَعُودُوا بِأَمْوَالِهِمْ ، وَلَا يَمْنَعُونَ مِنَ السَّفَرِ إِلَى أَمَاكِنِهِمْ مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، وَتَكُونُ
النَّهْيَةُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا . وَتَكُونُ هَذِهِ الْهُدْنَةُ مَنْعَقِدَةً بِشُرُوطِهَا الْمَذْكُورَةِ ، مُسْتَقَرَّةً
بِقَوَاعِدِهَا الْمَسْطُورَةِ لِلدَّعَةِ الْمَعْيَنَةِ ، وَهِيَ : عَشْرَ سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ كَوَامِلٍ ، أَوَّلُهَا
مُسْتَهْلُ رَمَضَانَ سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَسِتِّمِائَةَ إِلَى آخِرِهَا ، مُتَابَعَةً مُتَوَالِيَةً ، لَا تَقْصُحُ
بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، وَلَا بِعَزْلِ وَائِلٍ وَقِيَامٍ غَيْرِهِ مَوْضِعَهُ ، وَلَا زَوَالِ رَجُلٍ غَرِيْبَةٍ ،
وَلَا حُضُورِ يَدٍ غَالِبَةٍ ؛ بَلْ يَلْزَمُ كَلًّا مِنَ الْجَهْتَيْنِ حِفْظُهَا إِلَى آخِرِهَا ؛ وَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ
الْآخِرِ حِفْظَهَا إِلَى آخِرِهَا ، بِالشَّرْطِ الْمَشْرُوطِ فِيهَا أَوَّلًا وَآخِرًا . وَالْخَطُّ أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ
بِمَقْتَضَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . فِي تَارِيخٍ كَذَا وَكَذَا .



وَهَذِهِ نُسخَةُ هُدْنَةٍ عُقِدَتْ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ «قَلَاوُون» الصَّالِحِيِّ
صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ وَوَلَدِهِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ «عَلِيٍّ» وَلِيِّ عَهْدِهِ ،
وَبَيْنَ حُكَّامِ الْقَرْنَجِ بَعْكَا وَمَا مَعَهَا مِنْ بِلَادِ سَوَاحِلِ الشَّامِ ، فِي شَهْرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ
وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةَ ، وَهِيَ يَوْمُئِذٍ بِأَيْدِيهِمْ . وَصُورَتُهَا :

أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ بَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ سَيِّفِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ
«قَلَاوُون» الْمَلِكِيِّ الصَّالِحِيِّ وَوَلَدِهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ عَلَاءِ الدِّينِ «عَلِيٍّ» -
خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَنَتَهُمَا - وَبَيْنَ الْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عَمَّا ، وَصَيْدَا ، وَعَنْثَلِثَ ، وَبِلَادِهَا
الَّتِي آتَقَعْدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ ، وَهُمْ : الشَّيْخَانِ أَوْ دَهِيلِ الْمَمْلَكَةِ بَعْكَا ، وَحَضْرَةُ
الْمُقَدِّمِ الْجَلِيلِ اِفْرِيزِ كَلَسَامِ دَسَا حَوْلِ (؟) مُقَدِّمِ بَيْتِ الدِّيُوِيَّةِ ؛ وَحَضْرَةُ الْمُقَدِّمِ الْجَلِيلِ
اِفْرِيزِ سَكْفَلِ لِلُورِنِ (؟) مُقَدِّمِ بَيْتِ الْاِسْبَتَارِيَّةِ ، وَالْمُرْشَأُنُ الْأَجَلُّ اِفْرِيزِ كُورَاتِ نَائِبِ
مُقَدِّمِ بَيْتِ الْاِسْبَتَارِ الْآمَنِ - لِمُدَّةِ عَشْرِ سِنِينَ كَوَامِلٍ ، وَعَشْرَةِ أَشْهُرٍ ، وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ ،

وعَشْرَ سَاعَاتٍ : أَوَّلُهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ خَامِسُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ
لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَسَلَامُهُ ، الْمَوَافِقُ لِلثَّالِثِ مِنْ حَزِيرَانَ
سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لَعَلَّةِ الْإِسْكَندَرِيْنَ فِيلَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى جَمِيعِ
بِلَادِ السُّلْطَانِ وَلَدِهِ ، وَهِيَ الَّتِي فِي مَمْلَكَتَيْهَا وَتَحْتَ حُكُومَيْهَا وَطَاعَتَيْهَا وَمَا تَحْوِيهِ
أَيَّدِيْهَا يَوْمَئِذٍ : مِنْ جَمِيعِ الْأَقَالِمِ وَالْمَمَالِكِ ، وَالْقِلَاعِ ، وَالْحُصُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَغْرِ
دِمْيَاطَ ، وَتَغْرِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، وَتَسْتَرُوْ ، وَسَتَرِيَّةٍ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ
الْمَوَاتِي وَالسَّوَاخِلِ ، وَتَغْرِ فُؤَّةَ ، وَتَغْرِ رَشِيدَ ، وَالْبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ ، وَتَغْرِ غَزَّةَ الْمَحْرُوسِ ،
وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَوَاتِي وَالْبِلَادِ ، وَالْمَمْلَكَةِ الْكَرْكِيَّةِ ، وَالشُّوْبِيَكِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّلَاتِ
وَأَعْمَالِهَا ، وَبُصْرَى وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ بِلَادِ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ،
وَمَمْلَكَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَأَعْمَالِهَا ، وَبَيْتِ الْحَيْمِ وَأَعْمَالِهِ وَبِلَادِهِ ، وَجَمِيعِ مَا هُوَ
دَاخِلٌ فِيهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، وَبَيْتِ جَبْرِيلَ ، وَمَمْلَكَةِ نَابِلُسَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ
الْأَطْرُونِ وَأَعْمَالِهَا ، وَعَسْقَلَانَ وَأَعْمَالِهَا وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَمَمْلَكَةِ يَاقَا وَالرَّمْلَةِ
وَمِيْنَاهَا ، وَقَيْسَارِيَّةَ وَمِيْنَاهَا وَسَوَاحِلِهَا وَأَعْمَالِهَا ، وَأَرْسُوفَ وَأَعْمَالِهَا ، وَقَلْعَةَ قَاقُونِ
وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَأَعْمَالِ الْعَوْجَاءِ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَلَاخَةِ ، وَالْفُتُوحِ السَّعِيدِ وَأَعْمَالِهَا
وَمَزَارِعِهَا ، وَبَيْسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَالطُّورِ وَأَعْمَالِهِ ، وَالْجَبَلِ وَأَعْمَالِهِ ، وَجَبِينِ
وَأَعْمَالِهَا ، وَعَيْنِ جَالُوتَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالْقَيْمُونِ وَأَعْمَالِهِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ ، وَطَبْرِيَّةَ
وَجُبْحِيَّتَهَا وَأَعْمَالِهَا وَمَا مَعَهَا ، وَالْمَمْلَكَةِ الصَّفَدِيَّةِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا ، وَتَبْنِينَ وَهُونِينَ
وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالشَّقِيفِ الْمَحْرُوسِ الْمَعْرُوفِ بِشَقِيفِ أَرْزُونِ
وَمَا مَعَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَبِلَادِ الْفَرَنْ وَمَا مَعَهُ خَارِجًا
عَمَّا عَيْنٌ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَنِصْفِ مَدِينَةِ إِسْكَندَرُونَةَ ، وَنِصْفِ ضَيْعَةِ مَآرِبَ
بُقْدُنِيْهَا وَكُرُومِهَا وَبَسَاتِينِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ إِسْكَندَرُونَةَ

المذكورة ، يكون جميعه بمحدوده وبلايه للسلطان المليك المنصور ولولده النصف ،
والنصف الآخر لمملكة عكا . والبقاع العزيزى وأعماله ، وشعرا وأعمالها ، وشقيف
تيرون وأعماله ، والعامر جميعها ولا ما غيرها (٩) ، وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة
وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة عجلون
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية - حرمها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد
والممالك والأعمال ، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حمص وما لها
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها ،
وبلاطنس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزيه وأعمالها ، وقوتحات حصن
الأكراد المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، و (٢)
وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وحصن عكار
وأعماله وبلاديه ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأفامية وأعمالها ، وجبله وأعمالها ،
وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك ، وبقراس وأعمالها ،
والدر بمالك وأعمالها ، والراوندان وأعمالها ، وعينتاب وأعمالها ، وحارم وأعمالها ،
ويبرين وأعمالها ، وسبح الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف دركوش
وأعماله ، والشغر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزعا
وأعمالها ، وآلبيرة وأعمالها ، والرحبة وأعمالها ، وسلمية وأعمالها ، وشيمس
وأعمالها ، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لمولانا
السلطان ولولده من البلاد التي عينت في هذه الهدنة المباركة ، والتي لم تعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزیه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلى جميع العساكر، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ،
وتغير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددِينَ في البر والبحر ،
والسهل والجبل ، في الليل والنهار ، يكونون آمنين مطمئنين في حالي صدورهم
وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحرهم ، وبضائعهم ، وعلمانهم ،
وأتباعهم ، ومواسيهم ، ودوابهم ؛ وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوى أيديهم
من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكم بملكمة عكا : وهم كفيل الملكة بها ،
والمقدم افريز كليام دسا حول (؟) مقدم بيت الديوية ، والمقدم افريز بيكوك
للورن (؟) ، وافريز اهداب نائب مقدم بيت الاسبتار الآمن ، ومن جميع الفرنج
والإخوة ، والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع
الفرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة
من كل واصل إليها في بر أو بحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، لا ينال بلاد
السلطان وولده ، ولا حصونهما ، ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ،
ولا عساكرهما ، ولا جيوشهما ، ولا عمرهما ، ولا تركبهما ، ولا أكرادهما ،
ولا رعاياهما ، على اختلاف الأجناس والأنفار ؛ ولا ما تحويه أيديهم من المواشي
والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم غدر ولا سوء ، ولا يخشون من جميعهم أمرا
مكروها ولا إغارة ، ولا تعرضا ولا أذية .

وكذلك ما يستفتحه ويضيفه السلطان وولده على أيديهما ، وعلى يد توابهما
وعساكرهما : من بلاد ، وحصون ، وقلاع ، ومليك ، وأنغال ، وولايات ، برا
وبحرا ، سهلا ووعرا .

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة : وهي مدينة
عكا وبساتينها ، وأراضيها وطواحينها ، وما يختص بها من كرومها ، وما لها من

(١) حُقُوقِ حَوْلَهَا ، وما تَقَرَّرَ لها من بلادٍ في هذه الهُدنة وهي : البصة ومَزْرَعَتُها ،
مجدل ، حمصين ، رأس عبده ، المَنَوَات ومَزْرَعَتُها ، الكابرة ومَزْرَعَتُها ، نصف وفيه
جمعون ، كَفَر بَرْدَى ومَزْرَعَتُها ، كَوَكَبُ عَمَقَا ومَزْرَعَتُها ، المونيه ، كَفَرِ اسيف
ومَزْرَعَتُها ، تُوسيان ، مَكْر حرسين ومَزْرَعَتُها ، الحديدية ، الغياضة ، العطوانية ، مرتوقا
الحارثية ، ثَمرا الطره ، الرب ، النابوحد ومَزْرَعَتُها ، العرج ومَزْرَعَتُها ، المزرعة
السَّميرية البِيضاء ، دعوق والطاحون ، كَرْدانه والطاحون ، حدرول ، تل النحل ،
الغار ، الرخ والمجدل ، تَل كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكة ،
المشيرة ، العطوانية ، المنير ، اكليل ، هريا سيف العربية ، هوشه ، الزراعة
الجديدة الشمالية ، الرحاحيه ، قسطه ، كَفَر نبتل ، الدويرات ، ماصوب ، مَتماس
العباسية ، سيعاه ، عين الملك ، المنصورة ، الرضيقة ، حانا ، سرطا ، كَفَرتا ،
أرض الزراعة ، رولس ، صغد عدى ، سفر عم . هذه البلادُ المذكورةُ [تكون]
خاصا للفرنج . حيفا والكروم والبساتين التي لها جميعها ، والقصر وهو الحوش
وكَفَر توثا ، وهي : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعرة ، والباچور ،
وسومرا . تكون حيفا وهذه البلادُ المذكورةُ بِحُدُودِها وأَراضِها خاصَّةً للفرنج .
وكذلك قرية مارسا باره بها ، المعروفة بها وكرومها وغرسها يكون خاصا للفرنج .
وَدَيْرُ السِيَّاح ، وَدَيْرُ مارلباس بأَراضِهما المعروفَ بهما وكُرومِهما وبساتينهما يكونُ
خاصا للفرنج .

وعلى أن يكونَ لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ وَلَوْلَدِهِ الصَّالِحِ : من بلادِ الْكِرْمِلِ ، وهي :
الدالية ، ودونه ، وضريبة الریح ، والكرك ، ومعليا ، والرامون ، ولوسه ، وديور ،

(١) لم نقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها في معجم ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبعنا الأصول في الإهمال والنقط .

ونخبة يونس، ونخبة نخيس، ورشما، ودوانه، يكون خاصاً للفرنج في بلاد أخرى ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكالها .

وتكون جميع هذه البلاد العكاوية وما عين في هذه الهدنة المباركة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور ولده الملك الصالح ، وأمنة من عساكرهما وجنودهما ومن خدمهما ، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه ، الداخلة في هذه الهدنة المباركة : الخاص بها ، وما هو مناصفة - مطمئنة هي ورعاياها ، وسائر أجناس الناس فيها ، والقاطنين بها ، والمترددين إليها على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، والمترددين إليها من جميع بلاد الفرنجة والسفار ، والمترددين منها وإليها في بر وبحر ، في ليل أو نهار ، سهل وجبل ، آمنين على النفوس والأموال والأولاد ، والمراكب والدواب ، وجميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحويه أيديهم من الأشياء على اختلافها ، من السلطان ولده ، وجميع من هوتحت طاعتها : لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي أتعقدت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة ، ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية ، ويكون ما تقرّر أنه يكون خاصاً للفرنج حسب ما بين أعلاه لهم ، وما تقرّر أن يكون للسلطان ولولده خاصاً لها ، والمناصفات تكون كما شريح . ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شريح في هذه الهدنة وعين فيها من البلاد .

وعلى أن الفرنج لا يحدّدون في غير عكا وعثليث وصيدا : مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات ، لا قلعة ، ولا برجاً ، ولا حصناً ، ولا مستجداً .

وعلى أنه متى هرب أحد - كائناً من كان - من بلاد السلطان ولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة ، وقصد الدخول في دين النصرانية وتتنصر

بإرادته، يُرَدُّ جميع ما يروحُ معه وَيَبْقَى عُرْيَانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُّخُولَ في دين النصرانية ولا يَتَنَصَّرُ، رُدَّ إلى أبوابهما العالِيةِ بجميع ما يروحُ معه، بشفاعةِ ثِقَةٍ بعد أن يُعطى الأمان . وكذلك إذا حَضَرَ أَحَدٌ من عَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، وقصدَ الدُّخُولَ في دينِ الإسلامِ وأسلمَ بإرادته، يُرَدُّ جميع ما معه ويَبْقَى عُرْيَانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُّخُولَ في دينِ الإسلامِ ولا يُسْلِمُ، يُرَدُّ إلى الحُكَّامِ بَعَمَّا، والمُقَدَّمِينَ بِجميع ما يروحُ معه بشفاعةٍ بعد أن يُعطى له الأمان .

وعلى أَنَّ المَنوعَاتِ المعروفَ مَنَعُهَا قَدِيمًا تَسْتَقَرُّ على قَاعِدَةِ المَنعِ من الجهتين . ومتى وَجَدَ مع أَحَدٍ من تُجَّارِ بلادِ السُّلْطَانِ وَلَدَهُ من المسلمين وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم شَيْءٌ من المَنوعَاتِ بَعَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، مثلَ عَدَّةِ السِّلَاحِ وغيره، يُعَادُ على صَاحِبِهِ الذي أَشْتَرَاهُ منه، ويُعَادُ إِلَيْهِ ثَمَنُهُ، وَيُرَدُّ ولا يُؤْخَذُ مَالُهُ أَسْتِهْلَاكًا، ولا يُؤْذَى . وللسُّلْطَانِ وَلَوْلَدِهِ أن يفتَصِلَا في من يخرجُ من بلادِهِما من رَعِيَّتِهِما، على اختلاف أديانهم وأجناسهم، بِشَيْءٍ من المَنوعَاتِ . وكذلك كَفِيلُ المَلَكَةِ بَعَمَّا والمُقَدَّمُونَ لَهُم أن يفتَصِلُوا في رَعِيَّتِهِم الذين يخرجُونَ بالمَنوعَاتِ من بلادِهِم الدَّاخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ .

ومتى أَخَذَتْ أُخِيذَةً من الجَانِيَيْنِ، أَوْ قُتِلَ قَتِيلٌ من الجَانِيَيْنِ، على أَى وَجْهِ كَانَ - والعِيَادُ بِاللَّهِ - رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعَيْنِهَا إن كانت مَوْجُودَةً، أَوْ قِيمَتُهَا إن كانت مَفْقُودَةً . والقَتِيلُ يكونُ العِوَضُ عنه بِنَظِيرِهِ من جَانِسِهِ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ، وَبِرَكْلٍ بِبِرَكْلٍ، وَتَاجِرٌ بِتَاجِرٍ، وَرَاجِلٌ بِرَاجِلٍ، وَفَلَّاحٌ بِفَلَّاحٍ . فَإِن خَفِيَ أَمْرُ القَتِيلِ والأَخِيذَةِ، كانت المَهْلَةُ في الكَشْفِ أربعين يَوْمًا، فَإِن ظَهَرَتِ الأَخِيذَةُ أَوْ تَعَيَّنَ أَمْرُ المَقْتُولِ، رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعَيْنِهَا وَيَكُونُ العِوَضُ عَنِ القَتِيلِ بِنَظِيرِهِ، وَإِن لَمْ تَظْهَرِ

كانت اليمين على 'وإلى المكان المدعى عليه' ، وثلاثة نفر يقع اختيار المدعى عليهم ، من تلك الولاية . وإن امتنع الوالي عن اليمين حلف من الجهة المدعية ثلاثة نفر تختارهم الجهة الأخرى وأخذ قيمتها . وإن لم ينصف الوالي ولا رد المال ، أنهى المدعى أمره إلى الحكام من الجهتين ، وتكون المهلة بعد الإنهاء أربعين يوماً ، ويُلزَمُ الولاية من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط .

ومنى أخفوا قتيلاً أو أخيدَةً ، أو قدروا على أخذ حق ولم يأخذه كل واحد في ولايته ، يتعين على الذى يوليه من ملوك الجهتين إقامة السياسة فيه : من أخذ الروح والمال والشئ ، والإنكار التام على من يتعين عليه الإنكار إذا فعل ذلك في ولايته وأرضه .

وإن هرب أحد بمالٍ وأترف ببعضه وأنكر بعض ما يدعى به عليه ، لزمه أن يخلف أنه لم يأخذ سوى ماردّه . فإن لم يقنع المدعى بيمين الهارب ، حلف وإلى تلك الولاية أنه لم يطّلع على أنه وصل معه غير ماردّه . وإن أنكر أنه لم يصل معه شيء أصلاً ، استخلف الهارب أنه لم يصل معه للمدعى شيء .

وعلى أنه إذا أنكسر مركبٌ من مراكب تجار السلطان وولده التى أنعدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى ميناء عكا وسواحيلها ، والبلاد الساحلية التى أنعدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على الأنفس والأموال والأشباع والمتأخر . فإن وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم [إليهم] . وإن عُدِمُوا بموتٍ أو غرقٍ أو غيبةٍ ، فيُحفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد

السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، وَيَحْتَفِظُ بِمَوْجُودِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لِكَفِيلِ الْمَلِكَةِ بَعْثًا أَوْ الْمَقْدَمِ .

ومتى توفى أحد من التجار الصادرين والواردين : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، من بلاد السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ ، فِي عَكَا وَصَيْدَا وَعَثْلَيْثَ ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهَدْنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ [فِيحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ حَتَّى يُسَلَّمَ لِنَوَابِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ] ، وَإِذَا تُوُفِّيَ أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهَدْنَةِ ، يَحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ إِلَى حِينِ يُسَلَّمُ إِلَى كَفِيلِ الْمَلِكَةِ بَعْثًا وَالْمَقْدَمِينَ .

وَعَلَى أَنْ شَوَانِي السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ إِذَا عَمَرَتْ وَخَرَجَتْ لَا تَتَعَرَّضُ بِأَذْنِ إِلَى الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهَدْنَةُ . ومتى قصدت الشَّوَانِي الْمَذْكُورَةُ جِهَةً غَيْرَ هَذِهِ الْجِهَاتِ ، وَكَانَ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عَكَا ، فَلَا تَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهَدْنَةُ وَلَا تَتَرَوَّدُ مِنْهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا الشَّوَانِي الْمَنْصُورَةُ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عَكَا وَالْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْهَدْنَةُ ، فَلَهَا أَنْ تَدْخُلَ إِلَى بِلَادِهَا وَتَتَرَوَّدَ مِنْهَا . وَإِنْ أَنْكَسَرَتْ مِنْ هَذِهِ الشَّوَانِي - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فِي مِينَا مِنْ مَوَانِي الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْهَدْنَةُ وَسَوَاحِلِهَا : فَإِنْ كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعِ مَمْلَكَةِ عَكَا وَمُقَدِّمِي بُيُوتِهَا عَهْدٌ ، فَيَلْزَمُ كَفِيلُ الْمَمْلَكَةِ بَعْثًا وَمُقَدِّمِي الْبُيُوتِ بِحِفْظِهَا ، وَتَمْكِينِ رَجَالِهَا مِنَ الزَّوَادَةِ وَإِصْلَاحِ مَا أَنْكَسَرَ مِنْهَا ، وَالْعَوْدِ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَ[لَا] يَبْطُلُ حَرَكَةُ مَا تَتَّكِرُ مِنْهَا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - أَوْ يَرْمِيهِ الْبَحْرُ . هَذَا إِذَا كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعِ مَمْلَكَةِ عَكَا وَمُقَدِّمِيهَا عَهْدٌ . فَإِنْ [قَصِدَتْ مِنْ] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعَهُمْ عَهْدٌ ، فَلَهَا أَنْ تَتَرَوَّدَ وَتُعَمَّرَ رَجَالُهَا مِنَ الْبِلَادِ الْمُتَعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهَدْنَةُ ، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى الْبِلَادِ الْمَرْسُومِ لَهَا بِقَصْدِهَا ، وَيَعْتَمِدُ هَذَا الْفَصْلُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جُؤا البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادها المتفقة عليها هذه الهدنة ، فليزِم نائب المملكة والمقدمين بعكا ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكا ، والمقدمون بريئين من عهدة اليمين في هذا الفصل . ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياد بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر ، وأنحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدها بمضرة ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة بعكا ، والمقدمين بها أن يذروا عن بيوتهم ورعيّتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه . وإن حصل - والعياد بالله - جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، فليزِم كفيل المملكة بعكا ، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ، ويكونون آمينين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عكا ، والمقدمين بها يؤصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمتكئون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء . وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكااتب

فِي وَقْتِ أَخْذِ هَذَا الشَّخْصِ رَهِينَةً أَنَّهُ عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا : مِنْ دَرَاهِمَ أَوْ غَلَّةٍ أَوْ بَقَرٍ أَوْ غَيْرِهِ . فَإِذَا حَلَفَ الْوَالِي وَالْمُبَاشِرُ وَالكَاتِبُ قَدَامَ نَائِبِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ عَلَى ذَلِكَ يَقُومُ أَهْلُ الرِّهْنَةِ عَنْهُ بِمَا لِلْفَرَنْجِ عَلَيْهِ وَيُطْلَقُونَهُ . وَأَمَّا الرُّهَائِنُ الَّذِينَ أَخَذُوا مَنْسُوبِينَ إِلَى الْجَهْلِ وَالْأَخْتِشَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَهْرُبُونَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَيَمْتَنِعُ الْوَلَاةُ وَالْمُبَاشِرُونَ مِنَ الْيَمِينِ عَلَيْهِمْ ، فَأُولَئِكَ يَطْلُقُونَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَجِدَّ عَلَى التُّجَّارِ الْمَسَافِرِينَ : الصَّادِرِينَ وَالوَارِدِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْهُ عَادَةٌ ، وَيُجْرَوُ عَلَى عَوَائِدِهِمُ الْمُسْتَمَرَّةِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، وَتُؤْخَذُ مِنْهُمْ الْحَقُوقُ عَلَى الْعَادَةِ الْمُسْتَمَرَّةِ ، وَلَا يَجِدُّ عَلَيْهِمْ رَسْمٌ وَلَا حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْهُ عَادَةٌ . وَكُلُّ مَكَانٍ عُرِفَ بِاسْتِخْرَاجِ الْحَقِّ فِيهِ يَسْتَخْرَجُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَيَكُونُ التُّجَّارُ وَالسَّفَّارُ وَالْمُتَرَدِّدُونَ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ مُحَقَّرِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَصُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ بِمَا ضَعَبَتْهُمْ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْبَضَائِعِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ .

وَعَلَى أَنَّهُ يَنَادَى فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ الدَّاحِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ : أَنَّهُ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يَعُودُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًا . وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًا ، مَعْرُوفًا قَرَارِيًا مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَمَنْ لَمْ يَعُدْ بَعْدَ الْمُنَادَاةِ يُطْرَدُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَلَا يَمَكُنُ فَلَاحُو بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ ، وَلَا فَلَاحُو بِلَادِ الْفَرَنْجِ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي آتَقَعَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ ؛ وَيَكُونُ عَوْدُ الْفَلَاحِ مِنَ الْجِهَةِ إِلَى الْجِهَةِ الْآخَرَى بِأَمَانٍ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ كَنِيسَةُ النَّاصِرَةِ وَأَرْبَعُ بُيُوتٍ مِنْ أَقْرَبِ الْبُيُوتِ إِلَيْهَا لَزِيَارَةِ الْحُجَّاجِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ دِينِ الصَّلَيبِ : كَثِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَنْفَارِهِمْ :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلى بالكنيسة الاقساء^(١) والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم الى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة . وإذا نُقِبَت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يُحطُّ بحجر منها على حجر لأجل بنيته ، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من قسميها وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل الملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة ، من قسميها وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة . ويلزم كفيل الملكة بعكا ، ومقدمي البيوت بها الحكم بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة - القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها . ويفي كل منهم بما حلف به من الإيمان المؤكدة : من أنه يفى بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفوا به . تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولادهم ، وبين الحكماء بملكة عكا ، وصيدا ، وعثليث ، وهم الشيوخان أودرا^(٢) والمقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغير بموت ملك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها ، بشروطها المحددة ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومتى انقضت هذه الهدنة المباركة ، أوقع
 - والعياد بالله - فسح ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . وينادى
 برجوع كل أحد إلى وطنه بعد الإسهاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمين مطمئنين ،
 ولا ينعون من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحد من الجهتين ، وتُسَيد
 أحكامها متتابعة متوالية ، بالسنين والشهور والأيام إلى انقضائها ؛ ويلزم المتولى
 حفظها والعمل بشروطها وفصولها ، وفروعها وأصولها ؛ ويجرى الحال فيها على
 أبجل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق ، وحلف
 عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هدنة ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن
 الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ؛
 وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ؛ على يد رُسُلِهِ :
 أخويه وصهرية الآتي ذكرهم ، في صفر سنة أثنى وتسعين وستمائة ، وهى :

استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حضرة الملك الحليل ،
 المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبجل « دون » حاكم
 الريد أرغون ، وأخويه دون ولدريك ، ودون بيدرو ؛ وبين صهرية اللذين طلب
 الرسولان الوصالن إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا
 داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما ألتزم به عن
 نفسه ، ويتدرك أمرهما . وهما الملك الحليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،
 الضرغام ، دون شانجه ، ملك قشتالة ، وطليطلة ، وليون ، والنسيّة ، وأشبيلية ،
 وقرطبة ، ومرسية ، وجيان ، والغرب ، الكفيل بمملكة أرغون وبرتقال - والملك

الجليل دون أنفونش ملك برتقال، من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة
 اثنتين وتسعين وستمائة، الموافق لثلاث بقين من جنيد سنة ألف ومائتين واثنتين
 وتسعين لمولانا السيد المسيح عليه السلام. وذلك بحضور رسول الملك دون حاكم،
 وهما: المحتشم الكبير ووصوديمار موند الحاكم، عن الملك دون حاكم في بالنسية،
 ورفيقه المحتشم العمد ديمون المان قراري برجلونة، الواصلين بكتاب الملك دون
 حاكم، المختم بختم الملك المذكور، المفتضى معناه أنه حملاهما جميعاً أحوالهم
 ومطلوبهم، وسأل أن يقوموا فيما يقولانه عنه، فكان مضمون مشافهتهما وسؤالهما تقرير
 قواعد الصلح والمودة والصداقة. والشروط التي يشترطها الملك الأشرف على الملك
 دون حاكم، وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرها، ويحلف الملك المذكور
 عليها هو وأخواه وصهره المذكورون. ووضع الرسولان المذكوران خطوطهما بجميع
 الفصول الآتي ذكرها، بأمره ومرسومه. وأن الملك دون حاكم وأخويه وصهره
 يلتزمون بها، وهي: استقرار المودة والمصادقة من التاريخ المتقدم ذكره، على ممر
 السنين والأعوام، وتعاقب الآلي والأيام: براً وبحراً، سهلاً وعمرًا، قريباً وبعداً.

وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاع، وحصونه، ونغوره،
 ومالكه، ومواني بلاده وسواحلها، وبرورها، وجميع أقاليمها ومدنها، وكل ما هو
 داخل في مملكته، ومحسوب منها، ومنسوب إليها: من سائر الأقاليم الرومية،
 والعراقية، والمشرقية، والشامية، والحلبية، والفراتية، واليمينية، والحجازية، والديار
 المصرية، والغرب.

وحد هذه البلاد والأقاليم وموانئها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية
 والبلاد الرومية الساحلية، وهي: من طرابلس الغرب، وسواحل برقة،
 والإسكندرية، ودمياط، والطينة، وقطيا، وغزة، وعسقلان، ويافا،

وَأَرْشُوفَ ، وَقَيْسَارِيَّةَ ، وَعَنْثَلِيثَ ، وَحِيفَا ، وَعَكَّا ، وَصُورَ ، وَصَيْدَا ، وَيَرْوَتَ ،
وَجَبِيلَ ، وَالْيَرُونِ ، وَأَنْفَةَ طَرَابُوسَ الشَّامِ ، وَأَنْطَرُسُوسَ ، وَمَرْقِيَّةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،
وَسَاحِلَ الْمَرْقَبَ : بَانِيَّاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّاذِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعَ الْمَوَانِي
وَالْبُرُورِ إِلَى تَغْرِ دِمْيَاطَ وَبُحَيْرَةِ تَيْيَسَ .

وَحَدُّهَا مِنَ الْبَرِّ الْغَرْبِيُّ : مِنْ تُونُسَ وَإِقْلِيمِ إِفْرِيْقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُوسَ
الْغَرْبِ وَتَغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتَغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى تَغْرِ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةِ تَيْيَسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَمْلَكَةُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذَكَّرْ ، وَالْمَدَائِنُ وَالتَّنُجُورُ
وَالسَّوَاحِلُ وَالْمَوَانِي وَالطَّرِيقَاتُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالصُّدُورُ وَالْوُرُودُ ، وَالْمَقَامُ وَالسَّفَرُ ،
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكَايْنِ ، وَأَكْرَادِ ، وَعُرَبَانِ ، وَرَعَايَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَانِي ،
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشٍ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَذْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،
وَمَا تَحْتَوِيهِ الْأَيْدِي مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْبَضَائِعِ وَالْمَتَاجِرِ ،
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا . أَمِنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْحَرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَمِنْ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِيهِمْ ، وَعَمَّائِهِمْ ،
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنْ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالْبِلَادِ
وَالْأَقَالِيمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَبِلَادُ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ وَمَمْلَكَةُ الْمَذْكُورَةُ
فِي هَذِهِ الْهَدَنَةِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَقْلِيَّةٌ وَجَزِيرَتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة في الصفحة قبل .

وأعمالها، برؤولية وأعمالها وبلاؤها، جزيرة مالقة، وقوصرة وبلاؤها وأعمالها،
ميورقة وباسة وبلاؤها، وأرسويار (؟) وأعمالها، وما سيفتحه الملك دون حاكم
من بلاد أعدائه الفرنج المجاورين له بتلك الأقاليم. - آمينين من الملك الأشرف
وأولاده، وعساكره وجيوشه، وشوانيه وعمائره، هي ومن فيها من فرسان وخيالة
ورعايا. وأهل بلاده آمينين مطمئنين على الأنفس والأموال، والحريم والأولاد،
في البر والبحر، والصمدور والورود.

وعلى أن الملك دون حاكم هو وأخواته وصهره أصدقاء من بصادق الملك الأشرف
وأولاده، وأعداء من يعاديه من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية. وإن
قصد الباب برومية، أو ملك من ملوك الفرنج: متوجا كان أو غير متوج، كبيرا كان
أو صغيرا، أو من الجنوية، أو من البنادقة، أو من سائر الأجناس على اختلاف
الفرنج والروم، والبيوت: بيت الإخوة الديوية، والاسبتارية، والروم، وسائر
أجناس النصارى - مضرة بلاد الملك الأشرف، بحاربة أو أذية، يمنعهم الملك دون
حاكم هو وأخواته وصهره ويردوهم، ويعمرون شوانيههم ومراكبهم، ويقصدون
بلادهم، ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحله
ونفوره المذكورة، وغير المذكورة، ويقاتلونهم في البر والبحر بشوانيههم وعمائريهم،
وفرسانهم وخيالاتهم ورجالاتهم.

وعلى أنه متى خرج أحد من معاهدي الملك الأشرف من الفرنج عن شروط
الهدنة المستقرة بينه وبينهم، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة، لا يعينهم الملك دون
حاكم ولا أحد من أخويه ولا صهره، ولا خيالاتهم، ولا فرسانهم، ولا أهل
بلادهم، بخيل ولا خيالة، ولا سلاح ولا رجالة، ولا مال ولا تجدة، ولا ميرة،
ولا مراكب ولا شوان ولا غير ذلك.

وعلى أنه متى طلب الباب برومية، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهره أو من بلادهم، إنجاداً، أو معاونةً : بجالة، أو رجالة، أو مال، أو مراكب، أو شوان، أو سلاح - لا يوافقهم على شيء من ذلك، لا في سر ولا جهر؛ ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقهم على ذلك . ومتى أطعوا على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمخاربه أو لمضرته بشيء، يعرف الملك الأشرف بخبرهم، وبالجهة التي اتفقوا على قصدها في أقرب وقت، قبل حوطتهم من بلادهم، ولا يخفيه شيئاً من ذلك .

وعلى أنه متى أنكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم، أو بلاد أخويه أو بلاد صهره، [فعلهم] أن يخفروهم، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم، ويساعدوهم على عمارة مراكبهم، ويجهزهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف . وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم، وبلاد أخويه وصهره، ومعاهديه في بلاد الملك الأشرف، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف، أو ذمة أهل بلاده، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره وأولاده ومعاهديه، لا يعارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم، ويحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف : ليفعل فيه ما يختار . وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعاهديهم، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهره أو معاهديه رسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رَمَاهُم الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَغِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مُحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،
وَيُجَهِّزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ مَتَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ
تُوجِبُ فُسْخَ الْمُهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مَنْ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسَحُ كُلُّ مَنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ
مِنَ الْفَرَنْجِ ، أَنَّهُمْ يَجْلِبُونَ إِلَى الثَّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدَ وَالْبَيَاضَ وَالْخَشَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدَأِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا ، أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ
حَاكِمٍ وَبِلَادِ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبِيعُوهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ
فَكَ أَسْرِهِ وَحَمْلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوِيهِ
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهُمْ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَحْمُولًا عَلَى
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَاكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ
وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعُدِمَتِ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ
وَعَلَى أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ رُدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيَمَتَهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ إِلَى
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَةٍ لغيره وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،

كان على المَلِكِ دون حاكم وعلى أخويه وصهره رُدُّ الهارب أو المقيم ببضاعة غيره،
والمال معه إلى بلاد الملك الأشرف مادام مُسْلِمًا . وإن تَنَصَّرَ، يردُّ المال الذي
معه خاصة . ولملكة الملك دون حاكم وأخويه وصهره فيمن يهرب من بلادهم
إلى بلاد الملك الأشرف هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعهديه
من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده كتاب الملك دون حاكم
وختمه إلى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف، يُفَسِّحُ له في الزيارة مَسْمُوحًا
بالحق لِقَضَى زيارته ويعود إلى بلاده آمنًا مُطْمَئِنًّا في نفسه وماله ، رجلاً كان
أو امرأةً ؛ بحيثُ إن الملك دون حاكم لا يكتسب لأحد من أعدائه ولا من أعداء
الملك الأشرف في أمر الزيارة بشيء .

وعلى أن الملك دون حاكم يحرس جميع بلاد الملك الأشرف هو وأخواه وصهره
من كل مَضَرَّةٍ ، ويحتهد كل منهم في أن أحدًا من أعداء الملك الأشرف لا يصل
إلى بلاد الملك الأشرف، ولا يُنَجِّدُهم على مَضَرَّةٍ بلاد الملك الأشرف ولا رعاياه ،
وأنه يساعِدُ الملك الأشرف في البر والبحر بكل ما يشتهي ويختاره .

وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصدر ويرد ويتردد من بلاد الملك دون حاكم
وأخويه وصهره، إلى تغري الإسكندرية ودمياط، والغور الإسلامية، والممالك
السلطانية، بسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها، تستمر على حكم الضرائب
المستقرة في الديوان المعمور إلى آخر وقت ، ولا يُحَدِّثُ عليهم فيها حادثٌ . وكذلك
يجرى الحكم على من يتردد من البلاد السلطانية إلى بلاد الملك دون حاكم وأخويه
وصهره .

تَسْتَمِرُّ هذه المودَّةُ والمُصادَقَةُ على حُكْمِ هذه الشُّرُوطِ المُشْرُوحَةِ أعلاه من
الجهات على الدوام والاستمرار، وتَجْرَى أحكامُها وقَواعِدُها على أَجْمَلِ الاستقرار،
فإن المالكَ بها قد صارت مملَكَةً واحدةً وشيئاً واحداً ؛ لا تَنقُضُ بِمَوْتِ أَحَدٍ من
الجانين ، ولا بِعَزْلِ وَالٍ وَتَوَلِيَةِ غيره، بل تُؤَيِّدُ أحكامُها، وتَدُومُ أيامُها، وشُهُورُها
وأعوامُها . وعلى ذلك آتَنَظَمْتُ وَاسْتَقَرَّتْ في التاريخ المذكور أعلاه، وهو كذا
وكذا، والله الموفقُ بِكَرَمِهِ إن شاء الله تعالى .

قلتُ : وهذه النُّسخُ الخمسُ المتقدِّمةُ الذِّكْرِ نقلُها من تَذَكُّرَةِ محمد بن المَكْرَمِ ،
أحدِ كُتَّابِ الإنشاء بالدولة المنصورية «قلاوون» المُسمَّاة : «تَذَكُّرَةُ اللَّيْبِ» وَزُهَّةِ
الأديب « من نُسخَةٍ بِحُطَّه ، ذَكَرَ فيها أن النُّسخَةَ الأولى منها كَتَبَها بِحُطَّه على مَدِينَةِ
صَفَد . وليس منها ما هو حَسَنُ التَّرْتِيبِ ، رَائِقُ الألفاظِ ، بِهِجُ المعاني ، بَلِغُ المقاصدِ ،
غَيْرِ النُّسخَةِ الأخيرةِ المعقودةِ بين الملكِ الأشرفِ وبين الملكِ دون حاكم . أما سائرُ
النُّسخِ المتقدِّمةِ فإنها مُبْتَدَلَةٌ الألفاظِ ، غَيْرُ رَائِقَةٍ التَّرْتِيبِ ، لا يَصْدُرُ مِثْلُها من كَاتِبٍ
عنده أَدْنَى مُمارَسَةٍ لِصِنَاعَةِ الكلام . والعَجَبُ من صدور ذلك في زَمَنِ «الظَّاهِرِ
يَبْرَسَ» و«المنصورِ قلاوون» وهما من هُما من عُظَمَاءِ المُلوِكِ !! وَكِتَابَةُ الإنشاءِ يَوْمَئِذٍ
بِإِسْدِ بَنِي عَبْدِ الظَّاهِرِ الذين هم بَنَتْ الفصاحةِ ورُعُوسُ أربابِ البلاغةِ !!! وَلَعَلَّ
ذلك إنما وَقَعَ ، لأن القَرَنَجِ كانوا مُجاوِرِينَ للمسلمين يَوْمَئِذٍ ببلادِ الشَّامِ ، فَيَقَعُ الاتِّفَاقُ
والتَّراضى بينِ الجهتين على فَضْلِ فَضْلٍ ، فيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ من كُلِّ جِهَةٍ من جِهَتِي
المسلمين والقَرَنَجِ بِألفاظٍ مُبْتَدَلَةٍ غَيْرِ رَائِقَةٍ ، طَلَبًا لِلسَّرعَةِ ، إلى أن يَنْتَهِيَ بِهِمُ الحالُ
في الاتِّفَاقِ والتَّراضى ، إلى آخرِ فُصُولِ الهدنةِ ، فيَكْتُبُها كَاتِبُ الملكِ المُسلمِ على صُورَةٍ
ما جَرى في المُسَوَّدَةِ ، لِيُطابِقَ ما كَتَبَ به كَاتِبُ القَرَنَجِ . إذ لو عَدَلَ فيها كَاتِبُ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب ، لأختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاً ، فيكونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة . وبالجملة فإنما ذكرت النسخ المذكورة - على سخافة لفظها ، وعدم انسجام ترتيبها - لأشتملها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضر بباله من مقاصد المهادنات ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قربنها يميناً يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة ، على التولية بفصولها وشروطها ؛ ويميناً يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة ، ممن يأذن له في عقدها عنه ، بكتاب يصدر عنه بذلك ، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

المذهب الثالث

(أن تفتتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ « الحمد لله »)

وعلى هذا بنى صاحب "مواد البيان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أذل كل دين وأعزّه ، وخذل كل شرع ونصره ، وأخفى كل مذهب وأظهره ؛ والتوغل في توحيده ، وتقديسه وتمجيدِه ، والثناء عليه بآلائه ، والصلاة على خير أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدْنِيَّةٍ مُتَّظِمَةٍ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ ، بَلْ أَشَارَ إِلَى كَيْفِيَّةِ عَمَلِهَا . ثُمَّ قَالَ : وَالْبَلِيغُ يَكْتَفِي بِقَرِيحَتِهِ فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْمَعَانِي إِذَا دُفِعَ إِلَى الْإِنْشَاءِ فِيهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَلَمْ أَقِفْ لغيره عَلَى صُورَةِ هُدْنِيَّةٍ مُفْتَتَحَةٍ بِالتَّحْمِيدِ ، وَلَا يَخْفَى أَنْ الْإِبْتِدَاءَ بِهِ فِي كُلِّ مُهِمٍّ مِنَ الْعُهُودِ وَجَلَائِلِ الْوَلَايَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْمُولُ عَلَيْهِ فِي زَمَانِنَا .

الطرف الثاني

(فِيمَا يُشَارِكُ فِيهِ مُلُوكُ الْكُفْرِ مُلُوكَ الْإِسْلَامِ فِي كِتَابَةِ نُسخٍ مِنْ دَوَائِيهِمْ)

إِعلم أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْهُدْنِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ مُلُوكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَبَيْنَ مُلُوكِ الْكُفْرِ أَنْ تُكْتَبَ نَسْخَةٌ تُخَلَّدُ بِدِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَنْشَاءِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَنُسْخَةٌ تُجَهَّزُ إِلَى الْمَلِكِ الْمُهَادِنِ . وَرُبَّمَا كُتِبَتْ نَسْخَةٌ مِنْ دِيْوَانِهِ مُفْتَتَحَةٌ بِبَيِّنٍ .

وهذه نَسْخَةٌ هُدْنِيَّةٌ وَرَدَّتْ مِنْ جِهَةِ الْأَشْكِي ، صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَسِتْمِائَةٍ ، مُؤَرَّخَةٌ بِتَارِيخِ مَوَاقِفٍ لِأَوَاخِرِ الْمَحْرَمِ مِنْ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ، فَعَرَّبْتُ فَكَانَتْ نُسخَتُهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو مُكْرَمٍ فِي "تَذْكِرَتِهِ" :

إِذْ قَدْ أَرَادَ السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ ، النَّسِيبُ ، الْعَالِي ، الْعَزِيزُ ، الْكَبِيرُ الْجَنَسُ ، الْمَلِكُ ، الْمَنْصُورُ ، سَيْفُ الدِّينِ « قَلَاوُونَ » صَاحِبُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَدِمَشْقَ وَحَلَبَ ، أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَمْلَكَتِي مُحَبَّةً - فَمَلَكْتِي تُؤَثِّرُ ذَلِكَ ، وَتُخْتَارُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عِزِّ سُلْطَانِهِ مُحَبَّةً . وَلِهَذَا وَجِبَ أَنْ يَتَوَسَّطَ هَذَا الْأَمْرَ بَيْنِي وَأَنْتَافَقَ : لِتُدَوِّمَ الْمُحَبَّةَ الَّتِي بِهِذِهِ الصُّورَةُ فِيمَا بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ نَائِبَةً بِلَا تَشْوِيشٍ . فَمَلَكْتِي هَذَا الْيَوْمَ ، وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ الثَّامِنُ مِنْ شَهْرِ إِيَّارٍ مِنَ التَّارِيخِ [الرُّومِي] التَّابِعِ لِسَنَةِ سِتَّةِ آلَافِ

وسبعائة وتسع وثمانين لآدم - تحلف بأناجيل الله المتدسة، والصليب المكرم المحيي،
أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز، الكبير الجنيس،
سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولولده ولوارث
ملك عز سلطانة : محبة مستقيمة، وصداقة كاملة تقيّة، ولا تحرك ملكي أبداً على
عز سلطانة حرباً، ولا على بلاده ولا على قلاعها، ولا على عساكره، ولا تحرك
ملكى أبداً على حرب، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز،
الكبير الجنيس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية
ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولده مملكتي الحبيب الكينوس،
الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا تحرك عز سلطانة على
مملكينا حرباً قط، ولا على بلادنا، ولا على قلاعنا، ولا على عساكرنا، ولا تحرك
أحدًا آخر أيضاً على حرب مملكتنا. وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانة أيضاً
مطلقاً [آمين، لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث
يسيرون من عز سلطانة، وكذلك يعودون إلى عز سلطانة. وأن لا يحصل للتجار
الواردين من بلاد عز سلطانة [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحدرون من أحد جوراً
ولا ظمناً، بل يكون لهم مباحاً أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد
عز سلطانة من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليقيم كذلك
التجار الواردون من بلاد عز سلطانة إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم.
وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانة، فلا ينال
هؤلاء تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد
القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانة والذين من أهل
سوداق إن حضر صحتهم ممالك وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانة بلا عائق

ولا مانع، ما خلا إن كانوا نصارى، لأنَّ شرعنا وترتيب مذهبنا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا .

وأما إن كان في بلاد عز سلطانة ممالك نصارى : روم وغيرهم من أجناس النصارى، متمسكون بدين النصارى، ويحصل لقوم منهم العتق، فليكن للذين معهم عتائق مباح ومطلق من عز سلطانة، أن يقدوا في البحر إلى بلاد مملكتي . وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عز سلطانة أن يبيع مملوكًا نصرانيًا هذه صورته لأحد من رسل مملكتي، أو لتجار وأناس بلاد مملكتي، أن لا يجد في هذا تعويقًا، بل يشتروا المذكور ويقدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق . وأيضًا إن أراد هذا السلطان العظيم النسيب، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجرا، وأرادت مملكتي أن ترسل إلى بلاد عز سلطانة بضائع متجرا، فليكن هكذا : وهو إن أراد عز سلطانة أن تكون بضائع متاجره في بلاد ملكي منجاة من القيام بكل الحقوق، فليكن أيضا بضائع متاجر مملكتي في بلاد عز سلطانة منجاة مثل ذلك من كل الحقوق، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة [يقوم] بمثل ذلك . وأيضًا أن يطلق عز سلطانة لملك أن يرسل أناسًا من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانة، فيشترون لي خيلًا جيدًا ويحملونها إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد عز سلطانة شيئًا من خيرات بلاد ملكي، فمملكتي أيضا تطلق لعز سلطانة أن يرسل أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عز سلطانة .

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غربية، وقد يتفق في بعض الأوقات أن يعملوا خسارة في بلاد ملكي، وكذلك يحدون هؤلاء الكرسالية قوماً من بلاد عز سلطانة فيعملون لهم خسارة، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الآفاق في تحوم بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عز

سُلْطَانِهِ بِمَنْجَرٍ يُمَسْكُونُ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَغْرَمُونَ . ولهذا فَلْيَصِرْ مَرْسُومٌ
 مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَغْرَمُ بِهَذَا السَّبَبِ
 وَلَا يُمَسَّكَ ، وَإِنْ عَرَضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غُرِّمَ أَوْ ظُلِمَ
 مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مُلْكِي فَلْيَعْرِفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْغَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ
 بِلَادِ مُلْكِي ، فَمُلْكِي يَأْمُرُ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْخَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ
 قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظُلِمَ أَوْ غُرِّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،
 يَأْمُرُ عِزُّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْغَرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أَزْمَعَتِ الْحَبَّةُ أَنْ
 نَصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِنَّهُ
 أَرْسَلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجْدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضَرَّةِ الْعَدُوِّ الْمَشْتَرَكِ ، فَمَمْلَكَتِي
 تَفَوِّضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى اخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبِ فِي نَسْخَةِ الْيَمِينِ مَعَ بَقِيَّةِ
 الْفُصُولِ الْمَعِينَةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعِينَ وَتَجِدُ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ
 لَا يُرِيدُ تَجْدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَصْلِ أَنْ لَا يَضَعَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ
 فِي نُسْخَةِ يَمِينِهِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ مِمَّا يَحْفَظُ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرُ مُتَرَعِّعَةٍ إِنْ كَانَ
 هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَخْلُفُ لِي يَمِينًا بِمِثْلِهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبَّةَ لِمَمْلَكَتِنَا ، ثَابِتَةً غَيْرُ
 مُتَرَعِّعَةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نُسْخَةُ اتِّفَاقٍ ، كَتَبْتُ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ عَنِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ «قَلَاوُونَ»
 عَنْ نَظِيرِ الْمَهْدَنَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، الْوَارِدَةِ مِنْ قِبَلِ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، مُفْتَتِحَةً بِيَمِينِ
 مُوَافَقَةٍ لَهَا ، وَهِيَ :

أَقُولُ وَأَنَا فَلَانٌ : إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ حَضْرَةُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، كَرْمِيخَائِيلَ ، الدُّوقْسَ ،
 الْأَنْجَالُوسَ ، الْكِينِيُوسَ ، الْبَالَاوُلُوغْسَ ، ضَابِطَ مَمْلَكَةِ الرُّومِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعُظْمَى ،

أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله - أن يكون بين مملكته وبين عز سلطانى ، حبة
وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ؛ وأكد ذلك
بيمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبعائة
وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عز سلطانى ، الأمير ناصر الدين
أبن الجزرى ، والبطرك الحليل انباسيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسوله
فلان وفلان إلى عز سلطانى بنسخة اليمين ، ملتيمين أن يتوسط هذا الأمر أيضا
يمين واتفاق من عز سلطانى ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطانى ، وتكون
نايبة مستمرة على الدوام والاستمرار .

فعر سلطانى من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان المعظم ، سنة
ثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؛
يحلف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر والعلانية وما تخفى
الصدور ، والقرآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه ، وهو النبي الكريم ،
محمد صلى الله عليه وسلم - على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية ، للملك
الحليل كرميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ، ولولد مملكته
الحبيب الكينوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس ، الملك إيراندروبنفوس ،
ولواري مملكة ملكه . ولا يحرك عز سلطانى أبدا على مملكته حربا ، ولا على
بلاديه ، ولا على قلاعه ، ولا على عساكره : فى بر ولا بحر . ولا يحرك
عز سلطانى أحدا آخر على حربه ، بحيث إن الملك الحليل كرميخائيل يحفظ مثل
ذلك لعز سلطانى ، ولملكى ، ولبلادى ، ولقلاعى ، ولعساكرى ، ولولدى السلطان
الملك الصالح علاء الدين «على» ولواري ملكى من أولادى ؛ ويستمر على هذه
الصداقة والمودة النقية ، ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربا قط ، ولا على

بلادى ، ولا على قلاعى ، ولا على عساكرى ، ولا على مملكتى ، ولا يحرك أحداً آخر على حرب مملكة عز سلطانى فى البر ولا فى البحر ، ولا يساعده أحدًا من أضداد عز سلطانى ، ولا أعدائى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يؤايقه على ذلك ، ولا يفسح لهم فى العبور إلى مملكة عز سلطانى لمضرة شئ فيها بجهد وطاقتيه .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطانى إلى بر بركة وأولاده وبلادهم وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئين مطلقاً : لهم أن يعبروا فى بلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخايل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق : أرسلوا فى بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطانى ، آمنين مطمئين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة الملك الجليل كرميخايل إلى بلاد عز سلطانى جور ولا ظلم ، ويترددون آمنين مطمئين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية فى الصدور والورود ، والمقام والسفر : بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطانى فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل مثل ذلك ، ويكونون مرعيين ، لا يجردون من أحد فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل جوراً ولا ظملاً . ومن عليه حق واجب فى الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بممالك وجوار تمكثهم مملكة الملك الجليل كرميخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطانى ولا تمنعهم . وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين فى البحر ، ونسبت الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخايل ، يسير عز سلطانى إليه فى طلبهم ،

ولا يتعترض أحدٌ من نواب مملكة عِزِّ سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم أخذون ، أو تظهر عينُ المالِ معهم ، على ما تضمنته نسخةُ يمينِ الملكِ الجليلِ كرميخائيل ، ولملكة الملكِ الجليلِ كرميخائيل من بلاد عِزِّ سلطاني مثلُ ذلك .

وعلى أنَّ الرسلَ المترددين من الجهتين : من مملكة عِزِّ سلطاني ، ومن مملكة الملكِ الجليلِ كرميخائيل ، يكونون آمينين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : براً وبحراً ، وتكون رعيةُ بلاد عِزِّ سلطاني ، ورعيةُ بلاد الملكِ الجليلِ كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمينين مطمئنين ، صادرين واردين ، مُحترمين مرعيين . وهذه اليمينُ لا تزالُ محفوظةً ملحوظةً ، مُستمرةً مستقرةً ، على الدوامِ والاستمرار .

قلتُ : وهذه النسخةُ والنسخةُ الواردةُ من صاحبِ القُسطنطينيةِ المتقدمة عليها ، وإنْ عبرَ عنهما في خلالهما بلفظِ اليمينِ ، فإنهما بعقدِ الصلحِ أشبهُ ، واليمينُ جزءٌ من أجزاء ذلك ، ولذلك أوردتها في عقودِ الصلحِ دونِ الأيمان .

الباب الخامس

من المقالة التاسعة

(في عقود الصلح الواقعة بين مَلَكين مُسلمين ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصولٍ تُعتمدُ في ذلك

اعلم أنَّ الأصلَ في ذلك ما ذكره أصحابُ السَّيرِ وأهلُ التَّاريخِ ، أنه لما وقع الحربُ بين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالبٍ كرمَ اللهُ وجهه ، وبين معاويةَ بن أبي سفيانَ رضيَ اللهُ عنه ، في صِفِّينَ ، في سنة سبعٍ وثلاثينَ من الهجرة - توافَقا على أن يُقيما حَكَمَيْنِ بينهما ، ويعمَلا بما يَتَّفِقانِ عليه . فأقام أمير المؤمنين عليّ أبا موسى الأشعريَّ حَكَمًا عنه ، وأقام معاويةَ عمرو بن العاصِ حَكَمًا عنه . فاتفق الحَكمان على أن يُكتبَ بينهما كتابُ بعقدِ الصلحِ ، وأجتمعا عند عليّ رضي اللهُ عنه ، وكتبَ كتابُ القَضِيَّةِ بينهما بحضوره ، فكتبَ فيه بعد البَسْمَلَةِ :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين عليّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تمحُ اسمُ أمير المؤمنين فإنِّي أخاف إن محوتها أن لا ترجعَ إليك أبدا . لا تمحُها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك عليّ مليًّا من النهار . ثم إن الأشعث^(١) ابن قيس قال : أمحُ اسمَ أمير المؤمنين ؛ فأجاب عليّ ومحا . ثم قال عليّ : الله أكبر ! سنةً بسنة . والله إنِّي لَكاتبُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يومَ الحُدَيْبِيَّةِ ، فكتبتُ : محمدُ رسولُ اللهِ ، فقالوا : لستَ برسولِ اللهِ ، ولكن آكتبُ اسمَكَ واسمَ أبيك .

(١) بياض في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُجْوِهِ ، فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ
إِذْنُ أَرْنِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَمَحَاهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتُدْعَى إِلَى مِثْلِهَا فُتَجِيبْ » .



وهذه نُسخَةُ كِتَابِ الْقِضِيَّةِ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، فِيمَا رَوَاهُ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مُزَاهِمِ الْمُنْقَرِي ، فِي " كِتَابِ صِفَتِ الْحَكَمِيِّينَ " بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشَّعْبِيِّ ، وَهُوَ :

هَذَا مَا تَقَاضَى عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَشِيعَتُهُمَا ،
فِيمَا تَرَاضِيَا مِنَ الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قِضِيَّةٌ عَلَى عَلِيٍّ
أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، وَقِضِيَّةٌ مُعَاوِيَةَ عَلَى أَهْلِ
الشَّامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، أَنَا رَضِينَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَ حُكْمِ
كِتَابِ اللَّهِ بَيْنَنَا حُكْمًا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ قَاتِلَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ
مَا أَمَاتَ . عَلَى ذَلِكَ تَقَاضَيْنَا ، وَبِهِ تَرَاضَيْنَا . وَأَنَّ عَلِيًّا وَشِيعَتَهُ رَضُوا أَنْ يَبْعَثُوا
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، وَرَضَى مُعَاوِيَةُ وَشِيعَتُهُ أَنْ يَبْعَثُوا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ
نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، عَلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَيْهِمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، وَأَعْظَمَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى
أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، لِيَتَّخِذَا الْكِتَابَ إِمَامًا فِيمَا يُعْتَمَلُ ، لَا يَبْغِدُونِهِ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ
بِمَا وَجَدَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ مُسَمًّى فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَعَمَّدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ فِي ذَلِكَ لَهَا هَوًى ، وَلَا يَدْخُلَانِ
فِي شُبُهَةٍ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ
بِالرِّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَيْسَ لَهَا أَنْ يَنْقُضَا ذَلِكَ تَخَالُفًا إِلَى

غَيْرِهِ ، وَأَنْهَمَا آمِنَانِ فِي حُكُومَتَيْهِمَا عَلَى دِمَائِهِمَا وَأَمْوَالِهِمَا ، مَا لَمْ يَعْدُوا الْحَقَّ ، رَضِيَ بِذَلِكَ رَاضٍ أَوْ أَنْكَرَ مُنْكَرٍ . وَأَنَّ الْأُمَّةَ أَنْصَارُهَا عَلَى مَا قَضَا بِهِ مِنَ الْعَدْلِ .

فَإِنْ تَوَقَّى أَحَدُ الْحَاكِمِينَ قَبْلَ أَنْقِضَاءِ الْحُكُومَةِ ، فَامِيرُ شِيعَتِهِ وَأَصْحَابُهُ يَخْتَارُونَ رَجُلًا ، لَا يَأْلُوَانِ عَنْ أَهْلِ الْمَعْدِنَةِ وَالْإِفْسَاطِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَالْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَلَهُ مِثْلُ شَرْطِ صَاحِبِهِ .

وَإِنْ مَاتَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمِيرَيْنِ قَبْلَ الْقَضَاءِ ، فَلِشِيعَتِهِ أَنْ يُؤَلُّوا مَكَانَهُ رَجُلًا يَرْضَوْنَ عَدْلَهُ .

وَقَدْ وَقَعَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنَنَا وَالْأَمْنُ وَالتَّفَاوُضُ ، وَوُضِعَ السَّلَاحُ . وَعَلَى الْحَاكِمِينَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ : لِيَحْكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَا يَدْخُلَانِ فِي شُبْهَةٍ وَلَا يَأْلُوَانِ أَجْتِهَادًا ، وَلَا يَتَعَمَّدَانِ جَوْرًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ هَوًى ، وَلَا يَعْدُوَانِ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . فَإِنْ لَمْ يَفْعَلَا بَرَأَتِ الْأُمَّةُ مِنْ حُكْمِهِمَا ، وَلَا عَهْدَ لَهَا وَلَا ذِمَّةَ .

وَقَدْ وَجَبَتِ الْقَضِيَّةُ عَلَى مَا سَمَّيْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ مَوْقِعِ الشَّرْطِ عَلَى الْأَمِيرَيْنِ وَالْحَاكِمِينَ وَالْفَرِيقَيْنِ ، وَاللَّهُ أَقْرَبُ شَهِيدًا وَأَدْنَى حَفِيزًا ، وَالنَّاسُ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَنْقِضَاءِ مُدَّةِ الْأَجَلِ ، وَالسَّلَاحُ مَوْضُوعٌ ، وَالسَّبِيلُ مُخْلًى ، وَالشَّاهِدُ وَالْغَائِبُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ سَوَاءٌ فِي الْأَمْرِ . وَلِلْحَاكِمِينَ أَنْ يَنْزِلَا مَنَزِلًا عَدْلًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَلَا يَحْضُرُهُمَا فِيهِ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ عَنْ مَلَأٍ مِنْهُمَا وَتَرَاضٍ . وَأَجَلَ الْقَاضِيَيْنِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَمَضَانَ : فَإِنْ رَأَى الْحَاكِمَانِ تَعَجُّيلَ الْحُكُومَةِ فِيمَا وَجَّهَ لَهُ ، عَجَّلَا . وَإِنْ أَرَادَا تَأْخِيرَهُ بَعْدَ رَمَضَانَ إِلَى أَنْقِضَاءِ الْمَوْسِمِ ، فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِمَا . فَإِنْ هُمَا لَمْ يَحْكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ إِلَى أَنْقِضَاءِ الْمَوْسِمِ ، فَلِلْمُسْلِمِينَ عَلَى

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب . وهم يد على من أراد في هذا الكتاب الحساد أو ظلمًا ، أو أراد له نقضًا .

شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب علي : الأشعث بن قيس ، وعبد الله بن عباس ، والأشتر بن الحرث ، وسعيد بن قيس الهمداني ، والحسين والطفيل أبنا الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخباب بن الأرت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري ، ورفاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحقيق الخزاعي ، والحسن والحسين أبنا علي ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجر بن عدي الكندي ، ووزقاء بن سمي البجلي ، وعبد الله بن الطفيل الأنصاري ، ويزيد بن حجة الدكري^(١) ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، وأبو صفرة ، والحرث بن مالك ، ومجر بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسلمة الفهمي ، و[أبو] الأعور السلمي ، وبسر ابن أرطاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحرث الحميري ، وزميل بن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، وحمزة بن مالك الهمداني ، وسبع بن زيد الحميري^(٣) ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلقمة بن مرثد

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة التيمي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : الفهرى .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكلبي، وخالد بن الحصين السكسكي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن الحز
العبيسي، ومسروق بن حملة العكي، ومخير بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر
القرشي، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة القرشي، وعقبة بن أبي سفيان،
ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجذامي، وعمار
ابن الأخوص الكلبي، ومسعدة بن عمر القيني، وعاصم بن المستنير الجذامي،
وعبد الرحمن بن ذى كلاع الحميري، وال صباح بن جلهمة الحميري، وثمامة بن
حوشب، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك .

وإنّ يبتنا على ما في هذه الصحيفة عهد الله وميثاقه . وكتب عمير يوم الأربعاء
لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين .

وأخرج أيضا بسنده إلى أبي إسحق الشيباني أن عقد الصلح كان عند سعيد
ابن أبي بردة في صحيفة صفراء عليها خاتمان : خاتم في أسفلها، وخاتم في أعلاها .
في خاتم علي « محمد رسول الله » وفي خاتم معاوية « محمد رسول الله » .

قلت : وذكر روايات أخرى فيها زيادة ونقص أضربنا عن ذكرها خوفاً
الإطالة، إذ فيما ذكرنا منفع . على أن المؤرخين لم يذكروا من ذلك إلا طرفاً يسيراً .

الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرت العادة بِكُتَابته بين الخُلفاء ومُلوِك المسلمين على تعاقب الدول،

مما يُكُتَبُ في الطُّرَّةِ والمُتَنِّ)

أما الطُّرَّةُ : فليُعلَمَ أنَّ الذي ينبغي أن يُكُتَبَ في الطُّرَّةِ هنا : « هذا عقدُ صلحٍ »
ويُكَلَّ على ما تقدَّم في المُهْدَنَةِ . ولا يُكُتَبُ فيه : « هذه هُدْنَةٌ » لما يسبق إلى
الأذهان من أن المراد من الهُدْنَةِ ما يجرى بين المسلمين والكُفَّار .

وأما المُتَنُّ فعلى نوعين :

النوع الأول

(ما يكون العقدُ فيه من الجانين)

ولم أَرِ فيه للكُتَّابِ إلا الأستفتاحَ بلفظ : « هذا » . وعليه كُتِبَ كِتَابُ القَضِيَّةِ
بين أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وبين مُعاوِيَةَ بن أبي سُفْيَانَ
رضي الله عنه ، على ما تقدَّم ذكره .

وعلى ذلك أَسْتُكُتِبَ هُرُونُ الرَّشِيدُ وَلَدَيْهِ : محمدا الأَمِين ، وعبدَ الله المأمُون :
العَهِدَيْنِ اللَّذَيْنِ عَهِدَ فِيهِمَا بالخِلافةَ بعده لأبْنِهِ الأَمِينِ ، وولَّى خُرَاسَانَ أَبْنَهُ المأمُون ،
ثم عَهِدَ بالخِلافةَ من بعد الأَمِينِ للمأمُون ، وأَشْهَدَ فِيهِمَا ، وبعثَ بهما إلى مَكَّةَ فَعَلَّقَا
في بَطْنِ الكَعْبَةِ ، في جُمْلَةِ المَعْلَقَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُعَلَّقُ فِيهَا ، على عادة العَرَبِ السَّائِقَةِ :
من تَعْلِيقِ القَصَائِدِ وَنَحْوِهَا . وبذلك سُمِّيَتِ القَصَائِدُ السُّبْعُ المشهورةُ : بالمَعْلَقَاتِ ،
لتعليقهم إِيَّاهَا في جَوْفِ الكَعْبَةِ .

أما عهدُ الأمينِ ، فنُسَخَتْهُ بعدَ البَسْمَلَةِ - على ما ذكره الأزرقي في أخبار مَكَّة -
ما صُوِّرَتْهُ :

هذا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَتَبَهُ [له] مُحَمَّدُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَحَّةٍ
مِنْ بَدَنِهِ وَعَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرِهٍ .

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ وَلَّانِي الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَجَعَلَ لِي الْبَيْعَةَ فِي رِقَابِ
الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، وَوَلَّى أُنْحَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ
أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي ، بِرِضَا مِنِّي وَتَسْلِيمٍ ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرِهٍ . وَلَوْلَاهُ خُرَاسَانَ
بِشُغُورِهَا ، وَكُورَهَا ، وَجُنُودَهَا ، وَخَرَاجَهَا ، وَطَرَاذِهَا ، وَبُيُوتِ أَمْوَالِهَا ،
وَصَدَقَاتِهَا ، وَعُشْرُهَا وَعُشُورِهَا ، وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا ، فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ . فَشَرَطْتُ
لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا جَعَلَهُ لَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونُ : مِنْ الْبَيْعَةِ
وَالْعَهْدِ ، وَلِلْوَلَايَةِ الْخِلَافَةِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدِي ، وَتَسْلِيمِ ذَلِكَ لَهُ ، وَمَا جَعَلَ لَهُ
مِنْ وَلَايَةِ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَا أَقْطَعَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونُ مِنْ قِطِيعَةٍ ، وَجَعَلَ لَهُ
مِنْ عُقْدَةٍ أَوْ ضَيْعَةٍ مِنْ ضَيْاعِهِ وَعُقْدَةٍ ، أَوْ ابْتِنَاعٍ لَهُ مِنَ الضَّيَاعِ وَالْعُقَدِ . وَمَا أَعْطَاهُ
فِي حَيَاتِهِ وَصَحَّتِهِ : مِنْ مَالٍ ، أَوْ حُلِيِّ ، أَوْ جَوْهَرٍ ، أَوْ مَتَاعٍ ، أَوْ كُسُوءٍ ، أَوْ رَقِيقٍ ،
أَوْ مَتَرَلٍ ، أَوْ دَوَابٍّ ، قَلِيلًا ، أَوْ كَثِيرًا ، فَهُوَ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُوقَرًّا عَلَيْهِ ،
مُسَلِّمًا لَهُ . وَقَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِاسْمِهِ وَأَصْنَافِهِ وَمَوَاضِعِهِ ، أَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ هُرُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ اخْتَلَفْنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُ فَالْقَوْلُ فِيهِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا أَتَّبِعُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْذُهُ مِنْهُ ، وَلَا أَنْتَقِصُهُ ، صَغِيرًا
وَلَا كَبِيرًا [مِنْ مَالِهِ] وَلَا مِنْ وَلَايَةِ خُرَاسَانَ وَلَا غَيْرِهَا مِمَّا وَلَّاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
الْأَعْمَالِ ، وَلَا أَعِزُّهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا أَخْلَعُهُ ، وَلَا أَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ ، وَلَا أَقْدِمُ عَلَيْهِ

فِي الْعَهْدِ وَالْخِلَافَةِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا ، وَلَا أُدْخِلُ عَلَيْهِ مَكْرُوهًا فِي نَفْسِهِ وَلَا دَمِهِ ،
وَلَا شَعْرَهُ وَلَا بَشْرَهُ ، وَلَا خَاصًّا وَلَا عَامًّا مِنْ أُمُورِهِ وَوِلَايَتِهِ ، وَلَا أَمْوَالِهِ ، وَلَا قَطَائِعِهِ ،
وَلَا عُقْدَهُ ، وَلَا أُغَيِّرُ عَلَيْهِ شَيْئًا لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَلَا أَخْذُهُ وَلَا أَحَدًا مِنْ عُمَّالِهِ وَكُتَّابِهِ
وَوُلاةِ أَمْرِهِ - مِنْ صَحْبِهِ وَأَقَامَ مَعَهُ - بِمُحَاسَبَةٍ ، وَلَا أَتَتَّبِعُ شَيْئًا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ وَأَيْدِيهِمْ
فِي وَلايَةِ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَغَيْرِهَا مِمَّا وَلَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَيَاتِهِ وَصِحَّتِهِ : مِنْ
الْجَبَايَةِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالطَّرَازِ ، وَالْبَرِيدِ ، وَالصَّدَقَاتِ ، وَالْعُشْرِ وَالْعُسُورِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ،
وَلَا أَسْرُ بِذَلِكَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَلَا أَرْخُصُ فِيهِ لَغَيْرِي ، وَلَا أَحْدَثُ نَفْسِي فِيهِ بِشَيْءٍ
أَمْضِيهِ عَلَيْهِ ، وَلَا أَلْتَمِسُ قَطِيعَةً لَهُ ، وَلَا أَتَقْصُ شَيْئًا مِمَّا جَعَلَهُ لَهُ هَرُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
وَأَعْطَاهُ فِي حَيَاتِهِ وَخِلَافَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مِنْ جَمِيعِ مَا سَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا . وَأَخْذُهُ لِي عَلَى
وَعَلَى جَمِيعِ النَّاسِ الْبَيْعَةِ ، وَلَا أَرْخُصُ لِأَحَدٍ - مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي جَمِيعِ مَا وَلَّاهُ -
فِي خَلْعِهِ وَلَا مُحَالَفَتِهِ ، وَلَا أَسْتَعِ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْبَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ قَوْلًا ، وَلَا أَرْضَى بِذَلِكَ
فِي سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ ، وَلَا أُغْمِضُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَتَغَافَلُ عَنْهُ ، وَلَا أَقْبِلُ مِنْ بَرٍّ مِنَ الْعِبَادِ
وَلَا فَاحِشٍ ، وَلَا صَادِقٍ وَلَا كَاذِبٍ ، وَلَا نَاصِحٍ وَلَا غَاشٍّ ، وَلَا قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ ، وَلَا أَحَدٍ
مِنْ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مِنْ ذَكَرِي وَلَا أُتَى - مَشُورَةً ، وَلَا حِيلَةً ، وَلَا مَكِيدَةً
فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ : سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَحَقًّا وَبَاطِلًا ، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا ،
وَلَا سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، أَرِيدُ بِذَلِكَ إِفْسَادَ شَيْءٍ مِمَّا أُعْطِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ هَرُونَ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِي ، وَأَوْجِبْتُ لَهُ عَلَى ، وَشَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا .

وَإِنْ أَرَادَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ سُوءًا أَوْ مَكْرُوهًا ، أَوْ أَرَادَ خَلْعَهُ أَوْ مُحَارَبَتَهُ ،
أَوْ الْوُصُولَ إِلَى نَفْسِهِ وَدَمِهِ ، أَوْ حَرَمِهِ ، أَوْ مَالِهِ ، أَوْ سُلْطَانِهِ أَوْ وِلَايَتِهِ : جَمِيعًا
أَوْ فَرَادَى ، مُسَرِّينَ أَوْ مُظْهِرِينَ لَهُ - فَإِنِّي أَنْصُرُهُ وَأَحُوطُهُ ، وَأَدْفَعُ عَنْهُ ، كَمَا أَدْفَعُ عَنْ
نَفْسِي ، وَمُهَجَّتِي ، وَدَمِي ، وَشَعْرِي ، وَبَشْرِي ، وَحُرْمِي ، وَسُلْطَانِي ، وَأَجْهَزُ الْجُنُودَ

إليه ، وأعينه على كل من غشه وخالفه ، ولا أسلمه [ولا أخذه] ولا أنخلّ عنه ، ويكون أمرى وأمره في ذلك واحداً [أبداً] ما كنت حياً .

وإن حدث بأمر المؤمنين هرون حدث الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين بحضرة أمير المؤمنين ، أو أحدنا ، أو كلاً غائبين عنه جميعاً : مجتمعين كلاً أو متفرقين ، وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان [فعلى لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان] وأن أسلم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا أعوقه عنها ، ولا أحبس قبي ، ولا في شيء من البلدان دون خراسان ، وأنجل إشخاصه إلى خراسان وإلياً عليها مفرداً بها ، مفوضاً إليه جميع أعمالها كلها ، وأشخص معه من ضم إليه أمير المؤمنين : من قواده ، وجنوده ، وأصحابه ، وكُتّابه ، وعمّاله ، ومواليه ، وخدّمه ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم ؛ ولا أحبس عنه أحداً ، ولا أشرك معه في شيء منها أحداً ، ولا أرسل أميناً ولا كاتباً ولا بُنداراً ، ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير .

وأعطيت هرون أمير المؤمنين وعبد الله بن هرون على ما شرطت لهما على نفسي ، من جميع ما سميت وكتبت في كتابي هذا - عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين وذمتي ، وذمة آبائي وذمة المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله تعالى على النبيين والمرسلين وخلقهم أجمعين : من عهوده وموآثيقه ، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت لهرون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هرون أمير المؤمنين وسميت في كتابي هذا ، أو حدثت نفسي أن أنقض شيئاً مما أنا عليه ،

أَوْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ ، أَوْ حُلْتُ أَوْ غَدَرْتُ ، أَوْ قِيلْتُ [ذلك] مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ :
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، بَرًّا أَوْ فَاحِشًا ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، وَجَمَاعَةً أَوْ فَرَادَى - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنْ وَلَايَتِهِ ، وَمِنْ دِينِهِ ، وَمَنْ عَهْدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَقِيتُ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا مُشْرِكًا . وَكُلُّ أَمْرَاءٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتَزَوَّجُهَا إِلَى
ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا ، الْبَتَّةَ ، طَلَاقِ الْحَرَجِ ، وَعَلَى الْمَشْيِ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ
ثَلَاثِينَ حَجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي ، حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ
بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُكَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدًى بِالْبَيْعِ الْكُفْبَةِ
الْحَرَامِ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُكَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أحرارًا لَوْجَهَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ .

وَكُلُّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكِتَبْتُهُ وَشَرَطْتُهُ
لَهُمَا ، وَحَلَفْتُ عَلَيْهِ ، وَتَمَيَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِإِزْمٍ لِي الْوَفَاءَ بِهِ ، لَا أَضْمُرُ غَيْرَهُ ،
وَلَا أَتَوَى إِلَّا إِلَهَاهُ . فَإِنْ أَضْمَرْتُ أَوْ تَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَائِقُ وَالْإِيمَانُ
كُلُّهَا لَازِمَةٌ لِي ، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَقُوَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْآفَاقِ وَالْأَمْصَارِ
فِي حِلٍّ مِنْ خَلْعِي وَإِنْخِرَاجِي مِنْ وَلَايَتِي عَلَيْهِمْ ، حَتَّى أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ ،
وَكَرْجُلٍ مِنْ عَرَضِ الْمُسْلِمِينَ ، لَاحِقٌ لِي عَلَيْهِمْ ، وَلَا وَلَايَةً ، وَلَا تَبِيعَةً لِي قَبْلَهُمْ ،
وَلَا تَبِيعَةً لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْإِيمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي ، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا
وَوِزْرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ ، وَعِيسَى بْنُ جَعْفَرٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَهْدِيِّ ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، وَعِيسَى بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَدَاوُدُ بْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَيَحْيَى
 ابْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَدَاوُدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَخَزِيمَةُ بْنُ حَازِمٍ ، وَهَرْمَةُ بْنُ
 أَعْيَنَ ، وَيَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَالْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى ، وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى ، وَالْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
 مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ الرَّبِيعِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدُمَانَةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 الْعَبْسِيِّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَصَمِّ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيُّ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ
 ابْنُ أَبِي الشَّامِرِ الْغَسَّانِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَاضِي مَكَّةَ ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ شُعَيْبِ
 الْحَجَبِيِّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَبِيِّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبِ الْحَجَبِيِّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 ابْنِ عَثْمَانَ الْحَجَبِيِّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَبِيهِ الْحَجَبِيِّ ، وَعَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 الْحَجَبِيِّ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَبِيهِ الْحَجَبِيِّ ، وَأَبَانُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ مَنْصُورٍ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ ، وَالْحَارِثُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالِدُ مَوْلَى
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكُتِبَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .



وَأَمَّا مَا كَتَبَهُ الْمُأْمُونُ ، فَتَصَّهْ بِمَدِّ الْبَسْمَلَةِ :

هَذَا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُرُونِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 فِي صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَصِدْقِ نِيَّةٍ فِيمَا كَتَبَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَمَعْرِفَةٍ
 مَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ وَلِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ .

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ وَلَّانِي الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فِي سُلْطَانِهِ
 بَعْدَ أُنْحَى مُحَمَّدِ بْنِ هُرُونِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلَّانِي فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَهُ نُرَّاسَانَ وَكُورَهَا ،
 وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا : مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْعُمْمِ وَالْبَرِيدِ وَالطَّرَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَأَشْتَرْتُ لِي عَلَى

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للبلاد بعده ،
 وولايتي نحرسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ،
 أو أتباع لي من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو أبتعت منه [لنفسى] من ذلك ،
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمتاع والدواب
 في سبب محاسنته [لأصحابى] ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثرا ، ولا يدخل
 على ولا على أحد ممن كان معي ومي ، ولا عمالي ولا كتابي ، ومن استعنت به من جميع
 الناس - مكرها : في ديم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ،
 ولا كبير .

فأجابه إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتابا كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين
 [هرون وقيله وعرف صدق نيته . فشرط لعبد الله هرون أمير المؤمنين]
 وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه
 ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ،
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وفى لي بما
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماء في الكتاب الذى كتبه لأمر المؤمنين
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقض شيئا من ذلك ، ولم ينقض أمرا من الأمور التى
 أشرت لها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن احتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جنيد وكتب لي يأمرني
 بإشخاصهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد
 نقص شيء من سلطانه وسلطاني الذى أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا ولأننا -
 أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إلى .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يوَلِّي رجلاً من وَلَدِهِ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ
من بَعْدِي، فذلك له ما وَفَّى لِي بما جعل لِي أمير المؤمنين هرون، واشترط لِي عليه،
وشرطه على نَفْسِهِ في أَمْرِي، وعلى إِنْفَاضِ ذلك والوفاء له بذلك، ولا أَنْقُضَ ذلك
ولا أُغَيِّرُهُ، ولا أَبَدُّهُ، ولا أَقْدِم [قبله] أحداً من وَلَدِي، ولا قَرِيْباً ولا بَعِيداً من
الناس أجمعين، إلا أن يوَلِّي هرون أمير المؤمنين أحداً من وَلَدِهِ الْعَهْدَ من بَعْدِي،
فيلزمني الوفاء بذلك .

وجعلتُ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ومُحَمَّدِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بما اشترطتُ وَسَمَّيْتُ
فِي كِتَابِي هَذَا، ما وَفَّى لِي مُحَمَّدُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هرون بجميع ما اشترط لِي هرون
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ في نَفْسِي، وما أَعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هرون من جميع الأشياء
المُسَمَّاةِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ لَهُ . [وعلى] عَهْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِيثَاقِهِ، وَذِمَّةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ،
وَذِمَّتِي، وَذِمَّةُ آبَائِي، وَذِمَّةُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشَدُّ ما أَخَذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى النَّبِيِّينَ
وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ مِنْ عُهُودِهِ وَمَوَاقِفِهِ، وَالْإِيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَفَاءِ بِهَا .

فإن أنا نَقَضْتُ شيئاً مما اشترطتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَهُ، أَوْ غَيَّرْتُ، أَوْ بَدَّلْتُ،
أَوْ نَكَحْتُ، أَوْ غَدَرْتُ - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمِنْ وِلَايَتِهِ وَمِنْ دِينِهِ، وَمِنْ
مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقِيْتُ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِراً
مُشْرِكاً . وَكُلُّ أَمْرٍ أَوَّلِيهِ الْيَوْمَ أَوْ أَتَرَجَّحُهَا إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا الْبَتَّةَ [طَلَّاقٌ]
الْحَرْجِ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارٌ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى . وَعَلَى
الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ حَجَّةً، نَذْراً وَاجِباً عَلَى وَفَى عُنْيِي،

حَافِيَا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَا لِي هُوَ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَذِي بِالْبَيْعِ الْكُفْبَةِ . وَكُلَّ مَا جَعَلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَوْ شَرِطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَا زِمَ لِي ، لَا أَضْمِرُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهْدَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمُبْتَدِ بِذِكْرِهِ .
قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْلُقَيْنِ فِي جَوْفِ الْكُفْبَةِ حَتَّى مَاتَ
هُرُونُ الرَّشِيدُ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّيَّ فِي إِثْبَانِهِ بِهِمَا ، فَتَزَعَّاهُمَا مِنَ الْكُفْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،
فَاخَذَهُمَا الْفَضْلُ فَخَرَّقَهُمَا وَحَرَّقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى نَحْوِ مَنْ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّبَّاحِيُّ مُوَاصِفَةً بِالصُّلَحِ بَيْنَ
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيجَارَ ،
أَبْنَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ
وثلثمائة .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

هَذَا مَا اتَّفَقَ وَأَصْطَلَحَ وَتَعَاهَدَ وَتَعَاقَدَ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ،
وَصَمَّصَامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيجَارَ ابْنَا عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَبِي شُجَاعِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ
أَبِي عَلِيٍّ ، مَوْلَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأْيِيدَهُ ،
وَنَصَّرَهُ وَعُلُوَّهُ وَإِذْنَهُ .

إِتِّفَاقًا وَتَصَالِحًا ، وَتَعَاهَدًا وَتَعَاقُدًا ، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْإِعْتِصَامِ
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْإِلْتِمَاسِ إِلَى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنْفِرَادِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدْبَ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آله وسلّم تسليماً ، والطّاعة لأمر المؤمنين الطّائعين لله ، والالتزام بوثائق بيعته ، وعلائق
دعوته ، والتّوازر على موالاة وليّه ، ومُعَاداة عَدُوّه ؛ وعلى أن يُنْسِكَ [ذات] بينهما
بالسير الحميدة ، والسّنن الرشيدة ، التي سنّها لهما السّلف الصّالح من آبائهما وأجدادهما
في التّألف والتّوازر ، والتّعاوُذ والتّظافُر ، وتعظيم الأصغر للأكبر ، وإشبال الأَكْبَر^(١)
على الأصغر ؛ والاشتراك في النّعم ، والتّقاوُض في الحظوظ والقِسَم ؛ والاتّحاد بِخُلُوص
الطّوَايا ، والخفايا ؛ وسلامة الخَوَاطِر ، وطهارة الضّمائر ؛ ورفْع ما خالف ذلك من
أسباب المناقسه ، وجرائر المضاغنه ؛ وجوالب النّبوه ، ودواعي الفرقة ؛ والإقْران
لأعداء الدّولة ، والإِرْصَاد لهم ؛ والاجتماع على دَفْع كلّ نَاجِم ، وقَبْح كلّ مُقْصَوم ؛
وإِرْغَام أنْف كلّ ضَاير مُتَجَبّر ، وإِضْراغ خَدّ كلّ مُتَطَاوِل مُسْتَكْبِر ؛ حتّى يكونَ
الموَالِي لأحدهم مَنْصُوراً من جماعتهم ، والمُعَادِي له مَقْصُوداً من سائر جَوَانِيهِمْ ؛
فلا يَجِدُ المُنَادِي على أَحدهم مَفْزَعاً عند أَحَدٍ من الباقين ولا اِعْتِصاماً به ، ولا اَنْجَاءً
إليه ؛ لكنّ يكونَ مَرْمِياً بجمع سِهَامِهِمْ ، وَمَضْرُوباً بِأَسْيَافِ نَفَمَتِهِمْ ، وَمَأْخُوداً بِكَلِمَةِ
بِأَسْمِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، ومَقْصُوداً بِغَالِبِ تَجَدُّدِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ ؛ إذ كانت هذه الآدَابُ القَوِيمة ،
والطّرائِقُ السّليمة ؛ جَارِيَةً لِلدّوَلِ بِجَرَى الجُنَنِ الدّافعة عنها ، والمعَاوِلِ المَانِعة لها ؛
وَمِثْلُهَا تَطْمِئِنُّ النّعم وتَسْكُنُ ، كما أَنَّ باضدادها تَشْمَتُّ وتَنْفِرُ .

ولما وفق الله تعالى شَرَفَ الدّولةِ وَزَيْنَ المِلَّةِ أبا الفوارس ، وَصَمَّامَ الدّولةِ
وَشَمْسَ المِلَّةِ أبا كَالِيَجَارَ اِعْتِقَادَ هذه الفضائل وإِيثارها ، والتّظَاهِرَ بها وَاسْتِشْعَارَهَا ؛
ودعاها مَوْلَاهُمَا الطّائِعُ لله أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إلى ما دَعَاها إليه من التّعاطُفِ والتّألّفِ ،
والتّصانِفِ والتّخَالُصِ ؛ وأمرَ صَمَّامَ الدّولةِ أبا كَالِيَجَارَ بِمُرَاسَلَةِ شَرَفِ الدّولةِ

أبي الفوارس في إحكام معاقِد الأخوة، وإبرام وثائق الألفة - أمتثل ذلك وأصغى إليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس: أصغى إليه شرف الدولة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبله تقبل العالم اللبيب؛ وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر خرشيد بن ديار بن مافنة المعروف من كفايته، والمشهور من أضطناج الملك السعيد عضد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له، وإيداعه إياه ودیعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوى في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين .

فحرت بين صمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار وبينه مخاطبات استقرت على أمور أنت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه الموصفة ما احتيج إلى إثباته منها [أمر] عام للفريقين، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما .

نأما الأمر الذي يجمعهما عمومهما، ويكتنفهما شموله، فهو: أن يتخالص شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وصمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جزه عليهما سفهاء الأتباع: من ترك التواصل، واستعمال التقاطع؛ ويرجعا عن وحشة الفرقة، إلى أنس الألفة؛ وعن متقصبة التنافر والتهاجر، إلى منقبية التبار والتلاطف؛ فيكون كل واحد منهما مريدا لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقدا في الذب عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذب عما يختص به؛ ومسررا مثل ما يظهر؛ من موالاته وليه، ومعاداة عدوه؛ والمرامة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فان نجم على أحدهما ناجم، أو راعمه مرغم، أو هم به حاسد، أو دلف إليه معاند؛ أتفقا جميعا على مقارعة: قريبا كان أو بعيدا، وترافدا على مدافعة: دانيا كان أو قاصيا؛ وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزمان

وَنُؤْيِهِ ، وَتَصَارِيْفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَّسِعُ وَيَشْتَمِلُ عَلَيْهِ طَوْقُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّهِ ، وَرِجَالٍ وَنَجْدَةٍ ، وَاجْتِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَغْفُلُ أَخَاهُ مِنْهُمَا عَنْ أَخِيهِ ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نَصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَازَرَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّيَاتُ : مِنْ إِرْغَابٍ مُرْغِبٍ ، وَحِيلَةٍ مُخْتَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلِّهَا ؛ وَلَا يُخَيِّرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَعِصِمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ؛ وَلَا يَتَطَرَّفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَتَحَيَّفُ حَقًّا ، وَلَا يَهْتِكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْقًا ، وَلَا يُخَيِّفُ لَهُ سَبِيلًا ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بَاعْتِلَالٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَافَقَتَهُ ، وَمُلَاءَمَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُظَافَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوُجُوهِ النَّأْوِيَّاتِ . يَلْتَرَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ التَّزَامًا عَلَى التَّمَانُلِ وَالتَّعَادُلِ ، وَالتَّوَازِيِ وَالتَّقَابُلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ صَمْنَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ صَمْنَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا أَفَادَ الدَّوْلَةَ الْجَامِعَةَ لَهَا صِلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ عَدُوِّهَا جَنَاحًا ؛ وَعَادَ عَلَى وَلِيِّهِمَا بَعِزًّا ، وَعَلَى عَدُوِّهِمَا بُدْلًا ؛ وَأَنْ يُقِيمَ صَمْنَامُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي نَفْسِ سِكَكِ دَوْرِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْبَعُ بِهَا الدِّينَارُ وَالذَّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوقَى صَمْنَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِيجَارَ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ أبا الْفَوَارِسِ فِي الْمَكَاتِبَاتِ

والمخاطبات حقَّ التَّعظيم ، وشِعَارَ التَّفْخِيم ، على التَّقْرِيرِ بِنه وبين خرشيد بن ديار ابن مافنة في ذلك .

وأما الأمرُ الذي يختصُّ صَمَصَامُ الدَّوْلَةِ وشمسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَارَ به ، وَيَلْتَرِمُهُ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو الفوارسِ له ، فهو تركُّ التَّعَرُّضِ لِسَائِرِ مَمَالِكِهِ ، وما يَتَّصِلُ بها من حُدُودِهَا الجارية معها ، والإفراجُ منها عما يودُّه ويُسرِّعُ إليه أصحابُ شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ المِلَّةِ ، وَتَجَنُّبُ التَّحْيِيفِ لها أو لشيءٍ من الحقوقِ الواجبةِ فيها ، ومُرَاعَاتُهُ في الأمورِ التي يحتاج فيها إلى نَظَرِهِ وَطَوْلِهِ ، وإِجْمَالِهِ وَقُضَائِهِ ، وما يجب على الأَخِ الأكبرِ مُرَاعَاةَ أخيه وتَالِيهِ فيه ، ممَّا ثَبَّتَتْ في هذه المُواصِفَةِ جُمْلَتُهُ ، وَاشْتَمَلَتْ المِفَاوِضَةُ مع خورشيد بن ديار بن مافنة على تَفْصِيلِهِ .

اتَّفَقَ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو الفوارس ، وَصَمَصَامُ الدَّوْلَةِ وَشمسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَارَ ، بأمرِ أميرِ المؤمنين الطائعِ لله ، وعلى الاختيارِ منهما ، والانتِزاعِ من صُدُورِهِمَا ، من غيرِ إِكْرَاهٍ ولا إِجْبَارٍ ، ولا أَصْطِبَارٍ ولا أَضْطِرَّارٍ - على الرِّضَا بذلك كُلِّهِ ، والالتزامِ له ، وَيَصِيرُ جَمِيعُهُ عَهْدًا مَرْجُوعًا إليه ، وَعَقْدًا مَعْمُولًا عليه ، وَحَلَفَ كُلُّ منهما على ما يَلْتَرِمُهُ من ذلك يَمِينًا عَقْدَهَا بأن يحلفَ صَاحِبُهَا بِمِثْلِهَا ، على ما يَلْتَرِمُهُ منه . فقال صَمَصَامُ الدَّوْلَةِ : واللهِ الذي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ (ويستتم اليمين) .

النوع الثاني

(مما يجري عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين -

ما يكون العقد فيه من جانب واحد)

وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن يُفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » كما في النوع السابق)

وهذه نسخة عقد صلح من ذلك ، كتب بها أبو إسحق الصَّابِي ، بين الوزير أبي نصر سابور بن أردشير ، والشَّريفيْن : أبي أحمد الحسين بن موسى ، وأبي الحسن محمد ابنه الرضَى ، بما انعقد من الصلح والضمير بين الوزير المذكور ، وبين النقيب ابن أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ، وجعله على نسختين ، لكل جانب نسخة ، بعد البسملة ماضورته :

هذا كتاب لسابور بن أردشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسوي ، وولده محمد بن الحسين الموسوي .

إنا وإياك - عند ما وصله الله بيننا من الصمر والخُلطة ، وشجته من الحال والمودة - آثرنا أن ننعقد بيننا وبينك ميثاقاً مؤكداً ، وعهداً مجدداً ، تسكن النفوس إليهما ، وتطمئن القلوب معهما ، وتزداد الألفة بهما على مر الأيام ، وتعاقب الأعوام ، ويكون ذلك أصلاً مستقيراً نرجع جميعاً إليه ، ونعول ونعتمد عليه ، وتوارثه أعقابنا ، وتبعتها فيه أخلافنا .

فأعطيناك عهد الله وميثاقه ، وما أخذته على أنبيائه المرسلين ، وملائكته المقربين ، صلى الله عليهم أجمعين ، عن صدور مُنْشِرحه ، وآمال في الصلاح مُنْفسِحه - أنا

تُخْلِصُ لَكَ جَمِيعًا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إِخْلَاصًا صَحِيحًا يُشَاكِلُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ ، وَيُوَافِقُ خَافِيَهُ عَالِمَهُ ، وَأَنَا نُوَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَنُعَادِي أَعْدَاءَكَ ؛ وَنِصْلُكَ مِنْ وَصْلِكَ ، وَنَقْطَعُ مِنْ قَطْعِكَ ، وَنَكُونُ مَعَكَ فِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشِدَائِدِهِ ، وَفِي فَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ؛ وَصَمْنَا لَكَ صَمَانًا شَهِدَ اللَّهُ بِلُزُومِهِ لَنَا ، وَوُجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُونُ الْكَرِيمَةَ عَلَيْنَا ، الْآيَةَ عِنْدَنَا ، فَلَانَةَ بِنْتِ فَلَانٍ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهَا - الْمُسْتَقْلَةَ إِلَيْنَا ؛ كَمَا تَصَانُ الْعُيُونُ بِجُفُونِهَا ، وَالْقُلُوبُ بِسِغَا فِيهَا ؛ وَتُجْرِيهَا مُجْرَى كَرَامِ حُرْمِنَا ، وَنَفَائِسُ بَنَاتِنَا ، وَمِنْ تَضَمُّنِهِ مَنَازِلُنَا وَأَوْطَانُنَا ؛ وَتَنْتَاهِي فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ عَيْشِهَا ، وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسَائِرُ مُمُونِهَا وَمُؤْنِ أَسْبَابِهَا ، وَالتَّهْوُضِ وَالْوَفَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا لَهَا وَلَكَ فِيهَا ؛ فَلَا نُعْذِمُ شَيْئًا أَلْفَتْهُ : مِنْ إِشْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِ إِلَيْهَا ، وَذَبِّ عَنْهَا ، وَمُحَامَاةِ دُونِهَا ، وَتَعَهُّدِ لِمَسَارِهَا ، وَتَوَخُّعِ لِحَابِهَا ؛ وَنَكُونُ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُقِيمِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَهَا اللَّهُ - وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّمَتْنَا ، وَحُوشِيَتِ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .

ثُمَّ إِنَا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، غَيْرُ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَعْدَ تِمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ - : وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهِلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمُطْلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقُّ عَهْدِ النَّبِيِّ ، وَعَلَى الرِّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - مَا وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ ذِكْرَهُمَا ، وَسَادَتِنَا الْأُمَّةُ الطَّيِّبِينَ ، الطَّاهِرِينَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَحَقُّ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَمَا أُنْزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ ؛ وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ ، وَتَرْغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ ؛ لَتَفِينٍ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَزْدِشِيرَ ، وَالْكَرِيمَةِ الْآيَةَ أَبْنَتِكَ فَلَانَةَ - أَحْسَنَ اللَّهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ، وَفَاءً صَحِيحًا ، وَلَنْتَرَمَنَّ لَكَ وَلَهَا شَرَائِطَهُ وَوَثَائِقَهُ ، فَلَا نَنْفَسُهَا ، وَلَا نَنْقُضُهَا ،

وَلَا تَتَّبِعْهَا ، وَلَا تَتَّبِعْهَا ، وَلَا تَتَّوَلَّ فِيهَا ، وَلَا تَزُولُ عَنْهَا ، وَلَا تَلْتَمِسُ مَخْرَجًا وَلَا مَخْلَصًا
 مِنْهَا ، حَتَّى يَجْمَعَنَا الْمَوْقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَالْمَقْدَمُ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ ثَابِتَانِ
 عَلَيْهِمَا ، وَمُؤَدِّيَانِ لِلْأَمَانَةِ فِيهَا ، أَدَاءً يَشْهَدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَمَلَائِكَتُهُ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ،
 وَيُحَاسَبُ الْعِبَادُ . فَإِنْ نَحْنُ أَخْلَاْنَا بِذَلِكَ أَوْ بَشَى مِنْهُ ، أَوْ تَأَوَّلْنَا فِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
 أَوْ أَضْرَرْنَا خِلَافَ مَا نَظْهَرُ ، أَوْ أَسْرَرْنَا ضِدَّ مَا نَعْلَمُ ، أَوْ أَلْتَمَسْنَا طَرِيقًا إِلَى تَقْضِيهِ ،
 أَوْ سَبِيلًا إِلَى فَسْخِهِ ، أَوْ أَلْمَنَّا بِإِخْفَارِ ذِمَّةٍ مِنْ ذِمَّتِهِ ، أَوْ أَتَهَّاكَ حُرْمَةً مِنْ حُرْمِهِ ،
 أَوْ حَلَّ عِصْمَةٍ مِنْ عِصْمِهِ ، أَوْ أَبْطَلَّ شَرْطَ مِنْ شُرُوطِهِ ، أَوْ تَجَاوَزَ حَدًّا مِنْ
 حُدُودِهِ - فَالَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنَّا يَوْمَ يَفْعَلُهُ أَوْ يَعْتَقِدُهُ ، وَحِينَ يَدْخُلُ فِيهِ وَيَسْتَحْيِيهِ -
 بَرَىءٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ ، وَهَنْ نُبُوءَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ، وَمِنْ وَلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ
 أَبِي طَالِبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ ، وَمِنْ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ الْعَظِيمِ ، وَمِنْ دِينِ اللَّهِ الصَّحِيحِ
 الْقَوِيمِ ، وَلَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ، وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ بَعْدَ - سُبْحَانَهُ -
 مُشْرِكٌ ، وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَالِفٌ ، وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ مُعَادٍ ، وَلِأَعْدَائِهِمْ مُوَالٍ ؛
 وَعَلَيْهِ الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الْعَتِيقِ الَّذِي بِمَكَّةَ : رَاجِلًا ، حَافِيًا ، حَاسِرًا ، وَإِمَاوُهُ
 عَوَاتِقٌ ، وَنِسَاوُهُ طَوَالِقٌ ، طَلَّاقُ الْحَرْجِ وَالسَّنَةِ ، لَا رَجْعَةَ فِيهِ وَلَا مَشْنُونِيَّةَ ، وَأَمْوَالُهُ
 - عَلَى اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا - مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِ ، وَخَارِجَةٌ عَنْ يَدَيْهِ ، وَحَرِيسَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَبَرَاهُ اللَّهُ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَجْلَاهُ إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

وهذه اليمين لازمة لنا ، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه ، وعقد عليها ضميره ،
 والنية في جميعها نية فلان بن فلان ، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها ،
 والثبات عليها ، والالتزام بشروطها ، والوقوف على حدودها ، وكفى بالله شهيدًا ،
 وجازيًا لعباده ومثيبًا . وذلك في يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا .

المذهب الثاني

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصَّلَاحِ بِمُحْطَبَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْقِعِ النِّعْمَةِ)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلَاحٍ كَتَبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ
لَمَنْ كَانَ ... (١)

وَنَصَّهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي "كِتَابِ الْبَلَاغَةِ" فِي التَّرْسُلِ ، بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

الحمد لله الذي خلق العبادَ بِقُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .
لَمْ يَلْطَفْ عَنْهُ خَفِيَ ، وَلَا أَمْتَعَ عَنْهُ قَوَى ، أَبْتَدَعَ الْخَلَائِقَ عَلَى آخْتِلَافٍ فِطْرِيهَا ،
وَتَبَايُنٍ صُورِيهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ اخْتِذَاهَا ، وَلَا رَسِيمٍ آقَتْفَاهَا ، وَأَيَّدَهُمْ بِنِعْمَتِهِ ، فِيمَا رَكِبَهُ
فِيهِمْ مِنَ الْأَدَوَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاطِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَأَكْتَفَوْا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِخَبَرِ الْعُقُولِ ، وَشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرَ لَهُمْ فِي التَّبَصُّرِ ، وَغَلَبِهِمْ
فِي الْحُجَّةِ ، بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَأَيَّاتٍ بَيَّنَّهَا ، وَمَعَالِمٍ أَوْضَحَّهَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ
رَفَعَهَا ، وَشَرَعَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا وَارْتِضَاهَا وَأَصْطَفَاهَا ، وَفَضَّلَهَا وَاجْتَبَاهَا ، وَشَرَّفَهَا
وَأَعْلَاهَا ، وَجَعَلَهُ مُهِمًّا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحُزْبِهِ وَأَهْلِهِ ، فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاهِيينَ لَطُرْقِهِ ، وَالْمَهَادِينَ لِفَرَائِضِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ
شَرَائِعِهِ ، قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي قَتَرَةٍ بَعْدَ قَتَرَةٍ ، وَبَلَدَةٍ بَعْدَ بَلَدَةٍ ، حَتَّى
أَتَمَّ تَقْدِيرَهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ بَعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْفَاضِلَ الزَّكِيَّ ، الَّذِي قَفَّى بِهِ
عَلَى الرُّسُلِ ، وَنَسَخَ بِشَرِيعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَيَّنَّه أَدْيَانَ الْأُمَمِ ، عَلَى حِينِ تَرَانِحِي

فَقَرَّهَ ، وَتَرَامَى حَيْرَهُ ؛ فَأَبَاحَ بِهِ نِيرَانَ الْفِتَنِ بَعْدَ اضْطِرَامِهَا ، وَأَضَاءَ بِهِ سُبُلَ الرَّشَادِ بَعْدَ إِظْلَامِهَا ؛ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِمَا وَجَدَهُ عِنْدَهُ مِنَ التَّهْوُضِ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ ، وَالْقِيَامِ بِإِدَاءِ الْأَمَانَةِ ؛ فَازَاحَ بِذَلِكَ الْعِصْلَةَ ، وَقَطَعَ الْمَعْذِرَةَ ؛ وَلَمْ يُبْقِ لِلشَّكِّ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ ، وَلَا لِلْعَانِيدِ دَعْوَى مُمَوَّهَةٍ ؛ حَتَّى مَضَى حَمِيدًا تَشْهَدُ لَهُ آثَارُهُ ، وَتَقُومُ بِتَأْيِيدِ سُنَّتِهِ أَخْبَارُهُ ؛ قَدْ خَلَّفَ فِي أُمَّتِهِ ، مَا أَصَارَهُمْ بِهِ إِلَى عَطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ وَخُطْبِهِ ؛ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ بَسُوءِ اخْتِيَارِهِ ، وَحَرَمِ الرَّشَادِ بِخِذْلَانِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ أَفْضَلَ صَلَاةٍ وَأَتَمِّهَا ، وَأَوْفَاهَا وَأَعَمَّهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ سَيِّدَنَا الْأَمِيرَ بِالتَّوْفِيقِ وَتَوَحَّدَهُ بِالْإِرْشَادِ وَالتَّسْهِيدِ ؛ فِي جَمِيعِ أَنْحَائِهِ ، وَمَوَاقِعِ آرَائِهِ ؛ وَجَعَلَ هِمَّتَهُ (إِذْ كَانَتْ الْهِمْمُ مَنْصُرِفَةً إِلَى هَشِيمِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا ، الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا الْأَبْنَاءُ وَتَدْعُوهَا إِلَى نَفْسِهَا) ، مَقْصُورَةً عَلَى مَا يَجْمَعُ لَهُ رِضَا رَبِّهِ ، وَسَلَامَةُ دِينِهِ ؛ وَاسْتِقَامَةُ أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ ، وَصَلَاحُ أَحْوَالِ رِعْيَتِهِ ؛ وَأَيَّدَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الْمَعَارِضِ ، وَالشُّبْهَةِ الْوَاقِعَةِ ؛ الَّتِي تَحَارُّ فِي مِثْلِهَا الْآرَاءُ ، وَتَضْطَرِبُ الْأَهْوَاءُ ؛ وَتَنْتَازِعُ خَوَاطِرُ النُّفُوسِ ، وَتَفْتَلِحُ وَسَاوِسُ الصُّدُورِ ؛ وَيَخْفَى مَوَاقِعُ الصُّوَابِ ، وَيُشْكَلُ مِنْهَجُ الصَّلَاحِ - بِمَا اخْتَارَ لَهُ مِنَ السَّلَامِ وَالْمُؤَادَعَةِ ، وَالصُّلْحِ وَالْمُؤَافَقَةِ ؛ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى فَضْلِهِ ، وَالْخَيْرِ الَّذِي فِي ضَمْنِهِ ، بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ حَتَّى أَصْبَحَ السَّيْفُ مَغْمُودًا ، وَرَوَاقُ الْأَمْنِ مَدْمُودًا ؛ وَالْأَهْوَاءُ مُتَفَقَّةً ، وَالْقُلُوبُ مُؤْتَلَفَةً ، وَالْكَلِمَةُ مُجْتَمِعَةً ؛ وَنِيرَانُ الْفِتَنِ وَالضَّلَالَةِ خَامِدَةً ، وَظُنُونُ بُغَايَتِهَا وَالسَّاعِينَ لَهَا كَاذِبَةً ، وَطَبَقَاتُ الْإِوْلِيَاءِ وَالرَّعِيَّةِ - بِمَا أُعِيدَ إِلَيْهِمْ مِنْ

الْأَمْنَةُ تُعَقِّبُ الْخِيفَةَ ، وَالْأَنْسَةَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةٌ ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَنْبِيْهِ وَطْأَنِهِ - رَاغِبِينَ ،
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ مُخْلِصِينَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ ، وَالصُّلْحُ مُخْبَرًا عَنْ
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْتَظِمُ بِهِ : مِنْ حَقِّ الدَّمَاءِ ، وَسُكُونِ الدِّهْمَاءِ ؛ وَيَجْمَعُ
 مِنَ الْخِلَالِ الْمَحْمُودَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَمْدُودَةِ ، الْمُقَدِّمَ ذِكْرُهَا - مَا حَادَا عَلَيْهِ ، وَمَثَلَ
 لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْآرَاءِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ ، وَحُسْنَ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخَاصِّ
 وَالْعَامِّ بِهِ ؛ فِيمَا يَتَجَلَّى لِلْعُيُونِ ، مِنْ مُشْتَبِهَاتِ الظُّنُونِ ، إِذَ الدِّينُ وَاقِعٌ ، وَالشَّكُّ جَانِحٌ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطَلِ ، وَالْخَائِرِ وَالْمُقْسِطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَيُضْطَبِّحُ مِنْهُمْ مَعْرَةَ بَعْضِهِمْ غَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نَظِيرًا
 لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعْرَةِ أَوْ مَضَرَّةٍ تَلْحَقُ بَعْضَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيْرُهُمْ مِنْ ظَنِّ
 الْعُدْوَانِ ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ قَرَوَاتِ النَّسْيَانِ ، وَكَفَافًا أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَشْرُوكِينَ ،
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ؛ تَحْتَنًا عَلَى بَرِيَّتِهِ ، وَإِبْقَاءً عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ؛ إِلَى أَنْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْمِيقَاتُ الَّذِي أَذْنَاهُ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمَضَاهُ ، وَمَوْقِعُ الْحَدِّ فِي عَاقِبَتِهِ ، وَالسَّلَامَةُ
 فِي خَاتِمَتِهِ . وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدَهَا ، وَمِنْ مَرَافِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهَا ، مَقْصُورَةً
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا حَوْلَهُ ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا نَوَّلَهُ ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَمْدُ الصُّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ
 أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق» ، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ
 الْأَنْطَلِيقِيِّ تَيْمُورْ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامَ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ
 وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيبِهَا ، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصُّلْحِ ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشَ
 لَزِمَهُ ، الْمَأْسُورِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» صَحْبَةَ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودَ
 الْكَجْجَانِي . جُهِزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرَيْنَ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ صَحْبَةَ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقرّ الفتحى صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كتّاب الدّست الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع (١) ... بقلم (١) ... وفى طرته ما صورته :

« مرقوم شريف جليل عظيم، مبجل مكرم جميل نظيم، مُشتمل على عقد ضلح أفتحه المقام الشريف، العالى، القطبي، نصرة الدين، يُمور كوركان، زيدت عظمته، يكون بينه وبين المقام الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبي السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبي سعيد « برقوق » خادم الحرمين الشريفين، خلد الله تعالى ملكه . انعقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه ووكيله فى ذلك، الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة من حضر صحبته من العدول بالتوكيل المذكور، على حكم إشارة مُرسله إليه ومضمون مكاتبتة، وقصده تجهيز الأمير أطمش لزمه . وحلف المقام القطبي على الموافاة والمصافاة، واتحاد المملكتين، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد .

والبياض ثلاثة أوصال بوصل الطرة، والبسملة فى أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتحت البسملة سطر، ثم يت العلامة، والسطر الثانى بعد يت العلامة . والعلامة بجليل الثلث بالذهب ما صورته : « الله أُملى » .

وُنُسْخَةُ الْمَكْتُوبِ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ مَا صُورَتْهُ :

الحمد لله الذي جعل الصُّلَحَ خَيْرَ مَا أُنْعَقَدَتْ عَلَيْهِ الْمَصَالِحُ ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ
أَوَّلَى مَا أُنْصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الْمَنَاجِحِ ، وَأَحَقَّ مَا نَطَقَتْ بِهِ أَلْسُنُ الْحَامِدِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ
أَفْوَاهُ الْمَدَائِحِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْنَاتَ الْقُلُوبِ الطَّوَائِحِ ، وَأَضَافَتْ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ
نُورَ الْقَمَرِ فَاهْتَدَى بِهَا كُلُّ غَايٍ وَرَاجٍ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تَبْلُغُ قَائِلَهَا أَهْنَى الْمَنَاجِحِ ، وَتَعَطَّرُ بِمَجَالِسِ الذِّكْرِ بِعَرَفِ رِوَايَتِهَا الرِّوَايَحِ ، وَنَشْهَدُ
أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ مِنْ آخَى بَيْنَ الْمُتَحَاكِمِينَ فَنُصَحَ اللَّهُ وَرَأَى الصُّلَحَ مِنْ
أَعْظَمِ النَّصَائِحِ ، وَأَكْمَلَ رَسُولِي أَتَقَادَتِ لِأَخْلَاقِهِ الرِّضْيَةُ ، وَصِفَاتِهِ الْمَرْضِيَّةُ ، جَوَانِحِ
النُّفُوسِ الْجَوَانِحِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آرَاءُ أَوْلَى الْأَبْجَابِ ، وَرَكَنَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي
الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ وَالْأَحْبَابِ - آتِلَافُ الْقُلُوبِ بَعْدَ اخْتِلَافِهَا ، وَاتِّصَافُهَا
بِالتَّلْبِيسِ بِأَحْسَنِ أَوْصَافِهَا ، وَالْعَمَلُ عَلَى الصُّلَحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ ، وَأَرْجَى
مَتَاحِرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَدْفَعُ لِلْيَأْسِ وَالْبَاسِ ، إِذْ هُوَ مِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةِ ،
وَمِصْبَاحُ مَنَاجِحِ الْفِكْرِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ ، وَالِدَّاعِي إِلَى كُلِّ فِعْلٍ جَمِيلٍ ، وَالسَّاعِي
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفَاءُ صَدَى الْغَلِيلِ وَنَجَاةٌ مِنْ دَاءِ الْعَلِيلِ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ ، الْعَالَى ، الْكَبِيرِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْمُؤَيَّدِيُّ ،
الْمُظَفَّرِيُّ ، الْمُنْجَبِيُّ ، الْمَلَاذِيُّ ، الْوَالِدِيُّ ، الْقُطْبِيُّ ، نُصْرَةُ الدِّينِ ، مَلْجَأُ الْقَاصِدِينَ ،
مَلَأْدُ الْعَايِدِينَ ، قُطْبُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، تَيَمُّورُ كُورِ كَانٍ ، زِيدَتْ عَظَمَتُهُ -
هُوَ الْبَادِي بِإِحْيَاءِ هَذِهِ السُّنَّةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْحَادِي إِلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى مَقَاوِصِهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك مُتَضَمِّنَةٌ ، الْوَارِدَةُ إِلَى حَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ ، السُّلْطَانِ الْمَالِكِ ،
 الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، زَيْنِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، أَبِي السَّعَادَاتِ « فَرَج » بنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ
 الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَبِي سَعِيدٍ « بَرْقُوق » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى
 مُلْكَهُ - عَلَى يَدِ سَفِيرِ حَضْرَتِهِ ، الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ ، الشَّيْخِي ، النَّظَامِيِّ ، مَسْعُودِ
 الْكَجَجَانِي ، الْمُرَوَّخَةِ بِسْمَلٍّ شَهْرِ ربيع الأول سنة تاريخه .

وَجُلٌّ مَضْمُونُهَا ، وَسِرٌّ مَكْنُونُهَا - قَصْدُ إِيقَاعِ الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْمُشَارِ
 إِلَيْهِمَا ، وَتَسْجُجِ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَإِسْبَالِ رِدَائِهِمَا مُحَاسِنِهَا عَلَيْهِمَا ؛
 بِمَقْتَضَى تَقْوِيضِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمُشَارِ إِلَيْهِ الْأَمْرِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ إِلَى
 الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَتَوْكِيلِهِ إِيَّاهُ فِيهِ ، وَإِقَامَتِهِ مَقَامَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ،
 وَجَعْلِ قَوْلِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - أَشْهَدُ اللَّهَ الْعَظِيمَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ،
 وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ يَضَعُ خَطَّهُ مِنْ جَمَاعَتِهِ الْمُجَهِّزِينَ صُحْبَةَ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
 الْمَذْكُورِ ، وَهُمَا : الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ
 الْجَزَيْرِيِّ الشَّافِعِيِّ ، وَالصَّدْرُ الْأَجَلُّ كَمَالُ الدِّينِ كَمَالُ أَعَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ عَنِ الْمَقَامِ
 الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمُشَارِ إِلَيْهِ ، مُوَافَقَتِهِ عَلَى الصُّلْحِ الشَّرِيفِ ، وَإِجَابَةِ الْقَصْدِ فِيهِ
 بِإِطْلَاقِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشٍ لَزِمَ الْمَقَامَ الْقُطْبِيَّ الْمُشَارِ إِلَيْهِ ، وَتَجْهِيْزِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَالِيَةِ ؛
 وَأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحُضُورِ جَمِّ غَفِيرٍ مِنْ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكَابِرِهَا ، وَمَنْ حَضَرَ
 مَجْلِسَهُ ، بِالْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِأَشْتَاتِ الْحَلِيفِ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ
 وَبَارِئُ النَّسَمِ ، عَلَى ذَلِكَ جَمِيعِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الدَّاخِلَةِ فِي مَمْلَكَةِ
 مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا عَاهَدَ وَصَالَحَ وَعَاقَدَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ
 نِظَامُ الدِّينِ مَسْعُودُ الْوَكِيلِ الْمَذْكُورُ يَقْضَى بِهِ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ الْمُشَارُ إِلَيْهِ ، وَيُمْضِيهِ
 وَيَرْتَضِيهِ . وَأَنْفَصَلَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

فعند ما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - على المكتبة الشريفة المشار إليها، وتفهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح: تبركاً بما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - استخار الله عز وجل، وأمر بتجهيز الأمير أطمش المذكور، وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وأذن لهما في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه: بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحى، شيخ الإسلام، سراج الدين، عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايخ العلم الشريف والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، ومن يصع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة بمضمونه .

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القطبي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم ذكرها، وما قامت به البينة الشرعية، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين صحبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه . فكان صلحاً صحيحاً شرعياً، تاماً كاملاً معتبراً مرضياً، على أحسن الأمور وأجملها، وأفضل الأحوال وأكملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل، واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر، وسرت القلوب وقرت النواظر، لما في ذلك من حفظ دمام العهود الشريفه، وإقامة منار الشرع الشريف وأمنه

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرَيْفَةِ ؛ وإِجْراءِ كَلِمَةِ الصَّدِّقِ ، على لسانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فلا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ
على مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، ولا يَنْقُضِي حُكْمُهُ ولا يَنْحَلُّ إِبْرَامُهُ على تَوَالِي السِّنِينَ
والْأَعْوَامِ .

هذا : على أن لا يَدْخُلَ أَحَدٌ من عَسَاكِرِهما وَجُدِهما وَمَمَالِكِهما إلى حُدُودِ
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، ولا يَتَعَرَّضَ إلى ما يَتَعَلَّقُ به من مَمَالِكٍ وَقِلَاعٍ ، وَحُصُونٍ
وَسَوَاحِلٍ وَمَوَانٍ وَغير ذلك من سائرِ الْأَنْواعِ ؛ وَرَعَايَاهُمَا من جَمِيعِ الطَّوائِفِ
وَالْأَجْناسِ ، وما هو مُخْتَصَّ بِبِلَادٍ كُلِّ مِنْهُما وَمَعْرُوفٌ به بَيْنَ النَّاسِ : حاضِرِها
وَبَادِيِها ، وَقاصِيِها وَدَانِيِها ، وَعامِرِها وَغامِرِها ، وَباطِنِها وَظاهِرِها ، ولا إلى من
فِيها من الرَّعِيَّةِ وَالتَّجَّارِ وَالْمَسافِرِينَ ، وَسائرِ الْغَادِيَةِ وَالرَّائِحِينَ فِي السَّبِيلِ وَالطَّرِيقِ :
مُتَفَرِّقِينَ وَمُجْتَمِعِينَ .

هذا على أن يَكُونَ كُلُّ من الْمُتَقَامِينَ الشَّرِيفِينَ الْمُشَارِإِلِيَّاهُما مع الْآخَرِ على أَكْمَلِ
ما يَكُونُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ : من حُسْنِ الْوَفَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمُوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا
فِي الْإِتِّحَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ ، وعلى الْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْتِراجِ وَالْإِخْتِلَاطِ كَرُوحَيْنِ فِي جَسَدٍ ؛
مع ما يُضَافُ إلى ذلك من مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَادَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسَالِمِينَ ،
وَمُحَارَبَةِ الْمُحَارِبِينَ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللهِ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
الْعَالِمُ بِمَا تُبْدِي الْأَعْيُنُ وما تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،
فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ ، وَالْوُرُودِ وَالصُّدُورِ .

الباب السادس

من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

الْفَسْخُ ، وهو ما وقع من أَحَدِ الجانبين دون الآخر

قال في "التعريف" : وَقَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِلَّا مَا يَبْعَثُ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ .
قال : وقد كتب عَمِّي الصَّاحِبُ شَرْفُ الدِّينِ [أبو محمد^(١)] عَبْدُ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ ،
سَنَةَ دُخُولِ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَلَطِيَّةً ، سَنَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَسَبْعَائَةٍ فَسَخًا عَلَى التَّكْفُورِ
مُتَمَلِّكٍ سَيِّسٍ ، كَانَ سَبَبًا لِأَنْ زَادَ قَطِيعَتَهُ . وَلَمْ يَذْكُرْ صَوْرَةَ مَا كَتَبَهُ فِي ذَلِكَ .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكَرَ الكَاتِبُ فِيهِ
مُوجِبَ الْفَسْخِ الصَّادِرِ عَنِ الْمَفْسُوخِ عَلَيْهِ : مِنْ ظُهُورِ مَا يُوجِبُ تَقْضَ الْعَهْدِ ،
وَنَكْثَ الْعَقْدِ ، وَإِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَى الْمَفْسُوخِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ .

قال في "التعريف" : وَالَّذِي أَقُولُ فِيهِ : إِنَّهُ إِنْ كُتِبَ فِيهِ ، كُتِبَ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ :

هَذَا مَا اسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فُلَانٌ ، اسْتِخَارَةً تَبَيَّنَ لَهُ فِيهَا غَدْرُ الْغَادِرِ ، وَأَظْهَرَ لَهُ بِهَا
سِرَّ الْبَاطِنِ مَا حَقَّقَهُ الظَّاهِرُ ، فَسَخَّ فِيهَا عَلَى فُلَانٍ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمُهَادَنَةِ
الَّتِي كَانَ آخِرُ الْوَقْتِ الْفُلَانِي آخِرَ مُدَّتِهَا ، وَطَهَّرَ السِّيُوفَ الذُّكُورَ فِيهَا مِنَ الدَّمَاءِ إِلَى
انْقِضَاءِ عَدَّتِهَا ؛ وَذَلِكَ حِينَ بَدَأَ مِنْهُ مِنْ مُوجِبَاتِ النِّقْضِ ، وَحَلَّ الْمُعَاقَدَةَ الَّتِي كَانَتْ
يُسَدُّ بِبَعْضِهَا بَعْضُ (وَهِيَ كَذَا وَكَذَا ، وَتَذَكَّرُوا تَعَدُّ) مِمَّا يُوجِبُ كُلَّ ذَلِكَ إِخْفَارَ

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الدَّهْمَ ، وَتَقْضِ الْعُهُودَ الْمَرْغِيَّةَ الْحُرْمَةَ ؛ وَهَذَ قَوَاعِدِ الْهُدْنَةِ ، وَتَحْلِيَةَ مَا كَانَ قَدْ
أَمْسِكَ مِنَ الْأَعْنَةِ ؛ كَتَبَ إِذْذَا ، وَقَدْ حَذَّارًا ؛ وَمَنْ يَشْهَدُ بِوُجُوبِ هَذَا الْفَسْخِ ،
وَدُخُولِ مِلَّةِ تِلْكَ الْهُدْنَةِ فِي حُكْمِ هَذَا النَّسْخِ ؛ مَا تَشْهَدُ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَيَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ
النَّصْرُ الْمَكْتَتَبُ لِلْإِسْلَامِ ؛ وَكُتِبَ هَذَا الْفَسْخُ عَنْ فُلَانٍ لِفُلَانٍ وَقَدْ نَبَذَ إِلَيْهِ عَهْدَهُ ،
وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ ؛ وَأَنْقَذَ إِلَيْهِ سَهْمَهُ بَعْدَ أَنْ صَبَرَ مَلِيًّا عَلَى مُمَالَاتِهِ ، وَأَقَامَ مَدَّةَ يُدَارَى
مَرَضَ وَفَائِهِ وَلَا يَنْجُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مُدَاوَاتِهِ ؛ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، وَيَحْذَرُ مَنْ
يَأْمَنُ مَكْرَهُ مَنْ يَحْذَرُهُ ؛ وَأَمْرُ فُلَانٍ أَنْ يَقْرَأَ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ،
لِيَنْتَقَلَ مَضْمُونُهُ إِلَى الْبِلَادِ ؛ أَنْفَقَ مِنْ أَمْرِ لَا يَتَأَدَّى بِهِ الْإِعْلَانُ ، وَيَنْصَبُ بِهِ لِهَذَا
الْغَادِرِ لَوَاءً لَا يُقَالُ إِذَا يُقَالُ : هَذَا الْلَوَاءُ لِفُلَانٍ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ .

الفصل الثاني

المُفَاسَّخَةُ وَهِيَ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَانِينِ جَمِيعًا

قَالَ فِي "التعريف" : وَصُورَةُ مَا يَكْتَبُ فِيهَا : هَذَا مَا آخْتَارَهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنْ
فَسْخٍ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُهَادَنَةِ الَّتِي هِيَ إِلَى آخِرِ مَدَّةٍ كَذَا . آخْتَارَا فَسْخَ بِنَائِهَا ،
وَنَسَخَ أَنْبَائِهَا ؛ وَتَقْضَى مَا أُبْرِمَ مِنْ عُقُودِهَا ، وَأُكِّدَ مِنْ عُهُودِهَا ؛ جَرَتْ بَيْنَهُمَا عَلَى
رِضَا مِنْ كُلِّ مَنَّهُمَا بِإِقْدَارِ نَارِ الْحَرْبِ ، الَّتِي كَانَتْ أُطْفِئَتْ ، وَإِنَارَةُ تِلْكَ الثَّوَارِ الَّتِي
كَانَتْ كُفِّيتْ ؛ نَبَذَاهُ عَلَى سَوَاءٍ بَيْنَهُمَا ، وَاعْتَقَادَ مِنْ كُلِّ مَنَّهُمَا ؛ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي هَذَا
لِحَيْثِهِ ، وَأَسْقَطَ مَا كَانَ يَحِلُّهُ لِلاَخَرِ مِنْ رِبْقَتِهِ ؛ وَرَضِيَ فِيهِ بِقَضَاءِ السُّيُوفِ ،
وَلِإِمْضَاءِ أَمْرِ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ فِي مُسَاقَاتِ الْحُتُوفِ ؛ وَقَدْ أَشْهَدَا عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ اللَّهُ
وَخَلَقَهُ وَمَنْ حَضَرَ ، وَمَنْ سَمِعَ وَنَظَرَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي تَارِيخٍ كَذَا وَكَذَا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتّاب وتنافس في عملها، ليس لها
تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الجديّات ، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في المقامات

وهي جمع مقامية بفتح الميم ، وهي في أصل اللغة اسم للجلس والجماعة من الناس .
وسميت الأحدوثة من الكلام مقامية ، كأنها تُذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة
من الناس لسماعها . أما المقامة بالضم ، فبمعنى الإقامة ، ومنه قوله تعالى حكاية
عن أهل الجنة : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وأعلم أن أول من فتح باب عمَل المقامات ، علامة الدهر ، وإمام الأدب ،
البدیع الهمدانی : فعَمِل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه ، وهي في غاية من البلاغة ،
وعُلُو الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري ، فعَمِل مقاماته
الخمس المشهورة ، بخات نهاية في الحُسن ، وأتت على الجزء الوافر من الحظ ،
وأقبل عليها الخاص والعام ، حتى أنست مقامات البدیع وصيرتها كالمرفوضة .
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في " المثل السائر " لم يوفّه حقّه ، ولا عامله
بالإنصاف ، ولا أبجل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يد في غير المقامات ،

حَتَّى ذَكَرَ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْحَشَّابِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْحَرِيرِيَّ رَجُلٌ مَقَامَاتٍ . أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحَسِّنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمُنْثَوْرِ سِوَاهَا ، فَإِنْ أَتَى بِغَيْرِهَا فَلَا يَقُولُ شَيْئًا . وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَ بَغْدَادَ ، وَوَقَفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ ، قِيلَ : هَذَا يُسْتَصْلَحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، وَيَحْسُنُ أَثَرُهُ فِيهِ ، فَأَحْضَرُوا كُتُبَ كِتَابَةِ كِتَابٍ فَأَفْجَمَ ، وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلِهِ وَلَا قَصِيرِهِ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ :

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ * يَنْتِفُ عُنُونَهُ مِنَ الْهَوَسِ ،

أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ وَفِي * بَغْدَادَ أَصْحَى الْمَلْجُومَ بِالْحَرَسِ !

وَأَعْتَدَرَ عَنْهُ بِأَنَّ الْمَقَامَاتِ مَدَارُهَا جَمِيعُهَا عَلَى حِكَايَةِ تَخْرُجُ إِلَى مَخْلُصٍ ، بِخِلَافِ الْمَكْتَبَاتِ فَانْهَاجَتْ بِحُجْرٍ لَا سَاحِلَ لَهُ : مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَعَانِيَ تَتَجَدَّدُ فِيهَا بِتَجَدُّدِ خَوَادِثِ الْأَيَّامِ ، وَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ .

وهذه المقامة التي قَدِّمْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا فِي خُطْبَةٍ هَذَا الْكِتَابِ ، إِلَى أَنِّي كُنْتُ أَنْشَأْتُهَا فِي حُدُودِ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَبْعًا ، عِنْدَ اسْتِقْرَارِي فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَنَّهُ أَشْتَمَلَتْ - مَعَ الْأَخْتِصَارِ - عَلَى جُمْلَةِ جَمْعٍ مِنْ صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ ، وَوَسَمْتُهَا بِ”الْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ“ ، فِي الْمَنَاقِبِ الْبَدْرِيَّةِ ، وَوَجَّهْتُ الْقَوْلَ فِيهَا لَتَقْرِيطِ الْمَقَرِّ الْبَدْرِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الْعَلَائِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الْحَيَوِيِّ ، بِنِ فَضْلِ اللَّهِ ، صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْأَبْوَابِ الْمِصْرِيَّةِ يَوْمئِذٍ . جَعَلْتُ مَبْنَاهَا عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حِرْفَةٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَمَعِيشَةٍ يَتَمَسَّكُ بِسَبَبِهَا ، وَأَنَّ الْكِتَابَةَ هِيَ الْحِرْفَةُ الَّتِي لَا يَلِيقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ سِوَاهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى مَا عَدَاهَا ، مَعَ الْجُنُوحِ فِيهَا إِلَى تَفْضِيلِ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَتَرْجِيحِهَا ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَى كِتَابَةِ الدِّيْوَانَةِ وَتَرْشِيحِهَا .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجوائد ؛ مع التنبيه على جملة من المصطلح بيئت مقاصده ، ومهدت قواعده ؛ على ما ستقف عليه في خلال مطاوعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناثر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ؛ أنصب لأقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأثره توحيد الاستغفال عن إشراك التعطيل ؛ مشمرا عن ساق الحمد ذيل الاجتهاد ، مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد ؛ أتهز فُرصة الشباب قبل توليها ، وأغتم حالة الصحة قبل تجايفها ؛ قد حالف جفني الشهاد ، وحالف طيب الرقاد ؛ أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتتفرعن الطلب وتنجح ؛ مميلا جانب قصيدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ؛ متخيرا ألقى الأماكن وأوفق الأوقات ، قانعا بأذني العيش راضيا بأيسر الأقوات ؛ أونس من شوارد العقول وحشيشها ، وأشرد عن روايض المنقول حوشيشها ؛ والتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبثها ؛ مقدما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون أنفها ؛ معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع ؛ متقيا من الكتب أمتعتها تصنيفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ؛ متخبا من أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثا وأطفهم تدقيقا ؛ عارفا لكل عالم حقه ، وموفيا لكل عليم مستحقه ؛ قد استغنيت بكتابي عن خلّي ورفيقي ، وآثرت بيت خلوقي على شفيق وشقيقي ؛ أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فاشهدا عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أفتي عنها عيانا ؛ وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بِالْغَنِيمَةِ ، وَأَهْمُّ عَلَى حُصُونِ الدَّفَاتِرِ ثُمَّ لَا أَوْلَى عَنْ هَزِيمَةٍ ؛ بَلْ كُلُّهَا لَاحَتْ لِي فِتْنَةً
مِنَ الْبَحْثِ تَحَيَّرْتُ إِلَيْهَا ، أَوْ ظَهَرْتُ لِي كَيْتِبَةٌ مِنَ الْمَعَانِي حَمَلْتُ عَلَيْهَا ؛ إِلَى أَنْ أُتِيحَ
لِي مِنَ الْفَتْحِ مَا أَفَاضَتْهُ النِّعْمَةُ ، وَحَصَلْتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ الْقِسْمَةُ .

فَبَيْنَا أَنَا أُرْتَعُ فِي رِيَاضِ مَا نُفَلَّتْ ، وَأُجَنَّبِي إِسَارَ مَا خُوِّلْتُ ، إِذْ طَلَعَ عَلَى جَيْشِ
التَّكْلِيفِ فَخَصَرَنِي ، وَخَرَجَ عَلَيَّ كَيْنُ التَّكْلِيفِ فَاسْرَنِي ؛ فَأَمْسَيْتُ فِي أَضْيَقِ خِنَاقٍ ،
وَأَشَدِّ وَثَاقٍ ؛ قَدْ عَاقَنِي قَيْدُ الْاِكْتِسَابِ عَنِ الْاِشْتَغَالِ ، وَصَدَّنِي كُلَّ الْكَدِّ عَنِ
الْاِهْتِمَامِ بِالطَّلَبِ وَالْاِحْتِفَالِ ؛ فَغَشِيَنِي مِنَ الْقَبْضِ مَا غَشِيَنِي ، وَأَخَذَنِي مِنَ الْوَحْشَةِ
مَا أَخَذَنِي ؛ وَتَعَارَضَ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ بَيْنَ الْكَسْبِ وَطَلَبِ الْعِلْمِ ، وَتَسَاوَيَا فِي التَّرْجِيحِ
فَلَمْ تَجْنَحْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا إِلَى السَّلَامِ ؛ فَصُرْتُ مَذْهُوشًا لَا أَحْسَنُ صُنْعًا ، وَبَقِيْتُ مُتَحِيرًا
لَا أَدْرِي أَى الْأُمْرَيْنِ أَقْرَبُ إِلَى نَفْعَا ؛ : إِنْ طَلَبْتُ الْعِلْمَ لِلْكَسْبِ فَقَدْ أَخْشْتُ
رُجُوعًا ، وَإِنْ تَرَكْتُ الْكَسْبَ لِلْعِلْمِ هَلَكْتُ ضَبْعَةً وَمُتُّ جُوعًا .

فَلَمَّا عَلِمْتُ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا لَا يَقُومُ إِلَّا بِصَاحِبِهِ ، وَلَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ فِي أَحَدِهِمَا
مَالِمُ يُقَمُّ فِي الْآخَرِ بِوَاجِبِهِ ؛ اَلْتَمَسْتُ كَسْبًا يَكُونُ لِلْعِلْمِ مُوَافِقًا ، وَبِحِمَايَةِ لَا يُقَابَ ؛ لِيَكُونَ
ذَلِكَ الْكَسْبُ لِلْعِلْمِ مَوْضُوعًا وَالْعِلْمُ عَلَيْهِ مَحْمُولًا ، وَالْجَمْعُ وَلَوْ بَوَاجِهُ أَوْلَى ؛ فَعَمَلْتُ
أَسْبَرَ الْمَعَاشِ سَبْرًا مُتَقَصِّدًا ، وَأَسِيرُ فِي فَلَوَاتِ الصَّنَائِعِ سَيْرًا مُتَعَهِّدًا ؛ لَكِنِّي أَجِدُ
حِرْفَةً تُطَائِقُ أَرِييَ ، أَوْ صَنْعَةً تُجَانِسُ طَلِي .

فَبَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي مَعَاهِدِهَا ، وَأَرْدُدُ طَرْفِي فِي مَشَاهِدِهَا ؛ إِذْ رُفِعَ لِي صَوْتُ قِرَعٍ
سَمِعْتِي بَرْنَتِهِ ، وَأَخَذَ قَلْبِي بِحَتَّتِهِ ؛ فَفَقَوْتُ أَثَرَهُ مُتَّبِعًا ، وَمِلْتُ إِلَيْهِ مُسْتَمِعًا ؛ إِذَا رَجُلٌ
مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شَكَلًا ، وَأَرْجَحِهِمْ عَقْلًا ؛ وَهُوَ يَتَرَّمُ وَيُشِيدُ :

إِنْ كُنْتُ تَقْصِدُنِي بِطَائِفِكَ عَامِدًا ، * فَحُرِّمْتَ نَفْعَ صَدَاقَةِ الْكُتَّابِ ؛

السَّائِقِينَ إِلَى الصَّدِيقِ تَرَى الْغِنَى * وَالنَّاعِشِينَ لَعَثَرَةِ الْأَصْحَابِ ،
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبٍّ مُثْقَلٍ * وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خِطَابٍ ،
وَالْعَاطِفِينَ عَلَى الصَّدِيقِ بِفَضْلِهِمْ * وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .
وَلَيْنَ جَمَدَتِهِمُ الشَّنَاءُ فَطَالَمَا * بِحَمْدِ الْعَيْدِ تَفْضَّلَ الْأَرْبَابُ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبني من الوصفِ ما هنالك ؛ دنوتُ منه دُنُو الْوَاجِلِ ،
وجَلَسْتُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وقلتُ : هذه وأبيكَ صِفَاتُ الْمُلُوكِ بَلْ مُلُوكُ
الْصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمُ الْفَضَائِلِ بَلْ أَفْضَلُ الْمَكْرَمَاتِ ؛ وَلَمْ أَكْ أَظُنْ أَنَّ لِلْكِتَابَةِ هَذَا
الْخَطَرَ الْجَسِيمَ ، وَلِلْكِتَابِ هَذَا الْحَظَّ الْعَظِيمَ ؛ فَأَعْرَضَ مُغَضِّبًا ، ثُمَّ فَوْقَ بَصَرِهِ إِلَى
مُعْجَبًا ؛ وَقَالَ : هِيَاتِ فَاتِّكِ الْحَزْمَ ، وَأَخْطَاكَ الْعَزْمَ ؛ إِنَّهَا لَمِنْ أَعْظَمِ الصَّنَائِعِ قَدْرًا ،
وَأَرْفَعِهَا ذِكْرًا ؛ نَطَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ الْغَرَاءُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛
فَقَالَ تَعَالَى جَلَّ شَأْنُهُ ، وَتَبَارَكَتِ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ؛ إِشَارَةً
إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَزِيلِ نِعَمِهِ ، وَإِذْنَانَا بِأَنْ مَنَحَهَا مِنْ فَائِضِ دَيْمِهِ ؛ وَقَالَ جَلَّتْ
قُدْرَتُهُ : ﴿ نَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمُعْجِزٍ ﴾ فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وَمَا سَطَّرَتْهُ الْأَفْلَامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي أَكْدِ قَسَمٍ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْسَامِ . وَقَالَ
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ بِفَعْلِ الْكِتَابَةِ مِنْ وَصْفِ
الْكَرَامِ ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِعْلُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مُنِعَهَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجَزَةً قَدِيرَةً تَعَالَى سَبَبُهَا ، حَيْثُ ذَكَرَ الْخَلَاءُ بِقَوْلِهِ :
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتَّاب رَاغِبًا ، فقد رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ كَاتِبًا ، هُمْ مُنَجَّبَةٌ أَصْحَابُهُ ، وَخُلَاصَةُ أَتْرَابِهِ ، مَنْ آمَنَتْهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَخَاطَبَ بِالسَّنَةِ أَقْلَامِهِمْ مُلُوكَ الْأَرْضِ فَأَجَابُوا بِالْإِذْعَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ، وَكَتَبَ الْمُلُوكُ أَيْضًا إِلَيْهِ أَبْتَدَاءَ وَجَوَابًا ، وَكَاتَبَ أَصْحَابَهُ وَكَاتَبُوهُ فَأَحْسَنَ اسْتِمَاعًا وَأَفْخَمَ خُطَابًا ، وَهَذَا جَرَتْ سُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَمِنْ تَلَاَهُمْ ، وَعَلَى نَهْجِهِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمِنْ ضَاهَاهُمْ .

فَالْكَاتِبَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُتْبَتُهَا غَايَةُ رُتَبِ الرِّيَاسَةِ ، عِنْدَهَا تَقِفُ الْإِنَافَةُ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ، وَالْكَتَّابُ عُيُونُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَذَانُهُمُ الْوَاغِيَةِ ، وَأُسْنَتُهُمُ الْنَاطِقَةُ وَعُقُولُهُمُ الْحَاوِيَةُ ، بَلْ مَحْضُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنْ الْمُلُوكُ إِلَى الْكَتَّابِ أَحْوَجُ مِنَ الْكَتَّابِ إِلَى الْمُلُوكِ ، وَنَاهِيكَ بِالْكَاتِبَةِ شَرَفًا ، وَأَعْلَ بِذَلِكَ رُتْبَةً وَكَفَى ، أَنَّ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُزَاحِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلَمِهِ ، وَلَا يُزَاحِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيْفِهِ وَعَايِهِ .

وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَهُمْ الْحَاوُونَ لِكُلِّ وَصِفٍ جَمِيلٍ ، وَشَائِنٍ نَبِيلٍ ، الْكَرَمُ شِعَارُهُمْ ، وَالْحِلْمُ دِتَارُهُمْ ، وَالْجُودُ جَادَتُهُمْ ، وَالْخَيْرُ عَادَتُهُمْ ، وَالْأَدَبُ مَرَكَبُهُمْ ، وَاللُّطْفُ مَذْهَبُهُمْ ، وَلِلَّهِ الْقَائِلُ :

وَشُمُولٍ كَأَنَّمَا أَعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكَتَّابِ !

فَلَمَّا انْقَضَى قِيلُهُ ، وَبَانَ سَبِيلُهُ ، قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتَ قَوْمًا رَاقِيًا وَصَفُهُمْ ، وَشَاقِيًا لُطْفُهُمْ ، وَدَعَانِي طَيْبُ حَدِيثِهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ نَعْوَتِهِمْ ، إِلَى أَنْ أَحُلَّ بِنَادِيهِمْ ، وَأُنْزِلَ بِوَادِيهِمْ ، فَأَجْعَلَ حَرِيقَهُمْ كَسْبِي ، وَصَنَعَتَهُمْ دَائِي ، لِيَجْتَمَعَ بِالْعِلْمِ شَمْلِي ، وَيَتَّصِلَ بِالْإِسْتِغَالِ حَبْلِي ، فَأَكُونَ قَدْ ظَفِرْتُ بِمَنْبَتِي ، وَفُزْتُ بِبَيْعَتِي .

فأَيَّ قَيْلٍ مِنَ الْكُتُبِ أَرَدْتَ ؟ وَإِلَى أَىِّ نَوْعٍ مِنَ الْكِتَابَةِ أَشَرْتَ ؟ أَلِكِتَابَةِ
الْأَمْوَالِ ؟ أَمْ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَالْخُطَابَةِ ؟ ، أَمْ غَيْرَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ؟ ، فَنَظَرَ إِلَى
مُتَبَسِّمًا ، وَأَنْشَدَ مُتَرَنِّمًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ غَضَبٍ * ثُمَّ اسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ ،
نَالُوا بِهَا مِنْ لُعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا * مَا لَمْ يَنَالُوا بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ !

فَقُلْتُ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ كِتَابَةَ الْإِنْشَاءِ دُونَ سَائِرِ الْكِتَابَاتِ ، وَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُهَا
بِالتَّصْرِيحِ وَتُسِيرُ إِلَيْهَا بِالْكَيْاتِ ، فَقَالَ : وَهَلْ فِي أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ جُمْلَةٌ نَوْعٌ يُسَاوِيهَا ،
أَوْ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ صَنْعَةٌ تُضَاهِيهَا ؟ ، إِنَّ لَهَا لَلْفِدْحَ الْمَعْلَى ، وَالْحَيْدَ
الْمُحَلَّى ، وَالذَّرْوَةَ الْمُنِيفَةَ ، وَالرُّتَبَةَ الشَّرِيفَةَ ، كُتَابُهَا أَسُّ الْمُلْكِ وَعِمَادُهُ ، وَأَرْكَانُ الْمُلْكِ
وَأَطْوَادُهُ ، وَلِسَانُ الْمَلَكَةِ النَّاطِقِ ، وَسَهْمُهَا الْمَفُوقُ الرَّاشِقُ ، وَلِلَّهِ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ
الطَّائِي حَيْثُ يَقُولُ :

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبِ بَنَانِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامٍ !
قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدَّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !
قَلَمُهَا يَبْلُغُ الْأَمَلَ ، وَيُغْنِي عَنِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ ، بِهِ تُصَانُ الْمَعَاقِلُ ، وَتُفَرَّقُ
الْمُخَافِلُ :

فَلَمْ يَقُلْ الْحَيْشَ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !
فَقُلْتُ : إِنْ كُتِبَ الْأَمْوَالُ يَزْعُمُونَ أَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالطَّرِيقَةَ
الْمُنْتَلَى ، وَيَسْتَشْهِدُونَ لِفَضْلِهَا ، وَتَقْدِمُ أَهْلِهَا ، بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي مَقَامَاتِهِ :

«إِنَّ صَنَاعَةَ الْحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصَنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّلْفِيقِ ،
وَقَلَمُ الْحَاسِبِ ضَاطِعٌ ، وَقَلَمُ الْمُنْشِئِ خَاطِعٌ ، وَبَيْنَ إِتَانَةِ تَوْطِيفِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ

طَوَامِيرُ السَّجَلَاتِ ؛ بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَعْتَوِرُهُ أَنْبَاسٌ ؛ إِذِ الْإِتَاوَةُ تَمَلُّ
 الْأَنْيَاسَ ، وَالتَّسْلَاوَةُ تُفْرِغُ الرَّأْسَ ؛ وَخَرَجُ الْأَوَارِجِ ، يُغْنِي النَّاطِرَ ، وَاسْتِخْرَاجُ
 الْمَدَارِجِ ، يُغْنِي الْخَاطِرَ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفَظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَثْقَالِ ؛ وَالتَّقَلُّ
 الْأَثْبَاتِ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتِ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِنْصَافِ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ
 فِي الْاِخْتِلَافِ ؛ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفَى الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ
 الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعَمَلِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَأْبُ فِي السَّلَمِ وَالْهَرَجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ
 فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ ؛ وَبِهِ مَنَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِنْعَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا
 قَلَمُ الْحِسَابِ ، لَأَوَدَّتْ ثَمَرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَا تَصِلُ التَّغَانُ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكِنْ
 نِظَامُ الْمَاعْمَلَاتِ مَحْلُولَا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولَا ، [وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولَا ^(١)] ،
 وَسَيْفُ التَّظَالُمِ مَسْلُولَا ؛ عَلَى أَنَّ يَرَاعَ الْإِنْشَاءَ مُتَقَوِّلٌ ، وَيَرَاعَ الْحِسَابَ مُتَأَوِّلٌ ؛
 وَالْحَاسِبُ مُنَاقِشٌ ، وَالْمُنْشِئُ أَبُو بَرَاقِشٍ » .

فوصف كتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبه من شيم أهلها وشيائهم على أكرم
 الشيم وأحسن الشيات .

فقال : هذه الحجة معارضة بمثلا ، بل باطلة من أصلها . وأين ذلك من قوله
 في صدر كلامه ؟ :

«اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ؛ وقلم المكاتبية خاطب ،
 وقلم المحاسبة خاطب ؛ وأساطير البلاغات تُنسخ لتُدْرَسَ ، ودساتير الحسابات تُنسخ
 وتُدْرَسُ ؛ والمنشئ جُهينة الأخبار ، وحقبة الأسرار ؛ ونجى العطاء ، وكبير الندماء ؛
 وقلمه لسان أسرار الدولة ، وفارس الجولة ؛ ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمة ؛ وهو

البشير والنذير، والشفيح والسفير؛ به تُستخلص الصياصي، وتُملك النواصي؛ ويُقتاد العاصي، ويُستدنى القاصي؛ وصاحبه برىء من التبعات، آمن كيد السعات؛ مقررٌ بين الجماعات، غير معرض لنظم الجماعات» .

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب؛ التي لا يعتورها شين، ولا يشوبها مين، وصدر الكلام يقتضي الترجيح، ويُؤذن بالترشيح؛ والرفع، أبلغ في الوصف من النفع؛ فقد يُنتفع بالزر اليسير، ولا يُرتفع إلا بالأمر الكبير؛ على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأنى لكُتاب الأموال، من التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير زلّ؛ فهذه هي الحصص التي لا تُساوى، والمستقبّة التي لا تُتاوى :

تلك المكارم لا قَبانٍ من لبنٍ * شيباً بماءٍ فعاداً بعد أبوالآ !

فقلت: الآن قد انقطعت الحجّة، وبانت المحجّة، فما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذا قد تعلّقت من الصنعة بأسبابها، وأتيت البيوت من أبوابها .
إعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته؛ وتقوى براعته، وتجلّ براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الاصطلاح والإحاطة بالرُسوم؛ ثم أهم ما يبدأ بتحصيله، ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة؛ وإدامة قراءته وتكرير متانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتّى لا يزال دائراً على لسانه حاضراً في ذكره، ولا يبرح معناه ممثلاً في قلبه مصوراً في فكره؛ ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويضطرّ إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله الحجّة البالغة، ولاياته الأجوبة الدامغة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلّق بذلك من مهمّات

الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ؛ وما أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلَامُ النُّبُوَّةِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي أَبْكَتِ
 الْفُصَحَاءَ ، وَالْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ الَّتِي أُعِيَتْ الْبُلْغَاءُ ؛ مع النَّظَرِ فِي مَعَانِيهَا وَمَعْرِفَةِ غَرِيبِهَا ،
 وَالْإِطْلَاعِ عَلَى مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ بَعِيدِهَا وَقَرِيبِهَا ؛ لتكونُ أَبَدًا مُجْتَهِدًا
 ظَاهِرَهُ ، وَأَدِلَّتُهُ قَوِيَّةً مُتَظَاهِرَهُ ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ إِذَا أَسْتَدَّ إِلَى النَّصِّ أَنْقَطَعَ التَّرَاوُعُ
 وَسَلَّمِ الْمَدْعَى وَلَزِمَ ، وَالْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ غَايَتُهُمَا - بعدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي كَلَامٍ
 مِنْ أَوْتَى جَوَامِعِ الْكَلِمِ ؛ وَالْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفُرُوعِهَا ، وَخُصُوصِهَا وَشُيُوعِهَا ؛
 وَالتَّوَعُّلُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَالْمَوْلَدِينَ ، وَأَهْلِ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ؛ وما وَرَدَ عَنْ كُلِّ
 قَرِيقٍ مِنْهُمْ مِنَ الْأَمْثَالِ نَثْرًا وَنَظْمًا ، وما جَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَوَارَاتِ وَالْمُنَاقَضَاتِ حَرْبًا
 وَسِلْمًا ؛ وَالتَّوَعُّلُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْأَشْعَارِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا الْعُلَمَاءُ بِهَا ، فَتَمَسَّكُوا
 بِأَوْتَادِهَا وَتَعَلَّقُوا بِسَبَبِهَا ؛ وَالْأَمْثَالُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي آتَتْقَوْهَا ، وَدَوَّنُوهَا وَرَوَوْهَا ؛ وَأَسْتَضِاحُ
 الْقِسْمِينَ وَأَسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهِمَا ، وَأَسْتِظْهَارُ النُّوعَيْنِ وَاسْتِيطَارُ غَوَارِضِهِمَا ؛
 وَالْإِطْلَاعُ عَلَى حُطْبِ الْبُلْغَاءِ ، وَرَسَائِلِ الْفُصَحَاءِ ؛ وما وَقَعَ لَهُمْ فِي مُحَاطَاتِهِمْ ؛
 وَمُكَاتَبَاتِهِمْ ؛ وَالْعِلْمُ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَحُرُوبِهِمْ ، وما كَانَ مِنَ الْوَقَائِعِ بَيْنَ قَبَائِلِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ ؛
 وَالنَّظَرُ فِي التَّوَارِيخِ وَأَخْبَارِ الدُّوَلِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْقُرُونِ الْحَالِيَةِ ؛ وَسِيرِ الْمُلُوكِ وَأَحْوَالِ
 الْمَمَالِكِ ، وَمَعْرِفَةُ مَكَائِدِهِمْ فِي الْحَرْبِ الْمُتَقَدِّةِ مِنَ الْمَهَاوِي وَالْمُنْتَجِبَةِ مِنَ الْمَهَالِكِ .

مع سَعَةِ الْبَاعِ فِي اللُّغَةِ الَّتِي هِيَ رَأْسُ مَالِهِ ، وَأُسُّ مَقَالِهِ ؛ وَكَثْرَةُ الْمُعَدِّ لِلِإِتْفَاقِ ،
 وَمُعِينُهُ بِلِ مُعِينُهُ وَقَتَ الضَّرُورَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَالتَّحْوِيلُ الَّذِي هُوَ مَنَحُ كَلَامِهِ ، وَمِسْكُ
 خَتَامِهِ ؛ وَالتَّصْرِيفُ الَّذِي تُعْرَفُ بِهِ أَصُولُ أُبْنِيَةِ الْكَلِمَةِ وَأَحْوَالُهَا ، وَكَيْفِيَّةُ التَّصْرِيفِ
 فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا ؛ وَعُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ الَّتِي هِيَ حَلِيَّةُ لِسَانِهِ ، وَآيَةُ بَيَانِهِ ؛
 وَمَعْرِفَةُ أَبْوَابِهَا وَفُصُولِهَا ، وَتَحْقِيقُ فُرُوعِهَا وَأَصُولِهَا : مِنَ الْفَصَاحَةِ وَطَرَائِقِهَا ،
 وَالْبَلَاغَةِ وَدَقَائِقِهَا ؛ وَاخْتِيَارُ الْمَعَانِي وَتَرْبِيهَا ، وَنَظْمُ الْأَلْفَاظِ وَتَرْكِيبُهَا ؛ وَالْفَصْلُ

وَالْوَصْلُ وَمَوَاقِعُهُمَا ، وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ وَمَوَاضِعُهُمَا ؛ وَمَوَاطِنُ الْحَذْفِ وَالْإِضْمَارِ ، وَحُكْمُ الرُّوَاطِ وَالْأَخْبَارِ ؛ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ ، وَالْبَسْطِ وَالْإِيجَازِ ؛ وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَتَمْيِيزُ الْكَلَامِ جَيِّدُهُ مِنْ رَدِيهِ بِصَحَّةِ النَّقْدِ ؛ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ وَطَرَائِقِهَا ، وَالْأُطْلَاعِ عَلَى غَوَامِضِ أَسْرَارِهَا وَفَرَائِدِ دَقَائِقِهَا .

عَلَى أَنْ أَكْثَرُ شَيْءٍ يَجِبُ تَحْصِيلُهُ قَبْلَ كُلِّ حَاصِلٍ ، وَيَسْتَوِي فِي الْاِحْتِيَاجِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ الْمَفْضُولُ مِنَ الْكُتَابِ وَالْفَاضِلُ ؛ الْعِلْمُ بِالْخَطِّ وَقَوَائِنِهِ : مِنَ الْهَجَاءِ وَالنَّقْطِ وَالشَّكْلِ ، وَالْفَرْقِ بَيْنَ الضَّادِ وَالطَّاءِ الْمُتَخَالِفِينَ فِي الصُّورَةِ وَالشَّكْلِ ، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِأَلَاتِ الْكِتَابَةِ وَصِفَاتِهَا ، وَتَبَايُنِ أَنْوَاعِهَا وَاخْتِلَافِ صِفَاتِهَا .

هَذِهِ أَصُولُهُ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا ، وَقَوَاعِدُهُ الَّتِي يُرْجَعُ إِلَيْهَا ؛ فَإِذَا أَحَاطَ بِهَذِهِ الْفُنُونِ عِلْمًا ، وَاتَّقَنَهَا فَهَمًّا ؛ غَزُرَتْ عِنْدَهُ الْمَوَادُّ ، وَاتَّضَحَتْ لَهُ الْجَوَادُّ ؛ فَأَخَذَ فِي الِاسْتِعْدَادِ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ الِاسْتِشْهَادَ ؛ فَقَالَ عَنْ عِلْمٍ وَتَصَرَّفَ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَاسْتَحْسَنَ بَيْرَهَانَ ، وَانْتَقَدَ بِحُجَّةٍ وَتَخَيَّرَ بِدَلِيلٍ وَصَاغَ بِتَرْتِيبٍ وَبَنَى عَلَى أَرْكَانٍ ؛ وَاتَّسَعَ فِي الْعِبَارَةِ مَجَالُهُ ، وَفُتِحَ لَهُ مِنْ بَابِ الْأَوْصَافِ أَقْفَالُهُ ؛ وَتَلَقَّى كُلَّ وَاقِعَةٍ بِمَا يُمَانِلُهَا ، وَقَابَلَ كُلَّ قَضِيَّةٍ بِمَا يُشَاكِلُهَا ؛ وَعَلِمَ الْمُحْيِدَ فَتَسَجَّ عَلَى مَنَوَالِهِ ، وَظَهَرَ لَهُ الْقَاصِرُ فَأَعْرَضَ عَنْ أَقْوَالِهِ ؛ وَحَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ عَلَى فَهْمِ الْخَطَابِ ، وَأَنْشَأَ الْجَوَابَ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْأَعْرَاضِ ، عَلَى طَبَقِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَعْرَاضِ ؛ وَمَتَّى أَخْلَلَ بَشْيَءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاتَّسَهُ الْفَضَائِلُ ، وَعَلَقَتْ بِهِ الرِّذَائِلُ ؛ وَقَلَّتْ بَضَاعَتُهُ ، وَتَقَصَّتْ صِنَاعَتُهُ ؛ وَسَاءَتْ آثَارُهُ ، وَقَبِحَتْ أَخْبَارُهُ ؛ وَخَلَطَ الْغُرَّ بِالْغُرِّ ، وَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الصَّدْفِ وَالذَّرَرِ ؛ فَأَخْرَجَ الصَّنْعَةَ عَنْ أَمَّاكِئِهَا ، وَطَمَسَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَجُوهَ مُحَاسِنِهَا ؛ بَجَرَ الْلُومَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَأَمْسَى مَهْزَأَةً لِأَبْنَاءِ جَنَسِهِ .

وَوَرَاءَ ذَلِكَ عُلُومٌ هِيَ كَالنَّفَالَةِ لِلْكَتَابِ ، وَالزِّيَادَةُ لِلرَّائِبِ :

مِنْهَا مَا تَكْمُلُ بِهِ صِنَاعَتُهُ ، وَتَعْظُمُ بِهِ مَكَاتَتُهُ : كِعِلْمِ الْكَلَامِ ، وَأُصُولِ الْفَقْهِ
وَسَائِرِ الْأَحْكَامِ ، وَالْمَنْطِقِ وَالْجَدَلِ ، وَأَحْوَالِ الْفِرْقِ وَالنَّحْلِ وَالْمَالِ ؛ وَعِلْمِ الْعُرُوضِ
وَالْمِيزَانِ الْمُحْكَمِ ، وَعِلْمِ الْقَوَافِي وَحَلِّ الْمُتَرَجِمِ ؛ وَالْحِسَابِ الْمَفْتُوحِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ
الْمُعَامَلَةِ ، وَمَا تُسْتَخْرَجُ بِهِ الْمَجْهُولَاتُ : مِنْ حِسَابِ الْخَطَايِنِ وَالذَّرْهِمِ وَالذَّنِيرِ وَالْجَبْرِ
وَالْمُقَابَلَةِ ، وَحِسَابِ الدُّورِ وَالْوَصَايَا ، وَالتَّخْتِ وَالْمَيْسِلِ وَمَا لِأَعْمَالِهِ عَلَى غَيْرِهَا مِنْ
الْمَزَايَا ؛ وَالْعِلْمِ بِالْفِلَاحَةِ ، وَأَحْوَالِ الْمِسَاحَةِ ؛ وَعِلْمِ عُقُودِ الْأَيْنَةِ وَالْمَنْاطِرِ الْمُحَقَّقَةِ ،
وَمَرَآكِزِ الْأَنْتِقَالِ وَالْمَرَايَا الْمُخْرِقَةِ ؛ وَعِلْمِ جَرِّ الْأَنْتِقَالِ الْأَبْيَةِ ، وَالْعِلْمِ بِالآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ ؛
وَعِلْمِ الْمَوَاقِيتِ وَالْبِنَكَامَاتِ ، وَالتَّقَاوِيمِ وَالزِّيَاجَاتِ ؛ وَعِلْمِ تَسْطِيجِ الْكُرَّةِ وَالتَّوَصُّلِ بِهَا
إِلَى آسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَكِيَّةِ ، وَكَيْفِيَةِ الْأَرْصَادِ وَأَحْكَامِ النُّجُومِ وَالآلَاتِ الظَّلِيلَةِ ؛
وَعِلْمِ الطَّبِّ وَالْبَيْطَرَةِ ، وَأَحْوَالِ سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَعِلْمِ الْبَيْزَرَةِ .

وَمِنْهَا مَا تَكْمُلُ بِهِ ذَاتُهُ ، وَتَتِمُّ بِهِ أَدَوَاتُهُ ؛ كِعِلْمِ التَّعْبِيرِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ وَعِلْمِ السِّيَاسَةِ ،
وَعِلْمِ تَدْيِيرِ الْمَنْزِلِ وَعِلْمِ الْفِرَاسَةِ . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا خَشْيَةَ
الْإِطَالَةِ ، وَأَعْرَضْنَا عَنْ إِيْرَادِهَا خَوْفَ الْمَلَالَةِ ؛ فَهَذِهِ عُلُومٌ فَضْلَةٌ يَعْظُمُ بِعِلْمِهَا
أَمْرُهُ ، وَفَضِيلَةٌ يَرْتَفِعُ بِتَحْصِيلِهَا ذِكْرُهُ ؛ بَلْ لَا يَسْتَفْنِي عَنِ الْعِلْمِ بَرُّوسَ مَسَائِلِهَا ،
وَإِشَارَاتِ أَرْبَابِهَا الْآخِذَةِ مِنْ بَحَارِهَا بِأَطْرَافِ سَوَاحِلِهَا ؛ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَرَدَّدَ عَلَيْهِ
أَوْقَاتٌ لَا يَسَعُهُ جَهْلُ ذَلِكَ فِيهَا ، وَتَمَثَّرَ عَلَيْهِ أَزْمَانٌ يَوْدُ لَوْ تُسْتَرَى فَيَسْتَرِيهَا .

قُلْتُ : قَدْ بَانَ لِي عُلُومُهَا ، فَمَا رُسُومُهَا ؟ . قَالَ : إِنْ أَعْبَأَهَا لِبَاهِظَةٍ حَمَلَا ،
وَأَمِنْهَا لَكَبِيرَةٍ إِلَّا ؛ وَلَكِنْ سَأَحْدِثُ لَكَ مِمَّا سَأَلْتَ ذِكْرًا ، وَأَنْبِئُكَ بِمَا لَمْ تُحِطْ
بِهِ خُبْرًا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛
من البيعات وأحكامها ، والعهود وأقسامها ؛ والتقاليد وصفاتها ، والتقاويض
ومضاهاتها ؛ والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ؛ والخطب ومناسباتها ،
والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمناشير ومراتبها ، والمربعات الجيشية ومعانيها ؛
ومعرفة رتب المكاتبات وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب
الرفع إلى أعلى درجاتها : من المكاتبات الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفة ،
والمكاتبات الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والعتره النبويه ؛
وملوك المسلمين والقنات ، وملوك الكفر وأرباب الديانات ؛ وأهل المملكة من
التواب والكشاف والولاء ، والأمراء والوزراء والعربان والقضاة ؛ وسائر حملة
الأفلام ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ؛ ونساء الملوك والخوندات ، ومكاتبات
التجار وما عساه يطرأ من المكاتبات المستجدات ؛ وكتب البشرى بالجلوس على
التخت والفتح والظفر ، والبشرى بوفاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ؛ وأستهداف
العزائم ، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمام ؛ والملطقات التي يضطر إليها ، ويعول
في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسفير
والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتبات تكرارها ، ويتسقى
في جيد المراسلات إيرادها وإصدارها : كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك
العالية المراتب ؛ والآلات الملوكية الخليفة المقدار ، والسلاح وآلات الحصار ؛
والخيل المسومة ، والجوارح المئمة ؛ وجليل الوحش وسباعه ، وطير الواجب
وأثباعه ؛ والأمكنة والرياض ، والمياه والفياض ؛ وغير ذلك مما يعز ويغلو ، ويرتفع
ويغلو ؛ وإخوانيات المكاتبات وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ؛
وما تشتمل عليه من الابتداء والجواب ، والشوق والعتاب ؛ والترفق والاعتذار ،

والشفاعة وطلب الصّبح والعفو عند الاقتدار، والتّهاني والتّعازي، وما يكتب مع الهدية ويحاطب عنها من المجازي وغير المجازي .

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعدّد حصرها، ويمتنع على المستقصى ذكرها، ومعرفة الطغرة والطرة والعنوان والتعريف، والعلامة في الكتب على أمانيتها الفارقة بين أخطاط القدر والتشريف، وتزيين الكتاب وطيه وختمه، وتعمية ما في الكتب بضرٍ من الحيلة وإخفاء ذلك وكتمه، ونسخ الأيمان التي يستخلف بها، ويمسك للوفاء بسببها، كيمين البيعة العامة للوفاق والمخالف، وما يختص من ذلك بالنواب وأرباب الوظائف، وأيمان أصحاب البدع والأهواء، وأهل المال والحكماء، وكتابة الهدن والمواصفات، والأمانات والدفن والمفاسحات، ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وبيان المستندات ومحلها المصطلح عليه بين الكتاب، وكتابة التاريخ وما أخذت به كل طائفة وثابت إليه تمسكا، وما يفتح به في الكتابة تيمنا ويختتم به تبركا، ومعرفة قطع الورق : من كامل البغدادى والشامى والثلاثين والنصف والثلاث والمنصوري والعادة، ومن يستحق من هذه المقادير أعلاها أو يوقف به مع أدنى رتبها من غير زياده، والأقلام المناسبة لهذه الأقدار، من الرقاع والتواقيع والثلاث ومختصر الطومار، والعلم بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومباعدة ما بين السطور والتقريب، ومعرفة الرزاديق وقطانها، والنواحي والبلدان وسكانها، والأمم وممالكها، وطرق الأقاليم ومسالكها، ومرآكر البريد ومسافاتها، وأبراج الحمام ومطاراتها، وهجن الثلج والسفن المعدة لنقله، والمحركات المؤدية إلى اجتياح العدو وتفريق شمله، والمناور وأماكنها، والقصاص ومكانها .

هذه رؤسومها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .

وَأَعْلَمُ أَنَّ حُسْنَ الْخَطِّ مِنَ الْكُتَابَةِ وَاسِطَةُ عَقِيدِهَا، وَقُوَّةُ الْمَلَكَةِ عَلَى السَّجْعِ
وَالْأَزْدِوَاجِ مِلَالُكُ حَلَّهَا وَعَقِيدِهَا؛ عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْخَطِّ مَا قُرِيَ، وَأَحْسَنُ السَّجْعِ مَا سَلِمَ
مِنَ التَّكَلُّفِ وَبَرَى؛ وَلِلْكَتَابِ فِي بَحْرِ الْكُتَابَةِ سَبْعٌ طَوِيلٌ، وَتَفَنُّنٌ يُسْفِرُ عَنْ كُلِّ
وَجْهِ جَمِيلٍ .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمنقبة النفسه، سيمط يلها، أو سلك يضمها؟
فقال: سبحان الله: إن يبتها لأشهر من قفانك، وأظهر للعيان من شاحات جبال
النبك؛ أيحفي من البدر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؟ إن ذلك لقاصر على
«آل فضل الله» حقاً، ومنحصر في المقر البدرى صدقاً؛ فهو قبطها الذي تدور
عليه، وأبنت يحدتها التي ترجع في علومها ورؤسومها وسائر أمورها إليه؛ فلوراه
«الفاضل عبد الرحيم» لم ير لنفسه فضلاً ولا رضى لفيه مقلاً، أو عاينه «عبد الحميد
الكاتب» لقال: هكذا هكذا وإلا فلا؛ أو عاصره «قدامة» لجلس قدامة،
أو أدركه «أبن قتيبة» لآتخذ في «أدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بصر به
«الصابي» لصبا إليه ومال، أو قارن زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه
لأقام ببابه وما زال؛ أو جنح «أبن العديم» إلى مناوآته لأدركه العدم، أو جرى
«الصاحب بن عباد» في مضمار فضله لكجا وزلت به القدم؛ أو أطلع «أبن مقلة»
على حسن خطه لقال: هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «أبن هلال» إلى بهجة
روقه لقال: إن هذا هو الفضل المئين؛ إن تكلم فقت سحرا، أو كتب خلت زهرا
أو تحيلت ذرا:

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ الْمَشْتُورَ مَنْطِقُهُ، * وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ!

قد عَلَا نَسَبًا ، وفاق حَسَبًا ، وورث الفضل لا عن كَلَالَه ، وأستحقَّ الرتبةَ بِنَفْسِه
وإن كانت له بالأَصَالَه :

فَحَيْلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وبِالْعُلَى ، * وَحَيْلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِ الْمُحِضِّ !

فلما سمعتُ ذلك زال عَنِّي الإلباس ، وقلتُ : ذلك من فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وعلى
النَّاسِ . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذى تُسِيرُ إِلَيْهِ ، إِنْ تَدُلَّنِي عَلَيْهِ ، فقال : إِنَّهُ
صَفِيُّ الْمَلِكِ وَنَجِيُّهُ ، وَكَاتِبُ سِرِّهِ وَوَلِيُّهُ ، وَالْقَرِيبُ مِنْهُ إِذَا بَعُدُوا ، وَالْخُصُوصُ بِالْمَقَامِ
إِذَا طُرِدُوا ، وَالْمَوْجَّهُ إِلَيْهِ الْخِطَابُ إِذَا حَضَرُوا ، وَالْمُسْتَأْثَرُ بِالْوُرُودِ إِذَا صَدَرُوا ،
وَالْمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْمَلِكِ إِذَا سَكَتُوا ، وَالنَّاطِقُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ إِذَا بَهَتُوا ، وَالصَّائِلُ
بِحُسَامِ لِسَانِهِ وَخَطَى قَدَمِهِ ، وَالْحَامِي الْمَالِكِ بِجُيُوشِ سَطُورِهِ وَجُنْدِ كَلِمِهِ ، وَالْمُسْتَتِ
شَمْلُ الْعَدُوِّ بِدِيْعِ أَلْفَاظِهِ وَدَقِيقِ حِكْمِهِ ، وَالْحَازِزُ قَصَبِ السَّقْيِ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ
كَرَمِهِ ، وَالْمُرَوِّى ظَمًا الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِوَاكِفِ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِيَمِيهِ ، وَالْمُجَلِّى غِيَاهِبِ
الظُّلَمِ بَنِيرِ بَدْرِهِ وَمُضِيٍّ أَنْجَمِهِ :

فَمَا زَالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سَيَادَةٍ * يُشَارُ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :

بَسِيطَ مَسَاعِيِ الْمَجِيدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنَ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَذِلَ الْفَوَاضِلِ ؛

إِذَا سَالَ أَعْيُنُ السَّامِعِينَ جَوَابُهُ * وَإِنْ قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِ !

قلتُ : حَسْبُكَ ! قد دَلَّنِي عَلَيْهِ عَرَفُهُ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَيْهِ وَصْفُهُ ، وَبَانَ لِي مَحْتَدُهُ
الْفَانِخُ وَحَسْبُهُ الصِّمِيمُ ، وَعَرَفْتُ أَصْلَهُ الزَّاكِيَ وَفَرْعَهُ الْكَرِيمُ ، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ثم عَرَجْتُ إِلَى حِمَاهُ ، وَمَلْتُ إِلَى حَيْهِ كَيْ أَرَاهُ ، فَإِذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ تَلَالُأُ أَنْوَارِهِ ،
وَتَشْرِيقُ بِالْجَلَالَةِ أَفْقَارُهُ ، قَدْ عَاتَمَتْهُ الْهَيْبَةُ وَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ وَحَقَّقَتْهُ الرِّيَاءُ وَجَلَّلَتْهُ
السَّعَادَةُ ، وَحَكَمَتْ بِعِزِّ مَنَالِ قُدْرِهِ الْأَفْدَارُ كَمَا أَقْتَضَتْهُ الْإِرَادَةُ .

فلما رأيته أستاذتصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه ، وعلمت أن ما تقدم من المدح لم يؤف حقه ولم يقم ببعض واجبه ، فغلبت هيئته إقداحي ، وحالت حرمة بني وبين مرامي ، فقلت : إنا لله ! قد فانتني مآربي ، ورجعت من فوري إلى صاحبي ، فظهرت له الأسف ، وقصصت عليه القصة قال : لا تحف ؛ إنها لمنقبة عمرية ، وأثرة عديوية ، فالقاروق جد ، وبنو عدي قيسله وجنده .

هذا وإنه لأطف وأرق من اللسيم الساري ، والماء الجاري ، وأحي من العذراء في خدزها ، وأشفق من الوالدة إذا صمت ولدها إلى صدرها ، وأحلم من « معن بن زائدة » ، وإن كان أفصح من « قس بن ساعدة » :

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ * فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَنَسَّمُ !

بالعزائم القاروقية فُتحت الأمصار ، وبالمهية العمرية أقر المهاجرون والأنصار ؛ ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في العول وسكوته في خلافة عمر وصمته ، وجوابه بعد ذلك للقاتل له : هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله : إنه كان مهيباً فهيبته ؛ كيف ؟ وما سلك بك إلا وسلك الشيطان بك غير فقه وضافت عليه الفجاج ، ولم تائل هيئته بهيبة غيره وإن عظمت سطوته حتى قال الشعبي : إن درة عمر لأهيب من سيف الحجاج ، وهو مع ذلك يطف بالأراذل والمساكين ، ويعين الفقراء والمحتاجين ؛ فقد اتضح لك القضيي ، وتحققت أنها سمات إريته .

فعند ذلك ذهب روعي ، وقوى روعي ، وقلت : فهل له أتباع من الكتاب فأتعلق بجهلهم ، وأتأسى بهم في أقوالهم وأفعالهم ؟ ؛ لكن أئسم بسمه الكتاب ، وأثبت في جملة غلمان الباب ؛ قال : أجل ! رأس الدست الشريف صنوه الكريم ، وقسيمه في حسبه الصميم ؛ به شد عضده ، وقوى كتده ؛ فأجتمع الفضل له

ولأخيه ، وورثا سرّ أبيهما « والولد سرّ أبيه » ؛ ثم كتّاب ديوان الإنشاء جُنْدُه
وأتباعه ، وأولياؤه وأشياؤه ؛ وكتّاب الدّست منهم أرفع في المقام ، وكتّاب الدّرج
أجدر بالكتابة وصنعة الكلام .

قلت : القسم الثاني أليق بمقداري ، وأقرب إلى أوطاري ؛ ثم ودّعت صاحبي
شاكراً له على صنيعة وحامداً له على أدبه ، وتركتُه ومضيتُ وكان ذلك آخر العهد
به ؛ ثم عدتُ إليه هو فرفعتُ إليه قصتي ، وسألته الإسعاف بإجابة دعوتي ؛
فقابلها بالقبول ، وأنعم بالمستول ؛ وقرّرني في كتابة الدّرج الشريف ، وأكثفني
بالعرف عن التعريف ؛ وطابق الخبر الخبر ، وأستغثت بالعيان عن الأثر ؛ ثم قمتُ
مجتلاً ، وأنشدتُ مرّ تجلاً :

إذا ما بنو الفاروق في المجد أعرقوا ، * ونالوا بفضل الله مالا كئله ،
وجلت دجى الظلماء أنوار بدرهم ، * وعمت بقاع الأرض أنواء فضله ،
تعالّت ذرى العلياء فيهم وأنشدت : * أبي الفضل إلا أن يكون لمثله !

ثم تشرفت بتقيل يده ، ومضيتُ إلى ما أنا بصددّه ؛ قد منعتني هيتي من اللياذ
به والقرب إليه ، وصيرت عاطر مدحي وخالص أدعيتي وقفاً عليه ؛ وصرتُ إلى
الديوان ، فوجدتُ قوما قد حفهم الحُسْنُ وزانهم الإحسان ؛ فقلت : الحمد لله !
هؤلاء فتية ذاك الكهف بلا أمّراء ، وأشبال ذاك الأسد من غير أقرءاء ؛ فجلستُ
جُلوس الغريب ، وأطرفت أطراق الكئيب ؛ إذ كنتُ في هذه الصّنعَة عصامياً
لا عظامياً ، ومثماً لا تهاًمياً ؛ غير أني تعلقْتُ منها بحال القمر ، وأستوقدتُ نارها
من أصغر الشرر ؛ فتلقوني بالرحب ، وأحلوني من ديوانهم بالمكان الرحب ؛ وقابلوني
بالجميل قبل المعرفة ، وعاملوني بالإحسان والنّصفه .

فلما رأيت ذلك منهم حمِدْتُ مَسْرَايَ ، وشكُرتُ مَسْعَايَ ؛ ودَعَوْتُ لِصَاحِبِي أَوَّلًا
إِذْ حَبَّبَ صَنَعَتَهُمْ إِلَيَّ وَشَاقَنِي ، ودَانِي عَلَيْهِمْ وَسَاقَنِي .

ولما تحققتُ أَنِي قد أَثْبِتُ في دِيَوَانِهِ ، وَكُنَيْتُ مِنْ جُمْلَةِ غُلَمَائِهِ ؛ رَجَعْتُ
الْقَهْقَرَى عَنْ طَلَبِ الْكُتُبِ ، وَأَسْتَوِيْ عِنْدِي الْمَحَلُّ وَالْخُصْبُ ؛ وَأَكْتَفَيْتُ
بِنَظَرِي إِلَيْهِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَيَقَّنْتُ أَنَّ نَظْرَةً مِنْهُ إِلَيَّ تُرَقِّبُنِي إِلَى السَّحَابِ ؛
وَتَلَوْتُ بِلِسَانِ الصَّدِيقِ عَلَى الْمَلَأِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفِيَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْمَقَامَةُ مِنْ فَضْلِ الْكِتَابَةِ وَشَرَفِ الْكُتَابِ مَقْنَعٌ مِنْ غَيْرِهَا ،
وَمَغْنٌ عَنْ سِوَاهَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْمِنَّةُ .



وهذه نُسخة مَقَامَةٍ أَنشأَهَا أَبُو الْقَاسِمِ الْخَوَارِزْمِيُّ فِي لِفَائِهِ لِأَدِيبٍ يَعْرِفُ بِالْهَيْتَى ،
وَأَنْقَطَاعِهِ فِي الْبَحْثِ ، وَعَلَبَةِ الْخَوَارِزْمِيِّ لَهُ . أوردَهَا أَبُو حَمْدُونُ فِي "تَذَكُّرَتِهِ" وَهِيَ :
وَصِيَّةٌ لِكُلِّ لَيْبٍ ، مُتَقَيِّظٌ أَرِيبٌ ، عَالِمٌ أَدِيبٌ ؛ يَكْرَهُ مَوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَيَتَحَفَّظُ
مِنْ مَصَادِفِ الْغَلَطَاتِ ، وَيَتَلَطَّفُ مِنْ مُخْزِيَّاتِ الْفَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،
وَيَقْتَصِرَ مِنْ تَمَامِهِ ، وَيَغْضُ مِنْ سِهَامِهِ ؛ وَيُظْهِرَ بَعْضَ شَكِيمَتِهِ ، وَيُسَاوِمُ بِأَيْمِيرِ
قِيمَتِهِ ، وَيَسْتُرُ كَثِيرًا مِنْ بِضَاعَتِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيقَ غَايَةِ
أَسْطِطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُعَاشِرَ النَّاسَ بِصَدِيقِ الْمُنَاصَحَةِ ، وَجَمِيلِ الْمُسَاحَعَةِ ؛ وَأَنْ لَا يَجْهَلَ
الْإِعْجَابُ بِمَا يُحْسِنُهُ ، عَلَى الْأَزْدَرَاءِ بِمَنْ يَسْتَقْرِئُهُ ، وَالْأَفْرَاءِ عَلَى مَنْ يَعْتَرِضُهُ وَيُلْسِنُهُ ؛
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبْرِهِ ، وَنَظَرُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنْظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبَ مِنَ الْإِعْتِدَارِ ،
وَأَبْعَدَ مِنَ الْخَلْجَةِ وَالْأَنْكِسَارِ .

فليس الفتي من قال: إني أنا الفتي، * ولكنه من قيل: أنت كذلكا.

وكم مدح ملكا بغير شهادة * له نجمة إن قيل: أن لست ماليا!

ولقد نصرت بالانصاع، على ذى نباهة وأرتفاع، وذلك أنى أضعدت فى بعض
الأعوام، مع جماعة من العوام، بين تاجر وزائر، إلى العزل والحائر، حتى آتينا
إلى قرية شارعه، أهلة زارعه، وما منا إلا من أملتته السمرية فأعرضته،
وأسقمته وأمرضته، وقترته فقبحته، وكثر منا الجوار، وأستولى علينا الدوار،
فخرجنا منها نروح المسجون، وقد تقوسنا تقوس العرجون، فاسترحنا بالصعود،
من طول القعود:

كأننا الطير من الأفقاص * ناجية من أحبل القناص،

طيبة الأنفيس بالخلاص * منفضات الريش والنواصي!

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة، حتى وقف علينا واقف، وهتف
بنا هاتف، أيكم الخوارزجي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند،
فأقبل إلى، وسلم على، وقال: إن الناظر يستيريك، فليعجل إليه مصيرك، فقم
معه، يتقدمنى وأتبعه، حتى انتهى بى إلى جلة من الرجال، ذوى بهاء وجلال،
وزينة وجمال، من أشراف الأمصار، وأعيان ذوى الأخطار، من أهل واسط
وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كل مرهوب العامة لائما * على وجه بدر تحته قلب ضيعم!

فقام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال فى سؤاله
وسلامه، وجذبونى إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذنابه وأحبيت، وأخذوا

يَسْتَخِيرُونِي عَنِ الْحَالِ ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ ؛ وَدَاعِيَةِ الْارْتِحَالِ ؛ وَعَنِ النَّيَّةِ وَالْمَقْصِدِ ،
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ، وَالْخَيْرَانِ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَفِيٌّ مُسَائِلٌ ، * وَوَاصِفٌ أَشْوَاقٍ وَمُثْنٍ بِصَالِحٍ ،
وَمُسْتَشْفِعٌ فِي أَنْ أُقِيمَ لَيْلًا * أَرْوَحُ وَأَعْدُو عِنْدَهُ غَيْرَ بَارِحٍ !

ثم قال قائلهم : هل لقيت عَيْنَ الزَّمَانِ وَقَلْبَهُ ، وَمَالِكَ الْفَضْلِ وَرَبَّهُ ، وَقَلِيبَ الْأَدَبِ
وَعَرَبِهِ ؛ إِمَامَ الْعِرَاقِ ، وَشَمْسَ الْآفَاقِ ؟ . فقلت : وَمَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمَهُولَةِ ،
وَالْخَيَاةِ الْمَجْهُولَةِ ؛ فَقَالُوا : أَوْ مَا سَمِعْتَ بِكَامِلِ هَيْتِ ، ذِي الصَّوْتِ وَالصَّيْتِ ؟ :

ذَاكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى * زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَانِ ،
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ * وَسَيَبَوِيهِ وَأَبْنُ سَعْدَانِ ،
وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا * وَأَبْنُ كُرَيْزٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ .
قالوا مجابٌ كُلُّهُمْ : إِنَّهُ * سَيِّدُنَا ، أَوْ قَالَ : غِلْمَانِي .

فقلت لهم : قَدْ قَلَّدْتُمُ الْمَنَّةَ ، وَهَيَّجْتُمُ الْحَنَّةَ ؛ إِلَى لِقَاءِ هَذَا الْعَالِمِ الْمَذْكُورِ ، وَالسَّيِّدِ
الْمَشْهُورِ ؛ وَقَدْ كَانَتْ الرِّيحُ تَأْتِينِي بِنَفْحَاتِ هَذَا الطَّيِّبِ ، وَهَذَرِ هَذَا الْخَطِيبِ ؛
فَالآنَ لَا أَثَرُ بَعْدَ عَيْنٍ ، سَأَصْبَحُ لِأَجَلِهِ عَنْ سُرَى الْقَيْنِ ؛ أَغْتِنَا مَا لِلْقَائِدِ ، وَالنَّعَمِ
الْبَارِدِ ، وَوُجَدْنَا لِلضَّلَالَةِ الشَّارِدِ .

أَيْنَ أَمْنِي وَمَا الَّذِي أَنَا أَبْنِي * بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابِ ؟
فَإِذَا مَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيبًا فَمَا أُرِيدُ الثَّوَابَ .
إِذْهَبُوا أَتَمُّ فُرُورُوا عَلِيًّا : * لِأَزُورَ الْهَيْتِي وَالْآدَابَ :
لَنْ أَبَالِيَ إِنْ قِيلَ الْخَوَارِزِ * مَتَى أَخْطَأَ فَعَلَهُ أَوْ أَصَابَا !

فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : بَلْ أَصَبْتَ ، وَوَجَدْتَ مَا طَلَبْتَ ؛ وَقَدِيمًا كُنَّا نَنْشُرُ أَعْلَاقَكَ ،
وَنَتَحَنَّى أَتْفَاقَكَ ؛ وَتَسْدَاوُلُ أَوْصَافَكَ ، وَنُحِبُّ مُضَافَكَ ؛ وَنُكْبِرُ لَدَيْهِ ذِكْرَكَ ، وَنُعْظُمُ
لَدَيْهِ قَدْرَكَ ؛ فَيَتَحَرَّكَ مِنْكَ سَاكِنُهُ ، وَتَتَقَلُّقُلُ بِكَ أَمَّا كِنُهُ ؛ وَنَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ
يَجْمَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِمَحْضَرِنَا ، وَتُلَامِحَ عَيْنَكَ عَيْنَهُ بِمَنْظَرِنَا ؛ وَيَلْتَفِّ غُبَارُكَ بِغُبَارِهِ ،
وَيَمْتَرِّجُ تِيَّارُكَ بِتِيَّارِهِ ، وَيَخْتَلِطُ مِضْمَارُكَ بِمِضْمَارِهِ ؛ فَيُعْرِفُ مِنْكُمْ السَّابِقُ وَالسَّكِينُ ،
وَالسُّودَانِيُّ وَالْكُمَيْتُ ؛ وَيَتَبَيَّنُ مِنَ الذِّى يَحْوَى الْقَصَبُ ، فَاكِنَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

هَـمَا رُحْمَانِ خَطِيَّانِ كَانَا * مِنَ السُّمْرِ الْمُتَقَفِّهِ الصَّعَادِ

تُهَالُ الْأَرْضُ أَنْ يَطَا عَلَيْهَا * بِمَثَلِهِمَا تُسَالِمُ أَوْ نُعَايْ !

فَقَالَ [بَعْضُ الْجَمَاعَةِ] لَقَدْ تَتَكَّبْتُمُ الْإِنْصَافَ ، وَأَخْطَأْتُمُ الْاعْتِرَافَ ؛ وَأَبْعَدْتُمُ
الْقِيَاسَ ، وَأَوْقَعْتُمُ الْإِلْتِبَاسَ ؛ أَيْنَ أَبْنُ ثَلَاثِينَ ، إِلَى أَبْنِ ثَمَانِينَ ؟ ؛ وَأَبْنُ اللَّبُونِ ،
مِنَ الْبَازِلِ الْأَمُونِ ؟ ؛ وَالرُّمْحُ الرَّازِحُ ، مِنَ الْجَوَادِ الْقَارِحِ ؟ ؛ وَالْكُودُنُ الْمَبْرُوضُ ،
مِنَ الْحَرْبِ الْمَبْرُوضِ .

وَأَبْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ * لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُرْلِ الْقَنَاعِيْسِ !

كَمْ لَدَيْهِمْ بَطَائِحُ وَسَبَاحُ ، وَسَاكِنُ صَرَائِفَ وَأَكْوَاخُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ سَوَادِيَّةُ أَنْبَاطُ ،
وَعُلُوجُ أَشْرَاطُ ، وَرِعَاعُ أَخْلَاطُ ، وَسِفْلُ سُقَاطُ ؛ فِي بِلْدَةٍ إِنْ رَأَيْتُ سُورَهَا ،
وَعَبَرْتُ جُسُورَهَا ، صَحَّتْ : وَاعْرِبَتْهَا ، وَإِنْ رَأَيْتُ وَجْهًا غَرِيبًا نَادَيْتُ : وَابْتَاهَ ؛
لَا أَعْرِفُ غَيْرَ النَّبْطِيَّةِ كَلَامًا ، وَلَا أَلْقَى سِوَى الْوَدِيِّ إِمَامًا ؛ فِي مَعْشَرٍ مَا عَرَفُوا
التَّرْحَالَ ، وَلَا رَكِبُوا الشَّرُوحَ وَالرَّحَالَ ، وَلَا فَارَقُوا الْحِدَارَ وَالطَّلَالَ .

أُولَئِكَ مَعْشَرُ كَبَنَاتِ نَعِشٍ * خَوَالِفَ لَا تَغُورُ مَعَ النُّجُومِ !

[فأثني له] بمصاولة رَجُلٍ جَوَّالٍ ، رَحَّالٍ حَلَّالٍ ؛ بهيتَ وُضِعَ ، وبالكُوفَةِ أَرْضِعَ ؛ وببَغْدَادٍ أَثَغَرَ ، وبواسطِ أَحْفَرَ ؛ وبالحجازِ وَتِهَامَةَ فِطَامَهُ ، وبمِصَرَ والمَغْرِبِ كَانَ أَحْتِلَامَهُ ؛ وببَحْجٍ والشَّامِ بَقَلَ عَارِضُهُ ، وباليَمَنِ وعِمانَ قَوَيْتَ نَوَاهِضُهُ ؛ وبخُرَّاسَانَ بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وببُخَّارًا وَسَمَرْقَنْدَ تَنَاهَى جِئُهُ ؛ وبغَزْنَةَ والهِندِ شَابَ وَأَكْتَهَلَ ، ومن سَيَّحُونَ وَجَيَّحُونَ عَلَّ وَهَسَلَ ؛ وبمِيسَانَ والبَصْرَةَ عَوَّدَ وَقِرِحَ ، وبالحِجَالِ جَلَّهَ وَجَالِحَ ؛ فهو يَعِدُّ «المَازِنِيَّ» إِمَامَهُ ، وَأَبْنَ «جَنِّيَّ» ذُلَامَهُ ؛ و«الْمُتَنَبِّيَّ» من رُؤَايِهِ ، و«الْمَعَرِّيَّ» حَامِلَ دَوَاتِهِ ؛ و«الصَّيَّانِيَّ» بَارِي قَلَمِهِ ، و«الصَّاحِبَ» رَافِعَ عِلْمِهِ ؛ و«أَبْنَ مُقَلَّةَ» من نَاقِلِي غَاشِيَتِهِ ، و«بَنِي أَبِي حَفْصَةَ» بَعْضَ حَاشِيَتِهِ ؛ وَقَدْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَتَلَّاهَا ، وَحَفِظَ الْعُلُومَ وَرَوَاهَا ، وَدَرَسَ الْآدَابَ وَوَدَّاهَا ؛ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وَأَلْفَهَا ، وَأَنْشَأَ الْحِكْمَ وَصَنَّفَهَا ؛ وَفَصَّلَ الْمُشْكَلَاتِ وَشَرَحَهَا ، وَأَرْتَجَلَ الْخُطَبَ وَنَقَحَهَا ؛ فَهُوَ الْبَحْرُ الْمُرُودُ ، وَالْإِمَامُ الْمَقْصُودُ ، وَالْعَلَمُ الْمَصْمُودُ ، هَذَا بَوْنٌ وَمَرْتَقَى شَدِيدٌ .

أَتَلَقَوْنَ بِالْأَعْزَلِ الرَّاحِمَا ، * وَبِالْأَكْشَفِ الْحَاسِرِ الدَّارِعَا ،

وَبِالْكُودِنِ السَّابِقِ السَّابِحَا ، * وَبِالْمِنْجَلِ الصَّارِمِ الْقَاطِعَا ؟

فَمَا أَسْتَمَّ كَلَامُهُ حَتَّى أَقْبَلَ : فَإِذَا نَحْنُ بِهِ قَدْ طَلَعَ مُهْرُولا ، وَأَقْبَلَ مُسْتَعَجِلَا ؛ فَرَأَيْتُ رَجُلًا أَجْلَحَ ، أَهَمَّ أَفْلَحَ ، أَفْطَحَ أَزْدَحَ ؛ طَوِيلًا عَنُطْنَطَ ، يَنْحِي ذَنْبًا لَمْعَطَ ، أَجْمَعَ أَحْبَطَ ، فَتَلَقَّوهُ مُعْظَمِينَ ، وَلَهُ مُفَخِّمِينَ ؛ فَقَصَدَ فِي الْمَجْلِسِ صَدْرَهُ ، وَأَسْنَدَ إِلَى الْحِدَّةِ ظَهْرَهُ ؛ فَمَا أَسْتَقْبَرَهُ الْمَكَانَ ، حَتَّى قِيلَ لَهُ : هَذَا فُلَانٌ ، فَقُبِضَ مِنْ أَنْفِهِ ، وَنَظَرَ إِلَى بَشْطَرٍ مِنْ طَرَفِهِ ؛ وَقَالَ بَعْضُ فِيهِ ، هَأُمُوا مَا كُنْتُمْ فِيهِ ؛ تَعَسَّا لِلشُّوَاهِ وَجَالِيهِمَا ، وَالْقُرَّاءِ وَحَالِيهَا :

جَاءَ زَيْدٌ مُجَرَّرًا رَسَنَهُ * فَحُلَّ لَا يَمْنَعُهُ سِنَنُهُ (؟)

أَحَبَّهُ قَوْمُهُ عَلَى شَوْهِ * إِنْ الْقَرْنَيْنِ فِي عَيْنِ أُمِّهَا حَسَنَهُ !

كان لنا شيخٌ بالأنبار، كثيرُ الأخبار؛ قد بلغ من العمر أملاه، ومن السنَّ أعلاه؛
قرأت عليه جميعَ الكتاب، وعلمَ الأنساب؛ و”مسائلُ ابنِ السراج“، و”ديوانُ
ابنِ العجاج“، و”كتابُ الإصلاح“، و”مشروحُ الإيضاح“؛ وشعرُ الطرمّاح،
و”العين“ للفرهودي، و”الجهرة“ للآزدي؛ وأكثرُ من المصنّفات، المجهولات
والمعروفات؛ ينفخُ في شقاشقه، ويزيدُ في بقاءه، ويتعاطمُ في مخارقه؛ وجعل
القومُ يقسمونَ بيننا الألفاظ، ويحسبونُ الألفاظ؛ وما منهم إلّا من أغناط لسكوتي
وكلامه، وتآخري وإقدامه.

ثم هذى الشيخُ إذ وُصفَ له رجلٌ على الغيبِ ثم رآه، فاحتقره وأزدراه؛
وأُتد مُتمّلاً :

لعمري أياك تسمعُ بالمعيدي * بعيد الدار خيرُ أن تراه

فقال : هذا المعيدي هو ضمرة، بنُ ضمرة، بن جابر، بن قطان، بن نهشل، بن
دارم، بن مالك، بن حنظلة، بن مالك، بن زيدمناة، بن تميم، بن مرة، بن أد،
ابن طابخة، بن ألياس، بن مضر، بن نزار، بن معدّ، بن عدنان. والمعيدي تصغيرُ
معيدي، وهو الذي قالت فيه نأدبته :

أنى الكريمَ النهشلي المصطفى * أكرم من خامر أو تخندفا!

فقلت : ما بعد هذا المقال، وجهٌ للاحتمال؛ وما يجبُ لي بعد هذه المواقف،
غيرُ المكافئ؛ ولم يبقَ لي بعد المغالبة، من مراقبه :

ماعلي وأنا جلدُ نابل^(١) * والقوسُ فيه وترُ عنبيل

* ترلُ عن صفحته المعابل ! *

(١) كذا في اللسان في مادة - عل - وفي مادة عنبيل ”خب خاتل“ .

ماعلى وأنا [رجل] جلد * والقوس فيه وترعرد
* مثل ذراع البكر أو أشد *

فمطفت عليه عطف النائر العاسف ، وألفت إليه ألفت الطائر الخاطف ؛
قلت له : يا أخاهيت ، قد قلت ماشيت ، فأجب الآن إذا دُعيت ؛ وألزم مكانك ،
وغض عنانك ، وقصر لسانك ؛ إن نادية ضمرة خندقته ، لما وصفته ؛ وما سمعت
في نسبك إياه ليخديف ذكرا ، فأين عن ذلك عذرا ؛ فقال : إن خديف هي امرأة
ألياس بن مضر ، غلبت على بنينا فنسبوا إليها ، كطهية ومزينة ، وبله دوية وعرينه ،
والسلكة وجهينه ، وندبة وأذينه ؛ وكشيب بن البرصاء وابن الدغماء . قلت له :
سئلت ، فأجبت وأصبت ؛ فأخبرني عن خديف هل هو اسم موضوع ، أو لقب
موضوع ؟ ؛ فوقف عند ذلك حاراه ، وتحدث ناره ؛ وركد جريانه ، وسكن هديانه ،
وقتر غليانه ، وظهر حرانه ؛ وذلل وأنقمع ، وأنطوى وأجتمع ؛ فاضطره الحياء ، وأجأه
الاستجداء ؛ إلى أن قال وهو يخفى لفظه ، ويطرق لحظه : أظنه لقبا . قلت : هو
كما ظننت فما معناه وما سببه ؟ وكيف كان موجب ؟ فلم يجد بدا من أن يقول :
لا أدري ، فقال وقد أدقته مر الإماته ، وأحس من القوم بتظاير الشماته :

وودَّ يبدع الأنف لو أن صحبه * تنادوا وقالوا في المناخ له : نعم !

ثم أقبلوا إلى ، وعكفوا على ؛ بأوجه مهله ، وألسنة متوسله ؛ في شرح الحال ،
والقيام بجواب السؤال ؛ فقلت : هذا بدع عجيب ، أنا أسأل وأنا أجيب ؛ إن ألياس
ابن مضر تزوج لبلى بنت ثعلبة ^(١) ، بن حلوان ، بن الحاف ، بن قضاة ، بن معبد ،
(في بعض النسب) ، فولد له منها : عمرو وعامر وعميز . ففقدتهم ذات يوم ، فالحى

على ليلي باللوم، فقال: أخرجني في أثرهم، وأتيني بجبرهم؛ فمكنت في طلبهم، وعادت بهم؛ فقالت: ما زلت أحندي في أتباعهم، حتى ظفرت بلقائهم؛ فقال لها ألباس: أنت خندي. والحندي في الأتباع، تقارب الخطو في إسراع؛ وقال عمرو: يا أبتى أنا أدركت الصيد فلويته، فقال له: أنت مدركة إذ حويته. وقال عامر: أنا طبخته وشويته. فقال له: أنت طائحة إذ شويته. فقال عمير: أنا أنقمت في الحباء، فقال له: أنت قمره للاختباء؛ فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأنساب.

فقال حينئذ: هذا علم استقدته، وفضل استردته؛ وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوي الألباب، نماء في الآداب. فقلت له ممتثلاً:

أقول له والرُّمَحُ يَاطِرُ مَتْنُهُ * تَأَمَّلْ خُفَاءًا: إِنِّي أَنَا ذَلِكَا!

ثم لم يحتسب إلا قليلاً، ولم يمسك طويلاً؛ حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تهديره؛ طمعاً بأن يأخذ بالنار، ويعود الفيض له في القمار؛ فعدل عن العلوم النسيبة، وجال في ميدان العريضة؛ ولم يحس أن بآعه فيها أقصر، وطرفه دون حقائقها أحسر؛ فقال: حضرت يوماً حلبة من حلبات العلوم، وموسماً من مواسم المنثور والمنظوم؛ وقد غص بكل خطيب مضجع، وحكم مقنع، وعالم مصدع؛ وملي من كل عتيق صهل، وفتيق صوال، ومنطيق جوال؛ فأخذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات؛ وسلكوا في معاني القريض، كل طويل عريض؛ حتى أخذ السائل منهم بالمختق، بيئت [الفرزدق] ^(١):

وعَضَ زَمَانٌ يَا أَبْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ * مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسَخَّاتٍ أَوْ مُجَلَّفٍ!

(١) الزيادة من اللسان مادة - س ح ت - و - ج ل ف - .

فَكَثُرَ فِيهِ الْجَدَالُ ، وَطَالَ الْمَقَالُ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْقِيَاسَ ، وَأَصَابَ
الْقِرْطَاسَ ، وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَتَى بِالْتَّحْقِيقِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ سَاهُونَ ،
وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يَغْمَهُونَ ، فَتَادَيْتُهُمْ : إِلَى قَسَارِعُوهَا ، وَمِنِّي فَاسْتَمَعُوا ، فَلَمَّا أَنَا ابْنُ بَيْتِهَا ،
وَعَالِمُ مَا تَحْتُ جِلْدَتِهَا ، ثُمَّ إِنِّي أَبَدَيْتُ لَهُمْ سِرَّارَهُ ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهُ ، وَحَلَّاتُ عُقْدَهُ ،
وَحَضَّضْتُ زُبْدَهُ ، وَأَطَرْتُ لَبَدَهُ ، وَبَحَسْتُ حَجَرَهُ ، وَأَبْتَنْتُهُمْ عُجْرَهُ وَجُجْرَهُ ، فَقَالُوا : لِلَّهِ
أَبُوكَ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ ، وَأَكْشَفْنَا لَغَايَاهُ ، وَأَجَلْنَا لَشَبْهِهِ ، وَأَضْرَأْنَا فِي بَدْهِهِ ،
وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهَرِهَا مَنْ يَقُومُ بِعِلْمِ مَا فِيهِ ، وَيَطَّلِعُ عَلَى خَافِيهِ .

فَادْرَكْنِي الْأَمْتِعَاضَ ، وَأَخَذَنِي الْإِتْفَاضَ ، فَاَنْشَدْتُهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ * وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَزْرَى بِهِ الطَّمَعُ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَدَعَيْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ، فَأَخْبَرْنِي دِنَ أَوَّلِ هَذَا الْبَيْتِ ، يَا مُجْرِي
الْكَيْتِ ، وَكَيْفَ تُنْشِدُهُ : وَعَضَّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعَضَّ بِالْضَمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ ،
فَقُلْتُ : تَبْتَدِي بِالْفِعْلِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى الْأَنْسَمِ يَا ذَا الْإِعْجَابِ ، تَهْيَأُ لِلْسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ،
وَأَخْبَرْنِي لَمْ تَفْتَحْ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَاسْرِعْ مِنْ غَيْرِ التَّغَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ ،
لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ : فَقُلْتُ : هَذَا جَوَابُ تَعْلَمُهُ ، وَمِنْ صِبْيَانِ الْمَكْتَبِ لَا نَعْدِمُهُ ،
وَأَمَّا أَلْتَمَسَ مِنْكَ الْفَائِدَةَ فِيهَا ، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا ، فَقَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمَّةِ
النُّحَا ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ ، فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتُهُ ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْصَحْتُهُ . فَقُلْتُ : دَعِ
عَنْكَ هَذَا وَأَخْبَرْنِي عَنْ هَذَا الْبِنَاءِ ، أَلِغَلَّةِ أَمْ لَغَيْرِهَا ؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَحَّجُ ، وَيَتَنَاقَبُ
تَارَةً وَيَتَنَحَنَحُ . فَلَمَّا سَدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَحَصَلَ فِي مَضِيقِهِ ، وَعَضَّ بِرِيقِهِ ،
قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَعْدَرَ إِلَيْكَ مِنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ ، وَعَضَّ جِمَاحَهُ ،
وَمِنْ أَذْبَرَبَعْدَ إِقْبَالِهِ ، عُدِلَ عَنْ قِتَالِهِ :

والحق أبلج لا يحسد سبيله * والحق يعرفه ذوو الألباب!

والآن فقد فازت قِداحك ، وبانت غُررك وأوصاحك ؛ وأجذت النّصال ، وأدركت الخصال ؛ فأوضح لنا عما سألت ، وأرشدنا إلى ما دلّلت ؛ لئلا يقال : هذا بهت ، ومحالّ تحت ؛ فقلت حبا وكرامه ، إسمع أنت ياطغامه ؛ إنّ الفعل من فاعله ، كالولد من ناجله ؛ لا يخلو الفعل من علامة الفاعل ، في لفظ كلّ تائل ؛ وهى الفتحة من ماضيه وواقعه ، والزوائد في مستقبله ومضارعه . وبيان ذلك : أن الفتحة لا تكون مع التاء والنون ... فتثبت الفتحة ، ثم تقول : أخرجت وأخرجنا ، فتسقط ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت النون التي مع الألف ضمير المفعول عادت الفتحة ، فتقول : أخرجنا الأمير ، فهذا بين . فصفت الجماعة وسمحت ، وحسنت ومجّحت ؛ وجعل الأديب يضطرب اضطراب العصفور ، ويتقلب تقلب الصقور ؛ متيقنا أن أسده صار جردا ، وبأزیه عاد صردا ؛ ودوره انقلبت مخشليا (؟) ، وزيتونه تحول عريبا ، وقناه تغير قصبا ؛ وأن مستقبله تعوج ، وجيده تهرج ، وصحيحه تخرج ، وجديده تخرج ؛ فقال منشدهم :

ترى الرجل النحيف فتدريه * وتحت ثيابه أسد مزير ،

ويعجبك الطير فتبتأيه * فيخاف ظنك الرجل الطير .

فما عظم الرجال لهم بفخر * ولكن خفرهم كرم وخير!

فأخذه الأبلّاس ، وضاق به الأنفاس ، وسكنت منه الحواس ، ورفضه الناس ؛ وجعل ينكت الأرض ، ويواصل بكفّه العض ؛ ويتشاءم بيومه ،

ويعودُ على نفسه بَلْوَمَهُ ؛ يَمْسَحُ جَبِينَهُ ، وَيُكْثِرُ أَيْنَهُ . فقامتُ فقامتُ معي الجماعة
وتركتُهُ ، وأسْتَهانتُ به وفَرَكتُهُ ؛ فلما بَقِيَ وَحْدَهُ ، تَمَنَّى لِحَدِّهِ ؛ وَأَسْبَلَ دَمْعَتَهُ ،
وَوَدَّ أَنْ الْأَرْضَ بَلَعَتْهُ :

وكان كمثل البومَيْنِ رُومٍ * تَلُوذُ بِحَقْوِيهِ السُّرَاةُ الْأَكْبَرُ ،
فأَصْبَحَ مِثْلَ الْأَجْرِبِ الْحِلْدِ مُفْرَدًا * طَرِيدًا فَمَا تَدْنُو إِلَيْهِ الْأَبْعَرُ !

فقام فَبَعْنِي ، وَوَقَفَ وَوَدَّعَنِي ؛ وَأَطَالَ الْأَعْتِذَارَ ، وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ وَالْأَسْتِغْفَارَ ؛
وَقَالَ : مِثْلُكَ مِنْ سَرَّ الْخَلَالِ ، وَأَقَالَ الْعَثْرَةَ وَالزَّلَالَ ؛ فَقَدْ آغْتَرْتُ مِنْ سِنِّكَ بِالْحَدَاثَةِ ،
وَمِنْ أَخْلَاقِكَ بِالْأَدَمَانَةِ . فَقُلْتُ : كُلُّ ذَلِكَ مَفْهُومٌ مَعْلُومٌ ، وَأَنْتَ فِيهِ مَعْدُورٌ
لَا مَلُومٌ ؛ وَمَا جَرَى بَيْنَنَا فَهُوَ مَنَسِيٌّ غَيْرُ مَذْكُورٍ ، وَمَطُويٌّ غَيْرُ مَشْهُورٍ ، وَخَفِيٌّ
غَيْرُ مَشْهُورٍ :

و[جَدَلُ] أَهْلِ الْعِلْمِ لَيْسَ بِقَادِحٍ * مَا يَنْ غَالِيهِمْ إِلَى الْمَغْلُوبِ !

ثُمَّ سَكَتَ فَمَا أَعَادَ ، وَتَزَلَّتْ وَعَادَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عَهْدٍ بِهِ وَآخِرِهِ ، وَبَاطِنَ
لِقَاءٍ وَظَاهِرِهِ ، وَكُلِّ أَجْتِمَاعٍ وَسَائِرِهِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فِي الرِّسَائِلِ)

وهي جَمْعُ رِسَالَةٍ ، وَالْمُرَادُ فِيهَا أُمُورٌ يُرَتَّبُ الْكَاتِبُ : مِنْ حِكَايَةِ حَالٍ مِنْ عَدُوٍّ
أَوْ صَيدٍ ، أَوْ مَدْحٍ وَتَقْرِيرِضٍ ، أَوْ مُفَاخَرَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مَا يَجْرِي هَذَا
الْمَجْرَى ، وَسُمِّيَتْ رِسَائِلَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَدِيبَ الْمُتَشَيِّئَ لَهَا رَبَّمَا كَتَبَ بِهَا إِلَى غَيْرِهِ

مُخْبِرًا فِيهَا بِصُورَةِ الْحَالِ، مُفْتَتِحَةً بِمَا تُفْتَحُ بِهِ الْمَكْتُبَاتُ، ثُمَّ تُوسَّعُ فِيهَا فَانْتَحَتْ بِالْخُطْبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرسائل على أصناف :

الصنف الأول

(منها الرسائل المملوكية ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلها)

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، بفتح [الملك الظاهر] لقيسارية من بلاد الروم ، وأفتلأعها من أيدي التتار ، وأستيلأه على ملكها ، وجأوسه على تحت بني سلجوق ، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية . كتب بها إلى الصأاحب بهاء الدين بن حنا ، وزير السلطان الملك الظاهر ، ومعرفة ما كان في تلك الغزوة ، وما أشتملت عليه حال تلك السفرة ، وهي :

يُقبَلُ الأرض بسأحات الأبواب الشريفة السَّيِّدِيَّة ، الصأاحبية البهائية ؛ لآزالت ركائب السير تحث إلى أرجأئها السير ، وصروف الزمن تسألم خدامها وتُحلل الغير بالغير ، ولا برحت موطن البر ومعدن الجود وبحر الكرم وعكاظ الخير ؛ وينهى بعد رفع أدعيتة التي لا تزال من الإجابة محوطة ، ولا تبرح يداه بها مبسوطة ؛ أن العيبد من شأنهم إتحاف مواليمهم بما يُشاهدونه في سفراتهم من عجائب ، وإطلاعهم على ما يرونه في غزواتهم من غرائب ؛ ليقضوا بذلك حقوق الأسترقاق ، وتكون نعم ساداتهم قد أحسنت لأفواههم الأستينطاق ؛ ويتعرضوا لما عساه يعين من مراحيم اتى ما عندهم غيرها ينفد وما عندها باق .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد؛ وأن في مآثره الرسائل التي قد شاعت، وضاعت نفحاتها في الوجود وتم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يُخف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بل يحبب يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يؤرخ أو يصنف؛ ولما قصد أن يخف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتساع كلماته، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا: والله أعلم حيث يعمل رسالاته؛ فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة، فمولانا يتطوّل في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هذئ، فما زال شرح الوقائع مطولا كذا؛ وتالله ما ورح مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إن خيرا من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطال؛ والأمر أعلى في قراءتها واستماعها، والتأمل في حجلها حتى تُسفر حسن نقابها وترفع مسدول قناعها،
 مسدول قناعها،
 مسدول قناعها،

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزائم الشريفة السلطانية، وأنها استصحبت ذلك، حتى تصفحت المهالك، وسرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنائك الخيل نار، ولا تمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والإبكار؛ ولا نقيم إلا بمقدار ما يتريد الزائر من الأهبه، أو يتزود الطائر من النغبه؛ تسبق وقد الرياح من حيث نتجى، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسجبه أذيال الصوافين تمتجى؛ نحمل هنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزمعت أيها هذا الهمام؟ * نحن نبت الربا وأنت القمام!

ومرّ لا يفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مهمه إلا عمه ولا جبل إلا طاله ؛
تسايه السواري والغوادي ، ولا ينفك الغيث من أنسكاب في كل نادٍ ووادي :
فبأشروجهًا طامًا بأشر القنا ، * وبلى ثيابًا طامًا بلها الدم !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأذراع لامات حرهم ،
وحمل آلات طعنهم وضربهم :

فجاز له حتى على الشمس حركه ، * وبأن له حتى على البدر ميسم .
يمد يديه في المفاضة ضيغم * وعينه من تحت التريكة أرقم !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذى القعدة جرائد على الأمر المعهود ،
قد خففوا كل شيء حتى البنود والعمود ؛ فسرنا في جبال نشتمى فيها سلوك الأرض ،
وأودية تملك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض ؛ تزور ديارًا ما نحب
معناها ، ولا نعرف أقصاها من أذناها ، وأستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رحى الدرب بالخيال العناق إلى العدا ^(١) * وما علموا أن السهام خيول ،
شوائل تشوال العقارب بالقنا * لها مراح من تحته وصهيل .
[وما هي إلا خطرة عرّضت له * بحزان لبثها قنا ونصول
همام إذا ما هم أمضى هوممه * بأرعن وطء الموت فيه ثقیل
وخيل براها الركض في كل بلدة * إذا عرّست فيها فليس ثقیل ^(٢)
فلما تجلّى من دلك وصنجة * عات كل طود راية ورعيل

(١) الذي في ديوان المتنبي : بالجرّد الجاد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طَرِيقٍ فِيهَا عَلَى الطَّرِيقِ رِفْعَةٌ * وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ نُحُولُ !

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةِ دَاوُكَ وَهِيَ رُسُومُ سُكَّانِهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنْ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا
وَقَهْقَهَةِ غُذْرَانِهَا ؛ ذَاتُ بَرْوَجٍ مُشِيدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَدَةٍ ، وَنِيرَانٍ تَرَاوِقٍ مُوقَدَةٍ ،
فِي عَمَدٍ مِنْ كَنَاسِهَا مُتَمَدِّدَةٍ ؛ وَسِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرْجٍ الدِّيَاجِ تَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ
ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُمَادَى ؛ ظُلُمَاتُهَا مُدْلِمَةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهَا
عَلَيْنَا عُمَةً ، لَا يَثْبُتُ تَرْبُهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَازِ ، وَكَأَنَّمَا سَالِكُهَا يَمْشِي عَلَى شَفَا جُرْفٍ
هَارٍ ؛ فَبِتْنَا هُنَاكَ لَيْلَةً نَسْتَحْقِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شِدَّتِهَا لَيْلَةَ الْمَلْسُوعِ ، وَتَمَّتِ الْعَيْنُ بِهَا
هَجْمَةً هُجُوعٍ ؛ وَأَخَذْنَا فِي اخْتِرَاقِ غَابَاتِ أَشْجَارٍ تُخْفِي الرِّفِيقَ عَنِ رَفِيقِهِ ، وَتَسْغُلُهُ عَنِ
أَقْفَاءِ طَرِيقِهِ ؛ يَنْبَرِي مِنْهَا كُلُّ غُصْنٍ يُرْسِلُهُ الْمَتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ
بِقُوَّةٍ مِنْ مَتَجَنِّيقِهِ ؛ حَوْهَا مَعَاثِرُ أَهْجَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ بُعِثَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَقَطَّرَتْ ؛ بَيْنَهَا
مَخَاضٌ ، لَا بَلَّ مَغَائِضٍ ؛ كَأَنَّهَا بِحَارٌ بَحْرَتْ ؛ مَا نَخْرَجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ
بِالْحَدَاوِلِ وَتَعَمَّمَتْ بِالْثُلُوجِ ، وَعُمِيَّتْ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى
خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَضَيِّقُ مَنَاهِجُهَا بِمَشْيِ الْوَاحِدِ ، وَتَلْتَفُّ
شَجَرَاتُهَا أَلْتِفَافَ الْأَكْطَامِ عَلَى السَّاعِدِ ؛ ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلَقَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرَفَةٍ ، وَأَوْدِيَةٍ
بِالْمُزْدَحِمِينَ مُخْتَنِقَةٍ ؛ بَيْنَمَا يَقُولُ مُتَحَيِّمًا : قَدْ نَلْتُ السَّمَاءَ بِسُلَيْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،
إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِقٍ مُتَضَائِقٍ ؛ لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْمِينَا ،
وَتِلْكَ الْمَسَارِبُ تَضُمُّنَا وَتِلْكَ الْمَشَارِبُ تُظْمِنُنَا :

سُودُ الشَّمْسِ مَنَابِضٌ أَوْجُهِنَا ، * وَ [لَا] تُسَوِّدُ بَيْضَ الْعُدْرِ وَالْأَمِّ ،
[وَكَانَ حَالُهَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً * لَوْ أَحْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكِيمٍ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرٍ ، * مَسَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ !

حتى وصلنا الحَدَثَ الحُمْرَاءَ الْمُسَمَّاءَ الْآنَ بِكَيْنُوكَ وَمَعْنَاهَا الْمُحَرَّقَةُ ، كَانَ الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ وَالِدُ صَاحِبِ سِيسَ قَدْ أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا ، وَتَمَلَّكَهَا وَعَمَرَهَا ، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتَّجَارِ . فَلَمَّا كَانَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ سِيرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَيْهَا عَسْكَرَ حَلَبَ فَافْتَتَحَهَا بِالسَّيْفِ وَقَتَلَ مِنْ كَانَ بِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَسَبَى الْحَرِيمَ وَالذَّرِّيَّةَ ، وَحَرَبَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحِينَ ، وَمَا بَقِيَ بِهَا مِنْ يَكَاذُ يُبِينُ ، فَشَاهَدْنَا مَا بَنَى سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنُ حَمْدَانَ مِنْهَا وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَيا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمٌ ، وَقِيلَ حَقِيقَةً هُنَاكَ : عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزَمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ، وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

غَضَبَ الدَّهْرَ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا * فَبَنَاهَا فِي وَجَنَةِ الدَّهْرِ خَالَا

فِيهِ تَمَشِي مَشَى الْعُرُوسِ آخِثِيَالَا * وَتَنَنِّي عَلَى الزَّمَانِ دَلَالَا !

فَبِتْنَاهَا وَأَبْتَيْنَاهَا وَخَلَيْنَاهَا مَبْنُوْتُهُ فَوْقَ الْأَحْيَادِ كَمَا نَثَرَتْ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ ، وَجِيَادُنَا عَلَى الرُّكُوبِ فِي أَعْلَى الْعَيْنِ تَدُوسُ ، إِذَا زَلَقَتْ مَشَتْ كَالْأَرَاقِمِ عَلَى الْبُطُونِ ، وَإِنْ تَكَاسَلَتْ جَرَّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِالصَّهِيلِ : « وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ » ، وَخُضْنَا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَخَائِصَ سَوَافِحَ ، كَأَنَّهَا لِأَجْلِ عَوْمِ الْخَيْلِ بِهَا سُمِّيَ كُلُّ مِنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ سَابِجٌ ، كَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا بَحْرٌ قَدْ قَطَعْنَاهُ اعْتَرَضَ لَنَا جَبَلٌ ، وَكَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا جَبَلٌ طَلَعْنَاهُ بَانَ لَنَا وَادٍ يُسْتَهَانُ دُونَ الْهَوِيِّ فِيهِ نَفَادُ الْأَجَلِ ، لَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى وَصَلْنَا كَوْكَبَا (؟) وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ، وَهُوَ الَّذِي رَدَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مِنْهُ سَنَةَ الدَّرَبَنْدَاتِ لِمَا قَصَدَ التَّوَجُّهَ إِلَى الرُّومِ . وَهَذَا النَّهْرُ بَيْنَ الْجِبَالِ مَهْوًى رِجَامِهَا ، وَمَثْوًى عِثَامِهَا ، وَمَلْوًى زِمَامِهَا ، وَمَأْوًى قَتَامِهَا ، فَلِلْوَقْتِ عِبْرَتَاهُ رَكْضًا ، وَأَعْجَلَتْ الْخَيْلُ فَمَا دَرَتْ هَلْ خَاضَتْ لُحَّةً أَمْ قَطَعَتْ

أَرْضًا ؛ وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخَرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ ، وَوَقَعَ
السَّيَّاحُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الصُّمِّ ؛ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْجَادِرْبَنْدَ فَمَا ثَبَتَ يَدُ فَرَسٍ
لِمَصَافَةِ صَفَاها ، وَلَا نَعْلُهُ لِمَكَاخِفَةِ رَحَاها ، وَلَا رِجْلُهُ لِمَطَارَحَةِ قُوَاها ؛ وَتَمَزَّتْ
الْحَبْلُ عَلَى الْأَقْبِحَامِ وَالْأَزْدِحَامِ فِي التَّطَرُّقِ ، وَتَعَوَّدَتْ مَا تَعَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّسْرُبِ
وَالْتَسَلُّقِ ؛ فَصَارَتْ نَحْطُ أَنْحِطَاطِ الْمَيْدَبِ ، وَتَرْتَفِعُ آرْتِفَاعِ الْكَوْكَبِ ؛ وَتَسْرِى
سَرِيانَ الْخَيْالِ ، وَتُمْكِنُ حَوَافِرُهَا الْجِيَادَ فَتَرُولُ مِنْهَا الْجِبَالَ ؛ حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ
مُنْتَهَى أَبْجَادِرْبَنْدَ وَهُوَ خِثَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمْ أُمْسَكَ عَلَى طَارِقِ ، وَفَمُ ذَلِكَ
الدَّرْبِ الَّذِي كَمْ عَضَّتْ أُنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِقٍ وَمُسَابِقٍ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ثَامِنٍ
ذِي الْقَعْدَةِ ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ ، وَسَمِعَتْ السُّحُبُ بِمَا شَاءَتْ
مِنْ بَرْدٍ وَبَرْدٍ ، وَجَاءَتْ الرِّيحُ بِمَا آلَمَتْ الْجِلْدَ وَاسْتَفْدَتِ الْجِلْدَ ؛ وَأَنْتَشَرَتْ الْعَسَاكِرُ
فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ حَتَّى مَلَأَتْ الْمَفَاوِزَ ، وَمَلَكَتِ الطُّرُقَ عَلَى الْمَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَائِزِ ؛
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ شَمْسُ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرُ فِي الْجَالِيشِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ ،
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ التَّتَارِ مُقَدِّمُهُمْ كَرَايَ ، فَأَنْهَزُمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ مِنْ قُدَمٍ لِلسَّيْفِ السُّلْطَانِي فَكُلَّ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ ، وَأَسْتَمَرَّتْ تِلْكَ سُنَّةٌ فِيمَنْ
يُؤْخَذُ مِنَ التَّتَارِ وَيُؤْسَرُ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَاسِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّتَارُ عَلَى أَجْمَلِ تَرْتِيبٍ لَأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلِ مَنَظَرٍ ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَتَمِّ
تَيَقُّظٍ وَأَعْظَمِ حَذَرٍ ؛ وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جُيُوشِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا أَنَّهُ
حَضَرَ بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةِ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ تَتَابَعَ الْخَبَرُ بَعْدَ الْخَبَرِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قُرِبُوا ، وَأَنَّهُمْ قَابُوا وَوَثَبُوا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي لَحَبٍ * أَنْ يُنْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمَّوْا !

وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالتثبت عند المصدمه ، والاجتماع عند المصدمه ؛ ورتب جيش الإسلام للجلب ، على ما يجب ، وأراهم من نور رأيه ، لا على بصير ولا بصيرة يحتاج ، فطلعت العساكر مشرفة على صخرات هوني من بلد أبلسنين ، وكان العدو ليلته تلك بائناً على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جیحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأرمَن لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلباً كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً بمفرده . ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعليهم الخود الصفرة المقترحة ، وكأنها في شعاع الشمس نيراناً مقتدحه ؛ رجعوا إلى ما كانوا عقدا من العزائم فحلوا ، وسقط في أيديهم وراؤا أنهم قد ضلوا ؛ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وعلى الموت يترأسون ؛ فانصببت الخيل إليهم من أعلى الجبل أنصباب السيل ، وبطلت الخيلة منهم ونفى الخيل ؛ فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ؛ وهؤلاء المغل كان طاغية التتار أبغا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحداً لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيا الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ؛ وكان فيهم من المتقدمين الجار تدلون ، ومعنى هذا الاسم التقاذ ، يعنى أنه ما كان في عسكر قط إلا نفذه ، والمقدم الآخر هو (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها ، وأرختوا أخوتدلون ، وبهادر بخشى . ومن مقدمي الألوف ذرك ، وصهر أبغا ، وقرالقي وخواصه :

بيض العوارض طعانون من حقا * من القوارس شلالون للنعم !
قد بلغوا بقاهم فوق طاقتهم * وليس يبلغ ما فيهم من الهمم .

فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَنْفُسَهُمْ * مِنْ طَيْبِينَ بِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ !
 فَعِنْدَ مَا شَاهَدُوا نَجْدَ الْمَلَائِكَةِ ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ نُفُوسَهُمْ هَالِكَةٌ ، أَخَذَتْ فِرْقَةً مِنْهُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ فَقَاتَلَتْ ، وَعَاجَتِ الْمَنَآيَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَعَاجَلَتْ ، وَبَاعَتْ نُفُوسُ الْمُسْلِمِينَ
 لَهُمْ وَتَاجَرَتْ ، وَكَسَرَتْ وَمَا كَاسَرَتْ ، وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَصْبَحَ
 مَا هُنَاكَ مِنْهُمْ وَقَدْ هَبَّ هَبَانٌ ، وَلِلْوَقْتِ خُذِلُوا وَجُدُّوا ، وَلِبُطُونِ السَّبَاجِ وَحَوَاصِلِ
 الطُّيُورِ حُصِّلُوا ، وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، يَقَاتِلُونَ قِيَامًا وَقُعُودًا
 وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ، فَكَمْ مِنْ شَجَاعٍ أَلْصَقَ ظَهْرَهُ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامَى ، وَنَاضَلَ وَرَأَى ،
 وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ شَهْمٍ ، مَا سَلَّمَ قَوْسَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كِتَابَتِهِ سَهْمٌ ، وَذِي سِنَّ طَارِحَ بِهِ فَمَا
 طَرَحَهُ حَتَّى تَتَلَمَّ ، وَذِي سَيْفٍ حَادِثَهُ بِالصِّقَالِ فَمَا جَلَى مُحَادَّةً حَتَّى تَكَلَّمَ ، وَأَبَانُوا
 عَنْ نُفُوسٍ فِي الْحَرْبِ أَيْبَهُ ، وَقُلُوبٍ كَافِرَةٍ وَنَحْوَةٍ عَرِيَّةٍ ، وَأَشَدَّتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ
 مِنْ جِهَةِ الْمَيْسَرَةِ مُعَرِّجِينَ عَلَى السَّنَاقِقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهَا ، مُنْقَلِبِينَ بِصُفُوفِهِمْ
 عَلَى صَفِّهَا :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ * أَحَدٌ سَلَّاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ !
 فَتَابَ مَوْلَانَا إِلَيْهِمْ ، وَوَثَبَ عَلَيْهِمْ ، فَضَحَّى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ أَشْمَطٍ ، وَأَفْرَى الْأَجْسَادِ
 فَافْرَطَ ، وَلَحِقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنْهُمْ مِنْ قَصْدِ التَّحْصِينِ بِالْجِبَالِ فَأَخَذَهُمُ الْأَخْذَةَ
 الرَّأْيِيَّةَ ، وَقَتْلَهُمْ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ ؟ :

وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ * تَمْنَى النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَعْلِ ؟
 وَأَنْهَزَتْ جَمَاعَةُ يَسِيرَةٍ طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْعَوَامِّ مَنْ كَانَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَخَذَتْهُمْ
 الْمَهَاوِي فَمَا نَجَا مِنْهُمْ إِلَّا آيِسٌ مِنْ حَيَاةٍ غَدِهِ فِي أَمْسِهِ .

مَضَوْا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءِ فِيهِ * لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ حِثَارُ

إِذَا فَاتُوا الرِّمَاحَ تَنَاولَتْهُمْ * بِأَرْمَاحٍ مِنَ الْعَطِشِ الْفِقَارُ!

وقصبت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذوبأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى
 صَجَرَ الحديد من الحديد ؛ وكان مولانا الصاحب زين الدين - حرس الله جلّاله -
 لما دُعيت نزال أول مسابق ، وأسرع راشق ؛ وأقرب مطاعن ، وأعظم معاون ؛
 فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته ، وأجمل في كرتيه ، وأجاد في طعنته ؛ وزار
 زئير اللئث ، وسابق حتى لم يبق حيث ؛ ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ،
 وخضّب بما تحذر من دم عدوه أخاف سرجه وعنان لحامه ، وكانت عليه من الله
 باقية واقية في تقدمه وإقدامه ؛ وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي
 السلاح ، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الحراح ؛ وأراد الله أن لا يخلّيه من
 إيسالة دم يعظم الله الأجر بسائله ، فجعله - والمينة لله - من بعض أطراف أنامله .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيّدمر الدوّادار الظاهري ، قال : لقيتني وقد تكسّر
 رُحْي ، وعاد - لولا لطف الله - إلى الخسارة ربجي ؛ فأعطاني المولى الصاحب
 زين الدين رُحْمه فإذا فيه نُصُول ، وبسنّه من قِرَاع الدّارعين قُلُول ؛ ورأيت دُبُوسَ
 المولى الصاحب زين الدين وقد تشلّم ، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديداً
 ولكن الله سلّم ؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بغير أن قال :
 سيف مولانا السلطان هو الذي سفك ، وعزمه هو الذي فتك .

وَمَنْ يَكْ مُحْفُوظًا مِنْ اللَّهِ فَلْتَكُنْ * سَلَامَتُهُ مِمَّنْ يُحَاذِرُ هَكَذَا ،

وَيُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ مُسَلِّمًا * وَلَا مَنَ يُبْدِيهِ وَلَا نَالَه أَدَى !!

وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصّواهل والصّوافن ، وما يصولون به
 من سُيُوفٍ وقِسيٍّ وكَتَائِنٍ ، وما يلبسونه من خُوْدٍ ودُرُوعٍ وجَواشِنٍ ، وما يمتولّونه

من جميع أصناف المعادين ؛ فُعِمَ ما هُنالك ، وتَسَلَّمَ من أَسْتَشْهَد من المُسلمين رِضْوَانُ
وتَسَلَّمَ من قُتِلَ من الكُفَّار مَالِك .

وكان الذين أَسْتَشْهَدُوا في هذه الوقعة من المُقَدِّمين : شَرُفُ الدِّين قيرانُ العَلَّائِي ،
وعِزُّ الدِّين أخُو الأمير جمالِ الدِّين الحُمَدِي . ومن المالك السلطانية : شَرُفُ الدِّين
فلحق (؟) الجاشنكير الظَاهِرِيُّ ، وأبيك الشَّقِيقِيُّ الذي كان وَزِيرَ الشَّقِيفِ . وكان
المجروحون عِدَّةً لطيفةً لم يُعلم عَدَدُهَا لِقَاتِهَا ، بل لِحَقَّتِهَا ، وأورث الله المُسلمين مَنَازِلَهُمْ
فَتَزَلُّوْهَا ، ووَطَاقَتِهِمْ وَخَرَكَاوَاتِهِمْ فَتَمَوَّلُوْهَا ؛ وكان مولانا السلطانُ وكان أعداؤه كما قيل :

فَمَسَّاهُمْ وَبَسَطَهُمْ حَرِيرٌ ، * وَصَبَّحَهُمْ وَبَسَطَهُمْ تَرَابٌ !!

وأَصْبَحَ الأعداءُ لَا تُرَى إِلَّا أَشْلَاقُهُمْ ، وَلَا تُبْصَرُ إِلَّا أَعْيَاؤُهُمْ ؛ كَأَنَّما جَزُرُ
أَجْسَادِهِمْ جَزَائِرُ يَتَخَلَّلُهَا مِنَ الدَّمَاءِ السَّيْلُ ، كَأَنَّما رُءُوسُهُمُ المَجمُوعَةُ لَدَى الدَّهْلِيزِ
الْمَنْصُورِ أَكْرَ تَلْعَبُ بِهَا صَوَالِحَةُ مِنَ الأَيْدِي والأَرْجُلِ مِنَ الخَيْلِ :

أَلْقَتْ إِلَيْنَا دِمَاءُ الْمُغْلِ طَاعَتَهَا * فَلَوَدَعْنَا بِلا حَرْبٍ أَجَابَ دَمُ !

فَكَمْ شَاهَدَ مولانا السلطانُ مِنْهُمْ مَهِيْبَ الهَامَةِ ، حَسَنَ الوَسَامَةِ ، تُتَفَرَّسُ فِي جِهَامَةِ
وَجْهِهِ الفَخَامَةِ ، قد فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فَفَرَعَ السِّنَّ عَلَى الحَقِيقَةِ نَدَامَهُ :

وَوُجُوْهَا أَخَافَهَا مِنْكَ وَجْهٌ * تَرَكَتْ حُسْنَهَا لَهُ وَالْجَمَالَ !

أو كما قيل :

لَا رَحِمَ اللهُ أَرُوسًا لَهُمْ ^(١) * أَطْرَنَ عَنْ هَامِهِنَّ أَخْفَا !

وأقبل بعضُ الأَحْيَاءِ مِنَ الأَسَارَى عَلَى الأَمْوَاتِ يَتَعَارَفُونَ ، ولَاخْبَارُ شَجَاعَتِهِمْ
يَتَوَاصَفُونَ ؛ فَكَمْ مِنْ قَائِلٍ : هَذَا فَلَانٌ وَهَذَا فَلَانٌ ، وَهَذَا كَانَ وَهَذَا كَانَ ؛ وَهَذَا

(١) في ديوان المتنبي "لا يرحم".

كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يَهْزِمُ الْأُلُوفَ ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذَهْنِهِ أَنَّهُ لَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ
الْصُّفُوفُ ؛ وَكَثُرَتِ الْأَسَارَى مِنَ الْمُغْلِ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كُبَرَاءِهِمُ الْبَعْضَ ، وَعَمِلَ
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .
فَجَعَلَهُمُ لِلسُّيُوفِ طُعْمَةً ، وَأَحْضَرَتِ الْأَسَارَى مِنَ الرُّومِ فَتَقَرَّبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالذَّمَّه :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَقْوِ عَنْهُمْ ، * وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا !
وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارَى الرُّومِيِّينَ مُهَذَّبُ الدِّينِ بَكْلَارَنْكِي ، يَعْنِي أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
وَلَدُ الْبُرْوَانَاهُ ، وَنُورُ الدِّينِ جَاجَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ
وَمُقَدِّمِي عَسَاكِرِهِ ، فَكَانَ الْبُرْوَانَاهُ أَحَقُّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

نَجَوْتُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْكَ جَرِيحَةً * وَخَلَفْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلُ !
أَتَسْلِمُ لِلْخَطِيئَةِ أَبْنَكَ هَارِبًا * وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ ؟
لأنَّهُ شَمَّرَ الدَّلِيلَ ، وَامْتَطَى - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأَصِيلِ
وَأَدْهَمَ اللَّيْلِ ؛ وَثُمَّ يُخْبِرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ ، وَهَمَّ قَلْبُهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ :
فَنَحْنُ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ ، * وَالْبَرُّ فِي شُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي تَحْجَلٍ ! !

وَدَخَلَ الْبُرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ ،
فَأَفْهَمَ غِيَاثَ الدِّينِ سُلْطَانَهَا ، وَالصَّاحِبَ نَحْرَ الدِّينِ بْنِ عَلَمَا (؟) وَالْأَتَايَاكَ مُحَمَّدَ الدِّينِ ،
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفَى ، وَالْأَمِيرَ بَدْرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّائِبَ ، وَالْأَمِيرَ فَلَانَ
الدِّينِ الطُّغْرَائِيَّ ، وَهُوَ وَلَدُ عِزِّ الدِّينِ أُنْحَى الْبُرْوَانَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُغْلِ وَبَقِيَتْهُمْ مُنْهَزِمُونَ ، وَيُحْشَى مِنْهُمْ دُخُولُ قَيْصَرِيَّةَ
وَإِتْلَافُ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَقًّا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَاخْذَهُمْ جَرَأَنَدُ ، وَأَخَذَ

زَوْجَتَهُ كُرْجَى خَاتُون بَنَتْ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنِ الرُّومِ، فَاسْتَصَحَبَتْ مَعَهَا أَرْبَعَةَ جَارِيَةٍ لَهَا، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ الْبَخَائِيِّ وَالْخِيَامِ وَالْآلَاتِ، وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَقَّاتِ (؟) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مِنْ قَيْصَرِيَّةَ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةَ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ الْحَرْبِ ، وَأَنْذَرَهُمْ عَذَابًا قَدْ اقْتَرَبَ ، وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى الْبِرَوَانَةُ أَمْرَهُ وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى لَا يُخْبِرُ يُخْبِرُهُمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَّدَ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرِيَّ فِي عَدَدِ مُسْتَظْهِرًا بِهِ لِإِدْرَاكِ مَنْ فَاتَ مِنَ الْمُغْلِ ، فَمَرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ بِفِرْقَةٍ مَعَهَا بِيُوتُهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ، وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَمَرَّ كُلُّ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكْرَةِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ ، فَتَزَلَ قَرِيبَ الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بَرِيَّانَ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ قَرِيبُ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبُ حُسْبَانٍ مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدٌ مِنَ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الْخَطِّ الْقَدِيمِ . وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ الْمُسَمَّاةُ بَرِيَّانَ فَإِنَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ كَالْهَرَمِ إِلَّا أَنَّهُ مَلْمُومٌ ، وَعُمِّرَتْ الْبُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَسَدَتْ كَأَنَّهَا مَجَزَّةُ النُّجُومِ ؛ وَمِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ ذَوَاتِ دِرَازِنَاتٍ مَنُجُورَةٍ ، وَرَوَاشِنَ قَدْ بَدَتْ فِي أَكْمَلِ صُورِهِ ؛ يَخْتُمُهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيُوتَانِ ، وَيَعْلُوهَا مِنْ رَأْسِهَا مَنَزِلٌ مُسَمَّى الرَّاسِ كَمَا يَعْلُو الصَّعْدَةُ السَّنَانُ ؛ وَتَطُوفُ بِهِذِهِ الْقَرْيَةُ جِبَالٌ كَأَنَّهَا أَسْوَارٌ بَلِ سِوَارَ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسْطِهَا إِنَاءٌ فِيهِ جَذْوَةٌ نَارٍ ؛ وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنْهَارٌ ، هِيَ فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا بَهْبُوطُهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنْهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسْعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ، وَمَضَاقِقَ لَا يُلْفَى عِبَرُهَا لَنَا كَبٍ ؛ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ الْعَسَاكِرَ خَلَصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ مِقَاسَةِ الْجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبٌ كُلٌّ وَهَدٍ ؛ وَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَخْلَصُ من تَخْلَصُ ، وَحَصَرَ من كَانَ في المَضَائِقِ قد تَرَبَّصُ ، وقال : كُلُّ الأَرْضِ
حَصَصَ حَصَصَ .

وَرَحَلْنَا من هناك في يومِ الأَحَدِ ثَانِي عشرَ شَهْرَ ذِي القَعْدَةِ وكانت السماءُ قد حَيَّتِ
الأَرْضَ بَيَّجَانِ أمْطَارِهَا ، وَأَغْرَقَتِ الهَوَامَّ في أَجْحَارِهَا ، وَالْفُتُخَ في أَوْكَارِهَا ؛
وَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ لَا تَمْسَكَ حَتَّى وَلَا لِمُرُورِ الأَرَاقِمِ ، وَالْجِبَالُ لَا تَمْسَكَ أَنْ تَكُونَ
لِلْعَصَمِ عَوَاصِمَ ؛ تَضَعُ بها من الدَّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَلْقُ في صَقِيلِهَا أَرْجُلُ
النَّمْلِ ؛ وَسَرْنَا على هذه الحالة نَهَارَنَا كُلَّهُ إلى قَرِيبِ الغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِتَسْلِمِنَا أَيْدِي
الدُّرُوبِ من أَيْدِي الدُّوُوبِ ؛ وَنَزَلْنَا عِشَاءً في مُنْتَقِ أَرْضٍ تَطُوفُ بها جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ،
وَمِيَاءٌ دَافِقَةٌ ؛ تُعْرَفُ قَاعَةُ تِلْكَ الأَرْضِ بِوِطَاةٍ قَشَلَا وَسَارِ (؟) من أَعْمَالِ أَصَارُوسِ
الْعَتِيقِ . وَيَقْرُبُ من تِلْكَ الإِهْمَةِ مَعْدِنُ الفِضَّةِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ قد شَرَعْنَا في أَهْبَةِ المَبِيتِ ، وَلَمْ تَقْضِ الشَّمْلُ الشَّتِيتَ ؛ وَإِذَا بِالصَّاحِ
قد صَدَحَ ، وَالنَّذِيرُ قد سَنَحَ ؛ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ بَأَن فَوْجًا من التَّنَّارِ في بَحْوَةٍ هُنَاكَ
قد أَسْتَرَوْا ، وَفِي تَجْوَةٍ لَغَرَةٍ قد أَنْتَظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مولانا السُّلْطَانُ وَرَكِبَ النَّاسُ
في السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا على المَطَارِ فَعَاقَهُمْ تَتَابُعُ الغَيْثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الجَنَاحِ ؟ ؛
ثُمَّ لَطَفَ اللهُ وَعَادَ مولانا السُّلْطَانُ وهو يَقُولُ للنَّاسِ : ، لَا بَاسَ ؛ فِيمَنَّا نَوْمَةُ السَّلِيمِ ،
وَصَدَرَتْ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً في كُلِّ وَادٍ تَهِيمَ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَحِيطُ بها
الْوَصْفُ ، وَتَبَسَّطَ عَذْرَاءُ الطَّرْفِ فيها حينَ يَكْبُو فيها الطَّرْفُ ؛ نَخْطُ منها إلى جَنَادِلَ ،
يَضَعُفُ عن الهَوِيِّ إِلَيْهَا قَوِيُّ الأَجَادِلِ ؛ بَيْنَا نَقُولُ : قد أَحْسَنَ اللهُ لها نَفَادًا وَمِنْهَا
نَفَازًا ، وَإِذَا بَعْدَ الأَوْدِيَةِ أَوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الجِبَالِ جِبَالٌ نَشْكُرُ عندَ ذَاكَ هَذِهِ وَذَاكَ عندَ
هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا على قَرْيَةٍ أَوْتَرَاكَ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ من حَجَرٍ مَنْحُوتٍ ، ثُمَّ خَانَ آخَرُ

للسَّيْلِ عَلَى رَأْسِ رَاسِيَةٍ هُنَاكَ تَعْرِفُ بِأَشْيِدِي ، قَرِيبًا مِنْ حِصْنِ سَمْنَدُو ، الَّتِي عَرَّضَ بِهَا أَبُو الطَّيِّبِ فِي قَوْلِهِ :

فَإِنْ يُقَدِّمُ فَقَدْ زُرْنَا سَمْنَدُو * وَإِنْ يُحْجِمُ فَمَوْعِدُهُ الْخَلِيجُ !

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ سَيرَ إِلَيْهَا خَوَاصَّهُ بِكَنَافٍ إِلَى نَائِبِهَا فَقَبِلَهُ وَقَبْلَهُ ، وَأَذَعَنَ لَتَسْلِيمِ حِصْنِهَا الْمَنِيعِ وَالْأُتُورِ لِأَمْرِ السُّلْطَانِ عَنْهَا إِنْ أَسْتَزَلَّهُ ، فَشَكَرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ لَهُ تِلْكَ الْإِجَابَةَ ، وَوَفَّاهُ مِنَ الشُّكْرِ حَسَابَهُ . وَكَذَلِكَ إِلَى قَلْعَةِ دُونْدَا وَإِلَى دَوَالِوَا ، فَكُلُّهُمْ أَجَابُوا وَأَطَاعُوا وَلِكَلِمَةِ الْإِذْعَانِ قَالُوا ؛ وَزَرْنَا فِي وَطْأَةٍ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَعْرِفُ بِجَمْرَهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ فَرَّغَتْ عُلُوقَاتُ خَيْلِهِمْ أَوْ كَادَتْ ، وَالْخَيْلُ قَدْ بَاتَتْ لِيَالِي بَلَا عَلِيٍّ فَمَا أَسْتَفَادَتْ ، وَشَارَكَتْهَا خِيُولُ الْكُسُوبِ (٩) فِي عَلَيقِهَا ، وَمَا سَاعَدَتْهَا فِي طُرُوقِهَا وَلَا فِي طَرِيقِهَا ؛ فَضَعُفَتْ عَنْ حَمْلِ نَفُوسِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِرَاكِبِهَا ، وَكَادَ الْفَارِطُ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَفْرِطَ فِيهَا ؛ فَصَادَفْنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بَعْضَ أَتْبَانٍ أَمْسَكَتْ أَرْمَاقَهَا ، وَأَحْسَنْتْ لِرِفَادِهَا وَإِرْفَاقَهَا .

وَأَصْبَحْنَا فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ رَاحِلِينَ فِي جِبَالٍ كَأَنَّهَا تِلْكَ الْأَوَّلُ ، وَهَاطِطِينَ فِي أَوْدِيَةٍ يَتَمَنَّى سَالِكُهَا مِنْ شِدَّةِ مَضَائِقِهَا أَنْ لَوْ عَادَ إِلَى تَرَقُّى أَعْلَى جَبَلٍ ؛ وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى خَانٍ هُنَاكَ يَعْرِفُ بِقَرْطَايَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ هِمَّةِ بَآئِيهِ ، وَطَلَبِ ثَوَابِ اللَّهِ فِيهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَبْنِيَةِ سَعَةً وَارْتِفَاعًا ، وَأَحْسَنِهَا شَكْلًا وَأَوْضَاعًا ؛ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ بِالْحَجَرِ الْمَنْحُوتِ الْمَصْقُولِ الْأَحْمَرِ الَّذِي كَأَنَّهُ رِخَامٌ ، وَمِنْ ظَاهِرِ أَسْوَارِهِ وَأَرْكَانِهِ نُقُوشٌ لَا يَتِمَكَّنُ أَنْ يَرَسُمَ مِثْلَهَا بِالْأَقْلَامِ ؛ وَلَهُ خَارِجٌ بِآيِهِ مِثْلُ الرِّبْضِ بَيَاضٍ بِأَسْوَارِ حَصِينَةٍ ، مُبْلَطُ الْأَرْضِ ، فِيهِ حَوَائِيتُ . وَأَبْوَابُ الْخَلَّانِ حَدِيدٌ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ . وَدَاخِلُهُ أَوْايُنُ صَفِيْقِيَّةٌ ، وَأَمِكْنَةُ

شَتَوِيه ، وإصْطَبَلَاتْ عَلَى هذه الصورة لَا يُحْسِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا بِكَيْفٍ ،
وما منها إِلَّا مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ رِحْلَةً لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وفيه الْحَمَامُ وَالْبَيَارِسْتَانُ
وَالْأَدْوِيَةُ وَالْفَرُشُ وَالْأَوَانِي وَالضِّيَافَةُ لِكُلِّ طَارِقٍ عَلَى قَدَرِهِ ، حِمْلَ لَمَوْلَانَا السُّلْطَانِ
مِنْ ضِيَاغَتِهِ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكَثَرَ النَّاسُ فَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ
عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتَّابٌ وَمُبَاشِرُونَ
يَتَوَلَّوْنَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ التَّارُ إِلَى إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْ
رُسُومِهِ ، وَأَبْقَاهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكَرُّمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يَبَالِغُونَ فِي تَجْهِيلِ بَانِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
وَتَعْظِيمِهِ ؛ وَنَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَقَرُّبُ مِنْ قَيْصَرِيَّةٍ مِنْ حُقُوقِ وَادِي
صَلْعُومَةِ شَرْقِي الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِعَسِيبٍ ، وَفِيهِ قَبْرُ أَمْرِي الْقَيْسِ الشَّاعِرِ

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْخُطُوبَ تَتُوبُ ، * وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ ،

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا * وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ !!

وهذا الْجَبَلُ يعلوه جَبَلُ أَرْجَاسٍ ، وهو الَّذِي يَضْرِبُ الرُّومَ الْأَمْثَالَ بِتَسَامِيهِ ،
وَتَنْتَضَاءُ الْجِبَالُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لِعَالِيهِ ؛ لَا تُسْحَبُ ذُبُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ
سَفْحِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ ثُلُوجِهِ شِتَاءٌ وَصَيْفًا وَمِنْ مِثَالِ الْأُبْحَرَةِ الْمُتَصَعِّدَةِ مِنْهُ عِشَاؤُهُ
مِنْ صُوبِهِ .

ولما كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ مُتَصَفِّ ذِي الْقَعْدَةِ ، وهو يَوْمُ شَرَفِ الزُّهْرَةِ رَكِبَتْ
الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةَ مُتَرَتِّبَةً ، وَمَلَأَتْ الْقَضَاءُ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِي زُمرَتِهِ ، وَذَوِي أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ ؛ يَخْتَالُ جَوَادُهُ فِي أَفْسَحِ مِيدَانٍ ، وَيَصِيحُ بِهِ قَرَحًا
وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَشْوَانٌ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَظَلُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ حَاشِعَةً لَهُ * تُفَارِقُهُ هَلِكِي وَتَلْقَاهُ سُجَّدًا !

ونرج أهل قيصريّة وأكابرها، وعلمائها وزهادها وتجارها، ورعايها ونسائها وصغارها، فأكرم مولانا السلطان ممشاهم، وشكر مساهمهم، وتلقى قضاتهم وعلماءهم رُجُباناً، وحادثهم إنساناً فأنساناً، وحصلت لجماعة من الفقراء والناسِ حالاتٌ وجِدٌ مُطْرِبَةٌ، وصَدَحَتْ ذِكْرٌ مُعْجِبَةٌ . وكان دهلِيزُ السلطان غياثُ الدِّين صاحبِ الرُّومِ وخيامه وشعارُ سلطنةِ الرُّومِ قد بنى جميع ذلك في وطاةٍ قريبِ الجوسقِ والبُستانِ المعروفِ بِكَيْخُسْرُو، وترجّلَ النَّاسُ على اختلافِ طبقاتهم في الرِّكابِ الشَّرِيفِ مِنْ مَلِكٍ وَأُمَةٍ وَمَأْمُورٍ وَأَمِيرٍ، وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ :

رَجَا الرُّومُ مِنْ تَرْجَى النَّوَافِلِ كُلُّهَا * لَدَيْهِ وَلَا تُرْجَى لَدَيْهِ الطَّوَائِلُ !

ونزل مولانا السلطان في تلك المَضَارِبِ الْمُعَدَّةِ لِكَرَمِ الْوِفَادَةِ ، وَضُرِبَتْ نَوْبَةٌ سَلْجُوقٌ عَلَى بَابِ دِهْلِيزِهِ عَلَى الْعَادَةِ ؛ وَأَذِنَ مولانا السلطانُ لِلنَّاسِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَى شَرِيفِ فُسْطَاطِهِ، وَشَمِلَهُمْ بِنَظَرِهِ وَأَحْتِيَاطِهِ ؛ وَحَضَرَ أَصْحَابُ الْمَلَاهِي، فَمَا ظَفَرُوا بِغَيْرِ النَّوَاهِي ؛ وَقِيلَ لَهُمْ : أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَاتَّقِسُوا ، وَأَذْهَبُوا إِلَى وَادٍ غَيْرِ هَذَا الْوَادِي فَاقْتَسِمُوا ؛ فَهَذِهِ الْهِنَاءُ لَا تَنَفَّقُ هُنَا ، وَمَا هَذَا مَوْضِعُ الْغِنَاءِ بَلْ هَذَا مَوْضِعُ الْغِنَى ؛ وَشَرَعَ مولانا السلطانُ فِي إِنْفَاقِ اللَّهْيِ ، وَعَيَّنَ لِكُلِّ جِهَةٍ شَخْصًا وَقَالَ : أَنْتَ لَهَا ؛ وَحَكَمَ وَحَكَمَ ، وَعَلِمَ وَعَلِمَ ؛ وَأَعْتَمَدَ عَلَى الْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ جَالِيَشِ فِي النَّيَابَةِ ، وَأَعْطَى كَلًّا بِمِثْنِهِ كِتَابَهُ ؛ وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى مَنْ اتَّرَحَّ بِالْأَسْتِعْطَافِ ، وَتَأْمِينَ مَنْ خَافَ ؛ فَمَا خَرَجَ كَبِيرُهُمْ عَنِ الْمُخَالَاتَةِ ، وَلَا زَعِيمُهُمْ عَنِ الْمُطَاوَلَةِ ؛ فَلَمَّا عَلِمَ مولانا السلطانُ أَنَّهُمْ لَا يُفْلِحُونَ ، وَلِغَيْرِ التَّتَارِ لَا يَصْلَحُونَ ؛ وَأَنَّهُمْ إِنْ أَصْبَحُوا عَلَى الطَّاعَةِ لَا يُمْسُونَ وَإِنْ أَمْسَوْا لَا يُصْبِحُونَ ؛ عَادَ عَنْ تِلْكَ الْوَعُودِ ، وَاخْتَارَ أَنْ مَابَدَأَ إِلَيْهِ يَعُودُ ، وَأَنْ يَبْعَثَ نَفْسَهُ إِلَى مَا بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ ؛ فَرَكِبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَابِعَ عَشَرَ

ذِي الْقَعْدَةِ مُسْتَقْبَلًا مِنْ اللَّهِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَنَصَبَ جِثْرَ بَنِي سَلْجُوقَ عَلَى رَأْسِهِ فَشَاهَدَ
النَّاسَ مِنْهُ صَاحِبَ الْقُبَّةِ وَالسَّبْعِ وَصَاحِبَ الْقُبَّةِ وَالطَّيْرِ؛ وَدَخَلَ قَيْصَرِيَّةَ فِي بُكْرَةِ
هَذَا الْيَوْمِ وَكَانَتْ دَارُ السُّلْطَانَةِ قَدْ فُرِشَتْ لِنُزُولِهِ، وَتَحْتُ بَنِي سَلْجُوقَ وَقَدْ هَيَّ
لِحُلُولِهِ؛ وَهِيَ دَارُ تَرْهَوَ، وَمَنَازِلُ مَنْ يَتَعَبَّدُ أَوْ مَنَازِلُهُ مِنْ يَلْهَوُ؛ أُنَيْقَةُ الْمُبْتَنَى، تَحْفُ
بِهَا بَسَاتِينُ عَذْبَةِ الْجَنَى؛ جُذْرَانِهَا بِأَحْسَنِ أَصْنَافِ الْقَاشَانِيِّ مُصَفَّحَةً، وَبِأَجْمَلِ
نُقُوشِهِ مُصَرَّحَةً؛ بِجُلُوسِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي مَرْتَبَةِ الْمُلْكِ فِي أَسْمَدِ وَقْتٍ، وَنَالَ
التَّخْتُ بِحُلُولِهِ أَسْعَدَ الْبَخْتِ :

وَمَا كَانَ هَذَا التَّخْتُ مِنْ حِينَ نَصَبِهِ * لَغَيْرِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ النَّذْبِ يَصْلُحُ .
مَلِكُكَ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ مَا فَتَحَتْ لَهُ * صَوَارِمُهُ الْبَيْضُ الْمَوَاضِي وَتَفْتَحُ .
أَنْتَهُ وَفُودُ الرُّومِ وَالْكُلُّ قَائِلٌ : * رَأَيْنَاكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَصَفِّحُ .
فَأَوْسَعَهُمْ حِلْمًا وَجَادَ لَهُمْ نَدَى * وَأَمْسُوا عَلَى مَنْ وَأَمِنْ وَأَصْبَحُوا .
وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْنَحُوا لِمَنْكَبٍ * عَنِ الْحَقِّ وَالتَّهَجُّ الْقَوِيمِ لَأَفْلَحُوا ،
وَلَكِنَّهُمْ أَعْطَوْا يَدًا فَوْقَهَا يَدٌ * تُصَافِحُ كَفًّا زَنْدَهَا النَّارُ يَهْدَحُ !!!

وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى مَوْلَانَا السُّلْطَانِ يَهْنُؤُونَهُ، وَعَلَى كَفِّهِ الشَّرِيفِ يَقْبَلُونَهُ؛ وَبَعْدَ
ذَلِكَ حَضَرَتِ الْقُضَاةُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ وَالصُّوْفِيَّةُ وَذَوُو الْمَرَاتِبِ مِنْ أَصْحَابِ الْعِلْمِ
عَلَى عَادَةِ بَنِي سَلْجُوقَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَوَقَفَ أَمِيرُ الْمَحْفِلِ وَهُوَ كَبِيرُ الْمَقْدَارِ عِنْدَهُمْ، لَهُ
وَسَامَةٌ وَنَخَامَةٌ، وَلَهُ أَكْبَرُكُمْ وَأَوْسَعُ عِمَامَةٍ؛ وَأَخَذَ فِي تَرْتِيبِ الْمَحْفِلِ عَلَى قَدْرِ الْأَقْدَارِ،
وَأَتَنَصَّبَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ مُنْتَظَرًا مَا إِلَيْهِ بِهِ يُشَارُ؛ وَشَرَعَ الْقُرَّاءُ يَقْرَءُونَ
بِجَمِيعًا وَفُرَادَى بِأَحْسَنِ تَلْحِينٍ، وَأَجْمَلِ تَحْسِينٍ؛ فَأَتَتْ أَصْرَاتُهُمْ بِكُلِّ عَجِيبٍ، وَعَدَلُوا
عَنِ التَّرْتِيلِ إِلَى التَّرْتِيبِ . وَلَمَّا فَرَغُوا شَرَعَ أَمِيرُ الْمَحْفِلِ صَارِيخًا، وَبُكُورًا فِيهِ نَافِيًا؛

فَأُشْهِدَ وَأُورِدَ بِالْفَارِسِيَّةِ مَا يُعْجِبُ مَذْلُولُهُ ، وَيَهْوِلُ مَقُولُهُ ، وَأَطَالَ وَمَا أَطَابَ ،
وَأَسْتَصَوَّبُ مَنْ يَعْرِفُ مَقَالَه قَوْلَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

ولما أَتَقَضَى ذلك مَدَّ سِمَاطٌ لَيْسَ يُنَاسِبُ هَمَّ الْمُلُوكِ ، فَأكَلَ النَّاسُ مِنْهُ
لِلشَّرَفِ لَا لِلشَّرَفِ ، ثُمَّ عَادَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مَقَامِهِ فَوَقَفَ ، وَقَامَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَى
مَكَانِ الْإِسْتِرَاحَةِ فَأَقَامَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مُحِيْمِهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ ، وَكَانَ بَدَارِ
الْمَلِكِ حَرَمُ السَّلْجُوقِيَّةِ قَدْ أَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسْكَنَتَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ ، قَدْ نَبَتْ بِهِمْ
مَوَاطِنُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ ، عَلَى أَبْوَابِهِمْ أَشْمَالُ سُتُورٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَمَشَائِخُ خُدَّامٍ يَسْتَحِقُّ كُلُّ
مِنْهُمْ - لِكِبَرِ سِنِّهِ - أَنْ يُدْعَى بِالْكَبِيرِ ، عَلَيْهِمْ ذِلَّةُ الْإِنْكَسَارِ ، وَأَمَارُ الْإِفْتِقَارِ ،
فَخَبَرَهُمْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَأَتَسَّهَمَ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ، وَتَوَجَّهَ مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ
فِي قَيْصَرِيَّةٍ وَبِهَا سَبْعُ جَمْعٍ تُقَامُ ، وَبِهَا خُطْبَاءُ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، فَصَلَّيْنَا فِي جَامِعِ
السُّلْطَانِ وَهُوَ جَامِعٌ عَلِيٌّ يَدُلُّ عَلَى آخِثَالِ مُلُوكِهَا بَيُوتَ عِبَادَتِهِمْ ، وَرَأَيْنَا فِيهِ مِنْ
دَلَائِلِ الْخَيْرِ مَا يَقْضِي بِحَسَنِ إِرَادَاتِهِمْ ، فَحَضَرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَكَاوِئُهَا ، وَجَلَسُوا حِلَقًا
لَا صُفُوفًا ، وَأَجْرُوا مِنَ الْبَحْثِ بِالْعَجَمِيَّةِ صُنُوفًا ، وَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ حِفْظَةِ
الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَتَخَارَجُوا الْقِرَاءَةَ آيَةً آيَةً ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ بَعِيدَةٌ عَنِ الدَّرَايَةِ ، بَلْ إِنَّهَا
تُبْرِزُهَا أَصْوَاتٌ مُتَرَتِّمَةٌ ، وَالْحَنَانُ لَتَفْرِيقِ الْكَلِمَاتِ مُقَسَّمَةٌ ، يَنْطِقُونَ بِالْحُرُوفِ
كَيْفَ أَتَفَقَّتْ ، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى خَارِجِ الْحُرُوفِ أَنَّهَا نَطَقَتْ أَوْ لَا نَطَقَتْ .

فَلَمَّا آنَ وَقْتُ الْأَذَانِ قَامَ صَبِيٌّ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ وَسَطِ جَمَاعَةٍ عَلَيْهِمْ أَقْيَةُ قَعُودٍ عَلَى
دِكَّةِ الْمُؤَذِّنِينَ ، فَابْتَدَأَ بِالتَّكْبِيرِ أَوَّلًا وَثَانِيًا بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ إِمَاعَةٍ وَلَا إِبَانَةٍ . وَلَمَّا تَشَهَّدَ
سَاعَدُوهُ جَمِيعُهُمْ بِأَصْوَاتٍ مُجْتَمِعَةٍ مُتَلَعِّلَةٍ ، وَتَفَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ ، يُمَسِّكُونَ لَهُ النِّعَمَ بِأَحْسَنِ
تَلْحِينٍ ، وَيَتَرْتَمُونَ بِالأَصْوَاتِ إِلَى آخِرِ التَّأْذِينِ ، وَفَرَّغَ الْأَذَانُ وَكُلُّهُمْ قَعُودٌ مَا مِنْهُمْ

أحد غير الصبي وقف ، وما منا أحد لكلمة من الأذان عرف ؛ ولما فرغ الأذان طاع شيخ كبير السن يعرف بأمر محفل المنبر، فصعد إلى ذروة المنبر، وشرع في دعاء لا نعرفه ، وأدعاء لا نألفه ؛ كأنه مخاصم ، أو وكيل شرع أحضره لمشادة خصمه محاكم بين يدي حاكم ، وطلع الخطيب بعد ذلك فخطب ودعا مولانا السلطان بغير مشاركته ، ودعا الناس بما تلقته من الأقوال الملائكة ؛ وأنقضت الجمعة على هذه الصورة، المسبورة ؛ وضربت السكة باسم مولانا السلطان ، وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم ، فشهدها فرأى أوجهها باسمه الميمون ، وأقرت الألسنة بهذه النعمة وقوت العيون ؛ وشاهدت بقيسارية مدارس وخواق وربطاً تدل على اهتمام بآنها ، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدنية ، مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة المنقوشة ، وأراضيها بأجمل تلك مفروشة ؛ وأواوينها وصففها مؤزرة بالقاشاني الأجل صورة ، وجميعها مفروشة بالبسط الكرجية العالية ، وفيها المياه الجارية ، ولها الشبايك على البساتين الحسنة ، وسوق قيصرية طائف بها من حولها ، وليس داخل المدينة دكان ولا سوق .

والوزير في بلاد الروم جميعها يعرف بالصاحب «نحر الدين خواجا علي» ولا يحسن الكتابة ولا الخط ، وخلعته من ممالكه خاصة مائتا مملوك ، ودخله في كل يوم - غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه - سبعة آلاف درهم سلطانية . ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه وحركاوته شيئاً لا يكون لأكثر الملوك ، وله بر ومعرفة ، وهو بالخير موصوف :

والمسمون بالوزير كثير * والوزير الذي لنا المأمول !

وعلي هذا وذاك علي * وعلي هذا له التفضيل !

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا * وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ !

وَمَعِيَ أَيْتِمًا سَلَكَتُ كَأَنِّي * كُلَّ وَجْهِ لَهُ بَوَّجِيهِ كَفِيلُ !

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانُ الْبَرْوَانَاهُ وَزَوْجَتُهُ كُرْجِي خَاتُونُ ، فَظَهَرَ لَهَا مِنَ الْمَوْجُودِ
الْبَادِي لِلْعَيْنِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ آسَتَوَلَى مَوْلَانَا السَّاطَانُ وَمَمَالِيكُهُ مِنْ مَوْجُودِهِ
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَحَ بِنَفِيسٍ .

ولما أقام مولانا السلطانُ بَقِصْرِيَّةَ هَذِهِ الْمَدَّةِ ، فَكَّرَ فِي أَمْرِ عَسَاكِرِهِ وَمَصَالِحِهِ
بِمَا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،
وَالسُّيُوفَ مِنَ الْمَصَارِعَةِ مَلَّتْ ، وَالسَّوَاعِدَ مِنَ الْمَصَادِمَةِ كَلَّتْ ؛ وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ
مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ يُعْزَى ، وَلَا بِحِزَاءِ السُّوءِ يُخْزَى ؛ وَلَا بَقِيَ فِي الْبِلَادِ غَيْرِ عَايَا كَالسَّوَائِمِ
الْهَامِلَةِ ، وَلَا دِيَّةٍ - لِلْكُفْرِ مِنْهُمْ - عَلَى عَاقِلٍ وَعَاقِلُهُ ؛ وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ فَالْبِلَادُ لَا تَحْمِلُهُ ،
وَمَوَادُّ بِلَادِهِ لَا تَصِلُهُ ؛ وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالْدُّوسِ قَدْ أَضْمَحَلَّتْ ، وَعُلُوفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ؛
وَزُرُوعُهَا لَا تُرْتَجَى لِكِفَايَةِ ، وَلَا تَرْضَى خِيُولُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ بِمَا تَرْضَى بِهِ خِيُولُ
الرُّومِ مِنَ الرَّعْيِ وَالرَّعَايَةِ ؛ وَأَنَّ الْحُسَامَ الصَّقِيلَ الَّذِي قُتِلَ التَّتَارُ بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ ،
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ أَنْعَجَبَهُمْ عَامُهُمْ فَيَعُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَابِلٍ .

وَرَحَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ أَمْرَاءَهُ وَخَوَاصَّهُ
كُلَّ مَا أُحْضِرَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزْمَةِ ، وَكُلَّ مَا يُطْلَقُ عَلَى تَوَلِيهِ أَسْمُ النِّعْمَةِ ؛ فَزَلَّ
بِمَنْزِلَةٍ تَعْرِفُ بَعْتَرَلُوا فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ وَرَدَ إِلَى السُّلْطَانِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ غِيَاثِ الدِّينِ
سُلْطَانِ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْبَرْوَانَاهُ وَالْكُبْرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يُسَمَّى ظَهِيرُ الدِّينِ التَّرْجَمَانُ ،
وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الْبَرْوَانَاهُ ، يَسْتَوْقِفُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ عَنِ الْحَرَكَةِ وَمَا عَلِمُوا
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَرَكَةَ إِلَى جِهَةِ سِيوَاسَ . فَعَدَّدَ مَوْلَانَا
السُّلْطَانُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَائِهِ بَعْدِيهِ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَقْصَى

ملكه مع بعده؛ وأنهم ما وقفوا عند الشروط المقررة، ولا وفوا بمضمون الرسائل المسيئة، وأنهم لما جاء الحق وزهق الباطل طلبوا نظرة إلى ميسره؛ وأن أعنتهم للكفر مسلمته، وأنهم منذ استيلاء التتار هم أصحاب المشأمة؛ وعلم مولانا السلطان أن بلاد الروم ما بها عسكر يستخلصه لنفسه، ولا من يقابل المغل في غده خوفاً مما شاهده كل منهم في أمسه؛ وأنهم أهل التذاذ، لا أهل نفاذ؛ وأهل طرب، لا أهل حرب [وغلب]؛ وأهل طيبة عيش، لا قواد جيش؛ فرد السلطان إلى سليمان البروانه مديده، وقال: قل له: إني قد عرفت الروم وطرفاتها، وأخذت أمه أسيرة وابن بنته وولده؛ ويكفيننا ماجرى من النصر الوجيه، **(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)** وماكل من قضى فريضة الحج تحب عليه المجاورة، ولا بعد هذه المناصرة مناصره، ولا بعد هذه المحاورة محاوره، ونحن فقد ابتغينا فيما آتانا الله: من حفن دماء أهل الروم وعدم نهب أموالهم الدار الآخرة؛ وتزهننا عن أموال كتم للتتار تستحبونها، ومغارم كثيرة هي لهم من الجنات مغايم يأخذونها حين يأخذونها؛ وما كان جلوسنا في تحت سلطنتكم لزيادة تحت آل سلجوق، إلا لنعلمكم أنه لا عائق لنا عن أمر من الأمور يعوق؛ وأن أحدا لا ينبغي له أن يامن لنا سطوه، وليتحقق كل أن كل مسافة جمعة لنا خطوه؛ وسروجننا - بحمد الله - أعظم من ذلك التخت جلالا، وأرفع منالاً؛ وكتم في ممالكنا كرايس ملك نحن آية ذلك الكرسي، وكتم لنا فتح كله - والحمد لله - في الإنافة الفتح القدسي.

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ * فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ!

وَأَسْتَضْحَبَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتَ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَارِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ جَالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيَّهُ لَهُ اشْتِغَالٌ بِعِلْمٍ، وَكَانَ لَهُ

في الروم صورة، وهو أمير دار يعني أمير المظالم . وأستصحب ظهير الدين موح (؟) مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيرا من العلوم بخطه، مثل الصّاح في مجلّد واحد، وغير ذلك . وأستصحب الأمير نظام الدين أوحّد ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله .

وأستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين محاف (؟) والأمير سيف الدين بكيجا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجيني، وأصحاب ماطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير على صاحب كركر .

وأستصحب قاضي الأضامة بماطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكر، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفدتهم .

والذين حضروا تحت الغضب - ولّد البرواناه المذكور، وولّد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سنقر حاه الرناسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصر الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيش، والأمير حسام الدين ركوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركماني .

ومن المغل : مقدمي الألوفا والمات - زيرك وسرطوق، وحنوكه، وسركده

وتماديه (؟) .

ثُمَّ رَحَلَ السُّلْطَانُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَنَزَلَ بِمَنْزِلَةٍ قَرِيبِ خَانِ السُّلْطَانِ عَلَاءِ الدِّينِ كَيْقْبَادَ، وَيَعْرِفُ بِكِرَوَانِي صَرَائِي . وَهَذَا الْخَانُ بِنْتُ عَظِيمَةٍ مِنْ نِسْبَةِ خَانِ قِرْطَايَ، وَلَهُ أَوْقَافٌ عَظِيمَةٌ . وَمِنْ جُمْلَةِ مَا وَجِدَ قُرَيْبًا مِنْهُ أَدْوَادٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَغْنَامِ عَبَثَتْ فِيهَا الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ، سَأَلْتُ عَنْهَا فَقِيلَ : إِنَّهَا وَقَفَتْ عَلَى هَذَا الْخَانِ يُذْبَحُ نَتَاجُهَا لِلْوَارِدِينَ عَلَى هَذَا الْخَانِ، وَهَذِهِ الْأَغْنَامُ لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوُقُوفِ، قَدَّرَ اللَّهُ اسْتِيفَادَهَا جُمْلَةً لَمَّا كَثُرَتْ عَلَى هَذَا الْخَانِ مِنَ الْجِيُوشِ الْمَنْصُورَةِ الضُّيُوفِ .

وَرَحَلْنَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَهُوَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ ثَانِي عَشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَنَزَلْنَا فِي وَطَاءٍ عَادَةً التَّتَارِ يَنْزِلُونَ بِهَا تَسْمَى رُورَانِ كُودَلُوا، وَكُودَلُوا أَسْمُ جِبَالِ تِلْكَ الْوَطَاءِ .

وَرَحَلْنَا فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَالِثَ عَشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَعَارَضْنَا بِهَا - فِي وَطَاءٍ خَلْفَ حِصْنٍ سَمْنَدُو مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي كُنَّا تَوَجَّهْنَا مِنْهَا - نَهْرٌ يَعْرِفُ بِنَهْرِ قَزَلِ صُو، قَرِيبَ كُودَلُوا الصَّغِيرِ . وَمَعْنَى قَزَلِ صُو النَّهْرِ الْأَحْمَرِ، وَهَذَا النَّهْرُ صَعَبُ الْمَخَاضِ، وَاسِيعُ الْأَعْتَاضِ، عَلَى الْمَهْبَطِ، زَلَقُ الْمَسْقَطِ، مُرْتَفِعُ الْمُرْتَقِ، بَعِيدُ الْمُسْتَقِ، لَا يَجِدُ السَّالِكُ مِنْ أَوْحَالِ حَافَتِهِ إِلَّا صَعِيدًا زَلَقًا، فَوْقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ بِنَفْسِهِ، وَجَرَدَ سَيْفُهُ بِيَدِهِ، وَبَاشَرَ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ هُوَ وَجَمِيعُ خَوَاصِّهِ، حَتَّى تَهَيَّأَ الْمَكَانُ جَمِيعُهُ، وَوَقَفَ رَاجِلًا يُعَبِّرُ النَّاسَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا : مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَغُلَامٍ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَكُرُّ عَلَى مَنْ يَزْدَحِمُ، وَيُكْرَّرُ التَّنَادِبُ لِمَنْ يَطْلُبُ بِأَذْيَةٍ رَفِيقَهُ وَيَقْتَحِمُ، وَمَا زَالَ مِنْ رَابِعَةِ هَذَا النَّهَارِ إِلَى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ حَتَّى عَبَرَتِ النَّاسُ سَالِمِينَ . وَلَمَّا خَفَّتِ الْبُرُورُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُرُورُ، رَكِبَ فَرَسَهُ وَعَبَرَ الْمَاءَ وَالْأَنْسَةَ لَهُ دَاعِيَهُ، وَعَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَاقِيَةٌ بَاقِيَهُ، فَتَزَلَّ فِي وَادٍ هُنَاكَ بِهِ مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ، وَمَرَأَى وَلَا كَشَعْبِ بَوَّانٍ .

ثم رحل في يوم الجمعة فقتل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قرية من هدر رجال (٩) قبالة بازار بلو، وهذا بازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلو الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوفا طول النهار، حتى نزلنا في وطة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أُم التتار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، وكف بأسهم من النشور مناسرها، وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنه لا زرق الروم؛ فرأهم لمن بقي عبره، وعرضوا على ربهم صفا وجاؤوه كما خلقوا أول مره؛ وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتهم وقد هدأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح؛ فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفه.

قد سودت شجر الجبال شعورهم * فكان فيه مسفة الغرباين!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعانينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثنوا على مننه التي سنّت إليهم خيار العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه؛ وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقى والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدة قتلى المغل فقالوا: «فأسأل العادين»؛ فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل، فقال: «قل الله أعلم بعديتهم ما يعلمهم إلا قليل» وقال بعضهم من عددهم ومن عنده علم من الكتاب: «أنا عددت ستة آلاف وسبعائة وسبعين نفرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل ساقها سوقا مريعا.

الحِسَاب ؛ هذا : غير من آوَى إلى جَبَلٍ يَعِصُمُهُ من مَاءِ السَّيْفِ فَمَا عَصَمَهُ ،
وغير من أَعْتَقَد أن فَرَسَهُ تُسَلِّمُهُ فَأَسْلَمَهُ ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والقَلَوَاتُ
مَزْرَعَةٌ بِلُحُوسِهِمْ ، والدُّود - لَأَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ وَهُمْ كُفَّار - قد أثرت كالنواسر في لُحُومِهِمْ ؛
فرسم مولانا السلطانُ بتقدّم الأثقالِ والحُرَّاسِ والدَّهْلِيزِ المنصورِ صُحْبَةَ الأميرِ
بَدْرُ الدِّينِ الخَزَنَدَارِ ، والدُّخُولِ في أَمْرِهِ دَرَبِنْدَ ، وأقام مولانا السلطانُ في سَاقَةِ العَسْكَرِ
الْمَنْصُورِ بِقِيَّةِ يَوْمِ السَّبْتِ ويومِ الأَحَدِ :

فَهُوَ يَوْمُ الطَّارِدِ أَوَّلُ سَابِقِ * وَهُوَ يَوْمُ الْقُفُولِ آخِرُ سَائِقِ !

وَأَنْتَظِرُ في هَذَيْنِ اليَوْمَيْنِ صَيْدًا مِنَ الْعَدُوِّ يَنْجُو ، وما من دِمَاءِهِمْ إلى السَّيْفِ يَنْجُو ؛
فَلَمَّا لم يَجِدْ أَحَدًا رَحَلَ في يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ فَتَزَلَّ قَرِيبًا مِنَ الْخَانِ الَّذِي فِي الدَّرَبِنْدِ ، وَرَكِبَ
يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ الَّذِي حَضَرَ مِنْهَا ، فَسَلَكَ طَرِيقًا مِنَ الْأَوْعَارِ يَبْسَا ، وَسَلَكَ
مِنْ قُلَلِ الْجِبَالِ فِي هِضَابٍ كَأَنَّهَا أَلْفٌ حَمَلَتْ مِنَ الْأَنْجُمِ قَبْسًا ؛ فَقَامَسَى الْعَالَمَ
فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الشَّدَةِ مَا لَا يَدْخُلُ فِي قِيَاسِ ، وَكَادُوا يَهْلِكُونَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
تَدَارَكَ النَّاسَ ؛ فَتَسَابَقُوا وَلَكِنْ عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ ، وَتَسَلَّلُوا وَلَكِنْ سَلَّ حَوَافِرِ
الْخَيْلِ كَيْفَ ؟ ، وَهَبَطُوا مِنْ جِبَالٍ يَسْتَصْعِبُهَا كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى طَارِقُ الطَّيْفِ ؛
يَسْتَصْعَبُ الْجَرُّ الْمُحَلَّقُ مِنْ شَاهِقٍ وَقُوعَهُ فِي عِقَابِهَا ، وَيَسْتَهْوِلُ النَّجْمُ النَّاقِبُ تَرَفُّعَ
شِعَابِهَا ؛ بِالْقُرْبِ مِنْهَا جَبَلٌ شَاهِقٌ يُعْرِفُ بِسَقَرٍ وَمَا أُدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ، لَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ
مِنَ الدَّوَابِّ وَلَا يَذَرُ لَهُ عَقَبَةً لَوْاحَةً لِلْبَشَرِ ؛ أَعَانَ اللَّهُ عَلَى الْمُهْبُوطِ مِنْهَا ، وَفَارَزَ بِمَشِيئَةِ
اللَّهِ وَبِسَعَادَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ مِنْ زُخْرَحَ عَنْهَا ؛ وَعَدَيْنَا كَوَكُصُوا وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ،
وَبَاتَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ هُنَاكَ ، وَكَانَ قَضِيمُ الْبَغَالِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَرَقَ الْبَلُوطُ ، إِلَّا مِنْ
أَمْسَتْ عَنَايَةُ اللَّهِ أَنَّ تُبَسِّرَ فِي شَمْعٍ بِخَمْسَةِ عَشَرَ دَرَاهِمًا كُلُّ مَدٍّ يُحُوطُ .

ورحل مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القعدة فقتل قريب
كسول (٩) المقدم ذكرها، وعدل إلى طريق مرعش فزال بحمد الله الداعي، وقالوا
للشعير: ما فينا لك مخاطب ولا منا فيك بماله مخاطر، وللخيول قد حصل لك
في مضر الربيع الأول في شعبان وفي الشام في ذى الحجة الربيع الآخر، فأرتعت
لا يرونها أصحاب الموازين في تلك المساجد، وأستمرت في مروج يتأسف عليها
أبن المساجد (٩)؛ وقسم مولانا السلطان تلك الأعشاب كما تقسمت في آفاق السماء
النجوم، وأوقف كل أحد في مقام حتى قال: ((وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ))؛ فكم
هنالك من مروج أعشبت فأعجبت، وأنجابت السماء عنها فأنجبت، وأربت
على زهر النجوم فاهترت وربت:

يَصُدُّ الشَّمْسُ انِّي وَاجِهَتُنَا * فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ!

يَتَخَلَّلُهَا هُنَاكَ أترع الحياض، ويأهو بها كل شيء فكم قصف العاصي بها
في تلك الرياض.

هذا كله: وخير من أرزنجان، حارة برجوان؛ وخير من أراضي توريز، قطعة
من ايليز؛ وكوم من كيان سسقط ميدوم، خير من قصير في قيصريّة الروم؛ ونظرة
إلى المقياس، خير من سيواس؛ ومناظر اللوق، خير من كيقباز آل سلجوق؛ وتربة
من ترب القرافه، خير من مروج العرافه؛ وشبر من شبرا، خير من سطا ومرا (٩)
وجلوس في باب دارك خير * من جلوس في [باب] إيوان كسرى،

وأنمحي لنور وجهك خير * لي من أني أشاهد بدرا!

ياوليأ يولي الأيادی سرا * ووزيرا فليس يكسب وزرا:

ما رأينا والله فيمن رأينا * لك مثلاً من البرية طرا.

كَمْ خَبَرْنَا الرِّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ * فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا!
كَمْ فُلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا * فَإِذَا النَّاسُ دُونَ عَلَيْكَ حَسْرَى.
لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحًا * نَ إِلَهٍ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَسْرَى!
مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كِمِصْرٍ وَلَا مِثْلَكَ فِينَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا!

الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكة رسائل الصيد)

وهذه نسخة رسالة في صيد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد
الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البازباري، وهي :

الحمد لله الذي نعم النفوس الشريفة بإدراك الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمدٍها
الذي أثار كوكب نصره وسفره، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم الغنيمة
في السفر، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حقت أيامه بالعزيز
والتأييد والظفر.

نحمد على أن أقر العيون بفضله بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة ألانت قلب من نفر، وكرمت أسبابها فلا يمتسك بها إلا أعز فریق ونفر،
ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر، صلى الله عليه
وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليما.

وبعد، فإن في ابتغاء النصر ملامدا تدركها كل ذات شرفت، وتعلكها السجايا
التي تعارفت بالفخار وانتلفت، وتناهل النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه

صُرِفَتْ ، وَمَنْشُؤُهَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عَزَّ عِنْدَ مَا تَلَمَّعُ بِرُوقِ الصَّفَاحِ ،
وَتَشْيِبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُؤُوسَ الرِّمَاحِ ، وَتَشْرِحُ جَوَارِحُ النَّبَالِ لِتَحِلَّ فِي الْجَوَارِحِ
وَتَصِيدَ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنٍ سَلِمَ عِنْدَ مَا تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْتِطَاءِ صَهَوَاتِ
الْجِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالِدَعَةِ ، وَتَنْشْرِحُ الصُّدُورُ إِلَى مَعَاطَاةِ الصُّيُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةٍ ؛
وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ فَتَصِيدُ ، وَتَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ الصَّيْدُ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَاكِي الْمُمْسِكَةُ ،
وَتُلْقَى عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكَةً ؛ وَتَفَاضُ حِينَئِذٍ النِّعَمُ السُّلْطَانِيَّةُ
وَتُجْزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتُلَوَّحُ الْعِصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَتَبَعُثُ مَوَاقِبُهَا .

وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَمَعَ لِلْمَوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ ، الْمُعْظَمَةِ ، السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَالِكِيَّةِ ،
النَّاصِرِيَّةِ ، خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا - سَعَادَةَ الْحَالَتَيْنِ حَرْبًا وَسِلَاحًا ، وَأَتَاهُ فِيهِمَا النَّصْرَ الْأَرْفَعَ
وَالْعِزَّ الْأَشْمَى ؛ وَوَسَمَ بِصِدْقَاتِهِ وَعَزَمَاتِهِ الْأُمَرَاءَ وَنَسَا ، وَنَصَرَهُ نَعْتًا وَعَظَّمَهُ
سُبْحَةً وَشَرَفَهُ أَسْمًا ؛ فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلُّهَا رِفْعَةٌ وَانْتِصَارٌ ، وَأَسْتِيْلَاءٌ وَأَسْتِظْهَارٌ ، وَقُوَّةٌ
تَحْمِيهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَقْنَى الْكُفَّارُ ؛ وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَهَبَةٌ ، وَصَدَقَاتُ مُنْجِيَةٍ
مُنْجِيَةٍ ، وَرَفْعُ ظُلُمَاتٍ مُتَشَعِّبَةٍ ؛ وَقَمْعُ نَفُوسٍ مُتَوَشِّبَةٍ ؛ وَحَسْمُ خُطُوبٍ مُسْتَدَّةٍ ،
وَحِفْظُ الْحُوزَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ كُلِّ بَاسٍ وَوَقَايَتُهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ؛ وَفِي خِلَالِ كُلِّ عَامٍ
تُصَرَّفُ عَزَائِمُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى آتِبَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمَرِينِ
النُّفُوسِ عَلَى آكْتِسَابِ التَّأْيِيدِ ، وَحُصُولِ الْمَسَرَّةِ بِكُلِّ ظَفِيرٍ جَدِيدٍ ؛ فَيَرَسُمُ - خَلَّدَ
اللَّهُ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرَسُمُ بِهِ مِنْ مَشَقِّ كُلِّ عَامٍ بِإِخْرَاجِ الدَّهْلِيزِ الْمَنْصُورِ
فَيُنْصَبُ فِي بَرٍّ أَوْ خِلَازٍ بِسَفْحِ الْحَرَمِ ، فِي سَاعَةٍ مُبَارَكَةٍ آخِذَةٍ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ ؛
فَتَمْدُّ بِالتَّأْيِيدِ أَطْنَابُهُ ، وَتَرْفَعُ عَلَى عُمْدِ النَّصْرِ قِبَابُهُ ، وَيُحَاطُ بِجِرَاسَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ
رِحَابُهُ ؛ وَتَضْرِبُ خِيَامُ الْأُمَرَاءِ حَوْلَهُ وَطَاقًا ، وَتَحْفُفُ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدْرِ إِشْرَاقًا ؛
وَيَسْتَقِلُّ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهِرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافة ، والحراسة تصحبه فيما قرب ونأى
من المسافة ، ولسان السعد قد خاطبه بالتحية وشافه ، وممالكه الأمراء قد حفوا به
أطلابا ، وسنى موكبه قد بعث أمامه من الإضاءة نجابا ، ولم يزل حتى يأتي النسل
المبارك ويستوى على الكرسي في الفلك المشحون ، محوطا بالنصر الميمون والجيش
المأمون ، وقد استبشر باعتلائه البحر والنون ، وأضحى لظهر الفلك من الفخار
[بحضرته] المكرمه ، مالمهوات أجياده العناق المسومة ، فلهذا نشر أعلام بشرها ،
وقال : ﴿ أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ ، فسارت به في اليم ، ونصر الله
قد تم ، وصعد من فلكه ، على ما يسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزرة ملكه ،
وأستقر على جواد شرفت صهوته ، وقرنت بالآناة والسكون خطوته ، عربى النجار ،
يختال في سيره كأنما أنتشى من العقار :

ويختال بك الطرف * كأنَّ الطرفَ نَسْوَانُ.

ترى الطرفَ درى أوليس يدري أنك سلطان !

وسار في زروج محضره ، وتغور نبات مفره ، وقد طلعت للظفر شمسوه وبدوره ،
وأعدت للصيد بزائه وصقوره ، من كل متوقد اللخط من الشهامه ، محمول على
الراحات من فرط الكرامه ، يتوسم فيه النجاح ، قبل خفي الجناح ، ويخرج من
جو السماء ولا حرج ولا جناح ، وبازها الأشهب ، ينجى بالظفر ويذهب بصائر
مفضض وناظر مذهب ، له منسر أفتى ، طالما أغنى ، كأنما هو شبا السنان وقد
جباه الكفا طعنا :

وصارم في يدك منصيات * إن كان للسيف في الوعى رُوحُ ،

متقد اللخط من شهامة * فالحو من ناظره مجروح !

قد رآه النَّجْمُ جَنَاحَهُ ، وَقَرَنَ اللَّهُ بِالْيَمِينِ غُدُوهُ وَرَوَّاحَهُ ، وَنَصَرَهُ فِي حَرِّهِ حَيْثُ
جَعَلَ مِنْسَرَهُ رُحْمَهُ وَمَحَلَّهُ صَفَاحَهُ ؛ فِي قَوَادِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِيهِ النَّصْرُ
ظَاهِرٌ الْمَعْلَمُ ؛ كَأَنَّما أُلْهِمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» ،
فَيَسْرَحُ وَالطَّيْرُ جَائِمَةً فِي وَكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِبْغَاشِ السَّحَرِ وَعَلَيْهِ سَوَادٌ ، فِيهَا بِهِ
الصَّادِحُ فِي الْجَوِّ وَالْبَاقِعُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ
عَلَى الطَّيْرِ حَلَقَةً وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي الْإِنْقَاطِ حَبًّا ، غَافِلَةٌ عَمَّا يُرَادُّ بِهَا ، فَيَدْعُرُونَهَا بِحَقِّقِ
الطُّبُولِ وَضَرْبِهَا ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لِنَافِرِهَا مُتَرَقِّبٌ ، وَلِطَائِرِهَا
بِالْجَارِحِ مُعَقِّبٌ ، فَمَا يَدْنُو الْكُرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَثُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ
سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَيْتِهِ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جِنْسٍ وَقَهَرَ بِعَظَمَتِهِ
بِعَظَمَتِهِ ؛ هَذَا : وَالْجَارِحُ قَدْ أَثْنَبَ فِيهِ مَخَالِسَهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلَهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
وَمَذَاهِبِهِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةَ يَوْمِهِ مُتَوَغَّلًا فِي التَّمَتُّعِ بِلَذَاتِ
صُيُودِهِ ، وَأَوْقَاتِ سُعُودِهِ ؛ وَحُصُولِ أَرَبِهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُنُودِ الْمَلَائِكَةِ حَافِظِينَ بِهِ
وَيَجْنُودِهِ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ النَّهَارَ اللَّيْلَ بِظُلُمَائِهِ ، وَيَلْمَعَ الطَّارِقُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ
ذَلِكَ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ إِلَى الْمُخَيَّمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْأَقْدَارُ وَاهِبِهِ ؛
وَالْجَوَارِحُ مَسْرُورُهُ ، وَالطُّيُورُ مَأْسُورُهُ ؛ وَالنُّفُوسُ مُتَمَتِّعَةٌ ، وَالْمَوَاهِبُ مُنَوَّعَةٌ ، وَالْأَرْجَاءُ
مُضَوَّعَةٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَالَتِهِ : «وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ» ؛ فَيَرْفَعُ
أَمَامَهُ فَأَنْوَسَانِ تَوْعْمَانِ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانِ ، أَوْ فَرْقَدَانِ رَفَعْتُهُمَا يَدَانِ ؛ فَيَدْنُو
إِلَى مُخَيَّمِهِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْعِزِّ الْحَفِيلِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْأَثِيلِ ، وَتَرَجُلُ الْإِنْصَارُ
قَبْلَ قُسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدَرِ مِيلٍ ؛ وَيُسْعَى بِالشَّمُوعِ لَتَلْقِيهِ ، وَيُسَوَّى تَحْتَ الْمُلْكِ
لَتَرْقِيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالْدَهْلِيزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشَّمُوعِ الْمَرْفُوعَةِ ،
وَالْمَزَاهِرِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْتَبِيلًا ، وَجَاءَ الصُّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ عُرِضَتْ

عليه النعم فأعطاها ، والمهمات الإسلامية ففضاها ، وقدمت له الحياض المسومة
فامتطأها ؛ ويسرُح إلى الصَّيْد والجوارح التي صادت بالأمس قد استأسدت ،
وبسعادته إلى ظفريها قد أرشدت ؛ فإذا سار ركابه الشريف فزقت على أثره عساكر
الإسلام ، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام .

ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير ،
فعند ذلك ينثني عنان السير ؛ إلى اقتاص الوحش فيعد لإمساكها كل هيكل قيد
الأوبد ، قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاهد .

فمن أذهب : كريم المغار ، ذى إهاب من النهار ، وأديم كأنه صحيفة الأبرار ،
أبيض مثل الهدى ، له في الصبح إثارة النصر وإغارة على العدا ؛ علا قدراً
وغلا قيمه ، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة ؛ إذا استن في مضمار يسبق البروق
الخاطفه ، ويخلف الريح حسرى وهى واقفه ؛ يحده الفارس بحراً ، وله عند بحرى
العوالى مع السوايق بحرى .

ومن أحمر : كأنما صبغ بدم الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ؛
كرمت غمره ومجوله ، وحسنت أعراقه وذبوله ، مكرّم مفرّج لجلود صخر حطته من
على سيوله ؛ حتى لونه منجم الرحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق .

ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصّب كالسيل ؛ كريم الناصية ، جواب قاصية ؛
كان غمرته صبح تنفس في الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب
يضيء المسالك ، وكأن مجوله بروق تفرقت في جوانب الفسق لحسن منظر لذلك ؛
سنايكة يورى قدحها ، وغمرته يثير صبوحها ؛ وجوارحه مسود جنتها ، وصنوته
كمن فيها العز فلا يزال ظاهراً نجحها .

وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْجِيَادِ الْمُخْتَبَرَةِ ، وَالصَّافِيَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ :

إِذَا مَا صَرَفْتَ اللَّحْظَ نَحْوَ شَيْئَاتِهَا * وَالْوَانِيَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغِيبٌ^(١) !

وإِنَّمَا هِيَ بَصِيرُهَا عَلَى الظَّأِ ، وَشِدَّةُ عَدُوِّهَا فِي النُّورِ وَالظُّلُمَا ؛ وَسَبَقُهَا إِلَى غَايَاتِ رَهَانِهَا ، وَثَبَاتِهَا تَحْتَ رَايَاتِ فُرْسَانِهَا .

وَتَلِيهَا الْفُهُودُ الْحَسَنُ مَنْظَرُهَا ، الْجَمِيلُ ظَفَرُهَا ، الْكَاسِبُ نَابِهَا وَظَفَرُهَا ؛ تَفَرَّقَ اللَّيْلُ فِي أَهْلِهَا الْمُجْتَمِعَةِ ، وَأَدْرَكَتِ الْعَوَاصِمَ فِي هِضَابِهَا الْمُرْتَفَعَةِ ؛ وَجُوهُهَا كُوجُوهِ اللَّيْثِ الْخَادِرَةِ ، وَوَثَبَاتُهَا عَلَى الطَّرِيدَةِ وَثَبَاتُ الْفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَلَى الْفِئَةِ الْكَافِرَةِ ؛ مُقْلَصَةُ الْخَوَاصِرِ ، عَزَمَاتُهَا عَلَى الْوَحْشِ حَوَاصِرُ ؛ مَا أُطْلِقَتْ عَلَى صَيْدٍ إِلَّا قَنَصَتْهُ سَرِيعًا ، وَلَا بَصُرَتْ بِعَانَةٍ مِنْ حُمُرٍ إِلَّا أَخَذَتْهَا جَمِيعًا .

ثُمَّ الْحَوَامِي الْمُعَلَّمَةُ ، وَالضُّوَارِي الَّتِي أَصَحَّتْ بِالنَّجْحِ مُتَوَسِّمَةً ؛ مَا مِنْهَا إِلَّا طَاوِي الْخَاصِرَةِ ، وَثَبَاتُهُ طَائِلَةٌ غَيْرُ قَاصِرَةٍ ؛ بُدُوبُ كَالْأَسْنَةِ ، وَسَاعِدَيْنِ مَفْتُولَيْنِ تَسْبِقُ بِهِمَا ذَوَاتِ الْأَعْنَةِ ؛ لَوْ رَأَاهُ عَدِيٌّ بُنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَضَمَّهُ إِلَى مَا لَدَيْهِ ، وَأَكَلَ مَا أَمْسَكَ عَلَيْهِ .

وَتَضَرِبُ الْعَسَاكِرُ حَلَقَةً مَا يَلْتَقِي طَرَفَاهَا إِلَّا إِلَى اللَّيْلِ فِي اتِّسَاعِهَا ، تَحْوِي سَائِرَ الْأَوَائِدِ عَلَى آخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا .

فَمِنْ نَعَامٍ : خُضِبَ ظَلِيمُهَا لِمَا أَكَلَ رَبِيعًا ، وَأَحْمَرَّتْ أَطْرَافُ رِيشِهِ فَكَأَنَّهَا سِهَامٌ أَصَابَتْ تَجِيعًا ؛ طَالَتْ أَعْنَاقُهَا النَّاحِلَةَ فَكَأَنَّهَا خَطِيئَةٌ ، وَاشْتَدَّتْ قَوَائِمُهَا الْحَامِلَةُ فَكَأَنَّهَا مَطِيئَةٌ ؛ شَارَكَتِ الطَّيْرَ فِي وُجُودِ الْجَنَاحِ ، وَفَارَقَتْهَا فِي تَكَاثُفِ الْأَشْبَاحِ ؛ وَأَشْبَهَتْ

(١) الذي في ديوان المتنبي :

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حَسَنِ شَيْئَاتِهَا * وَأَعْضَائُهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغِيبٌ .

الْوَحْشَ فِي مَسْكَنِ الْقِفَارِ، وَشِدَّةِ النَّفَارِ؛ قَدْ أَجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا اللَّوْنَانِ مِنَ الْوَحْشِ
وَالطَّيْرِ وَأَنْتَلَفَ فِي بَاطِنِهَا الضَّدَّانِ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ طِبَاءٍ : مُسَوِّدَةُ الْأَحْدَاقِ ، حَكَّتِ الْحَبَائِبَ فِي كُحْلِ الْمُقِلِّ وَحُسْنِ سَوَالِفِ
الْأَعْنَاقِ ؛ أَيْبَضَّتْ بَطُونَهَا ، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ، وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا ، وَحَادَكْتَ أَمَاقُهَا ؛
نَافِرَةٌ فِي صَحْرَائِهَا ، طَيِّبٌ مَرَعَاهَا فَالْمِسْكُ مِنْ دِمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَحْشِيَّةٍ : عُفْرِ الْإِهَابِ ، سَاكِنَةِ الْمَضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرِّوَالِ
مَرَايِضُ ، حَدَرًا مِنْ قَانِصٍ قَانِصُ ؛ كَمْ فِي مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ، كَأَنَّ إِبْرَةَ
رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مَدَادًا .

وَمِنْ حُمُرٍ إِهَابِهَا أَقْمَرُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَحَدِ (؟) وَلَمْ تُرَكَّبْ مُتُونُهَا ، وَقَدْ حَكَى الْجَزَعُ
الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ فِي دُجَى اللَّيْلِ عِيُونَهَا .

وَعِنْدَ مَا تَلْتَقِي حَلَقَةُ الْعَسَاكِرِ يَلْحَقُهَا - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ ،
وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَسْهُمُ النَّافِذُ ، وَالْفُهُودُ الْآخِذَةُ ؛ فَمُوجُ الْوَحْشِ دُعْرًا ،
وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْحِيَادِ
وَالْفُرْسَانِ ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بِنَبَالٍ وَخُرْصَانٍ ؛ فَيُخِذُ تَفَرُّ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا ،
وَالطُّبَاءُ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرُ عَنْ جَادِرِهَا ، وَالْحُمُرُ عَنْ بُولِهَا ؛ وَيَقْبِضُ - خَلَّدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ ، وَلَوْ لَمْ يُمَسِّكْهَا بِجَارِحٍ لِأَمْسِكْهَا كَمَا تُمَسِّكُ
عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوْعِ ؛ وَتُجَزَّلُ مِنْهَا الْمَكَاسِبُ ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَإِذَا أَخَذَ حَظَّهُ
مِنَ الْقَبْضِ وَلَدَّةً آكَيْتَسَابَهُ ، رَسَمَ لِأَمْرَائِهِ بِالصَّيْدِ عِنْدَ صُلُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ
وَيَقْنَصُونَ ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قَصِصَ دَبِيجٍ، وَيَأْتِي كُلُّ بَإِ أَقْتَنَصَه لِيُظْهَرَ التَّرْجِيحُ؛ فَإِذَا اسْتَكْمَلَ أَوْقَاتَ الصَّيْدِ
مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ نَحَى رِكَابَهُ الشَّرِيفَ إِلَى جِهَةِ الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَالْقِفَارِ قَدْ شُرِفَتْ
بِمُرُورِ مَوَازِيهِهِ، وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ قَدْ أَفْتَحَتْ بِكَوْنِهَا أَصْبَحَتْ مِنْ مَكَاسِيهِ .

هَذَا كُلُّهُ وَإِنْ كَانَتْ النَّفْسُ تَرَاهُ لَهَوًا، وَتَبْلُغُ بِهِ كُلَّ مَاتَهَوَى، فَفِي طَيْبَةٍ مِنْ تَمْرِينَ
الْجُنُودِ عَلَى الْحَرْبِ مَا تُشَدُّ بِهِ الْعَزَمَاتُ وَتَقْوَى؛ فَيَوْمُ الرِّكَابِ الشَّرِيفِ عَائِدًا إِلَى
سَرِيرِ مُلْكِهِ بِالْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَالسَّلَامَةُ قَدْ قَضَتْ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنْ حِرَاسَتِهِ،
وَالْأَقْدَارُ قَدْ وَفَّتْ مَا يَنْبَغِي مِنْ كَلَالَتِهِ؛ فَلَمْ يَكُ إِلَّا وَهُوَ صَاعِدٌ إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ
وَأَلْسِنَةُ السَّعَادَةِ تُخَاطِبُهُ، وَسَرِيرُهُ قَدْ أَهْتَرَتْ فَرَحًا بِمَقْدَمِهِ جَوَانِبُهُ، وَالصَّيْدُ الْمُبَارَكُ
قَدْ سَعِدَتْ مَبَادِيهِ وَجُمِدَتْ عَوَاقِبُهُ؛ فُلِقَتْ أَهْبَةُ السَّفَرِ، وَيَأْخُذُ فِيمَا بَطْنُ مِنَ الْمَصَالِحِ
الْإِسْلَامِيَّةِ وَظَهَرَ، وَتُنَشِّدُهُ أَلْسِنَةُ السَّلَامَةِ مَا أُمِّلَى عَلَيْهَا الْعِزُّ وَالتَّائِيدُ وَالظُّفَرُ :

مَلِكُ الْبَيْسِطَةِ أَبَ مِنْ سَفَرِهِ * وَالنَّصْرُ وَالتَّائِيدُ فِي أَثَرِهِ،
فَكَأَنَّهُ فِي عِزِّ مَوَازِيهِهِ * بَدْرٌ تَأَلَّقَ فِي سَنَا حَقَرِهِ .
مَا فِي السَّبَرِيَّةِ مِثْلُهُ مَلِكٌ * أَوْقَى الَّذِي أُوتِيَهِ مِنْ ظَفَرِهِ !
يَسْرَى إِلَى أَعْدَائِهِ رَهَبٌ * مِمَّا يَبْثُ النَّاسُ مِنْ خَبَرِهِ .
فَاللَّهُ رَبُّ النَّاسِ فَاطِرُنَا * يُؤْتِيهِ مَا يُرِي عَلَى وَطَرِهِ ! !

الصنف الثاني

(مِنَ الرِّسَالِ مَا يَرِدُ مِنْهَا مَوْرِدُ الْمَدْحِ وَالتَّقْرِيصِ)

إِمَّا بَأَن يَجْعَلَ الْمَدْحَ مَوْرِدَ الرِّسَالَةِ وَيُصَدَّرُ بِمَدْحِ ذَلِكَ الشَّخْصِ الْمُرَادِ، وَإِمَّا بَأَن
يُصَدَّرَ بِمَاجَرِيَّةٍ يَحْكِيهَا الْمُنْشِئُ وَيَتَخَلَّصُ مِنْهَا إِلَى مَدْحٍ مِنْ يَقْصِدُ مَدْحَهُ وَتَقْرِيصَهُ

وما يَجْرَى مجرى ذلك . وللكَّابِ وأهل الصَّنَاعَةِ في ذلك أَقَانِينُ مُخْتَلِفَةٌ الْمُقَاصِدُ ،
وَطُرُقٌ مُتَبَايِنَةٌ الْمَوَارِدُ .

وهذه نُسخَةُ رسالة أنشأها أبو عمرو عثمانُ بنِ بَحرٍ الجاحِظُ سَمَّاها "رسالة الشُّكر" ،
قَصَدَ بها تَقْرِيرَ وَزِيرِ الْمُتَوَكَّلِ وشُكْرَ نِعْمِهِ لَدَيْهِ ، مُصَدِّراً لها بِذِكْرِ حَقِيقَةِ الشُّكْرِ
وبيانِ مَقَاصِدِهِ ، وهى :

جُعِلَتْ فِدَاكَ ، أَيُّدُكَ اللهُ وَأَكْرَمُكَ وَأَعَزُّكَ ، وَأَتَمُّ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَعِنْدَكَ . ليس
يَكُونُ الشُّكْرُ - أَبْقَاكَ اللهُ - تَأَمُّناً ، وَمِنْ حَدِّ النُّقْصَانِ خَارِجاً ، حَتَّى يَسْتَصِحِبَ أَرْبَعَ
خِلَالَ ، وَيَشْتَمِلَ عَلَى أَرْبَعِ خِصَالٍ :

أولها : العِلْمُ بِمَوْقِعِ النِّعْمَةِ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ ، وَبِقَدْرِ انْتِفَاعِهِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ
ذَلِكَ : مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ ، أَوْ مَبْلَغٍ لَذَّةٍ وَطُوبَى فِي دَرَجَةٍ ، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِمَقْدَارِ أَحْتِمَالِ الْمُنْعَمِ
لِلشَّقَّةِ ، وَالَّذِى حَاوَلَ مِنَ الْمَعَانَاةِ وَالْكُلْفَةِ فِي بَذْلِ جَاهٍ مَصُونٍ ، أَوْ مُفَارَقَةِ عَلْقٍ
ثَمِينٍ . وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ ؟ وَقَدْ خَوَّلَ مِنْ نِعَمِهِ بَعْضَ مَا كَانَ حَبِيسًا عَلَى
حَوَادِثِ عِدَّةٍ ، فَزَادَ فِي نِعَمٍ غَيْرِهِ بِمَا انْتَقَصَ مِنْ نِعَمٍ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ . فَكَلَّمَا تَذَكَّرَ الشَّاكِرُ
مَا أَحْتَمَلَ مِنْ مَثُونَةِ الْبَذْلِ ، سَهَّلَ عَلَيْهِ أَحْتِمَالُ مَا نَهَضَ بِهِ مِنْ ثِقَلِ الشُّكْرِ .

وَالْخِصْلَةُ الثَّانِيَّةُ : الْحُرِّيَّةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى حُبِّ الْمَكَافَاةِ وَاسْتِحْسَانِ الْمَجَازَةِ . وَالشُّكْرُ
مِنْ أَكْبَرِ أَبْوَابِ الْأَمَانَةِ ، وَأَبْعَدِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْخِيَانَةِ . وَلَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ غَايَةَ
الْمَجْدِ إِلَّا بِمَعُونَةِ الطَّمَعِ ، وَإِلَّا الْحَرْبُ سَيَّجَالٌ بَيْنَهُمَا ، وَالظُّفْرُ مَسُومٌ عَلَيْهِمَا . كَذَلِكَ
حُكْمُ الْأَشْيَاءِ إِذَا تَسَاوَتْ فِي الْقُوَّةِ ، وَتَقَارَبَتْ فِي الْبُلُوغِ الْمُدَّةِ . وَقَدْ زَعَمَ نَاسٌ أَنَّ الشَّاكِرَ
وَالْمُنْعَمَ لَا يَسْتَوِيَانِ ، كَمَا أَنَّ الْبَادِيَّ بِالظُّلْمِ وَالْمُسْتَصِرَّ لَا يَعْتَدِلَانِ ؛ لِأَنَّ الْبَادِيَّ أَخَذَ
مَا لَيْسَ لَهُ ، وَالْمُسْتَصِرَّ لَمْ يَتَجَاوَزْ حَقَّهُ الَّذِى هُوَ لَهُ ؛ وَلِأَنَّ الْبَادِيَّ لَمْ يَكُنْ مُهَيِّجًا عَلَى

الظلم بعلّة جناها المُتَصَرِّ، والمُتَصَرِّ مُهَيِّجٌ عَلَى الْمُكَافَأَةِ بِعِلَّةٍ جَناها الْبَادِي، والمُتَوَرِّ
لِلطَّبَاعِ الْمُغْضَبِ، والمُسْتَحْفُفُ الْمُهَيِّجُ أَعْدَرُ مِنَ السَّاكِنِ الْوَادِعِ الْمُطْمَئِنِّ .
فلذلك قالوا : إن الْبَادِيَّ أَظْلَمُ، والمُتَصَرِّ أَعْدَرُ . وزعموا أن المُنْعِمَ هو الذي أودَعَ
صَدَرَ الشَّاكِرِ الْمَحَبَّةَ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ، وَهَيَّجَهُ بِذَلِكَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ لِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، فَقَدْ صَارَ
المُنْعِمُ شَرِيكَ الشَّاكِرِ فِي إِحْسَانِهِ، وَتَفَرَّدَ بِفَضْلِ إِنْْعَامِهِ دُونَ مُشَارَكَةِ غَيْرِهِ، وَالمُنْعِمُ
هو الذي دَفَعَ لِلشَّاكِرِ أَدَاةَ الشُّكْرِ، وَأَعَارَهُ آلَةَ الْوَفَاءِ، فَهُوَ مِنْ هُنَا أَحَقُّ بِالتَّقْدِيمِ،
وَأَوْلَى بِالتَّفْضِيلِ .

هذا، وقد قال بعضُ الحكماء والأدباء والعلماء : من تَمَّامِ كَرَمِ المُنْعِمِ التَّغَاوُلُ عَنْ
مُجْتَنِّهِ، والإِقْرَارُ بِالْفَضِيلَةِ لِشَّاكِرِ نِعْمَتِهِ ؛ لِأَنَ الْحَاجَةَ مُغَالِبَهُ، وَلَا يَتِمُّ مَوَدَّةٌ إِلَّا مَعَ
المُسَامَحَةِ . ولذلك قال الرَّبِيعِيُّ لِنَاسٍ مِنَ الْعَرَبِ يَحْتَضِمُونَ : هَلْ لَكُمْ فِي الْحَقِّ أَوْ خَيْرٍ
مِنْهُ ؟ قالوا : قد عَرَفْنَا الْحَقَّ، فما الذي هو خَيْرٌ مِنْهُ ؟ قال : التَّغَاوُلُ فَإِنَّ الْحَقَّ
مُرٌّ . أَلَا تَرَى إِلَى بِنْتِ هَرِمِ بْنِ سِنَانٍ لَمَّا قَالَتْ لِابْنَةِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ فِي بَعْضِ
الْمَنَاحَاتِ، أَوْ فِي بَعْضِ الْمَزَاوِرَاتِ : إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي مَا أَرَى مِنْ حُسْنِ شَارَتِكُمْ، وَنَقَاءِ
نَفْسِكُمْ . قَالَتْ ابْنَةُ زُهَيْرٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتِ مَا قُلْتِ، فَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ فُضُولِ مَاوَهَبْتُمْ،
وَمِنْ بَقَايَا مَا أَنْعَمْتُ . قَالَتْ بِنْتُ هَرِمٍ : لَا بَلْ لَكُمْ الْفَضْلُ، وَعَلَيْنَا الشُّكْرُ، أَعْطَيْنَاكُمْ
مَا يَفْنَى، وَأَعْطَيْتُمُونَا مَا يَبْقَى . وَقِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ حِينَ أَجَزَلَ لِنُصِيبِ الشَّاعِرِ
فِي الْهَيْبَةِ، وَكَثَّرْلَهُ فِي الْعَطِيَّةِ : أَتُنِيلُ هَذَا الْعَبْدَ الْأَسْوَدَ كُلَّ هَذَا النَّيْلِ، وَتَحْبُوهُ
بِمِثْلِ هَذَا الْحَبَاءِ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ أَسْوَدَ الْحُلْدِ إِنَّهُ
لَأَبْيَضُ الشَّعْرِ، أَعْطَيْنَاهُ دَرَاهِمَ تَفْنَى، وَثِيَابًا تَبْلَى، وَرَوَاحِلَ تُنْضَى، وَأَعْطَانَا
شَاءَ يَبْقَى، وَحَدِيثًا يَنْتَى، وَمَكَارِمَ لَا تَبْلَى . فَلِهَذَا الْخِصَالِ تَكَامَلَتْ خِصَالُ الْمَجْدِ
فِيهِمْ، فَظَهَرَ عُنْوَانُ كَرَمِ الْخَيْرِ عَلَيْهِمْ، فَصَارُوا فِي زَمَانِهِمْ مَنَارًا، وَلَمِنْ بَعْدِهِمْ

أَعْلَامًا . وليس تَمَّ مَعَانِي كَرَمِ الْمُنْعِمِ ، وَمَعَانِي وَفَاءِ الشَّاكِرِ ، حَتَّى نَتَوَافَى أَقْوَالُهُمَا ، وَنَتَفَقَّ أَهْوَاؤُهُمَا عَلَى تَدَافُعِ الْحُجَّةِ ، وَالْإِقْرَارِ بِالْمُعْجِزَةِ ، فَيَزِدَادُ بِذَلِكَ الْمُنْعِمُ فَضْلًا ، وَالشَّاكِرُ نُبْلًا .

هَذَا جُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي خَصْلَتَيْنِ مِنَ الْأَرْبَعِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا ، وَشَهَرْنَا أَمْرَهَا .

وَالْخَصْلَةُ الثَّالِثَةُ : الدِّينَانَةُ بِالشُّكْرِ ، وَالْإِخْلَاصُ لِلْمُنْعِمِ فِي تَصْفِيَةِ الْوُدِّ ، فَإِنَّ الدِّينَ قَائِدُ الْمَرْوَةِ ، كَمَا أَنَّ الْمَرْوَةَ خِطَامُ الْحِمَّةِ . وَهَذِهِ الْخِصَالُ وَإِنْ تَسَعَّبَتْ فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ ، وَافْتَرَقَتْ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِينِ ، فَإِنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى نِصَابٍ يَجْمَعُهَا ، وَإِلَى إِنَاءٍ يَحْفَظُهَا ، مِنْهُ نَجَتْ ، وَعَنْهُ آتَبَتْ ، وَإِلَيْهِ رَجَعَتْ . وَلَا جَمَاعَ هَذِهِ الْخِصَالِ عَلَى مُخَالَفَةِ الْهَوَى ، وَجُبَانَةِ الْهَوَيْنِ ، وَعَلَى آتِهَامِ دَوَاعِي الشَّهْوَةِ ، وَالْإِمْتِنَاعِ مِنْ كَلَبِ الطَّبِيعَةِ - وَفَقَّ الْأَقُولُونَ بَيْنَهَا فِي جُمْلَةِ الْأَسْمِ ، وَقَارَنُوا بَيْنَهَا فِي جَمْعَةِ الْحُكْمِ . وَلِذَلِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَعْتَبِرْ عَزْمَهُ بِجَمِيعَتِهِ ، وَحَزْمَهُ بِمَتَاعِ بَيْتِهِ .

وَمَدَارُ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ الْمَحْمُودَةِ عَلَى الصَّبْرِ ، وَلَنْ يَتَكَلَّفَ مَرَارَةَ الصَّبْرِ مَنْ يَجْهَلُ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ . وَقَالُوا : لَمَّا صَارَ ثِقُلُ الشُّكْرِ لَا يُحْتَمَلُ إِلَّا بِالصَّبْرِ ، صَارَ الشُّكْرُ مِنْ نِتَاجِ الصَّبْرِ . وَكَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْحِلْمِ - مَعَ كَرَمِ الْحِلْمِ - مِنَ الصَّبْرِ ، فَكَذَلِكَ لَا بُدَّ لِلشُّكْرِ - مَعَ كَرَمِ الشُّكْرِ - مِنَ الصَّبْرِ . فَالْصَّبْرُ يَجْرَى مَعَ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْمَحْمُودَةِ ، كَمَا يَجْرَى الْهَوَى مَعَ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّارَ وَحَقَّقَهَا بِالشَّهَوَاتِ ، وَخَلَقَ الْجَنَّةَ وَحَقَّقَهَا بِالْمَكَارِهِ » .

وَالْخَصْلَةُ الرَّابِعَةُ : وَصَفُ ذَلِكَ الْإِحْسَانِ بِاللِّسَانِ الْبَيِّنِ ، وَتَحْيِيهِ بِالْبَيَانِ النَّيِّرِ ، وَبِالْلَفْظِ الْعَذْبِ الشَّرِيفِ ، وَالْمَعْنَى الشَّرِيفِ الْبَهِيِّ . فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ حَسَنًا ، جَعَلَتْهُ الْحِكْمَاءُ أَدَبًا ، وَوَجَدَتْ الرُّوَاةُ إِلَى تَنْشِيرِهِ سَبِيلًا ، حَتَّى يَصِيرَ حَدِيثًا مَأْثُورًا ، وَمَجْدًا

مَذْكُورًا؛ وِدَاخِلًا فِي أَسْمَارِ الْمُلُوكِ، وَسُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُتَادِينَ، وَوَصْلَةً إِلَى الْجَالِسِ،
وَزِيَادَةً فِي الْعَقْلِ، وَتَحْذًا لِلْسَّانِ، وَتَرْهِيْفًا لِلْقَلْبِ، وَتَطْيِيفًا لِلْفِكْرِ، وَعِمَارَةً لِلصَّدْرِ،
وَسُلْمًا إِلَى الْعُظْمَاءِ، وَسَبَبًا إِلَى الْحِلَّةِ الْكُبْرَى . وَإِذَا لَمْ يَكُنِ اللَّفْظُ رَائِعًا، وَالْمَعْنَى
بَارِعًا؛ وَبِالنُّوَادِرِ مُوَسَّحًا، وَبِالْمُلُحِّجِ مَجْلُوبًا؛ لَمْ تَصْغُ لَهُ الْأَسْمَاعُ، وَلَمْ تَنْشَرْحْ لَهُ الصُّدُورُ،
وَلَمْ تَحْفَظْهُ النُّفُوسُ، وَلَمْ تَتَطَّقْ بِهِ الْأَفْوَاهُ، وَلَمْ يُجَلِّدْ فِي الْكُتُبِ، وَلَمْ يَقَيِّدْ بِالدَّرْسِ،
وَلَمْ يَجِدَلْ بِهِ قَائِلٌ، وَلَمْ يَلْتَدِّ بِهِ سَامِعٌ . وَمَتَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامًا كَكَلَامِ اللَّغْوِ،
وَمَعَانِي السَّمْوِ؛ وَكَأَلْجَرِ الذِّى لَا يَفْهَمُ، وَالْمُسْتَعْلَقِ الذِّى لَا يَعْلَمُ .

وليس - أبقاك الله - ذِيٌّ أَحْوَجَ إِلَى الْحِذْقِ، وَلَا أَفْقَرُ إِلَى الرَّفْقِ؛ مِنْ الشُّكْرِ
النَّافِعِ، وَالْمَدِيحِ النَّاجِعِ؛ الذِّى يَبْقَى بَقَاءَ الْوَسْمِ، وَيُلُوحُ كَمَا يُلُوحُ النِّجْمُ . كَمَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ
أَحْوَجُ إِلَى وَسْعِ الطَّاقَةِ، وَإِلَى الْفَضْلِ فِي الْقُوَّةِ، وَإِلَى الْبَسْطَةِ فِي الْعِلْمِ، وَإِلَى تِمَامِ
الْعَزْمِ - مِنَ الصَّبْرِ . وَعَلَى أَنَّ الشُّكْرَ فِي طَبَقَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَمَنَازِلٍ مُتَبَايِنَةٍ؛ وَإِنْ جَمَعَهَا
أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْمَعُهَا حُكْمٌ، فَرُبَّمَا كَانَ كَلَامًا تَحِيْشُ بِهِ الصُّدُورُ، وَتَمُجِّهِ الْأَفْوَاهُ،
وَتَجِدِفُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ الْمُقْتَضِبُ، وَالْخَاطِرُ الْمُخْتَارُ، وَالْكَلَامُ
الْمُرْتَجَلُ، فَيُرْمَى بِهِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَتُبْنَى مَصَادِرُهُ عَلَى غَيْرِ مَوَارِدِهِ، لَا يَتَعَدَّرُ فِيهِ
الشَّاكِرُونَ لَانْتِفَاعِ الْمُنْعِمِينَ، كَمَا تَعَدَّرُ الْمُنْعِمُونَ لَانْتِفَاعِ الشَّاكِرِينَ . وَلَيْسَتْ غَايَةُ
الْقَائِلِ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ بَلِيغًا مُفَوِّهاً، أَوْ يَسْتَرِيدَ بِهِ إِلَى نِعْمَةِ السَّالِفَةِ نِعْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ
إِلَّا لِيَعْتَزَّزَ كَرِيماً، أَوْ يَخْتَدِعَ غَيِّبًا لَا يَتَفَقَّدُ سَاعَاتِ الْقَوْلِ، وَلَا يَتَعَرَّفُ أَقْدَارَ الْمُسْتَمِيعِينَ؟
وَلَيْسَ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَسْبُ وَالتَّعَرُّضُ وَالْإِنْتِفَاعُ وَالتَّرْتُّبُ؛ وَعَلَى هَذَا يَدُورُ شُكْرُ الْمُسْتَأْكِلِينَ،
وَإِحَادُ الْمُتَكَسِّبِينَ .

وهذا البابُ وَإِنْ جَعَلْتَهُ الْعَوَامُّ شُكْرًا، فَهُوَ بَغَيْرِ الشُّكْرِ أَشْبَهَ، وَبِذَلِكَ أُولَى،
وَرُبَّمَا كَانَ شُكْرُهُ عَنْ تَأَنُّقٍ وَتَذَكُّيرٍ، وَعَنْ تَحْيِيرٍ وَتَحْيِيرٍ، وَعَنْ تَفَقُّدٍ لِلْحَالَاتِ،

وَتَحْصِيلُ الْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُهْجَتِهِ ، وَبَحْضَةُ عَدُوِّ لَا يَزَالُ مُتَرَصِّدًا
لِنِعْمَتِهِ ، فَرُبَّمَا آتَمَسَ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا آتَمَسَ شِفَاءَ دَائِهِ وَإِصْلَاحَ
قَلْبِهِ ، وَنَقَضَ الْمُبْرَمَ مِنْ مَعَاقِدِ حَقْدِهِ ، عَلَى قَدَرِ الرَّدِّ ، وَعَلَى قَدَرِ تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ
فِي الْمَصْلُحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالرَّائِدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَرَعِيمِ رَهْطِهِ ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ،
فَرُبَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شَعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا
مَنْشُورًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَنبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْيُسْرَ وَأَتَمَّلَ الثَّرْوَةَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ
عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةَ النَّفَقَةِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمَدْحِينَ ، وَأَنْبَلُ
الشُّكْرِينَ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَسَابِقَهُ إِلَى هَذَا التَّذْيِيرِ قَوْلُ نُصَيْبٍ :

فَعَاجُوا فَأَشَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ بِهِ - قَوْلُ الْعَزْرِيِّ :

يَابْنَ الْعَلَاءِ وَيَابْنَ الْقِرْمِ مُرْدَاسِ : * إِنِّي لِأُطْرِكَ فِي أَهْلِي وَجُلَاسِي .
حَتَّى إِذَا قِيلَ : مَا أَعْطَاكَ مِنْ صَفْدٍ ؟ * طَاطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَهَا رَاسِي !
أُنْتِي عَلَيَّكَ وَلِي حَالٍ تُكْذِّبُنِي * بِمَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ !

وَبَيْنَ هَذَيْنِ الشُّكْرَيْنِ طَبَقَاتٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمَنَازِلُ مَعْلُومَةٌ . وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ مِنْ
قَلْبِ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالْأَسْتِنَامَةِ ، عَلَى قَدَرِ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالَّذِي يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ
مِنْ صِدْقِ اللَّهْجَةِ ، وَمِنْ قِلَّةِ السَّرَفِ ، وَاعْتِدَالِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْاِقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ .
وَهَذَا بَابٌ سِوَى الْبَابِ الْآخَرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرَّصْفِ . وَلِذَلِكَ لَمَّا
أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْأَعْتِبَارِ وَفِي تَرْقِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرِ
أَحَدًا يَحْشَعُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بِكُمْ شَرٌّ .

وَقِيلَ لِحُمَاسِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ
دُمُوعِكُمْ عِنْدَ الْفَضْلِ أَغْزَرَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنْزَرَ ، وَلَلَامُ عَبْدَ الصَّمَدِ أَغْزَرَ ،

وَكَلَامُ الْفَضْلِ أَزَرَّ؟ قَالُوا : لِأَن قَلْبَ الْفَضْلِ أَرَقَّ ، فَصَارَتْ قُلُوبُنَا أَرَقَّ ،
وَالْقُلُوبُ تَجَارَى .

وقالوا : طُوبَى لِّلْمُدَّوحِ إِذَا كَانَ لِّلْدُحِ مُسْتَحَقًّا ، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلتَّسْبِيحَةِ
أَهْلًا ، وَلِلْمُنْعِمِ إِذَا حَظِيَ بِالشُّكْرِ ، وَلِلشَّاكِرِ إِذَا حَظِيَ بِالقَبُولِ .

إِنِّي لَسْتُ أَهْتَشِمُ مِنْ مَدْحِكَ ، لِأَنِّي لَسْتُ أَتَزِيدُ فِي وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أُمْدَحُكَ
مِنْ جِهَةٍ مَعْرُوفِكَ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي
هُوَ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَفْضَلُ الصَّنَفِ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّقْضِيلِ . وَفِي الْخَبَرِ
الْمُسْتَفِيزِ ، وَالْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ : « مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَالْهَيَّ . وَقَلِيلٌ بَاقٍ
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنْ » .

تَذَكَّرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ طَبَقَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْفَضْلِ ، وَتَنَزَّلَ حَالَاتِهِمْ
فِي الْبَرِّ ، وَمَنْ كَانَتْ الْخَصْلَةُ الْمَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ
ذَلِكَ الْحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَسْبِقَ رَجُلٌ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ
إِلَى تَقْدِيمِهِ نَاسٌ وَأَبْطَأَ آخَرُونَ ، وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَقُوقَ الرَّجُلُ أَتْرَابَهُ فِي الزُّهْدِ ،
وَأَكْفَاءَهُ فِي الْفِقْهِ ، وَأَمْثَالَهُ فِي الذَّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَابُ فِي كُلِّ
الْبُلْدَانِ . وَلَكِنَّ الْعَجَبَ الْعَجِيبَ ، وَالنَّادِرَ الْغَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي عُمَرَيْنِ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَتَّسَقَ لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَبَرَ عَشْرَ حَجَجٍ : يَفْتَحُ الْفُتُوحَ ، وَيُدْخُلُ الْبِلَادَ ،
وَيُعَصِّرُ الْأَمْصَارَ ، وَيُدْوِنُ الدَّوَاوِينَ ، وَيَفْرِضُ الْقُرُوضَ ، وَيُرَتِّبُ الْخَلَاصَةَ ، وَيُدَبِّرُ
الْعَامَةَ ، وَيُنْجِي النَّفْسَ ، وَتَرْمِي إِلَيْهِ الْأَرْضُ بِأَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُخْرُفِهَا ، وَأَصْنَافِ
كُنُوزِهَا ، وَمَكْنُونِ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مُلُوكَهَا ، وَيَلِي مَمَالِكَهَا ، وَيَحُلُّ وَيَعْقِدُ ،
وَيُؤَلِّ وَيُعْزِلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَغَتْ خَيْلُهُ إِفْرِيقِيَّةً ، وَدَخَلَتْ خُرَاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ
بِالتَّذْكِيرِ الصَّحِيحِ وَالضَّبْطِ ، وَالْإِتْقَانِ وَالْقُوَّةِ ، وَالْإِشْرَافِ ، وَالْبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالْعَزَمِ

الْمُتَمَكِّن . ثم قال : لا يَجْمَع مَصْلَحَةُ الْأُمَّة ، ولا يُحَوِّشُهُمْ عَلَى حَظِّهِمْ مِنَ الْأُلْفَةِ
وَأَجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ ، وإِقَامَتِهِمْ عَلَى الْحُجَّةِ ، مع ضَبْطِ الْأَطْرَافِ ، وَأَمْنِ الْبَيْضَةِ - إِلَّا لَيْنٌ
فِي غَيْرِ ضَعِيفٍ ، وَشِدَّةٌ فِي غَيْرِ عُنْفٍ . ثم غر بعد ذلك سِيْنَهُ كُلُّهَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ،
وَطَرِيقَةٍ مُطْرَدَةٍ ؛ لَا يَتَحَرَّفُ عَنْهَا ، وَلَا يُغَيِّرُهَا ، وَلَا يَسَامُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهَا :
من خُسُونَةِ الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ ، وَغِلَظِ الْمَرْكَبِ ، وَظَلْفِ النَّفْسِ عَنْ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ،
وَدَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا ، وَكُلِّ مَا يُنَازِحُ النَّاسَ عَلَيْهِ ، لم يَتَغَيَّرْ فِي لِقَاءٍ وَلَا فِي حِجَابٍ ،
وَلَا فِي مُعَامَلَةٍ وَلَا فِي مُجَالَسَةٍ ، وَلَا فِي جَمْعٍ وَلَا فِي مَنَعٍ ، وَلَا قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ :
وَالدُّنْيَا تَتَصَبَّبُ عَلَيْهِ صَبًّا ، وَتَدْفُقُ عَلَيْهِ تَدْفُقًا ، وَالْخِصَالَةُ مِنْ خِصَالِهِ ، وَالْخَلَّةُ مِنْ
خِلَالِهِ ؛ تَدْعُو إِلَى الرَّغْبَةِ ، وَتَقْتَحُ بَابَ الْأُلْفَةِ ، وَتَقْضُ الْمُبْرَمَ ، وَتُقَيِّدُ الْمُرُوءَةَ
وَتُنْفِصُ الْمُنَّةَ ، وَتَحُلُّ الْعُقْدَةَ ، وَتُورِثُ الْإِعْتِرَارَ بِطَوْلِ السَّلَامَةِ ، وَالْإِتِّكَالَ عَلَى دَوَامِ
الظَّفَرِ ، وَمُؤَانَاةِ الْأَيَّامِ ، وَمُتَابَعَةِ الزَّمَانِ . وَكَانَ ثَبَاتُهُ عَشْرَ حُجَجٍ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ
أَعْجُوبَةٍ ، وَمِنَ الْبَدَائِعِ الْغَرِيبَةِ . وَبَاقِلٌ مِنْ هَذَا يَظْهَرُ الْعَجَبُ ، وَيُسْتَعْمَلُ الْكِبَرُ ،
وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ ، وَيَقِلُّ التَّوَاضُّعُ .

وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا لَا نَسْتَحِيزُ أَنْ نُلْحِقَ أَحَدًا بِطِبَاعِ عُمَرُ وَمَذْهَبِهِ ، وَفَضْلِ قُوَّتِهِ ،
وَتَمَامِ عَزَمِهِ ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ بَدَأًا مِنْ مَعْرِفَةِ فَضْلِ كُلِّ مَنْ اسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ ، وَدَامَتْ
خَلِيقَتُهُ ، فلم يَتَغَيَّرْ عِنْدَ تَتَابُعِ النِّعَمِ ، وَتَظَاهُرِ الصَّنْعِ ، وَإِنْ كَانَتْ النِّعَمُ مُخْتَلِفَةً
الْأَجْنَاسَ ، وَمُتَفَاوِتَةً فِي الطَّبَقَاتِ . وَكَيْفَ يُلْحَقُ بِهِ أَحَدٌ ؟ مع قوله : ”لَوْ أَنَّ
الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ بَعِيرَانِ مَا بَالَيْتُ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ“ وَلَكِنَّا عَلَى حَالٍ لَا نَدْعُ تَعْظِيمَ كُلِّ مَنْ
بَانَ مِنْ نُظْرَائِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ ، وَأَشْبَاهِهِ فِي الْمَنْزِلَةِ ، إِذْ كَانَ أَدْوَمُهُمْ طَرِيقَهُ ، وَأَشَدَّهُمْ
مَسِيرَهُ ، وَأَمْضَاهُمْ عَلَى الْجَادَةِ الْوُسْطَى ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْحُجَّةِ الْعُظْمَى .

ولا بد من أن يُعطى كل رئيس قسطه ، وكل زمان حظه ؛ ولا يُعجبنى قول القائل : لم يدع الأول للآخر شيئاً ، بل لعمري لقد ترك له العريض الطويل ، والثمين الخطير ، واللقم النج ، والمنهج الرحب . ولو أن الناس مذبح هذه الكلمة على أفواه العوام ، وأعجب بها الأغمار من الرجال - قلدوا هذا الحكم ، وأسئلوا لهذا المذهب ، وأهملوا الروية ، ويتسوا من الفائدة ، لقد كان آرتفع من الدنيا نفع كثير ، وعلم غزير .

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالفضل ، وأولى بالتقديم ، من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية ، والدولة العباسية ، ثم زمان المتوكل على الله ، والناصر لدين الله ، والإمام الذى جل فكره ، وكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه ، وتلخيصه وتنقيحه ، وإعزازه وتأيسده ، واجتماع كلمته ، ورجوع ألقته . وقد سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر ، والخبر المتظاهر - : مارأيت فى زماننا من كفاة السلطان وولاته ، وأعوانه وحماته ، من كان يؤمل لمحك ، ويتقدم فى التأهب له ، إلا وقد كان معه من البذخ والنفع ، ومن الصاف والعجب ، ومن الخيلاء ، ومن إفراط التغير للأولياء ، والتمسك على الخطاء ، ومن سوء اللقاء ، مالا خفاء به على كاتب ولا على عامل ، ولا على خطيب ولا على أديب ؛ ولا على خاصى ولا على عامى .

اجمعت - والحمد لله على النعمة فىك - بين التواضع والتجرب ، وبين الإنصاف وقلة التريث ؛ فلا يستطيع عدو معان ، ولا كاشع مسر ، ولا جاهل غنى ، ولا عالم مبرز ، يزعم أنه رأى فى سمائك وأعطافك - عند تتابع النعم ، وتظاهر المنن - تغيراً فى لقاء ولا فى بشر عند المسألة ، ولا فى إنصاف عند المعاملة ، وأحتمل عند المطاولة . الأمر واحد ، والخلق دائم ، والبشر ظاهر ، والمجج ناقيه ، والأعمال

زَاجِيهِ ، وَالنَّفُوسَ رَاضِيَهُ ، وَالْعُيُونَ نَاطِقَةً بِمَحَبَّتِهِ ، وَالصُّدُورَ مَأْهُولَةً بِمَوَدَّتِهِ ،
وَالذَّاعِيَ كَثِيرَ ، وَالشَّاكِيَ قَلِيلَ ، وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَاضُّعِ نُبْلًا ،
وَبِالْإِنْصَافِ قُضْلًا ، وَبِحَسَنِ اللَّقَاءِ مَحَبَّةً ، وَبِقِلَّةِ الْعُجْبِ هَيْبَةً .

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هُرُونٍ فِي دُعَائِهِ لِبَعْضِ مَنْ كَانَتْ يَعْنِي بِشَأْنِهِ : اللَّهُمَّ زِدْهُ مِنْ
الْخَيْرَاتِ ، وَابْسُطْ لَهُ فِي الْبَرَكَاتِ ، حَتَّى يَكُونَ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُوفِيًّا عَلَى أَمْسِهِ ،
مُقْصِرًا عَنْ فَضِيلَةِ غَدِهِ . وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى 'أَعَشَى' هَمْدَانٌ ، وَهُوَ مِنَ الْمُخَضَّرَمِينَ :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسَ ،

وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا * كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبَادِ شَمْسٍ !

قَدْ وَاللَّهِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَسْبَغَ ، فَاشْكُرِ اللَّهَ وَأَخْلِصْ ، مُحَمَّدُكَ شَرِيفٌ ، وَأَرْوَمُكَ
كَرِيمٌ ، وَالْعِرْقُ مُنْجِبٌ ، وَالْعَدَدُ دَثْرٌ ، وَالْأَمْرُ جَمِيلٌ ، وَالْوُجُوهُ حَسَنَانٌ ، وَالْعُقُولُ
رِزَانٌ ، وَالْعَفَافُ ظَاهِرٌ ، وَالذِّكْرُ طَيِّبٌ ، وَالنِّعْمَةُ قَدِيمَةٌ ، وَالصَّنِيعَةُ جَسِيمَةٌ ،
وَمَا مِثْلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الْمَهَالِبَةَ الْكَرَامَ تَحْمَلُوا * دَفَعَ الْمَكَارَهَ عَنْ ذَوِي الْمَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ * وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وُجُوهِ !

النِّعْمَةُ مَحْفُوظَةٌ بِالشُّكْرِ ، وَالْأَخْلَاقُ مُقَوِّمَةٌ بِالْأَدَبِ ، وَالْكَفَاءَةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْحَذَقِ ،
وَالْحَذَقُ مَرْدُودٌ إِلَى التَّوَكُّلِ ، وَالصَّنْعُ مِنْ وَرَاءِ الْجَمِيعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

هَذَا إِلَى مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْقَبُولِ ، وَغَشَّاءُكَ مِنَ الْمَحَبَّةِ ، وَطَوَّقَكَ مِنَ الصَّبْرِ .
فَبَقِيَ الْآنَ أَنْ تَنْتَهِيَ مَا أَنْتَ فِيهِ شَهْوَةٌ فِي وَزْنِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، وَفِي مَقْدَارِ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ،
فَإِنَّ الرِّغْبَةَ وَإِنْ قَوِيَتْ ، وَالرَّهْبَةَ وَإِنْ أَشْتَدَّتْ ، فَإِنَّهُمَا لَا يَثْرَانِ مِنَ النِّشَاطِ ،

وَيَتَبَجَّانِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالْكَدِّ ، مَا تُثْمِرُهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ
مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكُونِهَا كُلَّهُ ، وَتَجُودُ بِغَزْوِنِ
قُوَاهَا أَجْمَعٍ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ عِلَّةٍ مُحَرَّكَةٍ ، وَكُلِّ سَبَبٍ مُهَيِّجٍ .

قال يحيى بن خالدٍ لجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة ، وَتَكَافَأَ التَّهَوُّضَ بِأَعْبَاءِ
الْخِلَافَةِ : أَيُّ بَنَى ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجْزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَحْمَلْتُ .
إِنِّي لَسْتُ أَمِنُ أَنْ تَتَفَسَّخَ تَحْتَ ثِقَلِهَا تَفَسُّخَ الْجَمَلِ تَحْتَ الْجَمَلِ الثَّقِيلِ .
قال جعفر : لِكِنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِلَّ بِهَذَا الثَّقَلِ وَأَنَا مُبْتَهِلٌ غَيْرِ
مُبْهُورٍ ، وَأَجِئُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عِنَانِي ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ
فَرَسِي رَكْضًا . قال يحيى : إِنْ لَكُلِّ رَجَاءٍ سَبَابٌ ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال :
شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُشْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ الْكَدِّ مَا يَجِدُهُ الْعَسِيفُ الْأَسِيفُ .
قال يحيى : إِنْ تَهَضَّتْ بِثِقَلِهَا فِيهِذَا ، وَإِلَّا فَلَا . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ
إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْتِفَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُضْلِحِّينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ الْمُتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ وَابْتِسَادَائِهِ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْتِيَارِهِ ؛
أَنْ يُخْرِجَ عَلَى أَدَبِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَعَلَى تَثْقِيفِهِ وَتَقْوِيمِهِ ؛ وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ،
وَيُنْجِزَ فِيهِ الظَّلْمَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُزِيلَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ ؛ وَيُطَيِّبَ ذِكْرَهُ ،
وَيُعْلِي كَعْبَهُ ؛ وَيُسِّرَ صَدِيقَهُ ، وَيَكْتُمَ عَدُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريضية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن
سليمان المعري التنوخي إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وهي :

(١) [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ الْإِعَانَةُ] .

السلام عليك أَيُّهَا الْحِكْمَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ ، وَالْأَلْفَاظُ الْعَرَبِيَّةُ ؛ أَيُّ هَوَاءٍ رَقَاكَ ، وَأَيُّ غَيْثٍ سَقَاكَ ؛ بَرَقَهُ كَالْإِحْرِيضِ ، وَوَدَّقَهُ مِثْلُ الْإِغْرِيزِ ؛ حَلَلْتَ الرَّبُّوهُ ، وَجَلَلْتَ عَنْ الْهَبُّوهِ ؛ أَقُولُ لَكَ مَا قَالَ أَخُو مُمَيَّرٍ ، لِفَتَاةٍ بَنَى عُمَيْرٌ :

زَكَا لَكَ صَالِحٌ وَخَلَاكَ ذَمٌّ * وَصَبَّحَكَ الْإِيَامُنُ وَالسُّعُودُ !

لَأَنَا آسَفُ عَلَى قُرْبِكَ مِنَ الْغُرَابِ الْحِجَازِيِّ ، عَلَى حُسْنِ الزَّيِّ ؛ لَمَّا أَفْقَرَ ، وَرَكِبَ السَّفَرَ ؛ فَقَدِمَ جِبَالِ الرُّومِ فِي تَوٍّ ، أَنْزَلَ الْبِرْسَ^(٢) مِنَ الْجَوِّ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَى عِطْفِهِ وَقَدْ شَمِطَ فَأَيْسَى ، وَتَرَكَ النَّعِيبَ أَوْ نَسِيَ ؛ وَهَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ فَمَشَى فِي قَيْدٍ ، وَتَمَثَّلَ بَيْتَ دُرَيْدٍ :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ ، * فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ : أَبْعِدِ !

وَأَرَادَ الْإِيَابَ ، فِي ذَلِكَ الْجُلُبَابِ ؛ فَكَرِهَ الشَّتَاتَ ، فَكَبَدَ حَتَّى مَاتَ ؛ وَرُبَّ وَلِيٍّ أَغْرَقَ فِي الْإِكْرَامِ ، فَوَقَعَ فِي الْإِبْرَامِ ؛ إِبْرَامَ السَّأَمِ ، لِإِبْرَامِ السَّلَمِ ؛ فَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا حَتَّى تُدْغَمَ الطَّاءُ فِي الْمَاءِ ، فَتَلَكَ حِرَاسَةً بَغِيرَ أَنْتِهَاءٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَيْنِ ضِدَّانِ ، وَعَلَى التَّضَادِّ مُتْبَاعِدَانِ ، رَخْوٌ وَشَدِيدٌ ، وَهَادٍ وَذُو تَضَعِيدٍ ؛ وَهُمَا فِي الْجَهْرِ وَالْهَمْسِ ، بِمَنْزِلَةِ غَدٍ وَأَمْسٍ ؛ وَجَعَلَ اللَّهُ رُبَّتَهُ الَّتِي كَالْفَاعِلِ وَالْمُبْتَدَأِ ، نَظِيرَ الْفِعْلِ فِي أَنَّهَا لَا تُخَفِّضُ أَبَدًا ؛ فَقَدْ جَعَلَنِي : إِنْ حَضَرْتُ عَرَفَ شَانِي ، وَإِنْ غَبْتُ لَمْ يَجْهَلْ مَكَانِي ؛ كَيْمَا فِي النَّدَاءِ ، وَالْمَحْذُوفِ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ ؛ إِذَا قُلْتُ : زَيْدٌ أَقْبَلُ ، وَالْإِيلُ الْإِيلُ ؛ بَعْدَ مَا كُنْتُ كَهَاءِ الْوَقْفِ إِنْ أَلْقَيْتُ فِبَوَاجِبِ ، وَإِنْ ذِكْرْتُ فَبِغَيْرِ لَازِبِ .

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن ، والمراد التلج الشبيه به .

إِنِّي وَإِنْ غَدَوْتُ [فِي زَمَانٍ] كَثِيرِ الدَّدِ ، كِهَاءِ الْعَدَدِ ؛ لَزِمَتِ الْمَذَكْرَ ، فَاتَتْ
بِالْمُنْكَرِ ؛ مَعَ إِنْفِ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ ، كَأَلِفِ الْوَصْلِ ؛ يَذْكُرُنِي بغيرِ النَّاءِ ، وَيَطْرَحُنِي
عندِ الْأَسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَالٍ كَالْهَمْزَةِ تُبَدِّلُ الْعَيْنَ ، وَتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْنَ ؛ وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ،
وَتَارَةً مِثْلُ الصَّامِتِ الرَّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تَتَبُّتُ عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُدْرِكُ لَهَا صَوْرَةٌ
فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَنَوَائِبُ أَحْقَاتِ الْكَبِيرِ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنَّهَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ؛ رَدَّتِ الْمُسْتَحْلِسَ
إِلَى حُلَيْسَ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبَيْسَ ؛ لِأَمْدَنَ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُوفِيَّ صَوْتَهُ
فِي هَؤُلَاءِ ؛ وَأَخَفَّفَ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] الرَّيِّيسِ الْحَبْرَ ، تَخْفِيفَ الْمَدْنِيِّ مَا قَدَّرَ
عَلَيْهِ مِنَ النَّبَرِ ؛ إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُلْتَمِسَ جَوَابٍ ، وَإِنْ أَسْتَهَبْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ
ثَوَابٍ ؛ حَسْبِي مَا لَدَيْ مِنْ أَيْادِيهِ ، وَمَا عَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَبِيهِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ
لَهَا الْقَدْرَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالْمُنْسَرِحُ خَفِيفًا سَرِيحًا ؛
وَقَبَضَ اللَّهُ يَمِينَ عَدُوِّهِمَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَضَ الْعَرُوضِ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجَمَعَ لَهُ
الْمَهَانَةَ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي ثَانِي الْمَدِيدِ ؛ وَقُلِمَ قَلَمُ الْفَسِيطِ ، وَخُيِّلَ كَسْبَاعِي
الْبَسِيطِ ؛ وَعَصَبَ [اللَّهُ] الشَّرْهَامَةَ شَانَهُمَا وَهُوَ مَحْزُوقٌ ، عَصَبَ الْوَافِرِ الثَّالِثِ وَهُوَ
مَحْزُوقٌ ؛ بَلْ أَضْمَرْنَاهُ الْأَرْضَ إِضْمَارَ ثَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمْلُ الْآمِلِ ؛ وَسَلِمَ سَيِّدَانَا
أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُمَا وَمِنْ أَحْبَابِهِ وَقُرْبَاهِ سَلَامَةٌ مُتَوَسِّطُ الْمَجْمُوعَاتِ ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنْ
الْمُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَفْتَنَنْتُ فِي نِعْمَتِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَأَفْتَنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّائِعَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا أُمُّ سِتَّةٍ
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةِ مَفْقُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ ، وَثُرَيَّا سُهَيْلَ ؛
هَذِهِ الْقَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِي مِقَّةٍ وَبَعْضُ الْإِعْظَامِ

في مَمَّتْ ؛ فقد نَصَبَ لَلدَّابِ قُبَّةَ صَارَ الشَّامُ فِيهَا كَشَامَةَ الْمَغِيبِ ، وَالْعِرَاقُ كَعِرَاقِ
 الشَّعِيبِ ؛ أَحْسَبَ ظِلَالُهَا مِنَ الْبَرْدَيْنِ ، وَأَغْنَتْ الْعَالَمَ عَنِ الْهِنْدَيْنِ ؛ هِنْدِ الطَّيْبِ ،
 وَهِنْدِ النَّسِيبِ ؛ رَبَّةَ الْخِمَارِ ، وَأَرْبَابَ قِصَارِ ؛ أَخْدَانِ التَّجَرِّ ، وَخَدِينَةَ الْحَجَرِ .
 أَحَامِلَةُ طَوْقٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٍ مِنَ الْمُرْتَبِعِ مَكْثُوفِ الدَّلِيلِ ؛ أَوْفَتْ الْأَشْيَاءَ ، فَقَالَتْ
 لِلْكَيْبِ مَا شَاءَ ؛ تُسَمِعُهُ غَيْرَ مَفْهُومٍ ، لَا بِالرَّمْلِ وَلَا بِالزَّمُومِ ؛ كَأَن سَجَّعَهَا قَرِيضُ ،
 وَمُرَاسِلُهَا الْغَرِيضُ ؛ فَقَدْ مَادَ لَشَجْوِهَا الْعُودَ ، وَفَقِدُهَا لَا يَعُودُ ؛ تَتَدَبَّ هَدِيلاً فَاتِ ،
 وَأَتِيحُ لَهُ بَعْضُ الْآفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيلِهَا مِنْ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنْبَائِهِ ، وَلَا أَوْجَدَ
 عَلَى إِنْفِهَا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ ؛ وَلَيْسَتْ الْأَشْوَاقُ ، لَذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ ؛ وَلَا عِنْدَ
 السَّاجِعِهِ ، غَبْرَةٌ مُتَرَاكِجِهِ ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَيْنِ ، قَبْلَ الْبُطَيْنِ ؛ وَالرِّشَاءِ ، بِمَدِّ
 الْعِشَاءِ ؛ فَخَكَّتْ صَوْتَ الْمَاءِ فِي الْخَرِيرِ ، وَأَتَتْ بَرَاءَ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ
 فَقَدْتُ حَمِيماً ، وَتَكَلْتُ وَلَدًا كَرِيماً : وَهَيْهَاتَ يَا بَاكِئَةً أَصْبَحْتُ ، فَصَدَحْتُ ؛
 وَأُمْسَيْتُ ، فَتَنَاسَيْتُ ؛ لَا هَمَّامَ لَا هَمَّامَ ، مَا رَأَيْتُ أُعْجِبَ مِنْ هَاتِفِ الْحَمَامِ ؛ سَلِمَ
 فَنَاحَ ، وَصَمَتْ وَهُوَ مَكْسُورُ الْجَنَاحِ ؛ إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَدِّ كَرَفَى كُلِّ حِينٍ ، وَلَا يُدْهِلُهُ
 مُضِيُّ السَّنِينَ .

وَسَيِّدُنَا الْوَزِيرَ أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءَهُ الْقَائِلُ النَّظْمُ فِي لَدِّ كَاءٍ مِثْلَ الزَّهَرِ ، وَفِي النَّقَاءِ مِثْلَ
 الْجَوْهَرِ ؛ تَحْسُبُ بِإِدْرَتِهِ التَّاجَ ، أَرْتَفَعَ عَنِ الْحِجَاجِ ؛ وَغَايَرَتَهُ الْجَحْلُ ، فِي الرَّجُلِ ؛ يَجْمَعُ
 بَيْنَ اللَّفْظِ الْقَلِيلِ ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ ؛ جَمَعَ الْأَفْعَوَانَ فِي لُعَائِهِ بَيْنَ الْقِلَّةِ ، وَفَقَدِ الْبِلَّةِ ؛
 خَشَنَ ، فَحَسَنَ ؛ وَلَانَ ، فَمَا هَانَ ؛ لَيْنُ الشَّكِيرِ ، يَدُلُّ عَلَى عُنُقِ الْمُحْضِرِ ، وَحَرَشُ
 الدِّينَارِ ، آيَةُ كَرَمِ النِّجَارِ ؛ فَصُنُوفُ الْأَشْعَارِ بَعْدَهُ كَأَلْفِ السَّلَامِ ، يُلْفِظُ بِهَا فِي الْكَلَامِ ،
 وَلَا تَتَبُّهُ لَهَا هَيْئَةٌ بَعْدَ اللَّامِ ؛ خَلَصَ مِنْ سَبْكِ النِّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنَ اللَّهَبِ ؛
 وَالْجَبْنِ ، مِنْ يَدِ الْقَيْنِ ؛ كَأَنَّهُ لَأَلْ ، فِي أَعْنَاقِ حَوَالِ ؛ وَسِوَاهُ لَطَّ ، فِي عُنُقِ نَطَّ ؛

ما خانتَه قُوَّةُ الخاطرِ الأمينِ ، ولا عيبَ بسنادٍ ولا تَضَمِينِ ؛ وأين النثرة ، من العثرة ؛ والغرقْد ، من الفرقْد ؟ ؛ فالساعي في أثره فارس عصا بصير ، لا فارس عصا قصير .

وأنا نيتٌ على هذه الطوية ثبات حركة البناء ، مُقيمٌ تلك الشهادة بغير استثناء ؛ غنى عن الأيمان فلا عدم ، مُقسمٌ على ما قلتُ فلا حنث ولا ندم ؛ وإنما تُجبا الدرر ، للحسناء الحزب ؛ ويُجاد باليمين ، في العلق الثمين ؛ ما أنفسه خاطراً أمتري الفضة ، من الفضة ؛ والوصاء ، من مثل الحصاء ؛ وربما زعت الأشباه ، ولم يشبه المرء أباه ؛ ولا غرو لذلك : الحضرة أم اللهب ، والنخوة بنت الغريب .

وكذلك سيدنا ولد من سحر المتقدمين ، حكمة للخلفاء المتدينين ؛ كم له من قافية تبني السود ، وتبني الحسود ؛ كليت ، من شرب العاتقة الكيت ؛ شوره قريب ، وحسابه تريب ؛ أين مشبهو الناقة بالفدن ، والصحيح برداء الرذن ؛ وجب الرحيل ، عن الربع المحيل ؛ نشأ بعدهم وأصف ، غودر رأله كالمناصف ؛ إذا سمع الخافض صفته للسهب الفسيح ، والرهب الطليح ، ودَّ أن حشيتَه بين الأحناء ، وخلوقه عصيم الهناء ؛ وحلم بالقود ، في الرقود ؛ وصاغ برى ذوات الأرسان ، من برى البيض الحسان ؛ شنفأ لدر النحور ، وعيون الحور ؛ وشغفا بدر بكي ، وعين مثل الركي ؛ وإعراضاً عن بدور ، سكن في الخدور ؛ إلى محول ، كاهلة المحول ؛ فهن أشباه القيسى ، ونعام السى ؛ وإن أخذ في نعت [الخيل]^(١) فياخبة من سببه^(٢) الأوايد بالتقييد ، وشبه الحافر بقعب الوليد ؛ نعتا غبط به المهجين المنسوب ، والبازي

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حوامها . وفى الأصل شبه بالئين .

الْيَعْسُوبُ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ، مَا لَيْسَ لَكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ، سَمِيَ بَعْضُ الْغُرَبِ؛ وَقَدْ مَضَى حَرْسٌ، وَخَفَتْ جَرْسٌ؛ وَلِلْقَالِعِ، أَبْغَضُ طَالِعٍ؛ وَالْأَزْرَقُ، يُحَنِّبُكَ عَنْهُ الْفَرْقُ.

فَالآنَ سَلِمَتِ الْجَبَّةُ مِنَ الْمَعْصِ، وَشَمِلَ بَعْضُهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ؛ فَأَيُّقُنِ النَّطِيجَ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطِيعُ؛ وَالْمَهْقُوعُ، تَجَاءَ رَاكِبِهِ مِنَ الْوُقُوعِ؛ فَلَنْ يُحْرَبَ، قَائِدُ الْمُقَرَّبِ؛ وَلَنْ يُرْجَلَ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ؛ وَالْعَابُ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِعَابُ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَاكِبِ. وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ أَمْرِي الْقَيْسُ: الدَّبَاءُ، لِرَاغِي الْمَبَاءِ؛ وَالْأُنْفِيَّةُ، لِلْقَدْرِ الْكَفِيَّةِ؛ نَقَمًا عَلَى جَاعِلِ غُدْرَهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ، وَجَبْهَتَهَا كَمُحْدَفِ الثُّرُوسِ؛ وَأُنَى لِلِكِنْدِي، قَوَافٍ كَهَيْجَمَةِ السَّعْدِيِّ:

إِذَا أَصْطَبَكْتَ بِضِيْقٍ حَجَرَتَاهَا * تَلَاقَى الْعَسْجَدِيَّةُ وَاللِّطِيمُ!

فَالْقَسِيبُ، فِي تَضَاعِيفِ النَّسِيبِ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّشْبِيبِ؛ لَيْسَ رَوِيَّةٌ بِمَقْلُوبٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ؛ قَدْ جَمَعَ أَلِيلَ مَاءِ الصَّبَا، وَصَلِيلَ ظُمَاءِ الظُّبَا؛ فَالْمِضْرَاعُ كَوَذِيلَةِ الْغَرِيبِ، حَكَّتِ الزَّيْنَةَ وَالرَّيْبَ؛ وَأَرَتِ الْحُسْنَاءَ سَنَاهَا، وَالسَّمْعَةَ مَا عَنَاهَا؛ فَأَمَّا الرَّاحُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَتَتْكَ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ؛ وَلَمْ تَرْضَ دِنَارُ الْعَقَارِ، بِلِبَاسِ الْقَارِ؛ وَتَسْجُ الْعَنَّاكِبِ، عَلَى الْمَنَاكِبِ؛ وَلَكِنْ تُكْسَى مِنْ وَثِي ثِيَابَا، وَيُجْعَلُ طَلَاؤُهَا زِيَابَا؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خَيْمَةً يَغْرِطُ الْمِسْكَ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ، وَيَوَدُّ سَعْدُ الْأَخِيَّةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْخِيَامِ.

وَوَقَفْتُ عَلَى "مُحْتَصَرِّ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ" الَّذِي كَادَ بِسِمَاءِ الْأَبْوَابِ، يُعْنِي عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ؛ فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ، بِطِلَاءِ الْأَحْمَالِ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ،

إلى قَلْبِ النَّحْرِ؛ وإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْحَرَاتِ؛ شَرْفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرِّيبَ،
وَكَفَى من أبنِ قُرَيْبٍ؛ ودَلَّ على جَوَامِعِ اللُّغَةِ بالإيماءِ، كما دَلَّ الْمُضْمَرُ على ما طَالَ
من الأَسْمَاءِ.

أَقُولُ في الإِخْبَارِ: أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ؛ إِذَا أَضْمَرْتُهُ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ:
أَمَرْتُهُ؛ وَأَبْلَّ من الْمَرَضِ وَالْمَمَرِضِ، بما أَسْقَطَ من شُهُودِ الْقَرِيبِ؛ كَأَنَّهُمْ
في تِلْكَ الْحَالِ، شَهِدُوا بِالْحَالِ؛ عِنْدَ قَاضٍ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمْ بِالِاتِّقَاضِ؛ عَلَى حَقِّ
عِلْمِهِ بِالْعَيَانِ، فَاسْتَغْنَى فِيهِ عَن كُلِّ بَيَانٍ.

وقد تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ "إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ" فوجدتها عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ في عِدَّةٍ إِخْوَةٍ
الصَّدِّيقِ، لَمَّا تَظَاهَرُوا على غَيْرِ حَقِيقٍ؛ وَتَزِيدُ على الْعَشْرَةِ بِوَاحِدٍ، كَلَّخَ يُوسُفُ
لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ. وَالشَّعْرُ الْأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الْآثَرِ، وَصَحِيفَةُ الْمَأْثَرِ؛ فَإِنَّهُ كَذُوبُ
الْقَالَه، نَمُومُ الْإِطَالَةِ؛ وَإِنْ قَفَا نَبْكَ [على حُسْنِهَا]، وَقَدِمَ سِنُّهَا؛ لِقُرْبِهَا يُبْطِلُ
شَهَادَةَ الْعَدْلِ الرِّضَا، فَكَيْفَ بِالْبَغْيِ الْأَثْنِ؛ قَاتَلَهَا اللَّهُ عَجُوزًا لَوْ كَانَتْ بَشَرِيَّةً،
كَانَتْ مِنْ أَغْوَى الْبَرِّيَّةِ. وقد تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَجْتِهَادُ، في إِقَامَةِ
الْأَشْهَادِ؛ حَتَّى أَتَشَدَّ رَجَزَ الضَّبِّ، وَإِنْ مَعَدًّا مِنْ ذَلِكَ لِحَدِّ مُغْضَبٍ؛ أَعْلَى فَصَاحَتِهِ
يُسْتَعَانُ بِالْقَرَضِ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْنَاشِ الْأَرْضِ؟؛ مَا رُؤِبَةُ عِنْدَهُ فِي فَيْرٍ، فَمَا قَوْلُكَ
فِي ضَبِّ دَامِي الْأُظَافِيرِ؟؛ وَمَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ يَعْقُوبَ وَجَدَهُ كَالْمُهْمَلِ، إِلَّا بِأَبِ فَعَلٍ
وَفَعَلَ؛ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ عَلَى عَشْرِينَ حَرْفًا: سِتَّةَ مُدْلَقَةٍ، وَثَلَاثَةَ مُطَبَقَةٍ؛ وَأَرْبَعَةً مِنْ
الْحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ، وَوَاحِدٌ مِنَ الْمَزِيدَةِ؛ وَنَفِثَتَيْنِ: النَّاءُ وَالذَّالُ، وَآخَرَتَمَعَالٍ؛
وَالْأَخْتَيْنِ الْعَيْنِ وَالْحَاءِ، وَالشَّيْنِ مُضَافَةً إِلَى حَيِّزِ الرَّاءِ. فَوَحَّمَ اللَّهُ أَبَا يُوسُفَ لَوْ عَاشَ
لَفَاطَ كَمَدًا، أَوْ أَحْفَظَ حَسَدًا، سَبَقَ ابْنُ السَّكِّيتِ ثُمَّ صَارَ السَّكِّيتُ، وَتَمَقَّقَ ثُمَّ حَارَ
وَتَدَا لِلْبَيْتِ؛ كَانَ الْكَتَابُ تِبْرًا فِي تُرَابٍ مَعْدِنٍ، بَيْنَ الْحُثِّ وَبَيْنَ الْمُتَدَّنِ؛ فَاسْتَخْرَجَهُ

سَيِّدَنَا وَأَسْتَوْشَاهُ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ؛ فَعَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ، وَالْإِلَّالِ النَّفِيشِ؛
فَهُوَ مَحْبُوبٌ لَيْسَ بِهِيْنِ، عَلَى أَنَّهُ دُوْ وَجْهَيْنِ؛ مَا نَمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ، وَلَا نَطَقَ وَلَا أَرَمَ؛
فَقَدْ نَابَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الصَّمِيمِ، مَنَابَ مِرَاةِ الْمُتَجَمِّمِ فِي عِلْمِ التَّنْجِيمِ؛ شَخْصُهَا ضَيْلٌ
مَلُومٌ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالنُّجُومُ.

وَأَقُولُ بَعْدُ فِي إِعَادَةِ اللَّفْظِ : إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ، كَلْتَمَعٍ
فِي النِّكَاحِ بَيْنِ الْأَخْتَيْنِ؛ الْأُولَى حِلُّ يُرَامُ، وَالثَّانِيَةِ بَسْلٌ حَرَامٌ؛ كَيْفَ يَكُونُ
فِي الْهُودَجِ لِمَيْسَانَ، وَفِي السَّبَّةِ حَمِيسَانَ؛ يَا أُمَّ الْفَتَيَاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُنُودِ، وَيَا أَبَا
الْفَتَيَانِ شَرُّكَ مِنَ السُّعُودِ؛ عَلَيْكَ أَنْتِ بَزِينٌ وَدَعْدٌ، وَسَمَّيْنَاهُ الرَّجُلَ بِسُوءِ سَعْدٍ؛
مَا قَلَّ أَثِيرٌ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرٌ.

مَثَلٌ يَعْقُوبَ مَثَلُ خَوْدٍ كَثِيرَةٍ الْحُلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ، وَعَطَلَتْ الْخَضَرَ وَالسَّاقَ؛
كَانَ يَوْمٌ قَدُومٌ تِلْكَ النُّسخَةِ يَوْمَ ضَرْيَبِ حَشَرِ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ، وَأَضَافَ
الْحِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْحِنْسِ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الظُّبَاءِ، بِالسَّبَاءِ؛ وَلَا رَمَى الْآجَالَ، بِالْأَوْجَالَ؛
وَلَكِنْ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ، فَتَسْتَمِعُ؛ وَتَنْصَرِفُ بِلَذَاتِ، مِنْ غَيْرِ أَدَاةٍ؛ وَإِنْ عَبَدَهُ
مُوسَى لَقَيْنِي تَقَابَا، فَقَالَ : هَلُمَّ كِتَابَا؛ يَكُونُ لَكَ شَرَفَا، وَبِمُؤَالَاتِكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
— أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ — مُعْتَرِفَا؛ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَنْظَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾. وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّودِدِ فَقَالَ لِمُخْلَفِيهِ،
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِيهِ؛ : ﴿إِنِّي آتَيْتُ نَارًا أَلْعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ آجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾. فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ؟ أَقَبَسَ ذَهَبٌ؟ أَمْ قَبَسَ
لَهَبٌ؟ بَلْ يَتَشَرَّفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْأَحْسَابِ الطَّاهِرَةِ.

(١) السَّبَّةُ الزَّمَنُ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ بِهَا الْأَسْبُوعَ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ رِسَالَةِ الْمُعْزَى الْمَوْجُودَةِ
بِدَارِ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَةِ.

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلِي يَقْتَسِنُ لَهَا * جَزَلَ الْجَدَا غَيْرَ خَوَارٍ وَلَا دَعِرٍ !

وقد آب من سَفَرِهِ الأَوَّلَى ومعه جَدْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمَةٍ : إِنْ لُمِسْتُ فَنَارُ إِبْرَاهِيمَ ،
أَوْ أُونِسْتُ فَنَارُ الْكَلِيمِ ، وَأَجْتَنَى بِهَارًا حَبَّتْ بِهِ الْمَرَاذِبَةُ كِسْرَى ، وَحُمِلَ فِي فَكَاكِ
الْأَسْرَى ، وَأَذْرَكَ نُوحًا مع الْقَوْمِ ، وَبَقِيَ غَضًّا إِلَى الْيَوْمِ ، وَمَا أَتَجَمَّعَ مُوسَى إِلَّا الرُّوَضَ
الْعَمِيمِ ، وَلَا أَتَبَعَ إِلَّا أَصْدَقُ مُقِيمٍ ، وَوَرَدَ عَبْدُهُ الرَّهْيَرِيُّ مِنْ حَضْرَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ وَكَانَتْ
زَهْرَةً بَقِيعَ ، أَوْ وَرْدَةً رَبِيعَ ، كَثِيرَةُ الْوَرَقِ ، طَيِّبَةُ الْعَرَقِ ، وَلَيْسَ هُوَ فِي نِعْمَتِهِ كَالرَّيْمِ ،
فِي ظِلَالِ الصَّرِيمِ ، وَاجْتَابَ ، فِي السَّحَابِ الْمُتَجَابِ ، لِأَنَّ الظَّلَامَ يَسْفِرُ ، وَالْغَامَ
يَسْفِرُ ، وَلَكِنَّهُ مِثْلُ النَّوْنِ فِي الْجُحْمِ ، وَالْأَعْفَرِ تَحْتَ جِرْيِهِ .

وقد كُنْتُ عَرَفْتُ سَيِّدَنَا فِي مَا سَلَفَ أَنَّ الْأَدَبَ كَعُهودٍ فِي غِيبٍ عُهُودَ ، أَرَوْتُ
النَّجَادَ فَمَا ظَنُّكَ بِالْوُهودِ ؟ وَأَنَّى نَزَلْتُ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْثِ بِبَلَدٍ طَسَمَ ، كَأَثَرِ الْوَسْمِ ؛
مَنْعَهُ الْقِرَاعَ ، مِنْ الْإِمْرَاعِ ؛ يَابُوسَ ، بَنِي سُدُوسَ ؛ الْعَدُوَّ حَازِبَ ، وَالْكَلَاءُ
عَازِبَ ؛ يَاحْضَبَ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ ، ضَانٌّ فِي الْحَرْبِ وَإِبِلٌ فِي السَّعْدَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ
ذَلِكَ أَتَعَبْتُ الْأَظْلَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْخَنْظَلَ ؛ فَلَيْسَ فِي اللَّيْدِ ، إِلَّا الْهَيْدِ ؛ جَنَيْتُهُ مِنْ
شَجَرَةٍ أَجْتَنَيْتُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . لَبَنُ الْإِبِلِ عَنِ الْمُرَارِ مَرَّةً ، وَعَنِ
الْأَرَاكِ طَيِّبٌ حَرٌّ .

هَذَا مِثْلِي فِي الْأَدَبِ . فَأَمَا فِي النَّشَبِ ؛ فَلَمْ تَزَلْ لِي بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِقَاءِ سَيِّدِنَا
بُلْغَتَانِ : بُلْغَةُ صَبْرٍ ، وَبُلْغَةُ وَفَرٍ ؛ أَنَا مِنْهُمَا بَيْنَ اللَّيْلَةِ الْمَرْعِيَّةِ ، وَاللُّجُوجِ الرَّبِيعِيَّةِ ؛ هَذِهِ
عَامٌ ، وَتِلْكَ مَالٌ وَطَعَامٌ ؛ وَالْقَالِيلُ ؛ سَلَّمَ إِلَى الْحَلِيلِ ؛ كَالْمُصَلِّيِ يُرِيقُ الضُّوْءَ ، بِإِسْبَاحِ
الْوُضُوءِ ، وَالتَّكْفِيرِ ، بِإِدَامَةِ التَّغْفِيرِ ؛ وَقَاصِدُ بَيْتِ اللَّهِ يَغْسِلُ الْحُوبَ ، بِطُولِ الشُّحُوبِ .

وأنا في مكتبة حضرة سيّدنا الجليّة، والميل عن حضرة سيّدنا الأجلّ والدّه
- أعزّ الله نصره - كسباً بن يعرب، لما أبتهل في التّقرب؛ إلى خالق النور، ومُصَرِّف
الأُمُور، نظر فلم يرَ أشرق من الشّمس يداً، فسجد لها تعبداً . وغير ملوم سيّدنا
لو أعرض عن شقائق النّعمان الرّبيعيّه، ومدائح اليربوعيّه، مللاً من أهل هذه البلّد
المُضاف إلى هذا الاسم، فغير مُعْتَدِر، من أبغض لأجلهم نبيّ المنذر؛ وهم إلى
حضرتة السّنيّة رجُلان : سائل، وقائل؛ فأما السّائل فالح، وأما القائل فغير
مُستَمْلَح؛ وقد سترت نفسى عنها ستر الخميص، بالقميص؛ وأخى الهتر، بسُجُوف
السّتر؛ فظهر لي فضله الذي مثله مثل الصّبح إذا لمع تصرّف الحيوان في شؤونه
وخرج من يئته اليربوع، وبرز الملك من أجلّ الربوع، وقد يولع الهجرس؛ بأن
يجرس؛ في البلّد الجرد، قُدّام الأسد الورد . وإني خبرت أن تلك الرسالة الأولى
عُرِضَتْ بالمعرّض الكريم : فأوجب ذلك رَحِيلُ أُخْتِها، مُتَعَرِّضَةً لِمِثْلِ بَحْثِها،
وكيف لا تنفع، وفي اليمّ تقع؛ وهى بمقصد سيّدنا فانحره، ولو نُهِيت الأولى
لَا تَهْتِ الْآخِرَة :

كملت الرسالة .



قلت : وهذه رسالة أنسأتها في تقرّيض المقرّ الكريم الفتحى، أبى المعالى فتح الله،
صاحب دواوين الانشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلاميّة، أدام الله
تعالى معاليه، في شهر سنة أربع عشرة وثمانمائة، وهى :

الحمد لله الذى جعل الفتح محطّ رحال القرائح الجائده، ومُسْتَقَرّ نواها، ومُحِيطَ
دائرة الأفكار الوارده، ومركز شعاع كواها، ومادّة عناصر الأفهام الجائله، وعِتَادَ
شَكِيمَةِ قُواها .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ الْمَمْلَكَةَ الْمِصْرِيَّةَ مِنْ إِيدَاعِ سِرِّهَا الْمَصُونِ بِأَوْسَعِ صَدْرِ
 رَحِيبٍ ، وَأَنْهَضَ بِتَذْيِيرِ مَصَالِحِهَا مَنْ إِذَا سَبَرَتْ كِتَابُ كُتُبِهِ إِلَى عَدُوٍّ أَنْشَدَ مِنْ شِدَّةِ
 الْفَرَقِ : قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَيِّبٍ ، وَأَقَامَ لِنُصْرَتِهَا بِأَسَلِ الْأَفْلَامِ وَصِفَاحِ الْمَهَارِقِ
 مِنْ إِذَا طَرَفَهَا عَلَى الْبُعْدِ طَارِقُ تَلَا لِسَانُ يَرَاعَتِهِ : ﴿ نَصْرُ مَنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .
 وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسِيرُ بِهَا بُرْدُ الْهِدَايَةِ إِلَى آفَاقِ
 الْأَخْلَاقِ فَتُشِيدُ لِقَلَّاجِ الْإِيمَانِ بِأَقْطَارِ الْقُلُوبِ أَرْكَانًا ، وَتُرَقِّمُ أَسْرَارُ شِعَارِهَا بِنَقِيسِ
 الْقَبُولِ فِي صُحُفِ الْإِقْبَالِ فَيُبَدِّلُ دَاعِيَهَا بِإِذَاعَةِ خَبَرِهَا مِنَ الْإِسْرَارِ إِعْلَانًا ، وَتَدِينُ
 بِطَاعَتِهَا مَلُوكُ الْمَمَالِكِ النَّائِيَةِ خُضُوعًا فَتَتَّخِذُ كُتُبَ رَسَائِلِهَا عَلَى الْمَفَارِقِ بَعْدَ اللَّثَمِ
 تَيْجَانًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ سَنِّ الْمَعْرُوفِ وَنَدَبِ إِلَيْهِ ، وَأَكْرَمُ
 رَسُولٍ جَعَلَ خَيْرَ بَطَائِنِي الْمَلِكِ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْتَمِلُهُ عَلَيْهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
 وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَلَكَوا فِي السَّيْرِ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعُوا فِي السَّيْرِ سُنَنَهُ وَأَقْتَفَوْا فِيهِ سَنَنَهُ ،
 وَاتَّبَعُوا فِي الْمَعْرُوفِ آثَارَهُ فَتَلَا عَلَيْهِمُ تَالِي الْإِخْلَاصِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . صَلَاةٌ نَتَقَلُّ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَخْبَارُهَا ، وَيَتَصَدَّقُ لِرَوَايَتِهَا مِنَ الْأُمَّةِ
 عَلَى تَمَادِي الدَّهْرِ أَخْبَارُهَا ؛ وَسَلَّمُ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ رِيَّاسَةَ أَهْلِ الدَّوَلِ نَتَفَاوَتْ بِاعْتِبَارِ قُرْبِ الرِّئِيسِ مِنْ مِلْكِهِ فِي مُحَاطَبَتِهِ
 وَمُنَاجَاتِهِ ، وَاعْتِمَادِ تَصَرُّفِهِ فِي أُمُورِ دَوْلَتِهِ وَتَقْفِيدِ مُهِمَّاتِهِ ، وَالْأَسْتِنَادِ عَلَى رَأْيِهِ فِي جَلِيلِ
 خُطُوبِهِ وَعَظِيمِ مُلْكِيَّتِهِ :

فَعَالٌ تَمَادَتْ فِي الْعُلُوكِ كَأَنَّمَا * تُحَاوِلُ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

وَلَا خَفَاءَ أَنْ صَاحِبَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ مِنْ هَذِهِ الرِّتْبَةِ بِالْحَلِّ الْأَرْفَعِ ، وَالْمُتَزَلَّةِ الَّتِي
 لَا تُدَافَعُ وَلَا تُدْفَعُ ، وَالْمَقَامِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِصَدَارَتِهِ فَكَانَ كَالْمَصْدَرِ لَا يُنْتَنَى وَلَا يُجْمَعُ ؛

إذ هو كليم الملك ونجيته ، ومقرب حضرته وحظيه ؛ بل عميد الملكة وعمادها ،
وركنها الأعظم وسنادها ، حامي حومتها وسدادها ؛ وعقدتها المسيق ونظامها ، ورأس
ذروتها العليا وسنامها ؛ وجهنة خبرها ، وحقيبة وردها وصدرها ؛ ومبلغ أنبائها
وسفيرها ، وزند رأيها المورى ومشيرها .

فهيلاً بالملكومات وبالعلى * وحيلاً بالفضل والسؤدد المحض !

هذا . وهو الواسطة بين الملك ورعيته ، والمتكفل لقصيهم بدرك قصده وبلوغ
بغيته ، والمُسعد للظلم من عزائم توقيعاته بما يقضى بنصرتة ؛ وحينئذ فلا يصلح
لها إلا من كان مع كرم الخيم بارز الخيام لأصطناع المعروف ، ومع سمو الرتبة سامي
الهمة لإغاثة الملهوف ؛ ومع عز الجنب لدى ملكه لين الجنب لذي المسأله ، ومع
قربه بحضرة سلطانه قريباً من الرعية حتى من المسكين والأرملة .

وغير خاف أن كل وصف من هذه الأوصاف مع مقابله كالضدين اللذين
لا يجتمعان بحال ، والقيضين اللذين قضى العقل بأن الجمع بينهما محال ؛ وأنى يجتمع
العالى والهابط ، والمترفع والساقط ؛ أم كيف تتصل الأرض بالسما ، أو يقع
أمتزاج عنصر النار بعنصر الماء ؛ ومن ثم عز هذا المطلب لهذه الوظيفة حتى إنه
لأعز من الجوهر الفرد ، وقَل وجوده حتى لم يوجد إلا فى الواحد القَد فلا تراه
إن تراه إلا فى حيز النادر ، ولا تظفر به إلا ظفرك بيض الأنوق إن كان يظفر به
ظافر ؛ إلا أنه ربما سمح الدهر فأتى بالفد من هذا النوع فى الزمن المتباعد ، أو أسعد
الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد .

ثم قد مضت برهة من الأيام وجيد ديوان الاشياء من نظر من هو متصف ببعض
هذه الأوصاف عاقل ، والدهر يعد بمن يقوم فيه بتفريح كربة الملهوفين ولكنه
يماطل :

يُرَفِّهَ مَا يُرَفِّهَ فِي التَّقَاضِي * وَلَيْسَ لَدَيْهِ غَيْرُ الْمَطْلِ نَقْدًا!

إِلَى أَنْ طَلَعَ نِيرُ الزَّمَانِ وَتَوَضَّحَ شُرُوقُهُ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ صَبَاحِهِ وَأَفْلَ بَطْلُوعِ السَّعْدِ عِيُوقُهُ؛ فَأَقْبَلَتِ الدَّوْلَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بِسَعَادَتِهَا، وَتَلَقَّتْهَا الْأَيَّامُ النَّاصِرِيَّةُ جَارِيَةً مِنْهَا عَلَى وَفْقِ عَادَتِهَا؛ وَوَفَّرَ لِلدَّوْلَتَيْنِ مِنْ آتِنْتَخَابِ الْأَصْفِيَاءِ قِسْمَتَهَا، وَتَخَصَّصَتْ لَهَا الرَّأْيَ الصَّابِبَ حَتَّى ظَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ زُبْدَتُهَا؛ فَكَانَ خُلَاصَةً أَصْطِفَائِيَّهَا، وَزُبْدَةً آتِنْتَخَابِيَّهَا؛ الْمُقَرَّرُ الْأَشْرَفُ، الْعَالِي، الْمُؤَلَّوِيُّ، الْقَاضِي، الْكَبِيرِيُّ، السَّفِيرِيُّ، الْمُشِيرِيُّ، الْفَتْحِيُّ، نِظَامُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَزِمَامُ سِيَاسَتِهَا، وَمُنَقِّدُ أُمُورِهَا، وَجَامِعُ رَأْسِهَا؛ أَبُو الْمَعَالِي فَتْحُ اللَّهِ صَاحِبُ دَوَاوِينِ الْإِنِّشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آرْتِقَانِهِ عَلَى تَعَاقِبِ الدُّوَلِ، وَأَجْرَاهُ مِنْ خَفِيِّ اللَّطْفِ عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ وَقَدْ فَعَلَ؛ فَأَلْقَى إِلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمَمْلَكَةِ مَقَالِيدُهَا، وَاتَّفَقَتْ بِحُسْنِ سِفَارَتِهِ بِاتِّفَاقِ الرُّوَاةِ أَسَانِيدُهَا؛ فَتَقَدَّتْ بِتَنْفِيذِهِ أُمُورُهَا، وَكَلَّتْ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ كُسُورُهَا؛ بَجَرَتْ الْأُمُورَ بِحُسْنِ تَذْيِيرِهِ عَلَى السَّعَادَاتِ، وَمَشَتْ الْأَحْوَالُ بِلُطْفِ سِفَارَتِهِ عَلَى أَمِّ الْمُرَادِ؛ وَاعْتَرَفَتْ لَهُ الْكَافَّةُ بِالسِّيَادَةِ فَاطَاعَتْ، وَعَرَفَتْ لَهُ الرِّعْيَةَ تَقَدَّمَتْ فِي الرَّأْسَةِ فَرَعَتْ حُرْمَتَهُ وَرَاعَتْ.

وَإِنَّ أُمُورَ الْمُلْكِ أَضْحَى مَدَارُهَا * عَلَيْهِ كَادَارَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرَّحَى!

قَدْ اسْتَعْبَدَ الْخَطُّ فَاصْبَحَ لَهُ كَالْحَدِيدِ، وَأَتَى مِنَ الْمَعْرُوفِ بِكُلِّ غَرِيبٍ فَانْسَى مِنْ أَثَرَعْنَهُ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ؛ فَلَوْ رَأَاهُ «خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ» لَأُخِجَ عَنْ مَلَاقَاتِهِ عِظَمًا، أَوْ نَاوَاهُ «يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ» لَمَاتَ مِنْ مُنَاوَأَتِهِ عَدَمًا، أَوْ سَابَقَهُ «الْفَضْلُ وَجَعْفَرُ» أَبْنَاهُ لِسَبَقِهِمَا كَرَمًا:

مَنَاقِبُ لَوْ أَتَى تَكَلَّفَتْ نَسْخَهَا، * لَا فَلَاسَتْ فِي أَقْلَامِهَا وَمِدَادِهَا!

أو سمع به "الحسن بن سهل" لقطع إليه الحزن والسهل ، أو بصر به "الفضل" أخوه ، لما رأى أنه للفضل أهل ، أو عاينه "أبو علي بن مقله" لعلم أنه فاقه خطاً وخطاً ، أو نظر "ابن هلال" إلى أهله نواته لتحقق أنه سبقه إلى تحرير هندسة الحروف وما أخطأ :

إِذَا أَخَذَ الْقِرْطَاسَ خَلَّتْ يَمِينُهُ * تُفْتَحُ نُورًا أَوْ تُظَمُّ جَوْهَرًا !

فإن تكلم أنى من بيانه بالسحر الحلال ، أو حاور أنى من البلاغة بما يقصر عن رتبته "سبحان" في المقال ، أو ترسل أعين "عبد الحميد" في رسائله ، أو كتب رعت من روض خطه في زهر نhamاله :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ الْمَشْهُورَ مَنْطِقُهُ * وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !

فرايه السيف لا ما صنع الهند ، وعقله الصارم لا ما استودع الغمد :

فَفِي رَأْيِهِ تُنْجَحُ الْأُمُورُ وَلَمْ يَزَلْ * كَفِيلًا بِإِرْشَادِ الْحَيَارَى مُوَفَّقًا !

أقلامه تزرى بالصوارم وتهزأ بالأسل ، وتجري بصلة الأرزاق فتريد على الأمانى وتربو على الأمل :

بِثَّ جَارَهُ فَالْعَيْشُ نَحْتَ ظِلَالِهِ * وَأَسْتَسْقِيهِ فَالْبَحْرُ مِنْ أَنْوَائِهِ !

فكأرمه تغنى من الإملاق ، وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق ، وعطاياه تسير سير السحاب فتطير الغيث على الآفاق :

كَرِيمٌ مَسَاعِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَذَلَ الْقَوَاضِلِ !

قد خدمته الحظوظ وأسعدته الحدود ، وقسمت المنازل السنية فكان له منها سعد السعود :

لوعَدَدَ النَّاسِ مَا فِيهِ لِمَا بَرَحَتْ * تَثْنِي الْخَنَاصِرَ حَتَّى يَنْفَدَ الْعَدَدُ!

فَلَوْ غَرَسَ الشُّوكُ أَمْرَ الْعِبَاءِ أُنَّى أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعَقَاءَ فِي الْجَوِّ لَصَادَهَا ؛
أَوْ زَرَعَ فِي السَّبَاخِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامُ الْعَامَ وَالسَّنَةِ الْخَصْبَةَ ، وَلَضُوعِفَتْ مُضَاعَفَةً
حَسَنَاتِهِ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَأَحْظَنَتْكَ عُيُونُهَا ، * نَمَّ فَالْحَاوِفُ كُلُّهُمْ أَمَانٌ ،

وَأَصْطَدَّ بِهَا الْعَقَاءَ فَهِيَ حَبَائِلُ * وَأَقْنَدَ بِهَا الْجَوْزَاءَ فَهِيَ عَنَانُ!

قَدْ لَيْسَ شَرْقًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْعِهِ ، وَتَقْصَصُ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَنْتَطَلِعُ
الْأَيَّامُ إِلَى بَرْزَعِهِ ، وَاتَّهَى إِلَيْهِ الْمَجْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرَمُ مَكَانَهُ فَانْحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ .

فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ يُبَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقْصَى الْكَرَمِ الَّذِي * مَدَّ الْحُسُودَ إِلَيْهِ بَاعًا ضَيْقًا!

فَمَنَاقِبُهُ تَسِيْقُ أَقْلَامَ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَغْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لَارْتِفَاعِهَا غَايَةٌ ،
وَلَا لَتَدَاوُلِهَا نِهَايَةٌ ؛ فَلَا تُوفِي جَامِعَةً بَشَرُطَهَا ، وَلَا تُقَوِّمُ جَرِيدَةً بِسَطِهَا :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

قَدْ هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطَبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَنَابِرِ الطُّرُوسِ ، وَنَطَقَتْ بِفَضْلِهِ أَفْوَاهُ الْمَحَابِرِ
فَنَكَّسَتْ لِرِفْعَةِ قَدْرِهِ شَوَاخِجَ الرُّؤُوسِ ؛ وَطَلَعَتْ فِي أَفْئِ الْمَهَارِقِ سُعُودُ إِيَالَتِهِ السَّعِيدَةِ
فَأَقْلَتْ لَوْجُودِهِ التُّحُوسَ ؛ وَرُقِيتْ مَحَاسِنُهُ بِنَقِيسِ اللَّيْلِ عَلَى صَفَحَاتِ النَّهَارِ فَارْتَسَمَتْ ،
وَحِلَّتْ أَخْبَارُ مَعْرِوفِهِ فَتَرَا حَمَتِ الْآفَاقِ عَلَى أَنْتِشَاقِ أَرْجِ رِيحِهِ الْعَبَقَةِ وَأَسْتَهَمَتْ :

لَقَدْ كَرَّمْتَ فِي الْمَكْرُمَاتِ صِفَاتِهِ * فَمَا دَخَلَتْ لَاءٌ عَلَيْهَا وَلَا إِلَّا!

اتَّفَقَتِ الْأَلْسِنَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فُدِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ ، وَاسْتَغْرَقَتْ مَادِحُهُ الْأَزْمِنَةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوَلَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يَخُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ * وَلَمْ يَخُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَفْتَرٌ !
عَلَى أَنِّي اسْتَقْبِلُ عَثْرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي إِطْرَائِهِ ، وَالتَّعَرُّضِ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنْهَضُ
بِأَعْبَائِهِ ، فَلَوْ أَنَّ «الْمُحَاطَظَ» نَصِيرِي ، وَ«أَبْنَ الْمُقَفَّعَ» ظَهِيرِي ، وَ«قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ»
يُسْعِدُنِي ، وَ«سَيِّجَانَ وَائِلَ» يُجِدُنِي ، وَ«عَمْرَو بْنَ الْأَهَمِّ» يُرْشِدُنِي ؛ لَكَانَ اعْتِرَافِي
بِالْعِجْزِ فِي مَدْحِهِ أَبْلَغَ مِمَّا آتَيْهِ ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصِفُهُ مِنْ
تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنِيَّةٍ شَعْرَةٌ * لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لَقَصَّرَا !



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم مُعِين الدِّين تاج العلماء ، خَطِيبِ الْخُطَبَاءِ ،
زَيْنُ الْأَمَةِ ، قُدْوَةُ الشَّرِيعَةِ ، الصِّدِّيقُ أَبُو الْفَضْلِ يَحْيَى بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ
الْحَصَكَنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، سَمَّاها : «عِتَابُ الْكُتَّابِ ، وَعِقَابُ الْأَقْلَابِ ، الْمُشْتَمَلَةُ عَلَى
أَصُولِ الْغَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وَهِيَ :

عَذِيرِي مِنْ وَزَرَاءِ النِّصْبَةِ وَكُتَّابِهَا ، وَكِبَرَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِهَا ، وَأَوَانِي الدُّوَلِ
وَأَطْنَابِهَا ، وَنَوَابِ الدَّوَاوِينِ وَأَنْبِيَاءِهَا^(١) ؛ وَجُبَاةِ بَيُوتِ الْأَمْوَالِ ، وَالسُّعَاةِ فِي زَمٍّ نُشِرَ
الْأَحْوَالِ ؛ وَسَاسَةِ الْمَمَالِكِ ، وَصُحُفِ أَسْرَارِ الْمَالِكِ ؛ الشَّاخِيزِ بَأَنْوَفِ التِّيْسِ
وَالْكِبَرِيَاءِ ، وَالسَّاحِيحِينَ ذُبُولِ الْعُجْبِ وَالْخِيَلَاءِ ، الرَّافِلِينَ فِي حُلِيِّ الْبَهَاءِ ، وَالْعَافِلِينَ
عَنْ فُرُوضِ الْعِلَاءِ ؛ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا السُّودَّ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ ، وَتَسَنَّمُوا الرُّتَبَ بِلَا إِعْدَادٍ ؛

(١) الْأَنْبِيَاءُ جَمْعُ نَابٍ وَهُوَ سَيِّدُ الْقَوْمِ وَكَبِيرُهُمْ .

فكانهم الحاصب ، وعدوا لله المناصب ؛ شغلهم الأشر والفجور ، وكل على بسطته يحور ، همهم حج الأخرح ، ونجج الرياح بالماء القراح ؛ وأمتطاء المرء ، والعناق الجرد ؛ أملهم نجيذ الأفنيه ، وتشيد الأنيه ؛ والزيادة في الرقيق والكراع ، والحوّل والاتباع ؛ وليس بغال ، كثرة خيل وبغال ؛ بما باعوه من الورع والديانة ، وأضاعوه من العفة والصيانة :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنْيَا عَلَى غَيْرَةٍ * وَنَافَسُوا فِيهَا السَّلَاطِينَا !
تَوَزَّعُوا الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ وَالْحَضْرَةَ وَالْإِسْلَامَ وَالْدِّينَا ،
شَادُوا بِأَعْمَالِهِمْ دُورَهُمْ * وَأَخْرَبُوا فِيهَا الدَّوَاوِينَا ،
عَفُّوا وَمَا عَفُّوا بِأَفْلَاحِهِمْ * مَسَاكِنًا تَحْوِي مَسَاكِينَا ،
غَرَّتْهُمْ الدُّنْيَا بَأَن أَظْهَرَتْ * عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُهَا لِينَا ،
وَالدَّهْرُ كَمْ جَرَّعَ فِي مَرَّةٍ * مُرًّا وَحِينًا سَاقَهُ حِينَا .
يَا أَنْفُسَا ذَلَّتْ بِإِتْيَانِهِمْ * وَبِكَ أَتَاتَيْنِ الْآتَاتِينَا .
لَا تَرْتَعْبِي فِي رِسَالِهِمْ إِنَّمَا * تَمْرِينَ فِي الْقَعْبِ الْأَمْرَيْنَا !
وَكَا ن يُجِدِي الْقَصْدُ لَوْ أَنَّهُمْ * يَدْرُونَ شَيْئًا أَوْ يَدْرُونَ .
مَوْتِي هُوَ فَلَيْكُ تَقْرِيطُهُمْ * إِنْ كُنْتَ لَا تَأْبِينِ ، تَأْبِينَا ،
لَا يَعْنِي الْفَضْلُ بِإِطْرَاءٍ مِنْ * يَكُونُ فِيهِ الْهَجْوُ مَغْبُونَا ،
لَوْ رَمَتْ شَيْئًا دُونَ أَقْدَارِهِمْ * لَهَجَّوْهُمْ لَمْ تَجِدِ الدُّونَا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة ، وكفاهم من البراعة ، برى اليراعة ، وعنوا بأسوداد الليقة ، عن سؤدد الخليقة ؛ وأحالوا على الرمم ، عند قصور الهمم ؛ ومن أعظم الآفات ، تفرهم بالعظم الرفات .

وَكَاثِمُ لَصِيمِ هَاشِمٍ * أَوْ مِنْ لَهَا مِيمِ الْعَبَاشِمِ ،
غَشِمُوا مَا يَغْشَاهُمْ * بِالطَّوْعِ إِلَّا كُلُّ غَاشِمٍ :

لَا يَبِينُ أَحَدُهُمْ عَلَى مُرَوِّهِ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخُوهِ ، وَلَا يَرَعَى وَارِثَ أَبُوهِ ، وَلَوْ
أَعْتَرَى إِلَى بَنُوهِ ؛ فَهُوَ غَيْرَ آسٍ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَاسٍ بِمُجُودِهِ ؛ يَرُوقُ كَيْسُهُ وَالْغَلَامُ ،
وَتَرُوعُكُ دُويُّهُ وَالْأَقْلَامُ ؛ فَإِذَا أَسْتَنْطَقَ قَلَمُهُ الصَّامِتَ ، أَجْدَلُ عَدُوَّهُ الشَّامِتَ ؛
فَزَادَ أَدْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَى أَدْرَاجِهِ نَاكِصًا .

فَهُوَ الَّذِي أُمِّلَى لَهُمْ حِلْمُهُ * مَعَ الْخَنَاءِ وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :
لَوْ أَنِّي وُلِّيتُ تَأْدِيَهُمْ * شَفَيْتُ صَدْرَ النَّقِيعِ النَّاهِضِ !
مَنْ نَاطِرٍ يُضْحِي بِلَا نَاطِرٍ ، * وَعَارِضٍ يُمَسِّي بِلَا عَارِضٍ ،
وَمُشْرِفٍ لِلدِّينِ مَا قَصَّدَهُ * فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدَةُ الْمَاخِضِ ،
وَحَازِنٍ إِنْ لَفَّ مَرْضَاتُهُ * مِنْ حُلُومِهِ عَفَّ عَنِ الْحَامِضِ ،
وَمَنْ حَبِثَ جَاءَنَا ذِكْرُهُ * فِي الذِّكْرِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْفَارِضِ ،
وَكَاتِبٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ * لَكَانَ أَوْلَى مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرَقَّعَ ؛ وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْعُهُودِ ؛ وَأَوْلَى بِسَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنْ سَطْرِ
الْمَنَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرُ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَطَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفُتُوحِ ؛
كَفَّهُ بِالْحِلْمِ ، أَوْلَى مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقَ بِالسَّحَاهِ ، مِنْ السَّحَاهِ ؛ وَأَلْيَقُ بِالْفُؤُوسِ ،
مِنَ الطُّرُوسِ ؛ يَبْرَى وَيَقْطُ ، وَلَا يَذْرَى مَا يَحْطُ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرَ السَّقَطِ ؛
إِنْ فَاتَحْتَهُ ، أَوْ طَارَحْتَهُ ؛ ظَفِرْتَ بَعْصَةَ الْمَسَاحِ ؛ وَخَشَرَ الْمَفَاتِحَ ، إِنْ خَطَّ : فَنُونُهُ
كَلَامُهُ ، وَخَلَطَ فَنُونُهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ فَمٍ ، * أَوْ أَنْفَدُوا أَنْفَذْتُمْ أَسْمَهُمُ الْكَلَمَ ،
 أَوْ قَلَدُوا قُلْدُوا خِزْيَا يُجَلِّلُهُمْ ، * أَوْ أَقَطَعُوا قُطِعُوا شَتْمًا بِجَهْلِهِمْ .
 أَرَأَيْتُمُ الْمَالَ وَالْأَعْمَالَ إِنْ رَقُّوا * جَاءُوا مِنَ الرَّقْمِ وَالْأَلْفَافِ بِالرَّقْمِ ،
 فَاللَّهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاةِ وَلَا تُقَاسُ بِالْحَقِّ وَالْقِرَاطِ وَالْقَلَمِ !!

فَالْجَلِيدُ بِهِمْ سَمَلٌ ، وَالسَّوَامُ بَيْنَهُمْ هَمَلٌ ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا عَمَلٌ ؛ لَهْفَى عَلَى
 الْفَضْلِ الْمُدَّالِ ، بِرِفْعَةِ الْأَنْذَالِ ؛ وَضَيَاعِ الْحُقُوقِ ، وَأَنْصِيَاعِ الْبَيْضَةِ عَنِ الْعُقُوقِ .

ثُمَّ مَا عَلَى سَيِّدِنَا الْوَزِيرِ ، مَعَ أَصْطَحَابِ الْبِمِّ وَالزَّيْرِ ، وَنَقَاقِ سُوقِهِ ، وَأَنْفَاسِهِ
 فِي قُسُوقِهِ ، وَأَنْتِصَالِ صَبُوحِهِ بَغْبُوقِهِ ؛ وَتَحَلِّيهِ فِي الْبَهْوِ ، لِلْعِبِّ وَاللَّهُوِ ؛ مِنْ ظَهْرِ غَيِّ
 يَرْكَبُ ، وَذِي يَسَارِينِكَبُ ؛ وَسَاعِ يَثْنَى ، وَرَاجِ يَرْثَنِي ؛ وَرُسُومِ حَيْفِ تُجَحَّدُ ،
 وَسَوَائِ تَعْتَدُ ؛ مَا يَضُرُّهُ مِنْ شَكْوَى الْجَارِحِ الْبُعَاثِ ، وَصَرِيخِ لَا يُغَاثِ ؛ وَوَالِ
 يَعْسُفُ بِأَهْلِ مَصْرِهِ ، وَإِنْ شَرَكُهُ فِي إِضْرِهِ ؛ وَقَاضٍ لَا يُنْصِفُ الرَّعِيَةَ ، وَلَا يَنْتَبِعُ
 الْقَضَايَا الشَّرْعِيَّةَ ؛ وَفَقِيهِ يَسُفُ إِلَى تَحْصِيلِ عَرَضِ زَائِلٍ ، وَتَعْجِيلِ غَرَضٍ مِنْ
 سَائِلٍ ؛ مَالَهُ وَلِحْفِظِ الْمَالِ ، وَمُحَاسَبَةِ الْعَمَالِ ؟ :

أَمْ مَا عَلَى الْعَامِلِ نَمِيسِ الدَّجَاجِ * إِنْ نَقَصَ الْكَرْمُ وَزَادَ الْخَرَاجُ ؟
 عَلَيْهِ أَنْ يَخْضَلَ فِي كُمِهِ * شَيْءٌ وَإِنْ أَخْلَى جَمِيعُ الْخَرَاجِ .
 وَهُوَ خَرَاجٌ عِنْدَ مَا يَنْتَهِي * يُبْطِطُ بِالْمِبْضَعِ مَا فِي الْخَرَاجِ !!!

شُغْلُهُمْ بِالشَّهْدِ الْمَشُورِ ، لَا بِمَشْهَدِ يَوْمِ النُّشُورِ ، وَقَصْدُهُمُ الْجَمْعُ وَالْاِكْتِسَابُ ،
 وَمَتَى الْجَمْعُ وَالْحِسَابُ ؛ إِنَّمَا هُوَ مَالٌ يُحْتَقَبُ ، لَا مَالٌ يُرْتَقَبُ ؛ وَفَسَادٌ فِي الْأَرْضِ ،
 لَا إِعْدَادَ لِيَوْمِ الْعَرَضِ :

وَإِنِّي لَأَرْتِي لِلرَّاتِبِ تَحَوِي * عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ بُرُودٌ،
 سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فِيمَا يَشِينُهُمْ * وَلِكِنَّهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودٌ،
 يَقَاطُ إِذَا مَا ثَوَّبَ اللُّؤْمُ دَاعِيَا * وَعِنْدَ نِدَاءِ الْمَكْرَمَاتِ رُقُودٌ،
 وَمَا غَرَّنِي إِلَّا جَلَاوِزَ حَوْلَهُمْ * وَإِلَّا قِيَامٌ بَيْنَهُمْ وَقُعُودٌ،
 لَقَدْ حَسِدُوا ظُلْمًا عَلَى مَا أَنَاهُمْ * وَهَلْ لَأَنحَى نَقِصَ يَسُودُ حُسُودٌ؟
 وَلِلسَّيِّدِ الْمَحْسُودِ كَفٌّ عَنِ الْعُلَى * تَذُودُ وَأُنْحَرِي بِالنَّوَالِ تَجُودُ،
 لَمَّا اللَّهُ دُنِيَانَا الَّتِي ضَلَّ سَعْيُهَا * وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُغُودُ،
 إِذَا صَغُرَتْ كَاسِمِ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إِنَّمَا الصَّدْرُ مِنْ صَدْرِهِ كَجَلِّهِ ، وَحَسُنْتَ أَعْمَالُهُ ، وَجَرَّدَ الْعَزَمَاتِ ، فَشَرَّدَ
 الْأَزْمَاتِ ، وَفَقِيَ بِذَبِّهِ الْكُرْبَاتِ ، وَأَصْطَفَى لِرَبِّهِ الْقُرْبَاتِ ، فَسَهَلَ الْغَنَى ، وَأَقْعَمَ الْإِنَاءَ ،
 وَوَضَعَ مَوَاضِعَ النَّقَبِ الْهِنَا ، فَهُوَ يَهْشُ لِلنَّوَالِ ، وَيَبْشُ عِنْدَ السُّؤَالِ ، لَا يَشُوبُ
 وَرْدَهُ الْقَدَا ، وَلَا يُبْطِلُ مِنْهُ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، يَبْشُرُ بَشْرِهِ بِحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَنْشُرُ بَشْرَهُ
 الطَّيِّبَ فِي الْأَفَاقِ ، وَيُحْسِمُ بِدَوَانِهِ دَاءَ الْإِمْلَاقِ ، وَيُحْزِرُ بِقَصْبَتِهِ قَصَبَ السَّبَاقِ :

يُجَرِّدُهَا مِنْ مِثْلِ وَفَضَّةِ نَابِلٍ * أَجْنَتْهَا مِنْ نَافِدَاتِ الْمَعَايِلِ ،
 وَفِي خَطِّهِ الْمَنْسُوبِ تُرْزَى شَبَابُهَا * بَلْهَدَمَ مَنْسُوبٍ إِلَى الْخَطِّ ذَايِلِ ،
 وَإِنْ بَذَرْتَ عَنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ أَنْبَتَ * مِنَ الْبَرِّ قَبِيلَ الْبُرْسِ سَنَابِلِ !!

دُؤُوبُهُ لِإِقَالَةِ الْعَائِرِ ، وَعِمَارَةِ الدَّائِرِ ، وَإِشَاعَةِ الْمَآثِرِ ، هَمُّهُ فِي مُعْضِلَةِ تُرَاضِ ،
 وَمَعْدِلَةِ تَفَاضِ ، وَخَلَلِ يُسَدِّ ، وَجَلَلِ يُصَدِّ ، وَعَانَ بِظَهْرِهِ يُعَانِ ، وَعَاتٍ بِقَهْرِهِ يُهَانَ ،
 بَابُهُ مَفْتُوحٌ ، وَخَيْرُهُ مَمْنُوحٌ ، وَمَا أَقَلَّ الْأَلَامِ ، لِمَنْ أَكْثَرَ الْوَلَامِ ، وَأَغْفَلَ الْجَادِبِ ،

لَمَنْ صَنَعَ الْمَادِبَ ؛ وَأَخْلَصَ الْإِخَاءَ ؛ لَمَنْ أَسْتَخْلَصَ السَّخَاءَ ؛ فَبَذَلَ الرِّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ ،
وَالسَّنَامَ الْإِطْرِيحَ ؛ لَا كَمَنْ يَشْحُ بِالْقُتَارِ ، لَفَرَطِ الْإِقْتَارِ ؛ وَيَضُنُّ بِالْوَضَرِ ، عَلَى
الْمُحْتَضَرِ ؛ وَيَخْلُ بِالْعَرَاقِ ، عَمَّنْ رُوحُهُ فِي التَّرَاقِ ، وَيُسِرُّ الْغَمِيرَةَ ، لَمَنْ يَتَنَبَّئِي الْمِيرَةَ ؛
وَيُيَظِنُّ الدَّاءَ ؛ لَمَنْ يَتَنَظَّرُ الْغَدَاءَ ؛ وَيُسْعِرُ الْأَحْشَاءَ ؛ لَمَنْ تَرَقَّبَ الْعِشَاءَ :

مسلط سيرته نعمة * وجائر قسمته ضيرى ،

ليس بذى لب يملئ النَّائى * ولا لباب يملأ الشَّيرى !

يَحْقُدُ عَلَى الْإِخْوَانِ ، عِنْدَ ظُهُورِ الْخَوَانِ ؛ فَتَرَاهُ يُحَدِّقُ ، إِلَى مَنْ يُشَدِّقُ ؛ وَيَتَقِمُّ ،
مَنْ يَلْتَقِمُ ؛ وَيَذِلُّ الْأَكِيلَ ، وَيُحِلُّ بِهِ التَّنْيِيلَ ؛ وَيُبْغِضُ الشَّرِيبَ ، وَإِنْ كَانَ الْخِلْدَنَ
الْقَرِيبَ ؛ فَالْحَاسِنَ مِنْ يَرْدٍ ، فَيَزْدَرِدُ ؛ وَالْحَاسِنُ مِنْ يَنْسِطُ ، فَيَسْتَرْطُ ؛ يَشْنَأُ مِنْ
الْأَجْرَاسِ ، صَوْتِ الْأَضْرَاسِ ؛ وَحَشَرَجَةِ الْبَلَاعِمِ ، بِذَرْجَةِ الْمَطَاعِمِ ؛ وَهَرَهْرَةَ
الشَّدُوقِ ، وَجَرَجَةَ الْخُلُوقِ ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَازِرُ بُلُوَاهُ ، أَفْوََاهَا تَصَدَّتْ لِحْلُوَاهُ ؛
وَحَكَمَتْ لِحَامِهِ ، بِحِكْمَةِ لِحَامِهِ ؛ وَعُدَّتْ بِكَيَوَانِهِ ، لَهَى وَعُدَّتْ بِأَلْوَانِهِ ؛ رَغِيْفُهُ أَعْرَزُ^(١)
مِنَ الْغَرِيْفِ ، وَأَغْرَبُ مِنَ الشَّيْءِ الطَّرِيفِ ؛ صَرِيفُ بَابِهِ ، دُونَ صَرِيفِ نَابِهِ ؛
وَيُحْكِمُ صَكَّ بَابِهِ ، عَنْ كَبَابِهِ ؛ وَيُعِدُّ سَدِيفَ جَفَانِهِ ، مِنْ سَدِيفِ أَجْفَانِهِ ؛ يُمَانِعُ
بَلَدِيدِهِ ، عَنْ سَفُودِ قَدِيدِهِ ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةٍ وَرِيدِهِ ، عَنْ صَفْحَةِ ثَرِيدِهِ ؛ حَمَلُهُ مِنْ
نُجُومِ الْحَمَلِ ، وَسَمَكُهُ فَوْقَ السَّمَكِ الْأَعْزَلِ ؛ وَحُوتُهُ بَيْنَ الْحَوْتِ وَالْأَسَدِ ، وَجَدِيهِ
عِنْدَ جَدِّي الْفَرَقْدِ ؛ دُونَ عُجَّتِهِ آرْتِفَاعِ الْعِجَاجِ ، وَتَحْتَ دَجَاجَتِهِ ذَنْبُ الدَّجَاجَةِ :

يُدرج في القِدرِ دُرَاجُهُ * لِيَلْقَطَ الْحَبَّ وَطِينُوجُهُ

فَفِي السَّمَوَاتِ سُمَانَاتُهُ * وَعِنْدَ دِيكِ الْعَرْشِ فَرُوجُهُ

(١) مِنْ عَرَزِهِ يَعْرِزُهُ انْتَرَعَا عَنِيْفَا وَالْغَرِيفُ الدَّلُو .

يَحْرُسُ مَائِدَتَهُ الدَّلْوُ والعَقْرَبُ ، وهُمَا مَنَا أَدْنَى وَأَقْرَبُ ، يُعْجِبُهُ التَّشْمِيرُ وَالْأَحْيَانُ ،
 وَيَلْذُّهُ التَّوْفِيرُ وَالْأَخْتِرَانُ ، وَقَصْرُ مُفَاجَأَةِ أَحْوَالِ ، تُصَرِّحُ عَنْ أَهْوَالِ ، وَكَأَنَّكَ
 بِالْأَيَّامِ بَعْدَ الْإِتْسَامِ ، شَاهِرَةٌ لِلْحُسَامِ ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَنْ أَنْبَاهِهَا الْعُصْلُ ، فِي بُكْرَاهَا
 وَالْأُصْلُ ؛ وَأَجَلَتْ عَنْ سَلِيلٍ مَسْحُوبٍ ، لَتَنْكُرُ مَصْحُوبٌ ؛ وَآخِرَ تَرَدُّدٍ فِي الْبُوسِ ،
 وَيُخَلِّدُ فِي الْحُبُوسِ ؛ قَدْ حَصَلَ عَلَى سَلَّةِ الْحَاوِي ، مِنْ سَلَةِ الْحَلَاوِي ؛ وَمَنْ طَعِمَ
 الْعَسَلَ ، عَلَى طَعْنِ الْأَسَلِ ؛ وَمَنْ الْعَذِبَ الْبَارِدَ ، عَلَى خَرِّ الْمَبَارِدِ :

تَقْبِضُ مِنْ خَطْوِهِ الْكُبُولُ * فَهُوَ عَلَى قَيْدِهِ يَبُولُ ،

خَلَا مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ طَبْلُ * وَهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ ،

يَتَشَكَّرُ إِلَى اللَّهِ مُسْتَغْنِيًا * وَمَا لَهُ عِنْدَهُ قَبُولُ ،

ذَاكَ بِمَا كَانَ مُسْتَطِيلًا * تُرْدِي دَوَاهِيَهُ وَالْمُيُولُ !

فَهِمُ بَيْنَ حَصَى تَعَصُرَ ، وَقَفَا يَقْصُرُ ؛ وَرِكَابٍ مَثْقُوبَةٍ ، وَأَنْوَاعٍ عُقُوبَةٍ ؛ أَوْ يُقَالُ
 فَلَانُ أَنْارَتِهِ شَعُوبُ ، وَوَارَتُهُ الْجُبُوبُ ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ الْمَمَاتِ ، مِنَ الْمُقَدَّمَاتِ ؛
 وَمَا ظَنُّكَ بِالشَّلْوِ الطَّرِيجِ ، فِي ضَنْكِ الضَّرِيجِ ؛ تَحْتَهُ الْبَرْزَخُ الْمَوْصُودُ ، وَفَوْقَهُ الْجَبَلُ
 الْمَنْصُودُ ؛ أَنْظِرْ كَيْفَ هَجَرَ بَابَهُ الْمَقْصُودُ ، وَجَانِبَتْ جَنَابَهُ الْوُقُودُ ؛ وَأَخْلَقْتَ رِبَاعَهُ ،
 وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ ؛ ثُمَّ تَشْوِيهِ الْحُوبُ ، أَشْبَعُ مِنْ تَشْوِيهِ الشُّحُوبِ (؟) ؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ
 الْبُورِ ، مِنْ بَعَثَةِ الْقُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الْأَنْفُسِ الْغَاوِيَةِ * مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحَفْرِ الْهَاوِيَةِ ،

وَكُلُّ مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُثْمُهُ فِي بَعْنِهِ هَاوِيَةٍ ،

وَلَيْسَ يَذَرِي وَيَحُهُ مَا هِيَهُ * نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَهُ !

أعاذنا الله من خِلَالٍ يَقْضِي جَهْلُهَا بِالشَّنَارِ، وَأَفْعَالٍ تُفْضِي بِأَهْلِهَا إِلَى النَّارِ؛ بِكَرَمِهِ
وإِحْسَانِهِ، وَطَوْلِهِ وَأَمْتِنَانِهِ .

الصنف الثالث

(من الرسائل المفاخرات ، وهي على أنواع)

منها : المفاخرة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المفاخرة بين العلوم ، أنشأتها في شُهور سنة ثمان وتسعين
وسبعمائة ، لفاضل القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن
ابن شيخ الإسلام ، بَقِيَّةَ المجتهدين ، أبي حَفِصٍ عمر البلقيني الكفائي ، الشافعي ،
أَمَّعَ اللهُ تعالى المسلمين ببقائه ، ذكرتُ فيها نيفاً وسبعين علماً ، أبتدأتها بعلم اللغة ،
وختَمتُها بفن التاريخ ، ذا كراً فخر كلِّ عليم على الذي قبله ، محتجاً عليه بفضائل موجودة
فيه دون الآخر ، وجعلتُ مصبَّ القول فيها إلى أشتماله على جميعها ، وإحاطته بكلِّها ،
مع الإشارة إلى فضل والده ، شيخ الإسلام ، ومساهمته له في الفضل ، على ما ستَقِفُ
عليه إن شاء الله تعالى ؛ وهي :

الحمد لله الذي جعلَ للعلم جلالاً تَوَدُّ جلائلُ الفضائل أن تكونَ له أتباعاً ، وأطلق
ألسنةَ الأقلام من جميل ثَنَائِهِ بما أنطقَ به ألسنةُ العالم ليكونَ الحكم بما ثَبَّتَ من
مأثور فضله إجماعاً ، وأجرى من قاموسِ فكره جداولَ أنهار العلوم الزكية فَنَعَشَ
قلوباً ونَزَهَ أبصاراً وشَنَفَ أَسْماءاً .

أحمدُه على أن أفاض نتائِجَ الأفكار على الأذهان السليمة لذي النظر الصحيح ،
وبَثَّ جِيَادَ الألسنة في ميدان الجدال فحاز قَصَبَ السَّبْقِ منها كلُّ لسانٍ ذَلِيقٍ فصيح .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى قَهَرَتْ بَيِّنَاتُ دَلَالِهِ الْمُلْحِدَ
 المَعَانِدَ، وَبَهَرَتْ قَوَاطِعُ بَرَاهِينِهِ الْأَلَدَّ الْخَصِيمَ وَالْجَدِلَ الْمُبَايِدَ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
 وَرَسُولُهُ الذى أَظْهَرَ مِنْ وَاضِحِ الْمَجْجِ الْجَلِيلَةِ مَا نَقَطَ بِحُجَّتِهِ دَعْوَى الْمُعَارِضِ، وَأَتَى
 مِنْ فَضْلِ الْخِطَابِ بِمَا أَفْخَمَ بِهِ الْخَصُومَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَشَدُّهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ شِكِيمَةً أَنْ
 يَأْتِيَ لَهُ بِمُنَاقِضٍ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَازُوا مِنْ جَلِيلِ الْمُنَاقِبِ بِكُلِّ
 وَصْفٍ جَمِيلٍ، وَأَشْتَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ مَفَاخِرُهُمْ فَلَمْ يُحْتَجْ فِي إِثْبَاتِهَا إِلَى إِقَامَةِ دَلِيلٍ؛
 صَلَاةٌ يُتَمَسَّكُ فِي دَعْوَى الشَّرَفِ بِمَتْنَيْنِ حَبْلُهَا، وَتَتَّفَقُ أَدَلَّةُ الْعَقْلِ وَالنُّقْلِ عَلَى الْقَطْعِ
 بِعُلُوشَاتِهَا وَتَوْفِيرِ فَضْلِهَا .

وبعد ، فلما كانت العلومُ مشتركةً في أَصْلِ التَّفْضِيلِ ، مُتَّفَقَةً الْفَضْلُ فِي الْجُمْلَةِ
 وَإِنْ تَفَاوَتْ فِي التَّفْصِيلِ ؛ مُسَلِّمًا أَصْلُ الشَّرَفِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ مُنَازَعٍ ، مُجْمَعًا عَلَى أَنَّهُ
 لَا شَيْءَ مِنَ الْعِلْمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عِلْمٌ بِضَارٍّ وَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَهْلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ جَهْلٌ
 بِنَافِعٍ ؛ مَعَ آخِلَاتِهَا فِي التَّفَاضُلِ بِاخْتِلَافِ مَوْضُوعَاتِهَا ، وَتَفَاوُتِهَا فِي الشَّرَفِ بِحَسَبِ
 الْحَاجَةِ إِلَيْهَا أَوْ وَثَاقَةِ مُحْجَجِهَا أَوْ نَفَاسَةِ غَايَاتِهَا ؛ عَطَسَ كُلُّ مَنْهَا بِأَنْفٍ شَاخٍ غَيْرِ مُسَلِّمٍ
 لِلْآخِرِ وَلَا مُسَلِّمٍ ، وَمَدَّ إِلَى الْعَلِيَاءِ يَدَ الْمَطَاوِلَةِ فَنَتَاوَلُ الثَّرِيًّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمٍ ، وَادَّعَى
 كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَحْرَهُ الطَّامِي ، وَفَضْلُهُ النَّامِي ؛ وَجَوَادَهُ الطَّامِحُ ، وَسِمَاكَ الرَّامِحُ ؛ زَاعِمًا
 أَنْ حُسَامَهُ الْقَاطِعُ وَعَظْمُهُ الْقَاضِبُ ، وَقِدْحَهُ الْمُعَلِّيَّ وَسَهْمَهُ الصَّائِبَ ، وَتَجْمَهُ السَّارِي
 وَشِهَابَهُ النَّاقِبَ ؛ وَأَنْ تَنْشُرَ النَّاءُ عَلَى مَجَامِرِهِ مَوْقُوفٌ ، وَخَطِيبُ الْحَمَامِدِ بِمَنَابِرِهِ
 مَعْرُوفٌ ؛ وَفَلَكَ الْفَضْلُ عَلَى قُطْبِهِ دَائِرٌ ، وَكُلُّ شَرَفٍ عَلَيْهِ مُحْبَسٌ وَكُلُّ فَخْرٍ عَلَيْهِ قَاصِرٌ ؛
 فَمَاسَ بَعْطِفِهِ وَمَالَ ، وَبَسَطَ فِي الْكَلَامِ لِسَانَهُ فَقَالَ وَطَالَ .

هذا : وَإِنَّمَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا اجْتِمَاعَ مَعْنَى لَا صُورَهُ ، وَقَامَتْ لَهَا سُوقٌ بِالْبَحْثِ
 مَعْرُوفَةٌ وَعَلَى الْحَدَالِ مَقْصُورَةٌ ؛ وَتَفَاوَضَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ وَتَخَاطَبَتْ ، وَتَحَاوَرَتْ

في دَعْوَى الشَّرَفِ وتَجَاوَبَتْ ؛ وَأَلَمْتُ بِالْمُنَافَرَةِ فَتَنَافَرْتُ ، وَتَسَابَقْتُ فِي مِيدَانِ
الْإِنْتِخَارِ فَتَنَافَحْتُ ؛ وَأَخَذْتُ كُلَّ مَنَّا فِي نُصْرَةِ مَذْهَبِهِ ، وَتَحْقِيقِ مَطْلَبِهِ ؛ بِأَنْوَاعِ الْحُجَجِ
وَالْأَسْتِدْلَالِ ، وَإِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَمَارَاتِ ، وَمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ
وَالْإِعْتِرَاضَاتِ . فَكَانَ أَوَّلُ بَادِيٍّ بَدَأَ مِنْهَا بِالْكَلَامِ ، وَفَتَحَ بَابَ الْحِدَالِ وَالْخِصَامِ : -

عَلَّمَ اللُّغَةَ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمْتُمْ مَعَشَرَ الْعُلُومِ أَنِّي أَعْمَكُمُ نَفْعًا ، وَأَوْسَعُكُمْ مَجَالًا وَأَكْثَرُكُمْ جَمْعًا ؛ عَلَى قُطْبِ
فَلَكَ تَدَوُّرِ الدَّوَائِرِ ، وَبِوَاسِطَتِي تُدْرِكُ الْمَقَاصِدَ وَيَسْتَعْلِمُ مَا فِي الضَّمَائِرِ ؛ وَبِدَلَالَتِي تُعْلَمُ
الْمَعَانِي الْمَفْرَدَاتِ ، وَيَتَمَيَّزُ مَا يَدُلُّ عَلَى الذَّوَاتِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَدَوَاتِ ؛ وَتَتَبَيَّنُ دِلَالَاتُ
الْعَامِّ وَالْخَاصِّ ، وَيَتَعَرَّفُ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَمَا يَخْتَصُّ بِالْأَشْخَاصِ ؛
عَلَى أَنْ كُلُّكُمْ كُلُّهُ عَلَى ، وَحُتَاجٌ فِي تَرْجُمَةٍ مَقْصُودِهِ إِلَيَّ ؛ فَلَفْظِي " الْمُحْكَمُ " وَأَقْوَالِي
" الصَّحَاحُ " ، وَكَلَامِي " الْجَامِعُ " وَسَيْفُ لِسَانِي " الْمُجَرَّدُ " نَاهِيكَ مِنْ سِلَاحٍ ؛ وَفَضْلِي
" الْمُجْمَلُ " لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . إِسْتَأْثَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْلِيمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَآثَرَهُ فِي
مَعْرِفَةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ خَصِيصَةً لَهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ .^(١)

فَلَمَّا أَنْقَضَى قِيلَهُ ، وَبَانَتْ لِلْمُسْتَبِيرِ سَبِيلُهُ ؛ تَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُبْتَدِرًا ،
وَلِنَفْسِهِ وَلِسَائِرِ الْعُلُومِ مُتَّصِرًا ؛ فَقَالَ : رُؤَيْدَكَ أَيُّهَا الْمُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ يَا ذَا
الْمُنَازِلِ ؛ فَقَدْ دَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ ، وَحُطَّ قَدْرُهُ مِنْ تَرْفَعٍ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَلَوْ عُقِدَتْ
عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ؛ وَمَا يُنْجِدِي الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ ، أَوْ يُغْنِي السَّاعِي إِلَى الْحَرْبِ بِغَيْرِ
سِلَاحٍ ؛ وَأَنْتَ يَا بَطْنُ رُحْمٍ بِغَيْرِ سِنَانٍ ، أَوْ يَقْطَعُ سَيْفٌ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمٍ وَلَمْ تَقْبِضْ عَلَيْهِ
بَنَانٌ ؛ إِنَّكَ وَإِنْ حَوَيْتَ فَضْلًا ، وَأَعْرَقْتَ أَصْلًا ؛ وَكَنْتَ لِلْكَلَامِ نِظَامًا ، وَإِلَى

(١) الذي في كتب اللغة « خَصِيصٌ » وَيُمَدُّ .

بَيَانُ المقاصدِ إِمَامًا ؛ فَأَنْتَ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِنَفْسِكَ ، وَلَا قَائِمٌ بِرَأْسِكَ ؛ بَلْ أَنَا الْمُتَكَفِّلُ
بِتَأْسِيسِ مَبَانِيكَ ، وَالْمَلْتَمِمْ بِتَحْرِيرِ أَلْفَاظِكَ وَتَقْرِيرِ مَعَانِيكَ ؛ بِي تُعْرَفُ أَصُولُ أُبْنِيَّةِ
الكَلِمَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا ، وَكَيْفِيَّةُ التَّصَرُّفِ فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا ؛ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ
مِنْ أَحْوَالِ الحُرُوفِ البَسِيطَةِ وَتَرْتِيبِهَا ، وَآخِلَافِ مَخَارِجِهَا وَبَيَانِ تَرَكِيبِهَا ؛ وَالْأَصْلِيُّ
مِنْهَا وَالْمَزِيدُ ، وَالْمُهْمُوسُ وَالرَّخْوُ وَالشَّدِيدُ ؛ وَتَقْدِيرُهُ ، وَالصَّحِيحُ وَالْمُعْتَلُّ ^(١)
وَتَحْرِيرُهُ ؛ وَكَيْفِيَّةُ التَّنْثِيَةِ وَاجْتِمَاعِ ، وَالْفَصْلُ وَالْوَصْلُ وَالْإِبْتِدَاءُ وَالْقَطْعُ ؛ وَأَنْوَاعُ الْأُبْنِيَّةِ
وَتَغْيِيرُهَا عِنْدَ اللَّوَاحِقِ ، وَكَيْفِيَّةُ تَصْرِيفِ الْفِعْلِ عِنْدَ تَجَرُّدِهِ عَنِ الْعَوَائِقِ ؛ وَأُمُثْلَةُ
الْأَلْفَاظِ الْمَفْرَدَةِ فِي الزَّنَةِ وَالْهَيْئَةِ وَمَا يَخْتَصُّ مِنْ ذَلِكَ بِالْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ ، وَتَمَيِيزُ الْجَامِدِ
مِنْهَا وَالْمُسْتَقَّ وَأَصْنَافُ الْأَشْتِقَاقِ : وَكَيْفَ هُوَ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ .

عَلَى أَنَّكَ لَوْ خُلِّيتَ وَمَجْرَدَ التَّعْرِيفِ ، وَبَيَانِ الْمَقَاصِدِ بِالْأَصْطِلَاحِ أَوْ التَّوْقِيفِ ؛
لَكَانَ عِلْمُ الْخَلِطِ يَقُومُ مَقَامَكَ فِي الدَّلَالَةِ الْحَالِيَّةِ لَدَى الْمُتَلَقِّ ، وَيَتَرَجَّحُ عَلَيْكَ بَعْدَ
الْمَسَافَةِ مَعَ طُولِ الْبَقَاءِ ؛ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ تَرْتِيبِ الْأَحْوَالِ ، وَضَبْطِ الْأُمُورِ ؛
وَحِفْظِ الْعُلُومِ فِي الْأَدْوَارِ ، وَاسْتِمْرَارِهَا عَلَى الْأَكْوَارِ ؛ وَانْتِقَالِ الْأَخْبَارِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى
زَمَانٍ ، وَحَمْلِهَا سِرًّا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ؛ بَلْ رُبَّمَا أَكْتَفَيْتَنِي بِالإِشَارَةِ وَالتَّلْوِيحِ ،
وَقَامَتِ الْحِكَايَةُ مِنْهَا مَقَامَ التَّصْرِيحِ .

فَعِنْدَهَا غَضَبُ عِلْمِ النَّحْوِ وَكَفْهَرُ وَزَجَرِ وَأَشْمَخَرٍ ؛ وَقَالَ : يَا لَهِ ! ”أَسْتَنْتِ
الْفِصَالُ حَتَّى الْقَرْعَا“ ، وَ”أَسْتَنْسَرَتِ الْبَغَاثُ“ ، فَكَانَ أَشَدَّ ثُلْمَةً وَأَعْظَمَ صَدْعًا ؛ لَقَدْ
أَدْعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ فَفَاتَكَ الْحُبُورُ ، وَ”مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يَنْلِ فَهُوَ كَلَايِسٌ تَوْبَى زُورُ“ ؛
وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا بَضْعَةٌ مِنِّي ؟ ، تُسْنَدُ إِلَى وَتَقْلُ عَنِّي ؛ لَمْ يَزَلْ عِلْمُكَ أَبَاً مِنْ أَبَوَائِي ،

وَجُمْلَتُكَ دَاخِلَةٌ فِي حِسَابِي ؛ حَتَّى مِيزَكَ ”الْمَازِنُ“ ، فَأَفْرَدَكَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَتَلَاهُ
 ”أَبْنُ جُنَيْ“ ، فَتَبِعَهُ فِي التَّالِيفِ ؛ وَأَقْتَصَرَ ”ابْنُ مَالِك“ مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورِيِّ
 الْوَاجِبِ ، وَأَحْسَنَ بِكَ ”أَبْنُ الْحَاجِبِ“ فِي شَافِيَتِهِ فَرَقَعَ عَنْكَ الْحَاجِبِ ؛ وَأَنْتَ
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْوِيُّ ضَمْنِ كُتُبِي ، نِسْبَتُكَ مُتَّصِلَةٌ بِنِسْبَتِي وَحَسَبُكَ لِاحِقٌ بِحَسَبِي ؛
 أَنَا مِلْحُ الْكَلَامِ ، وَمِسْكُ الْخِتَامِ ؛ لَا يَسْتَعْنِي عَنِّي مِتْكَامٌ ، وَلَا يَلِيقُ جَهْلِي بِعَالِمٍ
 وَلَا مُتَعَلِّمٍ ، بِي تَتَيْنِ أَحْوَالُ الْأَلْفَاظِ الْمُرَكَّبَةِ فِي دِلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ ، وَيَرْتَفِعُ اللَّبْسُ
 عَنْ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالصَّلَةِ وَالْعَائِدِ ؛ فَلَوْ أَنَّي الْمِتْكَامُ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعْنَى
 وَلَحْنٍ لَذَهَبَتْ حَلَاوَتُهُ ، وَزَالَتْ طَلَاوَتُهُ ، وَعِيبَ عَلَى قَائِلِهِ وَتَغَيَّرَتْ دِلَالَتُهُ . وَقَدْ كَانَتْ
 الْخُلَفَاءُ تَحُثُّ عَلَى النَّحْوِ وَتُرْشِدُ إِلَيْهِ ، وَتَحْذَرُ اللَّحْنَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا * فَاجْلِثَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ !

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ جُمْلَةً ، وَحَمَلَتْ عَلَيْهِ
 بِصَدْقِ الْعَزْمِ فِي اللَّقَاءِ حَمْلَهُ ؛ وَقَالَتْ : جَعَجَعَةُ رَحًا مِنْ غَيْرِ طِغْنٍ ، وَتَصْوِيتُ
 رَعْدٍ مِنْ غَيْرِ مُزْنٍ ؛ لَقَدْ أَتَيْتَ بِغَيْرِ مُعْرَبٍ ، وَأَعْرَبْتَ عَنْ لَيْسَ بِمُطْرَبٍ ؛
 الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالْبَاطِلُ بَلْخَجُ ؛ إِنْ الْفَوْزَ لِقِدْحِنَا ، وَالْوَرَى لِقِدْحِنَا ؛ نَحْنُ لُبُّ
 الْعَرَبِيَّةِ وَخُلَاصَتُهَا ، وَالْمُعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ عَامَّتُهَا وَخَاصَّتُهَا ؛ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا شَيْءٌ
 جَرَى عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ ، وَسَاعَدَكَ الْأَسْتِمَالُ فَأَمِنْتَ الْأَطْرَاحَ ؛ فَلَوْ أَصْطَلَحَ عَلَى
 نَصْبِ الْفَاعِلِ وَرَفْعِ الْمَفْعُولِ لَمْ يَخْلُ بِالتَّفَاهُمِ فِي الْمَقَاصِدِ ، وَهَذَا كَلَامُ الْعَامَّةِ لَذَلِكَ أَقْوَمُ
 دَلِيلٌ وَأَعْظَمُ شَاهِدٌ .

فَقَالَ عِلْمُ الشَّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ تَسَيَّمْتُ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَضَلْتُمْ ، وَصَرَّمْتُمْ حَبْلِي الَّذِي
 مِنْ أَجْلِهِ وَصَلْتُمْ ؛ أَنَا حُجَّةُ الْأَدَبِ ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ ؛ عَلَى تَرَدُّونَ ، وَعَنِّي تَصُدُّونَ ؛

وإلى تَنَسُّبُونَ، وبى تَشْتَهَرُونَ، مع ما أَشْتَمَلْتُ عليه من المدح الذى كم رَفَعَ وَضَعًا،
وَجَلَبَ نَفْعًا، وَوَصَلَ قَطْعًا، وَجَبَرَ صَدْعًا، وَالمَحْجُو الذى كم حَطَّ قَدْرًا، وَأَنَحَدَ ذِكْرًا،
وَجَعَلَ بَيْنَ الرَّفِيعِ وَالْوَضِيعِ فى حَظِيطَةِ الْقَدْرِ نَسْبًا وَصِهْرًا؛ إلى غير ذلك من أنواعِ
الشَّعْرِيَّةِ التى شَاعَ ذِكْرُهَا، وَأَصْوَاعِى الْعِطْرِيَّةِ التى فَاحَ نَشْرُهَا ؛ بل لا يكادُ عِلْمٌ من
العلومِ الأَدَبِيَّةِ يَسْتَغْنِي عَنْ شَوَاهِدِى ، ولا يَخْرُجُ فى أَصُولِهِ عَنْ قَوَائِنِى وَقَوَاعِدِى ؛
حَتَّى عِلْمُ النَّثْرِ الذى هُوَ شَقِيقِى فى النَّسَبِ ، وَعَدِىلى فى لِسَانِ الْعَرَبِ ؛ لم يَزَلْ أَهْلُهُ
يَتَطَفَّلُونَ عَلَى فى بَيْتٍ يَحِلُّونَهُ ، وَيَقِفُونَ مِنْ بَدِيعِ مَحَاسِنِى عِنْدَ حَدٍّ لَا يَتَعَدُّونَهُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْقَافِيَةِ : إِنَّكَ وَإِنْ تَأَلَّقَ بَرَقُ مَبَاسِمِكَ ، وَطَابَتْ أَيَّامُ مَوَاسِمِكَ ؛ فَأَنْتَ
مَوْقُوفٌ عَلَى مَقَاصِدِى ، وَمُعْتَرِفٌ مِنْ رَوَى مَوَارِدِى ؛ أَنَا عُدَّةُ الشَّاعِرِ ، وَعُمْدَةُ النَّاثِرِ ؛
لَا يَسْتَغْنِي عَنِ شِعْرٍ وَلَا خَطَابَةٍ ، وَلَا يَسْتَنكِفُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى أَبْوَابِ دُورِ تَرْسِلِ
وَلَا كِتَابَةٍ ؛ طَالَمَا عَثَرَ الْفُحُولُ فى مِيدَانِى ، وَتَشَعَّبَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقِ فَضْلُوا السَّبِيلِ
وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمُ الْمَبَانِى ؛ فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ التَّكَوُّسِ وَالتَّرَاكِبِ فى التَّعَارُفِ ، وَلَمْ يُمَيِّزُوا
بَيْنَ التَّدَارُكِ وَالتَّوَاتُرِ وَالتَّرَادُفِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْعُرُوضِ : لَقَدْ أَسْمَعْتَ الْقَوْلَ فى الدَّعْوَى مِنْ غَيْرِ تَوْجِيهِ فَدَخَلَ
عَلَيْكَ الدَّخِيلُ ، وَأَوْقَعَكَ الْوَصْلُ دُونَ تَأْسِيسِ فى هُوَّةِ النَّقْصِ : فَهَلْ إِلَى خُرُوجِ
مِنْ سَبِيلِ ؟ ؛ أَنَا مَعْيَارُ الْفَرِيزِ وَمِيزَانُهُ ، وَعَلَى ثُبْنِ قَوَاعِدِهِ وَأَرْكَانِهِ ؛ لم يَزَلِ الشَّعْرُ
فى عُلُوِّ رُتَبَتِهِ بِفَضْلِي مُعْتَرِفًا وَلِحَقِّى مُتَحَقِّقًا ، وَمِنْ بُحُورِى مُعْتَرِفًا ، وَبِأَسْبَابِى مُتَعَلِّقًا ؛
فَأَبْيَانُهُ بِمِيزَانِى مُحَرَّرَهُ ، وَأَجْرَاؤُهُ بِقِسْطَائِى تَفَاعِيلِ مُقَدَّرَهُ ؛ وَبِقَوَاصِلِى مُتَّصِلَهُ ،
وَبِأَوْتَادِى مُرْتَبِطُهُ غَيْرُ مُنْفَصِلِهِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوْسِيقِ : لَقَدْ أَسْرَفْتَ فى الْإِفْتِخَارِ فَضَلَاتِ الطَّرِيقِ وَبُنْتَ عَنْهَا ،
وَوَرَّطْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ فَلَزِمْتَ دَائِرَةَ لَا تَنْفَكُ عَنْهَا ؛ وَأَتَيْتَ مِنْ طَوِيلِ

الكلام بما لا طائل تحته فنقل قولاً، وجئت من بسط القول بما لو اقتصرته منه على المتقارب لكان بك أولى؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج الى معيارك في نظم قريضه، وآخرت طباعه عن الوزن فلم ينتفع من علمك بضره ولا عروضة؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبرة بك ولا معول عليك؛ وكفى بك هضمًا، ونقيصةً وذمًا؛ وأستدلّ على دحض حجيتك، وضعف أدلتك؛ قول ابن محجاج:

مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ فعول * مسائلُ كُلُّها فُضُولُ،

قد كان شعراً لورى صحيحاً * من قبل أن يُخلق الخليل!

على أنه إن ثبتت لك فائدة، وعاد منك على الشعر أو الشعراء عانده؛ فأنما تفاعيلك مقدمة للآلحاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غذاء الأرواح، وقاعدة عمود الأفرح؛ والمتكفل بسط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتقويتها بنقلها وفرضها؛ أحرّك النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد الهموم والندم؛ فتارة أستمعل في الأفرح وزوال الكرب، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب؛ وأونة في محل الأحران واجتماع المآتم، ومرة يستعملني قوم في بيوت العبادات فأبعثهم على طلب الطاعات واجتناب المحارم؛ وآتى من غريب الألحان، بما يشبع به الجائع ويروى به الظمان، ويأس به المستوحش وينشط به الكسلان؛ وتدنو لسماعه السباع، ويعنوه بعد الشدة الشجاع.

مع ما يتفرغ عنى من علم الآلات الروحانية التي تُنشئ الأرواح، وتجلب الأفرح؛ وتنفي الأتراح، وتؤثر في البخيل السباح، وتفعل في الألباب ما لا تفعل في اللبائت بيض الصفاح.

فقال علم الطب : لقد أضعت الزمان في اللهو ، وملت مع الأريحية فأس بك العجب وزاد بك الزهو ، وداخلك الطيش فقنعت بالإطراب ، وعنيت بمعرفة الفن ففانتك الإغراب ، تذكر العشاق أحوال النوى فيسلبها الهوى إلى الهوان ، وتنتقل في نواحي الإيقاع تنقل الهائم فتمسى في حجاز وتصبح في أصهان ، وأنت وإن ادعيت أنك العلم الروحاني ، والمستولي بتحريك الطبائع الأربع على النوع الإنساني وغير الإنساني ، فانت غير مستغن عني ، ولا فنك في الحقيقة مُنْكَ عن قتي ؛ بل قواعِدُكَ مُرتبة على قواعِدي ، وفوائِدُكَ مُستفادَةٌ من فوائِدي ، وأهل صناعتك يتطفلون في معرفة الملائم والمنافي على ساقط لباب موائِدي ؛ وأنتي تنبسط بك الروح مع وجود السقم ، أو يستريح إليك القلب مع شدة مقاساة الألم ؟ ؛ بل أنا قوام الأبدان ، وغاية ملاك الإنسان ؛ بي تحفظ صحة الأجسام ، وتمكّن النفس من استكمال قوتها النظرية والعملية بواسطة زوال الأسقام وانتفاء الآلام ؛ مع ما يتضح بالنظر في التشریح الذي هو أحد أنواع من سرّ قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وما يظهر من حال الصحة والمرض وسر الموت من أنه تعالى بدأ الخلق أوّل مرّة وإليه يحشرون .

مع ما يلحق بي من علم خواص العقاقير الغريبة ، والأحجار التي تؤثر بتمزيجها الصناعاتي التأثير العجيب ، وتأتي من نوادر الأفعال بالأعمال الغريبة ؛ على أنني لست بمتخص في الحقيقة ببدن الإنسان ، ولا قاصر على نوع من أنواع الحيوان ، وإنما أفردت بنوع البشر اهتماماً بشأنه ، وتنبيهاً على جلالة قدره وعلو مكانه .

ثم ألحق بالإنسان في الاعتناء به الخيول فاشتق لها مني علم البيطرة ، وتلاها في الاعتناء بجوارح الطيور لاهتمام الملوك بشأنها فاستنبط لها من أجزائي علم البيزرة ؛ وأهمّل ما سوى ذلك من جنس الحيوان ، فلم يُعْتَنَ بأمره ولم يُهْتَم له بشأن .

فقال علم القافة : لقد آرتقيت مرتقى صعبا ، وولجت مولوجيا صلبا ؛ وآتيت من مشكلات القضايا بما ضاقت مطالبه ، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت لا شيء يغالبه ؛ واقتصرت في تشريحك الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها ، وأضربت عما تدل عليه بصورها وكمياتها ؛ أين أنت من إلحاق الابن بالأب بالصفات المتماثلة ، والحكم بثبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يحكم بالبيدة العادلة ؟ ؛ فهذه هي الفضيلة التي لا تساوى ، والمنقبة التي لا تعادل ولا تساوى ؛ وكفالك لذلك شاهدا ، وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مساعدا ؛ وأنه لا يتصور ذلك معارضة ولا نقض ، استئشار النبي صلى الله عليه وسلم بقول مذج المدلجى : « إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » .

فقال علم قص الأثر : نعم إن شأنك لغريب ، وإن أجتهدك لمصيب ؛ غير أنى أنا أغرب منك شأنا ، وأدق في الإدراك معنى ؛ إذ أنت إنما تلحق المحقق بالمشاهدة بمنزله ، وتقيس فرعا على أصل ثم تلحق الفرع بأصله ؛ وأنا فأذكر المؤثر من الأثر ، وأستدل على الغائب بما يظهر من اللوائح في الرمل والمدرب ؛ وربما ميزت أثر البعير الشارد من المراتع ، وفرقت بالنظر فيه بين الصحيح والظالم ؛ فأدركت من الأمر الخفي ما تدركه أنت من الظاهر ، وقضيت على الغائب بما تقضى به على الحاضر .

فقال علم غصون الكف والحبّة : ما الذى آتيت به من الغريب ، أو أظهرته بعلمك من العجيب ؟ ؛ فلو آتيت بأرض صلبة لوقفت آمالك ، أو تحت الریح معالم الأثر لبطلت أعمالك ؛ أو ولى من تفتى أثره المساء لغات حدسك الصائب ، أو جعل الماشى مقدّم نعله مؤخره لقلت : إن الداهب قادم والقادم ذاهب ؛ لكن أنا كاشف الأسرار الخفية ، والمستدل على لوازم الإنسان بما ركب فيه من الدلائل الخفية ؛

أَسْتَخْرِجُ مِنْ أَسَارِيرِ الْجَهَنَّمِ وَغُضُونِ الْكَفِّ أُمُورًا قَدْ أُرْشَدَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْهَا ، وَجُعِلَتْ تِلْكَ الْعَلَامَةُ فِي الْإِنْسَانِ دَلَالَةً عَلَيْهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْكَتِفِ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى الشَّيْءِ بِإِلَازِمِهِ أَمْرٌ مُسْتَعْرَبٌ ، وَلَا مَا يُقَالُ فِيهِ : هَذَا مِنْ ذَلِكَ أَعْجَبٌ ، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ أَنْ يَقَعَ الْأَسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَا هُوَ أَجْنَبِيٌّ مِنْهُ ، وَخَارِجٌ عَنْهُ ، كَمَا أَسْتَدِلُّ أَنَا بِالْخُطُوطِ الْمَوْجُودَةِ فِي كَتِفِ الدَّيِّجَةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَسْرَارِ الْعَجِيبَةِ ، مِمَّا أَجْرَى اللَّهُ بِهِ الْعَادَةَ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلَهُ عِلَامَةً دَالَّةً عَلَى مَا هُنَاكَ .

فَقَالَ عِلْمُ خَطِّ الرَّمْلِ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَسْتَ بِمُحَقِّقٍ لِمَا أَنْتَ لَهُ مُتَوَسِّمٌ ، وَلَا وَائِقٍ بِالْإِصَابَةِ فِيمَا أَنْتَ تُتَرَجِّمُ ، وَغَايَتُكَ الْوُقُوفُ مَعَ التَّجَارِبِ ، وَالرُّجُوعُ فِيمَا تُحَاوِلُهُ إِلَى التَّقَارُبِ ، مَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْضِ وَالْإِهْمَالِ ، وَمَا رُمِيتَ بِهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ وَقِلَّةِ الْأَسْتِعْمَالِ ، أَمَا أَنَا فَقَارِسُ هَذَا الْمَيْدَانِ ، وَمَالِكُ زِمَامِ هَذَا الشَّانِ ، فَكَمْ مِنْ ضَمِيرٍ أُبْرَزْتُهُ ، وَأَمْرٍ خَفِيَ أَظْهَرْتُهُ ، وَمَكَانٍ عَيَّنْتُهُ فَوَافَقَ ، وَأَمَدٍ قَدَّرْتُهُ فَطَاقَ ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ أَصْلٌ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، فَأَنَا أَثْبَتُ مِنْكَ قَوَاعِدَ ، وَأَوْضَحُ عِنْدَ الْإِعْتِبَارِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ ، فَإِنْ عَدَوْتَ طَوْرَكَ ، أَوْ جُرْتَ فِي الْإِحْتِجَاجِ خَصْمَكَ ، فَمَدَّكَ ، أَنَّهُ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَنَ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ .

فَقَالَ عِلْمُ تَغْيِيرِ الرُّؤْيَا : إِنَّكَ وَإِنِ أَظْهَرْتَ السَّرَائِرَ ، وَأَبْرَزْتَ الضَّمَائِرَ ، فَإِنَّ أَمْرَكَ مَوْقُوفٌ فِي حَدْسِكَ عَلَى الدَّلَالَةِ الْحَالِيَةِ ، وَمَقْصُورٌ فِي تَحْمِينِكَ عَلَى الْأُمُورِ الْإِحْتِمَالِيَةِ ، أَيْنَ أَنْتَ مَتَى حِينَ أُعْبِرُ عَمَّا شَاهَدْتَهُ النَّفْسُ فِي النَّوْمِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ؟ وَكَيْفَ أُكْشِفُ عَنْهُ الْمُجَبَّ بِالتَّأْوِيلِ فَيَقَعُ كِفَافُ الصُّبْحِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، فَأَخْبِرُ بِحَوَادِثَ تَقَعُ فِي الْعَالَمِ قَبْلَ وَجُودِهَا ، وَآتِي مِنْ حَقَائِقِ النَّدَارَةِ وَالْبَشَارَةِ بِمَا يُنَبِّهُ عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ تُخُوسِهَا وَالتَّرَقُّبِ لِمُوَافَاةِ سَعُودِهَا .

فقال علم أَحْكَامِ النُّجُومِ : حَقِيقُ ما أَوَّلْتُ ، وَصَحِيحُ ما عَنَّهُ عَجَبْتُ وَعَلَيْهِ
عَوَّلْتُ ؛ إِلَّا أَنَّكَ قَاصِرٌ عَلَى وَقَائِعِ مَخْصُوصَةٍ تُرْشِدُ إِلَيْهَا ، وَأُمُورٍ مَحْدُودَةٍ تُدَبِّهُ عَلَيْهَا ؛
عَلَى أَنَّهُ رُبَّمَا نَسَّاتُ الرُّؤْيَا عَنْ فِكْرَةٍ وَقَعَتْ فِي الْيَقَظَةِ فَاتَّصَلَتْ بِالْمَنَامِ ، أَوْ حَدَثَتْ
عَنْ سُوءِ مَزَاجٍ أَوْ رَدَاءَةٍ مَطْعَمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَكَانَتْ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ ؛ أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَدُلُّ
بِمَا أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَادَةِ ، عَلَى الْحَوَادِثِ الْعَامَةِ مَصَاحِبًا لِمَقْتَضِيَّاتِ الْإِرَادَةِ ؛
لِيُظْهِرَ مَا فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ قَضَايَا التَّنْذِيرِ ، وَيَبَيِّنَ مَا أَشْمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَفْلاكُ
الْعُلُويَّةُ مِنْ تَقْدِيرِ التَّرْتِيبِ وَتَرْتِيبِ التَّقْدِيرِ ؛ مَعَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَنْعَمَالِ
الْعَجِيبَةِ ، وَالْأَحْوَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ الَّتِي تَبْهَرُ الْعُقُولَ ، وَيَمْتَنِعُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ
الرُّوصُولِ ؛

مِنْ عِلْمِ السِّحْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَعِلْمِ الطَّلَسَمَاتِ الْغَرِيبَةِ وَعِلْمِ الْأَوْفَاقِ ،
وَكَذَلِكَ عِلْمِ النِّيرِنَجِيَّاتِ وَعِلْمِ السِّيمِيَا الْآخِذِ بِالْأَحْدَاقِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهَيْئَةِ : مَا لَكَ وَلَا بِأَطِيلَ تُمَقُّهَا ، وَأَكَاذِيبَ تُزْحَرِفُهَا وَتُزْبِرُ قُهَا ؛
وَأَمَّا نِيلٌ يَعْتَمِدُهَا الْمُتَعَمِّدُ فَتَخِيبُ ، وَأَقَاوِيلَ تَارَةٍ تُخْطِئُ وَتَارَةً تَصِيبُ ؛ وَلَقَدْ وَرَدَتْ
الشَّرِيعَةُ الْمُطَهَّرَةُ بِالنُّهْيِ عَنْ آعْتِبَارِكَ ، وَجَاءَتِ السُّنَنَةُ الْغَرَاءُ بِنَحْوِ أَخْبَارِكَ وَإِعْفَاءِ
آثَارِكَ ؛ وَنَاهَيْكَ بِفَسَادِ هَذَا الْإِعْتِقَادِ وَرَدَّ هَذَا الْمَذْهَبِ ، مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ
أَنَّهُ مَنْ قَالَ : مُطَرَّنَا بَنُو كَذَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ ؛ عَلَى أَنَّكَ فِي الْحَقِيقَةِ
نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ ، مَعْدُودٌ مِنْ جُنْدِيٍّ وَمَحْسُوبٌ مِنْ أَتْبَاعِي ؛ نَعَمْ أَنَا الْقَائِمُ مِنْ دَلِيلِ
الْأَعْتِبَارِ فِي الْقُدْرَةِ بِتِمَامِ الْفَرْضِ ، وَالْقَائِدُ بِزِمَامِ الْعَقْلِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ؛ عَنِّي يَتَفَرَّعُ عِلْمُ الزِّيجَاتِ وَالتَّقَاوِيمِ الَّذِي بِهِ يُعْرَفُ مَوْضِعُ كُلِّ وَاحِدٍ
مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَمُدَّةُ إِقَامَتِهَا ، وَزَمَنُ تَشْرِيقِهَا وَتَغَرِّبِهَا وَمِقْدَارُ رُجُوعِهَا

وَأَسْتَقَامَتَهَا ، وَحَالُ ظُهُورِهَا وَآخْفَائِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْإِنِّصَالِ
وَالْإِنْفِصَالِ وَالْخُسُوفِ وَالْكُسُوفِ وَآخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ .

فَقَالَ عِلْمُ كَيْفِيَّةِ الْأَرَّصَادِ : مَا عِلْمُ الرِّيحَاتِ وَالتَّقَاوِيمِ الَّذِي تُقَدِّمُهُ فِي الذِّكْرِ عَلَى ،
وَتُؤَخِّرُهُ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَدَى ، إِذْ بِي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تَحْصِيلِ مَقَادِيرِ الْحَرَكَاتِ الْفَلَكِيَّةِ ،
وَالْتَوْصُلِ إِلَيْهَا بِالْآلَاتِ الرَّصَدِيَّةِ ، الَّتِي عَلَيْهَا يَتَرْتَبُ عِلْمُ الرِّيحَاتِ ، وَيُعْرَفُ فِي التَّقْوِيمِ
الْإِنِّصَالَاتِ وَالْإِنْفِصَالَاتِ وَالْأَمْتَرَا جَاتِ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ الْكُرَّةِ الَّذِي مِنْهُ تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ آتِخَاذِ الْآلَاتِ الشُّعَاعِيَّةِ ،
وَيَتَوْصَّلُ بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَكِيَّةِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوَاقِيتِ : كَيْفَ وَأَنَا سَيِّدُ عُلُومِ الْهَيْئَةِ وَزَعِيمُهَا ، وَشَرِيفُهَا فِي الشَّرِيعَةِ
وَكَرِيمُهَا ، بِي تُعْرَفُ أَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ ، وَتُسْتَخْرَجُ جِهَةُ الْقِبْلَةِ بِلِ سَائِرِ الْجِهَاتِ ،
وَتُعَلَّمُ أَحْوَالُ الْبُلْدَانِ وَمَحَلُّهَا مِنَ الْمَعْمُورِ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَمَقَادِيرُ أَبْعَادِهَا
وَأَنحِرَافُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ ، مَعَ مَا يَنْخَرِطُ فِي هَذَا السَّلَكِ مِنْ مَعْرِفَةِ السُّمُوتِ
وَأَرْتِفَاعِ الْكَوَاكِبِ ، وَمَطَالَعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْبُرُوجِ وَالطَّلَاعِ مِنْهَا وَالْعَارِبِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِنْ الشُّعَاعَاتِ الْمَخْرُوطَةِ ، وَالظَّلَالِ الْقَائِمَةِ وَالْمَبْسُوطَةِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَلْتَحِقُ بِي ،
وَيُنْسَبُ إِلَيَّ وَيَتَعَلَّقُ بِسَبَبِي :

مِنْ عِلْمِ الْآلَاتِ الظِّلِّيَّةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا سَاعَاتُ النَّهَارِ ، وَيَظْهَرُ مِنْهَا الْمَاضِي
وَالْبَاقِي بِأَقْرَبِ مُتَمَسِّسٍ وَأَطْفِ اعْتِبَارٍ ، مِنْ نَحْوِ الرُّخَامَاتِ الْقَائِمَاتِ ، وَالْمَبْسُوطَاتِ
مِنْهَا وَالْمَائِلَاتِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ : إِنْ فَضَّلَكَ لِمَشْهُورٍ ، وَمَقَامَكَ فِي الشَّرَفِ غَيْرِ مَنْكُورٍ ، إِلَّا أَنْ
أَلَانِكَ بِي مُقَدَّرَهُ ، وَأَشْكَالَكَ بِأَوْضَاعِي مُحَرَّرَهُ ، فَأَنَا إِمَامُكَ الَّذِي بِهِ تَقْتَدِي ، وَتَجْمَلُ

الذي به تهتدى ؛ بل جميع علوم الهيئة في الحقيقة موقوفة على ، وراجعة في قواعدها إلى ؛ لولاى لم يعرف السطح والكوه ، ولم يميز بين الخطوط والقسي والدوائر المقدره ؛ مع ما ينشأ عنى ، ويستملئ من صحابي ويقتبس منى ؛ من أحوال المقادير ولواحقها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سبيله أن يعمل لها ؛ وأستخراج ما يحتاج إلى أستخرجه بالبراهين البينة القاطعه ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة المانعه .

فقال علم عقود الأبنية : نعم ، إلا أتى أنا أجل مقاصدك ، وأعذب مواردك ؛ ونور عيونك ، وعروس فنونك ؛ منى يستفاد بناء الحصون والأسوار ، ويتعرف شق الأبنية وحفر الأنهار ؛ وعمارة المدن وعقد القواصر ، وسد البثوق وبناء القناطر ؛ وتضييد المساكن ووضع المنازل ، ونصب الأشجار وترتيب الرياض ذوات الخمائيل .

فقال علم جبر الأثقال : صدقت ولكنى أنا أساس مبانيك وقاعدة سنادك ، وحامل أثقالك وعمود اعتمادك ؛ بى تعرف كيفية نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيره ، حتى تنقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة وذلك من الأسرار النفيسة والأعمال الخطيره .

فقال علم مراكر الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، ومتوقف على فى جميع أحوالك ؛ من حيث أستخرج مراكر الأجسام المحموله ، وبيان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآلات المعموله .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مقدمة عليك فى وضع المباني ، ومفردة عنك بكثير من المعانى ؛ من أخرج الزراعات ،

وتقدير الرساتيق والبياعات ، وكيفية ذرع المثلثات ، والمربعات ، والمدورات ،
والمستطيلات ؛ وغير ذلك من دقائق الأعمال ، وإدراك كميات المقادير على التفصيل
والإجمال .

فقال علم الفلاحة : فإذا قد اعترفت أنك من جملة آواحي ، مندرج في حقوق
وداخل تحت مرافق ؛ فأنا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس ، والمحدد
بك دون غيري من غير آلباس ؛ مع ما أنا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدء
كونه إلى تمام تدبيره ، وتنمية الحبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تحللها
من المعفونات كالسماد وغيره وما أيديه من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير
فصله ، وتركيب بعض الأشجار على بعض واستخراج بعضها من غير أصله .

فقال علم إنباط المياه : إلا أنني أنا بداية عملك ، وغاية متهى أملك ؛ لا يتم لك
أمر يدوني ، ولا تنبت لك خضرأ ما لم تسق من بئاري وعيوني ؛ فأنا الكفيل
باحياء الأرض الميتة وإفلاحها ، والقائم بتلطيف مزاجها وإصلاحها .

فقال علم المناظر : ما الذي تجدي أنت وطرفي عنك مرند ، ونظري إليك غير
ممتد ؛ وأنى تستطيع مياهاك الترقى من الأغوار إلى النجود ، وتنقل عيونك وأنبارك
بين الهبوط والصعود ؛ إذا لم أكن لك ملاحظا ، وعلى الاعتناء بأمرك محافظا ،
مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المبصرات في القرب والبعد على اختلاف معانيها ،
وما يغفل فيه البصر كالأشجار القائمة على شطوط المياه حيث ترى وأسافلها أعاليها .

فقال علم المراكيا المحرقة : إنك وإن دقت النظر ، وحقت كل ما وقع عليه
حاسة البصر ؛ فأنا مقصدك الأعظم ، ومهمك المقدم ؛ طالما أحرق القلاع

(١) ذكر في لسان العرب أن المرأة جمعها مرا . كراع وأن العوام يقولون في جمعها : مرايا .

بُسْعَامِي، وَحَصَّنْتُ الْجِيُوشَ بِدِفَاعِي، وَقَتُّ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَيْشُ الْعَرَمَرَمَ وَالْعَسْكَرَ
الْحَزَارَ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَنْفَرَادِي عَنْ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَاذَةِ الْأَنْصَارِ.

فَقَالَ عِلْمُ الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَذَّكَ لِكَيْلٍ، وَإِنْ جَدَّكَ لِقَلِيلٍ، وَإِنْ
الْمُسْتَنْصِرُ بِكَ لَذَلِيلٍ، وَمَاذَا عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ، أَوْ تُسَلِّطَ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ؟
أَنَا بَاعُ الْحَرْبِ الْمَدِيدِ، وَالْمُحَصَّنِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالتَّالِي بِلِسَانِ الصَّدْقِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . فَإِنَّا نَقُصُّ الْمَقْصُودَ وَعَيْنَ
الْمُرَادِ، وَعُمُودَ الْحَقِّ وَقَاعِدَةَ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ، وَمُوَاقَعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ التَّرَالِ، وَهَلْ
أَنْتَ إِلَّا آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ، لَا تَسْتَقِيلُ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ، وَأَنْتَ يُغْنَى
السَّلَاحُ عَنِ الْجَبَانَ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاعِ، أَوْ يَمْتَحَنُ إِلَى الْبَطَلِ الصَّنِيدِ وَالْمُجَرَّبِ الشُّجَاعِ،
فَالْعِزَّةُ بِالْمُقَاتِلِ، لَا بِالذَّوَائِلِ، وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرَّجَالِ، لَا بِبَوَارِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ التَّرَالِ،
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْعَسَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَاعِدَاهُمَا،
وَالْأَسْتِنَادُ إِلَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِخِلَافِ مَاسَوَاهُمَا، وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى
فِيهِ يُعْتَمَدُ، وَعَنِّي يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ، أُحَاوِلُ بِمُحْسِنِ التَّهْدِيرِ، مَا طَبَحَتْهُ
الطَّبِيعَةُ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ، فَاتَى بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ، وَأُجَانِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي مُمَارَجَتِهَا
فَيُظْهِرُ عَنْهَا كُلَّ مَعْنَى غَرِيبٍ، وَأُبْرِزُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِكْسِيرِ مَا يَقْلِبُ الْمَرِيحُ قَمَرًا
مِنْ غَيْرِ لَبْسٍ، وَيُجِيلُ الزُّهْرَةَ شَمْسًا وَنَاهِيكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ، فَصَاحِبِي
أَبْدًا عَزِيزُ الْمَنَالِ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ عَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمُفْتَوَحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَفَعْتَ عَنَّا، وَجَلَبْتَ غَنَى، فَأَمْوَالُكَ
الْجَمَّةُ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةُ، مَحْتَاجَةٌ إِلَى حُسَّائِي، غَيْرُ غَنِيَّةٍ عَنِ كُجَّائِي، أَنَا جَامِعُ

الأموال وضابط أصولها ، والمتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها ، مع احتياج كثير من العلوم إلى الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتماطيقى الذى هو أصل علوم الحساب بجوانبه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ، ونأهيك بشرف قدرى ، ورفعة ذكرى ، قول أبى محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منها على شرف قلبنى وسنى حالاته : « ولولا قلم الحساب لأودت ثمرة الأكتساب ، ولأتصل التغاين إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فما أنت إلا علم العامة فى الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ، تكاد أن تكون بديها حتى للأطفال ، وضروريا للنساء والعبيد فى جميع الأحوال ، يتسع عليك مجال الضرب فتقصر عنه همتك المقصره ، وتتسع عليك مدارك القسمة فتأق بها على التقريب غير محوره ، أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحير أوضاعى ؟ لا يعتمد أهل الهيئة فى مساحة الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يعولون فيها - على سعة فضائها - إلا على صحاحى وكسورى .

فقال علم حساب الخطأين : مالى ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة العناء إلى استصحاب تخت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الحماهم بخداه قاصر ونفعه قليل ، على أن غيرك يُساركك فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الغلط ولا يعتريه ، وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن تُصيب إخراج المجهول من الأعداد بخطأين فيقال : أتى بخطأين وهو مُصيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حسبك فإِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولاتِ كُنْطَقَةٌ
 مِنْ قَطْرٍ ، أَوْ نُقْصَةٍ مِنْ بَحْرٍ ، تَقْتَصِرُ مِنْهَا بِطَرِيقِكَ الْقَاصِرَةِ وَأَعْمَالُكَ النَّاكِبَةِ ،
 عَلَى مَا أَمَكَّنَ صَيُورَتَهُ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو عُذْرَتِهَا ،
 وَأَبْنُ يَجْدَتِهَا ، وَأَخُو نَجْدَتِهَا ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمَعَامَلَاتِ ،
 وَالْوَصَايَا وَالتَّرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، وَيَحْوِي هَذَا النَّحْوُ وَيَسْرَى
 هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأُمُوالِ وَالْجُدُورِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ
 وَالْكُشُورِ .

فقال علم حساب الدرهم والدينار : مَالَكْ وَلِإِدْعَاءِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ
 الْمَجْهُولاتِ وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولاتِ الْعَدَدِيَّةِ
 الْمَعْلُومَةِ الْعَوَارِضِ ؛ دُونَ مَا تَزِيدُ عِدَّتُهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَاتَكَ حِينَئِذٍ
 الدَّعَاوَى الْحَصْرِيَّةِ ؛ لِكُنِّي أَنَا كَاشِفُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَمُبَيِّنُ سُبُلِهَا بِالْطَّيْفِ الطَّارِقِ ؛
 فِي إِلَيْهَا يُتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قَوَاعِدِي لَاسْتِخْرَاجِ مَقَاصِدِهَا يُجْمَلُ وَيُقْصَلُ .

فقال علم حساب الدَّورِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَفْعُهَا ،
 وَحَسُنَ وَضْعُهَا ؛ فَأَنَا أَعْظَمُ مِنْهُ فَائِدَةً ، وَأَجَلُّ مِنْهُ عَائِدَةً ؛ أُبَيِّنُ مِقْدَارَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَدْوَرِ
 مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَّضِحَ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ ، وَأَقْطَعُ الدَّوْرَ فَتَعُودُ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ،
 وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسْلَسَلَ .

فقال علم الفقه : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا بُنْدَةٌ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ بَوَارِقِ ،
 تَتَعَلَّقُ بِأَطْنَابِي وَتَدْخُلُ تَحْتَ سُرَادِقِي ؛ بِي تُمَيِّزُ مَعَالِمَ الْأَحْكَامِ ، وَيَتَبَيَّنُ الْوَاجِبُ
 وَالْمَنْدُوبُ وَالْمُبَاحُ وَالْمَكْرُوهُ وَالْحَرَامُ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
 الْعِبَادَاتِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَاتُ

وَتَجَرَى بِهِ الْعَادَاتُ ؛ فَإِنَّا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ
وَنَجْهَهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَضَلَّ سَعَى الْمُكَلَّفِينَ ، وَلَآمَسُوا فِي دَيْعَاءِ
مُدْهَمَةٍ فَأَصْبَحُوا عَنْ رَكَائِبِ الْخَيْرِ مُحَلِّفِينَ .

وَنَاهِيكَ أَنْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْرَادِي ، وَآحَادِ أَعْدَادِي : -

عَلِمَ الْفَرَائِضَ الَّذِي حَضَّ الشَّارِعَ عَلَى تَعَلُّمِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ
مُنْبَهًا عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَتَفْخِيمِهِ ؛ وَبَالَغَ فِي إِثْبَاتِ قَوَاعِدِهِ وَإِحْكَامِ أَسْئَلِهِ ، فَقَالَ :
« إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ قِسْمَةً مَوَارِيثَكُمْ إِلَى مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسِلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا
فَقَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فَقَالَ عِلْمُ أُصُولِ الْفِقْهِ : إِنَّ مَقَالَكَ لَعَالٍ ، وَإِنَّ جِدِّكَ لِحَالٍ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَنَا
الْمُتَكَفِّلُ بِتَقْرِيرِ أُصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَفُصُوكِ ؛
بِى تُعْرَفُ مَطَالِبُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَطُرُقُ أَسْتِنْبَاطِهَا ، وَمَوَادُّ حُجْجِهَا
وَأَسْتِخْرَاجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِهَا ؛ فَبِأُصُولِي فُرُوعُكَ مَقَرَّرَةٌ ، وَبِحَاثِنِ
أَسْتِدْلَالِي مُحْجَبٌ مُنْتَهَجٌ مُحَرَّرٌ ؛ قَدْ مَهَّدْتُ طُرُقَكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَنِيْتُ
عَلَى أَعْظَمِ الْأُصُولِ فُرُوعَكَ فَأَسْنَدْتُهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْجَدَلِ : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِيلُ بِنَفْسِهِ ؛
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْأَسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفِّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَدَارِكِ ؛ بِى تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَقْرِيرِ الْحُجَجِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَقَوَادِحُ
الْأَدْلَةِ وَتَرْتِيبُ الثَّبَتِ الْخِلَافِيَّةِ ؛ فَمَوْضُوعُكَ عَلَى تَحْمُولِ ، وَنَظَرُكَ إِلَى نَظَرِي بِكُلِّ
حَالٍ مُوَكَّلٌ .

فقال علم المنطق : خَفَضَ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنْطِقِيَّةِ
أَفَرِدْتَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَخُصِّصْتَ بِالْمُبَاحِثِ الدِّيلِيَّةِ مَخَالَطَتَ أَصُولِ الْفِقْهِ فِي التَّالِيفِ ؟ ؛
فَأَنْتَ إِذَا فَرَدُّ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَادِي ؛ مَعَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ
الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَاطِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّافِعَةِ
فِي مَخَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصَصَاتِ وَالْمُسَاوَرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ
الشَّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّشْبِيهِ الْمُفِيدُ لِلتَّخِيلِ الْمَوْجِبِ لِلانْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛
كَالْإِغْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّخْقِيرِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَّةٌ كُلُّهَا ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ نَعِصْمُ مَرَاغَاتِي الْفِكْرَ عَنِ الْخَطَا فَلَإِزَلٍّ ، وَتَهْدِيهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ
فَلَإِجِدُ عَنِ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلُّ ، وَأَسْرَى فِي جَمِيعِ الْمَعْقُولَاتِ فَاتَصَرَّفْ فِيهَا
يَدِقُّ مِنْهَا وَيَجِلُّ .

فقال علم دَارِيَةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَ بِهِ الْأَدْلَةُ بِالتَّلْوِيحِ وَالتَّصْرِيحِ ،
أَنَّهُ لَا جَمَالَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ وَلَا تَقْيِيحِ ؛ وَجِهَانِدٌ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،
وَتُسْتَنْدُ فِي مُقَدِّمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى مُجْهً ، وَأَوْضَحَ مُحْجَهً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْدْتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،
وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ فَقَدْ حَسُنَ مِنْكَ الْمُقَدِّمُ وَالتَّالِي ، وَكَانَتْ
مُقَدِّمَاتُكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَفَاتِ وَتَتَأَجَّجُ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ
أَنْتَى إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بِمَا لَا طَعْنَ
فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَعَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ بِأَوْثَقِ سَبَبٍ فَأَتَيْتَ بِكُلِّ لَفْظٍ حَسَنٍ وَمَعْنَى

غريب؛ إلا أن الدراية، موقوفة على الرواية؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه، أو يتأني العلم بمعناه قبل الوقوف عليه؟ وهل يثبت فرع على غير أصل في مقتضى القياس، أو يرقى من غير سلم أو يبنى على غير أساس؟ فعلى المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسمع المتصل وتخريها وضبطها.

فقال علم التفسير: قد تبين لدى العلماء بالشريعة أن حكم الكتاب والسنة واحد، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد؛ إلا أنها وإن اتفقا في الدلالة والإرشاد، فقد اختلفت الكتاب في النقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالأحاد.

فقال علم القراءات: إلا أنه لا ينبغي للفسر أن يقدم على التفسير ما لم يكن بقراءة السبع والشاذ عالماً، وبلغاتها عارفاً وللنظر في معانيها ملازماً؛ مع ما يلتحق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلقة من المصاحف بخطها، والأشكال والعلامات المتكفلة بتخريها وضبطها.

فقال علم النواميس: (وهو العلم بمتعلقات النبوة): إنك لفرع من فروع الكتاب المبين، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين؛ وإلى النظر في أحوال النبوة وحقيقتها، ومسيب الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقتها، والفرق بين النبوة الحقة، والدعاوى الباطلة غير المحقة؛ ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام؛ فإنا المقدم على سائر العلوم الشرعية، وإمام الأصلية منها والقرعية.

فقال علم الإلهي: لقد تحققت أن اللازم المحتم، والواجب تقديمه على كل مقدم؛ العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصل إليها، وإثبات صفاته المقدسة

وما يجب لها ويستحيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وباعث الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتألي والموضوع والمحلول .

فقال علم أصول الدين : فحينئذ قد فُزْتُ من جمعكما بالشرفين ، وجمع لي منكما الفضل بطريقه فصرت بكما معلّم الطرفين ؛ وميزت بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين ، وبيّنت طريق الحق لسالكها فكنت سبباً للفوز والنجاة في الدارين ؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته ، وكلّ علم يستمدّ مني في مبادئه ويفتقر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، إذ كان كلّ أمرئ بما عمل مجازي وبما كسب رهيناً ؛ إنه يجب على كلّ من كان بمعتقد الحقّ جازماً ، أن يكون عن دار الغرور متجافاً ولأعمال البرّ ملازماً ؛ فانما الدنيا مزرعة للآخرة ، إن حصلت النجاة فذلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فذلك إذا كره خاسره ؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم ، ومن اغترّ بزخرفها الفاني فقد خاب في القيامة وندم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات ، وتتابعت الحجج والمنافضات ؛ نهض علم السياسة قائماً ، وقصد حسم مادة الحدال وطالب ؛ وقال : أنا جديلهما المحكك وعديقهما المرجب ، وسأئسها الكافي وحاكمها المهذب ؛ لقد ذكر كلّ منكم من فضله ما يشوق السامع ، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع دونه المطامع ، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع ؛ غير أنه لا يليق بالمنصف أن يتخطى قدره المحدود ولا يتعدى جزءه المقسوم ، ولكلّ أحد حد يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مِنْكُمْ سَبِيلَ الْمَعْدَلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَوْقَ عِنْدَ مَا حُدِّدَ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ أَلْيَقُ ، وَلِمَقَامِ الْعِلْمِ أَرْفَقُ .

فَقَالَ عِلْمُ تَدْبِيرِ الْمَنْزِلِ : لَقَدْ تَحَرَّيْتُ الصَّوَابَ ، وَنَطَقْتُ بِالْحِكْمَةِ وَفَضَّلِ الْخَطَابَ ؛ لِكِنَّهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ حَبْرٍ عَالِمٍ ، وَإِمَامٍ حَاكِمٍ ؛ يَكُونُ لِسَمْلِكُمْ جَامِعًا ، وَلِمَوَاقِعِ الشَّكِّ فِي مَحَلِّ التَّفَاضُلِ بَيْنَكُمْ رَافِعًا ؛ مُحِيطٌ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِمَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ ، عَارِفٌ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَبَادِيهِ مِنْ حَدِّهِ وَمَوْضُوعِهِ وَفَائِدَتِهِ وَأَسْتِدَادِهِ ؛ لِيُبَلِّغَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ مُنْتَهَاهُ ، وَيَقِفَ بِهِ مِنَ الشَّرَفِ عِنْدَ حَدِّ لَا يَتَعَدَاهُ ؛ فَلَا يَدَّعِي مُدَّعٍ بغير مُسْتَحَقٍّ ، وَلَا يَطَالِبُ طَالِبٌ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ؛ إِلَّا أَنْ الْحَيْطُ بِكُلِّكُمْ عِلْمًا ، وَالْقَائِمُ بِجَمِيعِكُمْ فَهَمًّا ؛ أَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْكِبَرِيَّةِ الْأُخْرَى ، وَأَقْلُّ وَجُودًا مِنْ بَيِّضِ الْأَنْوَقِ بَلْ بَيِّضِ الْأَنْوَقِ فِي الْوُجْدَانِ أَكْثَرُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْفِرَاسَةِ : عَلَى الْخَيْرِ سَقَطَتْ ، وَبَابُنِ يَجِدَتِهَا حَطَطَتْ ؛ أَنَا بِذَلِكَ زَعِيمٌ ، وَبِمِظَّتِهِ عِلِيمٌ ؛ فَلِلْعِلْمِ عَرَفٌ يَنْبَغُ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَتَلَوُّجٌ عَلَيْهِ بِوَارِقِهِ وَإِنْ أَكَنَّهُ بَيْنَ جَوَانِبِهِ ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ لَا تَحْفَى رِيحُهُ عَلَى غَيْرِ ذِي زُكَّامٍ ، وَالنَّهَارُ لَا يَحْفَى ضَوْؤُهُ عَلَى ذِي بَصِيرٍ وَإِنْ تَسْتَرَتْ شَمْسُهُ بِأَذْيَالِ الْغَمَامِ ؛ وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ وَجُوهَ الْعُلَمَاءِ الْكَمَلَةِ ، الَّذِينَ طَوَّايَاهُمْ عَلَى أَجْمَلِ الْعُلُومِ مُنْطَوِيَةً وَعَلَى تَفَاصِيلِهَا مُشْتَمَلَةً ؛ وَسَبَرْتُ وَقَسَمْتُ ، وَتَفَرَّسْتُ وَتَوَسَّمْتُ ؛ فَلَمْ أَجِدْ مَنْ يَلِيقُ لِهَذَا الْمَقَامِ ، وَيَصْلُحُ لِقَطْعِ الْحِدَالِ وَإِلْحِصَامِ ؛ وَيَعْرِفُ بُلْغَةَ كُلِّ عِلْمٍ فَيُجِيبُ بِلِسَانِهِ ، وَيَحْكُمُ فَلَا يَنْقُضُ حُكْمَهُ غَيْرُهُ لِأَنْحِطَاظِهِ عَنْ بُلُوغِ مَكَانِهِ ؛ إِلَّا الْبَحْرُ الزَّائِحُ ، وَ (١) الَّذِي لَا يُعْلَمُ لِفَضْلِهِ أَوَّلٌ وَلَا يُدْرِكُ لِمَدَاهُ آخِرٌ ؛ حَبْرُ الْأُمَمِ ، وَعَلَامَةُ الْأُمَمِ ؛ وَنَاصِرُ السُّنَّةِ وَحَامِيهَا ، وَقَامِعُ الْبِدْعَةِ وَقَامِيهَا ؛ تَجَلُّ (٢)

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقامتها بالهمز تخففه من قاه كمنه قعه .

شَيْخُ الْإِسْلَام ، وَخُلَاصَةُ غُرَرِ الْأَيَّامِ ، جَلَالُ الدِّينِ ، بَقِيَّةُ الْمُجْتَهِدِينَ ؛ أَبُو الْفَضْلِ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبُلْقِينِيُّ الشَّافِعِيُّ ، النَّاطِرُ فِي الْحُكْمِ الْعَزِيزُ بِالذِّيارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَسَائِرُ
الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمَا أُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْوُظَائِفِ الدِّينِيَّةِ ؛ لَا زَالَتْ فَوَاضِلُ
الْفَضَائِلِ مَعْرُوفَةٌ : فَهُوَ الْعَالِمُ الَّذِي إِذَا قَالَ لَا يُعَارِضُ ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي إِذَا حَكَمَ
لَا يُنَاقِضُ ؛ وَالْإِمَامُ الَّذِي لَا يَتَحَاوَلُ اجْتِهَادَهُ خَلَلَ ، وَالْمُنَاطِرُ الَّذِي مَا حَاوَلَ قَطَعَ خُصِمَ
إِلَّا كَانَ لِسَانُهُ أَمْضَى مِنْ السَّيْفِ إِذَا يُقَالُ : « سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ » :

إِذَا قَالَ بَدَّ الْقَائِلِينَ وَلَمْ يَدَعْ * لِمُتَمِّسٍ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا !

إِنْ تَكَلَّمَ فِي الْفِقْهِ فَكَأَنَّمَا بِلِسَانِ « الشَّافِعِيِّ » تَكَلَّمَ ، وَ « الرَّبِيعِ » عَنْهُ يَرَوِي
و « الْمُزَنِّي » مِنْهُ يَتَعَلَّمُ ؛ أَوْ خَاصَّ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ . قَالَ « الْغَزَالِيُّ » : هَذَا هُوَ الْإِمَامُ
بِاتِّفَاقٍ ، وَقَطَعَ السَّيْفُ « الْآمِدِيُّ » بِأَنَّهُ الْمُقَدَّمُ فِي هَذَا الْفَنِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ أَوْ جَرَى
فِي التَّفْسِيرِ . قَالَ « الْوَاحِدِيُّ » : هَذَا هُوَ الْعَالِمُ الْأَوْحَدُ ، وَأَعْطَاهُ « أَبُو عَطِيَّةٍ »
صَفَقَةً يَدُهُ بِأَن مِثْلَهُ فِي التَّفْسِيرِ لَا يُوجَدُ ؛ وَاعْتَرَفَ لَهُ « صَاحِبُ الْكَشَافِ » بِالْكَشْفِ
عَنِ الْغَوَامِضِ ، وَقَالَ الْإِمَامُ « نَفَرُ الدِّينِ » : « هَذِهِ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ وَأَسْرَارُ التَّنْزِيلِ »
فَارْتَفَعَ الْخِلَافُ وَأَنْدَفَعَ الْمُعَارِضُ ؛ أَوْ أَخَذَ فِي الْقِرَاطَاتِ وَالرُّسَمِ أَرْزَى بِأَبِي « عَمْرُو
الدَّانِي » ، وَعَدَا شَأُو « الشَّاطِطِيِّ » فِي « الرَّائِيَةِ » وَتَقَدَّمَ فِي « حِرْزِ الْأَمَانِيِّ » ؛
أَوْ تَحَدَّثَ فِي الْحَدِيثِ شَهِدَ لَهُ « السُّفْيَانَانِ » بَعْلُو الرِّبْسَةِ فِي الرِّوَايَةِ ، وَاعْتَرَفَ لَهُ
« أَبُو مَعِينٍ » بِالْتَّبَرُّزِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الدَّرَايَةِ ؛ وَهَتَفَ « الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ » بِذِكْرِهِ
عَلَى الْمَنَابِرِ ، وَقَالَ « أَبُو الصَّلَاحِ » : لِمِثْلِ هَذِهِ الْفَوَائِدِ تَتَعَيَّنُ الرِّحْلَةُ وَفِي تَحْصِيلِهَا
تَتَفَدُّ الْحَاوِرُ ؛ أَوْ أَبْدَى فِي أَصُولِ الدِّينِ نَظَرًا تَعَلَّقَ مِنْهُ « أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ » بِأَوْفَى
زِمَامٍ ، وَسَدَّ بَابَ الْكَلَامِ عَلَى الْمُعْتَرِلَةِ حَتَّى يَقُولَ « عَمْرُو بْنُ عُيَيْنَةَ » وَ « وَاصِلُ بْنُ

عطاء : لَيْتَنَّا لَمْ نَفْتَحْ بَابًا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظَرَ فِي الْمَنْطِقِ بِهَر « الْأَبْهَرِي »
 فِي مَنَازِلِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِي » عَلَى نَفْسِهِ وَثِيقَةً بِالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْجَدَلِ
 رَمَى « الْأَرْمَوِي » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « الْعَمِيدِي » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ
 عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي اللُّغَةِ لِسَانَهُ اعْتَرَفَ لَهُ أَبُو « سَيْدِهِ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقَرَّ بِالْعَجْزِ لَدَيْهِ
 « الْجَوْهَرِي » وَجَلَسَ « أَبُو فَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ مَجْلِسَ الْأَسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَحَا إِلَى النَّحْوِ
 وَالتَّصْرِيفِ أَرَبِيًّا فِيهِ عَلَى « سَيْبَوِيهِ » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِي » لَهُ عَزْمَهُ فَسَارَ مِنْ
 الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أُنْمُودَجًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَّ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِي » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ
 حَدَّهُ « أَبُو أَبِي الْإِصْبَعِ » وَلَمْ يُجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرُّمَّانِي » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أَرَزَى
 « الْأَصْمَعِي » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عُبَيْدَةَ » فِي كَثْرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفْظِهِ ؛ أَوْ تَعَرَّضَ
 لِلْعُرُوضِ وَالْقَوَافِي اسْتَحَقَّهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَخْفَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ
 الْمُتَدَارِكَ واعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِي » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفَنِّ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصَلَ
 فِي الطَّبِّ أَصْلًا قَالَ « أَبُو سَيْنَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَقْسَمَ
 « الرَّازِي » بِجُحْيِ الْمَوْتِ إِنْ « يَقْرَاطُ » لَوْ سَمِعَهُ لَمَّا صَنَّفَ « الْفُصُولَ » ؛ أَوْ جَنَحَ
 إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّمَا طُبِعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَذَبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمُ بِزِمَامٍ
 فَأَنْقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْهَنْدَسَةِ طَرِيقًا لِقَالَ « أُوقْلِيدِسُ » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ
 الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبُو الْهَيْثَمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَحَمَدَ
 « الْمُؤَمِّنُ بْنُ هُوْدٍ » عَدَمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْأَسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ نَفْسِي : وَفَوْقَ
 كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لَاعْتَرَفَ « أَبُو الرِّيحَانِ الْبَيْروني » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ
 النَّادِرَةُ ، وَقَالَ أَبُو أَلْفَحَ : هَذَا الْعَالِمُ قُطْبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظَرَهُ
 لِقَالَ « السَّمْعَوِيُّ بْنُ يَحْيَى » لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْفَنَّ الدَّارِسَ ، وَنَادَى « أَبُو جَعْفَرٍ الْمَوْصِلِي »
 قَدْ أَنْجَلْتَ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غَيَابَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّةٌ لِعَامِيهِ وَلَا عُمَّةٌ عَلَى مُمَارِسِ .

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنِ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !
وَكَيْفَ لَا تُنَاقِ إِلَيْهِ الْعُلُومُ مَقَالِيدَهَا ، وَتَصِلُ بِهِ الْفَضَائِلُ أَسَانِيدَهَا ؛ وَهُوَ ابْنُ شَيْخِ
الْإِسْلَام وَإِمَامِهِ ، وَوَاحِدُ الدَّهْرِ وَعَلَامِهِ ؛ وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُتَفَرَّدِ ، وَمَنْ حَقَّقَ وَجُودَهُ
فِي أَوَارِ الْأَعْصَارِ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَخْلُو مِنْ مُجْتَمِدٍ ؛ وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضِعُ الْأَوْضَاعِ الْمَعْتَبَرَةِ
عَلَيْهِ تَحْمُولًا ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمَائَةِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ
الْمَائَةِ الْأُولَى ؛ فَالْحَنَاصِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ تُعْقَدُ ، وَلَا غَرَوَ إِنْ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَأَنْشُدَ :
إِنَّ الْمَائَةَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى * لَهَا عُمَرُ الثَّانِي لَذَا الدِّينِ صَاحِبُهُ ،
وَوَالِي رِجَالٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَمِثْلِهِ * فَهِيَ عُمَرُ وَافَى عَلَى رَأْسِ تَامَنِهِ
يُظَاهِرُهُ نَجْلٌ سَعِيدٌ غَدَتْ بِهِ * مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي ذُرَا الْحَقِّ آمِنِهِ .
إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ * رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَا الْفَضْلِ قَارَنَهُ !
فَلَا يَعْدِمُ الْإِسْلَامُ جَمْعَ عُلَاهُمَا * وَلَنْ يَبْرَحَا لِلدِّينِ دَأْبَا مَيَامِنَهُ !

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبَتْ سَوَاءَ الثُّغْرَةِ وَجِئْتَ بِالرَّأْيِ الْأَكْمَلِ ، وَعَرَفْتَ مِنْ
أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ فَطَبَّقْتَ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ ؛ إِلَّا أَنَّ مِنْ مُحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَعَالِمِ
الْإِرْفَاقِ ؛ أَنْ تُعَوِّدُوا بِفَضْلِكُمْ ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرُوفِكُمْ وَبِرِّكُمْ ؛ إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي التَّفَاقُرِ
مَجْرَى الْإِنْصَافِ ، وَبَسَطَ لِسَانَ كَلِمِهِ بِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ مِنْكُمْ مِنْ جَمِيلِ الْأَوْصَافِ ؛
ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالْإِتِّفَاقِ وَالْإِتِّتَامِ حَبْلَكُمْ ، وَجَمَعَ بِالْحَمَلِ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّبَاعِدِ
شَبْلَكُمْ ؛ وَذَكَرَكُمْ بِجُسْنِ الْمُصَافَاةِ أَصْلَ الْوِدَادِ الْقَدِيمِ ، وَتَلَا بِلِسَانِ الْأَلْفَةِ فِيكُمْ :
﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ . بَانَ يَنْتَضِبُ كُلُّ مَنْكُمْ لَهُ شَفِيعًا
إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ ، وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَفِيلِ ؛ أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ
وَجْهَ الْعِنَايَةِ ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بَعَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالرَّعَايَةِ ؛ لِيَعْرِضَ فِي النَّاسِ جَانِبَهُ ، وَيَطْلُعَ

في أفق السعد بعد الأقول غاربه ؛ ويبلغ من منتهى أمله ماله جهد ، ويسعد
بالنظر السعيد جدّه فقد قيل : « من وقع عليه نظر السعيد سعد » .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة
كما جمع لها بين طاريف الحمد وتآله ؛ - قد فتح له من الترقى أول باب ، ولا شك
أن نظرة منه إليه بعد ذلك ترقيه إلى السحاب .

فَارْزُقُ الْفَجْرَ يَدُو قَبْلُ أَبِيضِهِ * وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُ ثَمَّ يَنْسَكِبُ !

فقال علم التاريخ : أهبطوا مضراً فإن لكم ما سألتم ، وقرؤا عينا إلى القصد
الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل - والله الحمد - حصّلت ؛ فقد بلّوت الأوائل والأواخر ،
وخبرت حال المتقدم والمعاصر ؛ فلم أرَ فيمن مضى وغبر ، وشاع ذكره واشتهر ؛ من
ذوى المراتب العلية ، والمناصب السنية ؛ من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ،
أويذاويه في المعروف قولاً وفعلًا ؛ قد ليس شرفاً لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطلع
الزمان إلى نزعِهِ ؛ وآتته إلى التجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فأنحاز إليه وعطف ؛
وحلت الرأسة بفنائِهِ فاستغنت به عن السوى ، وأناحت السيادة بأفنائِهِ فألقت
عصاها واستقر بها النوى ؛ فقصرت عنه خطا من يجاريه ، وضاق عنه باع من
يُنَاوِيهِ ؛ واجتمعت الألسن على تقرّضه فدح بكل لسان ، وتوافقت القلوب على
حبه فكان له بكل قلب مكان :

وَلَمْ يَحُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخِرٌ ، * وَلَمْ يَحُلْ مِنْ تَقْرِيطِهِ بَطْنٌ دَفِيرٌ !

فهو الحري بأن يكتب بأفلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يُرَقَم على صفحات
الايام حديد مطالبِهِ ؛ فلا يذهب على ممر الزمان ذكرها ، ولا يزول على توالي
الدهور نكرها .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذي قَارَن السَّعْدُ جَلَالَه ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ
خِلَالَه ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشُّعْر مُعَاتِبِينَ ، وبما يلزمه من تَقْرِيرِضِ هَذَا الْحَبْرِ
وَمَدْحِهِ مُطَالِبِينَ ؛ وَقَالُوا : قَدْ أَتَى النَّثْرُ مِنْ مَدْحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ
قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَانَتِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَحْتِمِ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِأَبْيَاتٍ بِالْمَقَامِ لِائِقَةٍ ، وَلِمَا نَحْنُ
فِيهِ مِنَ الْقُضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابِقَةٍ ؛ قَائِمَةٌ مِنْ مَدْحِهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةٌ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لِتَكْمَلَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ نَظْمًا وَنَثْرًا ، وَتَقَنَّ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ
خَطَابَةً وَشُعْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً ، وَأَسْتِكَانَةً وَضِرَاعَةً ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ مَجْلًا ،
وَأَنشَدَ مُرْتَجِلًا :

بُشْرَاكُمْ مَعَاشِرَ الْعُلُومِ أَنْ * جُمِعْتُمْ بِصَدْرِ حَبِيرٍ كَامِلٍ !
فُنُونُهُ لَمْ تَجْتَمِعْ لِعَالِمٍ * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلٍ !
يَسْفِي الصُّدُورَ إِنْ غَدَا مُنَاطِرًا ، * وَبَحْثُهُ فَرِيقَةُ الْحَافِلِ !
كَمْ عَمَرَتْ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِيسٍ ، * وَزَيَّنَتْ بِحُلِيِّهَا مِنْ عَاطِلٍ !
وَأَوْصَحَتْ أَقْوَالُهُ مِنْ مُشْكِلٍ * لَمَّا أَتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !
وَكَمْ غَدَتْ أَرَاؤُهُ حَمِيدَةً ، * وَنَهَتْ بِجِدِّهَا مِنْ خَامِلٍ .
وَحُكْمُهُ فَكَمُ أَقَالَ عَثْرَةً * وَجُودُهُ فَفَوْقَ قَصْدِ الْآمِلِ !
هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَهُ * مُحْفُوفَةً بِالطِّفِ الشَّمَائِلِ !
مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأُوهُ ؟ * أَتَى لَهُ بِأَمْثَلِ الْأَمَائِلِ ؟
مَوْلَى عَلَا فَوْقَ السَّمَاءِ رُتْبَةً * قَدْ رُيِّنَتْ بِأَفْضَلِ الْقَوَائِلِ !
فَمَا لَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ ، * وَمَا لِبَحْرِ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !
حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلَهُ أَنْ يَنْتَنِي * صِفَرِ الْيَدَيْنِ أَوْ مُمْنَى الْآجِلِ !

قلت : ولم أر من تعرّض للمُفَاخَرَةِ بين العُلُومِ سوى القاضِي الرّشيد أبي الحسين
 ابن الزبير في مقالته المقدم ذكرها على أنّها لم تكن جاريةً على هذا النمط ، ولا مُرتبةً
 على هذا التّرتيب ، مع الاقتصار فيها على عُلُوم قليلة ، أشار إلى المُفَاضَلَةِ بينها على
 ما تقدّم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدّى بفضله إلى وجوه التّرجيح التي يَرَجُحُ بها
 كلُّ علمٍ على خَصْمِهِ ، ويُفَالِجُ به على غَيْرِهِ ، والمُنْصِفُ يعرف لذلك حَقَّهُ . والذي
 أعانني على ذلك جلالَةُ قَدْرِ من صُنِفَتْ له وعلوّ رتبته ، واتساع فضله ، وكثرة
 علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات الممدوح تهدي المادح وتُرشدُه .



ومنها المُفَاخَرَةُ بين السَّيْفِ والقَلَمِ ، وقد أكثر الناس منها : فمن عالٍ وهابط ،
 وصاعد وساقط .

وهذه رسالة في المُفَاخَرَةِ بين السَّيْفِ والقَلَمِ ، أنشأها المقرّر الزيّني أبي يزيد الدّوادار
 الظاهري ، في شهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وسمّيتها : ”حِلْيَةُ الفَضْلِ وزِينَةُ
 الكَرَمِ، في المُفَاخَرَةِ بين السَّيْفِ والقَلَمِ“ وهي :

الحمد لله الذي أعزّ السَّيْفَ وشرف القَلَمَ ، وأفردهما برتبِ العُلَيا فقرنَ لهما بين
 المجد والكَرَمِ ، وساوى بينهما في القِسْمَةِ فهذا للحُكْمِ وهذا للحِكم .

أحمدُه على أن جمعَ بغيرِ أميرٍ بعد التّفريقِ شملَهما ، ووصلَ بأعزِّ مَلِكٍ بعد التّقاطعِ
 حبْلَهما ، وأرغَبُ إليه بَشْكْرٍ كَثُرَ النّجومُ في عَدِيدِها ، ويكونُ للنّعمةِ على مَمَرِّ الزّمانِ
 أباً يَزِيدُها ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً ياتِمُّ الإخلاصُ
 بِمَدَّهِها ، ولا يَجُوزُ من سَيفِها إلا من أجاب دَاعيها وأقرَّ بها ، وأن مجدَّ عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذى خُصَّ بأشرف المناقب وأفضل المآثر، وأسأثر بالسُودد في الدارين لحاز أخِرُ
المعالي ونال أعلى المفاخر؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم
دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول، وكرعت في دماء الكُفَر سُيوفُهم فعادت
بخلق النصر لا بجمرة الخجل؛ صلاة ينقضي دون أنقضائها تعاقب الأيام، وتكمل السنة
الأفلام عن وصفها ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام .

وبعد، فإنه ما تقارب آثان في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعوا في مقام رفعة إلا
أزدهما على المجده وتواردًا؛ ورام كل منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المعلى، وأن يكون
مفرقه هو المتوج وجيده هو المحلى؛ وأدعى كل منهما أن جواده هو السابق في حابة
السباق، والفائز بقصب السبق بالاتفاق؛ وأن نجمه هو الطالع الذي لا يافل،
وسؤدده هو الحاكم الذي لا يعزل؛ وأن المسك دون غيره، والبحر لا يبحى نقطة
في غديره؛ والدتر لا يصلح له صدفا، ونفيس الجوهر لا يعادله شرفا؛ وأن منابر
المعالي موقوفة على قدمه، ومجامر المفاخر فاححة بنشير كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجده وتقاربا، وأخذًا بطرفي الشرف
وتجاذبا؛ إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدين يجتمعان في دائرة
الاعتدال؛ ونجمين يهديان إلى المعالي، ومضباحين يستضاء بهما في حنادس الليالي؛
وقاعدتين تبنى الدول على أركانهما، وشجرتين يمتحن العزم أغصانهما؛ جر كل منهما
نوب الخيلاء فخرا فشى وتختَر، وأسبل رداء العجب تيهًا فما تحجل ولا تعثر؛ وأتسع
له المجال في الدعوى بغال، وطاوعته يد المقال فقال وطال؛ وتطرقت إليهما عقاربُ
الشحناء ودبت، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت؛ وأظهر كل منهما ما كان
يخفيه فكتب وأملى، وباح بما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حيل؛ وبدأ القلم
فتكلم، ومضى في الكلام بصدق عزم فما توقف ولا تلثم؛ فقال :

باسم الله تعالى أَسْتَفْتِحُ ، وَبِحَمْدِهِ أَتَمِنُّ وَأَسْتَجِجُ ؛ إِذْ مِنْ شَأْنِي الْكِتَابُ ، وَمِنْ
فَنِّي الْخُطَابَةُ ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُدْأَى فِيهِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَجْزَمُ ، وَكُلُّ كَلَامٍ
لَا يَفْتَحُ بِحَمْدِهِ فَاسَاسُهُ غَيْرُ مُحْكَمٍ وَرِدَاؤُهُ غَيْرُ مُعْلَمٍ ؛ وَالْعَاقِلُ مِنْ أَتَى الْأَمْرِ مِنْ فَصِّهِ ،
وَأَخَذَ الْحَدِيثَ بِنَصِّهِ ؛ وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَالْبَاطِلُ أَجْدَرُ أَنْ يَتْرَكَ فَلَا يُصْنَعُ إِلَيْهِ
وَلَا يَسْتَمَعُ ؛ إِنِّي لِأَوَّلُ مَخْلُوقٍ بِالنَّصِّ الثَّابِتِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْمُسْتَحَقُّ لِفَضْلِ
السَّبْقِ مِنْ غَيْرِ مُنَازَعَةٍ ؛ أَقْسَمُ اللَّهُ تَعَالَى بِي فِي كِتَابِهِ ، وَشَرَفِي بِالذِّكْرِ فِي كَلَامِهِ لِرَسُولِهِ
وَخُطَابِهِ ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
بِمُحْمَدٍ ﴾ . وَقَالَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَكَانَ لِي مِنَ الْفَضْلِ وَافِرِ الْقِسْمَةِ ، وَخُصِصْتُ بِكُلِّ الْمَعْرِفَةِ بِجُمُعَتِ
شَوَارِدِ الْعُلُومِ وَكُنْتُ قِيمَ الْحِكْمَةِ .

فَقَالَ السَّيْفُ : بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ . لِكُلِّ بَاغٍ
مَصْرَعٍ ، وَلِلصَّائِلِ بِالْعُدْوَانِ مَهْلَكٌ لَا يَنْجُو مِنْهُ وَلَا يَنْجَعُ ؛ وَفَاتَحُ بَابَ الشَّرِّ يُغْلِقُ بِهِ ،
وَقَادِحَ زَنْدِ الْحَرْبِ يُحْرِقُ بِهِ ؛ أَقُولُ بِمَوْجِبِ آسَدِ الْبُلَاكِ ، وَأُوجِبُ الْإِعْتِرَاضَ
عَلَيْكَ فِي مَقَالِكَ :

نَعَمْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَلَمِ وَلَسْتُ بِذَلِكَ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ وَلَسْتَ الْمَعْنَى بِمَا
هُنَالِكَ ؛ إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْنَى يَكُلُّ قَهْمُكَ عَنْ إِدْرَاكِهِ ، وَيَضِلُّ تَجَمُّعُكَ أَنْ تَسِرَّ فِي أَفْلَاكِهِ ؛
وَأَنْتَ وَإِنْ دُرِكَتَ فِي التَّنْزِيلِ ، وَتَمَسَّكَتَ مِنَ الْإِثْنَانِ بِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾
بُشْبَهَةَ التَّفْضِيلِ ؛ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى تَعْلَمَ خَطِّكَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَحَرَّمَكَ مِنْ مَسِّ
أَنَامِلِهِ الشَّرِيفَةِ مَا يُؤْسَى عَلَى قُوَّهِ وَيُسَرُّ بِحُصُولِهِ ؛ لِكِنِّي قَدْ نِلْتُ مِنْ هَذِهِ الرِّبَّةِ
أَسْنَى الْمَقَاصِدِ ، فَشَهِدْتُ مَعَهُ مِنَ الْوَقَائِعِ مَا لَمْ تَشَاهِدْ ؛ وَحَلَّلَنِي مِنْ كَفِّهِ شَرْقًا لَا يَزُولُ

حَلَّيْهِ أَبَدًا، وَفُتُّ بِنَصْرِهِ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا !!! ؛
 ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِنْسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبَّهَ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ
 الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ تَفْعَلِكِ أَعْمُ وَأَشْهَرُ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَّةِ وَالْبَاسِ ،
 فَقَالَ تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . عَلَى أَنَّكَ
 لَوْ أَعْتَبَرْتَ جِنْسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَيْلَ مِنْهُمَا وَالْجَلِيدَ ؛ لَتَحَقَّقْتَ
 تَسْلُطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطًّا وَبَرِيًّا ، وَتَحَكَّمَ فَيْكَ أَمْرًا وَنَهْيًا .

فَقَالَ الْقَلَمُ : قَرَّرْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدَلَهَا ، وَعَوَّلْتَ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهَلَهَا ؛ فَاتَّخَرْتَ
 بِحُجَّتِكَ وَعُدْوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتَ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعَدُّكِ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَلَمَّتْ إِلَى الظُّلْمِ
 الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْحَوَرِ : وَ « الطَّيْعُ أَغْلَبُ » ؛ فَلَا فِتْنَةَ
 إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا غَارَةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ؛ وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
 إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْخَفَاءِ ، وَتُتَكَدَّرُ أَوْقَاتُ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
 الْقَسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ ؛ أَمَا أَنَا فَالْحَقُّ مَذْهَبِي ، وَالصَّدَقُ مَرْكَبِي ؛ وَالْعَدْلُ سِتْمِي ،
 وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَقْسَطُ ، وَإِنْ اسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا فَرَطْتُ ؛
 لَا أَفْتِنِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَتَغْنَى مُتَعَلِّمُهُ عِلْمَهُ ؛ مَعَ عُمُومِ
 الْحَاجَةِ إِلَيَّ ، وَالْإِفْتِقَارِ إِلَى عِلْمِي وَالْاِكْتِسَابِ مِمَّا لَدَيَّ ، أُدِيرُ فِي الْقُرْطَاسِ كَاسَاتِ
 نَحْمَرِي فَأُزَيِّرُ بِالْمَزَامِيرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِرِ ، وَأَنْفَتُ فِيهِ سَحَرِيَّاتِي فَأَلْعَبُ بِالْأَلْبَابِ
 وَأَسْتَجْلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأُنْفِذُ جِيُوشَ سُطُورِي عَلَى بُعْدِ فَأَهْزِمُ الْعَسَاكِرَ :

فَلَكُمْ يَقُلُّ الْحَيْشُ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلَّتِ الْغَيْبَةُ ، وَجِثَّتْ بِالْحَيْبَةِ ؛ وَسَكَتَ أَلْفَا ، وَنَطَقَتْ خَلْفَا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّيْبِ

إِنَّ نِجَادِي لِحِلْيَةِ الْعَوَاقِ ، وَمُصَاحَبَتِي أَمِنَةٌ مِنَ الْبَوَاقِ ؛ مَا تَقَلَّدَنِي عَاتِقٌ إِلَّا بَاتَ
عَزِيْزًا ، وَلَا تَوَسَّدَنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حَرْزًا حَرِيْزًا ؛ أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمْعُ ،
وَرَأْيِي الْمَصُوبُ وَحُكْمِي الْمُسْتَعْبُ ؛ لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مُفْتَاخًا ، وَلِلظَّلَامِ مُصْبَاحًا ؛ وَلِلْعِزِّ قَائِدًا ،
وَلِلْعُدَاةِ ذَائِدًا ؛ فَأَنَّى لَكَ بِمَسَاجِلَتِي ، وَمُقَاوَمَتِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَافَرَتِي ؟ ؛ مَعَ عُرْيِ جِسْمِي
وَحَاقَةِ بَدَنِي ، وَإِسْرَاحِ تَلَاْفِكَ وَقِصْرِ زَمَنِكَ ، وَبَحْسِ أَثْمَانِكَ عَلَى بُعْدِ وَطَنِكَ ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرَى دَمْعِكَ ، وَضَبْقِ ذُرْعِكَ ، وَتَفَرُّقِ جَمْعِكَ ؛ وَقِصْرِ بَاعِكَ ،
وَقِلَّةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهْلًا أَيُّهَا الْمَسَاحِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمَغَالِبُ وَالْمُنَاضِلُ ؛ لَقَدْ
أَحْقَشْتَ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ مُحَالًا ؛ فَتَادَرْتُكَ سُبُلُ الْإِصَابَةِ ، وَخَرَجْتَ عَنْ جَادَةِ الْإِنَابَةِ ،
وَسُئْتُ سَمْعًا فَأَسَأْتُ جَابَهُ ؛ إِنِّي لِمَبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسَيْمُهَا ، شَرِيفِ النَّفْسِ كَرِيمُهَا ؛
أَخَذْتُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِفٍ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ؛ فَطَائِرِي مَيُّونُ ،
وَعُوْلِي مَأْمُونُ ، وَعَطَائِي غَيْرُ مَمْنُونُ ؛ أَصِلْ وَتَقَطَّعْ ، وَأَعْطِ وَتَمْنَعْ ، وَتَفَرِّقْ وَاجْمَعْ ؛
وَإِنْ أَزْدَرَأَكَ بِي مِنَ الْكِبَرِ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ ، وَغَضَبِكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ ؛
وَمِنْ حَقَرِ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمِنْ آسْتِهَانٍ بِفَضْلِ فَضَّلَهُ ؛ وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ حَرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ ، وَإِنْ نَحِيفَ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَاسِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛ وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيَا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرَوَيْتُ ظَامِيَا ؛ وَإِنْ ضَاقَ ذَرْعِي فَإِنِّي بِسَعَةِ
الْحِمَالِ مَشْهُورُ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطْلَقْتُ أَسِيرًا وَأَنَا فِي سِجْنِ الدَّوَاةِ مَأْسُورُ ؛ إِذَا
أَمْتَطَيْتُ طَرَسِي ، وَتَدَرَّعْتُ نَفْسِي ، وَتَقَلَّدْتُ نَحْسِي ، وَجَاسْتُ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَفْسِي :-

رَأَيْتُ جَلِيلًا شَانَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ * ضَنَى وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلُ !

أَتَسَيَّتُ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعْدِنِ تُرَابٌ تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ ؟ ، وَتَتَسَفَّكُ الرِّيحُ وَتُزْرِي بِكَ
الْأَيَّامُ ؟ ؛ ثُمَّ صَرْتَ إِلَى الْقَيْنِ تَقَعْدُ لَكَ السَّنَادِينَ بِالْمَرَاصِدِ ، وَتَدْمُغُكَ الْمَقَامِعُ وَتَسْطُو

بك المبارد ؛ ثم لولا صقالك لأذهبك الحرب وأكلك الصدى ، مع قلة صبرك على المطر والندى .

فقال السيف : إنا لله ! لقد استأسدت الثعالب ، واستنشرت البعاث فعدَّ العصفور نفسه من طير الواجب ؛ وجاء الغراب إلى البازي يهدده ، ورجع ابن آوى على الأسد يشرده ؛ فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق أبناء جنسك ؛ ووقفت عند ما حدثك ، وذكرت عجزك وكسلك ؛ لكان أجدر بك ، وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك .

إن الملوك لتعدني لمهماتهما ، وتستنجدني في ملابساتهما ؛ وتتعالى في نسبي ، وتتعالى في حسبي ؛ وتتنافس في قنيتي وتخاصد ، وتجعلي عرصة لايمانها فتعاقد بالحلف على وتعاهد ؛ وتدخرن في خزائنها آذخار الأغلاق ، وتعدي أنفوس ذخايرها على الإطلاق ؛ فتكلمني الجواهر ، وتخليني العقود فأظهر في أحسن المظاهر ؛ أبرز للشجعان خدي الأسيل فأسيهم الحدود ذوات السوالف ، وأزهو بقدي فأسلبهم هيف القدود مع لين المعاطف ؛ وأوهم الظمان من قرب أن بأنهارى ماء يسيل ، وأخيّل للقرور من بعد أنى جدوة نار فيظلني على المدى الطويل ؛ ويخالني متوقع الغيث برقًا لامعا ، ويظنني الجائر في الشرق نجما طالعا ؛ فالشمس من شعاعي في نجم ، والليل من ضوئي في وجل ، وما أسرعت في طلب نار إلا قيل : « فات ماذبح » و« سبق السيف العدل » .

فقال القلم : برق لمن لاعرفك ، وروّج على غير الجوهرى صدّك ؛ فما أنت من بزى ولا عطري ، ولست بمساوحدك القاطع بقلمة ظفري ؛ إن برقك خلّب ، وإن ريمك لأزيب ؛ وإن ماءك لجامد ، وإن نارك لخامد ؛ ومن أدعى ما ليس له فقد باء بالفجور ، ومن تشبّع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السُّهَى * بَغَيْرِ دَلِيلٍ كَذَّبَتْهُ ذُكَا !

أنا جَدَيْلُهَا الْمُحْكَمُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ ، وَكَرِيمُهَا الْمُبْجَلُ وَعَالِمُهَا الْمُهْدَّبُ ؛ يَخْتَلِفُ
حَالِي فِي الْأَفْعَالِ السَّيْنِيَّةِ بِأَخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَمْثَلِي مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِحَسَبِ
الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَتَزَيَّأُ بِكُلِّ زِيٍّ جَمِيلٍ ، فَأَنْزِلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَتَارَةً
أَرَى إِمَامًا عَالِمًا ، وَتَارَةً لُدْرَ الْكَلَامِ نَائِرًا وَأُخْرَى لَعْفُودَ الشَّعْرِ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تُلْفِيَنِي
جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَمَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةً تَخَالُنِي نَجْمًا مُشْرِقًا ،
وَحِينًا تَحْسِبُنِي أَفْعَوَانًا مُطْرِقًا ؛ قَدْ فُقِئَتِ الشَّيْبَابَةُ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزَتْ عَلَيْهَا فِي كُلِّ
مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلْأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْمَعَانِي ؛ وَجَاءَتْ
بِقَرِيبِ النَّعْمِ ، وَجِئْتُ بِبَدِيعِ الْحِكْمِ ؛ وَلَعِبْتُ بِالْأَسْمَاعِ طَرَبًا ، وَوَلَعْتُ بِالْأَلْبَابِ
فَأُتْخِذْتُ لَدَهْرِهَا مِمَّا عَرَاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَّرَنِي الطَّعْنُ وَكُنْتُ نَاسِيًا ، وَطَلَبْتَ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتَ قَلَّةً وَعُدْتَ
خَاسِيًا ؛ فَكُنْتَ كَطَالِبِ الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهِ أَهْلُكَ ، وَخَالَفْتَ النَّصَّ
فَالْقَيْتَ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ فَأَقْفَعْ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْهَزِيمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ
مِنْ أَرْجَحِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتَ مِمَّنْ يَشُقُّ غُبَارِي ، وَلَا يُقَابِلُ فِي الْهَيْجَاءِ ضَرْمِي
وَلَا يَصْطَلِي بِنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطْلٍ أَبْطَلْتُ حِرَاكَهُ ، وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ عَجَلْتُ هَلَاقَهُ ؛
وَكَمْ صِنْدِيدٍ أَرَقْتُ دَمَهُ ، وَكَمْ ثَابِتٍ الْجَأْشِ زَلَزَلْتُ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجِدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِ رِقَّةٌ
طَبِيعُهُ وَحُسْنُ مَوَارِدِهِ ، وَسَلَاسَةُ قِيَادِهِ وَجَمِيلُ مَقَاصِدِهِ ؛ فَمَالَ إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَحَ
إِلَى السَّلَمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبٍ صَافٍ ،
وَلِسَانٍ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ فَقَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فنحن في الكرم شقيقان ، وفي الحمد رقيقان ؛ لا يستقل أحدا بنفسه ، ولا يأنس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حلت الدهر أسطوره ، وعامت أصفاه وأكدره ؛ وقلبت ظهرها وبطنها ، وجبت فيا فيه سهلا وحزنا ؛ وإن معاداة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛ توجب شماتة العدو ونعم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ، ولا يحل على طول الزمان عقده ؟ ؛ لنكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء متصاحين ؛ حتى لا يضرب بندي جديمة مع أصطحابنا مثل ، ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا بآء بالخلط .

ولست بمستيق أخا لا تلمه * على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، ورفعت عن وجه المحجة نقابا ؛ وسريت أحسن مسرى وسرت أجمل سير ، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح ؛ والصلح خير .

وقد يجمع الله الشيتين بعدما * يطنان كل الظن أن لا تلاقي !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم نرجع في ذلك إليه ؛ لتحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرفعة بغرف من فوقها غرف ؛ ولنسنا بفائزين بطليتنا ، وظافرين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛ الماجد السرى ، والبطل الكي ؛ والبحر الخضم ، والغيث الأعم ؛ مولى المعالي ومولى النعم ، وممتطي جواد العز ورافع أعلام الكرم ؛ جامع أشات الفضائل ومالك زمامها ، وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العالى ، المولوى ، الزينى ، أبى يزيد الدوادار الظاهرى : ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ، وزاده رفعة فى الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قطب

المملكة الذى عليه تدور، وفارسها الأروع وأسدّها المصور، وبطلها السّميدع وليّتها
الشهير، وأبو عذرتها حقاً من غير نكر وأبنٌ يجذّتها السّاقطةُ منه على الخير، ومعقلها
الأمّنع وحرزها الحصين، وعقدّها الأنفس وجوهرها الثّمين، وتلاذّدها العلّيم
بأحوالها، والجدير بمعرفة أحوالها وأفعالها، وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنّن
فى أفنانها، وطبيبها العارف ببطيها، ومنجّدها الكاشف لكربها .

هذا : وإنّه لمالك أمرنا، ورافع قدرنا، والصّائل منا بالحدّين، والجامع منا
بين الضّدّين، فلو لقيه «فارس عيس» لولّى عايساً، أو طرق حمى «كليب» لبات من
حماء آيساً، أو قارعه «ربيعة بن مكدّم» لعلا بالسّيف مفارقة، أو نازله «سّظام»
لبدّد جمعه وفرقه، كما أنه لو قرّن خطّه بنفيس الجوهر لعلاه قيمه، أو فاسمه
«أبن مقلّة» فى الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه، أو فاحره «أبن هلال» لرأى
أنه سبقه إلى كلّ كريمه .

وبالجملّة فعزه الظاهر وفضله الأكل، وسماكّه الرّاح وسماك غيه الأعزل،
فلا يسمّح الزّمان أن يأتى له بنظير، ولا أراد مدّع بلوغ شأوه إلا قيل : أتتدّ فلقد
حاولت الاتّهاض بجناح كبير :

خَيْهَلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْعُلَى * وَحَيْهَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمَحْضِ !

فالحمد لله الذى جمعنا بأكرم محلّ وأفضل، وأحسن مقام وأجمل، فهلمّ إليه بعقد
بيننا عقد الصّلح، ونبايعه على ملازمة الخدمة والنّصح .

ثم لم يلبث أن كتبَ بينهما كتاباً بالصّلح والمصافاة، وتعهّدا على الودّ والموافاة،
وأعلن بعقد الصّلح مناديهما، وحدّا يذكر التّعاضد والتّناصر حاديهما، وراح يّشدد :
حَسَمَ الصّلْحَ مَا أَشْتَهَتْهُ الْأَعَادَى * وَأَذَاعَتْهُ السُّنُ الْحَسَادِ !

وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْأَحْقَادُ وَالْإِخْنُ ، وَبَاتَا فِي أَعَزِّ مَكَانٍ وَأَشْرَفِ وَطَنٍ ، وَثَلَّثَ
قِرَانَهُمَا فَأَسْعَدَ ، ثُمَّ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَأَنشَدَ :

لَا يُنْكَرُ الصُّلْحُ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ * فَعَاقَدُ الصُّلْحِ عَلَى الْقَدْرِ وَالْهِمَمِ !
أَبُو يَزِيدَ نِظَامُ الْمُلْكِ مَا لِكُنَا * وَوَاصِلُ الْعِلْمِ فِي عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ .
فَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا أَبْدِيهِ مِنْ مِصْدَحٍ * وَغَايَةُ الْقَصْدِ مِنْ تَرْتِيبِ ذَا الْكَلِمِ !
وَإِنْ جَرَى مَذْحُ سَيْفٍ أَوْ عِلَاقِلَمٍ ، * فَذَلِكَ وَصْفٌ لِمَا قَدْ حَازَ مِنْ كَرَمِ !

قلتُ : وَسَبَبُ إِنْشَائِي هَذِهِ الرِّسَالَةَ أَنَّ الْأَمِيرَ أَبَا يَزِيدَ الْمَوْضُوعَةَ لَهُ ، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، كَانَ مِنْ جَوْدَةِ الْخَطِّ وَتَحْرِيرِ قَوَاعِيدِهِ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا ،
وَعَظُمَتْ مَكَاتِنُهُ عِنْدَ سُلْطَانِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوقٍ» وَعَلَتْ رُتْبَتُهُ حَتَّى وَلَّاهُ وَظِيفَةَ
الدَّوَادِرِيَّةِ بِإِمْرَةِ تَقْدِيمَةِ أَلْفٍ ، وَلَمْ يَزَلْ مُقَدِّمًا عَنْدهُ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مُتَوَلِّيًا ، وَأَوَّلَانِي
عِنْدَ عَمَلِيهَا لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالرِّائِئِ الْتَوَالِي مَا يَقْصُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ ، وَيَكِلُّ عَنْهُ اللَّسَانُ .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ

(من الرسائل - الأسئلة والأجوبة ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الأسئلة الامتحانية)

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ مَشَائِخِ الْأَدَبِ وَفُضَّلَاءِ الْكُتُبِ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَى الْأَفَاضِلِ
بِالْمَسَائِلِ يَسْأَلُونَ عَنْهَا : إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَسْتِفْهَامِ وَأَسْتِخَاحَةِ مَا عِنْدَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ
فِي ذَلِكَ ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِحَانِ وَالتَّعْجِيزِ . ثُمَّ تَارَةً يُجَابُ عَنْ تِلْكَ الْأَسْئَلَةِ بِأَجْوِبَةٍ
فَتُكْتَبُ ، وَتَارَةً لَا يُجَابُ عَنْهَا ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المِصرى إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل كُتَّاب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهى :

لا يُخْرِجُ الكُوهَ مَنِّي غَيْرُ نَائِيَةٍ ^(١) * وَلَا أَلِيْنُ لِمَنْ لَا يَتَنَبَّأُ لِيْنِي !

الاستفتاح بـ «لَا» تَمْنُّ بركة الشهادة ، وهى ههنا مقرض يقطع من العيب المدة ويَحْسِمُ المآذ ؛ فحَسَمَ الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مُكْمَلِ الآداب ، وَمَلِكِ الشعراء والكُتَّاب ؛ شَرَكْلَ عَيْنِ حاسِدٍ ولو أنها عَيْنُ الشَّمْسِ ، وَحَمَاهُ عن مَذْأَلِيسَةِ ذوى الأَغْتِيَابِ والأَرْتِيَابِ مِنَ الهمجِ والهمس ؛ وهَيَّا لَهُ أسبابَ الخَيْرِ حتى يكون يومه فيه مُقْصَرًا عن الغد زَائِدًا على الأَمْسِ ، وَأَسْتَحْدَمَ لَهُ الأَقْدَارَ حَتَّى تَكُونَ قَرَارِصُ تَقْيِيلِ أَنَامِلِهِ العُشْرَ عِنْدَهُمْ كَقَرَارِصِ الخَمْسِ ، وَجَعَلَ مَا يَرُدُّ عَنْهُ الْعَيْنَ مِنَ الْعَيْبِ بَعْدَ شَأْنِهِ عَنِ الْمُتَنَاوَلِ وَقَايَةً عَنِ اللَّئْسِ ، حَتَّى يَكُونَ الْمَغْنَى بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرُ أَنْ عِلَاءَهُ * إِذَا حَدَدُوهُ كَانَ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ ،

وَلَا عَيْبَ أَيْضًا فِي مَا ثَرِ بَلَّتِيهِ * سِوَى أَنَّهَا تُرَوَّى بِأَلْسِنَةِ الْأَعْدَا !

وَحَتَّى يُؤْمَنَ عَلَيْهِ الْقَائِلُ :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى * عَيْبِ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْزِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُخْرِجُ الْقَمَرُ مَنِّي غَيْرُ مَائِيَةٍ . الْقَمَرُ ،

القهر والمأية مصدر كالتحية معناها الإباء واليت من كلمة لدى الإصبع العدواني .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

شَخَصَ الْأَنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ * مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيْبٍ وَاحِدٍ !
 الْعَبْدُ يَخْدُمُ بَسْلَامٍ مَارَوْضَةً نَقَطَهَا الْجَوْدُ بَدْرَ سَحَابِيهِ ، وَأَفْرَغَ عَلَيْهَا الْأَفْقُ سَفَطَ
 كَوَاكِبِهِ ؛ وَأَمْتَدَّ نَوَى الدَّرَاعِ لَتَذْيِجِ سَمَائِهَا ، وَتَارِيخِ أَرْجَائِهَا ، وَتَحْيِيشِ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا
 الْمُنْشَقَّةِ بِأَفْنَائِهَا ؛ وَصَقَّالَ نَسَمَاتِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عُيُونِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَهَوَاثِرِ
 الْعَالِيَةِ بِنَفْحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ؛ تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيُسَلُّ جَدْوُلَهَا عَلَى
 الْهَمُومِ السُّيُوفِ ؛ وَتَجْدِبُ حَمَائِمُهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَتَشَفَّعُ دَوْحُهَا إِلَى النُّوَاطِرِ
 بِالْأُورَاقِ ؛ قَدْ تَرَقَّرَقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَنَّى مُطَرَّبُ حَمَامِهَا وَعَنْتَرُهُ فِي حَكِّ
 مِنَ الذُّبَابِ ، وَبَحَّوْهَا رَوْنَقُ السَّيْفِ وَفِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الذُّبَابُ .^(٢)

فَمَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْحَيَاةِ ، * وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتٍ هُوَ الْبَانُ !
 يَوْمًا بَأْبَهِجَ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَتَشَاقًا وَأَتَسَاقًا ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ،
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لَذَلِكَ الْغَيْثُ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَنَعُودُ فَقُولُ : لَا أَدْرِي أَأَتَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ !!
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُ مُنَاسِبٍ ، وَطِيبُ مَكَاسِبٍ ؛ قَدْ أُمَكَّنَتْهُمْ الْمَعَالَى ،
 وَطَاوَعَتْهُمْ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالَى ؛ وَخَدَمَتْهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنَّتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي
 الصُّعُودِ ، كَابِرُ بَسْكَوْنِ الْجَاشِ مِنْحَدَرِ (؟) وَكَنْتُ قَدْ اسْتَجَدَيْتُ كُلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 بِالْكَلامِ ، وَأَسْتَسْقِيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ عَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيَّسَرُ مَا يُعْطَى الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ * مِنَ الْهَيِّزِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَا !

(١) العنتر الذباب أو صوته . (٢) ذباب السيف حده أو طرفه المنطرف .

”وَلَيْسَعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ“ فَضَنْ وَظَنْ مَاطَنْ ، وَأَسْتَعِطَفَ بَنَسِيمَ الْكَلَامِ
غُصْنُ يَرَاعِهِ فَمَا عَطَفَ وَلَا حَنْ ، وَبَحَلَ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْفَضِيلَةَ مِنَ الرِّزْقِ ،
وَحَرَمَنِي لَذَّةَ أَلْفَاظِهِ فَإِنَّمَا الَّتِي إِذَا أُدْخِلْتَ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرُّ الْبَلَاغَةِ تَحْتَ ذَلِكَ الرَّقِّ ،
وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ سَمَحَ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ ، وَالْغَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الَّذِي حَبَسَهُ
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحِطِّ عِنْدَ عَبْدِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى * طَرًّا فَلَا تَعْتَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ !

فَأَعْلَى اللَّهِ كَلِمَةُ سَيِّدِنَا الْعَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرْتُ غَنَى جُودِ كَرَمِهِ وَكَلِمَةِ الدَّارَيْنِ ،
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيَوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ، فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ ، وَشَافَهَنِي
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرِّزْقِ بِحِجَابٍ ، وَأَمَّنَنِي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبٍ ، وَنَصَرَنِي
وَالْأَيَّامُ سُيُوفٌ تَتَنَوَّعُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ ، وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْمَحَلُّ مَحَلٌّ ،
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ ذَحَلٌ ، وَنَحَلْنِي شُهْدَةَ إِحْسَانِهِ وَالْأَوْقَاتُ كِبَارَ النَّحْلِ ، حَتَّى عَذَرَنِي
فِي حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنَ اللَّائِمِينَ ، وَأَهْتَدَيْتُ مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا
وَلَا يَمِينُ ، وَصُلْتُ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بِيَدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلِمَتَيْهِمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينُ :
وَيُلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ * جَعَلَ الْإِلَهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا !

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شَهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيَوَانِهِمْ ، فَلَقَدْ أَسْمَعُنِي
مِنَ الشُّكْرِ مَا أَرْبَى عَلَى الْأَرَبِ ، وَجَعَلَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كِسْرَى وَهُوَ وَاحِدٌ
مِنَ الْعَرَبِ نَخَرَجَ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ ، وَهَدَيْتَنِي أَنْوَارَهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَيْلِ الْقَرِيحَةِ
فِي عَشَوَاءَ ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَنَاهِيكَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ ، وَرَفَعْنِي أَلْفَاظُهُ
وَلَكِنْ عَلَى السَّمَاءِ بَرِّغَمِ حُسُودِي الْعَوَاءِ ، وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنَادُّرِهَا أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ ،
وَتُكْتَبُ بِأَنْفَاسِ اللَّيَالِي عَلَى صَفْحَاتِ الْأَيَّامِ ، مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ
الْإِنْفَاقُ ، وَلَوْلَا الثَّقَى لَقُلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحُجَّتِهِ الرَّفَاقَ مِنَ الْآفَاقِ ،

فَتَى أَتَفَرِّغُ لَطَلَبِ مَدْحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بِمَنْحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِأَمْتَدَاحٍ وَإِنَّمَا مَدْحِي
له من فوائد مدحه :

وما هو إلا من نَدَاهُ وَإِنَّمَا * مَعَالِيهِ تُمْلِيْنِي الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَتَعَجَّبُ مِنْ شَتِيتِ عِنَانِ التَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ؛ وَعَادَيْتُ
فِي تَنْضِيدِ أَوْصَافِهِ الْكَرَى ، وَأَنْضَيْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطُّرُسِ وَلَيْلِ النَّقِيسِ مِنَ السَّيْرِ
وَالسَّرَى ؛ وَمَدَحْتُهُ بِمَلْءٍ فِيَّ وَاجْتَهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سَوَاءً عَلَيَّ أَنْ أَجْهَدْتُ ،
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتَهَدْتُ ؛ بِخَازِنِي مُجَازَاةَ السَّيَّارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَيْبِهِ فِي النَّارِ ،
وَجَعَلَ مُحَاسِنِي الَّتِي أَدْلَى بِهَا ذُنُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِعْتِدَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذِئْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : * لَعْمَرُوسَةٍ وَالذَّبُّ غَرَّانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ شَتَمْتَنِي ؟ * فَقَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامٍ أَوَّلُ

فَقَالَتْ : وُلِدْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتُ غَدْرَةً * فَدُونَكَ كُلُّنِي لَاهِنًا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمُتَرَجِّمَ ، وَتَحْقِيقَ هَذَا الظَّنِّ الْمُرْجَمِ ؛ أَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِنْبَاطًا لِقَوَائِدِهِمْ ، وَالْتِقَاطًا لِقَرَائِدِهِمْ ؛ لَا تَكْلِيفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنْجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بِأَرْبَابِ صَفَحَاتِ السُّيُوفِ
لَا أَرْبَابِ قَصَبَاتِ الْأَقْلَامِ ؛ أَرَادُوا الْغَضَّ مِنِّي ، وَفَنَى الْإِحْسَانِ عَنِّي ؛ وَهَيْهَاتَ !

* أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي وَشِعْرِي

هَآنَا وَبِضَاعَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لَا أُنِّي أَلْقَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلَامِ وَلَكِنْ لِأَغْرِضَ

صِنَاعَتِي : * هُوَ الْجَمَى وَمَعَانِيهِ مَعَانِيهِ *

وَإِنِّهِمْ أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ؛ وَتَسَابَقُوا فِي الْغَيْبَةِ
أَفْرَاسَ رِهَانٍ ، وَأَعْجَبَ كُلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ؛

وَلَا مُوا وَعَدَلُوا، وَهَمُّوا بِالسَّبِّ وَقَعَلُوا، وَاسْتَطَابُوا لَحْمَ أَخِيهِمْ فَسَلَقُوهُ بِالسِّنَةِ حَدَادَ
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَعْدَى ذَلِكَ إِلَى مَنْ جَادَ عَلَى بِالْجَوَابِ، وَفَعَلَهُ إِمَّا جَزَاءً لِلدَّجِّ وَإِمَّا
لِلثَّوَابِ :

فَقُلْتُ لَهَا عَيْشِي جَعَارٌ وَجَرَّي * بِلَحْمِ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ !
وما كان المايح أن يغري بي من سبق مدحه إلى ، وَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعِزَّهُ لِنَفْسِهِ فَمَا
أَنْتَصَرَ لَدَى ”وهذا أعمري جهد من لاله جهد“ وما تتخلو هذه الأفعال : إِمَّا أَنْ تَكُونَ
مُجَازَاةً عَلَى مَذْحِهِمْ ، فَإِنَّ الْكَرَامَ وَفَضْلَهُمْ ، وَالْمُنْصِقُونَ وَعَدْلُهُمْ ؟ ، أَوْ ظَنًّا أَنِّي
عَرَّضْتُ بِهِمْ فِيمَنْ عَرَّضْتُ ، فَإِنَّ ذَكَاءَ الْأَلْبَاءِ وَأَيْنَ عَقْلُهُمْ ؟ ؛ وَهَلْ تَنْظُرُ السَّمَاءَ
أَنْ يَدَا تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَالتَّجُومُ أَنْ خَلَقًا تَحْكُمَ عَلَيْهَا ؟ ؛ وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصْدَا
جِرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يَجْهَلُ حُكْمُهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَجْعَدَ الشَّمْسَ
فَضْلَهَا الطَّائِلَ ، أَوْ يُحَسِّنَ لَهُ عَقْلَهُ أَنْ يَقُولَ : سَحَابٌ وَائِلٌ كَبَافِلٍ ؟ ؛ ... (١) ...
أَذْرَكْنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَمَّا أَمْرَقَ ، وَأَنْجِدْنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَنْصَى مِنْ السَّهْمِ وَأَرْشَقَ ،
وَأَضْوَأَ مِنَ النَّجْمِ وَأَشْرَقَ ؛ وَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ صَبْرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ
السَّلَمِ ؟ ؛ وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمَ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِلْقَلَمِ ؛ وَحَيْثُ
قَضَى الْحَدِيثُ مَا قَضَى ، وَمَضَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيْفًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَّرْتُ تَبَتُّغِيهِ فَصَادَفْتُهُ * عَلَى دَمِهِ وَمَضَرَعِهِ السَّابَعَا

فَأَنَا أَتَشُدُّ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ لِإِلسَادَةِ الْغَائِبِينَ ، أَوِ الْقَوْمِ الْعَاتِيِينَ ؛ هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ
الَّذِي عَرَّضْتُ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهِمُ الْعِيُّ يُجِيرِيضُهُ ، وَتَزَلُ فِيهِمُ الْجِهَادُ
بَقَضِهِ وَقَضِيضِهِ ؛ وَأَصْبَحَ بِأَبْهُمُ لَمْ كِبْسْتَانِ بِلَاثِمَارَ ، وَدِيَوَانُهُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِي الْعَلَاءِ
كَدِيَوَانِ أَبِي مِهْيَارَ ؛ لَا يُحَسِّنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكَتَابَةِ غَيْرَ الْعَامَةِ الْمَدْرَجَةِ ، وَالْعَدَبَةِ الْمُعْجَاجَةِ ،

وَالْعِبَادَةُ الضَّيِّقَةُ وَالْأَنْوَابُ الْمُفْرَجَةُ ؛ وَيَتَنَاوَلُ السَّلَامُ بِالْيَمِينِ وَتَكْبَاهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
بِالشَّمَالِ ، وَمَشَى هَذَا عَلَى هَذَا وَلَكِنْ عَلَى الضَّلَالِ ؛ لَوْ سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ «الْبَدِيعِ»
فِي الْكِتَابَةِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرَ التَّرِيدِ ، وَعَنْ «عَبْدِ الْحَمِيدِ» لَزَادَ فِي الْفِكْرِ وَنَقَصَ :
وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؛ وَ«الصَّاحِبِ» لَقَالَ : إِنَّهُ تَبَرَّقَعَ بِمَجْلِسِي ، وَ«الْخَوَارِزْمِيَّ»
لَقَالَ : سَرَجُ فَرَسِي ، «وَالْفَاضِلُ» لَقَالَ : هَا هُوَ ذَا ذَيْلِ مَلَيْسِي . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ
كَذَلِكَ أَفْهِمِ الْمَلَامَ وَالتَّفْنِيدَ :

عَلَّقُوا اللَّحْمَ لِلْبُرَا * ةِ عَلَى ذِرْوَتِي حَضَنُ^(١)

ثُمَّ لَامُوا الْبُرَاةَ أَنْ * قَطَعْتُ نَحْوَهَا الرَّسَنَ ،

لَوْ أَرَادُوا صَيَاتِي * حَجَبُوا وَجْهَكَ الْحَسَنَ !

وَالْوَجْهَ الْحَسَنَ هَهُنَا وَجْهَ الْمَنْصِبِ وَحِجَابُهُ عَنْ شَيْنِ تِلْكَ الْآثَارِ ، وَتَحْمِيشُ تِلْكَ
الْأَلْفَاظِ .

وَأِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَمَا مِثْلِي مَعَ مَنْ ذَكَرْنِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

سَافِرٌ بِظَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتُ * فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَخِيلًا !

فَقِيلَ لَهُ : بَخَلَّتِ النَّاسَ ، فَقَالَ : كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ . وَهَآ أَنَا فَلْتُكَذِّبُونِي بِوَاحِدٍ مِّنْ
عَرَضْتُ ، وَصَحِيحٌ مِّنْ أَمْرَضْتُ ؛ وَلِيَبْرُزْ إِلَى مَضْجِعِهِ ، وَلِيَكُنْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَضْرِعِهِ ؛
وَلَا يَتْرِكْ شَيْئًا مِنْ أَدْوَاتِهِ ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا وَمَعَهُ نَادِيَتُهُ مِنْ حَتَائِمِ هَمَزَاتِهِ .

وَأَنَا أَفْتَرِحُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الْكِتَابَةِ بَعْضُ مَا أَقْتَرَحَهُ الْفُضَّلَاءُ ، وَنَبَّهَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ؛
وَأَلَّا فَمَا أَنَا أَبُو عُذْرَتِهِ ، وَمَالِكُ إِمْرَتِهِ ؛ وَلَا يَلُومُ إِلَّا الْقَائِلُ :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ * فَضَحَتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ !

(١) حَضَنُ جَبَلٌ بِأَعَالَى نَجْدٍ .

فانه الذى نبئى عليه وإن لم أكن ساهيا ، وذكرنى الطعن وما كنت ناسيا ؛ حتى
رَمَيْتُهُ من هذه المسائل ، فى مجَاهِل ؛ لا يُهْتَدَى فيها بغير الذهن الواقد ، وأَفْتَحْتُهُ
به فى بحارٍ لا يَعِصَمُ منها جَبَلُ الفِكرِ الحامد ؛ على أنها فيما أغفلت كالنمذ من البحار ،
واللحة من النهار ؛ ولولا الاختصار ، لأتيت منها بالجمع الجم فلنحمد الله والاختصار ،
فأقول :

من كتب فى الورق وأسْتَنْبَطَهُ ؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه ؟ ومن غير
طين الكتاب بالنشا وضبطه ؟ ؛ ومن قال : أما بعد فى كتابه ؟ ومن جعلها فى الخُطْبِ
وأسقطها فى آتدائه فى المكتبة وجوابه ؟ ؛ ومن كره الاستشهاد فى مكاتبات الملوك
بالأشعار ؟ ؛ وكيف تركها على ما فيها من الآثار ؟ ؛ ومن الذى أراد أن يكتب نثرا
بجاء شعرا ؟ ؛ ومن وضع هذه الطرة فى التقاليد وأخترعها ؟ ؛ وما مُحِجَّتْهُ إذ قدما على
أسم الله ورفعها ؟ ؛ ومن الذى باعد بين السطور ووسّعها ؟ ؛ وكيف ترك بالتعظيم
فى كُتُبِهِ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسعه من التواضع ما وسّعها ؟ ؛ ومن
أستغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب ؟ ؛ ومن أكتفى بيت من الشعر عما
يحتاج من تطويله الكتاب ؟ ؛ ومن الذى عانى المترجمات ورتبها ؟ وأخفى ملطقات
الجوايس وغيبها ؟ ؛ ومن الذى سنّ البرد وبعثها فى الملمات ؟ ؛ ومن حاكى شيئا
من ملك سليمان فاستخدم الطيور فى بعض المهمات ؟ ؛ وما أوجز مكتبة كتب بها
عن خليفة فى معنى ؟ ؛ وما أبلغ جواب وأوجزه أجاب به عن خليفة من لا سمي
ولا كنى ؟ ؛ ولم أرخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وكيف لم يؤرخ بمولده أو غير
ذلك من الأيام ؟ ؛ ومن الذى أمره الخليفة بكتابة معنى فأرتج عليه الكلام ولقنه
فى المنام ؟ ؛ ومن الذى وصف برسالة طويلة شيئا لم يصفه بنثر ولا نظام ؟ ؛ وكيف
جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب فى لفظة يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده

لَا مِنْ حِفْظِهِ ؟ ، مِثْلُ قَوْلِهِ مَعَ الرَّسُولِ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وَقَوْلِ الْآخَرِ فِي كِتَابِهِ : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا ؟ وَهَلْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَمَا أُخِذَ عَلَى الْحَاجِّ فِي أَسْمَاءِ الْمُسْتَفِئِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ السَّجَنِ : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا فِيهَا ﴾ ؟ . وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ؟

وَعَلَامَ يُطَوَّلُ الْكَاتِبُ بِأَوَّلِ الْبَسْمَلَةِ ؟ ، وَلَا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّلَ الْحَسْبَلَةِ ؟ ، وَلَا يُجَدِّدُ وَلَا يُسَمِّلُ عَلَى مَا أُلْفَ ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُ فِي بَعْضِ السَّجَعَاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَقْصُورَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلِفُ ؟ ، وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ يَصِفُ الْقَرَّاطِيسَ وَالْأَفْلَامَ وَيَسْتَدْعِيهَا ؟ ، وَالسَّكِينِ وَالذَّوَاءَ وَيَسْتَهْدِيهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قَطِيعَةً عَنْ جَنْبِهِ يُعْطِيهَا ؟ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ أَسْتَسْقَى وَلَمْ يُمْطَرْ ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فَصْرَعَ كَالْمُعْتَصِمِ وَكَيْفَ يُعْذَرُ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَعَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ ؟ ، وَكَيْفَ يُبَيِّنُ خَلِيفَةُ خُلَعٍ فَرَجَعَ ، وَغُرِّبَ عَنِ السَّجَنِ وَطُلِعَ ؟ ، وَأَسْرَهُ الْعَدُوُّ ثُمَّ تَخَلَّصَ وَاسْتَقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ الدَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَانْتَهَضَ ؟ ، وَكَيْفَ يُبَيِّنُ مِنْ زَوْجٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمُّهُ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلَدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ ؟ ، وَيَكْتُبُ عَمَّنْ حَاصِرٍ حَصْنًا وَتَرَكَهُ بَعْدَ تَسْهِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْلٍ لَمْ يُوفَ لَا أَحْوَجَ اللَّهُ لَذَلِكَ ؟ ، وَيُعْزِي كَافِرًا عَنْ بَعْضِ الْأَعْزَاءِ الْأَنْزَامِ ، وَيُشَيِّئُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بِوِزَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ ، وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا لثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَنْجِدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينٍ (؟) مِنْ عَدُوٍّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ ؟ وَيُبَشِّرُ عَدُوًّا بِأَخْذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَعْتَذِرُ عَنْ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ ؟ ، وَيُبَيِّنُ خَصِيًّا بِزَوَاجِهِ ، وَيَعْتَذِرُ عَنْ فَرٍّ وَتَرَكَ وَلَدَهُ تَحْكُمُ الظُّبَا فِي أَوْدَاجِهِ ؟ ،

وَيَكْتُبُ لِمَلِكِ بَنِي مَبَانِي فَأَحْتَرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ ، أَوْ أَجْرَى خُيُولَ رَهَانٍ فَسَبَقَتْ خَيْلَهُ
وَأَنْقَطَعَتْ ؟ ؛ أَوْ خَرَجَ لَصِيدٍ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُصَادُ ، أَوْ لِبَرْزَةِ بَنْدُقٍ أَحْتَفَلَ فِيهَا وَلَمْ يَضْرَعْ
شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ الْمُعْتَادِ ؟ ؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَازِيهِهِ فَتَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ ،
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَثْنَى فَضْلُهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ دُكُورِ الْأَوْلَادِ .

وَمِنْ هُنَا أَكُفُّ الْقَلَمَ عَنْ شَوِطِهِ ، وَأَرْفَعُ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانُ مِنْ سَوِطِهِ ؛
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالصَّخَبِ ، وَكَفْنِي بِالْغُرْفَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النَّهْرِ .

فَإِذَا تَسَيَّطَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ ، وَخَرَجَ
مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ خُرُوجَ السَّيْفِ مِنَ الصِّقَالِ ؛ أَمْتَدَّتْ كَفُّ التُّرْيَا فِي هَذَا النَّسِيَانِ
بِمَسْحِ جَبْهَتِهِ ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا النِّكَثِ كَمَا يَقَالُ : بِرَمَتِهِ ؛ (؟) وَأَمَاطَ لِنَامِهَا ،
وَشَمَّرَ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَامَهَا - أَنْقَطَعَتِ الْأَطْمَاعُ دُونَ غَايَتِهِ ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رَسَائِلِ
الْبُلْغَاءِ لِمُبَايَعَةِ رِسَالَتِهِ ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَمَلَتْ قَلَمَهُ عَلَى أَقْلَامِ فُرْسَانِ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ ؛
وَبَانَ هُنَاكَ ظُلْمُ الْعَائِبِ وَحَيْفُهُ ، فَكَانَ كَمَنْ سُلِّ لِنَحْرِهِ سَيْفُهُ ؛ وَعُذِرَ عَلَى تَوَالِي
التَّائِبِ مُؤَنَّبُهُ ، وَكَانَ يَوْمِئِذٍ لَهُ الْوَيْلُ لِمَنْ يُكَذِّبُهُ ، وَأَمْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تُحْدِثُهُ
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّهُ :

فَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يَسُدَّ الْخَلَلَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَالْخَطْلَ
كَمَا عُوذَتْهُ مِنْهُ وَكَمَا عَوَّدَهُ ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرِّعَايَا ، وَشَيْخُ الْفَصَاحَةِ
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كُنَّا وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا خَبَايَا ؛ وَمَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدٌ
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْعَاهَا ، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا حَبَائِلُ تَتَصَيَّدُ مِنْ عَوَائِدِهِ
مَا يَنْفَعُهَا وَيَرْفَعُهَا :

فَارْخَ عَلَيْهَا سِرْمَ مَعْرُوفِكَ الَّذِي * سَتَرْتَ بِهِ قَدَمًا عَلَى عَوَارِي !

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب مدهول عن حسن الإيقان ، ممدد عليه
نوايب الدهر بأنامل الخفقان ؛ مرمى بسهام الأعادي في قسي الضلوع ، غائص في بحر
الهم وكلمة رمت أن يلقي إلى در الكلام ألقي در الدموع :

أبكي فتجري مهنجي في عبرتي * وكان ما أبكىته أبكاني !

لا يدع لي الفكر في قلة^(١) ... الإخوان وقتا استنيط فيه معنى ، ولا يفسح لي
التمعجب من أبناء الزمان لتقصهم أن أضح نقدا ولا وزنا ؛ أجنح لسلم الأيام فكأني
لحربها جنت ، وأقدح فكري في استعطاف الزمان فكأني فيه قد قدحت ، فلو قضى
الله لي بالمنية من المنية لأرحت الزمان وأسترحت :

فالأرض تعلم أنني متصرف * من فوقها وكأني من تحتها !

ولا فرق فيما بيننا غير أننا * بمس الأذى ندرى ومن مات لا يدري !
ولا بد لي أن أطلق هذه الصناعة طلاقا قطعيا ، لا طلاقا رجعيا ؛ وأجاهرها
جهارا خرييا لا جهارا عينيا ؛ وأضع صعدة حملها من أدب عن بدني ، وأتولى قوس
داله مع سهم بائها فما أصبت غير كبدى ؛ ” كأنا القوس منها موضع الوتر ” ، ” وقُلْتُ
أذهبي يا صبوتي بسلام ” ، فإذا لقيت من آفاتنا ، ومُنيت به من الخوف في عرفاتنا ،
ومطرت لا من عوارض قطرها ولكن من عوارض مرجفاتنا :

ولمّا رأيت الحب في القلب والأذى * إذا اجتمع لم يلبث الحب يذهب !

ومع هذا الحديث لم أشك أن أحدا سينتقد على تشبيهي ، وطرقه قديمة في استفتاح
المكاتبه ، واستنجاح المخاطبه ؛ ويقول : تلك أمة قد حلت ، ودولة فاضلية أدبرت
مثل ما أقبلت ؛ فكيف تبعها وترك طريقة فضلاء عصره ، وأبناء مضره ؛ فالجواب

(١) بياض بالأصل ولعله : « مصافة الاخوان » أو نحوه .

ما قاله القَاضِي السَّعِيدُ بْنُ سَنَاءِ أَمْلِكِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، فَمَا كَانَ أَسْعَدَ خَاطِرَهُ ! ،
وَأَكْثَرَ ذَهَبَ لَفْظُهُ وَجَوَاهِرَهُ !! :

إِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ شَمِ رَأَيْتُهَا * مَا ذَا عَلَى إِذَا عَشِيقْتُ الْأَحْسَنَاءَ !

وَذَكَرْتُ أَنَّ الْإِسْ عَدْرَهُ وَنَسِيتُ أَنَّ الْإِسْ أَفْعَلُهَا ^(١) .

اتَّهَتْ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَالذِّكْرُ قَدْ نَعَى بَعِيدَ الظَّلَامِ ، وَبَلَغَ عَنِ الصُّبْحِ السَّلَامِ ،
وَالْأَزْهَارُ قَدْ سَلَبَتْهُ عَيْنُهُ فَقَامَ مِنْ كَرَاهِ يَصْبِحُ ، وَمِيدَانُ الْغُصُونِ قَدْ أَصْحَبَ بَغْنَى
الْأَطْيَارِ وَشَغَبَ الرِّيحُ ، وَتَسَرَّ السَّمَاءُ قَدْ فَرَّ مِنَ الْغَسَادَةِ وَبَارِئَهَا ، وَالتَّجُومُ قَدْ حُمِلَتْ
إِلَى مَلْحَدِهَا مِنَ الْغَرْبِ عَلَى نُفُوشٍ دَيَّاجِيهَا ، وَالْمَجَرَّةُ مِنَ الْجُوزَاءِ عَاطِلَةٌ الْخَصْرِ ،
وَحَاقَانُ الصُّبْحِ قَدْ حَمَلَ عَلَى نَجَاشِي الظَّلَامِ رَايَةَ النُّصْرِ .

لَا بَرَحَ سَيِّدُنَا مَعْصُومِ الرُّوِّيَّةِ وَالْأَرْتِجَالِ ، مَسْجِلًا بِشَجَاعَةِ الْيَرَاعَةِ وَالْحَرْبُ سِجَالِ ،
مَجُودَ الْمَوَاقِفِ وَالْمَسَاعِي "وَالنَّقْصُ نَقَعٌ وَالطَّرُوسُ مَجَالٌ" ، وَالسَّلَامُ .

الضنف السادس

(من الرسائل ما تُكْتَبُ بِهِ الْحَوَادِثُ وَالْمَاجِرِيَّاتُ)

وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِيهَا بِاخْتِلَافِ الْوَقَائِعِ : فَإِذَا وَقَعَتْ لِلْأَدِيبِ مَا جَرِيَهُ وَأَرَادَ
الْكِتَابَةَ بِهَا إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ ، حَكَى لَهُ تِلْكَ الْمَاجِرِيَّةَ فِي كِتَابِهِ مَعَ تَمَيُّقِ الْكَلَامِ
فِي ذَلِكَ ، إِمَّا آبْتَدَأَ وَإِمَّا جَوَّابًا ، عِنْدَ مُصَادَفَةِ وَرُودِ كِتَابِهِ إِذْ ذَاكَ إِلَيْهِ .

وَهَذِهِ نُسْخَةُ رِسَالَةٍ أَنْشَأَهَا الْإِمَامُ قَاضِي قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدُ بْنُ الدِّينِ ، أَبُو الْفَضْلِ
يُحْيَى ، بْنُ قَاضِي الْقُضَاةِ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ الدِّينِ أَبِي الْمَعَالِي مُحَمَّدَ ، بْنِ عَلِيٍّ ، بْنِ مُحَمَّدٍ ،

(١) وَرَدَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي الْأَصْلِ هَكَذَا وَلَا مَعْنَى لَهَا .

ابن الحسين، بن علي، بن عبد العزيز، بن علي، بن الحسين، بن محمد، بن عبد الرحمن،
 ابن القاسم، بن الوليد، بن القاسم، بن عبد الرحمن، بن أبان، بن عثمان، بن عفان
 رضى الله عنه، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة
 تسع وعشرين وستمائة، وتعرف "برسالة التمس" وهي :

وَرَدْتُ رُقْعَةً سَيِّدِنَا أَسْعَدَهُ اللَّهُ بِتَوْفِيقِهِ، وَأَوْصَحَ فِي آكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ سُبُلَ
 طَرِيقِهِ ؛ فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا وَوَقُوفُ السَّائِرِ يُوْرُودُهَا، الْمُسْتَسْعِدُ بِوُفُودِهَا، الْمُبْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ
 فِي إِبْقَاءِ مُهْجَتِهِ الَّتِي يَشْتَرُفُّ الوجود بِوُجُودِهَا :

وَلَيْسَ بِتَرْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوْغِهِ * وَلَكِنَّهُ قَدْ مَازَجَ اللَّحْمَ وَاللِّدْمَا !

وَفَضَضْتُهَا عَنْ مِثْلِ النُّورِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا، وَبُرُودِ الرِّيَاضِ تَسَاهَمَتْ فِي آكْتِسَاءِ
 وَشْيَا الْأَهْضَابِ وَالزُّبَا ؛ يَكْبُو جَوَادُ الْبَلِغِ فِي مِضْمَارِ وَصْفِهَا، وَيَنْبُو عَضْبُ لِسَانِهِ
 عَنْ مِجَارَاتِهَا فِي رَصْفِهَا ؛ يُجْجِلُ مَحْيَا النَّهَارِ بِيَاضَ طَرْسِهَا، وَيُوَدُّ اللَّيْلُ لَوْ تَفَضَّتْ عَلَيْهِ
 صِبْغَةً نَفْسِهَا ؛ وَتَحْسَدُ الْكَوَاكِبُ رَائِقَ مَعَانِهَا، وَتَمْتَنِي لَوْ أُعِيرَتْ فَضْلَ إِشْرَاقِهَا
 وَتَلَايِهَا ؛ فِي كُلِّ فِقْرَةٍ رَوْضَةٌ وَكُلُّ مَعْنَى كَأْسٌ مُدَامٌ، وَكُلُّ أَلِفٍ سَاقٌ وَكُلُّ سِينٍ
 طَرَةٌ غَلَامٌ ؛ وَكُلُّ وَاوٍ عَطْفَةٌ صُنْدِغٌ وَكُلُّ نُونٍ تَقْوِيسٌ حَاجِبٌ، وَكُلُّ لَامٍ مَشْقَةٌ
 عِذَارٌ وَكُلُّ صَادٍ خَطَّةٌ شَارِبٌ ؛ تُصِيبُ مِنْ سَامِعِهَا أَقْصَى مَا يُرَادُ بِالنَّفْثِ فِي الْعُقْدِ،
 وَتَسْتَوِي بِلَفْظِهَا عَلَى لُبِّهِ أَسْتِيلاءَ الْجَوَادِ عَلَى الْأَمْدِ .

فَلَمَّا أَجْتَلَيْتُ مِنْهَا الْمَعَانِي الْمُسْتَهْبَةَ فِي اللَّفْظِ الْمَوْجِزِ، وَأَجَلْتُ طَرَفِي مِنْهَا مَا بَيْنَ
 نَزْهَةِ الْمُطْمَئِنِّ وَعُقْلَةِ الْمُسْتَوْفِزِ، وَأَسْلَمْتُ قِيَادِي إِلَى سِجْرِهَا الْمُحَلَّلِ وَإِنْ جَنَى قَتْلُ
 الْعَاشِقِ الْمُتَحَرِّزِ - عَلِمْتُ أَنَّ سَيِّدَنَا أَجْرَى فِي حَلْبَةِ السِّبَاقِ فَحَازَ قَصَبَ سَبْقِهَا .

وَدَلَّتْ لَهُ الْبِلَاغَةُ فَتَوَعَّلَ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا ؛ وَحُكِّمَتْ يَدُهُ فِي أَعْنَةِ الْفَضَائِلِ فَسَلَّمَتِ الْقَوْسَ إِلَى بَارِيهَا ، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّهَا ؛ فَمَنْ وَائِلٌ ؟ وَمَنْ سَحْبَانٌ ؟ ، وَمَنْ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَيْرٍ يُقَابِلُ الْعِيَانَ ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا كَانَ ؟ . فَسَأَلْتُ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُعَارِضَ بَوَائِلَهُ طَلَّهَا ، وَأَنْ يُقَابِلَ بِجُثَمَانِهِ ظَلَّهَا ؛ وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلْبَةِ الْمُسَاجَلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسُّكَيْتِ ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَكَيْفَ بِنُطْقٍ مِنْ مَيِّتٍ ؛ وَأَنْتَى يُطْمَعُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَاتَ حِينَ لَعَلَّ أَوْلَيْتَ ؛ فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسَا ، وَأَلْفَيْتُ بِأَقْلَا لَدَيْهِ قُسَا ، فَمَا كُلُّ مَنْ طُرِقَ قَرَى ، وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ فَرَى ؛ وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَامًّا فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ مَاؤُهُ وَكَدَّرَتِ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عِلْمِهِ وَالغَيْرَ ، فَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرَرُ أَنْ يَلِينَ لِضَرْسِ الْمَاضِعِ الْحَجَرِ ؛ بِدَلِّ جُهْدِهِ لَمَا شَعَبَتِ الْهُمُومُ سُبُلَهُ ، وَتَقَنَّعَ بِالْخَلْقِ مَنْ لَا جَدِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَاقِعَةٍ وَقَعَتْ لَهُ فَأَصْبَحَ مُنْشَتَّتًا ، وَتَحَى عِنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُتَلَقِّيًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقَلْقُ بِسُلْطَانِهِ ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ أَجْفَانِهِ ؛ كَأَنَّهُ سَاوَرَتْهُ ضَمِيلَةُ سُمَّهَا نَاقِعٌ ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَاطِيفُ حُجْنٍ لَهَا أَيْدِي الْخُطُوبِ نَوَازِعَ :

إِذَا اللَّيْلُ الْبَسَنَى ثَوْبَهُ * تَقَلَّبَ فِيهِ فَنَى مُوجِعُ

فَنَارَةٌ فِكْرَتُهُ مُتَوَجِّهَةٌ نُحُوقَلَةً حَظَّهُ ، وَأَوْنَةً لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مَا يَقْدِفُهُ طَارِفُ لَحْظِهِ ؛ وَإِنْ يَدُ الْخُمُولِ قَدْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، وَأَزِمَّةُ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقَّقَهَا أَنْ تُصَرَفَ إِلَيْهِ ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرَهَا أَنْ تُطِيفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ :

لَنْ كَانَ أَدْلَى حَائِلٍ فَتَعَدَّرَتْ * عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَّةً فَتَخَطَّتْ ،

لَمَّا تَرَكَتْهُ رَغْبَةً عَنِ حِبَالِهِ * وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَحْرُخُطُ !!

ولقد جُهِدَ في سِلْمِ الدَّهْرِ وهو يُجَارِبُهُ، "وَكَيْفَ تُوقِي ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟" فإِشَامَ بَارِقَةَ أَمَلٍ إِلَّا أَخْفَقَتْ وَرَجَعَ بِخُفَى حُنَيْنٍ، وَقَرَّتْ أَعْيُنُ أَعَادِيهِ كُلَّمَا سَخَنَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَفْرَغُ مِنْ حِجَامٍ سَابَاطٍ وَإِنْ كَانَ "أَشْغَلَ مِنْ ذَاتِ النَّحْيَيْنِ".

وكلما تَأَمَّلَ جَدَّهَ الْعَاثِرَ النَّائِكِصَ، وَنَظَرَ رِزْقَهُ النَّائِضَ النَّاقِصَ؛ وَقَابَلَهُ الدَّهْرُ بِالْوَجْهِ الْعَابِسِ الْكَالِحِ، وَمَتَّى نَفْسَهُ عُقْبَى يَوْمٍ صَالِحٍ، رَبَعَ عَلَيْهَا فَنَ لَى بِالسَّائِحِ بَعْدَ الْبَارِحِ؟؛ وَنَاجَى نَفْسَهُ بِأَعْمَالِ الرُّكَّابِ، وَالْأَضْطِرَابِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَنْ يَرَى بِالْجُودِ طَلْعَةَ نَائِرٍ وَبِالْعَرِمِيسِ غُرَّةَ آيِبٍ؛ وَيَصِلَ التَّهْجِيرَ بِالسُّرَى، وَيَبْتَ مِنْ قَيْدِ الْأَوْطَانِ مُوْتَقَاتِ الْعُرَى؛ وَإِنْ كَسَدَتْ فَضِيلَةٌ مِنْ فَضَائِلِهِ، أَوْ رَثَتْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِهِ؛ اكْتَسَبَ بِأُخْرَى مِنْ أَخَوَاتِهَا، وَنَقَتْ فِي عُقْدِهَا وَمَتَّ بِهَا وَقَالَ: أَنَا أَبْنُ يُجَدِّتِهَا؛ فَإِلَامَ وَعَلَامَ وَحَتَّى مَتَى، أَجَاوِرُ مِنْ أَنَا فِيهِمْ أَضْيَعُ مِنْ قَمَرِ الشَّأ؟؛ وَحَالِي أَنْظَهُرُ مِنْ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَ"إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ":

وَمَا أَنَا كَالْعَيْرِ الْمُقِيمِ بِأَهْلِهِ * عَلَى الْقَيْدِ فِي بُجْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثُمَّ اسْتَهْوَلَ تَقَحُّمُ الْإِغْوَارِ وَالْإِنْجَادِ، وَأَسْتَفْتَحَ لِقَادِحِ زِنَادِ الْحِظِّ الْإِكْدَاءِ وَالْإِصْلَادِ، وَأَقُولُ: أَخْطَأُ مُسْتَعْجِلُ أَوْكَادٍ؛ فَأُتَوِّبُ مَتَابٍ مِنْ حَلَبِ الدَّهْرِ أَشْطَرَهُ، وَأَخَذَ إِذَا أَرْتَفَعَ عَنِ الدِّنْيَةِ مِنْ حَظِّهِ أَيْسَرَهُ، وَبَنَى كَمَا بَنَى سَلْفُهُ وَقَرَّرَ مَا قَرَّرَهُ؛ فَأَقُولُ: أَرْفُضِ الدِّنْيَةَ وَلَا تَلُوْ عَلَيْهَا، فَتَكُونُ "أَحَقُّ مِنَ الْمَشْهُورَةِ إِحْدَى خِدْمَتَيْهَا"، "فَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِشَدِيدِهَا":

وَلَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ قَاتَهُ * عَلَى رِفْقِهِ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ.

وَقَدْ يُدْرِكُ الْأَمْرَ غَيْرُ الْأَرِيبِ * وَقَدْ يُضْرَعُ الْحَوْلُ الْقُلْبُ!

وَنَارَةٌ يُخْطَرُ أَنْ لَوْ شَكَّوْتُ حَالِي إِلَى أَصْدِقَائِي مِنْ ذَوِي الْجَاهِ، وَسَلَّطْتُهُمْ بِالْحَاقِي
 فِي الْإِتِّغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ؛ وَأَحْضَهُمْ عَلَى آتِهَازِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ ،
 وَأَضْرَبُ لَهُمْ : ”أَعَيْنُ أَحَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ“ فَلَيْسَ عَلَى مِثْلِي مَنْ يُحْيِفُهُ الدَّهْرُ فِي ذَلِكَ
 مِنْ جُنَاحٍ ، ”وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ“ ؛ ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ جَلَدُوا ،
 بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لَأَزْدَادُوا ؛ وَلَوْ مُلِّكُوا ظَلَّ اللَّهُ لِأَصْبَحَتْ لَدَيْهِمْ ضَاحِيَا ،
 وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بُرْغَائِهَا مُنَادِيَا ، وَقَبْلِي بَغْيٌ عَلَى الْأَمْرِ فِقَاتُهُ وَأَدْرَكَ الْخِذَّ
 السَّعِيدَ مُعَاوِيَا ؛ وَإِلَى كُمْ أَعْلَلُ تَعْلِيلَ الْقَطِيمِ بِالْخَضَابِ :

سَمِثْتُ الْعَيْشَ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي * يُكَلِّفُنِي التَّذَلُّلَ لِلرَّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَيُمْنِهَا كَرَّ الْأَيَّامِ بِتَعَاقُفِهَا ، وَيَقْصُ
 عَلَيْهَا تَقَلُّبَ اللَّيَالِي بِالْأَتَمِّ الْمَاضِيَةِ فِي قَوَالِيبِهَا ؛ وَأَنَّهَا مَاقَدَمَتْ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَبَتْهَا
 بِتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقَتْ صَفْوَ الْأَمَانِي بَشَرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسُهُ بِتَكْدِيرٍ ؛ وَأَنَّ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ
 مِنْهَا سَبِيلٌ ذِي الْأَعْوَادِ ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ آتَخَذْتُ الْأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا خَوَلًا سَبِيلُ
 رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ سَنَدَادٍ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمرُ نُوحٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَآدَمَ وَقَتَ الْوَفَاةِ عَلَى
 مِيعَادٍ ؛ فَإِنْ شِئْتُ فَارْفَعْ عَصَا التَّسْيِيرِ أَوْضَعْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا : ”حَارِبٌ بِجَدِّ أَوْدَعُ“ .

فَبَيْنَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا ، وَأَقْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِي عُمْرِي فِي غَيْرِ
 مَآرِبِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبَرًا ؛ وَلَوْ أَنْجَزْتَنِي الْأَيَّامَ مَوَاعِيدَ
 عُرْقُوبٍ ، لَأَفْضَيْتُ بِي إِلَى أَحَلِّ مِنْ مِيرَاثِ الْعَمَّةِ الرَّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى
 قَنِعْتُ بِحَالِي ”وَوَشَرٌ مَا أَبْجَلَكَ إِلَى حُجَّةِ عُرْقُوبٍ“ ، ثُمَّ يُخَاطِبُنِي حِجَايَ بِأَنْ تَثَبَّتْ وَأَصْبِرْ ،
 فَالذِّلُّ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقِمِرٌ ؛ فَسَتَبْلُغُ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَيَتَهَيَّ بِكَ إِلَى الْمَقْدُورِ الْكِتَابُ ،
 فَلَا تَعَجَلْ بِجَرَى الْمَذَكِّاتِ غَلَابَ .

فَاسْتَرَوَحْتُ إِلَى فَتْحِ بَابِ كَانَ مُرْتَجَا ، وَأَرْتَدْتُ بِاسْتِجْلَاءِ نُحْيَا السَّمَاءِ مِنْ بَعْضِ
هَمِّي فَرَجَا ، وَأَنْتَشَقْتُ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ مَا وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ضَيْقٍ فِكْرِي تَحْرَجَا ؛
فَفَتَحْتُهُ عَنْ شُبَّاكِ كِتَاطِطِ الْأَوْفَاقِ ، أَوْ كَرُوعَةِ شِطْرَانِجٍ وَضَعْتَ بَيْنَ الرِّفَاقِ ؛
أَلَيْسَ مِنْ صِبْغَةِ اللَّيْلِ شِعَارَا ، وَأَتَّخِذُ لَاسْتِجْلَاءٍ وَجْهَ الْغَزَالَةِ نَهَارَا ؛ جَلِدِي عَلَى الْقِيَامِ
وَالْكَدِّ ، صَبُورٍ عَلَى الْحَالَيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ يُحَوِّلُ جُثْمَانِ الْمَرْءِ عَمَّا وَارَاهُ ، وَيُبَيِّحُ
إِنْسَانَ الظَّرْفِ رَعَى حِمَاهُ ؛ يُدِيلُ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ ، وَيَنْبِغُ بِمَا اسْتَوْدَعَتْهُ
مِنَ الْأَسْرَارِ ؛ يُشْرِفُ إِلَى غِيْضَةٍ قَدْ أَلْتَفَتِ أَشْجَارُهَا ، وَتَهَدَّلَتْ ثِمَارُهَا ، وَرَقَصَتْ
أَغْصَانُهَا إِذْ غَنَّتْ أَطْيَارُهَا ، وَأَطْرَدَتْ بِصَافِي الزَّلَالِ أَنْهَارُهَا ، وَنَمَتْ بِعَرَفِ الْعَبْرِ
الشَّجَرَى أَزْهَارُهَا ؛ وَقَدْ قَامَتْ عَرَائِسُ النَّارِجِ عَلَى أَرْجُلِهَا ، تَحْتَالُ فِي حَلِيهَا وَحُلِيِّهَا ؛
قَدْ أَلْبَسَتْ مِنْ أَوْرَاقِهَا خَلْعًا خَضْرَا ، وَحَلَّتْ مِنْ ثِمَارِهَا تَبْرَا ؛ وَنَظَّمَ قِدَاحُهَا
فِي جِيَادِهَا لَوْلُؤُا رَطْبَا ، وَرَنَحَهَا نَسِيمُ السَّحَرِ فَالَتْ عَجْبَا ؛ وَقَدْ مَدَّتْ فِي أَرْضِهَا
مِنَ الْبَنْفَسِجِ مَقَارِشُ سُندُسٍ فُرُوزَتْ بِالْجَدَاوِلِ ، كَيْسَاطُ أَخْضَرٍ سَلَّتْ أَيْدِي الْقِيُونِ
عَلَيْهِ صَقِيلَاتِ الْمَعَاوِلِ ؛ وَقَدْ حَدَقَتْ عِيُونُ الرُّقَبَاءِ مِنَ التَّرْجِسِ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقِ ،
وَلَعِبَتْ بِهَا يَدُ النَّسِيمِ فَمَا يَلَتْ كَعْنَاقَ الْحَبِيبِينَ عِنْدَ الْفِرَاقِ ، فَاجْتَلَيْتُ نُحْيَا وَسِيمًا تَبْلُجُ
أَسْرَتَهُ ، وَمَنْظَرًا جَسِيًا تَرُوقُ بِهِجَّتُهُ ؛ قَدْ مَدَّ السَّمَاطُ بَسَاطًا أَزْرَقَا ، بَزْهَرِ الْكَوَاكِبِ
مُشْرِقَا ؛ وَطَرَزَهُ بِالْشَفَقِ طَرَازًا مُذْهِبَا ، وَأَبْدَى تَحْتَهُ لِلْأَصْبَاحِ مَفْرَقًا أَشْيَبَا :

وَرَثَ قَيْصُ اللَّيْلِ حَتَّى كَانَهُ * سَلِيبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّجُ ،
وَرَقَعَ مِنْهُ الدَّيْلُ صُبْحُ كَانَهُ * وَقَدْ لَاحَ شَخْصٌ أَشْقَرُ اللَّوْنِ أَجْلَحُ ،
وَلَا حَتَّ بَقِيَّاتُ التَّجُومِ كَانَهَا * عَلَى كَيْدِ الْخَضْرَاءِ نَوْرٌ يَفْتَحُ !

وَجَنَحَ الْبَدْرُ لِلْغُرُوبِ فَتَدَاعَتْ الْكَوَاكِبُ تَنْدِمُهُ كَوَاجِبًا فَكَوَاجِبًا ، فَكَانَهُ مَلَكٌ أَتَّخَذَ
الْحَجَرَةَ عَلَيْهِ مَضْرِبًا ؛ وَتَوَجَّجَ بِالْأَثْرِيَا إِكْلِيلَا ، وَخَنَسَتْ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوَفِيرًا لَهُ

وَنَجَّيْلًا ؛ وَأَصْطَفَتْ حَوْلَهُ خَدَمًا وَجُنُودًا ، وَنَشَرَتْ مِنْ أَشْعَثِهَا أَلْوِيَةً وَبُنُودًا ؛
وَأَخَذَتْ مَقَامَاتِهَا فِي مَرَاكِزِهَا بِكُيُوشِ عُبَّتْ لِلِقَاءِ مُنَاجِرِهَا ، وَمُسَاقِيهَا أَخَذَ فُرْصَةَ
النَّصْرِ وَمَنَازِرَهَا :

وَلَا حَ سَهِيلٌ مِنْ يَعِيدٍ كَأَنَّهُ * شِهَابٌ يُنَجِّهِ عَنِ الرِّيحِ قَالِسُ !

وَأَنْبَرَى نَسِيمَ السَّحَرِ عَلِيلًا ، وَجَرَّ عَلَى أَعْطَافِ الْأَزْهَارِ ذَيْلًا بَلِيلًا ؛ وَرَوَى أَحَادِيثَ
الرِّيَاضِ بِلِسَانِ نَشْرِهِ ، مُذِيعًا لِأَسْرَارِ خُرَآمَاهُ وَزَهْرِهِ ؛ وَغَرَّدَتْ خُطْبَاءُ الطَّيْرِ عَلَى مَنَازِرِ
الْأَغْصَانِ ، وَاسْتَنْبَطَتْ مِنْ قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ دَفَائِنَ الْأَشْجَانِ ؛ وَحَثَّ دَاعِيَ الْفَلَاحِ ،
طَائِفَةُ التَّقَى وَالصَّلَاحِ ؛ عَلَى أَنْ تُؤَدَّى قَرْضُهَا وَنَفْلُهَا ، وَتَرْتَقَى بِخُضُوعِهَا بَيْنَ يَدَيِ
مَوْلَاهَا دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ؛ وَهَتَفَ بِشِيرِ التَّجَجُّجِ بَيْنَ أَحْيَا
لَيْلَتِهِ لَمَّا تَمَزَّقَ قِمِصُ اللَّيْلِ وَأَنْفَرَى : ”عِنْدَ الصَّبَاحِ يَمْحَدُ الْقَوْمُ السُّرَى“ .

فَبَيْنَا أَنَا أَتَفَكَّرُ فِي أَنَّ جُمْلَةَ مَا عَايَنْتُهُ سَيُصْبِحُ زَائِلًا ، وَعَنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الْعَجِيبَةِ
حَائِلًا ، وَأَتَدَبَّرُ : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا)
إِذْ أَهْدَتْ إِلَى الْأَيَّامِ إِحْدَى طُرْفِهَا وَغَرَائِيبَهَا ، وَكَبَّرَى أَوَايِدَهَا وَعَجَائِبَهَا ؛ فَطَرَقَ سَمْعِي
مِنَ الشُّبَّانِ نَبَأَهُ ، وَتَاتَهَا وَجَبَةٌ تَتَّبَعُهَا وَثَبَهُ ؛ فَاسْتَعْدْتُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ ،
وَقُلْتُ : أَسْعُدْ أُمَّ سَعِيدٍ ؛ وَإِذَا بِمُخْمِسٍ قَدْ فَارَقَ وَجَارَهُ إِلَى وَجَارِي ، وَأَخْتَارَنِي عَلَى
الصَّحْرَاءِ جَارًا فَأَرْتَضِيَتْهُ لِحَوَارِي ؛ فَوَلَّجَ مُسْتَأْنَسًا ، وَمَرَحَ بَيْنَ يَدَيَّ آنَسًا ، وَأَرَانِي
أَحَدَ كَيْفِيهِ فِي الْأَسْتِرْسَالِ لَبِينًا وَالْآخِرَ بِاتِّمْنَعٍ شَامِسًا ؛ فَذَلَّ لَهُ الْحِرْصُ عَلَى جُورِهِ حَبَائِلَ
مَكْرِهِ وَشَبَابِهِ ، وَيَدُّ الْعَبَشِ تَحُولُ دُونَ قَنْصِهِ وَإِنْسَاكَهِ ؛ وَبَقَايَا الظَّلَامِ تَقْضِي
بِتَمَنُّعِهِ ، وَتَصُدُّ عَنْ جَعْلِهِ مِنَ الْوَثَاقِ فِي مَوْضِعِهِ ؛ وَأَنَا مُلَازِمُهُ مُلَازِمَةُ الْمُعْصِرِ لِرَبِّ
الدِّينِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الصُّبْحُ لَذَى عَيْنَيْنِ .

فلما خَشِيتُ عَلَى صَلَاتِي الْفَوْتَ عَدَلْتُ إِلَى تَأْدِيَةِ فَرِيضِهَا ، وَتَوَجَّيْتُهَا بَيْنَ يَدَيَّ
مُوجِبَهَا وَعَرَضِهَا ؛ فَلَمَّا انْقَلَبْتُ مِنْ مُصَلَّايَ ، وَأَنْصَرَفْتُ عَنْ مُنَاجَاةِ مَوْلَايَ ؛
بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهَا صَاعِقَةٌ ؛ فَقُلْتُ : أَذَرَّ قَرْنُ الْغَزَالَةِ ؟ ، وَإِلَا فَلَاتَ
حِينَ ذُبَالَهُ ؛ فَقِيلَ : إِنَّ الْغُلَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ شَرًّا ، وَهَزَلَهُ الْمُهَنْدَفُ فَقُتِلَ لَهُ مِنَ الظُّلَمَاءِ
بَحْرًا ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَرَامَ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مَرْجَبًا وَعُغْرًا ، كَأَنَّهُ قَدْ لَاقَى
أَسَدًا هَزَبْرًا ؛ وَأَتَرَعَ لَهُ كَأْسَ الْحَمَامِ بِالْوَاقِي ، وَرَمَاهُ بِثَالِثَةِ الْإِنْثَانِي ؛ فَعَطَفْتُ عَلَيْهِ
بِالْإِلَيمَةِ مُنْكَرًا لِحَمَلِهِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاجِرًا عَنْ قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَذَرْتُهُ : ” وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
كُلَّهُ “ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَاكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قَيْتُ أَسَدًا أَغْلِبَا ؛ لَقَدْ خَلْتُ أَنَّكَ تَرْتَدُّ . وَإِنْ
كُنْتُ وَلِيدًا - أَشْيَا ؛ أَمِنْ هَذَا بَادَرْتُ إِلَى السَّيْفِ مُحْتَطِرًا ؟ ، ” إِنَّكَ لَأَجَبُنُ مِنْ
الْمُزَوِّفِ صَرِطًا “ لَقَدْ أَظْهَرْتَ مِنَ الْفَسِيلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِزَاحَ
فِي مَحَلِّ الْحَدِّ وَقَابَلْتَ الْأَمْهَلَ بِالْأَشَدِّ ؛ فَسُحِقًا لَكَ وَبُعْدًا ، لَقَدْ قَدَحَ مَرْجِيكَ
بَعْدَهَا زِنَادًا صَلْدًا ، وَاسْتَنْجَعَ الْمَاءَ جَلْمَدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرَفَهُ فِي وَهْتَفٍ مُنَادِيًا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءً أَزْرَى بِالسَّمَوَاتِ بَيْنَ عَادِيَا : أُجْجُ
هَرَبًا وَلَا إِخَالَكَ نَاجِيًا ؛ إِنِّي رُمِيتُ مِنَ الْخُطُوبِ بِأَضْعَافِهَا ، وَلَا يُبْنِيكَ بِالْحُرُوبِ
كُجْرِيهَا ، وَالْغَاصُ بِاللُّقْمَةِ أَخْبَرَهَا ؛ فَلَقْدَ أَوْطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَثْرَةَ ، وَمَا لَقَيْتُ
فِي حَرْبٍ كَهَذِهِ الْمَرَّةِ ، ” وَالْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْخِمْرَةَ “ ؛ لَقَدْ صَرَّحَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجِجْ ، وَكَثُرَ
عَنْ أَنْبِيَائِهِ غَيْرِ مُتَبَيِّنٍ ؛ ” وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ “ ، ” أَسْتُ الْبَائِسِ أَعْلَمُ “ ؛ تَالَلَّهِ إِنَّهُ لَأَجْرًا
مِنْ خَاصِي الْأَسَدِ ، وَلَئِنْ سَبَرْتَهُ لَتَعْلَمَنَّ مَا بَيْنَ الدَّنْبِ وَالنَّقْدِ ؛ وَلَقَدْ رَضِيتُ نَفْسِي مِنْ
الْغَنِيمَةِ أَنْ تَوُوبَ بِذِمَائِهَا ، لَمَّا تَشَبَّثَ بِخَيْصَرِي تَخْضِبُهَا بِذِمَائِهَا ، فَقُلْتُ : ” أَجْفَلَ عَنْ
جَنَائِكَ الْخَيْرُ وَأَجْلَى “ ، ” أَضَرِطَّا وَأَنْتَ الْأَعْلَى “ ؟ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدْتُ
أَسْتِعْبَارَهُ ، وَأَوَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ أَسْتِكْبَارَهُ الْخُطْبَ وَأَسْتِكْبَارَهُ ؛ وَقُلْتُ : مِنْ صَافِ الْأَسَدِ

قَرَاهُ أَظْفَارَهُ، وَمِنْ حَرَكِ الدَّهْرِ أَرَاهُ أَفْتِدَارَهُ، وَعَدَلْتُ إِلَى الدَّلُولِ الشَّامِسِ، الْمُسْتَأْسِدِ
الْمُسْتَأْسِسِ، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَنْقَادَ لَهَا طَائِعًا، وَخَضَعَ لِإِجَابَةِ دَعْوِي سَامِعًا.

فَلَمَّا حَازَهُ فِي الْقَبْضَةِ الْإِسَارَ، وَبَطَلَ الْإِقْلَالُ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ وَالْإِكْثَارِ، وَقَدْ
كَانَ أَعَزَّ مِنَ الْأَبْلَقِ الْعَقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ، أَسْتَجَلَيْتُ صُورَتَهُ مُتَمَّلاً،
إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي مَوْثِلًا، فَرَأَيْتُ هَامَةً نَحْمَهُ، وَجُثَّةَ صَحْمِهِ، وَشِدْقًا أَهْرَتًا
رَحْبًا، ذَا مِرَّةٍ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَوَادِثِ صَعْبًا، وَأُنْيَابًا مُحَدَّدَةً عُصْلًا كَالنِّصَالِ، وَطُرْفًا
مُخَالِسًا غَيْرَ غَرٍّ بِالْمَكْرِ وَالْخِتَالِ، كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ نَارٌ لَمْ تَجُدْ وَسَامِعَتَيْنِ
تَتَوَجَّسَانِ مَادَارَ فِي الْأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنْجِي بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي الْأَحْلَامِ، قَدْ
نَيْطَتْ بَعْنَى صَغُرَتْ هَامَتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ أَسْتَدْبَرْتَهُ قُلْتَ : هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا
أَوْ أَسْتَقْبَلْتَهُ قُلْتَ : هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ، يَشْتَمِلُ عَلَى نَحْوِ خَصِيبٍ، وَصَدِيرِ رَحِيبٍ،
فِيهِ تَزَعَتَا بَيَاضُ كِهْلَالَيْنِ قُرْنًا فِي تَسْقٍ، أَوْ تَجْمَى دُؤَابَةٌ ظَهَرًا فِي عَسَقٍ، تُسَرُّ نَفْسُ
الْناظِرِ إِلَيْهَا، وَيُعَقِّدُ خَنْصِرُ الْاِخْتِيَارِ فِي حُسْنِ الشَّيَاتِ عَلَيْهَا، أَتَّصِلُ ذَلِكَ بِمَنْكَبِ
عَيْدٍ، وَسَاعِدِ شَدِيدٍ، وَبُرْثْنِ شَثْنٍ وَمُخْلِيبِ حَدِيدٍ :

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْفِهَا * نَوَافِدَ فِي صَمِّ الصُّخُورِ نَوَاشِبِ،

مُعَقَّفَةِ التَّرْهِيْفِ عَوِجَ كَأَنَّهُ * تَعَقُّرُ أَصْدَاغِ الْحَسَانِ الْكَوَاعِبِ !!

قَدْ جَاوَرَ جُؤْجُؤًا نَهْدًا، وَقَابَلَ كَاهِلًا مُتَسَدًّا، يَكَادُ خَضْرُهُ يَنْعَقِدُ أَضْطِرَارًا،
وَهِمَّتُهُ تَسْعَرُ نَارًا، بِرَجْلَيْنِ تَسْبِقُ فِي الْحَضِرِ يَدَيْهِ، وَتَقْدُ بِأُظْفَارِهَا أُذُنَيْهِ، وَذَنَبُ
كَالْزِدَاءِ الْمُسْبِلِ يَحْمِلُهُ اخْتِيَالًا وَمَرَحًا، وَيَتَبَهُ نَحْبًا وَفَرَحًا، إِنْ أَنْسَابَ قُلْتَ : أَنْسَابُ
أَفْعُوَانِ، أَوْ صَالَ قُلْتَ : أَسْدُ خَفَّانٍ، أَوْ وَثَبَ سَبَقَ الْوَهْمِ فِي انْخِطَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ
أَدْرَكَ الْبَرْقِ مِنْ نَسَاطَتِهِ، أَوْ طَلَبَ فَاتَ الطَّرْفِ فِي انْخِرَاطِهِ، أَنْعَمَ مَسًّا مِنْ أَرْبٍ،

وَأُزْهِىَ مِنْ نَعْلَيْهِ ؛ قَدْ كَسَاهُ الظَّلَامُ خِلْعَتَهُ ، وَقَبْلَ الصَّبَاحِ طَلَعَتْهُ ؛ حَازَ مِنَ الْقَدْسِ صِقَالَهُ وَبَهَجَتَهُ ، وَمِنْ الْفَنَكِ لَيْنَهُ وَنَعْمَتَهُ ؛ أَلَيْسَ رِداءَ الشَّبَابِ ، وَزُورُهُ عَنْ تَزْوِيرِ الْخِصَابِ ؛ إِنْ اخْتَلَسَ فَمَا تَأْبَاطُ شَرًّا ، أَوْ خَاتَلُ أَرْزَى ؛ بِالشَّفَرَى مَكْرًا ؛ أَحَدَ نَفْسًا مِنْ عَمْرُو بْنِ مَعْدَى ، لَا يُصْلِدُ قَادِحَ زِنَادٍ بَطْشُهُ وَلَا يُكْدِي ؛ أَتَزُقُ مِنْ أَبِي عَبَّادٍ ، وَأَصُولُ مِنْ عَنَتَرَةَ بْنِ شَدَّادٍ ؛ أَفَتَكُ مِنَ الْحَرِثِ بْنِ ظَالِمٍ ، وَأَنْهَرُ فَصْدًا لِلدَّمِ مِنْ حَاتِمٍ ؛ لَا يَلِينُ وَلَا يَشْكُو إِلَى ذِي تَضَمُّنٍ ، ”كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيتٍ“ ؛ يَكَادُ عِنْدَ الْمُخَاتَلَةِ فِي أَنْسِيَابِهِ ، يَقُوتُ الْخَاطِرُ أَوْ يُخْرِجُ مِنْ إِهَابِهِ ؛ إِنْ قَارَنَ طَيْرًا أَبَاحَهُ مَنَسَرًا كَيْنَسِرَ الْأَسَدُ ، أَغْلَبَ فِيهِ شَعًا كَأَنَّهُ عِقْدُ ثَمَانِينَ فِي الْعَدَدِ ؛ فَيُنْشِدُهُ : أَلَا عِمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الظَّلَلُ الْبَالِي ، فَلَا يُحْسُ لَهُ بَعِيْنٌ وَلَا أَثَرٌ سَجِيْسَ اللَّيَالِي ، فَكَأَنَّ قُلُوبَهَا رَطْبًا وَيَأْسًا لَدَى وَكْرِهِ الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي ؛ أَعْتَادَ قَنْصَ السَّائِخِ وَالْبَارِحِ ، فَمَا فَاتَ وَرَدَ الْمَنِيَّةِ مِنْهُ غَايِدٌ وَلَا رَائِحٌ ؛ طَوِيلُ الْقَرَامُذُجِ الْأَعْظَمُ ، لَهُ مُخَاتَلَةٌ سِرْحَانٍ وَهَجْمَةٌ ضَيْغَمٌ ؛ أَحَنَ مِنْ نَقْبِهِ (?) ، وَأَظْلَمَ مِنْ حِيَّةٍ ، أَطْيَشُ مِنْ فَرَّاشَةٍ ، وَأَسْبَقُ إِلَى الْغَايَاتِ مِنْ عُكَّاشَةٍ ؛ أَخْطَفُ مِنْ عُقَابٍ ، وَأَشْجَعُ مِنْ سَاكِنِ غَابٍ ؛ أَسْرَقُ مِنْ جُرْدٍ وَأَنُومُ مِنْ قَهْدٍ ، وَأَلَيِّنُ مِنْ عَيْنٍ وَأَخْشَنُ مِنْ قِدٍ ؛ بِأُسِهِ قَضَاءٌ عَلَى الطَّيْرِ مُنْزَلٌ ، وَبَطْشُهُ مَلَكٌ بِأَجَالِهَا مُرْسَلٌ .

فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ خَلْقَهُ ، وَسَبَرْتُ بِتَجْرِيبَةِ الْفِرَاسَةِ خُلُقَهُ ؛ عَجَّلْتُ لَهُ جَرِيرًا مُسْتَحْصِدَ الْمِرَّةِ لَوْنَاقِهِ ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّهُ فِي مَحَلِّ خِنَاقِهِ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : إِنْى مُجَرَّبُكَ سَحَابَةٌ هَذَا النَّهَارِ ، ”وَمَنْ سَلَكَ الْجَدَدَ أَمِنَ مِنَ الْعِنَارِ“ ؛ فَعَلَ ذِي خِبْرَةٍ بِمَكْرِهِ ، وَعَلَى ثِقَةٍ مِنْ غَدْرِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّئِيمَ ذُو صَوْلَةٍ بَعْدَ الْخُضُوعِ ، وَفَضَحَ التَّطَبُّعِ شَيْمَةَ الْمَطْبُوعِ ؛ وَكَيْفَ الثَّقَةُ بِهِ وَإِنْ أَسْتَقَرَّ وَلَمْ يَنْتَبِشْ ؟ وَأَيُّ الطَّمَأِينَةِ إِلَيْهِ وَهُوَ الْأَزْرَقُ الْمَتَمَسِّسُ ؟ .

ثم آنصرفت إلى البلد لبعض شائي ، والاجتماع بأخلائى وأخذاني ؛ واستغفرت
أديم النهار فيما توجهت له ، وقطعت عمر يوم ما كان أطوله ! .

فلما قضيت نهجتي ، من نجعتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، ألفتته
عمد إلى الوثاق فقرضه ، ووفاه بالكيل الوافي ما أقرضه ؛ وصال على شيخه تستسعد
بدعائها ، ونفزع إن دهمنا هم قبل نداء أولى البطش إلى نداءها ؛ ذات خلق عظيم ،
ومنطق رخم ، وقلب رخم ، وجه ذى نضرة ونعيم ؛ إن قامت أحيات الليل بالسهر ،
أو قرأت رأيتنا حولها زمراً بعد زمراً ؛ إن حادتها نطق بالسحر محلاً ، أو تاركتها
رأت الصمت على كثير من النطق مفضلاً ؛ تسرف نفسك في حالة الصخب ، وتريك
وجه الرضا في صورة الغضب ؛ فدد إليها يد العدوان ، وأطاع بأذاها أمر الشيطان ؛
ولم يقرب فيها إلا ولا ذمة ، وحملها حملنا من أذاها غمه ؛ ومزق قشيب أنوائها ،
وحكم محال له الحديدة في إهابها ، فعظم مصاب من حوت داري بمصاها .

فلما وصلت رأيتها باكية ذات قلب مريض ، وجناح مهبط ؛ فسليت بها بأن
المصائب تلقاها الأبرار ، وترققت بها إلى أن رقات تلك الأدمع الغزار ، وأوردت :
« إن جرح العجاء جبار » ؛ وقلت : إياها لك وآها ، لقد ارتكبت خطة ما ألقها بعذرك
وأولاه ! ! ، « فلقد أنصف القارة من رامها » ، ثم آليت ألية بره ، لأوطئته من الوثاق
بحره ، ولأقتصن هذه المرة تلك المرة ؛ وأتيته بسلسلة تنبؤ أنيابه عن عجمها ،
ولا تثبت شياطين مكره برحها ؛ قد أبدع قينها الصنعة بإحكامها ، وأنى بالعجب
في نظامها ؛ فله هو من تحكم فيما يقطع الجلمد ، بفعله من اللطافة يحل ويعقد ؛
فاستودعت عنقه منها أميناً لا يخفر وثيق ذمته ، ولا تتطرق الاوهام إلى تهمته ؛
مستحكم القوة في الشد ، فتغيظ تغيظ الأسير على القد ؛ ونظر إلى بطرف حديد ،

وَتَذَلُّلٍ بَعْدَ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَبَضْبَصٍ بِذَنبِهِ فَقُلْتُ : ”أَمَرَكُمَا وَأَنْتَ فِي الْحَدِيدِ“ . فَلَمَّا
أَيَسَ مِنَ الْخَلَّاصِ ، تَلَوْتُ : (وَلَا تَحِينَ مَنَاصَ) .

فَلَمَّا تَمَّ مَا ذَكَرْتُهُ ، وَأَبْدَأْتُهُ وَأَعَدْتُهُ ، وَرَدَّتْ رُقْعَةُ سَيِّدِنَا عَلَى عَقَائِلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ
الَّتِي وَقَعْتُ ، وَصَدَّتْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَنَعَتْ ، وَأَقْنَضَى بِي الْحَالُ كَتَبَ هَذِهِ الْخُرَافَةَ
وَأِنْ تَشَبَّهْتُ بِأَذْيَالِ الْحَدِّ ، فَأَخْرَجْتُهَا مَخْرَجَ الْهَزْوِ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى حَوَازِ قَضَبَاتِ
الْمَجْدِ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ فِي الرِّوَايَا خَبَايَا ، وَإِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَصُولَ عَلَيْهَا تَنَبُّتُ الشَّجَرِ فَلَمَّا أَبْنُ جَلَا
وَطَلَّاعُ النَّبَايَا“ .

هَذَا : وَإِنْ أَبْقَى قِرَاعَ الْخُطُوبِ فِي حَدِّي فُلُولًا ، ”فَالْفَحْلُ يَجِي شَوْلَهُ مَعْقُولًا“ ؛
وَلَقَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُطُوبُ عَلَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَأَوْبَ ، وَطَرَقَتِ الرِّزَايَا جَنَابِي مِنْ كُلِّ
صَوْبٍ ، وَجَرَيْتُ مَعَ الْخُطُوبِ كَقَرَسِي الرَّهَانِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إِلَّا سَقَطَ بِي
الْعِشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ ، وَبِكُلِّ حَبْلٍ يَحْتَنِقُ الشَّقِي ، وَلَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي أَمْرٌ وَكَيْفَ يَتَّقِي ؛
وَالْجَلْدُ يَرَى عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَحْمَدُ عِنْدَ النَّجَاحِ عُقَى السَّيْرِ ، (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ
لَاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) .

تَجُوزُ الْمُصِيبَاتُ الْفَسَقَى وَهُوَ عَاجِزٌ * وَيَلْعَبُ صَرْفُ الدَّهْرِ بِالْحَازِمِ الْجَلْدُ !
فَسَطَرْتُ هَذِهِ الْأَحْرَفَ إِلَى سَيِّدِنَا لِيُؤَافِقَ خَبْرِي عِنْدَ أَصْحَابِهِ خُبْرُهُ ، وَ”مَنْ يَشْتَرِي
سَيْفِي وَهَذَا أَثَرُهُ“ وَأَعْلَمَ أَنَّهَا سَيُضْرَبُ بِهَا فِي بَابِهَا الْمَثَلُ ، وَقَدْ ”أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ
مُشْتَمِلٌ“ .

(١) المقاييل جمع عقوبة وعقوب بالضم . وهي الشدائد .



وهذه رسالة في الشكر على نزول الغيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي
الحصّال الغافقي الأندلسي ، نقلتها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد
أبن سيد الناس اليعمرى المصرى ، وهى :

الحمد لله الذى لا يكشفُ السوءَ سواه ، ولا يدعو المضطرَّ إلا إياه ، نزلَ قفَرنا بغناه ،
ونعوذُ من سُخطه برضاه ، ونستغفره من ذُنوبنا : (ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له إلهًا علًا فأقتدر ، وأوردَ عباده
وأصدر ، وبسطَ الرزقَ وقدر ، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله الذى بَشَّرَ وأنذَر ،
ورَغِبَ وحَدَّر ، وغَلَبَ البُشرى على الإقنَاط ، ودَلَّ على الصِّراط ، وأشار إلى السَّاعةِ
بالأشراط ، ولم يَأُلْ أُمَّته فى الدِّبِّ والاحتياط ، صلى الله عليه وعلى الوُزراءِ الخُلَفاءِ ،
والبرَّةِ الأتقياءِ ، والأشدَّاءِ الرُّحَماءِ ، والأصحابِ الرُّعَماءِ ، صلاةً تملأ ما بين الأرضِ
والسَّما ، وتوافيهم فى كلِّ الأوقات والآنا ، وتَضَعُ الثَّناءَ مَوْضِعَ الثَّنا .

ولما لَفَحَتْ حَرْبُ الجَدْبِ عن حِيال ، وأشفقَ رَبُّ الصَّريحَةِ والعِيال ، وتنادى
الجيرانُ للتفرُّقِ والزَّيَال ، وتناوحتْ فى المهبوبِ ريحُها الجنوبُ والشَّمال ، وتراوحتْ
على القلوبِ راحتا اليمينِ والشَّمال ، وأحضرتْ أنفُسُ الأغنياءِ الشَّح ، وودَّوا أن
لا تَنشَأَ مُزَنَةٌ ولا تَسِحَّ ، وتَوَهَّمُ حَازِنُ البُرِّ ، أن صَاعَهُ يَبدِلُ صَاعَ الدُّرِّ ؛ وخَفَّتْ
الأزوادُ ، وماجت الأرضُ وألقت الرُّودَ ؛ وأنترعت العازبُ القِصَى ، فألقتِ العِصَى ،
وصدَّرت بحسراتِها ، وقد أَسَلَمَتْ حَرَراتِها ؛ وأصبحت كلُّ قَنَةٍ فدعاءً ، وهَضْبَةٌ درعاءً ،
(صفاه وهما ونقبا وهما) (؟) ؛ والصُّبْحُ فى كلِّ أَفْقٍ قَطُرٌ أو قطع ، والأرضُ كُلُّها سَيْفٌ
وينطع ، والشَّعر يشمر ذيله للنفاق ، ويضمَّر خيله للسِّباق ؛ وجاء الجُدُّ وراح الهزل ،

(١) . كذا فى الأصل ، ولم نصل إلى أصله مع البحث والتنقيب .

وَقُلْنَا : هَذِهِ الشَّدَّةُ هَذَا الْأَزْلُ ؛ وَلِلرَّجَفَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ عَجَاجَةٌ ظَنُّوْهَا لَا تَلْبَدُ ،
وَقِسِيْ نَحْوَ الْغُيُوبِ تُعْطَفُ وَتَلْبَدُ ؛ فَمَا يَسْقُطُ السَّائِلُ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَى نَابٍ يَحْرَقُ ،
وَشِهَابٍ يَبْرِقُ ؛ حَتَّى إِذَا عَقَدُوا الْإِيْمَانَ ، وَأَخَذُوا بِزَعْمِهِمُ الْإِيْمَانَ ؛ وَقَالُوا : لَا يُطْمَعُ
فِي الْغَيْثِ ، وَزُحُلٍ فِي اللَّيْلِ ؛ فَإِذَا فَارَقَ الْأَسَدُ ، لَكَدًا مَا أَفْسَدَ :

تَحَرَّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً * لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبٍ !

أَنْشَأَ اللَّهُ الْعَنَانَ ، وَقَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ؛ فَبَيْنَمَا النُّجُومُ دَرَارِيْهَا الْأَعْلَامُ ، وَأَغْفَاَهَا
الَّتِي لَا تُنْجِدُ عَنْهُمْ وَلَا تُلَامُ ؛ قَدْ اخْتَلَطَ مَرَعَاهَا بِالْهَمَلِ ، وَلَمْ تَدْرِ السَّدَّةَ بِالْحَمَلِ ؛
وَلَا عِلْمَ الْجَدْيِ بِالرَّثَالِ ، وَلَا أَحْسَسَ الثَّوْرَ بِالرَّأْمِيِّ ذِي الشَّمَالِ ؛ إِذْ غَشِيَتْهَا ظُلُلُ الْعَمَامِ ،
وَحَجَبَتْهَا أَسْتَارُ كَأَجْنَحَةِ الْحَمَامِ ؛ وَأَخَذَتْ عَلَيْهَا فِي الطَّرُوقِ ، مَصَادِرُ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ؛
فَمَا مِنْهَا إِلَّا مُقَنِّعٌ بِبَصِيفٍ ، أَوْ مُزْمَلٌ فِي نِجَادٍ خَصِيفٍ ؛ لَمْ تُتْرَكْ لَهُ عَيْنٌ تَطْرِفُ ،
وَلَا ثِقْبَةٌ يَطْلُعُ مِنْهَا أَوْ يُشْرِفُ ؛ فَبَاتَتْ بَيْنَ دُورٍ مُتَدَارِكَةِ السَّقُوطِ ، وَدُرَرٍ مُتَنَائِرَةِ
السُّمُوطِ ، وَدِيمٍ مُنَحَلَّةِ الْخَيْوُطِ ؛ وَجُيُوشٍ مَنصُورَةِ الْأَعْلَامِ ، ثَابِتَةِ الْأَقْدَامِ ؛ وَكَتَائِبَ
صَادِقَةِ الْمُجُومِ ، صَائِبَةِ الرَّجُومِ ، تَطْلُبُ الْحَلَّ مَا بَيْنَ التُّخُومِ وَالنُّجُومِ ؛ وَمَا زَالَتْ
تَرْمِيهِ بِأَحْجَارِهِ ، وَتَحْتَرِشُهُ فِي أَحْجَارِهِ ؛ وَتَغْزُوهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ ، حَتَّى عَفَّتْ عَلَى آثَارِهِ ،
وَأَخَذَتْ لِلْحَزَنِ وَالسَّهْلِ بَنَارَهُ .

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ بِالْكَوَاكِبِ ، انْظُرْ إِلَى الدَّيْمِ السَّوَاكِبِ ؛ وَأَسْبِغْ فِي لُحُجِ سَيُوهَا ،
وَارْتَحْ فِي مَرَمَرِ دُيُوهَا ؛ وَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الَّذِي قَدَفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَأَعَادَ
الْحَلَلَ إِلَى الْعَاطِلِ ؛ فَبُرُودُ الظُّوَاهِرِ مُحْضَرَهُ ، وَتُغُورُ الْأَزَاهِرِ مُفْتَرَهُ ؛ وَمَسَرَّاتُ النُّفُوسِ
مُنْتَشِرَهُ ، وَالْدُّنْيَا ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَهُ ؛ وَأَرْوَاحُ الْأَدْوَاكِ حَامِلُهُ ، وَأَعْطَافُ الْأَغْصَانِ
مَائِلُهُ ؛ وَأَوْزَاقُ الْأَوْزَاقِ تَفْصِلُ ، وَأَجْنِحَةُ الظَّلَالِ تُرَاشُ وَتُوصَلُ ؛ وَخُطْبَاءُ الطَّيْرِ

تَرَوِي وَتُخِيرِ ، وَتُشِيخُ الْحَارِبَ تَهْلِلُ وَتُكَبِّرُ ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُخَضِّعُ لِحَبْرَتِهِ ،
وَيُشْهَدُ لِمَلَكُوتِهِ ، وَتَلُوحُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَأَمَّا الْخَطَاطِيفُ فَقَدْ سَبَقَ هَا يَهَا ، وَنَطَقَ شَادِيهَا ، وَتَرَجَعَ شُكْرًا لِلَّهِ نَادِيهَا ؛
فُعْشُ يَوْمٍ ، وَلَبِنَةٌ إِلَى أُخْرَى تَزِمُ ، وَشَعْتُ يُلِمُّ ، وَبَدَأَةٌ تُوفِّي وَتَمُّ ؛ وَكَأَنَّهَا حَنْتَ
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ ، وَسَابَقَتِ اللَّقَائِقَ إِلَى الْمَعَاهِدِ ؛ فَظَلَّتِ اللَّقَائِقُ بَعْدَهَا زُرْعًا ، وَسَقَطَتْ
عَلَى أَطَامِهَا أَوْزَاعًا ، وَأَجَدَتْ إِقْطَاعًا ، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخُصْبِ أَمْرًا مُطَاعًا ؛ وَحَارَزَتْ
مِنَ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ إِقْطَاعًا ؛ وَسِغَرْدٌ فِي رَوْضَتِهِ الْمَكَّاءُ ، وَيُضْحِكُ هَذَا الْوَابِلُ
الْبَهَّاءُ ، وَتُرُومُهُ فَلَا تَلْحَظُهُ ذُكَاءٌ ؛ تَحْتَهُ مِنَ الْأَفْنَانِ النَّاعِمَةُ قِلَاصٌ ، وَأُحْصَنَتُهُ مِنْ
الْخُضْرَاءِ التَّبَعِيَّةِ دِلَاصٌ ؛ فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَقْوَالِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَالنَّيْلُ لِأَهْلِ الثَّنَاءِ
وَالْخَيْرَاتِ ؛ وَالْمَرْغَى وَالسَّعْدَانِ ، وَأَرْضُ بَكْرٍ كِبِ النُّورِ تَزْدَانُ ، وَبِقَاعُ تَدِينُ الْغَيْثِ
كَمَا تَدَانُ ؛ أَذْكَرَهَا فَذَكَرَتْ ، وَسَكِرَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِ فَشَكَرَتْ ، وَعَرَفَهَا مَا أَنْكَرَتْ ؛
كَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهَا مِنْ أُمِّ خَارِجَةٍ نَسَبَ أَوْ مَلَحَ ، قَالَتْ لَهَا : خِطْبُ فَقَالَ : نِكَحْ ،
فَقَتَلَتْ الْأَزْهَارَ بِسَيْلِهِ ، وَنَبَتَتْ فِي مَسِيلِهِ ، وَثَبَتَتْ كَاللَّحْظَةِ فِي شَطْطِي نَحِيلِهِ .

فَمِنْ نَزْجِيسٍ تَزْنُو الرِّوَانِي بِأَحْدَاقِهِ ، وَتَسْتَعِيرُ الشَّمْسُ بِهِجَةً إِشْرَافَهُ ؛ وَيَوْدُ الْمِسْكُ
نَفْحَةَ أَنْتَشَافِهِ ، يَحْسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِهِ ، وَيَمْتَنَاهُ الْحَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَاقِهِ ؛ كُحْلَةٌ
نَدَى تَتَرَقَّقُ ، أَوْ غُصْنٌ بَانَ لَا يَزَالُ يُوْرِقُ .

وَمِنْ عَرَارٍ تَفْنَى مُطَالِعُهُ عَلَى عَرَارٍ ، وَكَلَفَتْ بِهِ السَّوَارِي وَالْعَوَادِي كَلْفَ عَمْرٍو
بِعَرَارٍ ؛ بَفَاءِ كَسَاوِلِ الْغَيْدِ تَرَفٌ ، وَكَوْمِيضِ الثُّغُورِ يَعْْبَقُ وَيَسِفُ .

وَمِنْ أَقْصَوَانٍ جَرَى عَلَى الثَّنَايَا الْغُرُ ، وَسُيِّكَ مِنْ نَاصِيعِ الدَّرِّ ؛ يُقْبَلُهُ النَّسِيمُ فَيَعْبَقُ ،
وَيَصْبِحُ الْجَوْبُ (١) وَيَغْنَقُ ، وَيَسْتَقْبِلُهُ نَاطِرُ الشَّمْسِ فَيُشْرِقُ .

ومن بَنَفَسٍ كَطَوَاقِ الْوُرُقِ ، أَوْ كَالْيَوَاقِيتِ الزُّرْقِ ؛ تَشْرَفُ بِأَبْدَعِ الْخَلْقِ ،
وَتَأَلَّفُ مِنَ النَّسَقِ وَالْخَلْقِ ؛ تَلَحُّظُهُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُجَجٍ بِالْأَجْفَانِ وَقِيَتْ ،
وَبُدْمُوعِ الْكُحْلِ سُقِيَتْ ؛ نَسِيعُهُ أَلْيَنُ مِنَ الْحَرِيرِ ، وَنَفْسُهُ أَعَطَرُ مِنَ الْعَيْدِ ؛ يُفَاحِرُهُ
كَأَنَّهُ الْبَرْدُ ، مُفَاحِرَةٌ نَيْسَانَ بِالْوَرْدِ .

وَكُلَّ رَبَوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُرْفَهَا وَأَزَيَّنَتْ ، وَبَيَّنَتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّنَتْ ؛ كَمَا نَتَوَجَّحُ
فِي إِيَوَانِهِ كَسْرَى ، وَاسْتَقْبَلْتَهُ وَفُودُهُ تَتَرَى ، وَتَقْلَبْتُ عَنْ حُسْنِ نَادِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرَى ،
وَكُلَّ تَالِعَةٍ مَذَانِبُ نَصُوحِهَا تُسَلُّ وَمَضَارِبُ فُصُولِهَا لَا تُتْنَى ؛ وَأَرَأَيْمُ تَنْسَابَ ، وَلُحَيْنَ
يُذَابُ وَيَذَابُ ؛ عَلَى حَافَاتِهَا نُجُومٌ مِنَ النُّورِ مُشْتَبِكَةٌ ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَّاتِ الْغَوَاصِي
مُنْتَهِكَةٌ ؛ فَلَوْ أَقْتَسَحَتِ الظُّهُورُ وَالْبُطُونُ ، وَنَطَقَتِ السُّهُولُ وَالْحُزُونُ ، لَقَالَتْ :
(قَتِلَ الْخَبْرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ) .

فَشُكْرًا لِرَبِّنَا شُكْرًا ، وَنُحْقًا لِلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ؛ اللَّهُمَّ بَارِئَ النَّسَمِ ؛
وَدَارِئَ الْقَسَمِ ، وَنَاشِرَ الرَّحْمَةِ وَالنَّعَمِ ، وَمُنْزِلَ الدِّيمِ ، وَبَاعِثَ الرَّحْمِ ، وَنُحْيِ الْأُمَمَ ؛
فَإِنَّا نُوْمِنُ بِقُدْرِكَ : خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ، وَنَطْوِي غَيْثَكَ عَلَى غِرِّهِ ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِنَشْرِهِ
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشْرِهِ ؛ وَنَعْتَقِدُ رُبُوبِيَّتَكَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوقِ
وَالْإِلْحَادِ ؛ وَنَسْتَرِيدُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْبِلَادِ ؛ رِزْقُنَا لَدَيْكَ ، وَنَوَاصِينَا
بِيَدَيْكَ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ ؛ وَلَا نُشْرِكَ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا ، وَلَا يَجِدُ عَبْدٌ
مِنْ دُونِكَ مُلْتَحِدًا ؛ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، وَأَمَّتْ الْحَيُّ وَأُخِيَّتِ الْمَيِّتُ ؛ لَا هَادِيَ
لِمَنْ أَضَلَّتْ وَلَا مُضِلٌّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، فَكَيْفَا فِيمَنْ كَفَيْتَ ، وَتَوَلَّيْنَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ،
إِنَّكَ تَهْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَتَقْرَأُ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) الْآيَةُ .



وهذه نسخة رسالة ، كتَب بها الصاحبُ نَفرُ الدِّين عبدُ الرَّحمن بن مُكائس ،
تَعَمَّدَه الله بِرَحْمَتِهِ ؛ إلى الشَّيخ بَدْرِ الدِّين البَشْتَكِي عند ما زَاد النِّيلُ الزِّيَادَةَ المُفْرِطَةَ ،
سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وهى :

رَبَّنَا أَجْعَلْنَا فى هَذَا الطُّوفَانِ مِنَ الْآمِنِينَ ، وَسَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فى الْعَالَمِينَ .
ما تَأْخِرُ مَوْلَانَا بَحْرَ الْعِلْمِ وَشَيْخَهُ عَنْ رُؤْيَا هَذَا الْمَاءِ ؟ ، وَمَا قُعَادُهُ عَنْ زُرْقَةِ
هَذَا النِّيلِ الذِّى جُعِلَ النَّاسُ فِيهِ بِالتَّوْبَةِ كَالْمَلَأْنِكَةِ لَمَّا غَدَا هُوَ أَيْضًا كَالْمَاءِ ؟ ،
وَكَيْفَ لَمْ يَرَهُ هَذَا الطُّوفَانُ الذِّى اسْتَحَالَ لِلزِّيَادَةِ فَمَا أَشْبَهَ زِيَادَتَهُ بِالظَّأِ ؛ فَهِيَ كَزِيَادَةِ
الْأَصَابِعِ الدَّالَّةِ فى الْكَفِّ عَلَى نَقْصِهِ ، وَأَوْلَى أَنْ تُنْشِدَ بَيْتَ الْمَثَلِ بِنَصِّهِ :
طَفَحَ السُّرُورُ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ * مِنْ عُظْمٍ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَأى !

فإنه قَارَبَ أَنْ يَمْتَرِجَ بَهْرَ الْحَجَرَةِ بِلِ وَصَلْ وَامْتَرِجْ ، وَأَرَانَا مِنْ عَجَائِبِهِ مَا حَقَّقَ أَنَّهُ
الْمَعْنَى [بِقَوْلِ الْقَائِلِ] : " حَدَّثْتُ عَنْ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ " ؛ وَتَجَاوَزَ فى عَشْرِ الثَّلَاثِينَ
الْحَدِّ ، وَأَرَانَا بِالْمَعَانِيَةِ فى كُلِّ سَاحِلٍ مِنْهُ مَا سَمِعْنَاهُ عَنْ الْجَزْرِ وَالْمَدَى وَأَسَاءَ فى دَفْعِهِ
فَلَمْ يَدْفَعْ بِالتَّى هِىَ أَحْسَنُ ، وَأَقْعَدَ الْمَآثِيَّ عَنْ التَّسَبُّبِ وَالْحَرَكََةِ حَتَّى شَكَأَ إِلَى اللَّهِ
فى الْحَالَيْنِ جَوْرَ الزَّمَنِ ؛ وَسَقَى النَّاسَ مِنْ مَاءِ حَيَاتِهِ الْمَعْهُودَةِ كَمَا شَرِبُوا مِنَ الْمَوْتِ
أَصْعَبَ كَاسٍ ، وَسُئِلَ ابْنُ أَبِي الرَّدَّادِ عَنْ قِيَاسِ الزِّيَادَةِ فَقَالَ : زَادَ بِلَا قِيَاسٍ ؛
أَمْتَلَأُ الْيَابَ ، وَهَالِ الْعُبَابَ ، وَضَاعَ الْعَدَّ وَأَخْتَلَطَ الْحِسَابَ ؛ كَالْ فَطْفُفِ ، وَزَارَ
فَمَا خَفَّفَ ؛ غَسَلَ الْجُسُورَ ، وَأَعَادَ الْإِمْلَاقَ بَعَزَمَهُ إِلَى الْبُحُورِ ، وَبَرَعَ فَكَانَ أَوْلَى
بِقَوْلِ الْحِلِّىِّ مِنْ ابْنِ مَنْصُورٍ :

بِمَكَارِمِ تَذَرُّ السَّبَاسِبِ أَبْجُورًا * وَعِزَائِمِ تَذَرُّ الْبِحَارَ سَبَاسِبًا !

جمع في صُعودِهِ إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل النَّاسُ إلى أسواقِ مِصرَ
وخصُوصاً سوقَ الرِّقِيقِ على كُلِّ جاريةِ ذاتِ ألواح ؛ وغدا الثَّيَّارُ يَنسَابُ في كُلِّ يَمٍّ
كالآيَمِ ، وأصبحتْ هِضَابُ المَوجِ في سماءِ البَحرِ وكأَنَّها هي قِطْعُ الغِيمِ ؛ وأستحالتِ
الأفلاكُ فكلُّ بُرْجٍ مائى ، وتغيَّرتِ الألوانُ فكلُّ ما فى الأرضِ سَمائى ؛ وحكى ماؤه
حكاكَةَ الصَّنَدَلِ لما مَسَّهُ شَيْطانُ الرِّيحِ فتخبَّطَ ، وزادَ فأستحالَ نَفْعُهُ فتحققَ
ما يُنسَبُ إلى الصَّنَدَلِ مِنَ الاستحالةِ إذا أَقْرَطَ ؛ فلقد حَكَتْ أمواجهُ ودَوَّارُهُ
الأعْكَانَ والشَّرَرَ ، وغدا كُلُّ حَيٍّ مَيِّتًا من زيادته لا كما قالَ المَعْرَى : حَيًّا مِنْ بَنِي مَطَرٍ ؛
وتحالى إلى أن أَقَرَفَ اللَّيْمُونَ الأَخْضَرَ ، وأحرَّتْ عينُهُ على النَّاسِ فأذاقَهُم المَوْتَ
الأَحْمَرَ ؛ ولقد صَعَبَ سُلُوكُهُ وَكَيْفَ لا ؟ وهو البَحرُ المَدِيدُ ، وأصبحَ كُلُّ جَدُولٍ مِنْهُ
جَعْفَرًا وَيَزِيدَ :

فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا إِفَاضَةً شَاخِصٍ * إِلَيْهِ بَعِينٍ أَوْ مُشِيرًا بِأُصْبُعٍ !

فلَكم قالَ الهَرَمُ لِلسَّارِينَ بِاسْأَرِيَةِ الجَبَلِ ، وأنشدَ وَقَدْ شَمَّرَ ساقَهُ لِلخَوْضِ : أنا الغَرِيقُ
مَما خَوْفِي مِنَ البَلَلِ ؟ وَكَمْ قالَ أبو الهَوَلِ : لا هَوَلٌ إِلَّا هَوَلٌ هَذَا البَحرُ ، وقالَ
المسافرونَ : ما رأينا مِثْلَ هذا النَّيلِ من هُنا إلى ماوراءَ النَّهرِ ، وقالَ المؤرِّخونَ : لم نَنقُلْ
كَهذِهِ الزيادةِ من عَهْدِ التَّهْرَوَانِ وإلى هَذَا الدَّهْرِ .

وَكَيفَ يَسُوغُ لمولانا فى هذه الأيامِ غَيْرَ آرتِشافٍ فَمِ الخُمُورِ ؟ وَلِمَ لا يُغَيِّرُ مَذْهَبَهُ
وَيُطَيِّبَ على هَذِهِ الخُلُجِ بالسَّلْسَلِ والدُّورِ ؟ ؛ وَكَيفَ وَكَيفَ ؟ !! ، وَلِمَ لا يَتَّخِذُ
مولانا حَمَو النَّيْلِ وَبَرْدَةَ رِحْلَةِ الشِّتَاءِ والصَّيْفِ ؟ ؛ وهو فى المبادرةِ إلى عُلُوِّ المعالىِ
وَعُلُوِّ المعانىِ ، وآتِهازِ القُرْصِ فى بَلَاغِ الآمالِ وَبُلُوغِ الأمانِ :

(١) يشير إلى بيت المعرى فى قوله :

وإِن بَجَلَتْ عَنِ الأَحْياءِ كُلِّهْم * فَاسْقِ المَواطِرَ حَيًّا مِنْ بَنِي مَطَرٍ

أنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠) .

عَجَبٌ مِنْ عَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ * وَنَوْعُ فَرْدٍ وَشَكْلُ غَرِيبٍ !

نَعَمْ :

مَنْ قَاسَكُمْ بِسِوَاكُمْ * قَاسَ الْبَحَارَ إِلَى الثَّمَادِ !

أَعْلَى الْأَنَامِ فِي الْعُلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامِ النُّحَاةِ مِنْ عَهْدِ سَيَبَوِيهِ وَهَلَمْ جَرًّا ، وَشَيْخِ
الْعَرُوضِينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَيَحْرَا :

وَشَيْخِ سَيَحُونِ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجْلِهِ ،

وَشَيْخِ جَيْحُونَ أَيْضًا ، * وَشَيْخِ نَهْرِ الْأُبُلَّةِ !

إِىَ وَاللَّهِ :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَسَى : * الطَّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكَسَا !

لَا تَجِبْ لِعَظِيمٍ بَعْدَ عُرُوسٍ ، أَنْتَ أَعُوْمٌ فِي بُحُورِ الشَّعْرِ مِنْ أَبْنِ قَادُوسٍ ، وَأُصْلِحْ
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْقُدُوسِ ، وَأَتَمِّهِ إِذَا هَزَلْتَ مِنْ أَبْنِ حِجَّاجٍ إِلَى
النَّفُوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَجَا * وَحَقَّقَكَ مَا اسْتَحْلَى لَهُ النَّاسُ زَانِدًا !

نَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ أَبْنُ
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوَجْهِ جَمِيلٍ ؛ : فَلَوْ رَأَاهُ مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرَ بِلْخَاسٍ خِلَالَ الدِّيَارِ ،
وَدَخَلَ إِلَى الْمَعْشُوقِ فَتَرَكَه كَالْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ لَمْ يَرْمَنْهُ غَيْرُ الْآثَارِ ؛ لَبَكَى بَعْنَى عُرْوَةٍ ،
وَأَوَى مِنَ الرَّصْدِ وَقَدْ تَفَجَّرَتْ مِنْ صَلْبِهِ عَيُونَ التَّرِّ إِلَى رَبْوَةٍ ؛ أَوْرْنَا لِرَوْضِ الْحَزِيرَةِ
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاهُ ، وَتَخَامَلَتْ عَرَائِيسُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِينِ بِالْمِيَاهِ . وَالنَّخِيلِ وَقَدْ قُتِنَتْ
مُلَاكُهَا - حِينَ فَتَكَ - بِالْأَسْفِ ، وَجَفَّ أَحْمَرُ ثَمَرِهَا وَأَصْفَرُّهُ فَأَرَانَا الْعُتَابُ وَالْحَشَفُ .
وَالْحَزِيرَةِ وَقَدْ قُلْتُ لَهَا : تَبًّا لِحَارِكِ النَّيْلِ إِذَا أَفْسَدَكَ صُورَةٌ وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَغَانِيكَ فَسَقَى

دِيَارَكَ بغيرِ اسْتِثْنَاءٍ . وقُرَاهَا الْغَرَبِيَّةُ . وقد قَلَبْتُهَا . حِينَ أَوْتُ إِلَى أَعَالِي الْأَرْضِ هَرَبًا
 مِنَ الْمِيَاهِ ، وَأَعْتَصَمْتُ بِالْجِبَلِ الْغَرَبِيِّ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلُّ سَفِينَةٍ
 وقد عَلَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَأَرْتَقَتْ لِأَرْتِقَاءِ الْبَحْرِ إِلَى أَنْ أَخْطَطْتُ بِالسَّمَاءِ ؛ وقد
 قَالَتْ لَهَا أَتْرَابُهَا عِنْدَ الْفِرَاقِ : إِلَّا تَرْجِعِي ، وَقُلْنَا لَهَا نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ التَّمَاوُلِ : يَا سَمَاءُ
 أَقَامِي ؛ وَالنَّيْلُ تَبْدُو عَلَيْهِ الْقُلُوعُ خَافِيَةً لِبُعْدِهَا فَكَأَنَّهَا الْخِيَامُ بَذَى طُلُوحُ^(١) ، وَجَارَ عَلَى
 النَّاسِ بِطُغْيَانِهِ فَكَأَنَّهَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحَ .

فلقد طَارَ النَّسْرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ، وَدَنَا نَهْرَ الْمَجَرَّةِ مِنَ السَّكَارَى بِالشَّخَايِيتِ إِلَى أَنْ
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ . وَنَزَجِسَ الْهَسَاتِينَ وقد أَيْبَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ
 كَظِيمٌ ، وَفَارَقَ أَحْبَابَهُ مِنَ الرِّيَّاحِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرُ الْقَلَانِسِ صَدِيقٌ وَغَيْرُ الْمَاءِ حَمِيمٌ .
 وَالْوَرْدُ وقد قِيلَ لَهُ : مَا لَكَ مِنْ آسٍ ، وَغَضِنَ الْبَانِ وقد قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَانَقَكَ
 وَلَا بَاسَ . وَالْأَسْمَاكِ وقد أَبْجَهَمَ الْعَرَقُ ، وَالْقُلُقَاسِ وقد شَكَا شَكَاؤُ ابْنِ فَلَاقِسَ
 وَأَبْنَاهُ مِنَ الْعَرَقِ . وَالْقَصَبُ بِالْحَيَرَةِ وقد شَرِبَ مَاءَ التَّرِّ فَهُوَ بُئْسَ الشَّرَابُ ، وَالْقَصَبُ
 بِبُولَاقٍ لَمْ يُنْجِهِ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْعَرَقِ إِلَّا كَوْنُهُ غَابَ ، وَالْفَارِسِيُّ بِالْهَسَاتِينَ وقد تَرَجَّلَ
 وَوَقَعَ فَأَرَانَا كَيْفَ تَكْسِيرِ الْأَقْصَابِ ؛ وَقِيلَ لِلْأَسِ : عَالِجُ حَيْرَانِكَ بِالْغَيْطَانِ فَالنَّاسُ
 بِالنَّاسِ ، وَبَادَرُوا إِلَى جَبْرِ مَا كُسِرَ فَالْحَاجَةُ تَدْعُو الْمَكْسُورَ فِي الْحَالِينَ إِلَى الْآسِ .

هَذَا وَأَنَا مُقِيمٌ بِالرُّوْضَةِ إِذْ زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ، وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبَائِهَا مِنْ
 أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَعْرَاضِ ؛ وَإِنْ أَعْتَلَّتْ بِالْأَسْتِسْقَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الصَّحَّةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ
 إِلَى الْعُيُونِ الْمَرَاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ الْمَلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قَصِيدَةٍ فِي بَعْضِ الْأَعْرَاضِ :

وَقَائِلٌ : فِي لِحَاطِ الْغَيْدِ بَاقِيَةٌ * مِنَ السَّقَامِ وَمَا ضَمَّتْ خُصُورُهُمْ ،

وَفِي النَّسِيمِ فَقُلْتُ : الْأَمْرُ مُشْتَبِهٌ * عَلَيْكَ فَالْزَمِ فَأَنْتَ الْحَادِقُ الْفَهْمُ .

قُلْتُ الصَّحِيحَ وَلَكِنِّي بِمُوجِبِهِ * أَقُولُ : تِلْكَ دَوَاةٌ بَرُّوْهَا السَّقَمُ !

قد أحاط بها النيلُ إحاطةَ المَرَاشِفِ بِاللَّآ ، فأشْرَقَتْ ضِيَاءُ بَيْنِ زُرْقَتِهِ فَكَانَهَا
الْبَدْرُ فِي كَيْدِ السَّمَاءِ :

بَصَخْنِ خَدَّ لَمْ يَغْفُضْ مَأْوُهُ * وَلَمْ تَخْضُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ !

مُتَعَطِّشٌ مَعَ هَذَا الطُّوفَانِ لِرِيَاكَ ، مُتَشَوِّفٌ وَإِنْ كُنْتُ مُغَاوِلَ الْجُجُمِ الْأَرْضِيَّةِ
وَالسَّمَائِيَّةِ يَا بَدْرُ لِرُؤْيَاكَ ، لِكِنِّي يُسَلِّبُنِي أَنْيَ مَا نَظَرْتُ إِلَى النَّيْلِ إِلَّا رَأَيْتُكَ مِنْ سَائِرِ
الْجِهَاتِ ، وَلَا لَحْتُ بِيُوتَ الْبَحْرِ بِلِ الْبُحُورِ إِلَّا رَأَيْتُكَ عِمَارَةَ الْأَبْيَاتِ :

وَلَا هَمَمْتُ بِشُرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطِيشٍ * إِلَّا رَأَيْتُ خَيَالًا مِنْكَ فِي الْمَاءِ !

وَلَكِنِ لِلْعِيَانِ لَطِيفٌ مَعْنَى * لَهُ طَلَبَ الْمَشَاهِدَةِ الْكَلِمُ !

فَهَلُمَّ إِلَى التَّمَتُّعِ بِرُؤْيَا هَذَا النَّيْلِ الَّذِي لَمْ تَرَمْتَلَهُ الْعُيُونُ ، وَالنَّظَرَ إِلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ
لِعُمُومِهِ وَكُلِّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ؛ فَلَيْسَ يَطِيبُ لِلتَّلْمِيزِ رُؤْيَا هَذَا الْبَحْرِ بِغَيْرِ رُؤْيَا
شَيْخِهِ ، وَلَا يَلْذُّ لَهُ التَّمَلُّ بِمُشَاهَدَةِ هَذَا الْفُلْكِ مَا لَمْ يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَذَهَبَتْ بِيَدْرِهِ وَمَرَّيْجُهُ ؛
فَإِنْ هَذَا الْإِهْمَالُ ؟ ، وَلَيْتَ شِعْرِي يَا أَدِيبُ تَسَاغَلُكَ بِأَيِّ الْأَعْمَالِ ؟ ، أَبَا لِكَلَابَةِ ؟
فَلْتَكُنْ فِي هَذَا النَّيْلِ الَّذِي هُوَ كَالطَّلْحَةِ بِغَيْرِ مِثَالٍ ، أَوْ بِالنَّثْرِ وَالنَّظْمِ ؟ فَفِي هَذَا الْبَحْرِ
الَّذِي مِنْهُ تُؤَخَذُ الدُّرَرُ وَفِيهِ تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ ؛ وَلَقَدْ وَلَدَ فِيهِ الْفِكْرُ لِلْمَمْلُوكِ ، كَيْفَ
تَصَادُمُ الْأَكْفَاءِ وَقَهْرُ الْمَمْلُوكِ لِلْمَلُوكِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ فِي مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا وَرَحَ
فِي عَامٍ مِنَ الْأَعْوَامِ ؛ بِمِثْلِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الزَّائِدَةِ ، وَالْجَزْئِيَّ عَلَى نَحْوِ الْعَادَةِ الَّتِي لَا جَعَلَ

الله بها صلة ولا منها عائدة ؛ وغايته ما وصل إليه في الماضي من عشرين : فضيق
بسعته المسالك ؛ وأوجب المهالك ، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع
الطريق على السالك ، وأحوج مرات إلى الاستضياء لا أحوج الله لذلك .

ودليل ما شمل به من الفساد ، وما عامل به البلاد وأهل البلاد ؛ ما قاله أدباء كل
عصر ، عند ما أبيع للسافر في مدّ عرضة القصر .

فن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل ، وما هو رحمه الله إلا بحر طفق دُرّه ،
فلله دُرّه ، من رسالة :

ورود مثاله يتضمن نبأ سطوره العظيمة أمر طوفان النيل التي كأنها جدأؤه ،
وأنه جاد لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها فليتي الله سائله

ومنها : ولم يزل يجرى مستقره ، ويضمه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوله ؛
حتى إذا تكامل سمو أمواجه حالاً على حال ، وتور أقاصي الأرض من بنية المقياس
فأدناها النظر العال ؛ فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره ماق ،
وليت هواه المعتل كان عدلاً فعمل كل غدير ما أطاق ؛ وطالما جرى بالصفاء ولكن
كدر صفاه بهذا المسعى ، والمرجو من الله أن يتلو ما أفسده هذا الماء ما يصاحبه
خروج المرعى .

وما قاله القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، سقى الله تلك الأنفاظ النيلة
صوب الماطر :

ويُنهي إليه أمر النيل الذي سرفى أوائله الأنفس بأنفس بشرى ، ويقص عليه
نبأ العظيم الذي مايرينا من آية إلا هي أكبر من الأخرى ، ويصف له ما ساقه
إلى الأرض من كل طليعة إذا تنفس الليل تفرق صبحها وتقرى ؛ فهو وإن كان

خَصَّ اللهُ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ بِوَفْوَرِهِ وَوَفَائِهِ ، وَأَغْنَىٰ بِهَ قُطْرَهَا عَنِ الْقَطْرِ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ مَدِّ
كَافِهِ وَفَائِهِ ، وَنَزَّهَهُ عَنِ مِنَّةِ الْغَمَامِ الَّذِي هُوَ إِنْ جَادَ فَلَا بُدَّ مِنْ شَهَقَةِ رَعْدِهِ وَدَفْعَةِ
بُكَائِهِ ؛ فَقَدْ وَطِئَ بِلَادَهَا بِعَسْكَرِهِ الْعَبَّاجِ ، وَزَاخَمَ سَاحَتَهَا بِأَفْوَاجِ الْأَمْوَاجِ ؛ فَعَمِلَ
فِيهَا بِذِرَاعِهِ ، وَدَارَ عَلَيْهَا بِخَنَاقِهِ وَتَخَلَّلَهَا بِنِزَاعِهِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ سَوَارِي الصَّوَارِي تَحْتَ
قُلُوعِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا عُمْدُ قِلَاعِهِ ؛ وَزَارَ زَرَائِي الدُّورِ الْمَبْنُوتَةِ ، وَجَاسَ خِلَالَ الْحَنَائِيَا
كَأَنَّ لَهُ فِيهَا خَبَايَا مُورُوثَةٍ ؛ وَمَرَّقَ كَالسَّهْمِ مِنْ قَنَاطِرِهِ الْمُنْكَوسَةِ ، وَعَلَا زَبْدُ حَرَكَتِهِ
وَلَوْلَاهُ ظَهَرَتْ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَقْصَارِ وَالنُّجُومِ أَشْعَتُهَا الْمَعْكُوسَةِ ؛ وَحَمَلَ عَلَىٰ بَرَكَةِ
الْفِيلِ حَمْلَ الْأَسُودِ عَلَى الْأَبْطَالِ ، وَجَعَلَ الْمَجْنُونَةَ مِنْ تِيَّارِهِ الْمُنْحَدِرِ فِي السَّلَاسِلِ
وَالْأَغْلَالِ ؛ وَالْمَرْجُوُّ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُزِيلَ أَذَاهُ ، وَيُعِيدَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا عَاهَدَنَا بِهِ ؛ فَإِنَّ لَهُ الْإِيَابَ
الْأَكْبَرَ ، وَفِيهِ الْعَجَائِبُ وَالْعِبرَ ؛ فَهَا وَجُودُ الْوَفَاءِ ، عِنْدَ عَدَمِ الصَّفَاءِ ؛ وَبُلُوغُ الْهَرَمِ ،
إِذَا أَحْتَدَمَ وَأَضْطَرَّم ؛ وَأَمِنْ كُلِّ قَرِيبٍ ، إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ ؛ وَفَرَحَ قُطَّانُ الْأَوْطَانِ ،
إِذَا كُسِرَ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ : سُلْطَانٌ ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَبَرَائِهِ مَعَ الزِّيَادَةِ
مِنْ نَقَائِصِهِ ؛ طَالَمَا فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ بِتَعْلِيْقِهِ ، وَفَازَ كُلُّ أَحَدٍ عِنْدَ رُؤْيَا مَائِهِ
الْمُعْصِفَرِ بِتَخْلِيْقِهِ .

وَمَا قَالَهُ الْمَوْلَىٰ زَيْنُ الدِّينِ عُمَرُ الصَّفْدِيُّ تَعَمُّدُهُ اللَّهُ بِعَفْوِهِ ، وَجَمْعُ لَهُ بَيْنَ حَلَاوَةِ
الْكُوثَرِ وَصَفْوِهِ :

وَأَمَّا النَّيْلُ فَقَدْ أَخَذَ الدَّارَ وَالسَّكَّانَ ، وَقَالَ ابْنُ الْخَامَلِ كَمَا قَالَ ابْنُ النَّبِيِّ : الْأَمَانُ
الْأَمَانُ ، وَبَكَى النَّاسُ عِنْدَ مَا رَأَوْهُ مُقْبِلًا عَلَيْهِمُ بِالطُّوفَانِ ؛ وَأَنْسَابَتْ أَرَائِمُ غُدْرَانِهِ
فِي الْإِقْلِيمِ فَأَبْتَلَتْ غُدْرَانَ أَرَائِقِهِ ، وَمَحَا سَيْلُهُ الْمَتَدَفِّقُ مَعَالِمَهُ الْمَجْهُولَةَ فَاسْتَعْمَلَ
الْأَفْلَامَ فِي إِثْبَاتِ مَعَالِمِهِ ؛ وَأَحَاطَ بِالْقُرَى كَالْمُحَاصِرِ فَضَرَبَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ بُسُورَ ،
وَأَخَذَ الطَّرِيقَ عَلَى السَّالِكِينَ فَلَا مَرَكَبَ إِلَّا الْمَرَكَبُ وَلَا عَاصِمَ إِلَّا الْبُحُورُ .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح ، نصرته الأقباط ، وأحد عميد الشعر المشهورة
بالفسطاط ، فما أطيّب مدائح النبوة التي جعلها سوراً بينه وبين النار ، وما أعجب
رثاءه : جعل الله قبره بالرحمة كالروض غيب القطار !! :

يا نبيل ياملك الأنهار قد شربت * منك البرايا شرباً طيباً وغداً ،
وقد دخلت القرى تبغى منافعها * فعمها بعد فرط النفع منك أذى .
فقال : يذكرك عني أنني ملك * وتعتدي ناسياً : إن الملوك إذا !

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعته من الآداب جوانح
نظمها ونثرها ، وسخرت له بحور الشعر فقالت له الآداب : اختر من درها ، فسبحان
من يسر له تمتيع الكلام وهونه ، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ،
فما أشق دقيق فكره الجليل ، وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه على زهر مقطعات
النيل ؛ فما كان إلا مخصوصاً في الأدب ببحور الهبات ، وكلامه في العذوبة والبلاغة
يزري بالقرات وأبن القرات ؛ وإن قيل أي أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد ، يقال
قول ابن نباتة .

فلا عجب للفظي حين يحلو * فهذا القطر من ذاك النبات ! :

وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبت فيها قدمه ، وأمتد نصل تياره كالسيف
الصقيل فقتل الإقليم وهذا الأحمرار إنما هو دمه :

حمرتها من دماء ما قتلت * والدم في النصل شاهد عجب !

فلم يترك وعداً بل وعيداً إلا وفاه ، ولا وهذا بل جبلاً إلا أخفاه ؛ أقبل كالأسد
المصور إذا احتد واضطرم ، وجاء من سن الحسادل فتحدر وعلاً حتى بلغ أقصى
الهرم ؛ وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر ، قائلاً :

إِنْ كُنْتُ بُلْتُ بِالْأَحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَفِضُ بِأَنْ أَرْمِي مِنْ بُرُوقِ تِيَّارِي
بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ .

هذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل ، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال
جميل ، وكل بديع من آثار جود يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة
الليل ؛ وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطه ، وكنازل
الخضب بقُدومه المبارك ذات غبطه ، ومنتحناه بولاء وثاء هذا يدور من الإخلاص
بفلك وهذا يعذب من البحار بنقطه ؛ كم ورد إلى البلاد ضيفا ومعه القرى ، وتم أتى
مرسلا بمعجز آيات الخضب إلى أهل القرى ؛ فهو جواد قد خلع الرسن ، ساهر
في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن ، جامع لأهل مضر من سقياه
ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن ؛ كم بات سير مقياسه يشمل
بظله الغائبين والحاضرين ، وتم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ؛
وبلغ وبلغ بحريز التيار سلامه ، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحب الستر
والسلامه ؛ وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد ، ودعا مضر لأخذ
زحرفها فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العباد ؛ وبسط يده ببركة الماء فقيل :
سلام لك من أصحاب اليمين ، وخضب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل لخضوب
البنان يمين ؛ وأشار إلى وصول المد المتتابع ، وقبض يده المخلقة على الماء فوقت
وما خابت فروج الأصابع ؛ ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادى ،
وتمت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس : ما ذى أصابع ذى أيادي .

هذا وقد قرنت زرابي الدور المبتوثة بالتمارق ، وقال المقياس : تغطت منها
الدرج فنال الرجاء وظهرت الدقائق ؛ فهو جم المنافع ، عذب المنابع ، يُشار في الحقيقة
والمحجاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النَّفْعِ المعهود ، وأَرَانَا مِنْهُ الأَمَانَ مِنَ الطَّوْفَانِ إِلَى أَنْ نَرِدَ
الْحَوْضَ الْمَوْرُودَ ؛ وَكَفَى أَهْلَ مِصْرَ هَذِهِ الْمِصْبِيَةِ الَّتِي إِذَا أَصَابَتْهُمْ قَالُوا :
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلَا أَبْتَلَاهُمْ بِمِثْلِ مَا أَبْتَلَى بِهِ قَوْمًا جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ فَإِنَّمَا يَسْتَغْشَى ثِيَابَهُ مِنْهُمْ الْفُقَرَاءُ فِي الْمَطَرِ وَيَجْعَلُ
أَصَابِعَهُ فِي آذَانِهِ مِنْهُمْ الْمُؤَذِّنُونَ ؛ اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَلِيُّ النِّعْمَةِ ، وَأَوَّلَى بِرَحْمَةِ خَلْقِكَ مِنْ
فَيْضِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ .

وما قاله صاحبنا الشيخُ شهابُ الدين بن أبي حَجَلَةَ الذي كَانَ أَغْرَبَ مِنْ زُرْقَاءِ
الْيَمَامَةِ ، وَأَعْجَبَ إِذَا رَكِبَ بَعْلَتَهُ وَزُرْزُورَهُ مِنْ أَبِي دُلَامَةٍ ؛ الْأَدِيبُ الَّذِي كَانَ حُجَّةَ
الْعَرَبِ ، وَالنَّاثِرُ الَّذِي كَانَ يَنْسِبَتُهُ إِلَى الطُّيُورِ مُحَرِّكَ الْمَنَاطِقِ وَإِلَى الشَّعْرِ صَنَاجِدَ
الْأَدَبِ ، وَالنَّاطِمُ الَّذِي كَانَ إِذَا أَنْشَدَ مَقَاطِيعَهُ فِي التَّشْيِيبِ فَاقَ عَلَى الْمَوَاصِلِ ذَوَاتِ
الطَّرَبِ ؛ وَالصَّدِيقُ الَّذِي كَانَتْ مِنْهُ عَوَائِدُ الْوَفَاءِ مَأْلُوفَةٍ ، وَشَيْخُ الصُّوفِيَّةِ الَّذِي
لَا تَعْجَبُ إِذَا كَانَتْ لَهُ الْمَقَامَاتُ الْمَوْصُوفَةُ ؛ أَسْكَنَهُ اللَّهُ فَيْسِحَ الْحَنَانِ ، وَخَصَّ ذَلِكَ
الْوَجْهَ الْجَمِيلَ بِالْعَارِضِ الْهَتَّانِ ؛ مِنْ مَقَامَتِهِ الرَّعْفَرَانِيَّةِ عَنْ أَبِي الرَّيَاشِ :

فَاعْتَنَقْتُهُ لَدَى السَّلَامِ ، وَقُلْتُ : مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامَ ؛ فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ النَّيْلَ تَرَايَدَ
دَفْعُهُ ، وَأَدَّى إِلَى الضَّرْرِ نَفْعُهُ ؛ فَقَالَ : خُذِ الْعَفْوَ ، وَلَا تُكَدِّرْ بِذِكْرِ النَّيْلِ الصَّفْوَ ؛
فَقَدْ أَمْتَرَجَ بِالْمَعْصِرَاتِ نَجَاجُهُ ، وَأَعْيَى طَيْبَ الْغِيْطَانِ عِلَاجُهُ :

وَشَرِّقْ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ * وَغَرِّبْ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبٌ !

قُلْتُ : فَمَا فَعَلَ النُّغَيْرُ ، بِحَزِيذَةِ الطَّيْرِ ؛ قَالَ : لَمْ يَتَّقَ بِهَا هَاتِفٌ يُبَشِّرُ بِالصَّبَاحِ ،
وَلَا سَاجٍ يَسْمَعُ بِرَجُلٍ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِحَنَاحٍ ؛ إِلَّا اتَّخَذَ تَفَقُّاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَمًا فِي السَّمَاءِ ،
أَوْ أَوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُهُ مِنَ الْمَاءِ ؛ فَادَّاقَ بِهَا الْحَمَامَ الْحَمَامَ فِي الْمَرْجِ ، وَتَرَكَ أَرْضَهَا

كسَاءَ مَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : ﴿ أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ ﴾ . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ نَسِيرٍ وَاقِعٍ ، وَبُومَةٍ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَاغِ :
وَمَنْ تَلَّ فِيهِ الْغُرَابُ مَيْتٌ * سَقَيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ وَأَسْتَقَيْتُ !

قُلْتُ : فِمَصْرٍ ؟ قَالَ : زَحَفَ عَلَيْهَا بَعْسُكَرِهِ الْجَرَّارُ ، وَنَفِطَ مَائِهِ الطَّيَّارُ .
قُلْتُ : فَالْجَيْزَةِ ؟ قَالَ : طَفَى الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِرِهَا وَتَجَسَّرَ ، وَوَقَعَ بِهَا الْقَصَبُ مِنْ قَامَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ آخِضَارِ رِزْنِهِ شَاحِبَ الْإِهَابِ ، تَأَصَّلَ الْخَضَابُ ، غَارِقًا فِي قَعْرِ بَحْرِ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتِهَا عَلَى مِنْ بَهَا مِنَ الْمُقْطَعِينَ وَالْفُقَرَاءِ ، وَتَرَكَ الطَّالِحَ كَالصَّالِحِ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَلَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ؛ وَأَذْرَكَهُمُ الْغَرَقُ فَأَلْسَوْا مِنَ الْخَلَّاصِ ، وَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ؛ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَهَدَّتْ قَوَاهِمُ ، وَأَسْتَغَاثُوا مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

قُلْتُ : فَالرُّوضَةِ ؟ قَالَ : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةُ الْكَلَامِ بِزَهْرِهِ ، وَالْكَأْسُ بِحُبَابِ نَحْمِرِهِ :
فَكَانَهَا فِيهِ إِسَاطُ أَخْضَرَ * وَكَأَنَّهُ فِيهَا طِرَازٌ مُذْهَبٌ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَدْفَعُ أَصَابِعِهِ يَدَانِ ، وَكَمْ أَنْشَدَ مَرَجُهَا حِينَ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ :
أَعْيَنَى كُفًّا عَنْ فُؤَادِي فَإِنَّهُ * مِنَ الْبَغْيِ سَعَى أَشْيَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قُلْتُ : فَذَاكَ النُّحَاسُ ؟ قَالَ : انْحَسَرَ حَالُهَا ، وَأُفْسِدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا ؛ فَدَخَلَ مِنْ حَمَامِهَا الظُّهْرُ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الظُّهْرُ ؛ فَالْحَقَّ بِحَازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَرَقِيَ مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقَةٍ ؛ كَمْ أَغْتَرَفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرْفِ غَرْفًا ، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ الْأَحْمَرَ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخُلْفَا .

قلت : فالخليج الحاربي ؟ قال : خرج عسكر موجه بعبد الكسر على حميه ،
ومرقه من قسي قناطره مروق السهم من الرمي .

قلت : فالمشاة ؟ قال : أصبحت للبحر مرقه ، بعد أن كانت للعيون قره ، وقيل
لمشئها : أتى يحيى هذه الله بعد موتها قال : يحيىها الذى أنشأها أول مره ، قد مال
على ما فيها من شون الغلال كل الميل ، وتركها تتلوفمها الذى شفتاه مضراعا
بابها : (ياء بآنا متع منا الكيل) .

قلت : بغزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جل ثمارها ، وأتى على مغايتها فلم يدع
شيئا من رديها وخيارها ، أخلق دياجه روضها الأنف ، وترك قلفاسها فى الجروف
على شفا جرف :

بعينى رأيت الماء يوما وقد جرى * على رأسه من شاهق فتكسرا !

طلما تضرع بأصابعه إلى ربه ، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء
على قلبه ، وتمثل بقول الأول :

وإن سألوك عن قلبى وما قاسى * فقل : قاسى ، وقل : قاسى ، وقل : قاسى !!!

لم يفده تحضنه من ورقه بالدرق والستائر ، ولا حق عليه حين تضرع بأصابعه
فصرح أن الماء سلطان جائر .

قلت : فحكر ابن الأمير ؟ قال : لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير ، قد انحمل
من دوره نماثلها ، وجعل هالها سافلها ، فكم دار أهدم صاحبها قواره ، ونادى
فى عرصات المتداعية : إياك أعنى فاسمى بإجاره ، فأصبحت بعد نفعها قليلة
الجداء ، مستولية عليها يد الردى ، شبهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحكت فى يومها
أبكت غدا .

قلت : فبولاق ؟ قال : إِملاق ، قد أَلَقْتُ بها من الرِّقِّ السَّاقِ بالسَّاقِ ، فَأَتَى
 من النُّوتَةِ على الصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، ومن المَرَاكِبِ ومَرَّها على النِّقيرِ والقَطْمِيرِ .
 هذا بعد أن تَرَكَ جَامِعَ الخَطِيرِ على خَطَرٍ ، وحيْطَانَهُ يَانِعَةَ الثَّمَرِ ، قد دَنَا قِطَانُهَا ،
 وَحَانَ تِلَافُهَا ، فَكَأَنِّي به وقد مَنَعَ رِفْدَهُ ، وتَلَا على مِحْرَابِهِ سُورَةَ السَّجْدَةِ .
 قلت : بغزيرة الفيل ؟ قال : أَقْتَلَعَ أشجارَهَا بِشُرُوشِهَا ، وَتَرَكَ سَوَاقِيهَا خَاوِيَةً
 على عُرُوشِهَا .

قلت : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هَجَمَ على حُرْمِهَا ، وَغَمَّ الوجوهَ من فَرْقِهَا
 إلى قَدَمِهَا ، فَبَلَ تَرَى المَوْتَى في التَّخُومِ ، وَعَنَتِ الوجوهُ لَمَعَى القِيُومِ ؛ قلت : فما
 الحيلة ؟ ، قال : تَرَكَ الحيلة :

دَعَا سَمَاوِيَةً تَجْرِي على قَدَرٍ * لَا تُفْسِدُنَا بِرَأْيِ مِنْكَ رَاضِي (؟)

طَالَ الكِتَابُ ، وَخَرَجْنَا عن فَصْلِ الخُطَابِ :

وَلَرُبَّمَا سَاقَ المُحَدِّثُ بَعْضَ مَا * لَيْسَ النَّدَى إِلَيْهِ بِالمُتَحَاجِّ !

وكأَنِّي بِقَائِلٍ يَقُولُ : أليس من الكِبَرِ أن يَسْتَعْدِمَ هذا في رسالته مُلُوكَ الكلامِ ،
 ومن الخُفَى أن يَحُلِيَ عَرَائِسُ أَفْكَارِهِ بِمَا لِلنَّاسِ من حَلِي النَّثَارِ والنِّظَامِ ؛ فأقولُ :
 مُسَلِّمٌ أَنْ كُلَّ مَا أوردته دُرُورُ وجَوَاهِرُ ، وعُقُودُ كَرَاهِي الرِّبْعِ عِيُونُ وجُوهِهَا النَوَاضِرُ
 نَوَاطِرُ ؛ وَلَكِنَّهَا هَاهُنَا أُمُتِلَ ، وَجَمَعَ شَمِلُهَا على هَذِي العُرُوسِ أَجْمَلِ :

* وَفِي عُنُقِ الحَسَنَاءِ يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ ! *

وعلى الجُمْلَةِ فيرجع المملوك إلى التَّوَاضُّعِ وهو الأَلْيَقُ بالأدبِ ، فيقول : لا عَيْبَ
 على الفقيرة إِذَا تَجَمَّلَتْ بِحُلِيِّ الغَنِيِّه ، ولا عَارَ على الجَوَاهِرِ إِذَا نَظَّمَ سِلْكَهَا كَانَتْ
 دُرُّهُ على الطَّرِيقِ مَرْمِيَةً ، وَتَرْجَعُ إلى مَا وَلَدَهُ الفِكْرُ من عَجَبِ البَحْرِ ، وما ظهر من دَفْعِ

الملوك لأمثالها عن جريها إلى غاياتها بصُور القمر، فأقول : إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العرض ؛ وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع ، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب الذراع .

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وبجل في البلاد أثره، وحسن في الساء خبره وفي الأرض مخبره ؛ السرى الذى أهتاه بالمعروف معروف ، وسيف الدين الذى سهر فى مصالح الرعايا لما تنام ملء أجفانها السيوف ؛ أتاك العساكر، والمملك الذى هو بالإسلام وله منصور وناصر؛ حصن سائر الكوى بالحسور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور ؛ وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبل ، وردّ دفعه بكل دفع من الرأى والتدبير يغني عن البيض والأسل ؛ وحاربه بجيش عزم إلى أن ولّى هارباً مع التراع والقناطر، وجاهده بجند ركزم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر؛ وحصره بالتضييق عليه كما تحصر البرك والتراع، وغلّ يده عن التصرف فسقاه الموت كما سقى الناس أنواع التراع؛ فما هو إلا أن تضاعل بيران سطواته وأحترق ، وذلل خاضعاً وكفى به تضرعاً بالأصابع وتوسلاً بالملك ، وأطاع لما لم تُنحه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدرق .

على أنه تطاول ليضاهى بأصابعه جود أيديه فقصر، وتحسّر فركب خيل خيلاته ليحاكى بأسه فوقع من جسور نجبه وتقطر، وسمت نفسه كبيراً لأن يبلغ قدره قليل :
يا بحر هذا خليفة الله فى أرضه والله أكبر ؛ نعم :

رأى البحر الخضم نداه طام * يفيض على الورى منه بحار،

فصار البحر ملتطماً وأضحى * على الحالين ليس له قرار!

فلوزدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر ، لاذ نفسه على مصالح
المسلمين ؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصر كجهلك ؛ وكنت
من الملوك الذين إذا دخلوا قرية آتعلوا فيها الأهله ، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها
أذله ؛ لكن هب قبولك إذبارا ، ولاقت ريثك إعصارا ؛ فليس لك به قبل ،
”والسبل أدرى بالجبل“ ؛ فمالك سبل إلى بلاده ، ولا طاقة بآباب الخير على عياده ؛
فانه خادم الحرمين ، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين العلمين ؛ حامى السواحل
والمغور ، والمخدوم بأيدى السحائب وأصابع البحور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر
فلمست بمنصور ؛ والرأي أن تقف مستغفرا ، وتقول مُتَذَرًا ؛ : لم أفرط بالزيادة
في أيامه ، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقبيل آثار جواد خيله ومواطئ
أقدامه ؛ وتتبع نواحيه وتمتثل أوامره ، وتدعوله كالرعايا بطول البقاء في الدنيا
وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نورك عن قريب راجع ؛
وكما أغنى بزيادتك عن الاستسقاء ، لايجوئنا في نقصك إلى الاستسقاء ، إنه سميع
مجيب الدعاء ؛ بمنه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في قدمات البندق)

جمع قِدْمَةٍ بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهي رَسَائِلُ تُسْتَمَلُ عَلَى حَالِ الرَّحْمِيِّ بِالْبُنْدُقِ، وَأَحْوَالِ الرَّمَاةِ، وَأَسْمَاءِ طَيْرِ الْوَاجِبِ، وَأَصْطِلَاحِ الرَّمَاةِ وَشُرُوطِهِمْ. وهذه نسخة قِدْمَةٍ، كَتَبَ بِهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ الْحَنْفِيُّ الْأَدِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ، لِصَلَاةِ الدِّينِ بْنِ الْمُقَرَّرِ الْمُحَيَّوِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ، وَنَصَّهَا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَدَّدَ لِصَلَاةِ الدِّينِ سِهَامَ الْوَاجِبِ، وَشَيَّدَ بِتَجَاجِ الْمَطْلُوبِ مَرَامَ الطَّالِبِ، وَجَعَلَ حُصُولَ الرِّزْقِ الشَّارِدِ بِالسَّغْيِ فِي الْمَنَاقِبِ، وَسَهَّلَ الْمُتَنَبِّعَ عَلَى الْقَاصِدِينَ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَهُوَ صَائِبٌ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ وَلَا صَاحِبٌ ، شَهَادَةً تَزْجُرُ طَيْرَ الْإِشْرَاقِ بِهَذِهِ الْأَشْرَاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَرَّبَهُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى وَهَذِهِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَقَوْا فِي الْعِلْيَاءِ لِمَرَاقٍ لَمْ يَسْمُ إِلَيْهَا طَيْرٌ مُرَاقِبٌ ، صَلَاةً يُسَبِّقُ بِهَا الْمُصَلِّ إِلَى بِقَاعِ شَرَفٍ يُشْرِقُ سَنَاهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَيَرْجِعُ طَائِرًا بِالسُّرُورِ وَلَا رُجُوعَ الطَّائِرِ الشَّارِدِ إِلَى الْمَشَارِبِ .

وبعد، فإن الصيّد من أحلّ الأشياء وأحلاها، وأجلّها وأجلاها، وأبهرها وأبهاها، وأشهرها وأشماها، وأغفرها قيمه، وأغزرها ديمه، بورود الطير فيه إلى المناهل تنشريح الصدور، وبوقوعه في شرور الشرك يتم السرور، يحصل عند متعاطيه نشاطا، ويزيده أنيسا، ويشرح خاطره، ويسرح ناظره، ويملا عينه قره،

وَقَلْبَهُ مَسْرَهُ، يُشَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُثَبِّتُ الْجَنَانَ، وَيُقَوِّى الشُّهُوهَ، وَيُسَوِّى الْخَطَوَةَ،
وَيُسَوِّقُ الظَّفَرَ، وَيَشْوِقُ النَّظَرَ، وَيُرْوِقُ مِنْهُ الْوَرْدَ وَالصَّدْرَ، وَيَفُوقُ فِيهِ الْخُبْرَ عَلَى
الْخَبَرِ. قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: قَلَمًا يَغْمَشُ نَاطِرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِمُنْ مُرْبِعُ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي
بِذَلِكَ مَنْ أَدْمَنَ الْحَرَكَةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى الْبَسَاتِينِ، فَاسْتَمَعَ طَرْفُهُ بِنُضْرَتِهَا،
وَأَنَبَقَ مَنَظَرُهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَذَّةَ الْأَصْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالْقَنَاصِ عَلَى الْإِطْرَادِ؟ وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ:
لَوْلَا طَرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَذَّةٌ * فَتَطَارِدُنِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا.
هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الْحَيَاةِ وَمَا لَهُ * مِنْ لَذَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!
يَا حُسْنَهُ مَنْ فَعَلَ أَعْتَلَّتْ بِالنَّسِيمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَفَاقَتْ أَوَائِلُهُ فِي اللَّذَاذَةِ
أَوَاخِرُهُ، وَلِلَّهِ الْقَائِلُ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هَمٌّ وَنَشَاطٌ * يُعْقِبُ الْجِسْمَ صِحَّةً وَصَلَاحًا،
وَرَجَاءٌ يُنَالُ فِيهِ سُرُورٌ * حِينَ يَلْقَى إِصَابَةً وَنَجَاحًا!
وَمَا أَطْيَبَ الْاِقْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ يُرَى مَوْقِعُ الْوَصْلِ بَعْدَ الصَّدُودِ:
وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ: * أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتُ النُّفُوسِ السَّامِيَةِ بِعَاطَاةِ كَاسِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ
الْفُتُوهِ، وَكِلَالِ الْمُرُوءَةِ، وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَثَبَاتِ الْجَنَانِ؛ وَطِيبِ الْأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ
الْمِيثَاقِ؛ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الصَّدْقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى الْمَلَقِ، وَلَا يَبْغُونَ بِصَاحِبِهِمْ
بَدِيلًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِوَا مَا عَاطَى صَيْدَ طُيُورِ الْوَاجِبِ، الَّذِي سَنَّهُ
الْأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الْوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفَتْ بِهِ هِمَّتُهُمُ الْعَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،
وَأَوْنَةً إِلَى مَشَارِعِ الْمَاءِ.

لَا يَتِمُّ سُرُورُهُمْ إِلَّا بِرُؤْيَا تَمَّ كِبْدَرِ السَّمَاءِ ، وَمِصْبَاحِ الظَّلَامِ ؛ يَفِرُّ مِنْ ظِلِّهِ فِرَارًا ،
وَيُرِيكَ بَيَاضَ لَوْنِهِ وَسَوَادَ مِيقَارِهِ شَيْبًا وَوَقَارًا ؛ وَلَا يَدَاوِي هُمُومَ لَغَيْبِهِمْ مِثْلَ كُتٍّ ،
لَا جُنْحَتَهُ الْخَوَافِقِ فِي الْخَافِقِينَ تَشْرُوطِي ؛ وَلَا تَبْتَهِجُ نَفُوسُهُمُ النَّفِيسَةَ إِلَّا بِأَوْزِهِ ،
يَزْدَرِي دَلَالَهَا بِالْكَاعِبِ الْمُعْتَرَةِ ؛ وَلَا يُطْرِبُ أَسْمَاعَهُمْ غَيْرُ لُغَاتِ اللِّغْلَغَةِ ، حِينَ تَمْتَدُّ
كَأَنَّهَا مُدَامَةٌ فِي الرَّجَاجَةِ مُفَرَّغَةً ؛ وَلَا يُؤْنِسُهُمْ إِلَّا الْإِنْسَانَةُ الْإِنْسَانَةُ ، وَالذَّرَّةُ النَّفِيسَةُ ؛
وَلَا يُذْهِبُ حَرَجَهُمْ غَيْرُ الْخُبْرُجِ الصَّادِحِ ، الْمُسْتَوْقِفِ بِحُسْنِهِ كُلَّ غَادٍ وَرَاحٍ ؛ تَكَادُ
قُلُوبُهُمْ تَطِيرُ بِالْفَرَحِ عِنْدَ رُؤْيَا النَّسْرِ الطَّائِرِ ، وَتُجْبَرُ خَوَاطِرُهُمْ بِكُسْرِ ذَلِكَ الْكَاسِرِ ؛
إِذَا عَايَنُوا عِقْبَانًا أَعَقَبَهُمُ الْفَرَحُ ، وَنَزَحَ عَنْهُمْ التَّرَحُّ ؛ وَإِنْ كَرَّ كُرْكِيٌّ فَرَّ عَنْهُمْ الْبُوسُ ،
وَرَأَوْا عَلَى رَأْسِهِ ذَلِكَ النَّاجِ الذِّي لَمْ يَعْلُ مِنْهُ عَلَى الرُّؤُوسِ ؛ وَإِنْ عَرَضَ غِرْنَوْقٌ
غَرِقُوا فِي بِحَارِ أَفْكَارِهِمْ ، وَجَدُّوا إِلَى أَنْ يَقَعَ يَجْدُولُ أَوْتَارِهِمْ ؛ وَإِنْ لَاحَ ضُوعٌ
كَالذَّهَبِ الْمَصْبُوعِ ، أَلْقَوْهُ فِي الْحَبَالِ وَهُوَ بِدَمِهِ مَصْبُوعٌ ؛ وَإِنْ مَرَّ مِرْزَمٌ كَالْخُودَةِ
الْحَسَنَاءِ ، ضَرَبُوا لَهُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ ؛ وَإِنْ مَرَّ السَّيِّطَرُ أَجْنَحَتُهُ كَالسَّحَابِ ، جَاءَتْهُ
الْمَرَامِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَإِنْ عَنَّ عَزَّ عَمَدُوا إِلَيْهِ ، حَتَّى يُسْقَطَ فِي يَدَيْهِ ؛ قَدْ تَعَالَوْا
فِي رُتَبِهِمَا ، وَتَغَالَوْا فِي وَصْفِ وَشَيْهَاتِهِ .

وَجَعَلُوا كُلَّ آلَةٍ صَنِيعَهُ ، وَرَبَّةَ جَمَالٍ مَنِيعَهُ ، وَبَعِيدَةَ الرُّمِيِّ بَدِيعَهُ : -

مِنْ كُلِّ قَوْسٍ هِيَ فِي الْعَيْنِ كَالْحَاجِبِ ، أَوِ النَّوْنِ الَّتِي أَجَادَهَا الْكَاتِبُ ؛ تُدَوِّرُ
الطَّائِرَ عِنْدَ الرُّمِيِّ وَتُدْيِيهِ ، وَتَنْشُرُ أَيْدِيَّهَا أَوَّلَى بِهِ مِنْ نُصْيِيهِ . وَبُنْدُقٍ جِيلَتْ طِينَتُهُ
عَلَى صَوْبِ الصَّوَابِ ، يَسْتَنْزِلُ الطَّيْرَ وَلَوْ اسْتَرْبَذِلَ السَّحَابُ ؛ كَأَنَّهُ النَّجْمُ النَّاقِبُ ،
وَالشَّهَابُ الصَّائِبُ ؛ يَرَى الطَّيْرَ كَالسَّحَابِ الْوَائِكِ ، فَيَنْقُضُ عَلَيْهِ انْقِضَاضَ الْبَرْقِ
الْخَاطِفِ ؛ وَيَرْجِعُ النَّسْرُ مِنْ حَتْفِهِ رَاطِمًا ، وَيَغْدُو بَعْدَ أَنْ كَانَ طَائِرًا وَاقِعًا ؛ وَيَصِيرُ
بَعْدَ أَنْ كَانَ كَاسِرًا مَكْسُورًا ، وَفِي سَوَارِ الْقِسِيِّ مَأْسُورًا ؛ فَهَنَالِكَ يُلْقَى الْغَالِبُ

وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ فحينئذ تَشْرِحُ النفوس ، وتَطْرُبُ ولا طَرَبَها بالكُؤُوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الحسيمة ؛ تعاطته الملوك وأبناء الملوك ، ونظموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرناضت به النفوس الطاهرة ، وأعتاضت به عن الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكميل الأدوات ، وسامت به فعل الواجب وإن قيل : إن ذلك من الهفوات ؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه ، ولعب لم يكن شئ أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجنب الكريم ، العالى ، الصلاحى ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح الطالبين ؛ سليل الوزراء ، ونجل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العطاء ؛ ابن المقر المحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عداه ؛ وأعلى معاليه ، وشكر مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويرى نفسه الكريمة بذلك ، ويتحيل على تحصيل اللذات بالتحول ، عملاً بقول الشاعر :

* تَقَلَّ فَلَذَاتُ الْهَوَىٰ فِي التَّنَقُّلِ ! *

وعمد إلى تحصيل آلاته ، سائراً كالبدنر فى هالاته ؛ فسار مع سرايا كالنجوم ، يتفك كهون فى الحديث بالمشور والمنظوم ؛ ويخلطون جد القول بهزله ، كلما خلط لهم طل الجود بويله ؛ وأنحدروا فى النيل بجمعهم الصحيح ، وقصدوا المرامى العالية ولم يقنعوا من الأيام بالريح ؛ وظلوا يسيرون فى تلك المراكب ، التى كأنها قطع السحاب .

هذا وهم يتشوفون إلى المصايد ، ويشرفون إلى الشوارد ؛ فيطلعون أحياناً إلى البرمتفرجين ، وبطيب ذلك النسيم متارجين :

نَسِيمٌ قَدْ سَرَى فِيهِمْ بَنَشِيرٌ * فَأَذْكَرَهُمْ بِمَسْرَاهِ السَّرِيَّا!

كَرَامَتُهُ اسْتَقَرَّتْ حِينَ وَافَى * لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا!

وَيَحْتَنُونَ مِنَ الْقُصْنِ الزَّاهِي قَدًّا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الزَّاهِرِ خَدًّا ؛ وَيَتَأَمَّلُونَ
صُحُوكَ الْأَرْضِ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ ، وَشِمَاخَةَ الْقُصْبِ عِنْدَ نَحْرِ الْمَاءِ ؛ لَا تَذُوقُ أَجْفَانُهُمْ
حَطَمَ الْكُرَى ، وَلَا يَمِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرَى ؛ مَا مَنَّهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ
جَائِشًا ، عَادَ مِنْ وَقْتِهِ لَهُ حَائِشًا ؛ بَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَهُمْ طَيْرٌ
تَدَاعَوْا إِلَيْهِ غَيْرَ مُقْصِرِينَ وَآلَتْفُوا مُحَلِّقِينَ ؛ وَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ يَتَهَمُونَ الْعَيْشَ ، بِالذَّعَةِ
وَالطَّيْشِ ؛ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارَكُ الثَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِعِمَانَةَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِي عَلَى الْأَصْطِيَادِ ،
بِالْبَنَادِقِ الْحَدَادِ ؛ فَتَبَاشَرَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَدَّتْ بِأَجْنِحَتِهَا الثُّغُورَ ؛ وَسَهَّلَ عِنْدَهَا
فِيهِ نُزُولَ الرَّيْسِ ، فَخَادَتْ لَهُ بِالنَّفِيسِ ؛ وَخَرَجَتْ مِنْ قَشْرِهَا ، وَتَمَحَّحَتْ عِنْدَ
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزْنٍ نَحْرَهَا ؛ وَرَغِبَ كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسْمِ ، وَتَرَجَّى أَنْ
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبُ لَهُ فِي الْقَدَمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَأَصَابَ مِرْزَمًا ؛ فَيَا لَهُ مِنْ صَيْدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكْبَارِ الصَّيْدَ !
وَيَا لَهُ مِنْ يَوْمٍ صَارَ يَنْحَرُ الطَّيْرُ يَوْمَ الْعِيدِ ! أَقَامَ فِيهِ بِوَاجِبٍ مَأْشَرَعَهُ الرَّمَاةِ مِنَ الشَّرْعِ ،
وَذَكَّرْنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ؛ فَلَا زَالَ سَهْمُهُ مُسْتَدِدِّ الْأَعْرَاضِ ، وَجَوْهَرُهُ
نَحِيًّا مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ يَجْرَى بِمُرَادِهِ الْمَقْدُورُ ، وَيُطِيعُهُ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ .

وَقَدْ نَظَّمْتُ مُحَمَّسًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَاجِبِ ، وَطَرَزْتُهُ بِاسْمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ
الْقِدْمَةَ قَدْ قَدِّمْتُ لَهُ وَجَعَلْتُ بِرِسْمِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَعْتَذَرُ عَنْهَا ، لِعَدَمِ مَادَّةٍ عِنْدِي
أَسْمَدُ مِنْهَا :

جَلَّ كُؤُوسًا عَطَّلَتْ بِالرَّاحِ، * وَلَا تُطْعَمُ فِيهَا كَلَامَ لَاحِي،
وَأَشْرَبَ هَنِينًا وَأَسْقَنِي بِاصْبَاحِ، * وَأَذْكُرْ زَمَانًا مَرَّ بِالْأَفْرَاحِ،
* هَبَّتْ بِهِ فَيَا مَضَى رِيَا حِي ! *

أَيَّامَ كُنْتُ أُحِبُّ الْأَكَابِرَا، * وَأَغْتَسِدِي مَعَ الرُّمَاهِ سَائِرَا،
وَلَا أَزَالُ بِالغَيْارِ غَائِرَا، * إِذَا رَأَيْتُ فِي الْمِيَاهِ طَائِرَا،
* نَحْوَتُهُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي ! *

فِتَارَةً كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَا، * وَبَعْدَهُ الْعُقَابُ يَحْكِي الْجَمْرَا
وَالْكُفَى وَالْكُرْكِي صِدْتُ جَهْرَا، * وَصِدْتُ غِرْنُوقًا وَعِزًّا قَهْرَا
* وَكُنْتُ بِالْإَوَزِّ فِي أَنْشِرَاحِ ! *

وَتَارَةً تَمَّا كَبَدِرِ التَّمِّ * تَتَّبِعُهُ أَيْبَسَةُ كَالنَّجْمِ،
وَلَغْلَغُ أَسْوَدُ مِسْكُ الْهَمِّ، * وَجُهِجْتُ عَنْ الرُّمَاهِ مَحْمِي،
* وَالضُّوْعُ مَعَ سَبِيطِرِ سَيَّاحِ ! *

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صِدْتُ يَوْمًا مَرَزَمَا * أَنْزَلْتُهُ بِالْقَوْسِ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ،
جَنَاحُهُ يَحْكِي طَرَا زَا مُعَلَّمَا * عَلَى بَيَاضِ شَيْءٍ شَبَّهِ الدَّمَاءِ،
* كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَى صَبَاحِ ! *

حَيْثُ الصَّبَا تُسْفَعُ بِالْقُبُولِ، * وَشَمَلْنَا يُجْمَعُ بِالشَّمُولِ،
فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ فُضُولِي، * وَجَاءَنَا التَّوْقِعُ فِي الْوُضُولِ،
* فَسَادُكُمْ يَغْفَرُ بِالصَّلَاحِ ! *

السَّيِّدِ الْفَائِي فِي أَفْعَالِهِ ، * وَالْمُزْدَرِي بِالْبَدْرِ فِي كَمَالِهِ ،
وَالْمُشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَا بِمَالِهِ ، * لَا أَحَدٌ يَحْكِيهِ فِي نَوَالِهِ :

* إِلَّا أَخُوهُ مَعْدِنُ السَّمَاحِ ! *

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَّابِ ، * وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،
عَلَى الْعَالِي عَلَى السَّحَابِ ، * الْبَاذِلِ الْمَالَ بِلا حِسَابِ !
(١٦)

زاده الله نِعْمًا ، وَأَجْرَى لَهُ فِي النَّدَى يَدَا وَثَبَتْ لَهُ فِي الْعُلَى قَدَمًا ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة رسالة في صَيْدِ الْبُنْدُقِ ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي التَّاءِ
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِيَّ ، وَجَعَلَ حُبَّهُ كَقَلْبِ عَدُوِّهِ وَاجِبًا ، وَسَعَدَهُ
كَوَصْفِ عَبْدِهِ لاسَّارَ جَالِيَا ، وَلِلضَّارِّ حَاجِبًا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانَبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،
وَتَصَوُّنُهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ؛ وَتَحْضُّهَا عَلَى اخْتِذِ حَظِّهَا مِنْ كُلِّ
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحْتُمُهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدَوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللَّسَنِ ؛ وَتَأْخُذُ بِهَا طَوْرًا
فِي الْجِدِّ وَطَوْرًا فِي اللَّعِبِ ، وَتَضْرِفُهَا مِنْ مَلَاذِّ السُّمُوفِ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا
التَّعَبُ . فَتَارَةً تَحْمِلُ الْأَكَابِرَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّرِيِّ ، وَمُقَاطَعَةِ
الْكِرِيِّ ؛ وَمُهَاجِرَةَ الْأَوْطَارِ ، وَمُهَاجِمَةَ الْأَخْطَارِ ؛ وَمُكَابَدَةَ الْهَوَاجِرِ ، وَمُبَادَرَةَ الْأَوَابِدِ
الَّتِي لَا تُدْرِكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؛ وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يُذَمُّ الْمُعْرِضُ
عَنْهَا ، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ مِثْلِهِمْ جِدَّةَ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةُ لَعِبٍ يُخْرِجُ إِلَيْهَا مِنْهَا .
وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْدُوهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونِهِمْ

على مُلازمة الصَّدق ومُجانبة المَلق؛ فيَعْتَسِفُون إليها الدُّجى، إذا سَجى؛ وَيَقْتَحِمُونَ
في بلوغها حرق النَّهار، إذا أَنهار؛ وَيَتَنَعَّمُونَ بوعتاء السَّفر، في بلوغ الظَّفر؛
وَيَسْتَصَغِرُونَ رُكُوبَ الخطر، في إدراك الوطر؛ وَيُؤَثِّرُونَ السَّهر على النُّوم، والليِّلة
على اليُّوم؛ والبُنْدَق على السَّهام، والوَحدة على الألثام .

ولمَّا عُدْنَا من الصَّيد الذى أَتَّصَلَ بِهِ حَدِيثُهُ، وَشُرِّحَ لَهُ قَدِيمُ أَمْرِهِ وَحَدِيثُهُ؛ ثَقْنَا
إلى أن نَسْفَعَ صَيْدَ السَّوانح، بِرَمَى الصَّوَادِح؛ وَأَن نَفْعَلَ فِي الطَّيْرِ الْجَوَانِح، بِأَهْلَةِ الْقَيْسِ
مَا نَفْعَلُ الْجَوَارِح؛ تَفْضِيلًا لِمُلَازِمَةِ الْإِرْتِحَال، على الإقامة في الرَّحَال؛ وَأَخَذًا بِقَوْلِهِ :

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدَبَّرَةً * إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ !

فَبَرَزْنَا وَنَشَسُ الْأَصِيلَ نَجُودَ بِنَفْسِهَا، وَنَسِيرُ مِنَ الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ إِلَى مَوْضِعِ رَمْسِهَا؛
وَتُغَازِلُ عَيُونَ النَّورِ بِمَقْلَةٍ أَرْمَدَ، وَتَنْظُرُ إِلَى صَفَحَاتِ الْوَرْدِ نَظَرَ الْمَرِيضِ إِلَى وَجْهِهِ
الْعُودِ؛ فَكَأَنَّمَا كَتَبَ أَخْجَى مِنَ الْفِرَاقِ عَلَى فَرْقٍ، أَوْ عَلِيلٌ يَقْضِي بَيْنَ صَحْبِهِ بِقَايَا مَدَّةِ
الرَّمَقِ؛ وَقَدْ أَخْضَلَّتْ عَيُونُ النَّورِ لَوْدَاعِهَا، وَهَمَّ الرُّوضُ بِجَلْعِ حُتْنِهِ الْمُؤَهَّهَ بِذَهَبِ
شُعَاعِهَا :

وَالطَّلُّ فِي أَعْيُنِ النَّوَارِ تَحْسَبُهُ * دَمْعًا تَحْيِرٌ لَمْ يَرَقْ وَلَمْ يَكِفِ :

كُلُّ لَوْ ظَلَّ عَطْفُ الْغُصَنِ مُتَّشِعًا * بِعَقْدِهِ وَتَبَدَّى مِنْهُ فِي شَنِفٍ .

يُضْمُّ مِنْ سُنْدُسِ الْأَوْزَاقِ فِي صُرِّ * خُضِرَ وَيُجْنَى مِنَ الْأَزْهَارِ فِي صَدَفٍ !

وَالشَّمْسُ فِي طَفَلِ الْإِمْسَاءِ تَنْظُرُ مِنْ * طَرْفِ غَدَاوِهِمْ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ خَفِي :

كَعَاشِقٍ سَارَ عَنْ أَحْبَابِهِ وَهَفَا * بِهِ الْهَوَى فَرَأَاهُمْ عَلَى شَرَفٍ .

إِلَى أَنْ نَضَى الْمَغْرِبُ عَنِ الْأَفْقِ حَتَّى قَلَّيْدَهَا، وَعَوَّضَهُ عَنْهَا مِنَ النُّجُومِ بِجَدَمِهَا
وَوَلَّيْدَهَا؛ فَلَيْثُنَا بَعْدَ أَدَاءِ الْفَرَضِ لَبَثَ الْأَهْلَةُ، وَمَتَعْنَا جُفُونَنَا أَنْ تَرَدَّ النُّومُ

إِلَّا تَحِلَّةً ، وَنَهَضْنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوَشَّعٌ ، وَعِقْدُهُ مَرَصَّعٌ ، وَإِكْلِيلُهُ مُجَوَّهَرٌ ، وَأَدِيمُهُ
مُعَنْبَرٌ ، وَبَدْرُهُ فِي خِذْرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِنٌ ، وَبُخْرُهُ فِي حَشَا مَطَالِيعِهِ مُسْتَجِنٌ ؛ كَأَن
أَمْتَرَجَ لَوْنُهُ بِشَفَقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا مِسْكٍ وَصَنْدَلٍ ، وَكَأَنَّ ثُرَيَّا لَأَمْتَدَادِهِ مُعَلَّقَةٌ
بَأَمْرَاسٍ كَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ نَجْوَمُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَأَنَّهَا * عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الزَّيْنَجِ تُنْظَمُ ،

مُحَلَّقَةٌ فِي الْجَوِّ تُحَسَّبُ أَنَّهَا * [طُيُورٌ] عَلَى نَهْرِ الْحِجْرَةِ حَوْمٌ

إِذَا لَاحَ بَازِي الصَّبِيحِ وَلَّتْ يَوْمُهَا * إِلَى الْغَرْبِ خَوْفًا مِنْهُ تَسْرُومِرْزَمُ !

إِلَى حَدَائِقِ مُلْتَقَّةً ، وَجَدَاوِلَ مُحْتَفَّةً ؛ إِذَا نَحْمَشَ النَّسِيمُ غُصُونَهَا اعْتَنَقَتْ اعْتِنَاقَ
الْأَحْبَابِ ، وَإِذَا فَرَكَ مَرُّ الْمِيَاهِ مُتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَاوِلِ أَنْشِيَابَ الْحُبَابِ ،
وَرَقَصَتْ فِي الْمَنَاهِلِ رَقَصَ الْحَبَابِ ؛ وَإِنْ لَمْ تُغَوِّرْ نُورَهَا حَيَّتْهُ بِأَنْفَاسِ الْمُشْشُوقِ ،
وَإِنْ أَمِيقَ نَوَاسِ وَرَقِهَا غَتَّتْهُ بِالْخَلِّانِ الْمُشْشُوقِ ؛ فَتَسِيمُهَا وَإِنْ ، وَشِيمُهَا لَعْرِفَ الْجَنَانُ
عُنُونًا ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَهَرٍ تَرْجِسُهَا غَيْرَانُ :

وَطَلَّهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنْبِعَثٌ * طَوْرًا وَفِي طُرُقِ الرِّيحَانِ حَيْرَانُ !

وَطَائِرُهَا غَرْدٌ ، وَمَاؤُهَا مَطَرِدٌ ؛ وَغُصْنُهَا تَارَةً يَعْطِفُهُ النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةً
يُعَلِّلُ تَحْتَ وَرَقَاتِهِ فَتُحَسَّبُ أَنَّهَا هَمْزَةٌ عَلَى الْإِلْفِ ؛ مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيحِ مِنْ تَوَافُقِ
الْمَحَاسَنِ وَتَبَايُنِ التَّرْتِيبِ ، إِذْ كُلَّمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ صَحَّ الْأَرْجُ وَكَلَّمَا خَرَّ الْمَاءُ شَمَخَ الْقَضِيبُ :

فَكَأَنَّهَا تِلْكَ الْغُصُونُ إِذَا ثَنَّتْ * أَعْطَافُهَا رِيحُ الصَّبَا أَحْبَابُ :

فَلَهَا إِذَا أَفْتَرَقَتْ مِنْ أَسْتِعْطَافِهَا * صَلَحَ وَمِنْ سَبْعِ الْحَمَامِ عِتَابُ .

وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَاسَا * شَرِبُ وَهَاتِيكَ الْمِيَاهُ شَرَابُ !

فَقَدِيرُهَا كَأَنَّ وَعَدْبُ نَطَافِهَا * رَاحَ وَأَضْوَاءُ الشُّجُومِ حُبَابُ !

يحيط بملقي نطافها صاف، وظلال دوحها ضاف، وحصاها لصفاء مائها في نفيس
الأمر راكد وفي رأي العين طاف، إذا دغدغها النسيم حسبت ماءها بتمايل الظلال
فيه يتبرج ويميل، وإذا أطردت عليه أنفاس الصبا ظننت أفياء تلك الغصون تارة
تتموج وتارة تسيل :

فكانه محب هام بالغصون هوى فمثلها في قلبه، وكأن النسيم كلف بها غار من
دونها إليه فيلها عن قربه :

والنور مثل عرائس * لفت عليهن الملاء،

شمرن فضل الأزهر عن * سوق خلاخلهن ماء،

والنهر كالمرآة تنظر وجهها فيه السماء !!

وكان صواف الطيور المتسقة بتلك الأرض خيام، أو طباء بأعلى الرقتين قيام،
أو أباريق فضة رؤوسها لها أقدام، ومناقيرها المحمرة أوائل ما أنسكب من المدام،
وكان رقابها رماح استتأ من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما أنطفئ وأحمره
ما ألتب، وكما كالطير الجليل عدّه، وكطراز العمر الأول جدّه :

من كل أبلج كالنسيم لطافة * عف الضمير مهذب الأخلاق،

مثل البذور ملاحه، وكعمرها * عدداً، ومثل الشمس في الإشراق!

ومعهم قسي كالغصون في لطافتها ولينها، والأهله في تحاقها وتكوينها، والأزاهر
في تراقها وتلوينها، بطونها مدبجه، ومثونها مدرجه، كأنها كواكب الشولة في أنعطافها،
أو أرواق الطباء في ألثافها، لاوتارها عند القوادم أوتار، ولبناديقها الحواصل
أو كارب، إذا أنتضيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه، وإن أنتصت لرمي بدا لها
أنها أحق به ممن يصيبه، ولعل ذلك الصوت زجر لبندقها أن يبطئ في سيره،

أَوْ يَخْطِىَ الْغَرَضَ إِلَى غَيْرِهِ ، أَوْ وَخْشَةً لِمُفَارَقَةِ أَفْلَازِ كَبِيدِهَا ، أَوْ أَسْفَ عَلَى
خُرُوجِ بَيْنِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ عَلَى أَنَّهَا طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْعَرَاءِ ، وَشَفَعَتْ لِحَصْمِهَا
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْعَقَارِبِ إِذْ نَابًا مُعَقَّدَةً * مَنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَ !

إِنْ مَدَّهَا قَرْمُ مِنْهُمْ وَعَايَنَهُ * مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفَرًا ،

فَهُوَ الْمُسَيِّءُ اخْتِيَارًا إِذْ نَوَى سَفَرًا * وَقَدْ رَأَى طَالِعًا فِي الْعَقَرِ الْقَمَرَا !

وَمِنَ الْبِنَادِقِ كُرَاتٌ مَتَفَقَّةُ السَّرْدِ ، مُتَّحِدَةُ الْعَكْسِ وَالطَّرْدِ ، كَأَنَّمَا تُحِرِّطُ مِنَ
الْمُنْدِلِ الرُّطْبِ أَوْ تُجَنِّتُ مِنَ الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ ؛ تَسْرِي كَالثَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى
مُقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ النُّجُومِ إِذَا مَا سَرْنَ فِي أَفْقٍ * عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُورُهَا رَأَى .

مَا قَاتَهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِقَتْ * إِلَّا ثَبَاتٌ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ ،

تَسْرِي وَلَا يَشْعُرُ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ بِهَا * كَأَنَّمَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،

وَتَسْمَعُ الطَّيْرُ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ * خَوَافًا فِي الدِّيَاجِي وَهِيَ صَمَاءُ !!!

يَصُونُهَا جِرَافَةٌ كَأَنَّمَا دُرُجُ دُرَّرَ ، أَوْ دُرُجُ غُرَّرَ ، أَوْ كِمَامَةٌ ثَمَرٌ ، أَوْ كِمَامَةٌ نَبَلٌ ،
أَوْ عِمَامَةٌ وَبَلٌ ؛ حَالِكَةُ الْأَدِيمِ ، كَأَنَّمَا رُقِيتْ بِالشَّفَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَهِيمُ :

كَأَنَّمَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ * تَثَبُّتُ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجَمُ ،

أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْسَهَا * مُلَوَّنًا وَأَنْبَثَتْ تَسْجِمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهُ مَرَكْرَا ، وَتَقَضَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَدًّا مُنَجِّزًا ، وَضَمَّنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ
يَصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُحْرَزَا :

كَأَنَّهُمْ فِي يَمِينِ أَفْعَالِهِمْ * فِي نَظَرِ الْمُتَصِفِ وَالْحَاحِدِ:

قَدْ وُلِدُوا فِي طَالِعٍ وَاحِدٍ، * وَأَشْرَفُوا مِنْ مَطْلَعٍ وَاحِدٍ!

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عَصَابَهُ، أَظَلَّتْنَا مِنْ أَجْنِحَتِهَا سَحَابَهُ، مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَقْلَعَ
يَرْتَادُ مَرْتَعًا، فَوَجَدَ وَلَكِنْ مَضْرَعًا، وَأَسَفَ يَبْتَنِي مَاءً جَمًّا فَوَجَدَ وَلَكِنْ السَّمَّ مُنْقَعًا،
وَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ يَبْنِي مَلْعَبًا فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ سُجْدًا لِمَحَارِيبِ الْقَيْسِيِّ وَرُكْعًا، فَتَبَرَّكَا
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَدَارَكَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلَ أَوَّلُنَا تَمَامَ بَدْرِهِ، وَعَظَمَ فِي نَوْعِهِ وَقَدْرِهِ، كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٍ فِي غَسَقٍ،
أَوْ صُبْحٍ عَظَفَ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَظَفَ النَّسَقِ، تَحْسِبُهُ فِي أَسْدَافِ الْمَنَى غُرَّةً مُنْجَحٍ،
وَتَحَالَهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُورَةٌ صُبْحٍ، عَلَيْهِ مِنَ الْبَيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ، وَلَهُ كَدُهُنٌ عَنَبِرٍ
فَوْقَ مِثْقَالٍ مِنْ قَارٍ، لَهُ عُنُقٌ ظَلِيمٌ، وَالْتِفَاتَةٌ رِيمٌ، وَسُرَى غَيْمٍ يُصَرِّفُهُ نَسِيمٌ :

كَلَوْنِ الْمَشِيبِ، وَعَصْرِ الشَّبَابِ، * وَوَقْتِ الْوِصَالِ، وَيَوْمِ الظَّفَرِ!
كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ * فَأَمْسَكَ مِنْقَارُهُ ثُمَّ فَسَرَ!

فَارْسَلَ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ تَجْمًا، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حُجْمًا، فَاسْتَبَشَرَ بِجَنَاحِهِ،
وَكَبَّرَ عِنْدَ صِيَاغِهِ، وَحَصَّلَهُ مِنْ وَسَطِ الْمَاءِ بِجَنَاحِهِ .

وَتَلَاهُ كُنَى نَفْيِ اللَّبَاسِ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّاسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَانِينَ شَيْبِهِ لَا وَبَلَهُ كَبِيرُ
أَنَاسٍ، إِنْ أَسَفَ فِي طَيْرَانِهِ فَنَامَ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاحِهِ فَقَلَعُ لَهُ بَيْدَ النَّسِيمِ زَمَامٌ،
ذُو عَيْيَةٍ كَالْحِرَابِ، وَمِثْقَالٍ كَالْحِرَابِ، وَلَوْنٍ يَغُرُّ فِي الدُّجَى كَالْتَجَمِ وَيَخْدَعُ فِي الصُّحَى
كَالسَّرَابِ، ظَاهِرُ الْهَرَمِ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِرَمَ :

إِنْ عَامَ فِي زُرْقِ الْعَدِيرِ حَسِبْتَهُ * مُبَيِّضُ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءٍ،
أَوْ طَارَ فِي أُنْفُسِ السَّمَاءِ ظَنَنْتَهُ * فِي الْجَوِّ شَيْخًا عَائِمًا فِي مَاءٍ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ السُّجْهَالِ تَحْتَ رَزَانَةِ الْعُلَمَاءِ!

فَتَنَى الثَّانِي إِلَيْهِ عِنَانَ بُنْدِقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ ، نَفْزَ كَجَارِدٍ أَنْقَضَ عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَفْقِهِ ؛ فَتَلَقَّاهُ الْكَبِيرُ بِالتَّكْبِيرِ ، وَأَخْتَطَفَهُ قَبْلَ مَصَالِفَةِ الْمَاءِ مِنْ وَجْهِهِ الْغَدِيرِ .

وَقَارَنَتْهُ إِوْزَةُ حُلَبَاءَ دَكَّاءَ ، وَحُمَّتْهَا حَسَنَاءُ ؛ لَهَا فِي الْقَضَاءِ مَجَالٌ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ ذَوَاتِ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رَبَّاتِ الْجَمَالِ ؛ كَأَمَّا عَبَّتْ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاضَتْ فِي مَلَبٍ ؛ تَحْنَالُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاغِبِ ، وَتَتَأَنَّى فِي خَطْوِهَا كَاللَّاعِبِ ؛ وَتَعْطِفُ بِحَيْدِهَا كَالظُّنْبِيِّ الْغَرِيرِ ، وَتَتَدَاغُ فِي سَيْرِهَا مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي نَفْطَرَةَ صَكَاعِبٍ * رَدَاجٍ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةٌ حَازِمٍ ،
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرِّيحُ : لَيْتَ لِي * خَفَا ذِي الْخَوَافِ أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ .
فَأَنِعِمَ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادُ مُسَافِرٍ ، * وَأَحْسِنَ بِهَا فِي الْقُرْبِ تُخَفَّةُ قَادِمٍ !
فَلَوَى الثَّلَاثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَظَفَ بِوَجْهِهِ إِقْبَالَهُ عَلَيْهَا ؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْفَعِهَا مُمِعْنَةً ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَى حُكْمِهِ مُدْعِنَةً ، فَأَعْجَاهَا عَنْ أَسْتِكْمَالِ الْهُبُوطِ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيْهَا بَعْدَ أَسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ .
وَحَادَتْهَا لَغْلَغَةٌ تَحْكِي لَوْنَ وَشْيِهَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِهَا ؛ وَتُرِي عَلَيْهَا بُغْرَتَهَا ، وَتَنَافِسُهَا فِي الْحَاسِنِ كَضْرِبَتِهَا ؛ كَأَنَّهَا مُدَامَةً قُطِبَتْ بِمَآئِهَا ، أَوْ عِمَامَةً شَقَّتْ عَنْ بَعْضِ نُجُومِ سَمَائِهَا :

بَغْرَةٌ بَيْضَاءَ مِمْؤُونَةٍ * تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ الثَّمَامِ !

وَإِنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى خِلَتَهَا * فِي الْحُلَّةِ الدَّكَّاءِ بَرَقَ الثَّمَامِ !

فَنَهَضَ الرَّابِعُ لِاسْتِقْبَالِهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعْدِهِ بِنَجْمٍ وَبَالِهَا ؛ بَخَّثَتْ فِي الْعُلُوفِ مَبْتَدَاهُ ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بُنْدِقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكْ لَدَّهُ ؛ وَأَنْقَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهابٌ حَفِيها، وأدركها الأجلُ لَحْفَةً طَيَّرَناها من خَلْفِها؛ فوقعت من الأفقِ في كَفِّه،
ونَفَرَ ما في بقايا صَفِّها عن صَفِّه .

واتت في إثرِها أَيْسَةُ آئِسَه، كأنَّها العذراءُ العائِسَه، أو الأدماءُ الكائِسَه؛ عليها
خَفَرُ الأَبكار، وَحِفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكار، وَحَلَاوَةُ المَعانِي التي تُجَلَّى على الأفكار؛ ولها
أُنْسُ الرِّيب، وإدْلالُ الحَيْب، وتَلَقُّتُ الزائرَ المُريب من خَوْفِ الرِّيب؛ ذاتُ عُنُقٍ
كالإبريق، أو الفُصْنِ الوريق، قد جَمَعَ صُفْرَةَ البَهارِ إلى حُمْرَةِ الشَّقِيق؛ وَصَدْرُ بَهِىٍّ
الملبوس، شَهِىٍّ إلى النفوس، كأنَّما رَقِمَ فيه النَهارُ باللَّيلِ أو نُقِشَ فيه العَاجُ بالآبُوس؛
وَجَنَاحُ يُجَيِّها من العَطَب، يَحْكى لونها المَنْدَلُ الرُّطْبَ لولا أَنه حَطَبٌ :

مُدَيِّجَةُ الصِّدْرِ تَقْوِيْفُهُ * أَضَافَ إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ!

لَهَا عُنُقٌ خَالَهَ مَنْ رَأاه * شَقَائِقُ قد سَيَّجَتْ بالبَهارِ!

فوثبَ الخامِسُ منها إلى الغَنيمه، ونظَمَ في سِلْكِ رَمِيهِ تلكَ الدَّرَّةَ اليَتيمه، وَحَصَلَ
بِتَحْصِيلِها بين الرُّماة على الرُّتَبَةِ الجَسيمه .

وَأَتَى على صَوْتِها حُبْرُجٌ تَسْبِقُ هِمَّتُهُ جَنَاحَه، وَيَغْلِبُ حَقْقُ قَوادِمِهِ صِياحَه؛ مُدَيِّجُ
المطَا، كأنَّما خَلَعَ حُلَّةَ مَنْكِيبِهِ على القَطَا؛ يَنْظُرُ مَنْ لَهَبَ، وَيَخْطُو على رِجْلَيْنِ مَنْ ذَهَبَ :

يَزُورُ الرِّياضَ، وَيَحْفُو الحِياضَ * وَيُشْبِهُ في اللَّوْنِ كُذْرَ القَطَا،

وَيَغْوِي الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بِها، * ولا يَرِدُ المِاءَ إِلاَّ خَطَا!

فبَدَرَه السَّادِسُ قَبْلَ ارْتِفاعِهِ، وَأَعانَ قَوْسَه بامْتِدَادِ باعِهِ، غَرَّ على الأَلَاءِ كِبِساطِ
أَبْنِ قَيْسٍ، وَأَنْقَضَ عليه رَأْيِهِ خَمْلَه بِحَذْقٍ وَحَمَلَه بِكَيْسٍ .

(١) يشير إلى قول الشاعر في بسطام :

نَفَرَ على الأَلَاءَةِ لَمْ يَوْسَدَ * كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلُ :

الأَلَاءُ، بوزن العلاء، شَجَرٌ والأَلَاءَةُ أَخَصُّ مِنْهُ .

وتعسّر على السَّابِغِ مَرَامُهُ ، وَنَبَأَ عَنْ بُلُوغِ الْأَرَبِ مَقَامَهُ ؛ فَصَعِدَ هُوَ وَتَرَبُّهُ
إِلَى جَبَلٍ ، وَثَبَّتَ فِي مَوْقِفِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِرَافِقَتِهِمَا قَبْلَ .

فَعِنَ لَهُ تَسْرُفُ قَوَائِمِ شِدَادٍ ، وَمَنَاسِرِ حَدَادٍ . كَأَنَّهُ مِنْ نُسُورِ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ ؛ تَحْسِبُهُ
فِي السَّمَاءِ ثَالِثَ أَخَوَيْهِ ، وَتَخَالُهُ فِي الْفَضَاءِ قُبَّتَهُ الْمُنْسُوبَةَ إِلَيْهِ ؛ قَدْ حَلَقَ كَالْفُقَرَاءِ
رَأْسَهُ ، وَجَعَلَ مِمَّا قَصَرَ مِنَ الدَّلُوقِ الدُّكْنِ لِبَاسَهُ ؛ وَأَشْتَمَلَ مِنَ الرِّيشِ الْعَسَلِيِّ
إِزَارًا ، وَالْأَلْفِ الْعُزْلَةَ فَلَا تَجِدُ لَهُ إِلَّا فِي قُنَنِ الْجِبَالِ الشَّوَاهِقِ مَزَارًا ؛ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي
الْلَّيْلِ وَهُوَ لَمْ يَشِبْ ، وَمَضَتْ الدُّهُورُ وَهُوَ مِنَ الْحَوَادِثِ فِي مَعْقِلِ أَشْبَ :

مَلِكُ طُيُورِ الْأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا * وَفِي الْأَفْقِ الْأَعْلَى لَهُ أَخَوَانِ !

لَهُ حَالٌ فَتَاكِ ، وَحِلْيَةٌ نَاسِكٍ ، * وَإِسْرَاعٌ مِقْدَامٍ ، وَفَتْرَةٌ وَإِنْ !

فَدَنَا مِنْ مَطَارِهِ ، وَتَوَخَّيْ بُنْدَقَهُ عُنُقَهُ فَوْقَ فِي مِتْقَارِهِ ؛ فَكَأَنَّمَا هَذَا مِنْهُ صَخْرًا ،
أَوْ هَدَمَ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى رَفِيقِهِ ، مُبَشِّرًا لَهُ بِمَا أَمْتَارَ بِهِ عَنْ فَرِيقِهِ .

وَإِذَا بِهِ قَدْ أَظْلَنَتْهُ عُقَابُ كَاسِرٍ ، كَأَنَّمَا أَضَلَّتْ صَيْدًا أَفْلَتَ مِنَ الْمَنَاسِرِ ؛ إِنْ
حَطَّتْ فَسَحَابٌ أَنْكَشَفَ ، وَإِنْ أَقَامَتْ فَكَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَاسِسًا . لَدَى
وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ ، بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْمَنَازِكِ :

إِذَا أَفْلَعْتَ بَلَحْتَ عُلوًّا كَأَنَّمَا * تُحَاوِلُ نَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

يَرَى الطَّيْرُ وَالْوَحْشُ فِي كَفِّهَا * وَمِتْقَارِهَا ذَا عِظَامٍ مُزَالَهُ .

فَلَوْ أَمَكْنَ الشَّمْسُ مِنْ خَوْفِهَا * إِذَا طَلَعَتْ مَا تَسَمَّتْ غَزَالَهُ !

فَوُثِبَ إِلَيْهَا الثَّامِنُ وَثْبَةً لَيْثٌ قَدْ وَتَقَ مِنْ حَرَكَاتِهِ بَنَجَاحِهَا ، وَرَمَاهَا بِأَوَّلِ بُنْدَقَةٍ فَمَا
أَخْطَأَ قَادِمَةَ جَنَاحِهَا ؛ فَأَهْوَتْ كَعُودَ صُرْعٍ ، أَوْ طَوْدَ صُدْعٍ ؛ قَدْ ذَهَبَ بِأَسْهَاهَا ،

وَتَدَهَّبَ بِدَمِهَا لِبَاسُهَا ، وَكَذَلِكَ الْقَدَرُ يُخَادِعُ الْجَوَّ عَنْ عِقَابِهِ ، وَيَسْتَنْزِلُ الْأَعْصَمَ مِنْ
عِقَابِهِ ؛ فَعَمَلَهَا بِجَنَاحِهَا الْمَهِيضِ ، وَرَفَعَهَا بَعْدَ التَّرْفَعِ فِي أَوْجِ جَوْهَا مِنَ الْحَضِيضِ ،
وَنَزَلَ إِلَى الرَّفْقَةِ ، جَذَلًا بِرِيحِ الصَّفْقَةِ .

فوجد التَّاسِعَ قد مرَّ به كُرْكِيٌّ طَوِيلُ الشَّفَارِ ، سَرِيعُ النَّفَارِ ؛ شَمِهُ الْفِرَاقِ ،
كَثِيرُ الْإِغْتِرَابِ يَسْتَوِي بِمَضْرُوعٍ يَصِيفُ بِالْعِرَاقِ ؛ لِقَوَادِمِهِ فِي الْجَوِّ خَفِيفٌ ، وَلَادِيمِهِ
لَوْنُ سَمَاءٍ طَرَأَ عَلَيْهَا غَيْمٌ خَفِيفٌ ؛ تَحْنُ إِلَى صَوْتِهِ الْجَوَارِحِ ، وَتَعْجَبُ مِنْ قُوَّتِهِ
الرِّيَاحِ الْبَوَارِحِ ؛ لَهُ أَثَرُ حُرَّةٍ فِي رَأْسِهِ كَوَيْضِ جَمْرِ تَحْتَ رَمَادٍ ، أَوْ بَقِيَّةِ جُرْحٍ تَحْتَ
ضِمَادٍ ، أَوْ فَصٍّ عَقِيقٍ سَقَّتْ عَنْهُ بَقَايَا نِمَادٍ ؛ ذُو مَنَقَارٍ كَسَنَانٍ ، وَعُقَى كَعْنَانٍ ؛
كَأَنَّمَا يَنْوَسُ ، عَلَى عُودَيْنِ مِنْ أَبْنَوْسِ :

إِذَا بَدَأَ فِي أَفْقٍ مُقْلَعًا * وَالْجَوُّ كَالْمَاءِ تَفَاوَيْفُهُ :

حَسْبَتَهُ فِي لُحْيَةٍ مَرَكَبًا * رِجْلَاهُ فِي الْأَفْقِ مَجَادِيفُهُ !

فَصَبَّرَ لَهُ حَتَّى جَازَهُ مُجَلِّيًا ، وَعَظَفَ عَلَيْهِ مُصَلِّيًا ؛ فُخْرٌ مُضَرَّجًا بِدَمِهِ ، وَسَقَطَ مُشْرِقًا
عَلَى عَدَمِهِ ؛ وَطَلَمًا أَقْلَتَ لَدَى الْكَوَاسِرِ مِنْ أَظْفَارِ الْمَذُونِ ، وَأَصَابَهُ الْقَدَرُ بِجَبَّةٍ مِنْ
حِمَاٍ مَسْنُونٍ ؛ فَكَثُرَ التَّكْيِيرُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ بِرِجْلِهِ .

وَحَازَاهُ غِرْنَوْقٌ حَكَاهُ فِي زِيَّهِ وَقَدْرِهِ ، وَأَمْتَازَ عَنْهُ بِسَوَادِ رَأْسِهِ وَصَدْرِهِ ؛ لَهُ
رَيْشَتَانِ مَمْدُودَتَانِ مِنْ رَأْسِهِ إِلَى خَلْفِهِ ، مَعْقُودَتَانِ مِنْ أَدْنَاهُ مَكَانَ شَنْفِهِ :

لَهُ مِنَ الْكُرْكِيِّ أَوْصَافُهُ * سِوَى سَوَادِ الصَّدْرِ وَالرَّاسِ .

إِنْ شَالَ رِجْلًا وَأَنْبَرَى قَائِمًا * أَلْفَيْتَهُ هَيْئَةً بِرِجَاسِ !

فَأَضْعَى الْعَاشِرُ لَهُ مُنْصِتًا ، وَرَمَاهُ مُتَلَقِّيًا ؛ فَنَحَرَ كَأَنَّهُ صَرِيحُ الْأَلْحَانِ ، أَوْ نَزِيفُ بَنْتِ
الْحَنَانِ ؛ فَاهْوَى إِلَى رِجْلِهِ بِيَدِهِ ، وَأَنْقَضَ عَلَيْهِ أَنْقِضَاضَ الْكَاسِرِ عَلَى صَيْدِهِ .

وَتَبِعَهُ فِي الْمَطَارِ ضُوعٌ^(١)، كَأَنَّهُ مِنَ النَّضَارِ مَصْنُوعٌ؛ تَحْسَبُهُ عَاشِقًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ،
أَوْ بَارِقًا قَدْ بَثَّ لَفْحَتَهُ :

طَوِيلَةٌ رِجْلَاهُ مُسَوَّدَةٌ * كَأَنَّمَا مِثْقَالُهُ خَنْجَرٌ؛
مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَشْمَطُ * جَاءَتْ فِي رَقَبَتِهَا مِعْجَرًا!

فَاسْتَقْبَلَهُ الْحَادِي عَشَرَ وَوَتَّبَ، وَرَمَاهُ حِينَ حَازَاهُ مِنْ كَشَبٍ؛ فَسَقَطَ كَفَّارِيسَ تَقَطَّرَ
عَنْ جَوَادِهِ، أَوْ وَايِقٍ أُصِيبَتْ حَبَّةُ قُودِهِ؛ فَحَمَلَهُ بِسَاقِهِ، وَعَدَلَ بِهِ إِلَى رِفَاقِهِ .

وَأَقْرَنَ بِهِ مِرْزَمٌ لَهُ فِي السَّمَاءِ يَمِيٌّ مَعْرُوفٌ، ذُو مِثْقَالٍ كَصُدُيْغٍ مَعْطُوفٍ؛ كَأَن
رِيَاشَهُ فَلَقَّ أَتَّصَلَ بِهِ شَفَقٌ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ عَلِقَ بِأَطْرَافِهِ عَلَقٌ :

لَهُ جِسْمٌ مِنَ الثَّلَجِ * عَلَى رِجْلَيْنِ مِنْ نَارٍ؛
إِذَا أَقْلَعَ لَيْلًا قَلَّتْ بَرْقٌ فِي الدُّجَى سَارِي!

فَانْتَحَاهُ الثَّانِي عَشَرَ مِيمًا، وَرَمَاهُ مُصَمًّا؛ فَأَصَابَهُ فِي زَوْرِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ قُوْرِهِ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الشَّرِّ وَرَمَاهُ خَرَجَ بِهِ عَنْ طَوْرِهِ .

وَالْتَحَقَ بِهِ سَبَيْطَرٌ، كَأَنَّهُ مَذْبَةٌ مُبَيْطَرٌ؛ يَخْطُ كَالسَّيْلِ، وَيَكُرُّ عَلَى الْكَوَاسِرِ كَالْحَيْلِ،
وَيَجْمَعُ مِنْ لَوْنِيَّةٍ بَيْنَ ضِدَّيْنِ يُقْبِلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيُذْبِرُ بِاللَّيْلِ؛ يَتَلَوَّى فِي مِثْقَالِهِ الْأَيْمُ،
تَلَوَّى التَّيْنِ فِي الْغَيْمِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ مُتَمَدِّدًا وَفِي فَمِهِ * مِنَ الْأَفَاعِي شَجَاعٌ أَرْقَمُ ذِكْرُ؛
كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَامٍ عُنُقَهُ يَدُّهَا * وَرِجْلُهُ رِجْلُهَا وَالْحَيَّةُ الْوَتْرُ!

(١) هو بضم الضاد المعجمة وكسرهما مع فتح الواو. وورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :
”ضُوعٌ“ وأنظر ما كتبناه عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بُدُّقَه ، فقطع لحيه وعنقه ، فوق كالصرح الممرد ،
أو الطراف الممدد .

وأتبعه عَنَازُ أصبح في اللونِ ضده ، وفي الشكلِ نَدَه ، كأنه ليلٌ ضمَّ الصبح إلى
صدره ، أو أنطوى على هالةِ بَدْرِهِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ عِنْدَ الصُّبْحِ حِينَ بَدَأَ * مُسَوَّدَ أَجْنِحَةٍ مُبَيِّضَ حَيَرومِ :

كَأَنَّهُ حَبَشِيٌّ عَامٌ فِي نَهْرٍ * وَضَمَّ فِي صَدْرِهِ طِفْلاً مِنَ الرُّومِ !

فنهض تَمَامُ القوم إلى التَّيْمَةِ ، وأسفرت عن نُجُجِ الجماعة تلك اللَّيْلَةُ الْمُذْهِمَّةُ ،
وغداً ذلك الطَّيْرُ الْوَاجِبُ وَاجِبًا ، وكلُّ العدد به قبل أن تُطْلِعَ الشَّمْسُ عَيْنًا أَوْ تُبْرِزَ
حَاجِبًا ؛ فيا لها لَيْلَةٌ حَضَرْنَا بِهَا الصَّادِحُ فِي الْفَضَاءِ الْمُتَّسِعِ ، وَلَقِيتُ فِيهَا الطَّيْرَ مَا طَارَتْ بِهِ
مَنْ قَبْلُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُجْتَمِعٍ ؛ وَأَصْبَحْتُ أَشْلَاؤُهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَفَرَائِدِ خَانِهَا
النِّظَامِ ، أَوْ شَرِبَ كَأَنَّ رِقَابَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يُخْلَقْ لَهْنَ عِظَامِ ، وَأَصْبَحْنَا مُثْنِينَ عَلَى
مَقَامِنَا ، مُثْنِينَ بِالظَّفَرِ إِلَى مُسْتَقَرِّنَا وَمَقَامِنَا ؛ دَاعِينَ لِلْأُولَى جُهْدَنَا ، مُدْعِينَ لِهَ قَبْلَنَا
أَوْ رَدَّنَا ؛ حَامِلِينَ مَا صَرَعْنَا إِلَى بَيْنِ يَدَيْهِ ، عَامِلِينَ عَلَى التَّشْرِفِ بِخِدْمَتِهِ وَالْإِتْمَاءِ إِلَيْهِ :

فَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يُلَفَّ مِنْ لَا يَوْدُهُ * وَيُدْعَى لَهُ فِي السَّرِّ أَوْ يُدْعَى لَهُ :

فَإِنْ كَانَ رَفِيٌّ ، أَنْتَ تُوضِعُ طَرَفَهُ ، * وَإِنْ كَانَ جَيْشٌ : أَنْتَ تَحْمِي قَبِيلَهُ !

والله تعالى يجعل الآمالَ مُنَوِّطَةً بِهِ وَقَدْ فَعَلَ ، وَيَجْعَلُهُ كَهَفًا لِلْأَوْلِيَاءِ وَقَدْ جَعَلَ ؛
بِمَنْنِهِ وَكَرَمِهِ :

الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الصدقات ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الصدقات الملوكة وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صدق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فطال للوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدق، كتب به لملك السعيد بركة ، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأئفى قبل سلطنته ، بالقلعة المحروسة ، من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهى : الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة ، ومصدق القائل لمن جعل عنده أعظم بركة ، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانة وصهره ملكة ، الذى جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً ، وميز أقدارهم بأصطفاء تاهله حتى حازوا نعيماً ومذكاً كبيراً ، وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس آمالهم ضياءً وزاد قمرها نورا ، وشرف به واصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وإنعامه كثيراً ، مهياً أسباب التوفيق العاجلة والآجلة ، وجاعل ربوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبُدور والأهلة أهله ، جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة .

تحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأجيلهم الاستطلاع،
وكل لأخيرهم الأجتناس من العز والأنواع، وأتى آمالهم بما لم يكن في حساب
أحسابهم من الابتداء بالتخويل والابتداء؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة حسنة الأوضاع، ملية بتشريف الأئمة وتكريم الأسماع؛ ونصلي على
سيدنا محمد الذي أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالى والأصهار، وجعل كرمه
داراً لهم في كل دار، وبخره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار،
صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يانعة الثمار.

وبعد، فلو كان اتصال كل شيء بحسب المتصل به في تفضيله، لما استصلح
البدر شيئاً من المنازل لتزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر
الحكيم لساناً من الأئمة لتزويله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن
ليتشرّف بيت يحلّ به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور،
ونثار يجعل بالآلى والدّر؛ ولذلك تجلّت برسول الله صلى الله عليه وسلم أضهاره
وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه؛ وتزوج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم
مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضى عنهم.

والمرتّب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمدّه الوجود، وتقدير أمر يقارن سعد
الأخية منه سعد السعد؛ وإظهار خطبة تقول للثريا لا تنظام عقودها: كيف،
وإبراز وصلة تجعل بتزويج جوهرها متن السيف الذى يغيظه على إبداع هذا
الجوهر به كل سيف؛ وتسج صهارة يتم بها - إن شاء الله - كل أمر سيد،
ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختار لها أربك طالع: وكيف لا تكون
البركة في ذلك الطالع وهو السعيد؟

وذلك بأن المَرَّاحِمَ الشَّرِيفَةَ السُّلْطَانِيَّةَ أَرَادَتْ أَنْ تُحَصِّنَ الْمَجْلِسَ السَّامِيَ بِالْإِحْسَانِ الْمُبْتَكِرِ ، وَتُقَرِّدَهُ بِالْمَوَاهِبِ الَّتِي يُرْهَفُ بِهَا الْحَدُّ الْمُتَنَصِّى وَيَعْظُمُ الْحَدُّ الْمُتَنَفِّرُ ، وَأَنْ تَرْفَعَ مِنْ قَدْرِهِ بِالصَّهَارَةِ مِثْلَ مَا رَفَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَدَرِ صَاحِبِيهِ : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ ، نَخَطَبَ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعَ مِنْ تَحْمِيلِهَا السُّيُوفَ الْمَشْرِفِيَّةَ ، وَأَعَزَّ مِنْ تُسْبِلِ عَلَيْهَا سُتُورَ الصُّونِ الْخَفِيَّةِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا خُذُورُ الْجَلَالِ الرُّضِيَّةِ ، وَتُجَمَّلُ بِنِعْمَتِهَا الْعُقُودُ : وَكَيْفَ لَا ؟ وَهِيَ الدَّرَّةُ الْأَلْفِيَّةُ ؛ فَقَالَ وَاللَّهِ هُوَ الْأَمِيرُ الْمَذْكُورُ : هَكَذَا تُرْفَعُ الْأَقْدَارُ وَتُزَانُ ، وَكَذَا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !!! ؛ وَمَا أَسْعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَرَّاحِمُ الشَّرِيفَةُ السُّلْطَانِيَّةُ لَهُ نَحِيلَهُ ! ، وَأَشْرَفَ سَيْفًا غَدَّتْ مِنْطَقَةُ بُرُوجِ سَمَائِهَا لَهُ حِمْلَهُ ! ؛ وَمَا أَعْظَمَهَا مُعْجِزَةٌ آتَتْ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ لَدُنْهَا سُلْطَانًا ! ، وَزَادَتْهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ! ؛ وَمَا أَغْفَرَهَا صَهَارَةٌ يَقُولُ التَّوْفِيقُ لِإِبْرَاهِمَ : لَيْتَ ! ، وَأَشْرَفَهَا عُبودِيَّةٌ كَرَّمَتْ سَلْمَانَهَا بِأَنْ جَعَلَتْهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ! .

وَإِذْ قَدْ حَصَلَتْ الْأَسْتِخَارَةُ فِي رَفَعِ قَدْرِ الْمَمْلُوكِ ، وَخَصَّصَتْهُ بِهَذِهِ الْمَرْيَةِ الَّتِي تَقَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَرِ الْمَمْلُوكِ ؛ فَالْأَمْرُ لِمَلِكِ الْبَسِيطَةِ فِي رَفَعِ دَرَجَاتِ عَبِيدِهِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَالتَّصَدُّقُ بِمَا يَتَّقُوهُ بِهِ هَذَا الْإِنْشَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَحَاسَدَتْ وَمَنَحَ الْخَطَّ وَأَقْلَامَ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ مَطَالِيعُ النَّوَارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى نَظْمِ سَطُورِهِ ؛ فَأَضَاءَ نُوْهُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ ، وَهَطَّلَ نُوْهُهُ بِالْإِحْسَانِ فَاعْتَدَقَ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ أَجْنَاسُ تَجْنِيسِ لَفْظِ الْفَضْلِ فَقَالَ الْإِعْتِرَافُ : هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الْعُرْفُ : هَذَا مَا أَصَدَّقَ مُوَلَانَا السُّلْطَانُ : أَصَدَّقَهَا مَا مَلَأَ نَحْرًا مِنْ الْأَحْسَابِ نَحَارًا ، وَشَجَرَةَ الْأَنْسَابِ ثِمَارًا ، وَمِشْكَاتَةَ الْجَلَالَةِ أَنْوَارًا ، وَأَضَافَ إِلَى

ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا؛ فبدل لها من العين المصري ما هو باسم والدها قد تشرف، وبنعوتيه قد تعرف، وبين يدي هباته وصدقاته قد تصرف.



وهذه نسخة صديق المقام الشريف العالى السيفي أنوك، ولد السلطان الشهيد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» على بنت المقر المرحوم السيفي «بكتمر الساق». وكان العاقد قاضي القضاة جلال الدين القزويني، والقابل السلطان الملك الناصر والد الزوج، وهى :

الحمد لله مسير الشمس والقمر، وميسر حياة كل شيء باتصال الروض بالمطر، ومبشر المتقين من درارى الدارارى بأسعد كوكب ينتظر، وأحمد عاقبة تهتر لها أعطاف عظماء الملوك على كبر، وتنجاب عن الأنجاب كما تفتح الأكام عن الثمر؛ الذى مد من الشجرة المباركة الملوكة فروعا آلتفت بعضها على بعض، ورفقت على من استظل بها فراقب السماء على الأرض.

نحمده على نعيمه التى أطابت لنا جنى الغروس، وأطالت منا منى النفوس، وأطافت بملوكنا حتى مدت لسؤالهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتخذها عظمة نافعته، ونعمة لحسن العاقبة جامعته، ورحمة تبارك على أئمتنا وعلى أبنائهم البدور الطالعة، والأنوار الساطعة، والبروق اللامعة، والغيوث الهامية، والسيول الدافعة، والسيوف القاطعة، والأسود التى هى عن حرم حضرتها مانعة؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أزان من تمسك له بحسب، وشرف من أعتزى إليه بالقربى أو أعتز منه بصهر أو نسب؛

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَرْضَاهُمْ وَرَضَى عَنْهُمْ ، وَكَرَّمَهُمْ بِصَلَاتِهِ الشَّرِيفَةِ
لِمَا زَوَّجَهُمْ وَزَوَّجَ مِنْهُمْ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ ، فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ الْغَمَامِ أَنْ يَتَفَقَّدَ الْأَرْضَ بِمَطَرِهِ ، وَالْبَحْرَ أَنْ يَسْقَى الزُّرُوعَ
بِمَا فَاضَ مِنْ نَهَرِهِ ؛ وَالْمَصَابِيحَ أَنْ تَمُدَّ بِأَنْوَارِهَا مَا يَتَوَقَّدُ ، وَالسَّمَاءُ أَنْ لَا يَخْلُو أَفْقُهَا
مِنْ اتِّصَالِ فَرْقِدٍ بِفَرْقِدٍ ؛ وَلَوْ تَوَقَّفَتِ الْقُرْبَى عَلَى مُقَارَبَةٍ كَبِيرٍ ، أَوْ مُقَارَنَةِ نَظِيرٍ ،
لِمَا صَلَحَتِ الْأَعْمَادُ لِمَضَاجِعِ السُّيُوفِ وَلَا دَنَتِ الْكَوَاكِبُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
الْمُبِيرِ ؛ وَلَا صَاحَتِ يَمِينٌ شِمَالًا ، وَلَا جَاوَرَتْ جَنُوبٌ شِمَالًا ؛ وَلَا حَوَتْ الْكَتَائِنُ
سِهَامًا ، وَلَا جَمَعَ السَّلَكُ لِلْجَوَاهِرِ نِظَامًا ؛ وَلَا طَمَحَ طَرْفٌ إِلَى غَايَةٍ ، وَلَا قَدَّرَ لِسَانُ
إِنْسَانٍ عَلَى تِلَاوَةِ سُورَةٍ وَلَا آيَةٍ ؛ وَإِنَّمَا الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ الْمُلُوكِيَّةُ لَهَا فِي الْبَرِّ
عَوَائِدُ ، وَفِي الْخَيْرِ سَجَايَا يَقْتَدِي فِيهَا الْوَلَدُ بِالْوَالِدِ .

وَلَمْ يَزَلْ مِنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ ، الْأَعْظَمِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَالِكِيِّ ،
النَّاصِرِيِّ ، أَعَزَّ اللَّهُ سُلْطَانَهُ عَلَى مَنْ لَازَ بِهِ تُسَبَّلُ دُيُولُ الْفَخَّارِ ، وَتُودَعُ فِي هَالَاتِ
أَقْفَارِهِمُ وَدَائِعِ الْأَنْوَارِ ، وَتُؤَهَّلُ أَهْلُهُمْ لِأَنْ يَكُونَ مِنْهَا أَحَدُ الْأَبَوَيْنِ لِدُرِّيَّتِهِ الْأَطْهَارِ ،
وَتَحْتَطَّبُ مِنْ مُحِبِّهِمْ كُلُّ مَصْنُوعَةٍ يَغُورُ بِهَا بَدْرُ الدُّجَى وَتَغَارُ مِنْهَا شَمْسُ النَّهَارِ .

وَكَانَ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَّةِ ، النَّاصِرِيَّةِ ، عَلَى مَنْ تَعَرَّضَ لِسَحَابِهَا
الْمَاطِرِ ، وَوَقَّفَ لِلْإِعْتِرَافِ مِنْ بَحْرِهَا الزَّائِحِ - مَا رَفَعَتْ بِهِ ذِكْرَهُ إِلَى آخِرِ الْأَبَدِ ،
وَأَتَمَّتْ لَهُ السَّعَادَةُ إِذْ كَانَ يُعَدُّ فِي جُدُودٍ مِنْ يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدٍ ؛ وَأَكْدَتْ لَهُ
بِالْقُرْبَى مَرْيَّةَ مَزِيدٍ ، وَاسْتَخْرَجَتْ مِنْ بَحْرِهِ جَوْهَرَةً لَا يَطْمَعُ فِي التَّطَوُّقِ بِهَا كُلُّ
جِيدٍ ؛ وَقَالَتْ : نَحْنُ أَحَقُّ بِتَكْمِيلِ مَا بَنَيْنَا ، وَتَحْوِيلِ الْخُلُوءَةِ مِنْ أَوْلِيَانَا ؛ وَتَأْهِيلِ مَنْ قَرَّ
بِنَا عَيْنًا وَقَرَّبَنَا إِلَيْنَا ، وَتَفْضِيلِ غَرَسِ نِعْمَةٍ نَحْنُ غَرَسْنَاهُ وَاجْتَنَيْنَا ثَمَرَاتَهُ بِيَدَيْنَا .

فاقتضى حُسْنُ الاختيار الشريف المَلِكِي الناصريّ، لولده المقام العالی السَّيْفِيّ؛
أحسن الله لها الاختيار، وأجرى بارادتهما اقتدار الأقدار - أن تُزَفَّ أُمُّ الشُّمُوسِ إلى
سُتُورِهِ الرِّفِيعَةِ، وتُصَانْ أَكُلُّ مَعَاوِلِ الْعُقَائِلِ بِجُجِيهِ الْمَنِيَعَةِ؛ وتُحَاطَ أَشْرُفُ الدَّرَرِ
فِي مُسْتَوْدَعِهِ، وتُنَاطَ أَشْرُفُ الدَّرَارِيِّ بِمَطَاعِهِ؛ وتُسَاقَ إِلَيْهِ الْكَرِيمَةُ حَسَبًا، الْعَظِيمَةُ
بَأَيِّهِ - عَظَّمَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - أَبَا، الَّذِي كَمَ لَهُ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ مِنْ مَنَاقِبَ
كَالْجُومِ، وَمَذَاهِبَ تَشَبَّهَ بِهَا الْبُرُقُ فَتَشَبَّثَ بِأَذْيَالِ الْغُيُومِ، وَمَرَاتِبَ تَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى
كُلِّ نَظِيرٍ قَالَ: وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ؛ مَنْ قَدَرُهُ لَا يُسَامَى وَلَا يُسَامُ، وَرَأْيُهُ
لَا يُرَامَى وَلَا يُرَامُ، وَسَيْفُهُ فِي غَيْرِ طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ لَا يُشِيمُ وَلَا يُسَامُ، وَهُوَ «سَيْفُ
الدَّوْلَةِ» لَا كَمَا يُسَمَّى بِهِ مَنْ اسْتَعَارَ هَذَا اللَّقَبَ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ؛ كَمَ لَهُ فِي مَرَاضِي
سُلْطَانِهِ مِنْ رَغْبَةٍ بِذَلْ بِهَا مَا لَدَيْهِ، وَتَمَحَّحَ فِيهَا بِوَلَدِهِ وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَجَادَ
بِرُوحِهِ أَوْ بِمَا هُوَ أَعَزُّ عَلَيْهِ؛ كَمَ تَبَهَّتْ بِعَزَائِمِهِ الشُّيُوفُ مِنْ سِنَانَتِهَا، كَمَ وَهَبَتْ مِنْ
مَكَارِمِهِ الْأَيَّامُ مَا يُعَدُّ مِنْ حَسَنَاتِهَا؛ كَمَ أَلْتَهَبَتْ صَوَارِمُهُ نَارًا جَفَرَتْ أَنْهَارًا جَفَرَتْ
مِنْ جَنَابَتِهَا؛ كَمَ لِسَمَاءِ الْمُلْكِ بُشْمُهُ مِنْ حَرَسٍ، وَبِقُضْضِيهِ مِنْ قَبَسٍ، وَكَمَ قَامَ وَقَعَدَ
فِي مَصْلَحَةٍ وَكَانَ أَدْنَاهُمْ مِنْ مَلِكِهِ مَقَامًا لَمَّا قَامَ وَأَعْلَاهُمْ مَجْلِسًا لَمَّا جَلَسَ؛ فَسَمِعَ
المَقَامُ الْعَالِي السَّيْفِيُّ وَأَطَاعَ، وَاتَّهَى إِلَى مَا بَرَزَتْ بِهِ مَرَاسِمُ وَالِدِهِ - أَنْفَذَهَا اللَّهُ -
وَأَمْتَلَّ أَمْرَهُ الْمُطَاعَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ الشَّرِيفِ وَهُوَ نَاصِرُ السُّنَّةِ فَقَدَّمَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ،
وَسَارَعَ إِلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْإِجْتِمَاعِ، وَاتَّبَعَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ
بِدُرِّيَةِ أُمَّةٍ مُلُوكِيَّةٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَهُ الْأُمَّةُ أَتْبَاعُ؛ لِعَالِمِهِ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَوْ خَطَبَ لَهُ
وَالِدُهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ الْمُلُوكِ، لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ إِلَّا كُلَّ مَلِكٍ عَظِيمٍ وَهُوَ لَهُ
عَبْدٌ مَمْلُوكٌ؛ فَأَحْيَى سُنَّةَ شَرِيفَةٍ مُلُوكِيَّةٍ مَابَرَحَتْ الْخُلَفَاءُ وَالْمُلُوكُ تَحْفَظُ بِهَا قُلُوبُ
أَوْلِيَائِهَا عَلَى أُمْدَادِ الْمَدَى، وَيَكْفِي مِنْ هَذَا مِمُّونٌ فَعَلَ «الْمَأْمُونِ» لَمَّا تَزَوَّجَ

«بُورَان» من أبيها «أَبْنِ سَهْلٍ» وَخَطَبَ «الْمَعْتَصِدُ» إِلَى «أَبْنِ طُولُونٍ» أَبْتَنَهُ
«قَطْرَ النَّدى» .

ورأى والدُها أعزّه الله تعالى قَدْرًا هَالَةً مَهَابَةً فَسَلَّمَ وقال : لَلْأَلِكِ التَّصَرُّفُ
وَلِلْمَلِكِ التَّصْرِيفُ ، وَإِذَا اقْتَضَى حُسْنُ النَّظَرِ الشَّرِيفِ تَشْرِيفٌ عَبْدٌ فَيَا حَبِيبًا
التَّشْرِيفُ ؛ وَيَا حَبِيبًا السَّبَبُ الَّذِي آتَصَلَتْ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابُ ، وَأَخْتَفَلَتْ
دِيمَ النَّعْمِ وَأَخْتَفَّتْ لِلْاجْتِمَاعِ عَلَى سُنَّةٍ وَكِتَابٍ ، فَتَحَاسَدَتْ عَلَى إِثْبَاتِهِ صُفْرُ الْأَصْنَائِلِ
وَحُمْرُ النَّعَمِ ، وَتَنَافَسَتْ عَلَى رَقَمِ سَطُورِهِ صَحَائِفُ السَّحَابِ وَصَفِيحُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ
السَّيْفِ وَصَرِيرُ الْقَلَمِ ؛ وَتَمَنَّتْ الْكَوَاكِبُ لَوْ اجْتَمَعَتْ مَوَازِيحُ يَوْمِهِ الْمَشْهُودِ ،
وَالْمُنَاقِبُ لَوْ أَنَّهَا حَوَّلَهُ بِمَقَانِبِ خَافِقَةِ الْبُنُودِ ؛ وَوَدَّتْ نَسَمَاتُ الْأَشْجَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ
الَّتِي سَعَتْ بِالْإِتْفَاقِ ، وَالْحَمَائِمُ لَوْ أُسْبِحَ لَهَا أَنْ تُغَرَّدَ وَتَحْلَعَ مَا فِي أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ؛
بَلِ السُّيُوفُ لَمَّا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضَّتِ الْأَحْدَاقُ ، وَالرَّمَاحُ لَمَّا بَدَأَ لَهَا
سِرِيرُ الْمَلِكِ مَائِلًا وَقَفَّتْ عَلَى سَاقٍ .

فبرزت المَرَامِسُ الشَّرِيفَةُ - زَادَهَا اللَّهُ شَرَفًا - بِتَحْرِيرِ هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ ، وَتَضْيِيدِ
مَا يَصْلُحُ مِنَ الدَّرَرِ لِهَذَا الْعِقْدِ النَّظِيمِ ؛ وَنَفْذِ الْمَرْسُومِ الْعَالِي الْمَوْلُوءِ السُّلْطَانِيِّ مَا أَمَرَ
بِهِ وَصَدَّقَ ، وَتَأْدَبِ إِجْلَالًا لِمَقَامِ أَبِيهِ الشَّرِيفِ فَاطِرِهَا ، وَتَوَاضَعِ لِلَّهِ فَلَمْ يَقُلْ : هَذَا
مَا تَصَدَّقَ ؛ بَلْ قَالَ : هَذَا مَا أَصَدَّقَ الْمَقَامَ الْعَالِي السَّيْنِيَّ أَنْتُوكَ أَبْنُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ
الْأَعْظَمِ ، مَالِكِ رِقَابِ الْأَيَمِّ ؛ الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، السَّيِّدِ الْأَجَلِّ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْغَازِي ،
الْمُجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ، الْمُرَاطِطِ ، الْمُتَاغِيرِ ، الْمُظْفَرِ ، الْمَنْصُورِ ، الشَّاهِنشَاهِ ، نَاصِرِ الدُّنْيَا
وَالدِّينِ ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، مُنْجِي الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفِ الْمَظْلُومِينَ
مِنَ الظَّالِمِينَ ، مَلِكِ الْبَيْسِيطَةِ ، نَاصِرِ السُّنَّةِ ، رُكْنِ الشَّرِيعَةِ ؛ ظَلَّ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ ،

القائم بسنته وفرضه ؛ وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، خداوند عالم
بادشاه بنى آدم ، بهلولان جهان ، شهریار ایران ، اسکندر الزمان ، مُلک أصحاب المنابر
والأسيرة والتخوت والتيجان ؛ فاتح الأفطار ، وأهيب الممالك والأقاليم والأُمصار ،
مُبيد البغاة والطغاة والكفار ؛ صاحب البحرين ، حامي الحرمين ، خادم القبلتين ؛
كفيل العباد والعباد ، مُقيم شعائر الحج والجهاد ؛ إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ،
أبى المعالى محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ،
المجاهد ، المؤيد ، سيف الدين ، والد الملوك والسلاطين ، أبى الفتح «قلاوون» خلد
الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه - : الحجاب الكريم ، الرفيع ، المنيع ،
المصون ، المكنون ، الحمة المكرمة ، المُفخمة ، المعظمة ، بنت الجبابرة ،
العالى ، الأميري ، الأجل ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المهدى ، المُشيدى ،
الزعيمى ، المُقدّمى ، الغياثى ، القوتى ، الذخرى ، الأوحدي ، الظهيري ، الكافى ،
السيفى ، ركن الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصير الغزاة والمجاهدين ،
زعيم الجيوش ، مقدّم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، مهّد الدول ، مُشيد
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرى ،
ضاعف الله نعمته .

أَصَدَقَهَا مَا تَلَقَّتْ بِهِ أَنْسَابُهَا إِجْلَالًا ، وَبَلَّغَتْ بِهِ أَحْسَابُهَا جَمَالًا ، وَطَلَعَتْ فِي سَمَاءِ
الْمُلْكِ هَلَالًا ، وَلَيْسَتْ نَحَارًا ، وَقَبَسَتْ أَنْوَارًا ، وَأَوْتَتْ إِلَى حِصْنِ حَصِينٍ ، وَوَصَلَتْ
إِلَى مَقَامٍ آمِنٍ ، وَابْتَغَتْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، مَالُهَا أَدَبُ الشَّرَفِ ، وَتَجَنَّبُ السَّرَفِ ؛
وَالْعَمَلُ بِالشَّرْعِ فِي تَعْيِينِ مَعْلُومٍ ، وَتَبَيَّنَ مَقْدَارُ مَفْهُومٍ ؛ لَخَرَجَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ
مَحْدُودٍ ، وَقَدِّرَ مَعْدُودٍ ؛ وَلَمَّا قَامَ بِهِ مَوْجُودٌ ، وَلَكَانَ مِمَّا تَقَلُّ لَهُ الْمَمَالِكُ
وَلَا يُسْتَكْنَرُ لِأَجْلِهِ الْوُجُودُ .

قَدِّمَ لَهَا مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمِصْرَى الْمَسْكُوكَ مَا هُوَ بَنَقْدِ مِمَّا لَكَ وَالِدِهِ مَعْرُوفٌ ،
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ وَفِي هِبَاتِهِ مَصْرُوفٌ ؛ مَا يُجَدُّ مَالًا ، وَيُتَمَّى مَالًا ، وَيَأْتِي كُلُّ
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ يَتَلَالَا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، عَجَّلَ لَهَا كَذَا وَكَذَا ؛ قَبَضَهُ
وَكَيْلُ الْوَدَّاهِ مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبَضَهَا تَامًا كَامِلًا ، وَتَأَخَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ؛
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِ الْمَعْرُوفِ أَوْ تَسْرِيجِ بِالْحَسَانِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وَوَلَّى تَرْوِيحَهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ الْوَدَّاهِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدَمِ
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكَّامِ ، خُطِيبُ خُطَبَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَّالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبُو الْمَعَالَى ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ
سَعْدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،
أَبِي حَفِصٍ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَرْوِيْنِي الشَّافِعِي ، الْحَاكِمِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا
وَبِلَادِهَا ، وَجُنْدِهَا وَضَوَاحِيهَا ، وَسَائِرِ الْمَمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوِلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ
اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّ أَقْضِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَهُ
الْمُسَمَّى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، يَخَاطَبُ عَلَيْهِ شِفَاَهَا بِحُضُورِ
مَنْ تَمَّ الْعَقْدُ بِحُضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبْنَى ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَمِهَا اللَّهُ
تَعَالَى ، بُكْرَةَ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ أَلْفَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ .



وهذه نسخةُ صَدَاقِ الْمُقَرَّرِ الشَّرِيفِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ
أَبْنِ قِلَاوُونَ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الحمد لله مَنِّى المُلُوكِ بالمُظَاهَرَةِ ، وَمُكَثِّرِ زِينَةِ الْأَسْمَاءِ بِجُودِهِمُ الزَّاهِرَةِ ، وَمُكَبِّرِ أَفْئَادِ الْأَوْلِيَاءِ بِمَا تَمَّتِ النِّعْمَةُ بِهِ مِنْ شَرَفِ الْمُصَاهَرَةِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي شَرَّفَتْ قَدْرًا ، وَصَرَّفَتْ أَمْرًا ، وَأَطْلَعَتْ مِنْ هَالَةِ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ شَمْسًا لَا تَخْذُ غَيْرَ الْأَفُقِ خِذْرًا ، وَلَا تَمُتُّ اللَّيَالَى وَالْأَيَّامُ إِلَّا أَنْ تُقْلِدَهَا مِنَ الْأَشِعَّةِ يَاقُوتًا وَمِنْ الْكَوَاكِبِ دُرًّا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَجْمَعُ مِنْ حُجَّةِ الدِّينِ نَسَبًا وَصِهرًا ، وَتَرْفَعُ فِي أَنْبَاءِ الْأَنْبَاءِ لَهَا حَسَبًا وَذِكْرًا ، وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي عَصَمَ بِهِ ، وَخَصَّ صَفْوَةَ الْخَلْقِ فِي الْمُصَاهَرَةِ بِاخْتِلَاطِ نَسَبِهِمْ بِنَسَبِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَسْتَوْنِقُ بِهَا الْأَسْبَابَ ، وَتَسْتَوَسِقُ الْأَنْسَابَ ، وَتَبْقَى أَنْوَارُهَا بِمُلْكِ أَنْبَاءِ الْمُلُوكِ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي الْأَعْقَابِ ، وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَلَمَّا جَمَعَ اللَّهُ بِمُلُوكِ الْبَيْتِ الشَّرِيفِ الْمَنْصُورِيِّ - كَثَّرَ اللَّهُ عَدَدَهُمْ - شَتَاتِ الْإِسْلَامِ ، وَحَمَّاءِ بَيَّوَارِقِ جِهَادِهِمْ مَا آمَنَدَ مِنْ ظَلَامٍ ، حَتَّى أَنْتَهَتْ النَّوْبَةُ إِلَى مَنْ أَصْبَحَتْ بِهِ الدَّوْلَةُ الْقَاهِرَةُ وَكُلُّ أَوْقَاتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحٍ ، وَتَوَارِيقُهَا ، وَسَمَاءُ سَمَاحٍ ، وَأَسْمَى نِعَمٍ لَا تُعَدُّ إِلَّا مَعَاقِدُ تَيْجَانِ الْمُلُوكِ عَلَى كُلِّ جَبِينٍ وَضَاحٍ ، الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْعَالِي الْمَوْلَوِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، النَّاصِرِيِّ ، زَادَ اللَّهُ شَرَفَهُ ، وَأَعْلَى عَلَى شُرَفَاتِ بُرُوجِ السَّمَاءِ غُرْفَهُ ، فَأَحَبَّ - لِمَا أَجْرَاهُ اللَّهُ بِهِ وَبِمَنْ سَلَفَ مِنْ مَلُوكِ بَيْتِهِ الشَّرِيفِ مِنْ تَأْيِيدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَتَأْيِيدِ مَا شَمِلَهَا بِفَتْوحَاتِهِمُ الْمُدْهَبَاتِ الْفُتُوحِ مِنْ سَوَائِغِ النِّعَمِ - أَنْ يَعْمَلَ بِقَوْلِ نَبِيِّهِ الْمُشْرِفِ بِمُوافَقَةِ أَسْمِهِ وَمُتَابَعَةِ حُكْمِهِ فِي التَّرْوِيجِ ، وَأَنْ تَقَعَ مَوَاقِعُ أَمْطَارِهِ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ حُرَّةٍ فَتُنْزِلَ كُلَّ زَوْجٍ بِرَيْحٍ . وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِ - أَدَامَ اللَّهُ سَعُودَهُمْ - مَنْ يُطِيعُ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَمْرَهُ الْعَالِي أَدَامَ اللَّهُ تَمَكُّنَهُ ، وَلَوْلَا هَذَا لَمَّا رَضِيَ سِوَى أَقْرَانِ الْفُرْسَانِ لَهُ قَرِينَهُ ، وَكَانَ مِنْ مُجَابِيهِمْ إِذَا

عَدَّتْ الأولاد ، وأَحَبَّائَهُمْ إِذَا كَانَ كَمَا يُقَالُ : الْوَلَدُ ثَمَرَةُ الْفُؤَادِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِمَجْلَتِهِمْ
بِحَالٍ ، وَلِدَوْلَتِهِمْ دَلَالٌ ، وَلِقَائِهِمْ أَمَدُ الْأَشْيَالِ - مَنْ يَعْتَرِفُ كُلَّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ،
وَيُؤْتِلُ فِي أَبْنَائِهِ مَا لِأَبْنَاءِ سَيِّدِهِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَاتِ تَسْلِيهِ .

بَرَزَ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، السُّلْطَانِيُّ ، الْمَلِكِيُّ ، النَّاصِرِيُّ ، أَنْفَذَهُ
اللَّهُ فِي الْأَقْطَارِ - بِأَنَّهُ يُغَيِّرُ لِمَقَرِّسِهِ الْكَرِيمِ ، وَتَسْبِيهِ الصِّمِيمِ ؛ وَصَبَّاحِهِ الْمُشْرِقِ ،
وَسَمَاحِهِ الْمُغْدِقِ ؛ فِصَادِفِ الْإِحْسَانِ مَوْضِعِهِ ، وَأَتَتْخَبَ لَهُ مِنْ مَشْرِقِ الْبَدْرِ التَّمَامِ
مَطْلَعَهُ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ الْبَحْرُ الرَّانِحُ
وَمِنْ مَكُونِهِ يُسْتَخْرَجُ الْخَيْرُ الثَّمِينِ ؛ فَبَادِرِ الْخَاطِبِ إِلَيْهِ إِلَى آغْتِنَامِ هَذَا الشَّرَفِ
الَّذِي لَا يُطَاوَلُ ، وَعَاجِلِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَصَدَقَاتُ سُلْطَانِهِ - خَلَّدَ اللَّهُ
مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحَاوَلُ ؛ وَقَالَ : إِنْ رَضِيتَ تِلْكَ السُّتُورَ بِهَذِهِ الْمَخْطُوبَةِ ،
أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ الْعَلِيَاءُ هَذِهِ الْمَحْجُوبَةَ ؛ فَهِيَ لِمَا أَهَلَّتْ لَهُ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ الْمَقَامِ
الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَالِكُهَا الْمُتَصَدِّقُ مِنْ ذَوَاتِ الْعِفَّةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ
الْيَمِينُ ؛ فَأَتَمَّتِ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةُ عَوَارِفَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رَتَبَةِ
الْفَخَارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ؛ وَشَرَّفَتْهُ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ
مِنَ الْمَقَامِ الْكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ الْعُقُودِ وَلَا كَيْدٍ وَلَا كِرَامَةٍ لِمَا يَنْجَلِي بِهِ
الْلَيْلُ الْبَهِيمُ ، وَلَا لِمَا يَقْحَلُ فِي جِيدِ الْجَوَازِ مِنْ عِقْدِ دُرِّهَا النَّظِيمِ ؛ وَلَوْلَا إِجْلَالُ
الْمَقَامِ عَنِ التَّطْوِيلِ لِمَا أَخْتَصَرَ الْقَائِلُ فَقَالَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَصْدَقُ
.....

الطرف الثاني

(في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم)

وهي على نحو من الصدقات الملوكية في الترتيب، إلا أنها أخصر، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أرباب السيوف والأقلام .

(١)
وهذه نسخة صدق جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب] على بنت بيدمر العمرى، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، وهي :

الحمد لله مبلغ كل أمل ما يرجوه، ورأى ذم من لم ينسوا عهده ولم يخلفوه،
ومكمل الخير لكل ذى ^(١) يصد من يخفوه، ومجيب كل منيب يدعو قائما
وقاعدا : (ولما قام عبد الله يدعو) .

نحمده حمدا نكرر فضله وتتلوه، ونحل معضله ونجمله؛ ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة يتظافر عليها الأمر المسلم وبنوه، وتبيض بها وجوه
الأوداء، وتسود وجوه الأعداء، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه؛ ونشهد أن سيدنا
محمدا عبده ورسوله الذي ساعد به ذووه، وصعد قدر صهره وحموه، وشرف نسباً
ما ألتقى فيه على سفايح هو ولا أولوه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال
بها الروض الأرج يقوه، والسحر يبلغها ولو سكت وختم بالبرق فوه؛ وسلم تسلياً .

وبعد، فإن أزهى زهر طاب مجتنوه، وطال باعاً في الفخار مجتنوه؛ زهر كلمة
جرت عنها لامة كبرى، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذى أنف حمى؛ وطلعت
من أفق بدرى طالما سنع مجتنوه، وحمى سيف أمين في كلته بكلائته مجتنوه .

وكان الجَنَابُ الجَمَالِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ المَرْحُومِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي سَعِيدٍ أَمِيرِ حَاجِبٍ ،
 أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى عُلَاهُ ، وَرَحِمَ أَبَاهُ ، هُوَ وَلَدَ ذَلِكَ الْوَالِدِ ، وَطَارِفَ ذَلِكَ التَّالِدِ ؛ وَتَشَوَّ
 هَذِهِ الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ الْكَامِلِيَّةَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا حَظَّهُ بِالتَّمَامِ وَالْكَامِلِ ، وَأَصْبَحَتْ بِهِ
 كَالْعَادَةِ الْحَسَنَاءِ ذَاتِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ ؛ وَلَمْ يَمُتْ أَبُوهُ فِي أَيَّامِ سُلْطَانِهَا - خَلَّدَ اللَّهُ
 مُلْكَهُ - حَتَّى قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ ، وَسَاوَاهُ فِي الْإِمْرَةِ لَوْلَا تَفَاوُتُ الْعِدَّةِ وَقِدَمُ الْمُدَّةِ بَيْنَهُ
 وَبَيْنَهُ ؛ وَجَاءَ مِنْهُ وَلَدٌ نَجِيبٌ ، وَأَبْنٌ شَاعٌ وَذَاعَ سِرُّ أَبِيهِ وَحُمِدَ وَهَذَا عَجِيبٌ !!! .
 وَلَمَّا انْتَقَلَ وَالِدُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ ، وَشَرِبَ بِالكَأْسِ الَّذِي لَا بُدَّ لِكُلِّ
 حَيٍّ مِنْ شُرْبِهِ - تَطَلَّبَ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَبِ وَلَمْ يَزَلْ يَجِدُهُ حَتَّى وَجَدَ ، وَظَفَرَ بِوَالِدٍ إِنْ
 لَمْ يَكُنْ وَلَدَهُ حَقِيقَةً فَإِنَّهُ عِنْدَهُ مِثْلُ الْوَلَدِ ؛ وَهُوَ الْمُقَرَّبُ بِدَمَرٍ ، وَهُوَ الْوَالِدُ الَّذِي لَمْ يَفْقِدْ
 مَعَهُ مِنْ وَالِدِهِ ذَرَّةً ، وَالْأَبُ الَّذِي هُوَ أَرَأْفُ مِنْ كُلِّ أُمِّ بَرٍّ ؛ وَالنَّيِّرُ الْبَصِيرُ الَّذِي
 سَعَدَ قِرَانًا ، وَصَعِدَ وَدَّاسَ بِقَدَمِهِ أَقْرَانًا ، وَقَسَمَ دَهْرَهُ شَطْرَيْنِ : نَهَارَهُ لِلضُّيُوفِ قَرَى
 وَلَيْلَهُ لِلَّهِ قُرْآنًا .

هَذَا إِلَى أَنَّهُ طَالَمَا طَيَّبَ لِرِكَاتَةِ أَمْوَالِهِ وَثَمَرَهَا ، وَزَيَّنَ فِي أَعْمَالِهِ بِمَدْرَسَةِ عَمْرَهَا ،
 وَقَيَّدَ شَوَارِدَ حَسَنَاتِهِ وَتَقَفَّهَا ؛ مَعَ أَنَّهُ شَيَّدَ الْمَمَالِكَ وَسَدَّدَ أُمُورَهَا ، وَسَدَّدَ ثَغُورَهَا ؛
 وَحَمَى بَيَاضَ سُيُوفِهِ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ ، وَرَمَى بِصَوَابِ سِهَامِهِ النَّوَائِبَ وَلَمْ تُسْتَغْظَمْ ؛
 وَلَمْ تَزَلْ تُؤَبِّ الأَيَّامَ تُجَرَّبُ مِنْهُ مِسُورِيَا ، وَتُجَرَّدُ حُرًّا كَرِيمًا جَاءَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ صَفْرًا
 بِدَرِيَا ؛ فَكَانَ مِنْ تَمَامِ بَرِّهِ بِمَنْ سَلَفَ إِجَابَةُ وَلَدِهِ ، وَإِجَالَةُ الرَّأْيِ فِيمَا يَكُونُ سَبَابًا
 لِصَيَانَةِ عِزِّهِ وَذَاتِ يَدِهِ ؛ فَانْعَمَ لَهُ بِعَقِيلَتِهِ الْمُتَمَنِّعَةِ ، وَرَبِيبَتِهِ الَّتِي غَدَّتِ الشَّمْسُ مِنْهَا
 سَافِرَةً مُقَنَّنَةً ؛ وَقَالَ : عَلَى الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ ، وَأَبْنُ أَخِي كَرِيمٌ وَجَدَعَ الْحَلَالَ أَنْفَ الْغِيَرَةِ ؛
 وَمَا أَسْنَى عَقْدًا يَكُونُ مُتَوَلِّيهُ ، وَمُنْشِئُهُ إِحْسَانًا مِنْهُ وَمُسْنِيهِ ؛ مَوْلَى بِهِ نُظِمَتْ عَقُودُ
 اللَّالِي ، وَرُقِيتْ بَعْلَمِهِ أَعْلَامُ الأَيَّامِ وَذَوَائِبُ اللَّيَالِي ؛ وَسَأَمْتُ الْقَضَايَا بِهِ إِلَى مُنْقَذِ

أحكامها، ومَنِيْلَ الْفَضْلِ لِحُكْمِهَا؛ الْبَحْرَ الرَّانِحَ، وَالنَّجْمَ الَّذِي تَمَّ تَرْكُ الْأَوَّلِ مِنْهُ
لِللَّاحِقِ؛ وَالْعَامَ إِلَّا أَنَّهُ قَضَتْ صَوَاعِقُهُ عَلَى الْخُصُومِ، وَالْإِمَامَ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ
السُّنَّةُ وَلَمْ تُشْكِرِ الشَّيْعَةُ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ؛ وَالْعَالِمَ الَّذِي مَا رَحَتْ بُرُوقُهُ نُشَامَ، وَحُقُوقُهُ
عَلَى أَهْلِ مِصْرَ وَالشَّامِ؛ وَالَّذِي وَلَّى الظُّلْمَ مُنْذُ وَلَّى، وَأَعْتَرَفَ ذُووُ الْفَضْلِ وَالْفَضْلُ
فِي الْقَضَاءِ أَنَّ أَتْقَاهُمْ تَقَى الدِّينَ وَأَقْضَاهُمْ :

قَاضِي الْقَضَاةِ أَبُو الْحَسَنِ * بَيْقَاتِهِ يُجَلِّي الْحَزْنَ ،
و [هُوَ] الَّذِي فِي حُكْمِهِ * يَجْرِي عَلَى أَقْوَى ^(١) [سُنَنِ] !
طَوْدٌ إِذَا وَازَنَتْهُ * بِالطَّوْدِ فِي حُكْمٍ وَزَنَ !
وَالْبَحْرُ طَى رِدَائِهِ * قَلْدُ الْعُقُودِ بِلَا ثَمَنِ ^(٢) !

فَاضَاءُ الْمُخْفَلِ بِهِ وَبِالْحَاضِرِينَ ، وَقَامَ شِعَارُ الدِّينِ حَتَّى قَالَ الْقَائِلُ : هَذِهِ سَيُوفُ
الْمُجَاهِدِينَ وَهَذَا سَيْفُ الْمُنَاطِرِينَ ، وَقِيلَ : هَذَا وَقْتُ جُودٍ قَدْ حَضَرَ ، وَمَوْضِعُ
سُرُورٍ يَنْبَغِي أَنْ يُعْجَلَ مِنْهُ مَا يَنْتَظَرُ ، فَأَبْتَدَأَ السَّعْدُ حِمَاهُ الْوَسِيمَ ، وَأَفْتَحَ فَقَالَ :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا



وَهَذِهِ نَسْخَةُ صَدَاقِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَطِيرِيِّ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمُتَقَرِّ الشَّهَابِيِّ بْنِ
فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَادَ الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبًا ، وَزَانَ الْأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصَلَةٍ نَتَأَكَّدُ
حُبًّا ، وَصَانَ كَرَامَتِ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ الْفَخَارِ بِمَنْ يُنَاضِلُ عَنْ حَسَبِهِ ذَبًّا ، وَنُيَاطِرُ الْعُلَيَاءِ
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ بَيُوتًا وَلَمْ يُسَبِّلْ سِوَى السُّمْرِ سُمْرًا لَقْنَا مُجْبَا .

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من المقام .

(٢) بمعنى جمع .

نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ دَعَاهُ قَبْلَ بَثِّ النَّسَمِ فَلَبَّى ، وَأَسْتَدْعَاهُ لِأَخْذِ الْعَهْدِ عَلَيْهِ أَمَامَ
تَفْرِيقِ الْقِسَمِ فَمَا تَأْتِي ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسْتَنْطِقُ
السَّنَةَ وَتَشْكُرُ قَلْبًا ، وَتَسْتَغْدِقُ أَنْوَاءَ السُّرُورِ فَتُضِيءُ الْبَشَائِرَ بُرُوقًا وَتُمْطِرُ الرَّحْمَةَ سُحُبًا ،
وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَامَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ حَتَّى زَادَ عَدَدُهَا عَلَى مَوَاقِعِ
الْقَطْرِ وَأَرْبَى ، وَقَالَ مِمَّا أَمَرَ بِهِ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى أَقْرَبَانِهِ صَلَاةً تَضُمُّ آلًا وَصَحْبًا ، مَاسَارَتِ الشُّهْبِ
تَقَطُّعِ الْآفَاقِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسَلَمَ تَسْلِيمًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَشْتَبَكَ وَشَبَّحَهُ ، وَأَشْتَبَهَ فِي مَنَائِبِ الْإِيكَ بِهِجْهُ ، وَأَنْتَبَهَ
فِي أَرَائِكَ الْخَمَائِلَ أَرِيحُهُ ، وَأَنْتَدِبَ لِإِتْيَانِهِ الْأُفُقَ وَظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَبِ الْعِشَاءِ تَمْوِيهُ
وَمِنْ لَمَعِ الصَّبَاحِ تَذْيِجُهُ - مَا أَتَبَعَتْ فِيهِ الشَّرِيعَةُ الْمَطْهَرَةَ حَيْثُ لَا تَخْتَلِفُ الْأُمَّةُ ،
وَالسَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى مَنْ سَنَاهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فِيمَا تَأْتِلُفُ بِهِ الْبُعْدَاءُ وَتَكْثُرُ
لِمَبَاهَاتِهِ الْأَنْبِيَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتَدْنُو بِهِ الْأَجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَجْعَلُ
بَيْنَهُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، وَتُعَدُّ بِهِ أَيَادٍ جَمَّةٌ لَا تُحْصَرُ وَيُحْلَدُّ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ
وَيَتَجَلُّ بِهِ شَرَفُ النِّعَمَةِ ، وَهُوَ النِّكَاحُ الَّذِي تَشْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ
لِتَمَثِيلِ أَكْثَرِ الصُّوَرِ مِنْ أَرْزَاقِ الْعَنَاصِرِ ، وَتَمْتَدُّ بِهِ هِمُّ الْأَبْطَالِ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِحَفْدَةِ
أَنْبِيَائِهِ مِنْ أَتَمِّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَكْمَلُهُ مَا تَمَثَّلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الْعَرَبِيَّةِ وَجُوهُ
نَخَارِهِ ، وَتَقَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ - حَيْثُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَالشَّرْفُ الْخَطِيرُ - مَشَارِقُ
شُمُوسِهِ وَمَطَالِعُ أَفْقَارِهِ .

وَكَانَ الْأَبْوَانُ فِي أَهْلِ الْفَخَارِ مِنْ جُرُومَةٍ بَسَقَا ، وَأَرْوَمَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُهَا
ثُمَّ تَلَاقَتْ مِنْهَا غُصْنَانِ وَأَعْتَقَا ، مِنْ بَيْتٍ مَا حُجِّبُهُ إِلَّا مَوَاضِي الصِّفَاحِ ، وَلَا شَبَّهَهُ

إلا طلائع الأستة في رؤوس الرماح، ولا سحبه إلا ما يفيض على جنباته من النفوس
 أو يفيض من السماح، ولا سحبه إلا المناقب لولا أن الثريا جاذبت ما يفيض
 في السماء أثناء الوشاح، وكان هو الراغب إلى عمه، الخاطب إليه ما لم يكن محبوباً
 إلا لقسمه، الطامح بنظره إلى عقيلة الفخار في غر فيها، الطامع بخطبة الشمس شمس
 النهار إلا أنها في بيت شرفها، المتوقع من كرم عمه الإجابة التي لحظها بأمله، وتولية
 يد كريمة لا يعتدل الزمان إلا إذا حلت شمسها في بيت حملة، توقفاً لنسل لا يزال به
 شرف هذا البيت الكريم موجوداً، ونسب إذا عدّ ولد منه الآباء عدّ جدّين سعيدين
 هذا مسعوداً وهذا محموداً، فتلقي قصده بأكرام بؤاه أكاف الشرف، وأوطاه
 فرش الكرامة متمتعاً بنعيم الترف، ابتداءً للكرم المألوف، وأتباعاً للسنة الشريفة
 إذ كان الأقربون أولى بالمعروف.

فبارياً جوداً سارع كل منهما في أداء حقه إلى الواجب، وتجارياً إليه ليُلحقا
 شأواً أبويهما وكل منهما يعلم أنه العين والعين لا ترتفع على الحاجب، وأتمّ الجناح
 الشرفي محمود - أدام الله نعمته بحسن إجابته، ويمن رغبته في أهل غضبته، وأهل
 جنوده إلى أن ساروا إلى الهجاء تحت عصايته - بأن فوض هذا الأمر إلى أخيه
 الكبير والد الخاطب، وسكت وقال: هو في التصرف وعنّي الخاطب، وله الأمر
 ولولا الشرف بنسبة الأخوة إليه لما قلنا: إلا أننا ملك يده، وإذا كان العم صنو
 الأب فأى فرق بين ولدي وولده؟، ولئن آخض في نسبة هذه الزوجة في يومه هذا
 فإن أولادها لا تعرف إلا به في غده، فكل هذا العقد، وأشرق به السعد الطالع
 أضواً ممّا قدم وأخر من النقد، وكان من تمام التكريم، أن قال قائله:

بسم الله الرحمن الرحيم



وهذه نسخةُ صداقِ القاضى تَقَى الدِّينَ ، وهى :

الحمد لله الذى رَفَعَ إلى المَنَازِلِ العَلِيَّةِ من كان تَقِيًّا ، وَجَمَعَ شَمْلَ من لم يَبْرَحْ لِسَنَنِ
السَّنَنِ تَابِعًا وبها حَفِيًّا ، وَخَلَعَ أَثْوَابَ الثَّوَابِ عَلَى من سَرَحَ طَرَفَ طَرَفِهِ فى رَوْضِ
التَّاهُلِ وجعله وَضِيًّا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِى مِنْ هَرَجٍ جَدَعَتْهَا تَسَاقَطَ عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا ، وَتَشْكُرُهُ عَلَى
فَضْلِهِ الَّذِى كَمْ أَجْرَى لِقَاصِدِهِ مِنْ بَحْرِ المعروف سَرِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَمْنَحُ قَائِلَهَا فى غُرَفِ الْجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا
عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِى آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وجعله نَبِيًّا ، الْأَمْرَ أُمَّتَهُ بِالنِّكَاحِ لِيُكَاثِرَ بِهِمُ الْأُمَّةَ
يَوْمَ يُقَرَّبُهُ اللَّهُ نَجِيًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ يُحَلُّ مِنْهُمْ فى حَالَتِى
الْكَرَمِ وَالْكَرَامَاتِ وَلِيًّا ، مَا أَطْلَعَ التَّوْفِيقُ فى آفَاقِ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْأَنْسَابِ الْكَرِيمَةِ
كَوْجًا دُرِّيًّا ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلَى السَّنَنِ بِالْإِتِّبَاعِ سُنَّةُ النِّكَاحِ ، الَّتِى أَخْفَى نُورُ مُصْبِحِهَا شَمْسَ
الصَّبَاحِ ، وَخَفَقَتْ عَلَى مَعَالِمِهَا أَعْلَامُ النِّجَاةِ وَالنَّجَاحِ ، وَحَمَدَ الْمَسِيرِ إِلَى رُبُوعِهَا الْآهَلَةِ
بِأَهْلَةِ الْعِصْمَةِ فى الْغُدُوِّ وَالرَّوْحِ ، يَالَهَا سُنَّةُ سُنَّةٍ وَجْهَهَا جَمِيلَةٌ ، وَأَصَابِعُ نَيْلِ نَيْلِهَا
بِلِ أَيْدِيهِ جَزِيلَةٌ ، بِهَا تُنْحَى أَشْجَارُ النَّسَبِ وَيَطْيَبُ جَنَاهَا ، وَتَبْلُغُ النُّفُوسُ مِنَ الصِّيَانَةِ
أَقْصَى مُنَاهَا ، وَيُظْفَرُ أَوَّلُ الرِّغْبَةِ فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتُؤَلَّفُ بَيْنَ مَنْ لَوْ أَنْفَقَتْ
مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِى تُكَثِّرُ سَوَادَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَالذَّرِيعَةُ إِلَى [بَقَاءِ] النَّوْعِ الَّذِى أَظْهَرَ اللَّهُ فى سَمَاءِ التَّكْرِيمِ نَجْمَهُ ، وَإِلَيْهَا الْإِشَارَةُ
فى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۝ ﴾ .

ولما كان كذلك رَغِبَ في أَقْتِنَاءِ آثَارِهَا ، وَاهْتَدَى بِالصَّوْنِ اللَّامِعِ مِنْ أَفْهَارِهَا ؛ مَنْ
يَتَشَرَّفُ الْمَكَانُ بِذِكْرِ وَصْفِهِ ، وَيَتَعَطَّرُ مَا انْتَشَرَ فِي طَيْبِهِ مِنْ طِيبِ عَرْفِهِ ؛ مَا جَدَّ
عَمْرَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ بِدَوَامِ دَيْمِهِ ، وَجَوَادُ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ إِلَّا لِيَقْتَنِسَ مِنْ كَرَمِهِ ؛
وَرِئِيسُ أَمْتِطَى ذِرْوَةُ الْعُلَيَاءِ بِحُسْنِ السُّلُوكِ ، وَارِيحِي لَوْ لَمْ يَكُنْ صَدْرًا لِمَا أُودِعَ سِرُّ
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أُبْرَزَ لَكَ الْخَوْهَرُ الْمَصُونُ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّكَتْ لُبْكَاءُ قَلَمِهِ تُغَوِّرُ
التُّغَوَّرُ وَالْحُصُونُ ؛ لِلَّهِ تَسْبِيحُهُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأَكْبَارِ الْأَعْيَانِ ، وَبَيْنَهُ الْمَعْمُورُ بِالْعَيْنِ
الْمَرْفُوعُ خَبَرُهَا إِلَى فِتْيَانٍ ؛ نَخَطَبُ مِنْ عِلَّا قَدْرُهَا ، وَأَشْتَهَرُ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛
وَجَلَّتْ عَنْ أَنْ تَرَى الْعُيُونُ لَهَا فِي الصُّونِ شَيْبَهَا ، وَعَمَّتِ الْبِقَاعُ سُحْبُ بَرَكَةِ أَبِيهَا ؛
أَكْرَمَ بِهِ عَلِمًا عَامِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَزَلْ يُنْدَى فَضْلًا وَيُسَدَّى نَائِلًا ؛ كَمْ لَهُ مِنْ آثَارِ
مَشْهُورِهِ ، وَمَنَاقِبِ مَأْثُورِهِ ، وَصَدَقَاتِ مَبْرُورِهِ ، وَمَوَاطِنِ بِذِكْرِ اللَّهِ مَعْمُورِهِ .

فَقُولِ بِالْبِشْرِ قَوْلَ رَسُولِهِ ، وَرَدِّ رَائِدَهُ مُحِبًّا بِلُؤْغِ سُؤْلِهِ ؛ وَقِيلِ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ ، :
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْآمَالَ ؛ يَا لَهُ عَقْدًا غَلَّتْ جَوَاهِرُ عُقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ
الْإِتِّفَاقِ أَهْجُمُ سُعُودِهِ ؛ وَمَيَّالَتْ قُدُودُ أَغْصَانِ الْأَفْرَاحِ ، وَزَهَتْ مَجَالِسُ الشُّرُورِ
بِالْإِنْشِرَاحِ ؛ وَهَبَّتْ قُبُولُ الْإِقْبَالِ ، وَقَامَ الْقَلَمُ خَطِيبًا عَلَى مِنْبَرِ الطَّرْسِ فَقَالَ :

هذا ما أصدق



وهذه نسخةٌ صدَّقَ من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفديّ ، للقاظي بدر الدين
خَطِيبِ بَيْتِ الْآثَارِ ، عَلَى بِنْتِ شَمْسِ الدِّينِ الْخَطِيبِ مِنْ بَيْتِ الْآثَارِ ، تُسَمَّى
سُؤْلِي ، فِي مُسْتَهْلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فِي مَجْلِسِ مَوْلَانَا
قَاضِي الْقَضَاةِ تَقِيّ الدِّينِ السُّبُكِيِّ الشَّافِعِيِّ ، أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذى زينَ سماءَ المعالي ببدرها ، وأثبتَ فى رياضِ السَّعادةِ يانِعَ زهرها ،
وَأَلْهَمَ ذَوِي الْهِمَمِ أَنْ يَبْذُلُوا فى الْكَرَامِ غَوَالِي مَهْرها .

نحمده على نِعَمِهِ التى حَلَّتْ ما ضَفَا من لِبَاسِها ، وَسَوَّغَتْ ما صَفَا من رُضَابِ
كَاسِها ، وَخَصَّنَا بِمَا عَمَّتْ به من أنواعِ أَجْناسِها ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ
لا شريكَ له ، أَعْلَمُنَا فى الإِيمَانِ نَصْها بالأداء ، وَبَنَى أَسْمَها على الفَتْحِ كما فُتِحَ
المُضَافُ فى النِّداءِ ، وَرَفَعَ خَبَرها : إِمَّا على رَأْيِ الرُّوَاةِ للشُّهرةِ وإِمَّا على رَأْيِ النُّحَاةِ
بِالابتداء ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذى شَرَعَ النِّكَاحَ لهذه الأُمَّةِ ،
وَمَنَعَ السَّفَاحَ فلم يكنْ أَمْرُنَا عَلَيْنَا عُمَةً ، وَنَهَجَ الصُّوَابَ فَمَا ظَنَنْكَ بالصَّبَاحِ إِذَا أَبْتَلَجَ
عَقِيبَ اللَّيْلِ الْمُدْهِمَةِ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَلَقَّوْا أَوَامِرَهُ بالطاعةِ ،
وَأَجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ حَتَّى بَلَّغُوا جُهْدَ الاسْتِطَاعَةِ ، وَفَهِمُوا مُرَادَهُ بِمُكَاتَرَةِ الأُمَمِ فَكَانَ
البِضَاعُ عِنْدَهُمْ خَيْرَ بِضَاعَةٍ ؛ صَلَاةَ رِضْوَانِها يُضِيءُ إِضَاءَةَ الْكَوَاكِبِ فى أَبْرَاجِها ،
وَعُفْرَانُها يُكَاتِرُ الْيَحَارَ فى أَعْدَادِ مَوْجِها ؛ مَا اتَّصَلَ سَبَبٌ بِالنِّكَاحِ ، وَأَنْفَصَلَ نَسَبٌ
بِالسَّفَاحِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعدُ ، فإنَّ النِّكَاحَ من مَحَاسِنِ هذا الدينِ الثِّقَمِ ، وَفَضَائِلِ هذا الشَّرْعِ الذى
لا زالَ شَرْفُهُ بَدْرًا بينَ مُشْرِقاتِ النُّجُومِ وهو مُخَيِّمٌ ؛ بِهِ يُحْفَظُ النِّسَبُ الشَّرُودُ ، وَيُرْعَى
عَهْدُ الْقَرِينَةِ الْوُلُودِ الْوُدُودِ .

وَكَانَ فُلَانٌ مِمَّنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ ، وَابْنٌ ما أَوْدَعَهُ من نَفَائِسِ الْعُلُومِ وَحَبَاهُ ؛ تَصَدَّرَ
فى الْمَجَالِسِ ، وَدَرَسَ فى الْمَدَارِسِ ، وَأَوْرَدَ ما عِنْدَهُ من النِّفَائِسِ ؛ كَيْفَ لا ؟ وَهُوَ
سِبْطُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ وَإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَاضِ قُضَاةِ الشَّافِعِيَّةِ وَأَوْحِدِ الْمُجْتَهِدِينَ ؛
وَقَدْ أَرَادَ الْآنَ إِحْصَانَ قُرْجِهِ ، وَأَنْ تَنْزِلَ الزُّهْرَةُ مَعَ بَذْرِه فى بُرْجِهِ .

فلذلك رَغِبَ إلى المَجْلِسِ العَالِي (المسمى) وَخَطَبَ الجُوهَةَ المَصُونَةَ المَحَجَّةَ ،
النَّقِيَّةَ ، النَّقِيَّةَ ، العَفِيفَةَ ، الخَاتُونَ ، غُصْنَ الإسلام ، شَرَفَ الخَوَاتِينَ ، جَمَالَ ذَوَاتِ
السُّتُور ، قُرَّةَ عَيْنِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ، السَّيِّدَةَ "سُؤلى" بِنْتَ فُلَانٍ ، صَانِ الله
جَجَابَهَا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصْدِهِ ، وَحَبَاهُ أَنْفَسَ دُرَّةٍ فِي عِقْدِهِ .

فلذلك قام خَطِيبُ هذا الحَفْلِ الكَرِيمِ ، والنَّجْمُ الذِّى لم يَزَلْ نَجْمُهُ بِالطَّالِعِ المُسْتَقِيمِ ،
وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم *



قلتُ : وهذه نسخةُ صَدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَدَقَةِ السَّيْنِيّ أَزْدَمَر ، عَلَى بِنْتَ أَمِيرِ
المُؤْمِنِينَ «الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ» . أَشْأَتْهُ لَهُ فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا المُسْتَعِينِ بِاللَّهِ العَبَّاسِيّ ، وَهِيَ :
الحَمْدُ لِلَّهِ مُسْتَخْرِجِ الدَّوْحَةِ الهَاشِمِيَّةِ مِنْ أَطْيَبِ العَنَاصِرِ ، وَمُقَرِّعِ النَّبْعَةِ العَبَّاسِيَّةِ
مَنْ أَكْرَمَ صِنُوفِهَا أَنْعَقَدَتْ عَلَى فَضْلِهِ الخَنَاصِرِ ، وَمُخَصِّصِ بَيْتِ الخِلَافَةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ
جَانِبٍ ذَلَّتْ لِعِزِّهِ عُظَمَاءُ المُلُوكِ مَا بَيْنَ مُتَقَدِّمٍ وَمُعَاصِرِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عَقَائِلَ الخُلَفَاءِ بِمَعَاوِلِ الحَسَبِ ، وَحَصَرَ كَفَائَتَهَا فِي العِلْمِ والدِّينِ
حَيْثُ لَمْ يُكَافَأْ بِحِرْفَةٍ وَلَا نَسَبٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الذِّى
سَنَّ النِّكَاحَ وَشَرَعَهُ ، وَأَرْغَمَ بِالْحِلِّ أَنْفَ الْغَيْرَةِ لَدَى الْإِبَاءِ وَقَمَعَهُ ؛ شَهَادَةً يُسْتَشَقُّ
مِنْ رِيَاءٍ عَمِيرِهَا كُلُّ شَيْءٍ أَرِيحُ ، وَتُجَنَّبُ ثِمَارُ نَيْعِهَا بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
بِهَيْجٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ وَفَرٌّ فِي الْفَضْلِ سَهْمُهُ حَتَّى لَمْ
يُسَاهَمْ ، وَأَكْرَمُ رُسُلٍ رَخَّصَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ صَحَابِهِ وَإِلَّا فَايَنْ كُفَّ رُسُلُ اللَّهِ
مِنْ الْعَالَمِ ؟ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَنَ الصَّنْهَرِ

بالنسب فيهم نخص مصاهرته أخصهم به ؛ صلاة تصل سبب قائلها بسببه ،
وتجعل الفخار بها كلمة باقية في عقبه ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى ما أطل فيه المطيل ، وشيخ في وصفه الذهن الكليل ، ورقبت
محاسن ذكره على صفحة النهار بذائب ذهب الأصيل - ما توصلت به الأنساب ،
وتوصل بواسطته في دراري الذراري إلى شرف الأحساب ؛ وتوقرت عليه الدواعي
فأشتدت به الأواصر ، وحسنت في طريق قصده المساعي فتأكدت به المودة
في البواطن والظواهر . وهو النكاح الذي ندب الله تعالى إلى معاطاته ، وحض
على التحلي بجماله حتى ألحقه بالعبادة في بعض حالاته ؛ طلباً للتخصيص الكافل بسؤالك
نهج الاستقامه ، ورغبة في تكثير النسل الواقع [به] مكثرة الأثم يوم القيامة .

هذا وكرائم بيت الخلافه ، وربائب محمد المجدي والإناثه ؛ في حيز لو طلب مناو
مكافأتها لطلب مغوزا ، أو رام مقاوم مضاهاتها في علو الرتبة لرام معجزا ؛ لما
أختصت به من السيادة التي لا يُرقى إلى منزلتها ، والمعالي التي لا تسمو النفوس
وإن شمتحت إلى رتبها ؛ إذ كان النظر لشرف أرومتها ممتنعاً ، والنقيض بما ثبت من
طيب جرئومتها مرتفعاً ؛ فبرق معاليها في التطاول لا يسام ، وجوهر نغارها في المآثر
لا يسام ولا يسام ؛ فعز بذلك في الوجود مكافئها ، وأمتنع - خوف الهجوم بالاختطاب -
موافيها ؛ إلا أن المواقف الشريفة المقدسة المتوكلة - زاد الله تعالى في شرفها ،
وأدام رعايتها بحلة الملوك وحمايتها وكنفها - مع ما انفردت به من العز الشاخي الذي
لا يساوى ، والشرف الباذخ الذي لا يتاوى ؛ قد رغب تفضلها في أهل الفضل فقال
إليهم ، وأختص بإقباله أهل الدين فأقبل بكليته عليهم ؛ محلاً لهم من شريف مقامه
العلي محل الاصطفاء ، ومقدماً لهم في المصاهرة على أبناء الملوك والخلفاء ؛ فوافق

فِي الْفَضْلِ شَنْ طَبَقَهُ ، وَحَاوَلَ سَارَةَ النَّعْمِ مِنْهَا خَيْرُ خَاطِبٍ فَلَقِيَ بِقَبُولٍ : إِنَّ اللَّهَ
تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِصَدَقِهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَبْتَدَرَ الْقَلَمُ مِنْبَرِ الطَّرْسِ نَحَطَبَ ، وَخَطَبَ بِالْحَمْدِ
لِسَانُهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصْدَقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْأَمِيرُ ، الْكَبِيرُ ،
السَّيِّخُ ، الْإِمَامُ ، الْعَالِمُ ، الْعَامِلُ ، الْعَابِدُ ، الْخَاشِعُ ، النَّاسِكُ ، الْبَلِيغُ ،
الْمُقَوِّهِ ، الصَّدْرُ ، الرَّئِيسُ ، الْأَصِيلُ ، الْعَرِيقُ ، الرَّيُّ ، أَبُو الْمَعَالَى صَدَقَةُ -
الْجِهَةِ الشَّرِيفَةِ الْعَالِيَةِ ، الْكُبْرَى ، الْمَعْظَمَةُ ، الْمُحَجَّجَةُ ، الْمُصُونَةُ ، سَلِيلَةُ الْخِلَافَةِ ، فَرَعُ
الشَّجَرَةِ الزَّكِيَّةِ ، جَلِيلَةُ الْمَصُونَاتِ ، جَمِيلَةُ الْمُحَجَّجَاتِ ، سَارَةُ ، الْبَكْرُ الْبَالِغُ ، ابْنَةُ سَيِّدِنَا
وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمُقَدَّسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِي ، السَّيِّدِي ، الْإِمَامِي ، النَّبَوِي ،
الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ" أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أبنِ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِي ،
الْإِمَامِي ، الْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٌ" بنِ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْنَى بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ
سُلَيْمَانَ" أبنِ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدٌ" لَا زَالَ شَرَفُهُ بِإِذَاخَا ، وَعِرْنَيْنُهُ
الشَّرِيفُ شَامِخَا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنْقِبَةٍ نَاسِخَا - صَدَاقًا جُمْلَتُهُ كَذَا وَكَذَا ،
زَوْجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقَبْلَهُ فَلَانٌ ؛ وَتَمَّ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةً
شُرُوطُهُ وَلَوَازِمُهُ ، مُبَارَكَةً عَوْدُهُ وَنَمَائِمُهُ ، مَيْمُونَةً فَوَائِحُهُ وَخَوَائِمُهُ ؛ مُفْتَتَحَةً بِطَيْبِ
الْعَيْشِ أَزَاهِرُهُ مُفْتَرَّةً عَنْ [نَوْرِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا مَنَّهُ .

الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيه ،
ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين)

الصنف الأول

(الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس -
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك ، وجرت العادة أن يكون
ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في قرحة الشامي أو نحوها من البلدي ،
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرًا متوالية ، بين كل سطرين نحو أصبع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه
وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن
أبي الحسن الشهير بابن الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه نجر الإسكندرية ،
وأنا مقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي
الكامل ، وسني يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلًا من الله ونعمة .

وَسُخِّتْهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مَقْدَارًا ، وَأَجَزَلَ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَعْلَى لَهُمْ مَنَارًا ، وَوَفَّقَ
بِسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ آقَدَى بِهِمْ إِيْرَادًا ، وَإِصْدَارًا ، أَشْرَعَتْ هِمَمُهُمُ الْعَلِيَّةُ فِي حَابَةِ
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحَلَّوْا بِالْمَفَاخِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا إِسْرَارًا ،
أَبْرَزَ بِهِمْ فِي هَالَاتِ الْمَفَاخِرِ أَقْفَارًا ، وَأَزَالَ بِضْيَاءَ عُلُومِهِمْ رَيْبَ الشَّكِّ حَتَّى عَادَ لَيْلُ
الْجَهْلَةِ نَهَارًا ، جَعَلَهُمْ لَدَيْهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُجَبَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ
أَسْرَارًا ، وَأَخْصَصَهُمْ بِكُونِهِمْ وَرَثَةَ أَنْبِيَائِهِ : وَنَاهِيكَ بِهَا نِفَارًا .

أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ مِنْ هُدَى إِلَى الْحَقِّ بِفَعْلِهِ شِعَارًا ، وَاسْتِضَاءَ بِنُورِ الْهُدَى فَلَجًّا إِلَى
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ أَفْقَارًا ، وَعَجَزَ عَنْ شُكْرٍ مَا أُسْدَى إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لِمَا تَوَالَى
عَلَيْهِ وَبَلَّهَا مِذْرَابًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصَدِيقًا وَإِقْرَارًا ،
وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ عِدَّتْ جِهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ اسْتِجَارًا ، فَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْتِصَارًا ، وَقَهَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ اغْتِرَارًا ،
وَأَتَمَدَ بِضْيَاءِ نُورِهِ الْبَاطِلَ وَأَهْدَرَهُ إِهْدَارًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَوةً
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا اسْتِئْصَارًا ، وَتَحُطُّ عَنَّا مِنْ ثِقَلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَوِّؤُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَضَعَ لِدَوَى الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَّحَّ عِنْدَ ذَوَى الْأَسْرَارِ وَالسَّرَائِرِ ،
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ ذَوَى الْقُلُوبِ السَّلَامَةِ ، وَالْعُقُولِ الرَّابِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، أَنْ مِثْلَ عِلْمِ
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَآثِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ، وَخُصُوصًا
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مِنْ عَلِمِهَا وَعَمَلِهَا
وَعِلْمُهَا فَقَدْ سَعِدَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ ، إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاسِخَةُ لِمَا خَالَفَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الْغَايِرَةِ ، الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ وَعَيْدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرِيعَةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمِنَّةَ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايَةً لَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةَ ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِتَنْبِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) . فَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّصَهُ بِهِ وَحَضَّهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) . فَتَنَّبَّاهُ بِذِكْرِهِمْ بَعْدَهُ ، لِكُونِهِمْ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ عِلْمُهُ : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّهُمْ بِأَنَّهُمْ الْخَائِفُونَ مِنَ الْإِنْفِيَاءِ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ “ . وَقَالَ أَيْضًا : ” مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ “ . وَقَالَ أَيْضًا : ” أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَأمُونَةٌ مَأمُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ “ .

وَلِمَا كَانَ فَلَانٌ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْدِيدَهُ وَتَوْفِيقَهُ ، وَيَسَّرَ إِلَى الْخَيْرَاتِ طَرِيقَهُ - مَنْ شَبَّ وَنَشَأَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَتَخَلَّقَ بِالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ الْجَمِيلَةِ الْحَلِيلَةِ ؛ وَصَحَّبَ السَّادَةَ مِنَ الْمَشَائِخِ وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْقَادَةَ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالْفُضَلَاءِ ؛ وَاشْتَغَلَ عَلَيْهِمُ بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ أَشْتَغَالًا يُرِضِي ، وَإِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - يُفِضِي -

أَسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا وَشَيْخَنَا وَبَرَكَتْنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامُ ، الْحَبْرُ الْفَهَامُ ؛ فَرِيدُ دَهْرِهِ ، وَنَسِيجُ وَحْدِهِ ، جَمَالُ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدُ الْفُضَلَاءِ ، عُمْدَةُ الْفُقَهَاءِ وَالصُّلَحَاءِ ؛ سَرَّاجُ الدِّينِ ، مُنْقِي الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ أَبُو حَفِصٍ عَمْرُ ابْنُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامِ الْعَالِمِ ، الْعَامِلِ ، الْأَوْحَدِ ، الْكَامِلِ ، الْقُدْوَةُ ، الْمَرْحُومُ نُورُ الدِّينِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ ، ابْنُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،

الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصارى
الشافعى، أدام الله تعالى النفع به وبيركته، وأشركنا والمسلمين في صالح أديته،
بحمد وآله وصحبه وعترته .

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه، أن يدرس مذهب
الإمام المجتهد المطلق العالم الربانى، أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبى، الشافعى،
رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب
المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبه، حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء
وأي شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطأ ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف
المشار إليه : لعلمه بدياته وأمانته، ومعرفته ودرأيته، وأهليته لذلك وكفايته .

فلتلق أيدى الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليرق بفضل الله تعالى ذروة هذه
المرتبة المنيفة، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدنى من الإحسان الوافر إليه،
وليراقبه مراقبة من يعلم أطلعه على خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وليعامله معاملة
من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يئديه فى الورود والصدور، ولا يستكف
أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم : فذلك قول سعد قائله . وقد جاء : "جنة العالم لا أدري
فإن أخطأها أصيبت مقاتله" فانه تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا
وبه أقرب طريق، ويهديننا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكتب فى تاريخ كذا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى
ما صورته :

ما نُسِبَ إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجرتني كل خير بشيئة ، بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، وتوزّ ضريحه ، والإفتاء به لفظاً وخطاً . صحيح . فإنه من فاق أقران عصره بذلك ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه .

وقد اعتنى وفقه الله تعالى وإيائي من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي نعمة الله تعالى بفقرائه ، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمه ، وأزال بديع فصاحته جملة مدلهمة ، وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ، ومن أغاريه ما يقف عنده البارع الأريب .

فليتق الله حينئذ فيما يديه ، وليتحرر الصواب في لفظه وخطه وليراقب الله فيه ، فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل ، ومحاولة الخطأ والخلل ، ويستحضر ما اشتلت عليه من الحلاله ، فإن الله تعالى تولّاها بنفسه حيث قال : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) .

وأجرت له مع ذلك أن يروي عنّي مالى من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أعان الله على إكمالها ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المنير" ، في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير" للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكلل معرفة الفقيه ويصير محدثاً فقيهاً .

وأجرت له مع ذلك ما جاز لي وعنّي روايته بشرطه عند أهله ، زاده الله وإيائي من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" و "مسلم" و "أبو داود" و "الترمذي" و "النسائي" و "ابن ماجه" . والمسانيد : "مسند أحمد" و "مسند الشافعي" وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وَكَتَبَ عمرُ بنُ عليّ بنِ أحمدَ الأنصاريّ الشافعيّ ،
 غفر الله لهم : حامدا ومُصَلِّيا ومُسَلِّما ، وأشهدَ عليه جماعةً من أهل العلم بآخره .
 قلتُ : وتكون ألقابُ المُجَازِ على قَدَرِ رُتَبَتِهِ ، مثلُ أن يُكْتَبَ له : «الفَقيرُ إلى الله
 تعالى ، الشيخُ ، الإمامُ ، العالمُ ، العاملُ ، الأَوحدُ ، الفاضِلُ ، المُفيدُ ، البارِعُ ، علمُ
 المفيدين ، رُحْلَةُ القاصدين ، فلانُ الدين ، أبو فلان فلانُ بنِ فلان» (بحسبِ رُتَبِ
 آباءه) . وإنما أَهْمَلْتُ ذِكْرَ الألقابِ في هذه الإجازة ، من حيثُ إنه لا يَلِيقُ بأحدٍ
 أن يذكُرَ ألقابَ نَفْسِهِ في مُصَنَّفٍ له ، لأنّه يصيرُ كأنّه أَثْنَى على نَفْسِهِ .

وأما الإجازة بِعِراضَةِ الكُتُبِ ، فقد جَرَتِ العادةُ أن يَعْضَ الطَّلِبَةُ إذا حَفِظَ كِتَابًا
 في الفِقْهِ ، أو أصولَ الفِقْهِ ، أو النَحْوِ ، أو غير ذلك من الفنون ، يَعْرضُهُ على مشايخِ
 العَصْرِ ، فيَقْطَعُ الشيخُ المعروفُ عليه ذلك الكتابُ ، وَيَفْتَحُ منه أبوابًا ومَوَاضِعَ ،
 يَسْتَقْرِئُهُ إياها من أيِّ مكانٍ أَتَفَقَ ، فإن مَضَى فيها من غيرِ تَوَقُّفٍ ولا تَلَعُّمٍ ، أَسْتَدَلَّ
 بِحِفْظِهِ تلكَ المَوَاضِعَ على حِفْظِهِ لجميعِ الكُتُبِ ، وَكَتَبَ له بذلك كُلُّ من عُرِضَ
 عليه ، في وَرَقٍ مَرَبَّعٍ صَغِيرٍ ، يأتي كُلُّ منهم بِقَدَرِ ما عنده من المِلَكَةِ في الإنشاءِ ،
 وما يَناسبُ ذلكَ المَقامَ من براعةِ الاستِهُلالِ ونَحْوِها : فمن عالٍ ، ومن هابطٍ . وربما
 خَفَّفَ بعضهم فكَتَبَ : «وكذلك عَرَضَ على فلان» ، أو : «عُرِضَ على وَكُتِبَ
 فلان» . إِمّا رِياسَةً وتَأْيِيبًا عن شُغْلِ فِكْرِهِ وَكَدِّ نَفْسِهِ فيما يَكْتُبُهُ ، وإِمّا عِجْزًا عن
 مُضَاهَاةِ من يَكْتُبُ معه .

وقد أَخْتَرْتُ أن أَضَعَّ في هذا الحُلِّ ما وافق الصنعةَ ، وَجَرى على أَسلوبِ البلاغةِ .
 فمن ذلك ما كُتِبَ به الشيخُ الإمامُ العَلَّامةُ ، لسانُ العَرَبِ ، وَحِجَّةُ الأَدَبِ ، بَدْرُ
 الدين مُحَمَّدُ بنُ أبي بكرٍ الخَزْزُومِيُّ المَسالِكِيُّ ، لِلنَّجْلِ النَبِيلِ الَّذِي تَنهَى الألقابَ ولا نِهايةَ

لمناقبه، شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذي الأوصاف التي تكفل شبا الألسن عن حداثها، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي، حين عرض عليه "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني، و"شذور الذهب" للشيخ جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو :

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو عمودنا في النجاة يوم العرض ونأهيك بها عمده، وسندنا الذي لا يزال لسان الذوق يروى حديث حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شهده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب، وأعربت كلماته النفيسة عن عقود الجواهر و"شذور الذهب"، وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنوا الأمر على أساس التقوى وأعربوا عن طرق الهداية، ما أنهل من أفق الكرم المحمدي كل عارض صيب، وتخلت الأسماع والأفواه من أخباره بنفائس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب - فقد عرض على الجنب العالی البارعي، الأوحدي، الألمعي، اللودعي، الشهابي، شهاب الدين، نخبه النجباء، أوحده الألباء، تجل السادة العظماء، سلالة الأعيان العلماء، أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقر الكريم العالی، المولوي، العالی، الفاضلي، البليغي، المفيد، الفريدي، المفوهي، الشمسي، العمري، أطاب الله حديثه، وجمع له بالإعراب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه - طائفة متفرقة من "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي، و"شذور الذهب" للعلامة جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما - عرضا قصرت دونه القرائح على طول جهدها، وكانت الألفاظ الموردة فيه لأمة حرب الفئة الباغية عليه فأحسن عند العرض في سردها، وزين أبقاه الله تلك الأما كن بطيب لحنه وإعراب لفظه، وأذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتائب قد حصلت يجمعوها في خزنة حفظه .

فَبَدَا هُوَ مِنْ حَافِظٍ رَوَى حَدِيثَ فَضْلِهِ عَالِيَا ، وَتَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ مَا اقْتَضَى
تَقْدِيمَهُ عَلَى الْأَقْرَانِ فَلِلَّهِ دَرُهُ مُقَدَّمًا وَتَالِيَا ؛ وَسَارَ فِي حُكْمِ الْعَرْضِ عَلَى أَعْدَلِ طَرِيقٍ
وَنَاهَيْكَ بِالسَّيْرِ الْعُمَرِيَّةِ ، وَصَانَ مَنَظِقَهُ عَنْ خَالِ الْمَعَانِي وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ تَمَسَّكَ
بِطَرِيقَةِ وَالِدِهِ وَهِيَ ”الْمُقَدِّمَةُ الشَّمْسِيَّةُ“ ؛ وَسَابَقَ أَقْرَانُهُ فَكَانَتْ لَهُ زُبْدَةُ التَّفْضِيلِ
فِي حَلَّةِ السَّبَاقِ ، وَطَاقَ بَيْنَ رَفْعِ شَأْنِهِ وَخَفْضِ شَأْنِيهِ وَلَا يُنْكَرُ لِمَنْ هُوَ مِنْ هَذَا
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاقِ ؛ وَاشْتَغَلَ فَلَمْ يَقَعْ التَّنَازُعُ فِي حُسْنِ دُخُولِهِ مِنْ بَابِ
الْإِسْتِغَالِ ، وَنَصَبَ فِكْرَهُ لِنَحْصِلِ الْعِلْمِ فَتَعَيَّنَ تَمِيْزُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؛ وَتَوَقَّدَتْ نَارُ ذَهْنِهِ
فَتَلَطَّى حَاسِدُهُ بِالْإِلْتِهَابِ ، وَرُوِيَ أَحَادِيثُهُ بِالْغَلَّةِ فِي الْعُلُوِّ إِلَى سَمَاءِ الْفَضْلِ وَلَا يَدَعُ
إِذَا رُوِيَ أَحَادِيثُ الشَّهَابِ ؛ وَافْتَخَرَ مِنْ وَالِدِهِ بِالْفَاضِلِ الَّذِي أَرْتَفَعَ فِي دِيْوَانِ
الْإِنْسَاءِ خَبْرَهُ ، وَهَزَّ الْمَعَاطِفَ بِتَوْفِيقِهِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُحَرِّرُهُ وَيُجَبِّرُهُ ؛ وَوَشَّى الْمَهَارِقَ
فَكَأَنَّهَا هِيَ رِيَاضٌ قَدْ غَرَّدَ فِيهَا بِسَجْعِهِ ، وَنَحَّاهَا بِإِنْسَانِهِ الَّذِي هُوَ عُمْدَةُ الْمُتَادِينَ
فَلَا عَجَبَ فِي رَفْعِهِ ؛ وَنَظَّمَ بَيَانَهُ تَقَائِسَ الدَّرَرِ فَقَدَّتْهَا بِالْعَيْنِ ”صَوَاحُ الْجَوْهَرِيِّ“ ،
وَفَتَحَ بِجَيْشِ بِلَاقَتِهِ مَعَاقِلَ الْمَعَانِي الْمُتَنَعَّةِ وَحَسْبُكَ بِالْفَتْحِ الْعُمَرِيُّ :

بَيَانُهُ السَّحَرُ قَدْ أَخْفَى مَعَاقِدَهُ * لَكِنْ أَرَانَا لِسِرِّ الْفَضْلِ إِشْءَا
إِذَا أَرَادَ أَدَارَ الرَّاحِ مَنَظِقَتَهُ * نَظْمًا وَيُطْرَبُنَا بِالنَّشْرِ إِنْ شَاءَ !

وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْهِجُ نَفْسَهُ بِمَا يُضْهِجُ بِهِ الْحَاسِدُ وَهُوَ مُكَمَّدٌ ، وَيُقَرِّعُنِي بِهِذَا الْوَلَا
التَّجِيبُ حَتَّى لَا يَبْرَحَ يَقُولُ : أَشْكُرُ اللَّهَ وَأَحْمَدُ ؛ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ .



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الدَّائِمِ ، لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ
أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدَ ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ ”الْمِنْهَاجُ“ فِي الْفِقْهِ لِلنَّوَوِيِّ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ
وَمِائَةِ ثَمَانٍ ، وَهُوَ :

الحمد لله الذي أَوْضَحَ نَجْمَ الدِّينِ مِنْهَاجَ الْفَقْهِ وَأَنَارَهُ ، وَأَقْضَى لِسَانَهُ بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَارَهُ ، فَتَطَلَّعَتْ أَنْوَارُ شَهَابِهِ لِمَنْ اسْتَنْبَطَهُ وَأَنَارَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعُ مَنَازِلَهُ ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى أَسِيدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُخْصُوصِ بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ ، وَالْمُنْصُوصِ فَضْلَهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجْمِ الْهُدَى ، وَشَيْبِ النَّاسِ وَالْأَقْبَادِ .

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الْفَقِيهِ الْفَاضِلِ تَجَلُّ الْأَفْضَالِ ، وَسَلِيلِ الْأَمَانِلِ ؛ ذُو الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الذَّكِيَّةِ ، وَالْفِطْرَةِ الزَّكِيَّةِ ؛ نَجْمُ الدِّينِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانٍ : نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ الْعِلْمِ وَتَالِيهِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ "الْمِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْمُطَّلِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَأْلِيفَ الْحَبْرِ الْعَلَامَةِ وَلِيِّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ شَرَفٍ بْنِ مَرْيَمَ النَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الْكِتَابِ ، كَمَا فَحَّحَ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِيحَ الْخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ، وَكَانَ الْعَرَضُ فِي يَوْمٍ كَذَا .



وكتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة ما صورته :

كَذَلِكَ عَرَضَ عَلَى الْمَذْكُورِ بَاطِنُهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهْدَبًا مُجَادًا مُتَقْنًا ؛ عَرَضَ مِنْ أَتَقِنَ حِفْظُهُ ، وَزَيْنَ يُحَسِّنُ الْأَدَاءَ لَفْظُهُ ، وَأَجْزَلَ لَهُ مِنْ عَيْنِ الْعَنَاءِ حِظُّهُ ؛ مَرَّ فِيهِ مُرُورُ الْهِمْلَاجِ الْوَسَّاعِ ، فِي فَسِيحِ ذِي السَّبَّاحِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أَسْبَابُ الْخَيْرِ بِسَبَبِهِ ؛ عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَوُفُورِ أَرْيَحِيَّتِهِ ، وَتَوَقُّدِ فِكْرِهِ ، وَأَتَقَادِ فِطْنَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرِيقٌ :

سَيِّئَةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنَّ الْخَلَائِقَ - فَاعْلَمْ - شَرُّهَا الْبِدْعُ !

وقد أذنت له أن يروى عني الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لي وعني روايته من مصنفاتي وغيرها من منظوم ومنثور، ومنقول ومعقول ومأثور؛ بشرطه المعبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان في تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبه لمن أسماه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان :
وقد عرض عليّ «الأربعين حديثاً» للشيخ محي الدين النووي رحمه الله، و«الورقات» في الأصول لإمام الحرمين، و«اللمحة البدرية» في النحو للشيخ أثير الدين أبي حيان دقّة واحدة، وهو لدون عشر سنين، وهو :

الحمد لله الذي أطلع من دراري الأفاضل في أفق النجاة شمساً، وأظهر من أفاضل الدراري ما يغض به المخالف طرفاً ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعاً في النجاة فطاب جني وأعرق أصلاً وزكا غرساً، وأبرز من ذوي الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العريّة في لمحّه، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفهم «الورقات» لديه كالصفحة، وخرق بكرم بدايته العادة فجاز الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمّت بركة أسمه الشريف سميّه ففاض منها بأوفر نصيب، وخصّ بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهي فما سمي به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب، وعلى آله وصحبه الذين أينعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت .

وبعد، فقد عرض على فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فتر فيها مرور الصبا، وجرى في ميدانها جرى الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا بكا^(١) .

وأما الإجازة بالمرئيات على الاستدعاءات : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي خطيب بيت الآلهة ، و كاتب الدست بالشام ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دُعِيَ أجاب ، وإذا أُنِمْ على الأديب بذوق أتى في نظمه ونثره بالعجاب ، وإذا وهب البليغ فطرة سائمة لم يكن على حجة حجاب .

نحمده على نعمه التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حسن الصياغة ، وصيد أواميد المعاني التي من أعمل فكره في اقتناصها أو روى [أمن] رواغته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها القاطعة واقتناصها ، وجعلت وقاية لقائيلها يوم يضيق على الخلاق فسيح عراصها ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان ، ونحت على الخير وحض على الإحسان ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَوَوْا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سنته وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشرعة المطهرة أذخرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ؛ صلاة هامة الغفران ، نامية الرضوان ؛ ما أجاب محيب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تغير على الخبر رفعا ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحفُّق لهم ذوائب الطروس وتنتصب رماح الأعلام ؛ ولم تزل رغبة السلف تتوقر عليه ، وتسير أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ما تشتهي ؟ فقال : سند عال ، وبيت خال . وما برح الأئمة الكبار يرتحلون إلى أفاصي

الأقاليم في طلبه، ويحملون المشاق والمتاعب فيه ويتجملون بسببه؛ فقد أرتحل الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه من هو أحق بالفضل عليه قمن؛ ولكنه فن يحتاج إلى ذوق يعاضد من لا يعانده، وأمر لا يصبر عنه من ألفه وما يعلم الشوق إلا من يكاديه؛ فما عند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المفيد المفيد أحلى من قوله: حَدَّثَنَا فُلَانٌ أَوْ أَشَدَّنَا فُلَانٌ لِنَفْسِهِ، ولكن:

مَأْكُلٌ مِنْ طَلَبِ الْمَعَالِي نَافِذَا * فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ حُفُولًا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ مِّنْ نَّظْمِ قَوَدَتِ الدَّرَرِ فِي أَفْلَاكِهِ لَوْ أَتَسَقَّتْ، وَكَتَبَ فَرَقَمَ الطُّرُوسَ وَوَشَّاهَا، وَغَشَّاهَا مِنْ زَهْرَاتِ الرِّيَاضِ مَاغَشَّاهَا؛ وَحَلَّ الْمَتَرَجِمَ فَسَحَرَ عَقْلَ كُلِّ لَيْبٍ وَخَابَ لُبُّهُ، وَوَقَعَ عَلَى الْقَصْدِ فِيهِ فَكَأَنَّهُ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْبِ خَصَّ اللَّهُ بِهِ قَلْبَهُ، وَأَتَى فِيهِ بَبْدَائِعَ مَا تَسَاوَى أَبُو الصَّبْرِ فِي وَلَا أَبْنِ عِنْدَهَا بِحَبِّهِ؛ وَخَطَبَ فَصَدَعَ الْقُلُوبَ، وَأَجْرَى ذُنُوبَ الْمَدَامِيعِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ، وَحَدَّرَ فَكَانَتْ أَسْبَاجُهُ كَالْحَنَانِ إِسْتَحَقَّ وَسَامِعُهُ يَبْكِي بِأَجْفَانٍ يَعْقُوبُ؛ كَأَنَّمَا هُوَ فِي حُلَّةِ الْخُطَابَةِ بَدْرٌ فِي غَمَامَةٍ، أَوْ مِنْبَرُهُ غُصْنٌ وَهُوَ فَوْقَهُ حَمَامَةٌ، أَوْ بَحْرٌ وَفَضَائِلُهُ مِثْلُ أَمْوَاجِهِ وَدُرُّهُ يَحْكِي كَلَامَهُ؛ لَوْ رَأَاهُ "أَبْنُ نَبَاتَةٍ" مَا أَوْرَقَتْ بِالْفَصَاحَةِ أَعْوَادُهُ، أَوْ "أَبْنُ الْمُنِيرِ" مَارِقَتْ بِالْبَلَاغَةِ أَبْرَادُهُ، أَوْ "أَبْنُ تَيْمِيَّةٍ" مَا حَظِيَّتْ بِالْحُدُودِ أَجْدَادُهُ؛ فَأَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَ قَدْرِي، وَيُعْرِفَ نُكْرِي؛ فَطَلَبَ الْإِجَازَةَ مِنِّي وَأَنَا أَحَقُّ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَاسْتَدْعَى ذَلِكَ مِنِّي: وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ.

فَنَعَمْ قَدْ أَسْتَخَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجَزْتُ لَهُ مَا يَجُوزُ لِي تَسْمِيْعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا
مِنْ مَرْوِيَّاتِي وَأَشْيَاخِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :

إِجَازَةٌ قَاصِرَةٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ * يَسِيرٌ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَقَازِهِ :
لَمَنْ مَلَكَ الْفَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا * وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبَقًا وَحَازَهُ !



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّائِغُ عَلَى اسْتِدْعَاءٍ
لِبَعْضٍ مِنْ سَأَلِهِ الْإِجَازَةَ .

أَقُولُ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُحِبُّ مَنْ اسْتَجَدَّ كَرَمَهُ ، وَلَا يُحِبُّ مَنْ اسْتَدْعَى
نِعَمَهُ ، وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخَدَمِهِ وَمَا أَسْوَدَ مَدَمِهِ : (١)

أَثَرْتُ الْجَوَى بِي إِذْ أَرَدْتُ جَوَائِي * وَعَظَّمْتُ خَطِيئِي إِذْ قَصَدْتُ خَطَائِي :
وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُحِبُّ وَمَنْ أَنَا ! * أُحِيزُ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابٍ !
عَجِبُ لَطَلَّابٍ لَدَيْنَا تَحَلَّفُوا * وَكَمْ قَدْ أَتَانَا دَهْرُنَا بِعُجَابٍ !
نَحْنُ إِلَى الْمَوْلُوحَةِ أَمْرٌ نَائٍ * عَرَبِنَاهُ بِالْعَذِيبِ عَذَابٍ (٢)

يَا أَخَانَا : إِنَّ بَضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مُرْجَاهُ ، وَصِنَاعَتُنَا فِي الْوَقْتِ مُرْجَاهُ ، وَتَسْمِيْعُ أَخْبَارِهِ
غَلِيلٌ ، وَأَدَبُ إِخْبَارِهِ قَلِيلٌ ، وَتَصَانِيفِي وَجُوهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَأَمَالِي فِي تَبْيِيضِهَا
لِقِصْرِ الْهَيْمِمِ مَمْتَدَةٌ ، سُئِلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضَلَاءِ أَنْ أُعِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً
لَا أَعْرِفُ لَصَقِلِ الْأُذْهَانُ حَدَّهَا ، وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيفِ أُخَرٍ ، وَمَقَاطِيعَ إِنْ لَمْ
تَكُنْ كَالزُّهْرِ فَهِيَ كَالزُّهْرِ ، ثُمَّ عَدَّدْتُ نِيفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "مَجْمَعُ الْفَرَائِدِ"
فِي سِتِّ عَشْرَةِ مَجْلَدَةٍ . ثُمَّ أَنْشُدُ فِي آخِرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ نَهْتِدْ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشَفِ الظُّلُومِ : تِسْعَةُ عَشْرٍ مَجْلَدًا .

وَلَقَدْ شَرَفْتَ قَدْرِي * بِنَفْسٍ مِنْ هَدَايَا :
 بِنِظَامِ شَنْفِ السَّنْعِ يَدُرُ كَالثَنَائَا .
 فَارْوِمْنِي وَأَرْوِعْنِي * وَأَغْنِ عَنِ شَدِّ الْمَطَايَا ،
 وَأَتَّقِ الْفَضْلَ وَحَصِّلْ ، * وَأَحْظِ مَنِّي بِمَزَايَا ،
 وَتَحَرَّ الصَّدْقَ وَأَعْلَمْ * أَنَّهُ خَيْرُ الْوَصَايَا !!!
 أَجَزْتُ لَكَ أَنْ تَرَوِيَ هَذِهِ وَغَيْرَهَا عَنِّي ، وَلَكَ الْفَضْلُ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي .

الصنف الثاني

(التقریضات التي تكتب على المصنّفات المصنّفة والقصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صنّف في فنٍّ من الفنون أو نظم شاعراً قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمدح ، ويأتي كلٌّ منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسمة من أول الفاتحة ، وهي :

وَقَفْتُ عَلَى هَذَا التَّصْنِيفِ الَّذِي وَضَعَهُ هَذَا الْعَلَّامَةُ ، وَنَشَرَهُ فِي الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَعْلَامَهُ ، وَأَصْبَحَ وَنُسِبَتْ إِلَيْهِ أَشْهُرُ عِلْمٍ وَأَبْهَرُ عِلَامَةٍ ، فَأَقِيمُ مَا سَامَ الرُّوضُ حَدَائِقَهُ ، وَلَا شَامَ أَبُو شَامَةَ بَوَارِقَهُ ، كُلُّ الْأُئِمَّةِ تَعْتَرِفُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ ، وَكُلُّ التَّصَانِيفِ تَقُولُ أَمَامَهُ : بِسْمِ اللَّهِ ؛ كَمْ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ لَا يُعَارِضُ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَكَمْ فِيهِ مِنْ مُجِيَّةٍ يَكِلُ عَنْهَا الْخَصْمُ لِأَنَّ عَقْلَهُ عَلَى حَكِّ التَّقْدِيرِ يُعْرِضُهُ ؛ قَدْ أُيِّدَ مَا أَدَّعَاهُ بِالْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ ، وَنَقَلَ مَذْهَبَ كُلِّ إِمَامٍ سَبَقَ وَمَا عَثَرَ ؛ لَقَدْ سُرَّ الشَّافِعِيُّ بِبَصِّ

قوله الذى هدّبه ، وجعل أعلام مذهبه مذهبه ؛ وأتى فيه بِنَكْتِ تطرب من
أسرار الحَرْف ، وفوائد عُرِف بها ما بين ابن الدّرهم وبين البونى من البون
فى تفاوت الصّرف :

أَكْرَمَ بِهِ مُصَنَّفًا * فَاقَ تَصَانِيفَ الْوَرَى !
لَيْلُ الْمِدَادِ فِيهِ بِالْمَعْنَى الْمُنِيرِ أَقْمَرًا !
كَمْ فِيهِ بُرْدٌ حُجَّةٍ * قَدْ حَاكَهُ مُحَرَّرًا ،
وَكَمْ دَلِيلُ سَيْفِهِ * إِذَا أَلْتَقَى خَصْمًا فَرَى .
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ * مُحَالَفٌ قَطُّ يَرَى !!



ومن ذلك ما كتب به المقرّ الشهابى بن فضّل الله على قصيدة ميمية ، للشيخ
غرس الدين خليل الصفدى المعروف بالصّلاح الصفدى ، مدح بها الأمير سيف
الدين أبحى الدوادار الناصرى ، فى شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وهى :

وقفت على هذه القصيدة التى أشرقت معانيها فكادت تُرى ، وتمكّنت قوا فيها
فاستمسك بها الأدب لما كانت الميمات فيها كالعرا ؛ فوجدتها مشتملة من البلاغة
بوزنها على البحر المحيط ، لطيفة لا تقاس بأمثالها من الكلام المركّب لأنها من البسيط ؛
فنظرت إليها مكتسباً من بيانها سحر الحديق ، متعجباً من مُنَشِّئِهَا لغرس يسرع
الإثمار فى الورق ؛ ثم فطنت إلى أنّ المدوح بها أعزّه الله تعالى سحت ديمه فروضت
الطروس ، وبرّحت مناقبه بما كان مصوّباً فى أخبية النفوس ؛ وقد استوجب هذا
المادح عطف الله تعالى قلبه عليه من منائح حظاً جزيلاً ، وحُبّاً يقول به لمن قصد
المساواة به : لو كُنْتُ مِتَّخِذًا خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلاً :

مَدَبَرُ الْمُلْكِ لَهُ * عَلَى الْعُلَى مَقَاعِدُ،
تَهْوِي إِلَى جَنَابِهِ الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ!



قلتُ : وكتبتُ على قصيدة نظمها شرفُ الدين عيسى بن حجاج الشاعر المعروف بالعالية ، مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وضمها أنواع البديع ، ضاهى بها بديعة الصفي الحلبي ، في شهور سنة آتنتين وتسعين وسبعائة ، ما صورته :

أما بعد حمد الله الذي أحلَّ سحر البيان ، وأقدر أهل البلاغة من يدبج التخيُّل على ما يشهد بصحته العيان ؛ ودلَّ برائض أفكارهم صعب الألفاظ فامتطوا من مُتون أحاسنها الحيات ، وأوضح لهم طرق الفصاحة فغدَّت لديهم - بحمد الله تعالى - سهلة القياد ؛ وأحيى ميت الأدب بروح الأنفاس العيسوية وعمر بأنسها ربوعه الخالية ، وحى نفس الفضل في رُقعة المساجلة أن تصل إليها فرازة الدعاوى ولا غرو أن حماها العاليه ؛ والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد ، وأوتي جوامع الكلم فلن تحضر معاني كلامه الأعداد - فإني وقفتُ على البديعة البديعة التي نظمها الفاضل الأرفع ، واللودعي المصقع ؛ أديب الزمان ، وشاعر الآوان ؛ شرف الدين أبو الروح عيسى العالية - أعلى الله تعالى منار أدبه ورفعه على منأويه ، وبلغ به من قصب السبق ما يمتنع أن يراه على البعد مضاهيه - فالفيتها الدرّة الثمينة غير أنها لا تُسَام ، والخريدة المخدرة إلا أنها لا يليق بها الاحتشام :

تروم احتشاماً سترلاً لآء وجهها ! * ومن ذا لذات الحسن يُخفى ويستر ؟ !

قد اتخذت من الاحتشام معقلاً وحِصناً لا يُعشى ، وانتبذت من حسادها مكاناً قصياً فلا تخاف دركاً ولا تحشى :

وَلَمْ أَدِرْ - وَالْأَنْفَاطُ مِنْهَا شَرِيفَةٌ - * إِلَى الْبَذْرِ تَسْمُو أَمْ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَقِي ؟ !
أَرَادَ الْمُدَّعَى بِلَوْغِ شَاوِهَا الْجَرَى فِي مِضَارِهَا فَقِيلَ : كَلَّا ، وَرَأَى الْمُلْحِدُ فِي آيَاتِهَا
الْفَضَّ مِنْهَا عِنَادًا فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا :

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَاتِنٌ ! * وَبَيَّنَّا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمْثَلَ !
فَأَمَسُوا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ بَلَاغَتِهَا : ﴿ فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ
لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ :

كَمْ جَدَلْتَ يَوْمَ الْوَعْنَى مِنْ جَنْدِلٍ * صَاحَتْ بِهِ فَمَا أَطَاقَ تَصَبُّرًا !
وَكَيْفَ لَا تَخْضَعُ لَهَا الْأَعْنَاقُ ، وَتَذِلُّ لَهَا رِقَابُ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَهِيَ
الْيَتِيمَةُ الَّتِي أُعْظِمَتِ الْأَفْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا ، وَالْفَرِيدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا :

زَادَتْ عَلَيَّ ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا ؟ * وَمَحَلَّهَا مِنْهُ الثَّرِيَّا أَقْرَبُ !
وَأَنَّى بِذَلِكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنَ الْحَاسَنِ بِزِمَامِهَا ، وَأَحَاطْتَ مِنَ الطَّلَاوَةِ بِكَامِهَا ،
وَأَحَدَقْتَ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَدَائِقِهَا ، وَأَقْتَنَطْتَ مِنْ أَفْنَانِ الْفُنُونِ ثَمَارَ مَعَانٍ تَلَدُّ
لِنَظَرِهَا وَتَحُلُو لَذَائِقِهَا ؟ :

وَلَا تُعْرِغْ غَيْرَهَا سَمْعًا وَلَا تَنْظُرْ ! * فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ !
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَدِيعِ مَقْصُورَةً ، وَشَرُفَتْ بِشَرَفٍ
مُتَعَلِّقًا فَاصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً :

أَهَانَتْ الدَّرَّ حَقُّ مَالِهِ ثَمَنٌ ، * وَأَرْخَصَتْ قِيَمَةَ الْأَمْثَالِ وَالْخُطْبَا !
لَا جَرَمَ أَصْحَتْ أُمُّ الْقَصَائِدِ وَكُتِبَةُ الْقُصَادِ ، وَمَحَطَّ الرَّحَالِ وَمَنْهَلُ الْوُرَادِ ، فَارَبَّتْ
فِي الشُّهْرَةِ عَلَى "الْمَثَلِ السَّائِرِ" ، وَأَعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَرَالَةُ الْهَادِي وَسُهُولَةُ الْحَاضِرِ :

فَلَا فَاِضِلَ فِي عَلَيَّهَا سَمَرٌ * إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعَلِيَاءِ أَسْمَارُ!

فَأَعْجَبَ بِهَا مِنْ بَادِرَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَضَادِّينِ سَمَرٍ وَسَمَرٍ، وَقَرَنْتَ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهَيْرٍ وَزَهْرٍ، وَجَادَتْ بِمُسْتَزْهِينِ رَوْضٍ وَنَهْرٍ، وَتَفَنَّنَتْ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ، وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ فَقَالَتْ وَطَالَتْ، وَدَعَتْ فُرْسَانَ الْعَرِيَّةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَتَنَكَّسُوا، وَتَحَقَّقَ الْمُفْلِقُونَ الْعَجَزَ عَنْ مُوَاخَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا :

فَأَعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا * بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ نِزَارٌ وَيَعْرُبُ!

إِنْ ذُكِرَتْ أَلْفَاظُهَا فَمَا الدَّرُ الْمَشْتُورُ؟ أَوْ جُلِيَتْ مَعَانِيهَا أَنْجَلَتْ الرُّوضُ الْمَطْطُورُ؛ أَوْ أَعْتَبِرَ تَحْوِيلُ رُوزْنِهَا فَاقَ الذَّهَبَ تَحْوِيلًا، أَوْ قُوِيْلَتْ قَوَافِيهَا بِغَيْرِهَا زَكَتْ تَوْفِيرًا وَسَمَتْ تَوْفِيرًا، أَوْ تَعَزَّلَتْ أَسَكَّتِ الْوُرُقَ فِي الْأَغْصَانِ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرُ «كَعْبٍ» وَسَلَكَتْ سَبِيلَ «حَسَّانٍ»؛ فَلِأَطْنَابِهَا - لِفَصَاحَتِهَا - لَا يَعْدُ إِطْنَابًا، وَإِيجَازُهَا - لِبَلَاحَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أَطْنَابًا :

أَبْنُ لِي مَعَزَاهَا أَحَا الْفَهْمِ إِنَّمَا * إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوْ إِلَى الْمَجْدِ تُنْسَبُ؟

هَذَا وَبَرَاةٌ مَطْلَعُهَا تَحْتُ عَلَى سَمَاعٍ بَاقِيهَا شَفَا، وَبَدِيعُ مَخْلَصِهَا يَسْتَرِيقُ الْأَسْمَاعَ لَطَافَةً وَيَسْتَرِيقُ الْقُلُوبَ كَلَفًا، وَحُسْنُ اخْتِمَامِهَا تَكَادُ النُّفُوسُ لِحَالَوَةً مَقْطَعُهُ تَذْوِبُ عَلَيْهَا أَسْفَا :

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ : * إِذَا الْفَضْلُ وَرَدَّ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ!

وَبِالْجَمْلَةِ فَمَا تَرَاهَا الْجَمِيلَةَ لِأَخْصَى، وَجَمَائِلُهَا الْمَاثُورَةَ لَا تُعَدُّ وَلَا تُسْتَقْصَى؛ فَكَأَنَّمَا «قُسْ بِنِ سَاعِدَةٍ» يَأْتُمُّ بِفَصَاحَتِهَا، وَ«أَبْنُ الْمُقَفَّعِ» يَهْتَسِدِي بِهَذِيهَا وَيُرْوَى عَنْ بَلَاحَتِهَا؛ «وَأَمْرُ الْقَيْسِ» يَقْتَسِسُ مِنْ صَنِيعَةِ شِعْرِهَا، وَ«الْأَعَشَى» يَسْتَقْصَى بَطْلَانَةَ بَدْرِهَا؛ فَلَوْ رَأَاهَا «جَرِيرٌ» لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْرَفُهَا، أَوْ سَمِعَهَا «الْقَرَزْدَقُ»

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصرها « حَيْبُ بْنُ أَوْسٍ » لَأَحَبُّ أَنْ يَكُونَ مِنْ رَوَاتِهَا ، أَوْ أَطْلَعَ عَلَيْهَا « الْمُتَنَبِّي » لِتَحْيِيرِ بَيْنِ جَمِيلِ ذَاتِهَا وَحُسْنِ أَدْوَاتِهَا :
 فَلِبَصَائِرِ هَادٍ مِنْ قَضَائِلِهَا * يَهْدِي أُولَى الْفَضْلِ إِنْ ضَلُّوا وَإِنْ حَارُّوا !
 وَلَا نُطِيلُ فَبَلَّغُ الْقَوْلِ فِيهَا أَنَّ آيَتَهَا الْمُحْكَمَةَ نَاسِخَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وَبُرْهَانُهَا الْقَاطِعُ قَاضٍ
 بَأَن لَّا تَسْمَحَ قَرِيحَةٌ أَنْ تَنْسُجَ عَلَى مَنَوَالِهَا وَلَا يَطْمَعَ شَاعِرٌ أَنْ يَسْلُكَ سُبُلَهَا :
 وَأَيُّهَا الْكُبْرَى الَّتِي دَلَّ فَضْلُهَا * عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْفَضْلَ جَاحِدٌ !

الطرف الثاني

(فيما يُكْتَبُ عَنِ الْقُضَاةِ ، وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ)

الصنف الأول

(التَّقَالِيدُ الْحُكْمِيَّةُ ، وَهِيَ عَلَى مَرْتَبَتَيْنِ)

المرتبة الأولى

(أَنْ تُفْتَحَ بِخُطْبَةٍ مُفْتَسِحَةٍ بِـ « الْحَمْدُ لِلَّهِ »)

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا ،
 أَسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا ، فَلْيَبَاشِرْ ذَلِكَ » وَيُوصَّ بِمَا يَنَاسِبُ .
 ثم يقال : « هذا عَهْدُنَا إِلَيْكَ ، وَحُجَّتُنَا عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَأَعْلَمْ هَذَا وَأَعْمَلْ بِهِ ، وَكُتِبَ
 ذَلِكَ عَنِ الْإِذْنِ الْفُلَانِي » .

وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الولي الحميد ، الفعّال لما يُريد ، نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو
 المولى ونحن العبيد ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصّلنا إلى

جَنَّةٍ نَعِيمُهَا مُقِيمٌ ، وَتَقِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُسْتَمْلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ ، فَإِنْ مَرَّتَبَةُ الْحُكْمِ لَا تُعْطَى إِلَّا لِأَهْلِهَا ، وَالْأَفْضِيَّةُ لَا يَنْتَصِبُ لَهَا إِلَّا مَنْ
هُوَ كُفٌّ لَهَا ؛ وَمَنْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصَّيَانَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالذِّيَانَةِ ؛ فَنُ
هَذِهِ صِفَتُهُ أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْدَمَ ، وَيَتَرَقَّى وَيَتَقَدَّمَ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِي الْأَوْصَافَ الْحَمِيدَةَ ، وَالْأَفْعَالَ السَّيِّدَةَ ؛ فَإِنَّهُ
قَدْ حَوَى الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خِصَالٌ مَحْمَلَتْنَا عَلَى
أَسْتِنَاتِهِ ، وَقَوَّيْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ - أَسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمَتِينِ ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ وَلِيَجْتَهِدْ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَفَضْلِ الْخِصُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي ذَوِي الْعَدَالَاتِ
وَالْتَّلِبَسِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ تَزَاهَا ، وَإِلَى الْحَقِّ
مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ وَيُقَدِّمِهِ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيَقْصِصْهُ وَيُطَالِعْنَا
بِحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَفْعَالَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أَمْوَالِ
الْأَيْتَامِ يَصْرِفُ مِنْهَا اللَّوَاظِمَ الشَّرْعِيَّ ؛ فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَاهُ يَفْضُلُ
لَهُ مِنْهَا ، وَيَقْرُرُ الْفُرُوضَ ، وَيُزَوِّجُ الْخَالَيَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعِدَدِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، مِنْ
الْأَزْوَاجِ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبُ لَذَلِكَ مَنْ يَعْلَمُ دِيَانَتَهُ ، وَيَتَحَقَّقُ أَمَانَتَهُ ؛ وَيَتَخَيَّرُ لَكِتَابَةِ
الصُّكُوكِ مِنْ لَا يَرْتَابُ بِصِحَّتِهِ ، وَلَا يَشُكُّ فِي دِيَانَتِهِ وَخَيْرَتِهِ ؛ وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَعْدِمِينَ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فَلْيُجْرِهِ عَلَى عَادَتِهِ ،
وَلْيُبْقِهِ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَلْيَسْتَبْدِلْ بِهِ وَلْيَقْصِصْهُ .

هذا عهدى إليك ، ومُجِّتِي غَدًا عند الله عَلَيْكَ ؛ فاعلم هذا وأعمل به .
وَكُتِبَ ذَلِكَ عَنِ الْإِنْسَانِ الْكَرِيمِ الْفَلَائِي وَهُوَ فِي مَحَلِّ وَلَايَتِهِ وَحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ،
وَهُوَ نَاقِذُ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ مَاضِيهِمَا ، فِي التَّارِيخِ الْفَلَائِي . (ثُمَّ يَكْتُبُ الْحَاكِمُ عَلَامَتَهُ
وَالتَّارِيخَ) وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وهذه نُسخة تَقْلِيد :

الحمد لله الْحَكَمِ الْعَدْلِ الْهَادِي عِبَادَهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، الْحَاكِمِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ؛ الْمُثِيبِ مَنْ قَبْلَهُ
الطَّاعَةَ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِي يَوْمَ لَا يَبِغُ فِيهِ وَلَا خِلَالُ ، الرَّقِيبِ عَلَى مَا يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ
فَلَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ
مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاِل .

أَحْمَدُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ، وَأَسْتَعِيدُهُ مِنْ نِقَمِهِ الَّتِي يُرْسِلُهَا
فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُفِيدُ الْمُخْلِصَ بِهَا فِي الْإِقْرَارِ النِّجَاةَ يَوْمَ الْمَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ الَّذِي نَعْتَهُ بِأَكْرَمِ الشِّيمِ وَأَشْرَفِ الْخِصَالِ ، وَعَرَفَهُ بِمَا يَجِبُ مِنْ عُهْدِيَّتِهِ فَقَالَ :
(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) ؛
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَوْحِيَابِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فَإِنْ مَنْ حَسُنَتْ سِرِّيَّتُهُ ، وَحُمِدَتْ سِيرَتُهُ ؛ وَعُرِفَ بَوَرَجٍ وَشُمِرَ بِهَفَافٍ ،
وَدَيَانَةٍ وَخَيْرٍ وَانْصَافٍ ؛ وَأَصْحَى نَزَهَ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَا ، فَقِيهَا دَرَبًا بِالْأَحْكَامِ
الشَّرْعِيَّةِ ، عَارِفًا بِالْأَوْضَاعِ الْمُرْضِيَّةِ = أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْدَمَ ، وَيُرْقَى وَيَتَقَدَّمَ ،

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِيَّ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ، وَالْأَفْعَالِ السَّيِّدَةِ -
أَسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيَكُنْ مَتَمَسِّكًا مَعْتَصِمًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْقَوِيِّ الْمُتِينِ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَلْيُبَاشِرْ مَا قَلَّدَنَاهُ أَعَانَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيُرَاجِ حُقُوقَ
اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ : فَإِنَّهُ مُعِينٌ مَنْ أَسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَهَادِي مَنْ
أَسْتَرْشَدَهُ وَفَوَّضَ أُمُورَهُ إِلَيْهِ .

وَلْيَجْتَهِدْ فِي فَضْلِ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ، وَالْمُسَاوَةِ فِي الْعَدْلِ بَيْنَ الْمُتَحَاكِمِينَ ؛
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وَأَنْ يَثْبُتَ فِي الْخُصُومَاتِ، وَيَفْرِقَ بَيْنَ الْحَقَائِقِ وَالشُّبُهَاتِ ؛ وَيُنِصِفَ كُلَّ ظَالِمٍ
مِنْ ظَالِمِهِ بِالشَّرِيعَةِ الْحَمِيدَةِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ؛ وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ
الشُّهُودِ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ تَزْهِيًا، وَإِلَى الْحَقِّ مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرِ
ذَلِكَ طَالَعْنَا بِحَالِهِ . وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ مُعْتَمِدًا فِي ذَلِكَ قَوْلَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْقَاهِرِ : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْأَيْتَامِ ، وَيَتَحَاطَّ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ عَلَى
جَارِي عَادَةِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْحُكَّامِ ؛ مِنْ نَفَقَةٍ وَكُسُوفَةٍ وَلَوَازِمِ شَرْعِيَّةٍ ، فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ
رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا فَضَّلَ مِنْ مَالِهِ بِالْبَيِّنَةِ الْمَرْضِيَّةِ ؛ وَيَقْرُرَ الْفُرُوضَ عَلَى مُقْتَضَى قَوْلِ
اللَّهِ تَعَالَى : ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ . وَيُزَوِّجَ النِّسْوَةَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْعِدَدِ
وَالْأَوْلِيَاءَ ، مِمَّنْ رَغِبَ فِيهِنَّ مِنَ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبَ لَذَلِكَ مَنْ يَعْلَمُ أَمَانَتَهُ وَخَبْرَتَهُ ،
وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَأْثُورَةِ أَجْرًا عَلَى عَادَتِهِ ،

وأبقاه على حُكْمِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ ومن كان منهم خلاف ذلك يُعْجِده وَيُقْصِده ؛ وَيَسْتَبْدِلُ به غيره لِيَبْقَى مكانه وفي تَصَرُّفه .

هذا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَلتَعْلَمْ ذلك وَتَعْمَلْ به إن شاء الله تعالى . (وَيُؤَرِّخُ ، ويكون ذلك بِحِطِّ الحاكم) وَيَكْتُبُ : «وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» وَيَتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَاللُّطْفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ رَفَعَهُ ، وَمِنْ أَطَاعَةٍ نَفَعَهُ ، وَمِنْ أَخْلَاصٍ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ؛ الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَبَوَتْ عَنْهُ أحوالُ الْأَوَائِلِ وَالْآوَاخِرِ ، وَأَطْلَعَ عَلَى ضَمَائِرِ النُّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيره أَنْ يَطَّلَعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ الْخَافِضِ الرَّافِعِ ، وَالْمُعْطِي الْمَانِعِ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالنَّذِيرُ ، الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرَبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أحمدُه حمداً يَقْضِي لِلْسَّعَادَةِ بِالتَّيسِيرِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْراً يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْعَسِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبَاتِهِ شَهَادَةً يَحُلُّ الْمُخْلِصُونَ بِهَا جَنَّةً ﴿ يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

أما بعدُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ عَارِفاً بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَهَيِّئاً لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّيْعَةِ ؛ مُسْتَعِدّاً إِلَى بَيْتِ مَشْكُورٍ ، وَقَدِيرٍ مَوْفُورٍ ؛ قُلَّدَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا فَلَانَ بْنَ فَلَانَ بْنِ فَلَانَ الْفُلَانِيَّ ، قَلَدْنَاهُ كَذَا وَكَذَا .

فَبَاشِرُ أَعَانِكَ اللَّهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وَأَسْتَشِيرُ خِيفَةَ اللَّهِ وَأَجْعَلُهَا نُصَبَ عَيْنِكَ ، وَتَمَسَّكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلْهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ؛ وَأَنْتَ نَصَبٌ لِنَفِيذِ الْأَحْكَامِ أَنْتَ صَابٌ مِنْ يُرَاقِبُ اللَّهُ وَيَخْشَاهُ ، وَحَاسِبٌ نَفْسَكَ مُحَاسِبَةً مَنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطْلُعُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ؛ وَأَبْذُلُ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَسُعَكَ ، وَرَحْبٌ لِلتَّحَاكُمِ ذَرْعَكَ ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ النُّهُودِ وَحَذَرِهِمْ أَنْ يَزُوغُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبِهِمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ؛ وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمِهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مَطْقَةً لَهُمْ ؛ وَأَنْهَهُمْ عَنِ التَّسَمُّحِ فِيهَا ، وَعَرِّفِهِمُ التَّحَرُّزَ عَمَّا يُوْدِي مِنَ التَّهْمَةِ وَالتَّطَرُّقِ إِلَيْهَا ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِيَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظْرًا يُوْدِي إِلَى صِلَاحِهِمْ ، وَلَا تُعَوِّلْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَخْتَارُهُ وَتَرْضِيهِ ، وَلَا تُعَرِّجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا تَمِلْ إِلَيْهِ ؛ وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْأَحْبَاسِ نَظْرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاجِعْ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تَعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَفَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَأَرْفُضْ مَعَامِلَةً مَنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُدْمِ وَالْإِعْسَارِ ؛ وَأَفْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِثْلُكَ مِنَ الْحُكَّامِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْفَسْخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلَدْنَاكَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ؛ فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعِينُكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَأَنْتَ وَاللَّهُ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ؛ وَأَسْتَجِ نَصِيحَتِي ، وَأَفْعَلْ مَا تُبَرِّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : ^(١) وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصِغَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدَرِ مَرَّتَبَتِهِ ، مِنْ : « صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ » أَوْ : « هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ » ثُمَّ يَقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفُلَانِيَّ» بَلَقِيَهُ، وَيُدْعَى لَهُ: «لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - أَسْتَحْرْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَفَوَضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانِ كَذَا، فَيُبَيِّنُ شَرِّ ذَلِكَ» عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

الصنف الثاني

(إيجالاتُ العدالة)

قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ أَبْنَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ تَثْبُتُ عَدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكَّامِ ، وَيُسَجَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ ، وَيُحْكَمُ الْحَاكِمُ بِعَدَالَةٍ مِنْ تَثْبُتْ عَدَالَتُهُ لَدَيْهِ ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرَجِ عَرِيضٍ ، إِمَّا فِي قِطْعِ فَرْخَةِ الشَّامِيِّ الْكَامِلَةِ ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلَدِيِّ ، وَتَكُونُ كِتَابَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ وَأَسْطُرُهُ مُتَوَالِيَةً ، بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ تَقْدِيرَ عَرَضٍ أَصْبَعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذِهِ نُسْخَةُ سِجِلِ أَنْشَأَتِهِ ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدُ ثُبُوتِ عَدَالَتِهِ ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ ، ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِبَصْرَ وَالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْلَعَ نَجْمَ الْعَدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْقِ مَعَالِيهَا ، وَأَنَارَ بَدْرَارِي الْعُلَمَاءِ مِنْ حَنَادِسِ الْجَهَالَةِ مُدْهِمَ لِيَالِيهَا ، وَكَلَّ عُقُودَ النِّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْأَبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَنْفُسَ لَآلِيهَا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُرْفَى قَائِلُهَا إِلَى أَرْفَعِ الدَّرَا ، وَيَمْتَلِئُ مُتَّعِلُهَا صَمُوعُ الثَّرَيَّا : وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْخَصُوصُ بِمَحَاسِنِ الشَّيْمِ ، وَالْمَوْصُوفُ بِكَرَمِ الْمَآثِرِ وَمَآثِرِ الْكَرَمِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا مِنْ عَمَرِ الدِّينِ بِالنَّبَبِ

الأقوى، وسلَكُوا جَادَةَ الْهِدَايَةِ فَخَصَلُوا مِنْ أَقْصَى مُغْيَاهَا عَلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فلما كانت العدالةُ هي أَسُّ الشريعة وعمادها، ورُكْنُهَا الأعظمُ في الاستناد
إلى الصوابِ وسنادها؛ لا تُقْبَلُ دونها شهادةٌ ولا رِوَايَةٌ، ولا يصحُّ مع عَدَمِهَا إسنادُ
أمرٍ ولا وِلَايَةٌ - فقد بُنِيَتِ الشريعةُ المطهَّرةُ على أركانها، واعتَمَدَتِ الرواةُ في صحَّةِ
الأخبارِ على أصولها وتعلقتِ الحُكُمُ في قَبُولِ الشهادةِ بأخصانها؛ إذ هي الملكةُ
الحاملةُ على مُلازمةِ التقوى، والحفيظةُ المانعةُ من الوقوعِ في هَوَايَةِ الْبِدْعِ الْمُتَمَسِّكُ
بسببها الأقوى؛ والحكمةُ الثَّانِيَةُ عن الجَاحِجِ إلى ارتكابِ الكبائرِ، والعِنانُ الصَّارِفُ
عن الجنوحِ إلى الإصرارِ على الصِّغائرِ؛ والزَّمامُ القَائِدُ إلى صلاحِ أعمالِ الظواهرِ
وسلامةِ عَقَائِدِ الضَّمَائِرِ .

ولما كان مجلسُ القاضي الأجلِّ، الفقيهِ، الفاضلِ، المشتغلِ، المحصلِ،
الأصيلِ، نجمِ الدين، سليلِ العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشنديُّ القزاريُّ،
الشَّافِعِيُّ، خليفةَ الحُكْمِ العزيزِ بالقاهرةِ المحروسةِ والدِّه، والحاكِمُ بِالْعَمَلِ الفلانيُّ
ومامعهما: أَيْدَ اللَّهِ تعالى أحكامه، وأَقَرَّ عَيْنَهُ بولده - هو الذي وُلِدَ على فِرَاشِ الدِّينَانِ،
وظَهَرَتْ عَلَيْهِ فِي الطُّفُولَةِ آثارُهَا، وَنَشَأَ فِي أَحْيَاءِ الصِّيَانَةِ، فَرُوِيَتْ عَنْهُ بِالسَّنَدِ
الصَّحِيحِ أَخْبَارُهَا؛ وَآرَتَضَعَ تَدَى الْعِلْمِ حِينَ بُرُوعِ نَجْمِهِ، وَغَذِيَهُ مَعَ لِبَانِ أُمِّهِ فَأَمْتَرَجَ
بَدَمِهِ وَلَحْمِهِ وَعَظْمِهِ؛ وَأَعْلَنَ مُنَادِي نَشَاتِهِ بِجَمِيلِ الذِّكْرِ فَأَغْنَى فِيهِ عَنِ الاسْتِخْبَارِ،
وَلَا حَتَّ عَلَيْهِ لَوَائِحُ النَّجَابَةِ فَقَضَى لَهُ بِالْكَامِلِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ قَرْنَهُ زَمَنَ الْإِبْدَارِ؛
فَلَمْ يَرِدْ مِنْهُلِ التَّكْلِيفِ إِلَّا وَقَدْ تَرَيَّنَ مِنْ مَحَاسِنِ الْفَضَائِلِ بِأَكْلِ زَيْنٍ، وَلَمْ يَبْلُغْ مَبْلَغَ
الْعِلْمِ حَتَّى صَارَ لَوَالِدِهِ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ - قُرَّةَ عَيْنٍ - رُفِعَتْ قِصَّةُ مَخْبَرَةٍ عَنْ حَالِهِ فِيهَا مِنْ
مُضْمُونِ السُّؤَالِ طَلَبُ الْإِذْنِ الْكَرِيمِ بِسَمَاعِ يَدْنَةِ الْمَذْكُورِ، وَكِتَابَةِ إِسْجَالِ بَعْدَالَتِهِ،

فَسَمِعَهَا الْخَطُّ الْكَرِيمُ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، الْقَاضِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ،
 الْعَلَامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْمُحَدِّثِيُّ ، الْحَافِظِيُّ ، الْحَبْرِيُّ ، الْمُجْتَهِدِيُّ ، الْحَقِّيقِيُّ ، الْمَدَقِّقِيُّ ،
 الْوَحِيدِيُّ ، الْفَرِيدِيُّ ، الْمُجْتَبِيُّ ، الْمُجْتَبِيُّ ، الْخَطِيبِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ، الْحَاكِمِيُّ ، الْحَلَالِيُّ ،
 الْكَفَاتِيُّ ، الْبُلْقِينِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، النَّاظِرُ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْأَيْدِي
 الْمَصْرِیَّةِ ، وَالْمَمَالِكِ الشَّرِیْفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّ أَحْكَامَهُ ،
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسْبَغَ نِعَمَهُ فِي الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ - لَسَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،
 الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ ، الْحَافِظِ ، وَلِيِّ الدِّينِ ، شَرِيفِ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدِ الْفُضَّلَاءِ ،
 مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي زُرْعَةَ أَحْمَدَ ابْنِ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زَيْنِ الدِّينِ ،
 شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي الْفَضْلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ ، ابْنِ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَذْرِ الدِّينِ ، شَرِيفِ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدِ الْفُضَّلَاءِ ، مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ،
 أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ الْعِرَاقِيِّ الشَّافِعِيِّ ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ وَمُضَرِّ
 الْحَرُوسَتَيْنِ ، وَالْحَاكِمِ بِالْأَعْمَالِ الْمُتَوَفِّقَةِ ، وَمُفْتِي دَارِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ بِالْأَيْدِي الْمَصْرِیَّةِ :
 أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ .

فَخِثْنَدَ سَمِعَ سَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخُ الْإِمَامُ ، الْعَالِمُ ، الْحَافِظُ ،
 وَلِيُّ الدِّينِ ، الْحَاكِمُ الْمَشَارُ إِلَى اللَّهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ - الْبَيِّنَةُ بِتَرْكِتِهِ ، وَصَرَحَتْ
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بَعْدَالَتِهِ ، وَقَبِلَهَا الْقَبُولَ الشَّرْعِيَّ السَّائِعَ فِي مِثْلِهِ .

ثُمَّ أَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ الْقَضَاءِ
 وَالْحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ الْثَامِنِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ
 رَجَبِ الْفَرْدِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ ثَبَّتَ عِنْدَهُ وَصَحَّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ -
 عَلَى الْوَضْعِ الْمَعْتَبَرِ الشَّرْعِيِّ ، وَالْقَانُونِ الْمُحَرَّرِ الْمُرْعَى ، بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ الْمَرْضِيَّةِ ، الَّتِي

تثبت بمثلها الحقوق الشرعية - عدالة القاضي الأجل، العدل، الرضى، نجم الدين محمد المسمى أعلاه : زاده الله تعالى توفيقا، وسهل له إلى الخير طريقا، وما آشتل عليه من صفاتها، وتحلى به من أدواتها، ثبوتا صحيحا معتبرا، مستوفيا شرائط محررا . وأنه - أيد الله تعالى أحكامه ، وسدد نقضه وإبرامه - حكم بعدالته ، وقبول شهادته ، حكما تاما وجرمه ، وقضى فيه قضاء أبرمه ، وأذن له - أيد الله تعالى أحكامه - في تحمّل الشهادة وأدائها ، وبسط قلمه في سائر أندية وأرجائها ، وأجراه - أجرى الله تعالى الخيرات على يديه - مجرى أمثاله من العدول ، ونظمه في سلك الشهداء أهل القبول ، ونصبه بين الناس شاهدا عدلا ، إذ كان صالحا لذلك وأهلا . فليسط بالشهادة قلمه ، وليؤلف على شروط أدائها كلمه ، وليحمد الله تعالى على ما منحه من ملابسها الجميلة ، وأثاله من الترقى لرتبتها الجليلة ، وليتق الله تعالى في موارده ومصادره ، وليسلك مسالك التقوى في أول أمره وآخره ، وليعلم أن من سلك الحق نجا ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا . أوزعه الله تعالى شكر هذه الرتبة عليه ، والمنزلة السنية .

وتقدم أمر سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام ، العالم ، الحافظ ، ولي الدين ، الحاكم المذكور ، وقاه الله تعالى كل محذور ، بكاتبه هذا الإسجال ، فكتب عن إذنه الكريم ، متضمنا لذلك مسؤولا فيه ، مستوفيا شرائطه الشرعية . وأشهد على نفسه الكريمة بذلك في التاريخ المقدم ذكره بأعليه ، المكتوب بخطه الكريم - شرفه الله تعالى ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

قلت : والعادة أن يعلم فيه الحاكم علامة تلو البسملة ، ويكتب التاريخ في الوسط ، والحسبة في الآخر ، كل ذلك بخطه ، ويشهد عليه فيه من يشهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم ، كما في سائر الإسجالات الحكيمة .

الصنف الثالث

(الكتب إلى الثواب وما في معناها)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ الْقَضَاةِ أَلْفَظُهَا مَرْسَلَةً ، لاجْتِنَاحِ فِيهَا إِلَى قَنِّ
الْبَلَاغَةِ وَالسَّجْعِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخة كتاب كتبت به عن قاضي القضاة نحر الدين الشافعي ، إلى الحكام
بالمملكة ، وهو :

أدام الله فضائل الجنابات العالية والمجالس العالية ، وجعلهم قادة يقتدى بهم
في القول والعمل ، وو (١١)
الاحتفال من يعتنى بأمره ويحتفل ، ولا سيما
من سارت طريقة فضله المثلى في الآفاق سير المثل ، ولا زال عرّف معروفهم على
ذوى الفضائل يفوح ، وحياد جودهم تغدو في ميدان الإحسان وتروح ، ونيل نيلهم
يسرى إلى القضاة فيحمد سره عند الغبوق كما يحمد سره عند الصبوح .

هذه المكاتبة إليهم تقريرهم سلاماً أطف من النسيم ، وتهدى إليهم شفاء مزاج
كاتبه من تسنيم ، وتبدي لعلومهم الكريمة أن الجناب الكريم ، العالى ، الشيعى ،
الإمامى ، الفاضل ، البارعى ، الأوحدي ، الأكلبي ، البليغي ، المقدمي ، الخطيبي ،
البهائي ، أوحده الفضلاء ، نحر العلماء ، زين الخطباء ، قبلة الأدباء ، قدوة البلغاء ،
صفوة الملوك والسلاطين ، خطيب الموصل - أدام الله المسرة به ، ووصل الخير
بسببه ، ونفع بفوائده فضله وأدبه - ورد علينا بطرابلس المحروسة ، فصلت المسرة
بذلك الورود ، وتجدد بخدمته ما تقدم من وثيق العهود ، وأبدى لنا من نظره الفائق
الرفيق ، وإنشائه المعني عن نسوة الرحيق ، وكاتبته التي هي السحر الحلال على

التَّحْقِيقُ ؛ مَا زَهَّ الْأَبْصَارَ وَشَفَّ الْأَسْمَاعَ ، وَقَطَعَ مِنْ قُرْسَانِ الْأَدَبِ أَسْبَابَ
الْأَطْعَامِ ؛ فَازَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَثِيبَ فِكْرًا ، وَأَحْجَلَ مِنَ الرُّوْضِ الْأَنِيقِ زَهْرًا ،
وَأَحْمَلَ مِنَ الْمِسْكِ السَّحِيقِ عِطْرًا ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ النَّفِيسُ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ قَدِيمُ
الْأَدَبِ وَحَدِيثُهُ ، وَالْجَلِيسُ الَّذِي لَا يُسَامُ كَلَامُهُ وَلَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ؛ يَا لَيْلَا لَيْسَ فِيمَا
يُبْدِيهِ مِنَ الْأَدَبِ تَحْرِيفٌ وَلَا غَلْطٌ ، وَفَاضِلًا لَوْ لَمْ يَكُنْ بَحْرًا لَمَا كَانَ الدَّرُّ مِنْ فِيهِ
يُلْتَقَطُ ؛ يَمِينُهُ وَفِطْنَتُهُ الْكَرِيمَتَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ، فَهَذِهِ إِنْ رَقَمْتَ طَرَسًا فُرُوحَ وَرَيْحَانٍ ،
أَوْ بَدَلْتَ رِأً فَعِينَانِ تَجْرِيَانِ ؛ وَهَذِهِ إِنْ نَظَمْتَ شِعْرًا فَيَا قُوْتُ وَمَرْجَانٍ ، أَوْ نَثَرْتَ
تَبْرًا فَتَمِينُ الدَّرِّ أَلْوَانُ ؛ مَا بَرِحَ الْفَضْلَاءُ إِلَى لِقَائِهِ يُسَارِعُونَ ، وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يُسَارِعُوا
وَمِنْ أَبْوَابِ مَعْرُوفِهِ يَفْتَتِسُونَ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الشَّهَابُ السَّاطِعُ ، وَالْجَلِيلُ
الَّذِي لَمْ تَزَلْ تُسِيرُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ، وَالنَّيْلُ الَّذِي تَجْرَى لِفَرَاغِهِ مِنْ عُيُونِ اللَّيْلِ
الْمَدَامِغُ ، وَالتَّرْيِيلُ الَّذِي يُنْشِدُهُ الْعَارِفُ عِنْدَ وَدَاعِهِ :

* بَعِثْكَ خَبْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ *

يَعْرِفُ الْمُحْسِنُ إِحْسَانَهُ فَيَنْشُرُهُ مِنَ النَّعَاءِ لَوَاءً ، وَيُجِلُّ فِي مَدْحِ صِفَاتِهِ
وَنُعُوتِهِ الْإِنْشَاءَ إِنْ شَاءَ ؛ وَيُجِلُّ فِي ذَمِّ مُسْتَحَقِّ الذَّمِّ مِنْهُ الْهَجَاءَ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَدَاحًا
وَأَعْظَمَ بِهِ هَجَاءً ؛ الْعُلَمَاءُ لِحُضُورِهِ يَتَرَقَّبُونَ ، وَإِلَيْهِ يَتَقَرَّبُونَ ؛ وَالْفَضْلَاءُ بِفَضْلِهِ
يَعْتَرِفُونَ ، وَمَنْ بَحْرُهُ يَعْتَرِفُونَ ؛ وَالْأُدَبَاءُ إِلَيْهِ يَسْتَتِقُونَ ، وَمِنْهُ يَفْتَتِسُونَ ؛ وَالطَّلَبَةُ
بِأَذْيَالِ فَضْلِهِ يَتَمَسَّكُونَ ، وَبَنْشِيرِ أَثْنَتِهِ يَتَمَسَّكُونَ ؛ وَإِخْوَانُهُ فِي اللَّهِ بِوُجُودِهِ
يَفْتَحِرُونَ ، وَإِلَى جُودِهِ يَفْتَقِرُونَ ؛ كُلُّمَا عَرَضَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ تَمَسَّكُوا بِإِيثارِهِ ، وَكُلُّمَا
عَانَدَهُمُ الدَّهْرُ سَأَلُوهُ الْإِمْدَادَ بِأَنْصَارِهِ ، فَيَجُودُ فِي خِدْمَتِهِمْ بَيَانَ بَنَانِهِ ، وَيُجَرِّدُ
فِي نُصْرَتِهِمْ سَيْفَ لِسَانِهِ .

ثم من قبل أن نَبْلُغَ منه الوَطْرَ ، ومن دُونِ أن يَكْتَفِيَ منه السَّمْعَ والبَصَرَ ، عَرَفْنَا أنه قَصَدَ التَّوَجُّهَ إلى البلاد السَّاحِلِيَّةِ ، والأَعْمَالِ الطَّارِئِيَّةِ ، يُعْمَلُ على أَهْلِهَا من فضائله البَاهِرَةِ البَاسِقَةِ ، وأَفَاطِهِ التي هِيَ كالدُّرَرِ الْمُتَنَاسِقَةِ ، وَيُجْلِيهِمْ عَرَائِسَ الأفكارِ من أَفْكَارِهِ ، وَيُجَنِّهِمْ عَرَائِسَ الْأَثْمَارِ من أَشْجَارِ عِلْمِهِ ، وَيُرِيهِمُ الْبَدِيعَةَ الْبَدِيعَةَ ، وَالتَّقَوَّى الْحُبِّيَّةَ الْمُطِيعَةَ .

فَلْيَتَقَدَّمِ الْجَمَاعَةُ - أَيَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - بِإِكْرَامِهِ الْأَهْلَ وَالْأَصْحَابَ ، وَتَلَقَّيْهِ بِالْبِشْرِ وَالطَّلَاقَةِ وَالتَّرْحَابِ ، وَإِحْلَالِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ مَحَلًّا سَامِيًّا ، وَإِنزَالِهِ مِنَ الْإِفْضَالِ مَنْزِلًا عَالِيًّا ، وَالْأَعْتِنَاءِ الْوَافِرِ بِأَمْرِهِ ، وَاسْتِجْلَابِ بَثِّ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ ، وَالتَّنَاقُطِ دُرَرِ فَوَائِدِهِ ، وَاسْتِثْبَابِ غُرَرِ فَرَائِدِهِ ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَى الْمَثُورِ وَالْمَنْظُومِ مِنْ أَقْوَالِهِ ، وَالتَّعَجُّبِ مِنْ حُسْنِ بَدَاهَتِهِ وَسُرْعَةِ آرْتِجَالِهِ .

وَلْيُحْتَفَلْ كُلَّ يَوْمٍ بِخِدْمَتِهِ غَايَةَ الْإِحْتِفَالِ ، وَيُعْتَنَ بِأَمْرِهِ أَعْتِنَاءٌ لَا يُسَارِكُهُ تَقْصِيرٌ وَلَا إِهْمَالٌ ، وَيُرْعَ لَهُ حَقُّ الضَّيْفِ الْجَلِيلِ ، وَالْقَادِمِ الَّذِي إِذَا رَحَلَ عَنْ بَلَدِهِ أَبَى لَهُ بِهَا الذِّكْرُ الْجَمِيلُ ، وَيُسَاعَدُ عَلَى مَا تَوَجَّهَ بِصَدَدِهِ كُلِّ سَاعَةٍ يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَيْهِ ، وَيُنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ وَيُحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ .

وَنَحْنُ نُؤَكِّدُ عَلَى الْجَمَاعَةِ - أَيَّدَهُمُ اللَّهُ - فِي ذَلِكَ كُلِّ التَّأَكِيدِ ، وَنُبَالِغُ فِيهِ مُبَالَغَةً مَا عَلَيْهَا مِنْ مَزِيدٍ ، وَنُحَذِّرُهُمُ مِنَ الْإِهْمَالِ وَالتَّسْوِيفِ وَالتَّقْصِيرِ ، وَمِنْ مُقَابَلَةِ جَنَائِهِ الْكَرِيمِ بِالتَّزْرِ الْحَقِيرِ وَالتَّقْدِيرِ الْيَسِيرِ ، فَإِكْرَامُ هَذَا الرَّجُلِ لَيْسَ كإِكْرَامِ مَنْ لَمْ يَسِرْ بِسِرِّهِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا لَعْلَمُهُ وَفَضْلُهُ وَخَيْرُهُ ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وَلَيْسَ مِنْ يُكْرَمُ لِنَفْسِهِ كَالَّذِي يُكْرَمُ لغيرِهِ » .

فَلْتَعْظُمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ وَتُزَلِّوْهُ مَنْزِلَةً تَلِيقُ بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ ، وَتَرَفُّوْهُ الْمَقَامَ وَتَحْفَظُوْهُ الْمَقَالَ ، لِيَعُودَ مُحَقِّقَ الْأَمَالِ مُبْلَغَ الْمَقَاصِدِ ، نَاشِرًا أَلْوِيَةَ النَّشَاءِ

والمحامد ، مَشْمُولًا بِجَمِيلِ الصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ وَنَحْنُ مُتَظَرُّونَ مَا يَرِدُ عَنْهُ مِنْ مَكَاتِبَاتِهِ
الكَرِيمَةِ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ الْحَسَنَةِ .

وَفِي هَمِيمِهِمُ الْعَلِيَّةِ ، وَمَكَارِمِهِمُ السَّنِيَّةِ ، مَا يُغْنِي عَنْ التَّأَكِيدِ بِسَبَبِهِ وَالْوَصِيَّةِ ؛
وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ عَلَيْهِمْ سَائِغَ الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ ، وَيَجْمَلُ بِوُجُودِهِمْ وَجُودَهُمُ الْأَحْكَامَ
وَالْحُكْمَ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الصنف الرابع (ما يُكْتَبُ فِي آفْتَاتِحَاتِ الْكُتُبِ)

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ فِي أَوَائِلِ كُتُبِ الْأَوْقَافِ .

وهذه نسخة حُطْبَةٍ فِي آبْتَدَاءِ كِتَابِ وَقْفٍ عَلَى مَسْجِدٍ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَامِعِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، وَنَاصِرِ الدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ
بَنِيْنًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ الْكَرَامِ الْأَنْجَادِ ، وَمُشْرِفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْأَمْنَةِ وَالْجُمُعَةِ
وَالْجَمَاعَاتِ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ ، وَجَاعِلِ مِنْ أَرْتَضَاهُ مِنْ أَرْبَابِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ مِنْ
عِبَادِهِ الْعِبَادِ ، وَمُمِيسِّرِ الْقُرْبَاتِ إِلَيْهِ لِأَهْلِ السَّدَادِ ، وَمُرِيدِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ
مِمَّنْ أَخْلَصَهُ بِالطَّاعَاتِ وَمَزِيدِ الْإِرْفَادِ ، وَمُفَضِّلِ الْأَوْقَافِ عَلَى أَفْضَلِ وُجُوهِ الْبِرِّ
مَنْ جَعَلَهُ لِخَيْرِ أَهْلًا بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي وَكَثْرَةِ الْأَمْدَادِ ، وَمُعْظَمِ الْأَجْرِ لِمَنْ بَنَى بَيْتًا لِلَّهِ
بِنِيَّةِ خَلِيَّةٍ مِنَ الرِّيَاءِ وَالْعِنَادِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ بَنَى
مَسْجِدًا لِلَّهِ وَلَوْ كَفَحَصَ قِطَاعٍ بَنَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ " وَزَجُّوا مِنْ كَرَمِ اللَّهِ
الْأَزْدِيَادِ .

(١) بِيَاضٍ بِالْأَصْلِ وَلَعَلَهُ : مِنْ الْمَنَازِلِ الْحَسَنَةِ الْخُ أَوْ مَا أَشَبَّهُهُ .

أحمدُه على مَوَادِّ نِعَمِهِ الَّتِي جَلَّتْ عَنِ التَّعْدَادِ ، وأشكُرُه شُكْرًا وافيًا وإفْرًا نجعله
ذَخِيرَةً لِيَوْمِ التَّنَادِ ، وَاسْتَمِدُّ مِنَ اللُّطْفِ لَوَازِمَ الْفَضْلِ الْخَفِيِّ وهو الْكَرِيمُ الْجَوَادُ ،
وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له وأنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسوله الخاتِمُ الحاتِمُ على
حَوْضِهِ الْوُرَادُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ ما أَصْنَى إلى الذِّكْرِ وأُجِيبَ كُلُّ دَاعٍ
من حَاضِرٍ أو بَادٍ .

وبعدُ ، فلَمَّا كانتِ الْمَثُوباتُ مَضمُونَةٌ الْأَجْرِ عندَ الْكَرِيمِ ، والأَعْمَالُ مَعْدَّةٌ
فِي التَّقْدِيمِ ؛ وكانَ بُيَانُ الْمَسَاجِدِ وإفْرًا أَجْرًا ، لمن أقامَ بِوَاجِبِ تَيَانِ الظَّنِّ الْجَمِيلِ
وَسَدَّدَ إلى الْخَيْرَاتِ سَبِيلًا ، وقد قالَ تعالى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِى . فَلْيُظَنَّ
بِى خَيْرًا » . ورأى الْعُقَلَاءُ أَنَّ الْأَوْقَافَ على الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَامِعِ من أَنْفُسِ قَوَاعِدِ
الدِّينِ وأَعْلَى - فلذلك قيلَ في هذا الْإِنْجَالِ الْمُبَارَكِ :

هذا ما وَقَفَهُ وَحَبَّسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبَدَهُ فَلان . وَقَفَ وَحَبَسَ رَغْبَةً في مَزِيدِ الثَّوَابِ ،
وَرَجَاءً في تَهْوِيلِ يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَأَغْنَيْنَا لِلْأَجْرِ الْجَزِيلِ مِنَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ ؛
لَقَوْلِ اللهِ تعالى في الْآيَاتِ الْمَبْرُورَةِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً » . وَقَفَ بِنَيْتِهِ خَالِصَهُ ، وَعَزِيمَتِهِ صَالِحَهُ ، وَنِيَّةَ صَادِقِهِ ؛ ما هُوَ له
وفي مِلْكِهِ ، وَحَوَازِهِ وَبَيْدِهِ وَتَصَرَّفِهِ ، من غيرِ مُنَاطِرٍ له في ذلك ولا شَرِيكَ ،
(ثم يَذْكُرُ الْوَقْفَ) .

الفصل السادس

في العُمَرَاتِ الَّتِي تَكْتُبُ لِلْحَاجِّ

وهذه نسخة عُمرَةٍ اعتمَرها أبو بكر بن محمد الأنصارى الخزرجي ، عند مُجَاوَرَتِهِ
بِمَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ ، وَسَنَةِ ثَمَانٍ ، وَسَنَةِ تِسْعٍ ، وَسَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِمِائَةٍ ، لِلْمُلْكِ
الْمَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بْنِ قِلَاوُونَ» ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَأَمَّنَ مَنْ فِيهِ بِالْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَنْ
هُوَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرُ نَاصِرٍ ، وَجَعَلَ بَيْكَةً مُبَارَكًا ، وَوَضَعَ الْإِصْرَ بِمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ
وَمَنْ سَلَفَهُ الْكَرِيمِ عَلَى الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ الْأَوَاصِرِ ؛ وَعَقَدَ لِيَوَاءِ الْمُلْكِ بِخَيْرِ مَلِكٍ
وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَلْفٌ فِي الْوَعَى : فَنِي حَالَتِهِ تُعَقَّدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، وَأَطَابَ الْمُقَامُ
فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَمِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ السُّلْطَنَةَ
بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَشَرَفِ الْعَنَاصِرِ ؛ وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ ، إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ الْعَتِيقِ ، مِنَ الْمَشَارِقِ
وَالْمَغَارِبِ فِي دَوْلَةٍ مَنْ أَجْمَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ وَوَرِثَ الْمُلْكَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ،
وَأَنْطَقَ الْأَلْسِنَةَ بِالِدَعَاءِ لَهُ مِنْ كُلِّ وَافِدٍ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ عَلَى اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَأَهْتَرَّتْ
لَوْصِفِ مَنَاقِبِهِ الْمَنَازِرِ .

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ جَزِيلِ إِنْعَامِهِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا أُسْتَرِيدُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَنَوَالِهِ
وِإِكْرَامِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نِعْمَ الدَّخِيرَةُ لِصَاحِبِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ
وَعِنْدَ قِيَامِهِ ، وَأَقُولُهَا خَالِصًا مُخْلِصًا وَيَافُوزَ مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفَ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحَقِّ دُعَى بَجَاءٍ بِأَشْرَفِ مِلَّةٍ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تُعْدِلُ حَجَّةً» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ جَمِيعِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

خُصُوصاً عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أُمَّتِهِ الْمُخْتَصِصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَاذَرَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخَطِّابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَارِثِ عِلْمِهِ ؛ الْجَامِعِ لَجَمِيعِ الْمَآثِرِ وَالْمَنَاقِبِ ،
مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيماً كَثِيراً .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمُلْكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْخَيْرُ بِيَدِهِ يُفِيضُهُ
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْبَادَهُ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ
عَنْهُمْ الْغَلَا ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعِدَا ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ، لِيُذْهِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ
الْمُنْكَرِ ، وَيُنْصِفَ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمَ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمَطْهُرِ .

وَمَا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعَظَّمُ ؛ الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْحَمْدِ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمُلْكَ عَنْ أَشْرَفِ أَيْحٍ وَأَعْظَمِ
وَالِدٍ ؛ وَقَامَتْ عَلَى أَسْتِحْقَاقِهِ لِلْسُّلْطَانَةِ الدَّلَائِلُ ، وَأَلْفَهُ سِرِيرُ الْمُلْكِ وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ
وَالِدِهِ وَمَنْ أَخِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّمَائِلُ ؛ فَهُوَ الْمَالِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمُلْكُ بِهِ
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةَ الْفَخَارِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي السُّؤْدُدِ وَالْفَخَارِ
مِثْلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قِيلَ : بِحَرِّ طَمِيٍّ أَوْ بَدْرٍ تَجَلَّى ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي
خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِعُلُوِّ شَأْنِهِ وَأَرْقَانِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لِعَلْيَانِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْآوَاخِرَ ، وَأَضْفَيْتَ عَلَيْهِ حُلُلَ الْمَفَاحِرِ ؛ وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ قُوَّةً وَنَصْرًا ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي أَلْسَعَ بِحَالٍ نَصْرَهُ فَأَخَذَ الْكُفَّارَ حَضْرًا ، وَحَكَمَتْ
سُيُوفُهُ الْقَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِضْرًا ؛ قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَزِّ وَالنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كَرِّه، وَفَضَّلَهُ عَلَى سَائِرِ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ بِالْحَجِّ وَزِيَارَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَمَرَّةً أُخْرَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَرَّةً وَمَرَّةً !!! كَمْ سَلَكَ سَنَنَ
وَأَبْدِهِ وَأَخِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - بِالْفَزَاةِ فَكَانَ لَهُ كُلُّ مَشْهَدٍ مَذْكُورٍ، وَعُرِفَ
تَقَدُّمُهُ وَإِقْدَامُهُ فَكَانَ أَعْظَمَ نَاصِرٍ وَأَشْرَفَ مَنْصُورٍ؛ يَحْمَدُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَالنَّاسُ عَنْ
جَمِيلِ ذَبِّهِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَحَمِيدِ فِعْلِهِ، وَاسْتَقَلَّ الْجَزِيلُ فَيُنْبِلُ الْجَمِيلَ لِمَنْ أَمَّ أَبْوَابَهُ
الشَّرِيفَةَ فَلَا يُسْتَكْتَرُ هَذَا مِنْ مِثْلِهِ ؛ مَا حَمَلَتْ رَأْيَاتِهِ الشَّرِيفَةَ كَثِيبَةً إِلَّا نَصَرَتْ ،
وَلَا وَقَفَ بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي دَفْعِ طَائِفَةِ الْكُفْرِ إِلَّا كُسِرَتْ ؛ وَلَا جَهَّزَ عَسَاكِرَهُ
الْمَنْصُورَةَ إِلَى قَلْعَةٍ إِلَّا نَزَلَ أَهْلُهَا مِنْ صَيَاصِيهِمْ، وَلَا حَاصَرُوا ثَغْرًا لِلْكَفَّارِ إِلَّا أَخَذُوا
بَنَوَاصِيهِمْ ؛ وَلَا سِيرَ سِرِّيَّةً لِمُوَاجَهَةِ مُحَارِبٍ إِلَّا ذَلَّ عَلَى رَغْمِهِ، وَلَا نَطَقَ لِسَانُ الْحَمْدِ
لِلْمُجَاهِدِ أَوْ سَارَ الشَّاهِدِ إِلَّا وَقَفَ الْحَمْدُ عَلَى قَوْلِهِ وَأَسْمِهِ ؛ فَاخْتَارَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِلْمٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ، وَاجْتَبَاهُ لِلدَّبِّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ؛ وَجَعَلَهُ لِسُلْطَانِهِ وَارِثًا، وَفِي الْمَلِكِ
مَا كُنَّا، وَلِلْقَمَرَيْنِ ثَالِثًا؛ وَلَا مَوْرَهُ سِدَادًا، وَلِثُغُورِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ سَدَادًا؛ وَفَوَّضَ إِلَيْهِ
الْقِيَامَ بِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ، وَالنَّظَرَ فِي مَصَالِحِ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ ؛ وَعَدَّقَ بِهِ أُمُورَ الْمَمَالِكِ
وَالْأَمْلَاقِ ، وَأَطْلَعَ بِسَعَادَتِهِ أَيْمَنَ الْبُرُوجِ فِي اثْبَتِ الْأَفْلاكِ ؛ وَحَمَى الْإِسْلَامَ
وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ شَرْقًا وَغَرْبًا، وَمَلَأَ بِمِهَابَتِهِ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ رُعْبًا وَحُبًّا ؛
وَبَسَطَ فِي الْبَسِيطَةِ حُكْمَهُ وَعَدْلَهُ، وَنَشَرَ عَلَى الْخَلَائِقِ حِلْمَهُ وَفَضْلَهُ ؛ وَفَرَضَ طَاعَتَهُ
عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَجَعَلَهُ سَيِّدًا لِلْمُلُوكِ الْعُرَبِ وَالْعَجَمِ ؛ وَأَمَّنَ بِمِهَابَتِهِ كُلَّ حَاضِرٍ وَبَادٍ،
وَنَوَّمَ سُكَّانَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ كَنْفِهِ فِي أَوْطَانِ مِهَادٍ؛ وَسَكَّنَ خَوَاطِرَ الْمَجَاوِرِينَ
مِنْ جَمِيعِ الْخَوَافِ ، وَصَانَ بِالْمَقَامِ فِي مَكَّةَ الطَّائِفَ وَالْعَاقِبَ ؛ قَدْ حَسُنَ مَعَ اللَّهِ
تَعَالَى سِيرَةٌ وَسَيَرًا، وَدَلَّتْ آيَاتُهُ الشَّرِيفَةُ أَنَّهُ خَيْرُ مَلِكٍ أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِرِعِيَّتِهِ خَيْرًا؛
وَرَأَى اللَّهُ فِيمَا رَعَى، وَسَعَى فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ عَالِمًا أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى .

قد مَلَأَ أَعْيُنَ الرَّايا بِالطَّمَأْنِينَةِ وَالْهُجُوعِ ، وَأَمَّنَّهُمْ فِي أَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ بِالرَّخَاءِ مِنْ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ، وَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَسَهَّلَ لَهُمُ الدُّخُولَ إِلَى بَيْتِهِ
الْحَرَامِ بَرًّا وَبَحْرًا ، وَفَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - جَمِيعَ الْأُمُصَارِ ،
وَمَلَأَ مِنْ مَهَابَتِهِ جَمِيعَ الْأَفْطَارِ :

فسارت مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * وَهَبَتْ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ !

فوجب على الْعَالَمِينَ أَنْ يَدْعُوا لِدَوْلَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْمُبَارَكَةِ بِطَوِيلِ الْبَقَاءِ ، وَ[دَوَامِ] الْعُلُوِّ
وَالْإِرْتِقَاءِ ، وَوَجَبَ عَلَى كُلِّ مَنْ الْوَاصِلِينَ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ وَحَضْرَةَ قُدْسِهِ ، أَنْ يَنْتَهِلَ
بِالدَّعَاءِ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوا لِنَفْسِهِ ، فَكَيْفَ مِنْ هُوَ مَمْلُوكُهُ وَأَبْنُ مَمْلُوكِهِ وَوَارِثُ عِبُودِيَّتِهِ ،
وَمَنْ لَمْ يَزَلْ هُوَ وَوَالِدُهُ وَإِخْوَتُهُ فِي صَدَقَاتِ وَالِدِهِ الشَّهِيدِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَغَمِيمِ
نِعْمَتِهِ ، الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْمُكْرَمِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَزْرَجِيِّ ،
فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مَدَّةَ أَيَّامِهِ مُبْتَهِلًا بِصَالِحِ دَعَوَاتِهِ ، مُتَوَسِّلًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَوَامِ نَصْرِهِ
وَطَوِيلِ حَيَاتِهِ ، طَائِفًا عِنْدَ مَقَامِهِ الشَّرِيفِ حَوْلَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، وَالْمَشَاعِرِ الْعِظَامِ .

وَأَحَبُّ أَنْ يُخَفِّفَهُ بِأَشْرَفِ الْعِبَادَةِ فَلَمْ يَجِدْ أَجَلَ مِقْدَارًا وَلَا أَعْظَمَ أَجْرًا ، مِنْ عُمْرَةٍ
يَعْتَمُرُهَا عَنْهُ وَيُهْدِي ثَوَابَهَا لَصَحَابَتِهِ الشَّرِيفَةِ وَيَزِيدَ بِذَلِكَ نَخْرًا ، فَقَامَ عَنْهُ بِعُمْرَتَيْنِ
شَرِيفَتَيْنِ أَعْتَمَرَهُمَا عَنْهُ فِي رَمَضَانَ ، مَكْلَتَيْنِ بِإِحْرَامَيْهِمَا وَتَلْبِيَّتَيْهِمَا ، وَطَوَّافَتَيْهِمَا
وَسَعْيَيْهِمَا ، يَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى أَبْوَابِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَيَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَسْأَلُ صَدَقَاتِهِ
الشَّرِيفَةَ أَنْ يَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنِصْفِ مَعْلُومِ صَدَقَةٍ عَلَيْهِ ، وَيَنْصِفَهُ لِأَوْلَادِهِ : لِيَقْضَى بَقِيَّةُ
عُمْرِهِ فِي الثَّلَاثَةِ الْمَسَاجِدِ ، وَيُخَصِّصَهُ بِجَزَائِلِ الدَّعَاءِ مِنْ كُلِّ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ ، وَأَنْ يَكُونَ
ذَلِكَ مُسْتَمْرًا عَلَيْهِ مَدَّةَ حَيَاتِهِ ، وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ وَنَسْلِهِ وَعَقِيهِ بَعْدَ وَقَاتِهِ ، لِتَشْمَلَ
صَدَقَاتُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتِ ، وَيَطِيبَ لِقَائَهُ

في أيامه الشريفة الممات ؛ جَعَلَ اللهُ تعالى مَوْلانا السلطانَ وَارِثَ الأعمار ،
وَأَجْرَى بِدَوَامِ أَيَّامِهِ الشَّريفةِ المِقْدار ؛ وَجَعَلَ كَلِمَةَ المُلْكِ باقيةً في عَقْبِهِ ، وَبَلَّغَهُ
من النِّصْر والظَّفَرِ والأَجْرِ غَايَةَ أَرِيهِ ؛ وَجَعَلَ أَيَّامَهُ كُلَّهَا مَسَارًا وَبَشَائِرَ ، وَدَوْلَتَهُ تَسْرَ
النَّوَاطِرَ ، وَسَعَادَتَهُ لَيْسَ لَهَا آخِرٌ ؛ وَهُيئَتْهُ بِمَا قَدْ أَتَمَّهُ اللهُ لَهُ مِنْ مُلْكٍ وَالِدِهِ الشَّهِيدِ
رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

[أَهْنِكَ] بِالْمُلْكِ يَا خَيْرَ مَنْ * أَجَارَ الْبَرَايَا وَمَنْ مَارَهَا ،
وَمَنْ لَيْسَ لِلْأَرْضِ مَلِكٌ سِوَاهُ * تُمِيلُ لَهُ الْخَلْقُ أَبْصَارَهَا !
وَأَنْتَ الَّذِي تَمْلِكُ الْخَلَاقِينَ * ^(١) وَإِعْصَارَهَا ،
وَتَمْلِكُ سَيِّبَ تَكْفُورِهَا * وَتَرْكَبُ بِالْحَيْشِ أَوْعَارَهَا ،
وَتَحْكُمُ فِي الْمَرْءِ حُكْمَ الْمُلُوكِ * وَتُنْشِدُ فِي التَّخْتِ أَشْعَارَهَا ،
وَتَفْتَحُ بَغْدَادَ دَارَ السَّلَامِ * وَتَنْفِي بِمُلْكِكَ أَكْذَارَهَا ،
وَتَأْخُذُ بِالْعَسْكَرِ النَّاصِرِيِّ * قُصُورَ الْخِلَافَةِ أَوْتَارَهَا ،
وَيَأْمَنُ فِي ذَلِكَ الْعَالَمُونَ * وَتُجْمَى الْأُسُودَ وَأَوْكَارَهَا ،
وَتَبْقَى إِلَى أَنْ تَعَمَّ الْبِلَادَ * بِنُعْمَى ثَنَائِعِ إِدْرَارَهَا ،
وَيَبْلُغُ مُلْكُكَ أَقْصَى الْبِلَادِ * وَتُجْرَى الْعِبَادَ وَأَوْطَارَهَا ،
وَيَنْظُمُ سِيرَتَكَ النَّاطِمُونَ * وَتُعْمَى مَفَاذِيكَ سُمَارَهَا ،

[وَاللهُ يُقَيِّمُهُ ^(١)] بَعْدَهَا دَائِمًا نَاصِرَ الدُّنْيَا وَالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، كَمَا سَمَّاهُ وَالِدَهُ
نَاصِرَ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَى مَا نِشَاءُ قَدِيرٌ ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ ؛ وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات^(١)

أعلم أنه رُبَّمَا أَعْتَنَتِ الْمُلُوكُ بَعْضُهُ ، فَأَقْرَحَتْ عَلَى كُتَابِهَا لِإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ
الْهَزْلِيَّةِ ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِتْيَانِ بِهَا عَلَى وَفْقِ غَرَضٍ ذَلِكَ الْمَلِكِ . كَمَا وَقَعَ لِمُعِينِ الدَّوْلَةِ
أَبْنِ بُوَيْهِ الدِّيَلَمِيِّ فِي اقْتِرَاحِهِ عَلَى أَبِي إِسْحَقَ الصَّابِي كِتَابَةَ عَهْدٍ بِالتَّطَفُّلِ ، لِرَجُلٍ كَانَ
عِنْدَهُ أَشْمُهُ عَلَيْكَ ، يُنْسَبُ إِلَى التَّطَفُّلِ ، وَيَسْخَرُ مِنْهُ السُّلْطَانُ بِسَبَبِ ذَلِكَ .

وهذه نسخة عهد بالتطفل ، التي أنشأها أبو إسحاق الصابي لعليك المذكور :

هَذَا مَا عَهَدَ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفُ بَعْلِيكَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ عُرْسِ الْمَوْصِلِيِّ ، حِينَ
اسْتَخْلَفَهُ عَلَى إِحْيَاءِ سُنَّتِهِ ، وَاسْتِنَابِهِ فِي حِفْظِ رُسُومِهِ ، مِنَ التَّطَفُّلِ عَلَى أَهْلِ مَدِينَةِ
السَّلَامِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ أَرْبَاضِهَا وَأَكْنَافِهَا ، وَيَجْرَى مَعَهَا فِي سَوَادِهَا وَأَطْرَافِهَا ؛
لِمَا تَوَسَّعَ فِيهِ مِنْ قَلَّةِ الْحَيَاءِ ، وَشِدَّةِ اللَّقَاءِ ؛ وَكَثْرَةِ اللَّقَمِ ، وَجَوْدَةِ الْهَضْمِ ؛ وَرَأَى
أَهْلًا لَهُ مِنْ سَدِّ مَكَانِهِ ، وَالرَّفَاقَةِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي فَطَنَ لَهَا ، وَالرَّقَاعَةَ الْمُطْرَحَةَ الَّتِي أَهْتَدَى
إِلَيْهَا ؛ وَالنَّعَمَ الْعَائِدَةَ عَلَى لَا بَسِيهَا بِمَلَادِّ الطُّعُومِ ، وَخِصْبِ الْجُسُومِ ؛ وَرَدًّا عَلَى مَنْ
أَتَسَّعَتْ حَالَهُ ، وَأَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَى غَرَائِبِ الْمَأْكُولَاتِ ، وَأَخْفَرَهُ بِبِدَائِعِ الطَّيِّبَاتِ ؛ أَخِذًا
مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَصِيبِ الشَّرِيكِ الْمُنَاصِفِ ، وَضَارِبًا فِيهِ بِسَهْمِ الْخَلِيطِ الْمُفَاوِضِ ؛
وَمُسْتَعْمَلًا لِلدَّخْلِ اللَّطِيفِ عَلَيْهِ ، وَالْمُتَوَلِّجِ الْعَجِيبِ إِلَيْهِ ؛ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي سَتُشْرَحُ
فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ أَوَامِرِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَتُسْتَوْفَى الدَّلَالَةُ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ رَشَادٍ وَصَوَابٍ ؛
وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ وَعَلَيْهِ التَّعْوِيلُ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات

يشتمل على فصلين : الفصل الأول فيما أعتنت الملوك ببعضه . الفصل الثاني في سائر أنواع الهزل ، ولكنه

لم يذكر هنا الفصل الثاني ، فليتبَّه .

أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الْجَانِبُ الْعَزِيزُ، وَالْحِرْزُ الْحَرِيزُ؛ وَالرُّكْنُ الْمَنِيعُ، وَالطُّودُ الرَّفِيعُ، وَالْعِصْمَةُ الْكَالِثَةُ، وَالْجَنَّةُ الْوَاقِيَةُ، وَالزَّادُ النَّافِعُ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَحَيْثُ الْأَمْثَلَةُ مِنَ الْأَزْوَادِ؛ وَأَنْ يَسْتَشْعِرَ خِيفَتَهُ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، وَيُرَاقِبَهُ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ؛ وَيَجْعَلَ رِضَاهُ مَطْلَبَهُ، وَتَوَابَهُ مَكْسَبَهُ، وَالْقُرْبَةَ مِنْهُ أَرْبَهُ، وَالزَّانِي لَدَيْهِ غَرَضَهُ؛ وَلَا يُخَالَفَهُ فِي مَسْئَعَةٍ قَدَّمَ، وَلَا يَتَعَرَّضُ عِنْدَهُ لِعَاقِبَةٍ تَذَمُّ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَى مَا كَرِهَ وَأَنْكَرَ، وَلَا يَتَقَاعَسَ عَمَّا أَحَبَّ وَأَمَرَ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَأَدَّبَ بِأَدَبِهِ فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ، وَيَقِفَ عَلَى حُدُودِهِ فِيمَا أَبَاحَ وَحَظَرَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ هِجِيرًا وَدَيْدَنَةً، وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْهَا جُهِ وَسَنَنُهُ؛ تَكْفَلُ اللَّهُ لَهُ بِالنَّجَاحِ وَالصَّلَاحِ، وَأَفْضَى بِهِ إِلَى الرِّشَادِ وَالْفَلَاحِ؛ وَأُظْفِرَهُ بِكُلِّ بَغْيَةٍ، وَأَوْصَلَهُ إِلَى كُلِّ مَشْيَةٍ؛ وَلَمْ يُجْلِهِ مِنَ الْقَوْزِ بِمَا يُرْصَدُ، وَالْحَوْزِ بِمَا يَقْصَدُ؛ بِذَلِكَ وَعَدَ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ، وَمَا تَوْفِيقُنَا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا مَرْجِعُنَا إِلَّا إِلَيْهِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَأَمَّلَ اسْمَ التَّطْفِيلِ وَمَعْنَاهُ، وَيَعْرِفَ مَغْزَاهُ وَمَنْحَاهُ؛ وَيَتَصَفَّحَهُ تَصَفُّحَ الْبَاحِثِ عَنْ حَظِّهِ بِمَحْمُودِهِ، غَيْرِ الْقَائِلِ فِيهِ بِتَسْلِيمِهِ وَتَقْلِيدِهِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ اسْتَقْبَحَهُ مِنْ فَعْلِهِ، وَكَرِهَهُ لِمَنْ اسْتَعْمَلَهُ؛ وَنَسَبَهُ فِيهِ إِلَى الشَّرِّ وَالنَّهَمِ، وَحَمَلَهُ مِنْهُ عَلَى التَّفَهِّ وَالْقَرَمِ؛ فَهُمْ مِنْ غَلَطٍ فِي اسْتِدْلَالِهِ، فَأَسَاءَ فِي مَقَالِهِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ شَجَّ عَلَى مَالِهِ، فَدَافَعَ عَنْهُ بِأَحْتِيَالِهِ؛ وَكُلُّ الْفَرِيقَيْنِ مَذْمُومٌ، وَجَمِيعُهُمَا مَكُومٌ؛ لَا يَتَمَلَقَانِ بَعْدَ وَاضِعٍ، وَلَا يَعْتَرِيَانِ مِنْ لِبَاسٍ فَاضِحٍ؛ وَمِنْهُمْ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَرَى فِيهَا شِرْكََةَ الْعِنَانِ: فَهِيَ تَتَدَلَّلُ إِذَا كَانَ لَهَا، وَتَتَدَلَّى عَلَيْهِ إِذَا كَانَ لغيرِهَا؛ وَتَرَى أَنَّ الْمِنَّةَ فِي الْمَطْعَمِ لِلْهَاجِمِ الْآكِلِ، وَفِي الْمَشْرَبِ لِلْوَارِدِ الْوَاعِلِ، وَهِيَ أَحَقُّ بِالْحُرِّيَّةِ، وَأَخْلَقُ بِالْخَيْرِيَّةِ؛ وَأُحَرِّى بِالْمُرُوءَةِ، وَأُوَلِّى بِالْفُتُوَّةِ؛ وَقَدْ عَرَفْتُ بِالتَّطْفِيلِ، وَلَا عَارَ فِيهِ عِنْدَ ذَوِي التَّحْصِيلِ،

لأنه مُشْتَقٌّ من الطَّقِيل وهو وَقْتُ الْمَسَاءِ ، وَأَوَانُ الْعِشَاءِ ؛ فلما كَثُرَ اسْتَعْمِلَ فِي صَدْرِ
النَّهَارِ وَحِجْزِهِ ، وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ؛ كما قِيلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ : قَمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ ،
وَلَا بُدَّ بَكَرٍ وَعُمَرُ : الْعُمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا عُمَرُ ، وقد سَبَقَ إِمَامُنَا بَيَانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى
هَذَا الْأَمْرِ سَبَقًا أَوْجَبَ لَهُ خُلُودُ الدَّكْرِ ، فهو بَاقٍ بَقَاءَ الدَّهْرِ ، وَمُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ
عَصْرٍ ؛ وما نعرف أَحَدًا نَالَ من الدُّنْيَا حَقًّا من حُطُوطِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يُخَلِّفُهُ ،
وَصِيَّتٌ يَسْتَبِيدُ بِهِ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ ، فَبَيَانُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَطْفِيلِهِ كما تُذَكِّرُ
الْمُلُوكُ بِسِيرِهَا ، فَمَنْ بَلَغَ إِلَى نِهَائِهِ ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَتِهِ ؛ سَعِدَ بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ
فِي يَوْمِهِ ، وَنَبَاهَةِ ذِكْرِهِ فِي غَدِهِ ؛ جعلنا الله جميعًا من السابقين إلى مَدَاهِ ، وَالْمَذْكُورِينَ
كَذِكْرَاهِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَعْتَمِدَ مَوَائِدَ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ بِغَزَايَاهِ ، وَنُحْمَطِ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ بِسَرَايَاهِ ؛
فإنه يَطْفَرُ مِنْهَا بِالْغَنِيمَةِ الْبَارِدَةِ ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْغَرِيبَةِ النَّادِرَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَأَهَا
وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ ، الْمِلْدَةِ لِلْسَانَ ؛ وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ ، السَّائِغَةِ فِي الْحُلُقُومِ ؛
مَا لَا يَجِدُهُ عَبْدٌ غَيْرُهُمْ ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَدَيْهِمْ ؛ لِحَدِيقِ صِنَاعَتِهِمْ ، وَجَوْدَةِ أَدَوَاتِهِمْ ،
وَأَنْزِياجِ عَلَيْهِمْ ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ؛ وَاللَّهُ يُوفِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَظَّنَا ، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَظَّنَا ؛
وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا ، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَعْزِضُ لِمُوسِرَى التُّجَّارِ ، وَجُهَّزَى الْأَمْصَارِ ؛ مِنْ وَكِرَةِ الدَّارِ ،
وَالْعُرْسِ وَالْإِعْذَارِ ؛ فَإِنَّهُمْ يُوسِّعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي النَّوَابِ ، بِحَسَبِ تَضْيِيقِهِمْ عَلَيْهَا
فِي الرَّائِبِ ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُتَطَفِّلِينَ ، وَأَغَضُوا عَلَى تَهْجُمِ الْوَاعِلِينَ ؛
لِيَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فِي حِمَا فِلْهِمُ الرِّذْلَةِ ، وَيَعُدُّوه فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمُ النَّذْلَةِ ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمُ
الْبَاحِجُ بِاتِّسَاعِ طَعَامِهِ ، الْمُبَاهِي بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الْوُجُوهَ الْغَرِيبَةَ
فَأُطْعِمُهَا ، وَالْأَيْدِيَ الْمُتَمَدِّدَةَ فَأُمْلِئُهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرِدْ بِمَا فَعَلَتْهُ الْكَرَمُ وَالسَّعَةُ ،

ولأنما أرادت المنّ والسمعة ؛ فإذا اهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بغيتها من إعلان قضيتها ، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها ، إن شاء الله .

وأمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطايخ وحاليها ؛ فإنهم يملكون من أصحابهم أزيمة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم ؛ وإذا عادت هذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانها ، وأخذته أختا من إخوانها ؛ ساعد بمرافقتها ، ووصل إلى محابه من جهاتها ، ومأربه في جنباتها .

وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين ، ومواسم المتبايعين ؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ؛ أتبعها إلى المقصد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوى لها ؛ وأستعلم ميقات الدغوه ، ومن يحضرها من أهل النسيان والمروء ؛ فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يراعى وقت مصيره إليها ليتبعه ، ويمكن له ليضجبه ويدخل معه ؛ وإن خلا من ذلك اختلط بزمر الداخلين ، وعصب الراجلين ؛ فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب ، ويخرج من سلطان البوايين والمجباب ؛ حتى يحصل حصولا قل ما حصل [عليه] أحد قبله فانصرف عنه إلا ضليعا من الطعام ، بريقا من المدام ؛ إن شاء الله .

وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ، ومواطن الأبلات (؟) والمختئين ؛ فإذا أتاه خبر جمع يضمهم ، ومأدبة تعمهم ؛ ضرب إليها أعناق إبله ، وأنضى نحوها مطايا خيله ؛ وحمل عليها حملة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ؛ والليث الهاسر ، والعقاب الكاسر ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين ، ومحافل الرعاة المقترين ؛ وأن لا يتقل إليها قدما ، ولا يعفر لما كلفها قسا ؛ ولا يلقي في عتب دورها كيساناء ، ولا يعد الرجل

منها لإنسانا ؛ فإنها عَصَابَةٌ يَجْتَمِعُ لها ضَيْقُ النُّفُوسِ والأَحْلَامِ ، وَقَلَّةُ الإِحْكَامِ والأَمْوَالِ ؛
وفى التَّطْفِيلِ عليها إِخْخَافٌ بها يُوسَمُ ، وإِزْرَافُهُ بِمُرُوءَةِ الْمُتَطَفِّلِ يُوصَمُ ؛ والتَّجَنُّبُ لها
أُحْرَى ، والأَزْوَارُ عنها أَجْحَى ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ .

وأَمْرُهُ أَنْ يَحْزَرَ الْخَوَانَ إِذَا وُضِعَ ، والطَّعَامَ إِذَا نُقِلَ ؛ حتَّى يَعْرِفَ بِالْحَدْسِ
والتَّقْرِيبِ ، والبَحْثِ والتَّنْقِيبِ ؛ عَدَدَ الألوانِ فى الكَثْرَةِ والقِلَّةِ ، وأَفْتِنَانَهَا فى الطَّيِّبِ
واللَّدِّ ؛ فَيُقَدِّرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَشْبَعَ مع آخِرِهَا ، وَيَتَمَتَّى منها عندَ آتِهَا ؛ ولا يَقُوتهُ
النَّصِيبُ من كَثِيرِهَا وقَلِيلِهَا ، ولا يُحِطُّهُ الحِطُّ من دَقِيقِهَا وجَلِيلِهَا . وَمَتَى أَحَسَّ بَقَلَّةَ
الطَّعَامِ ، وعَجَزَهُ عن الأَقْوَامِ ؛ أَمَعَنَ فى أَوَّلِهِ إِمْعَانَ الكَيْسِ فى سَعَتِهِ ، الرِّشِيدِ فى أَمْرِهِ ،
المَالِىَ لِبَطْنِهِ ؛ من كُلِّ حَارٍّ وَبَارِدٍ ، وَخَيْثٍ وَطَيِّبٍ ؛ فإنه إِذَا فَعَلَ ذاكَ سَلِمَ من
عَوَاقِبِ الأَعْمَارِ الَّذِينَ يَكْفُونُ تَطَرُّفًا ، وَيُقْلُونُ تَأَدُّبًا ؛ وَيُطْنُونُ أَنَّ المَادَّةَ تَبْلَغُهُمْ
فى آخِرِ أَمْرِهِمْ ، وتَنْتَهَى بِهِمْ إلى غَايَةِ سَعْيِهِمْ ؛ فلا يَلْبَثُوا أَنْ يَحْجَلُوا نَجْمَةَ الوَاقِعِ ،
وَيَقْلَبُوا بِحَسْرَةِ الخَائِبِ ؛ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْ مِثْلِ مَقَامِهِمْ ، وَعَصَمَنَا مِنْ شَقَاءِ جُدُودِهِمْ ؛
إِنْ شَاءَ اللهُ .

وأَمْرُهُ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ ، وَيُقَالِطَ حِسَّهُ ؛ وَيَضْرِبَ عن كَثِيرٍ مِمَّا يَلْحَقُهُ صَفْحًا ،
وَيَطْوِي دُونَهُ كَشْحًا ، وَيَسْتَحْسِنَ الصَّمَمَ عن الفَحْشَا ؛ وَإِنْ أَتَتْهُ اللَّكْرَةُ فى حَلْقِهِ ،
صَبَرَ عَلَيْهَا فى الوُصُولِ إلى حَقِّهِ ؛ وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ الصَّفْعَةُ فى رَأْسِهِ ، صَبَرَ عَلَيْهَا لِمَوْقِعِ
أَضْرَاسِهِ ؛ وَإِنْ لَقِيَهِ لَاقٍ بِالْخَفَاءِ ، قَابَلَهُ بِاللُّطْفِ والصَّفَاءِ ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَجَعَ الأبْوَابَ ،
وَخَالَطَ الْأَسْبَابَ ؛ وَجَلَسَ مع الحُضُورِ ، وَامْتَرَجَ بِالْجُمْهُورِ ؛ فلا بُدَّ أَنْ يَلْقَاهُ الْمُنْكَرُ
لأَمْرِهِ ، وَيَمُرَّ بِهِ المُسْتَغْرِبُ لَوَجْهِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ حُرًّا حَيًّا أَمْسَكَ وَتَدَثَّمْ ، وَإِنْ كَانَ فَظًّا
غَلِيظًا هَمَّهُمْ وَتَكَلَّمَ ؛ وَتَجَنَّبَ عندَ ذاكَ المُخَاشَنَةَ ، وَاسْتَعْمَلَ مع المُخَاطَبِ لَهُ المُلَاسِنَةَ ؛
لِيُبَرِّدَ غَيْظَهُ ، وَيَقْلَّ حَدَّهُ ؛ وَيُكَفِّ غَرَبَهُ ، وَيَأْمَنَ شَغْبَهُ ؛ ثُمَّ إِذَا طَالَ المَدَى

تكررت الالتطاط عليه فعرف ، وأنست النفوس به فألف ؛ ونال من المحال المجتمع عليها ، منال من حشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهمٍ ودراية ، وعقلٍ وحصافة ؛ طفل على وليه ، لرجل ذي حالٍ عظيمه ؛ فرمقته فيها من القوم العيون ، وصرفت بهم فيه الظنون ؛ فقال له قائلٌ منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعي إلى هذا الحق . قيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : إذا رأيت صاحب الدار عرفتني وعرفته نفسي . فحى به إليه ، فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك : أن يصنع طعامك زائداً على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ؛ قال : نعم ! قال : فإتبعك تلك الزيادة لى ولأمثالى ، وبها يستظهر لمن جرى مجراى ، وهى رزقٌ لنا أنزله الله على يدك وبك ، فقال له : كرامةٌ ورُحبا ، وأهلا وقربا ؛ والله لا جالسٌ إلا مع عليّة الناس ووجوه الجلّساء ، إذ أطرفت فى قولك ، وتفنّنت فى فعلك . فليكن ذلك الرجل إماماً يقتدى به ، ويقتفى طريقه ، إن شاء الله .

وأمره بأن يكثر من تعاهد الجوارشنة المتفدّة للسدد ، المقوية للمعد ؛ المشبهة للطعام ، المسهلة لسبل الانهضام ؛ فإنها عماد أمره وقوامه ، وبها انتظامه وألتمامه ؛ إذ كانت تعين على عمل الدعوتين ، وتنبض فى اليوم الواحد الأكلتين ؛ وهو يتناولها كذا كالكاآب الذى يقط أفلامه ، والجندى الذى يصقل حسامه ؛ والصانع الذى يحدد آآته ، والمآهر الذى يصلح أدواته ، إن شاء الله .

هذا عهد عليك بن أمحد إليك ، وحجته لك وعليك ؛ لم يالك فيه إرشاداً وتوقيفا ، وتهذيباً وتثقيفا ؛ وبعثاً وتبصيرا ، وحثاً وتذكيراً ؛ فكن بأوامره مؤتمراً ، وبزواجره مُزديحراً ؛ ولسومه مُتبعياً ، وبحفظها مضطليعا ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

الخاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،
وفيهما أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ، ويتعلق الغرض
من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لغةً وأصطلاحاً) .

أما معناه لغةً ، فالمراد منه مسافة معلومة مُقدَّرةٌ بأثنى عشر ميلاً ، واحتجَّ له
الجوهرى بقول مُزَرَّدٍ يمدح عرابة الأوسى :

فَدَتِكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي ، * وَنَاقَتِي النَّاحِي إِلَيْكَ بَرِيدُهَا !

يُرِيدُ سَيْرُهَا فِي الْبَرِيدِ . وقد قَدَّرَهُ الْفُقَهَاءُ وَعُلَمَاءُ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ بِأَنَّهُ أَرْبَعَةُ
فَرَاسِخَ ، وَالْفَرَسُخُ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ ، وَالْمِيلُ ثَلَاثَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ بِالْهَاشِمِيِّ ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ
وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا ، كُلُّ أَصْبُعٍ سِتُّ شَعِيرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرَ إِحْدَاهَا لِبَطْنِ الْأُخْرَى ،
وَالشَّعِيرَةُ سَبْعُ شَعْرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ مِنْ ذَنْبٍ بَغْلٍ أَوْ يَرْذَوْنِ .

قال الجوهري : ويقال أيضا على البريد : المرتب ، يقال : حُل فلان على البريد .
قال : ويُطلق أيضا على الرسول بريد .

ثم اختلف فيه فقيل : إنه عربي . وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مشتق من
بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه . وقيل : من أبردته إذا أرسلته . وقيل : من برد
إذا ثبت ، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار ، يقال : * اليوم يوم بارد سموه *
أى ثابت .

وذهب آخرون إلى أنه فارسي معرب . قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه
”النهاية في غريب الحديث“ : وأصله بالفارسية بريدة دم ، ومعناه مقصوص
الذنب . وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلا في البريد قصوا
ذنبه ، ليكون ذلك علامة لكونه من بغال البريد . وأنشد الجوهري لأمرئ القيس :
على كل مقصوص الذنابى معاود * بريد السرى بالليل من خيل بربرا .

الأمـر الثاني

(أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجاهلية ، فقد ذكر في ”التعريف“ : أن البريد كان موجودا في عهد
الأكاسرة من ملوك الفرس ، والقيصرة ملوك الروم . قال : ولكن لا أعرف هل
كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن ؟ . ثم قال : ولا أظنه
إلا على القدر المحذور ، إذ كانت حكمتهم تأبى إلا ذلك .

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه ”الأوائل“ : أن أول من
وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . قال في ”التعريف“ :

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له ابنه الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد. قال: وقيل: إنما فعل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه: كعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومضعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد.

والذى ذكره العسكرى: أن عبد الملك إنما أحكمه. وذكر عنه أنه قال لابن الدغيدة: ولتيتك ما حصر باني إلا أربعة: المؤذن، فإنه دأى الله تعالى فلا حجاب عليه. وطارق الليل، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً لنام. والبريد، فتى جاء من ليل أو نهار فلا تنجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك، فافتح الباب وأرفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضاً.

قال في "التعريف": وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهى الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفح منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائماً، والعمل عليه دائماً، حتى آن لبناء الدولة المروانية أن يتنقض، ولحلبها أن يتنكث، فأتقطع ما بين خراسان والعراق، لأنصارب الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى آتقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يسد له سرج، ولا تلجم له دابة. ثم إن المهدي أغزى ابنه هرون الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتب فيما بينه وبين

مُسْكِرَ أَبِيهِ بُرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ ، وَتُرِيهِ مُتَجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِي مَدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُونَ الرَّشِيدِ ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِاجْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَانَ صَلَاحًا لِلْمَلِكَةِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَرَبَّنَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَجَعَلَ الْبَغَالَ فِي الْمَرَكَزِ ، وَكَانَ لَا يُجَهِّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَبَرِ ، ثُمَّ اسْتَمَرَ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبِرْدُونِ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا ، وَالْفَصْلُ صَيْفًا ، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ ، فَاسْتَعَذَّبَهُ وَاسْتَبْرَدَهُ وَاسْتَطَابَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . فَقَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَازَ ، فَقَالُوا لَهُ : يَعْيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلَ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَازَ ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بَغَالُ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ الْطَافًا فِيهَا رُطْبُ إِزَازَ ، فَأَتَى الْمَأْمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعْجَبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أُمْنِيَّتَهُ ، عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ مِنْ تَعَذُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأْمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى حُمِيَ حَادَّةٌ كَانَتْ فِيهَا مَنِيَّتُهُ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُوَيْهِ الْبَرِيدَ حِينَ عَلَوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَغَلَبُوا عَلَيْهَا ، لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصْدِهِمْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَزَالُ يَأْخُذُ بِهِمْ عَلَى بَغْتَةٍ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاجِقَةِ عَلَى هَذَا ، وَأَهَمُّ مَلُوكِ الْإِسْلَامِ اخْتِلَافُ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَتَنَازُعُهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْحَيْلِ وَالْبَغَالِ ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجاة ، وأعدت له النجب المتخبة .
ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان بني أيوب إلى انقراض دولتهم . وتبعها على ذلك
أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى الملة الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له
ملك مصر والشام وحلب إلى القرار ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً ،
ووزيراً ، وقاضياً ، وكتائباً للإنشاء .

قال : وكان عمي صاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب
الإنشاء ، فلما مثل إليه ليودعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، آكدتها مواسلته بالأخبار
وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبتي كل ليلة إلا على
خبر [ولا تصبني إلا على خبر ^(١)] فافعل ، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان
الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه فحسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكنت أنا
المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه . ثم قال :
وهو جناح الإسلام الذي لا يخص ، وطرف قادمته التي لا تقص .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن
غشى البلاد الشامية تمرلنك صاحب ما وراء النهر ، وفتح دمشق وخرّبها وحرّقها
في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سبباً لحص جناح البريد وبطلانه من سائر
الممالك الشامية . ثم سرى هذا السم إلى الديار المصرية فالحقها بالهمل ، ورمّاها
بعد الحلي بالعطل ، فذهبت معالم البريد من مصر والشام ، وعقت آثاره ، وصار إذا
عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،
ركب البريد على فرس له ، يسير بها الهويناء سير المسافر إلى المكان الذي يريد ،
ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

الأمير الثالث

(بيان معالم البريد)

اعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقى ما يرد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد». ومن تعرض إلى ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أرباب الوظائف، وأشتقاق أسمائهم. وقد أشار إليه الجوهرى في صحاحه أيضا فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مُبرِدٌ يعنى أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه - أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواح من فضة مخلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، منقوش على وجهي اللوح نقشا مزدوجا ماضورته: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأوكره المشرقون». ضرب بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر ماضورته: «عز لمولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان، خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شربة من حريير أصفر ذات بندين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البندين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشربة خلفه من فوق ثيابه. فإذا خرج بریدی إلى جهة من الجهات، أعطى لوحا من تلك الألواح، يعلقه في عنقه، على ما تقدم ذكره، ويذهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشربة خلف ظهره علم أنه بریدی. وبواسطة

ذلك تُذعنُ له أربابُ المراكِرِ بتَسليمِ خَيْلِ البريدِ . ولا يزالُ كذلك حتى يذهبَ ويعودَ ، فيُعيدُ ذلك اللُّوحَ إلى ديوانِ الإنشاءِ .

وكذلك الحكمُ في دواوينِ الإنشاءِ بدمشقَ وحلبَ وغيرهما من الممالكِ الشاميةِ ، لا يختلفُ الحكمُ في ذلك إلا في الكتابةِ بحلِّ ضربِ اللُّوحِ . فإن كان بدمشقَ كُتِبَ : «ضُربَ بالشامِ» . وإن كان بحلبَ كُتِبَ : «ضُربَ بحلبَ المحروسةِ» وكذلك باقى الممالكِ .

الفصل الثانى

من الباب الأول من الخاتمة فى ذكر مراكِرِ البريد

وهى الأماكنُ التى تَقِفُ فيها خَيْلُ البريدِ لتغيرِ خَيْلِ الْبَرِيدِيَّةِ فيها فرساً بعدَ فَرَسٍ ، قال فى "التعريف" : وليست على المقدارِ المُقَدَّرِ فى البريدِ المُحرَّرِ ، بل هى مُتفاوتةُ الأبعادِ ، إذ أَبْجَلَّتِ الضَّرورةُ إلى ذلك : تارة لُبْعِدِ ماءٍ ، وتارة للأنسِ بقريةٍ ، حتى إنك لترى فى [هذه] المراكِرِ البريدِ الواحدَ بِقَدَرِ بريدَيْنِ . ولو كانت على التَّحْزِيرِ [الذى عليه الأعمالُ] لَمَّا كان تَقَاوُتٌ . وقد ذكر منها المقرَّ الشَّهابى بن فضل الله رحمه الله فى "التعريف" ما أَرَبْنى فى ذلك على المقصودِ وزاد ، وهو بذلك أدْرِى وأدْرِبُ . وهانَا أَذْكَرُ ما ذَكَرَهُ ، مَوْصَحًا لِمَا يَحْتَاجُ مِنْهُ إلى التَّوْضِيحِ ، مع الزيادةِ عليه وتَقْرِيبِ التَّرْتِيبِ .

ويشتمل على ستة مقاصد :

المقصود الأول

(في مَرَكِرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التي هي قَاعِدَةُ الْمَلِكِ ، وما يتفرع عنه من المَرَاكِرِ ، وما تَنْتَهِي إِلَيْهِ مَرَاكِرُ كُلِّ جِهَةٍ)

إِعلم أن الذي يَتَفَرَّعُ عن مَرَكِرِ الْقَلْعَةِ وَيَتَشَعَّبُ مِنْهُ أَرْبَعُ جِهَاتٍ ، وهى : جِهَةُ قُوصَ من الوجه القبلى وما يَتَّصِلُ بِذلك من أُسْوَانَ وما يليها من بلاد النوبة ، وَعَيْدَابَ وما يليها من سِوَاكِينَ . وَجِهَةُ الإسْكَندَرِيَّةِ من الوجه البحرى . وَجِهَةُ دِمياطَ من الوجه البحرى أيضا ، وما يتفرع عنها من جِهَةِ غَزَّةَ من البلاد الشامية .

فأما مَرَاكِرُ قُوصَ وما يليها : فمن مَرَكِرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة ، ومنها إلى مَدِينَةِ الْحِيزَةِ ، وهى قَاعِدَةُ الأَعْمَالِ الْحِيزِيَّةِ ، وقد تَقَدَّمَ الكلام عليها فى الكلام على بلاد المملكة فى المقالة الثانية . ثم منها إلى زَاوِيَةِ أُمِّ حُسَيْنَ ، وهى قَرْيَةٌ من عَمَلِ الْحِيزَةِ . قال فى "التعريف" : والمَرَكِرُ الآنَ بِمَنْيَةِ الْقَائِدِ وهى على القُربِ من زَاوِيَةِ أُمِّ حُسَيْنَ المذكورة ، ثم منها إلى وَنَا وهى بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْبَهَنْسَى ؛ ثم منها إلى دَهْرُوطَ وهى بَلَدَةٌ من عمل الْبَهَنْسَى أيضا . ثم منها إلى أَقْلُوسَنَا ، وهى بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْأَشْمُونِيْنَ . ثم منها إلى مُنِيَّةِ بَنِي خَصِيبٍ ، وهى مَدِينَةٌ من عَمَلِ الْأَشْمُونِيْنَ ، وقد تَقَدَّمَ الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلى مَدِينَةِ الْأَشْمُونِيْنَ ، وهى قَاعِدَةُ بِلَادِهَا ، وقد تَقَدَّمَ الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلى ذِرْوَةِ سَرْبَامَ وهى بَلَدَةٌ من عمل الْأَشْمُونِيْنَ على قِمِّ الْخَلِيجِ الْيُوسُفَى الْوَاصِلِ مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْقِيُومِ ، وتعرف بِذِرْوَةِ الشَّرِيفِ ، إضافةً إِلَى الشَّرِيفِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ تَغَلَبَ الَّذِى كَانَ عَصَى بِهَا فى زَمَنِ الظَّاهِرِ بَيْرَسَ ، وَسَمَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمُلْكِ حَتَّى كَادَهُ الظَّاهِرُ وَقَبِضَ عَلَيْهِ وَشَتَقَهُ بِالإِسْكَندَرِيَّةِ ، وبها

(١) فى معجم البلدان لياقوت : قُلُوسَنَا .

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَالْجَامِعُ الَّذِي أُنْشِأَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَنَقْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْمَنَقْلُوطِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسَيُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسَيُوطِيَّةِ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طِمَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسَيُوطَ الْمَقْدَمَةِ الذَّكَرِ عَلَى صَفَةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَاغَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَاغَةُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسَبُورَةِ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا قِيلَ بَلْسَبُورَةُ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَاً . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرْجَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبُلَيْنَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبُلَيْنَا بِإِبْدَالِ الْهَاءِ أَلْفًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهَمَا مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْقَطِعُ الرَّيْفُ فِي الْبَرِّ الْغَرِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِدَنْدَرِي وَيُسَمَّى حَانَ دَنْدَرِي ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعِدَةِ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكُزُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ الثُّبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْهَجْنَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ الثُّبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانٍ فَقَطَّ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانٍ فَقَطَّ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لَيْطَةَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْكِيَانِ ، بِهِ عَيْنٌ تَتَّبِعُ وَليست جارية ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الدَّرِيمِ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرد ، به عين صغيرة يُسْتَقَى منها من الماء ما شاء الله ، وهي لا تريد ولا تنقص . ثم منها إلى حميثة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي ، وهناك عين ماء يُسْتَقَى منها . ثم منها إلى عيذاب ، وهي قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم في الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها عين يُسْتَقَى منها .

وتقدير جميع المسافة من الكيمان إلى عيذاب نحو عشرة أيام سير الأتقال . على أنه في "مسالك الأبصار" قد ذكر أن الطريق إلى عيذاب من شعبة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها في بلاد عرب يُسمون بنى عامر إلى سواكن ، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكُتِبَ السلطان تنتهى إليه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكاتبات .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها في طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربى ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الجيزة . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهي قرية من آخر عمل الجيزة من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهي قرية من عمل البحيرة . [ثم منها إلى الطرانة^(١) . ثم منها إلى طيلاس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضا وتعرف براوية مبارك . قال في "التعريف" : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش ، وهي قاعدة أعمال البحيرة ، ومحل مقام نائب السلطنة بالوجه البحرى ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى لوفين وهي قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة في وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهي من مَرَكز القلعة إلى مدينة قَلْيُوب قاعدة الأعمال القَلْيُوبِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مَدِينَةِ مَنُوف العُلَيَّا ، وهي قَاعِدَةُ الأعمال المَنُوفِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة المَحَلَّة المَعْرُوفَةِ بِالْمَحَلَّةِ الكُبْرَى ، وهي قاعدة الأعمال الغَرَبِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية . وقد وَهَمَ في " التعريف " فسمّاها مَحَلَّة المَرْحُوم بلدةً من بلاد الغَرَبِيَّة غيرها . ثم منها إلى النَحْرِيَّة ، وهي مدينةٌ من عَمَل الغَرَبِيَّة . ثم منها إلى الإسكَنْدَرِيَّة .



وأما الطريق إلى دِمِيَاط وَغَزَّة ، فمن مَرَكز القلعة إلى سِرْيَاقُوس ، وهي بلدةٌ من ضَوَاحِي القَاهِرَةِ ، وليس المَرَكزُ في نَفْسِ البَلَدِ ، بل بِالْقَرْيَةِ المُسَجَّدةِ بِجَوَارِ الخَلْقَاءِ النَّاصِرِيَةِ الَّتِي أَنشَأَهَا السُّلْطَانُ المَلِكُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ عَلَى القُرْبِ مِنْ سِرْيَاقُوس . قال في " التعريف " : وكان قبل هَذَا بالعُشِّ ، وكان طَوِيلُ المَدَى فِي مَكَانٍ مُنْقَطِعٍ ، وَكَانَتِ البَرِيدِيَّةُ لَا تَزَالُ تَتَشَكَّى مِنْهُ ، فَصَلَحَ بِنَقْلِهِ ، وَحَصَلَ بِهِ الرِّفْقُ لِأُمُورِهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا إِلَّا قُرْبُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ المَجاوِرَةِ لِخَلْقَاءِ النَّاصِرِيَّةِ وَمَا يَوْجَدُ فِيهَا ، وَأَنْسَهُ بِمَا حَوْلَهَا [لَكْفَى] . ثم منها إلى بَثْرَ البَيْضَاءِ ، وهي مَرَكزُ بَرِيدٍ مُنْفَرَدٍ لَيْسَ حَوْلَهُ سَاكِنُونَ . ثم منها إلى مَدِينَةِ بُلْبُيْسِ قَاعِدَةِ الْأَعْمَالِ الشَّرْقِيَّةِ ، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية . قال في " التعريف " : وهي آخِرُ المَرَاكِزِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي تُسْتَرَى خِيَامُهَا مِنَ الْأَمْوَالِ السُّلْطَانِيَّةِ وَيُقَامُ لَهَا السُّوَّاسُ وَتَصَرُفُ لَهَا الْعُلُوفَاتُ . ثم منها إلى السَّعِيدِيَّةِ . ثم من السَّعِيدِيَّةِ إِلَى أَشْمُومِ الرُّمَّانِ قَاعِدَةِ بِلَادِ الدَّقْهَلِيَّةِ وَالمُرْتَاخِيَّةِ ، وقد تقدّم ذكرها في المقالة الثانية . ومنها إلى دِمِيَاطٍ وَمَنْ أَرَادَ غَزَّةَ . وقد تقدّم أَنَّ مَدِينَةَ بُلْبُيْسِ هِيَ آخِرُ المَرَاكِزِ السُّلْطَانِيَّةِ . ثم السَّعِيدِيَّةُ وَمَا بَعْدَهَا

إلى الخروبة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ الْبَرِيدِ بِهَا مَقْرُورَةٌ عَلَى عُزْبَانٍ ذَوِي إِقْطَاعَاتٍ،
تَلِيهِمْ خُيُولٌ مُوَظَّفَةٌ يَخْضُرُ بِهَا أَرْبَابُهَا عِنْدَ هِلَالِ كُلِّ شَهْرٍ إِلَى الْمَرَكَزِ، وَتَسْتَعِيدُهَا
فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَيَأْتِي غَيْرُهَا، وَمِنْ هُنَاكَ سُمِّيَتِ الشَّهَارَةُ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" :
وَعَلَيْهِمْ وَالْأَمْرُ مِنَ قَبْلِ السُّلْطَانِ يَسْتَعْرِضُ فِي رَأْسِ كُلِّ شَهْرٍ خَيْلَ أَصْحَابِ النَّوْبَةِ
وَيُدَوِّغُهَا بِالْدَّائِغِ السُّلْطَانِيِّ . قَالَ : وَمَا دَامَتْ تَسْتَجِدُّ فَنَهَى قَائِمَةً ، وَمَتَى أَكْتَرَى
أَهْلُ نَوْبَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَسَدَتِ الْمَرَكَزُ، لِأَنَّ الشَّهْرَ لَا يَهْلُ وَفِي خَيْلِ الْمُنْسَلِخِ قُوَّةٌ ،
لَا سِيَّيَا وَالْعَرَبُ قَلِيلَةُ الْعَلَفِ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْمَرَكَزِ السَّعِيدِيَّةُ الْمَقْدَمُ ذِكْرُهَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْخَطَّارَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَبْرِ
الْوَالِي . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَقَدْ اسْتَجِدَّ بِهِ أُنْبِيَّةٌ وَأَسْوَاقٌ وَبَسَاتِينَ حَتَّى صَارَ
كَأَنَّهُ قَرْيَةٌ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّالِحِيَّةِ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ لَطِيفَةٌ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَهِيَ
آخِرُ مَعْمُورِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَثْرِ عَفْرَى ، وَإِلَى هَذَا الْمَرْكَزِ يَجْلِبُ الْمَاءُ
مِنْ بَثْرِ وَرَاءَهُ . وَمِنْهَا إِلَى الْقُصَيْرِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَقَدْ كَانَ كَرِيمُ الدِّينِ وَكِيلُ
الْخَاصِّ بَنَى بِهَا خَانًا وَمَسْجِدًا وَمِثْدَنَةً ، وَعَمِلَ سَاقِيَةً ، فَتَهَدَّمَ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ
مَنْ يُجَدِّدُهُ ، وَبَقِيَتِ الْمِثْدَنَةُ خَاصَّةً ، وَرُتِبَ بِهَا زَيْتٌ لِلتَّنْوِيرِ . قَالَ : وَهَذَا الْقُصَيْرُ
يَقَارِبُ الْمَرْكَزَ الْقَدِيمَ الْمَعْرُوفَ بِالْعَاقُولَةِ الْمُقَارِبَ لِقَنْطَرَةِ الْحَسْرِ الْجَارِي تَحْتَهَا فَوَاضِلُ
مَاءِ النَّيْلِ أَوَّانَ زِيَادَتِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَى الرَّمْلِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَبُوبَةِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" :
وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَلَا بِنَاءٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَوْقِفٌ يَقِفُ بِهِ خَيْلُ الْعَرَبِ الشَّهَارَةِ ، وَيُجْلِبُ
الْمَاءَ إِلَيْهَا مِنْ بَثْرِ وَرَاءَهَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْغَرَابِيِّ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَطِيَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ
صَغِيرَةٌ بِهَا تُؤْخَذُ الْمُرتَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ مِنَ التُّجَّارِ الْوَارِدِينَ إِلَى مِصْرَ وَالصَّادِرِينَ عَنْهَا ،

وهناك رمل بالطريق يُختم في الليل ويُحفظ ما حوله بالعربان ، حتى لا يمر أحدٌ ليلًا . فيكون من القاهرة إلى قطيا اثنا عشر بريرًا . ثم منها إلى صبيحة نخلة معن . قال في ” التعريف “ : ومن الناس من يقتصر على إحدى هذه الكلمات في تسميتها . ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى السودة . قال في ” التعريف “ : وقد حوّلت عن مكانها فصار المسافر لا يحتاج إلى تعريج إليها . ثم منها إلى الورداء ، قال في ” التعريف “ : وهى قرية صغيرة بها مسجد على قارعة الطريق ، بناه الملك الأشرف « خليل » بن المنصور قلاوون تغمده الله برحمته ، حصل به الرقى بميت السفارة به . قال : وقد كان نخر الدين كاتب الممالك بنى إلى جانبها خانًا فيبع بعده . ثم منها إلى بئر القاضى . قال في ” التعريف “ : والمدى بينهما بعيد جدًا يملأ السالك . ومنها إلى العريش . قال في ” التعريف “ : وقد أحسن كريم الدين رحمه الله بعمل ساقية سبيل به وبناء خان حصين فيه يأوى إليه من أجهاء المساء ، وينام فيه آمنًا من طوارق القربج . ثم منها إلى الخروبة ، وبها ساقية وخان ، بناهما نخر الدين كاتب الممالك ، حصل به من الرقى والأمن ما بالعريش . قال في ” التعريف “ : وهذا آخر مراكر العرب الشهارة . ثم مما يليها خيل السلطان دوات الإصطبلات والخدم تُشترى بمال السلطان وتُعلف منه ، وأولها الزعقة ، ثم منها إلى رفق ، ثم منها إلى السلقة . قال في ” التعريف “ : وكان قبل هذا المركز بئر طرنتاى حيث الخميز ويسمى سطر . قال : وكان في نقلة إلى السلقة المصلحة . ثم منها إلى الداروم ، ثم منها إلى غزّة . يكون من قطيا إلى غزّة أحد عشر مركزًا .

المقصد الثاني

(في مراكز غزّة وما يتفرّع عنه من البلاد الشامية)

والذى يتفرّع عنه مراكز ثلاث جهات، وهى : الكرك، ودمشق، وصفد.

فأما الطريق إلى الكرك : فمن غزّة إلى ملاقس وهو مركز بريد، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصافية، ثم منها إلى الكرك.

وأما مراكز دمشق : فمن غزّة إلى الحنين، وهو مركز بريد، ومنها إلى بيت دارس، والناس يقولون : تدارس، وبها خان بناه ناصر الدين خزندار تنكر. قال في "التعريف" : وكان قديماً بياسور، وكان قريب المدى فقل وكانت المصلحة في نقله، ثم منها إلى قطرى. قال في "التعريف" : وهو مركز مستجد كان المشير به طاجار الدوادار الناصرى، وبه بئر سبيل وآثار له. قال : وقد حصل به رفق عظيم بعد ما بين [لُد وبيت دارس] أو ياسور، ثم منها إلى لُد، ثم منها إلى العوجاء. قال في "التعريف" : وهى زوراء عن الطريق، ولو نقلت منه لكان أرفق، ثم منها إلى الطيرة. قال في "التعريف" : وبها خان كان قد شرع في بنائه ناصر الدين دوادار تنكر ثم كل بيد غيره. ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى فحمة [ثم منها إلى جينين]^(١). قال في "التعريف" : وهى على صفد، يعنى القيام به، وبه خان لطاجار الدوادار حسن البناء جليل النفع، ليس على الطريق أخص منه ولا أحصن، ولا أزيد نفعاً منه ولا أزين.

(١) بياض بأصله والنصح من التعريف (ص ١٩١).

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ مِنْ جِئِينَ إِلَى ذَرْعِينَ . قال في "التعريف" :
ومنها ينزل على عَيْنِ جَالُوتَ ، وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ حَصَلْ بِهِ أَعْظَمُ الرِّفْقِ وَالرَّاحَةِ مِنْ
العَقَبَةِ الَّتِي كَانَ [يُسْلِكُ] ^(١) عَلَيْهَا بَيْنَ جِئِينَ وَبَيْسَانَ مَعَ طُولِ الْمَدَى . ثمَّ مِنْهَا إِلَى
بَيْسَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَجَامِعِ . قال في "التعريف" : وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ عِنْدَ جَنْبِ
سَامَةِ ، كُنْتُ أَنَا الْمَشِيرَ بِهِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِينَ ، وَحَصَلْ بِهِ الرِّفْقُ لِبُعْدِ
مَا كَانَ بَيْنَ بَيْسَانَ وَزَحْرَ . قال : وقد كَانَ الطَّرِيقُ قَدِيمًا مِنْ بَيْسَانَ عَلَى طَبِيعَةِ أَسْمِ ،
ثُمَّ إِلَى أَرْبَدَ ، وَكَانَتْ غَايَةً فِي الْمَشَقَّةِ ، إِذْ كَانَ الْمَسَافِرُ مَا بَيْنَ بَيْسَانَ وَطَبِيعَةِ أَسْمِ يَحْتَاجُ
إِلَى خَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وَبِهَا مَعْدِيَةٌ لِلْفَارِسِ دُونَ الْفَرَسِ ، وَإِنَّمَا يَعْبُرُ فِيهَا الْفَرَسُ
سِبَاحَةً ، وَكَانَ فِي هَذَا مِنَ الْمَشَقَّةِ مَا لَا يُوصَفُ ، لَا سِيَّمَا أَيَّامَ زِيَادَةِ الشَّرِيعَةِ وَكَلْبِ
الْبَرْدِ : لِقَطْعِ الْمَاءِ وَمُعَانَاةِ الْعُقَابِ الَّتِي لَا يَسْقُهَا جَنَاحُ الْعُقَابِ . وَلَكِنْ الْأَمِيرُ
الطَّنْبُغَا كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ نَقَلَ هَذِهِ الطَّرِيقَ وَجَعَلَهَا عَلَى الْقُصَيْرِ حَيْثُ هِيَ الْيَوْمَ ،
وَنَقَلَ الْمَرْكَزَ مِنَ الطَّبِيعَةِ إِلَى زَحْرَيْنِ غَرَّقَ بَعْضُ الْبَرِيدِيَّةِ الْجَلِيلِينَ بِالشَّرِيعَةِ . ثُمَّ مِنْ
الْمَجَامِعِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى زَحْرَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرْبَدَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَفَسَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْجَامِعِ .
قال في "التعريف" : وَكَانَ قَدِيمًا فِي الْمَكَانِ الْمُسَمَّى بِرَأْسِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا مَلَكَهُ الْأَمِيرُ
الْكَبِيرُ تَنَكَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ نَقَلَ الْمَرْكَزَ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجَامِعِ ، فَقَرَّبَ بِهِ الْمَدَى
فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَفَسَ ، وَكَانَ بَعِيدًا فَمَا جَاءَ إِلَّا حَسَنًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّنَمَيْنِ ، ثُمَّ مِنْهَا
إِلَى غَبَاغِبَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْكُسُوفَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ .

وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْمُؤَصَّلَةُ إِلَى صَفَدَ : فَمِنْ جِئِينَ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهَا إِلَى تَبْنِينَ ، ثُمَّ مِنْهَا
إِلَى [حِطَّيْنِ] ^(١) وَبِهَا قَبْرُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى صَفَدَ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصود الثالث

(في ذكر مركز دِمَشْق وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة
إلى حمص وحماة وحلب، وإلى الرحبة، وإلى طرابلس، وإلى جعبر، وميضاب
وبيروت وصيدا وبلبك والكرك وأذرعَات)

أما طريق حلب : فقال في " التعريف " : من دِمَشْق إلى القَصِير . والذي
رأيتُه في بعض الدساتير أنه من دِمَشْق إلى خَانِ لَاجِينَ ، ثم إلى القَصِير . قال
في " التعريف " : ثم من القَصِير إلى القِطِيفَة ، ثم منها إلى القَسْطَل . ورأيتُ
في الدُّسْتُور المذكور أن من القَصِير إلى خان الوالي، ثم إلى خان العُروس، ثم إلى
القَسْطَل ، ثم منها إلى قارا ، ثم منها إلى بريج العطش ويقال فيه البزيج أيضا .
قال في " التعريف " : وقد كان مقطع طريق ، وموضع خوف ، فبني به قاضي
القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى رحمه الله مسجداً وبركةً ، وأجرى
الماء إلى البركة من ملك كان له هناك وقفه على هذا السبيل ، فبدل الخوف أمناً ،
والوحشة أنساً ، أثابه الله على ذلك . ثم منها إلى الغسولة ، ثم منها إلى شُمَيْنين ،
ثم منها إلى حمص ، ثم منها إلى الرستن ، ثم منها إلى حماة ، ثم منها إلى لَطِمِين ،
ثم منها إلى طرابلس ، ثم منها إلى المعرة ، ثم منها إلى أنقراتا ، ثم منها إلى إياد ، ثم منها
إلى قنسرين ، ثم منها إلى حلب .

وأما طريق الرحبة : فمن القِطِيفَة المقدّمة الذّكر إلى العطنة . قال في " التعريف " :
وليس بها مركز ، وإنما بها خان تُفرّق به صدقة من الخبز والأحذية ونعال الدواب
إلى جليجل ، ثم منها إلى المصنع ، ثم منها إلى القريتين ، ثم منها إلى الحسير ، ثم منها
إلى البيضاء ، ثم منها إلى تدمر ، ثم منها إلى أرك ، ثم منها إلى السُّخنة ، ثم منها إلى

قُبَابٍ ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في " التعريف " : وهو اليومُ عُظْل . ثم منها إلى الرَّحْبَةِ وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فمن الغُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ [إلى القَصَبِ ، ثم منها إلى قَدَسَ] ^(١) إلى أَقْصَارٍ ، ثم منها إلى الشَّعْرَاءِ ، ثم منها إلى عِرْقَاءَ ، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .

وأما طريق جَعْبَرٍ وما يليها : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ إلى سَلَمِيَّةَ ، ثم منها إلى بُغْيَدِيدَ ، ثم منها إلى سُورِيَا ، ثم منها إلى الحَصِ ، ثم منها إلى جَعْبَرٍ ، إلى عَيْنِ بَذَالٍ ، ثم منها إلى صِهْلَانٍ ، ثم منها إلى الْخَابُورِ ، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنٍ .

وأما طريق مِصْيَافَ : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ إلى مِصْيَافَ .

وأما طريقُ صَفَدَ : فمن دِمَشْقَ إلى بَرِيحِ الْفُلُوسِ ، ومنه إلى أُرَيْبَةَ ، ومنها إلى لُغْرَانَ ، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريق بَيْرُوتَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ ، ومنها إلى زُبْدَانَ ، ومنها إلى الْحَصِينِ ، ومنها إلى بَيْرُوتَ .

وأما طريق صَيْدَاءَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ الْمُقَدِّمِ الذِّكْرِ ، إلى جَزِيرَةِ صَيْدَاءَ ، إلى كَرْكِ نُوحٍ ، ثم منه إلى بَعْلَبَكَّ . قال في " التعريف " : وآهلم أنَّ من صَيْدَاءَ إلى بَيْرُوتَ قَدَرُ مَرَكْرَ .

وأما بَعْلَبَكَّ ، فلها طريقان : إحداهما من خَانَ مِيسَلُونَ الْمُقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرْكِ نُوحٍ إلى بَعْلَبَكَّ . والثانية من دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيَّ إلى بَعْلَبَكَّ .

ومن أراد من بَعْلَبَكَّ حِمَصَ ، توجَّه منها إلى الْقَصَبِ ، ثم إلى الغُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ ، وبعدها شَمْسِينَ ، ثم حِمَصُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٩٤) .

وأما طريق الكرك : فمن دِمَشْق - في المراكز المذكورة في الوصول من غَزَّة إلى دِمَشْق - على عَكْس ما تقدّم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنيّة ، ومنها إلى البرج الأبيض ، ومنها إلى حُسبان^(١) ، ومنها إلى [ديباج^(٢)] ومنها إلى [اكرية] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أذريعات ، مَقَرَّ ولاية الولاة بالصفقة القبليّة : فمن طفس المقدمة الذّكر إلى أذريعات . قال في " التعريف " : فهذه جملة مراكز دِمَشْق إلى كل جهة .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كلّ واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصّل المسافر على البريد إلى حيث أراد .

المقصود الرابع

(في مركز حلب وما يتفرّع عنه من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسن)
وما يليهما ، وقلعة المسلمين المعروفة بقاعة الروم ، وآياس مدينة
الفتوحات الجاهانية ، وجعبر)

فأما الطريق الموصّلة إلى البيرة : فمن حلب إلى الباب ، ثم منها إلى السّاجور ، ثم منها إلى كلناس^(٢) ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البرّ الشرقيّ من الفرات . قال في " التعريف " : وهي أجَلُّ ثغورها^(٣) .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجلّ قلاع الاسلام ، وعقائل المعافل التي لم تفرّج على طول الأيام »
فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بهسني وما يليها : فمن حلب إلى السموقة، ثم منها إلى سسندرا،^(١)
[ثم منها إلى بيت الفار^(٢)] ثم منها إلى عيّناب ، ثم منها إلى بهسني .

ثم منها يُدْخَلُ إلى جهة قيسارية والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وهي بلاد
الدروب . قال في "التعريف" : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ (يعني أهل هذه المملكة)
في هذا الحيز القريب إلينا منها : قيسارية ودرندة ، وإنما المستقر المعروف أنَّ
آخر حدّ الممالك الإسلامية من هذه الجهة - بهسني .

وأما طريق قلعة المسلمين وما يليها : فمن عيّناب المقدّمة الذّكر إليها، وهي وسط
الفرات ، وهو خُلْجَانُ دَائِرَةٍ عاها . ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر ، ثم إلى
الكفتا، وهي آخر الحدّ من الطرف الآخر .

وأما طريق آياس : فمن حلب إلى أرحاب، ثم منها إلى تيزين، ثم منها إلى يغرا،
ثم منها إلى بقراس ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخر الحدّ مما يلي بلاد
الأرمن . قال : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ في هذا الحيز ما استَضَفْنَا، فصار من بقراس
إلى بياض، وهي أول جيل الأرمن ، ثم من بياض إلى آياس .

وأما طريق جعبر : فمن حلب إلى الجبّول، ثم منها إلى باليس ، ثم منها إلى جعبر .
قال في "التعريف" : هذه جملة مراكز حلب . أما بقايا القلاع ومقار الولايات،
فمن شعب هذه الطرق، أو من واحدة إلى أخرى .

(١) في التعريف سسندار .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصود الخامس

(في مَرَكز طَرَابُلُس وما يتفرّع عنه من المراكز الموصّلة إلى جهاتها)

فأما طريق اللّاذِقِيَّة : فمن طَرَابُلُس إلى مَرْقِيَّة ، ثم منها إلى يِلْنِيَّاس ، ثم منها إلى اللّاذِقِيَّة ، ثم منها إلى صِهْيُون ، وهي قلعة جَلِيلَةٌ كانت دَارَ مُلِك . ثم منها إلى بَلَّاطُنُس . قال في "التعريف" : ومن شاء فمن صِهْيُون إلى بُرْزِيَّة ، وهو حصن سُمِّيَ باسم من عمّره أو عُرف بِمُلْكِهِ ، ومن شاء فمن بَلَّاطُنُس إلى العُلَيْقَةِ أَوَّلِ قِلاع الدَّعْوَةِ ممّا إلى بَلَّاطُنُس ، ثم منها إلى الكَهْف ، ثم منها إلى القُدُمُوس ، ثم منها إلى الخَوَابِي ، ثم منها إلى الرُّصَافَةِ ، ثم منها إلى مِصْيَاف . قال في "التعريف" : فهذه جملة مَرَاكِز طَرَابُلُس . فأما مَقَارُ الولاياتِ فمن واحدة إلى أخرى ، ثم ذَكَرَ جميع مَرَاكِز البَرِيدِ بالممالك المحروسة .

قال : فأما من أطراف مَمَالِكنا إلى حَضْرَةِ الأَرْدُو ، حيث هو مُلْكُ بَنِي هُوَلَاكُو ، فلهم مَرَاكِز تَسْمَى خَيْلُ الأَوَلاق وخَيْلُ الْيَامِ يُحْمَلُ عليها ، لا تُشْتَرَى بِمالِ السُّلْطَانِ ولا يُكَلَّفُ قَمْنُهَا ، وإِنَّمَا هِيَ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الأَرْضِ ، نَحْوِ مَرَاكِزِ العَرَبِ فِي رَمْلِ مِصْرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

المقصود السادس

(في معرفة مَرَاكِزِ الحِجَازِ الموصّلة إلى مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ والمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا)

سَيَدُنَا مُحَمَّدٍ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ ، إِذْ كَانَتْ مِنْ

بِمَّةِ الطَّرِيقِ الموصّلة إلى بَعْضِ أَقْطَارِ المَمْلَكَةِ

وَكَمَا ضُبِطَتْ تِلْكَ بِالْمَرَاكِزِ فَقَدْ ضُبِطَتْ هَذِهِ بِالْمَرَاكِزِ . وَعَادَةُ الْحُجَّاجِ أَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْهَا مَرَحِلَتَيْنِ بِسَيْرِ الْأَنْقَالِ ، وَدَيْبِ الْأَقْدَامِ ، [وَيَقْطَعُونَهَا

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة والينبع نحو ستة أيام . أما من يسافر على النجيب مُحفًا مع الحد في السير فإنه يقطعها في نحو أحد عشر .

ثم أول مصيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة ببركة الحاج، ثم منها إلى البويب، ثم منها إلى الطليحات، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلى مرا كع موسى، ثم منها إلى عجرود، وبها بئر ومَصْنَعُ ماءٍ مُتَّسِعٌ يملأ منها . ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلى وادي القباب، وهو كثير الرمل . ثم منها إلى أول تيه بنى إسرائيل، وهو وادٍ أَفِيحٌ مُتَّسِعٌ . ثم منها إلى العنق، ثم منها إلى نخل، وبها ماء طيب . ثم منها إلى جسد الحى، ثم منها إلى بئر بيدرا، ثم منها إلى تمد الحصا، ثم منها إلى ظُهر العقبة، ثم منها إلى سطح العقبة، وهو عُرْقُوبُ البغلة على جانب طَرَفِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ، وفيها ماء طيب من حَفَائِرِ . ثم منها إلى حَفْرِ على جانب طَرَفِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ، وفيها ماء طيب من الحفائر . ثم منها إلى عَشِّ الغراب، ثم منها إلى آخر الشرفة، ثم منها إلى مَقَارَةِ شُعَيْبٍ، وبها ماءٌ ومَصْنَعٌ . ثم منها إلى وادي عَقَّان، ثم منها إلى ذَاتِ الرَّخِيمِ، ثم منها إلى عِيُونِ الْقَصَبِ، وبه ماءٌ نَابِعٌ وَأَجْمَةٌ قَصَبٍ نَائِتَةٌ فيها . ثم منها إلى المُوَيْلِخَةِ، وبها ماءٌ في آبار . ثم منها إلى المَدْرَجِ، ثم منها إلى سَلَمَى مُجَاوِرِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ، وبها ماء ملح . ثم منها إلى الأتيلات، ثم منها إلى الأَزْنَمِ، والناس يقولون: الأَزْلَمُ باللام بدل النون، وبه آبارُها ماءٌ رَدِيٌّ يُطْلَقُ بَطْنٌ مِنْ شَرِبِهِ، لا يسقى منه غالباً إلا الجمال، وهى نِصْفُ الطَّرِيقِ . ثم منها إلى رَأْسِ وَادِي عَنَتَر . ثم منها إلى الوجه، وبه آبارٌ قليلةُ الماءِ، وما هو داخل الوادى يَعِزُّ الماء فيه غالباً ولا يوجد فيه إلا حَفَائِرُ، ويقال : إنه إذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عليه نَضَبَ ماءؤه، وفيه يقول بعض من حج من الشعراء وعَزَّ عليه وجودُ الماء فيه :

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ " قَلَّ حَيَاؤُهُ، * وَلَا خَيْرَ فِي "وَجْهِ" بغير حياء!

ثم منه إلى المحاطب، ثم منها إلى أكرا، ثم منها إلى رأس القاع الصغير، ثم منه إلى قبر القروى، ثم منه إلى كلخا، ثم منها إلى آخر القاع الصغير، ثم منه إلى الحوراء، وبها ماء غير صالح. ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها، وهو مضيق صعب. ثم منها إلى مغارة نبط، وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه. ثم منها إلى وادى الثور، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل، ثم منه إلى آخر وادى الثور، ثم منه إلى رأس السبع وعمرات، ثم منها إلى دار البقر، ثم منها إلى الينبع، وهى النصف والرُّبع من الطريق، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية فى سفن بحر القلزم. ثم منها إلى المحاطب فى الوعر. ثم منها إلى رأس وادى بدر، وهى منزلة حسنة بها عيون تجرى وحدائق. ثم منها إلى رأس قاع البزوة، ثم منه إلى وسط قاع البزوة، ثم منه إلى رابغ، وهو مقابل الجحفة التى هى ميقات الإحرام لأهل مصر، وبها يحرم الحجاج ولا يغشون الجحفة، إذ قد دعا النبى صلى الله عليه وسلم بنقل حى المدينة إليها بقوله: «وأنقل حمأها إلى الجحفة» فلو مر بها طائر لحم. ثم منها إلى قديد بضم القاف. ثم منه إلى عقبة السويق، ثم منها إلى خليص، وبه مصنع ماء. ثم منها إلى عسقان، ثم منها إلى مدرج على، وهو كثير الوعر. ثم منه إلى بطن مر، والعامّة يقولون: مرو، بزادة واو، وبه عيون تجرى وحدائق. ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها، ثم من مكة إلى منى، وبها ماء طيب من آبار تحفر، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة، ثم منها إلى عرفة وهى الموقف، وإليها ينتهى سفر الحجاج.

ثم العود فى المنازل المتقدمة الذكر إلى وادى بدر على عكس ما تقدم.

الطريق إلى المدينة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مِصْرَ في المَرَاكِيلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى وَادِي بَذْرِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى رَأْسِ
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، وبِهِ عَيُونٌ تَجْرِي وَحَدَائِقُ وَأَشْجَارٌ . ثمَّ مِنْهَا إلى وَادِي بَنِي سَالِمٍ ،
ثمَّ مِنْهُ إلى وَادِي الْغَزَالَةِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى الْفَرَشِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى بَيْتِ عَلِيٍّ ، وبِهَا مَاءٌ طَيِّبٌ .
ثمَّ مِنْهَا إلى الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ
وَالْأَكْرَامِ .

وَمِنْ شَاءَ ذَهَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْيَنْبُعِ إِلَى رَأْسِ تَقَبِ عَلِيٍّ عِنْدَ طَرَفِ الْجَبَلِ ، ثمَّ إِلَى
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، ثمَّ فِي الْمَرَاكِيلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَهِيَ أَقْرَبُ الطَّرِيقَيْنِ
لِلذَّاهِبِ مِنْ مِصْرَ ، وَتِلْكَ أَقْرَبُ الْعَائِدِ مِنْ مَكَّةَ .

الباب الثانى

من الخاتمة فى مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطريق
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصل الأول

فى مطاراته

قد تقدم فى الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه فى أواخر
مقاصد المكاتبات من المقالة الرابعة - أنَّ الحمام أَسْمُ جَنَسٍ يقع على هذا الحمام
المتعارف بين الناس، وعلى الحمام والدباسى والقمارى والفواخى وغيرها، وأنَّ المتبادرَ
إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأنَّ أغلَاهُ قيمةً وأعلاهُ
رُتْبَةُ الحمام الرسائلى، وهو الذى يتَّخِذُهُ الملوكُ لِحَمْلِ المكاتبات، ويُعَبِّرُ عنه بـ«الهدى».
وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، وعدد الرياش المعبرة فيها، وهى
رياش أجنحتها وأذناها، وبيان الفرق بين الذكر والأنثى، وصفة الطائر الفار،
والفراصة فى تجابته فى حال صغره، والزمان والمكان اللاتين بالإفراخ، وما يجرى
بجرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان التعجب منه من غيره، فأغنى
عن ذكره هنا.

والمختص منه بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من أهتم بشأنه،
واعتنى بأمره، ومن قام به من الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجرى هذا
المجرى.

فأما الاعتناء به والاهتمام بشأنه - فقد آغنى به في القديم خلفاء بني العباس :
 كالمهدي ثالث خلفائهم ، والناصر منهم . وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق لاسيما
 بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا في آفئائه ، ولهجوا
 بذكره ، وبالفوا في أئمانه ، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعة دنانير . ثم قال :
 ويقال : إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال :
 وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دقائر
 بأنساب الحمام كأنسب العرب ، وأنه كانت لا يمتنع الرجل الحليل ولا الفقيه
 ولا العدل من اتخاذ الحمام ، والمنافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها ،
 والتعت لمشهورها ، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شينة البكراني قاضي مصر ،
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض) بحامات لهم مع
 ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم
 متجراً من المتاجر ، لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ بالديار
 المصرية والبلاد الشامية من الموصل ، وأن أول من آغنى به من الملوك ^(١) [وقله]
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة خمس
 وستين وخمسة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالفوا حتى أفردوا له
 ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وصنف فيه الفاضل محي الدين بن عبد الظاهر كتاباً
 سماه : "تأيم الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاعب النوارس
 البغدادي ، فصنف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، وذكر فيه

(١) يياض بالأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أَسْمَاءُ أَعْضَاءِ الطَّائِرِ وَرِيَاسِهِ ، وَالْوُشُومِ الَّتِي تُوسَمُ فِي كُلِّ عُضْوٍ ، وَأَلْوَانِ الطُّيُورِ
وَمَا يُسْتَحْسَنُ مِنْ صِفَاتِهَا ، وَكَيْفِيَةِ إِفْرَاحِهَا ، وَبُعْدِ الْمَسَافَاتِ الَّتِي أُرْسِلَتْ فِيهَا ،
وَذِكْرُ شَيْءٍ مِنْ نَوَادِرِهَا وَحِكَايَاتِهَا ، وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى . وَأُظْنُّ أَنَّ كِتَابَ الْقَاضِي
مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ نَتِيجَةٌ عَنْ مُقَدِّمَتِهِ .

وَأَمَّا مَسَافَاتُ طَيْرَانِهِ ، فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الطَّائِرَ الَّذِي يَبِيعُ بِأَلْفِ دِينَارٍ طَارَ مِنْ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَأَنَّ الْحَمَامَ أُرْسِلَ مِنْ مِصْرَ إِلَى الْبَصْرَةِ بِحَضْرَةِ الْقَاضِي
بَكَّارٍ قَاضِي مِصْرَ .

وَذَكَرَ ابْنُ سَعِيدٍ فِي كِتَابِهِ "حَيَاَ الْمَحَلِّ وَجَنَى النَّحْلِ" أَنَّ الْعَزِيزَ ثَانِيَّ خُلَفَاءِ
الْفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ ، ذَكَرَ لَوْزِيرَهُ يَعْقُوبَ بْنَ كَلَّسٍ أَنَّهُ مَارَأَى الْقَرَاصِيَّةَ الْبَعْلَبَكِّيَّةَ ،
وَأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا . وَكَانَ بِدَمَشَقَ حَمَامٌ مِنْ مِصْرَ وَبِمِصْرَ حَمَامٌ مِنْ دِمَشَقَ ،
فَكَتَبَ الْوَزِيرُ لَوْقَتِهِ بِطَاقَةٍ يَأْمُرُ فِيهَا مَنْ هُوَ تَحْتَ أَمْرِهِ بِدَمَشَقَ أَنْ يَجْمَعَ مَا بَهَا مِنْ
الْحَمَامِ الْمِصْرِيِّ ، وَيَعْلُقَ فِي كُلِّ طَائِرٍ حَبَاتٍ مِنَ الْقَرَاصِيَّةِ الْبَعْلَبَكِّيَّةِ ، وَيُرْسِلَهَا إِلَى
مِصْرَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ ، فَلَمْ يَمِضْ النَّهَارُ حَتَّى حَضَرَتْ تِلْكَ الْحَمَامُ بِمَا عُلِقَ عَلَيْهَا مِنْ
الْقَرَاصِيَّةِ ، فَجَمَعَهُ الْوَزِيرُ يَعْقُوبُ بْنُ كَلَّسٍ وَطَلَعَ بِهِ إِلَى الْعَزِيزِ فِي يَوْمِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ
مِنْ أَغْرِبِ الْغَرَائِبِ لَدَيْهِ .

وَذَكَرَ أَيْضًا فِي كِتَابِهِ "الْمَغْرِبُ فِي حُلَى الْمَغْرِبِ" أَنَّ الْوَزِيرَ الْبَازُورِيَّ الْمَغْرِبِيَّ ،
وَزِيرَ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ الْفَاطِمِيِّ وَجَّهَ الْحَمَامَ مِنْ تُونِسَ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ
إِفَاءً إِلَى مِصْرَ ، وَالْعُهُدَةَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ .

الفصل الثانى

من الباب الثانى من الخاتمة فى أبراج الحمام المقررة لإطارتها
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهى من القواعد والطرق، على ما تقدم فى البريد .

أما فى المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مرأى
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة
إلى جهات الديار المصرية

قال فى "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدرجيه من مصر إلى قوص
وأسوان وعيناب . وهذا ظاهر فى أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،
ثم أهمل تدرجيه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمنياط ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها برج قلعة الجبل المحروسة ، ومنها التدرج إلى
سائر الجهات .

ثم لم يذكر فى "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعيناب والإسكندرية
ودمنياط .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزّة

من بروج قلعة الجبل — إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قطيا ،
ثم منها إلى الورداء ، ثم منها إلى غزّة .

الأبراج الآخذة من غَزَّة ومايتفرع عنها

إعلم أن الأبراج من غَزَّة تتشعبُ فيها مسارحُ الحمام إلى غير جهةِ دِمَشق وإلى جهتها .

فأما غير جهةِ دِمَشق ، فمن غَزَّة إلى بلد الخليل عليه السلام ، ومن غَزَّة إلى القدس الشريف ، ومن غَزَّة إلى نابلس .

وأما جهةُ الشام : فمن غَزَّة إلى لُد ، ومن لُد إلى قاقون ، ومن قاقون إلى جينين . ومن جينين تتشعبُ المسارحُ إلى غير جهةِ دِمَشق وإلى جهتها .

فأما ما إلى غير جهةِ دِمَشق : فمن جينين إلى صفد . وأما ما إلى جهةِ دِمَشق : فمن جينين إلى بيسان ، ومن بيسان إلى أربد ، ومن أربد إلى طفس ، ومن طفس إلى الصنمين ، ومن الصنمين إلى دِمَشق .

قال في "التعريف" : ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من بيسان إلى أذرعاء مقر ولاية الولاية بالصفقة القبلية ، ومن طفس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

الأبراج الآخذة من دِمَشق وما يتفرع عنها

تتشعبُ مسارحُ الحمام من دِمَشق إلى غير جهةِ حلب ، وإلى جهتها .

فأما إلى غير جهةِ حلب : فتُسرح من دِمَشق إلى بعلبك ، ومن دِمَشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهةِ حلب : فتُسرح من دِمَشق إلى قارا ، ثم من قارا ^(١) إلى حصص ^(١) ،

ثم من حصص إلى حماة ، ثم من حماة إلى المعرة ، ثم من المعرة إلى حلب .

(١) سماها في معجم البلدان : قارة بالهاء .

الأبراج الآخذة من حلب وما يتفرع عنها

برج الحمام من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة المسلمين ، ومن حلب إلى هسن^(١) . قال في " التعريف " : وإلى بقية [ماله شأن^(١)] مما حولها [ثم من القريتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقيب ، ومنها إلى الرحبة . وقد تعطل الآن تدريج السخنة إلى قباقيب ، وإنما صار يسوق ببطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقيب ، ثم يسرح على الجناح من قباقيب إلى الرحبة^(١)] . قال : وبما ذكرتم ذكر مراكر الحمام في سائر الممالك الإسلامية .

قلت : وقد تعطل تدريج الحمام الآن .

(٢) الزيادة من التعريف ليتم الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر هُجْنِ التَّلْجِ والمَرَاكِيبِ الْمُعَدَّةِ لِحِمْلِ التَّلْجِ الذي يحمل
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في نقل التَّلْجِ

إِعلم أَنَّ مَاءَ نَيْلٍ مُضْرِباً كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يُساويه فيه نهر من
الأنهار، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شِدَّةِ
الْقَيْظِ بها في زَمَنِ الصَّيفِ، وَخُفَّةِ الهَوَاءِ الذي قد لا يَتَأَتَّى معه تبريدُ الماء، وكان
التَّلْجُ غيرَ موجودٍ بها، وكانت الملوك قد آتت الرِّفَافَةَ مع آفنديارها على تحصيل
الأشياء العزِيزَةِ، وولَّوهم بجلِّها من الأماكن البعيدة - إكمالاً لحال الرِّفَافَةِ،
وإظهاراً لأبهة الملك - دَعَاهم كَمَالَ الرِّفَافَةِ والأبهة إلى جَلْبِ التَّلْجِ من الشام إلى
مصر: لتبريدِ الماء به في زَمَنِ الحَرِّ. على أَنَّ ذلك كان في غيرهم من الملوك التي
لا تَلْجُ بحاضرتهم .

وقد ذكر أبو هلال العسْكَرِيُّ في كتابه "الأوائل" أَنَّ أَوَّلَ مَنْ حَمَلَ إِلَيْهِ التَّلْجُ
الْحَاجَّاجُ بْنُ يُوْسُفَ بِالْعِرَاقِ . ثم لاعتناء مُلُوكِ مِصْرَ بالتَّلْجِ قَرَّروا له هُجْنًا تَحْمِلُهُ فِي الْبَرِّ
وَسُفُنًا تَحْمِلُهُ فِي الْبَحْرِ، حَتَّى يَصَلَ إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ .

الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدّة لنقل الثلج من الشام
قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» تغمّده الله
برحمته ثلاث مراكب في السنة، لا تزيد على ذلك . قال : ودامت على أيام سلطاننا
(يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السلطنة الثالثة، وبقيت صدراً منها،
ثم أخذت في التريّد إلى أن بلغت أحد عشر مراكباً في مملكتي الشام وطرابلس،
ورُبّما زادت على ذلك . قال : وآخر عهدي بها من السبعة إلى الثمانية تُطلَب
من الشام ولا تُكَلَّف طرابلس إلا المساعدة، وكلّ ذلك بحسب اختلاف الأوقات
ودواعي الضرورات .

قال : والمراكب تأتي دميّاط في البحر، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل
بولاق، فيُنقل منه على البغال السلطانية، ويُحمَل إلى الشرايخانة الشريفة، على
ما تقدّم ذكره .

وقد جرّت العادة أن المراكب إذا سُفّرت سُفّر معها من يتدرّكها من نلاجين
لمداراتها . ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البرّ .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في الهُجْن المعدّة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حدّث في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»
وآستمرّ . وقد كان قبل ذلك لا يُجمل إلا في البحر خاصّة . ثم ذكر أن هذه المراكز
من دمشق إلى الصنمين، ثم منها إلى بانيّاس، ثم منها إلى أربد، ثم منها إلى يّسان،

ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى غَزَّة ، ثم منها إلى العَرِيش ، ثم منها إلى الورَّادة ، ثم منها إلى المَطِيلِب ، ثم منها إلى قَطِيا ، ثم منها إلى القُصير ، ثم منها إلى الصَّاحِيَّة ، ثم منها إلى بلبِيس ، ثم منها إلى القَلعة .

قال : والمستقر في كلِّ مركزٍ ستُّ هُجْنٍ : خمسةٌ للأحمال ، وهُجْنٌ للهَجَّان ، تكونُ كلُّ نَقْلَةٍ خمسةَ أحمال . وهذه الهُجْن من الشام إلى العَرِيش على المملكة الشَّاميَّة ، خلا جينين فإنها على صَفَد . ومن الورَّادة إلى القَلعة هُجْنٌ من المَنَاحِتِ السُّلْطانيَّة ، والكُلْفَة على مالٍ مِضر . ولا تَسْتَقِرُّ هذه الهُجْن بهذه المراكز إلا أَوَّان حَمَلِ التَّلَج ، وهي : حَزِيرَانُ وَشَرِينُ الثَّانِي . وعدَّة نَقَلاته إحدى وسبعون نَقْلَةً ، مُتَقَارِبٌ مُدَد ما بينها ، ثم صار يَزِيدُ على ذلك . ويُجَهَّزُ مع كلِّ نَقْلَةٍ بَرِيدٌ يَتَدَارَكُه ، ويُجَهَّزُ معه ثَلَاثُ خَيرٍ بِحَمَلِه ومُدَارَاتِه ، يُحْمَلُ على فَرَسٍ بِرِيدٍ ثَانٍ . قال : وأَسْتَقِرُّ في وَقْتٍ أَنْ يُحْمَلَ الثَّلَاثُ على خَيْلِ الْوَلَايَةِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّلَجَ إِذَا وَصَلَ عَلَى الْمَرَاكِبِ وَالْهُجْنِ حَتَّى آتَتْهُ إِلَى الْقَلْعَةِ ، نُحِرْنَ بِالشَّرَاجِنَاهُ السُّلْطَانِيَّةِ . قال في "التعريف" : ومذ قَرَّرَ أَنْ يُحْمَلَ مِنَ التَّلَجِ عَلَى الظَّهْرِ مَا يُحْمَلُ ، أَسْتَقَرَّ مِنْهُ خَاصُّ الْمَشْرُوبِ ، لِأَنَّهُ يَصِلُ أَنْظَفَ وَأَمَنَ عَاقِبَةً ، عَلَى أَنَّ الْمُتَسَفِّرِينَ يَأْخُذُونَ الْحَاشِي مِنْهُ بِحَضُورِ أَمِيرِ مَجْلِسٍ وَشَادِّ الشَّرَاجِنَاهُ السُّلْطَانِيَّةِ وَنُحْرَانَهَا . أما الْمُنْقُولُ فِي الْبَحْرِ فَلَمَّا عَدَا ذَلِكَ . قال : وَلِلْمُجَهِّزِينَ بِهِ مِنَ الْخَلْعِ وَرُسُومِ الْإِنْعَامِ رُسُومٌ مُسْتَقَرَّةٌ ، وَعَوَائِدُ مُسْتَمَرَّةٌ .

قُلْتُ : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ وَاصِلَ التَّلَجِ فِي كُلِّ نَقْلَةٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تُكْتَبُ بِهِ رَجْعَةٌ مِنْ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ ، وَهَذَا هُوَ وَجْهٌ تَعَلَّقَهُ بِدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ .

الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع يُرفع النَّارُ في اللَّيْلِ والدُّخانُ في النَّهارِ .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاكو من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أما كنْ مَرْتَفَعَةً من رؤوس الجبال تُوقَد فيها النَّارُ لَيْلاً و[يُثارُ] الدُّخانُ نهاراً، للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحَرْبٍ أو إِغَارَةٍ . وهذه المناور تارة تكونُ على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تُعرَفُ بها أَكْثَرُ السَّفَارةِ ، وهي من أقصى نُغُور الإسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حَضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتَّى إِنَّ الْمُتَجَدِّدَ بِالْفُراتِ إن كان بُكْرَةً عَلِمَ بِهِ عِشَاءً ، وإن كان عِشَاءً عَلِمَ بِهِ بُكْرَةً . ولما يُرفع من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدُّخان أدلةٌ يعرفُ بها اختلافُ حالات رُؤْيَةِ العَدُوِّ والمخبر به باختلاف حالاتها، تارة في العَدَد ، وتارة في غير ذلك . وقد أُرِصَدَ في كُلِّ مُنَوَّرٍ الدِّيَادِبُ والنَّظَّارةُ ، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامِكُ مُقَرَّرة كانت لا تزال دَارَةً . قال : وكان يُنَوَّرُ بمدينة عانة من تلك المملكة قومٌ من النَّصَّاحِ بِحُجَّةِ أَميرِ سَوَى التَّنويرِ ، ويستريح عليهم أهل البلد حُبًّا لملوكها ، فترى [ناره أو دُخانَه بِحَرِيَةِ الرُّومِ وبالْجُرفِ أَيْضًا ، ويُرفعُ فيهما أَوْ في إِحْداهما فيرى]

من كل منهما بواى الهيكل، ويرفع فيه فيرى [بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرجبة وقاها الله، ويرفع بها فيرى في كوائل، ويرفع فيها فيرى في منطرة قباقب، ويرفع فيها فيرى في حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى^(١) بالسحنة، ويرفع فيها فيرى بمنطرة أرك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة [بين أرك^(١)] وتدمر، ويرفع فيها فيرى بمنطرة تدمر، ويرفع فيها فيرى بمنطرة البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها فيرى بجليجل، ويرفع فيها فيرى بالقريتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى بشنية العقاب، ويرفع فيها فيرى بمندنة العروس، ويرفع فيها لما حولها، إنذارا للرايا وضما للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمناخ، ويرفع به فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد ويجبل عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة آسم، ثم يرفع بها فيرى بالمنور المعمول بازاء البئر الذى برأس الجبل المنحدرا إلى بيسان المعروف بعقبة البريد، لا عدول بطريق البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس [نحو جبال أزيق وما حولها، ويرفع من هذا المنور الذى برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين، ثم يرفع منه فيرى بجبل قحمة^(١)، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى بأطراف أعمال نابلس^(١)] ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصاقي لمجدل بابا، ويرفع منه فيرى بمرکز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال المطلة على غزوة، ويرفع بغزة على أعالي الحدب المعروف بحدب غزوة، ثم [لأمنور^(١)] ولا إخبار بشأن التتار إلا على الجناح والبريد .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) الذى فى التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فتنه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه مناورٌ تنتشعب إلى ما خرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنبٍ جنوباً وشمالاً ، شرقاً وغرباً . أما منذُ أصلح الله بين الفِئتين ، وأمنَ جانبَ الجهتين ؛ فقد قلَّ بذلك الاحتفال ، وصُرفَ عن البال . وهذه المناورُ رؤسومٌ قد عَفَتْ ، وجُسُومٌ [أَكَلَتْ شُعْلُ النَّارِ أَرْواحَهَا] ^(١) فَأَنْطَفَتْ .

على أنه قد نصَّ في "التعريف" على مناورِ طريقِ البيرة ، ومناورِ طريقِ الرَّحبة ، وهما من نفْسِ المملكة .

قلت : وهذه المناورُ مأخوذةٌ عن ملوكِ الهند . فقد رأيتُ في بعضِ الكُتُبِ أنَّ ببلادهم مناورَ على جبالٍ مرتفعةٍ ، تُرى النارُ فيها على بُعدٍ أكثر من هذه .

على أن مرَّتْ بها بهذه المملكة أولاً أتى بحكمةٍ ملوكيةٍ لا تُساوَى مقداراً ، إذ قد ترقى في سرعةِ بُلُوغِ الأخبار إلى الغايةِ القصوى . وذلك أن البريدَ يأتي من سرعةِ الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمَامَ يأتي من الخبرِ بما هو أسرعُ في البريد ، والمناورُ تأتي من الخبرِ بما هو أسرعُ من الحمام . ونأهيك أن يظهرَ عنوانُ الخبرِ في الفُراتِ بمصر في مسافةِ يومٍ وليلةٍ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

الفصل الثانى

من الباب الرابع من الخاتمة فى المحرقات

قال فى "التعريف": وهى مَوَاضِعُ مِمَّا يلى بِلَادَنَا مِنْ حَدِّ الشَّرْقِ دَاخِلَةً فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ (يعنى مملكة بني هولاكو من التتار) يُجَهَّزُ إِلَيْهَا رِجَالٌ فَنُحْرِقُ زَرْعَهَا، كَأَرْضِ الْبُقْعَةِ وَالْزَّرْنَارِ وَالْقَيْنَةِ، وَبِاشْمَرَةَ، وَالْهَتَّاحِ، وَمَشْهَدِ بْنِ عُمَرَ، وَالْمُوَيْلِجِ، وَبِلَادِ نَيْنَوَى مِنْ بَرِّ الْمَوْصِلِ الَّتِي يَقَالُ، إِنْ يُوسَّسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعِثَ إِلَى أَهْلِهَا، وَالْوَادِي، وَالْمِيدَانِ، وَالْبَابِ، وَالصَّوْمَعَةِ، وَالْمَرْجِ الْمَعْرُوفِ بِبَنِي زَيْدٍ، وَالْمَرْجِ الْمُحْتَرَقِ، وَمَنَازِلِ الْأَوِيرَاتِيَّةِ، وَهِيَ أَطْرَافُ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ إِلَى جَبَلِ الْأَكْرَادِ. وَبِلَادِ سِنْجَارٍ - الْمُنْطَقِ وَالْمَنْظَرَةِ وَالْمَزِيدَةِ، وَتَحْتَ الْجِبَالِ عِنْدَ التَّلِيلَاتِ، وَكَذَلِكَ النَّارَاتِ، وَأَعَالَى جَبَلِ سِنْجَارٍ وَمَا إِلَى ذَلِكَ.

وذلك أنه كان من عادة التتار أنهم لا يكفون عُلوْفَةً لِحِلْمِهِمْ بَلْ يَكُونُهَا إِلَى مَا تُنْتَبِتُ الْأَرْضُ، فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَرْضُ مُحْصَبَةً سَكَّوْهَا، وَإِذَا كَانَتْ مُحْصَبَةً تَجَبَّبُوهَا، وَكَانَتْ أَرْضُ هَذِهِ الْبِلَادِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ أَرْضًا مُحْصَبَةً، تَقُومُ بِكَفَايَةِ خَيْلِ الْقَوْمِ إِذَا قَصَدُوا بِلَادَنَا، فَإِذَا أَحْرَقُوا زَرْعَهَا وَنَبَاتَهَا ضَعُفُوا عَنْ قَصْدِ بِلَادِنَا وَحَصَلَ بِذَلِكَ جَمِيعُ الرِّفْقِ، وَالدَّفْعُ عَنْ مَبَاغَةِ الْأَطْرَافِ وَمُهَاجَةِ الثُّغُورِ.

وكان طريقهم فى إحراقها أن يُجَهَّزُوا إِلَيْهِمُ الرِّجَالُ وَمَعَهُمُ النَّعَالِبُ الْوَحْشِيَّةُ وَكِلَابُ الصَّيْدِ، فَيَكُونُونَ عِنْدَ أُمَمَاءِ النَّصَّاحِ فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، وَيَرْتَقِبُونَ يَوْمًا تَكُونُ رِيحُهُ عَاصِفَةً وَهَوَاؤُهُ زَعَزَعٌ، تَعَلَّقُ النَّارُ مُوثَقَةً فِي أَذْنَابِ تِلْكَ النَّعَالِبِ وَالكِلَابِ، ثُمَّ تُطْلَقُ النَّعَالِبُ، وَالكِلَابُ فِي أَثَرِهَا وَقَدْ جُوعَتْ، لِتَجِدَ

النَّعَالُ فِي الْعَدُوِّ ، وَالْكِلَابُ فِي الطَّلَبِ ، فَتُحْرِقُ مَا مَرَّتْ بِهِ مِنَ الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ ، وَتُعَلِّقُ الرِّيحَ النَّارَ مِنْهُ فَيَا جَاوَرَهُ ، مَعَ مَا يُلْقِيهِ الرَّجَالُ بِأَيْدِيهِمْ فِي اللَّيَالِي الْمُظْلِمَةِ ، وَعِشَاءَ الْأَيَّامِ الْمُعْتَمَةِ . وَكَانَ يُنْفَقُ فِي نَظِيرِ هَذَا الْإِحْرَاقِ مِنْ خَزَانَةِ دِمَشْقَ جُمْلٌ مِنَ الْأَمْوَالِ . قَالَ : وَكَانَ الْأَهْتَامُ بِذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ قَبْلَ أَنْ يَقْطُنُوا بِقَصْدِ التَّحْرِيقِ ، ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ الْمُدَاجَاةِ ، فَصَارُوا يَرْبِطُونَ عَلَيْهَا الطَّرِيقَ ، وَيُمَسِّكُونَ مِنْهَا بِالْأَطْرَافِ ، وَقَتْلَ عَدِيدٍ مِنَ الرِّجَالِ بِسَبَبِهَا ، وَأَحْرَقُوهُمْ بِأَشَدِّ مِنْ نَارِهَا .

وَذَكَرَ أَنَّ مِمَّا كَانَ يُجْتَنَبُ تَحْرِيقُهُ - أَرْضَ الْجِبَالِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا بِلَادُ بَقِيَّةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ ذُرِّيَّةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ الْإِمَامِ الْكَبِيرِ الْعَارِفِ بِاللَّهِ «عَبْدُ الْقَادِرِ الْجِيلِيِّ» الْمَعْرُوفُ بِالْكِيلَانِيِّ ، نَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِبَرَكَاتِهِ ، لَتَعْظِيمِهِمْ مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، مَعَ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ مُلُوكِنَا مِنَ الْمَكَانَةِ الْعَلِيَّةِ : لَقَدِيمِ سَلَفِهِمْ ، وَصَمِيمِ شَرَفِهِمْ ، وَلِمَا لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ إِسْعَافِهِمْ بِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْقُدْرَةُ وَيَبْلُغُهُ الْإِمْكَانُ .

قُلْتُ : وَبِتَامَ الْقَوْلُ فِي هَذَا الطَّرَفِ قَدْ تَمَّ مَا كُنْتُ أُحَاوِلُهُ مِنَ التَّأْلِيفِ ، وَأَهْتَمُّ بِهِ مِنَ الْجَمْعِ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ ، وَإِلَيْهِ الرَّغْبَةُ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَصْنَفَاتِ تَتَفَاوَتُ فِي الْحُظُوظِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا : فَمِنْ مَرَّغُوبٍ فِيهِ ، وَمَرَّغُوبٍ عَنْهُ ، وَمُتَوَسِّطٍ بَيْنَ ذَلِكَ . عَلَى أَنَّهُ قَلَّ أَنْ يَتَّفَقَ تَأْلِيفٌ فِي حَيَاةِ مُؤَلِّفِهِ ، أَوْ يَرُوجَ تَصْنِيفٌ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ زَمَانٍ مُصَنِّفِهِ .

قَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي كِتَابِهِ «التَّنْبِيْهُ وَالْإِشْرَافُ» وَقَدْ تَشَرَّكَ الْخَوَاطِرُ ، وَتَتَّفَقُ الضَّمَائِرُ ، وَرُبَّمَا كَانَ الْآخِرُ أَحْسَنَ تَأْلِيفًا ، وَأَمْتَنَ تَصْنِيفًا ؛ لِحِكْمَةِ التَّجَارِبِ ، وَخَشْيَةِ التَّتَبُّعِ ، وَالْإِحْتِرَاسِ مِنْ مَوَانِعِ الْمَضَارِّ . وَمِنْ هَاهُنَا صَارَتِ الْعُلُومُ نَامِيَّةً ، غَيْرَ مُتَنَاهِيَّةً ، لَوْجُودِ الْآخِرِ مَا لَا يَحْدُهُ الْأَوَّلُ ، وَذَلِكَ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ مُحْصُورَةٍ ، وَلَا نِهَايَةٍ مُحَدُودَةٍ .

على أن من شيم كثير من الناس إطرء المتقدمين، وتَعْظِيمُ كُتُبِ السَّالِفِينَ؛ ومدح الماضِ، وذم الباقِ؛ وإن كان في كُتُبِ المُحَدِّثِينَ ما هو أعظم فائده، وأكثر عائده .

ثم حكى عن الجاحظ - على جلالته قدره - أنه قال : كُنْتُ أُؤَلِّفُ الْكُتُبَ الْكَثِيرَ الْمَعَانِي، الْحَسَنَ النَّظْمَ، وَأَتُسَبِّهُ إِلَى نَفْسِي، فَلَا أَرَى الْأَسْمَاعَ تُصْنِي إِلَيْهِ، وَلَا الْإِرَادَاتِ تَلْتَمِعُ نَحْوَهُ، ثُمَّ أُؤَلِّفُ مَا هُوَ أَنْقَضَ مِنْهُ رُبَّةٌ، وَأَقْلَ فَائِدَةٌ، وَأَنَحْلُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفِّعِ، أَوْ سَهْلُ بْنُ هُرُونَ، أَوْ غَيْرَهُمَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، مِمَّنْ صَارَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي الْمُصَنِّفِينَ، فَيُقْبَلُونَ عَلَى كِتَابَتِهَا، وَيُسَارِعُونَ إِلَى نَسْخِهَا، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِنِسْبَتِهَا لِلْمُتَقَدِّمِينَ، وَلِمَا يُدْخِلُ أَهْلَ هَذَا الْعَصْرِ مِنْ حَسَدٍ مَنْ هُوَ فِي عَصَرِهِمْ، وَمُنَافَسَتِهِ عَلَى الْمُنَاقَبِ الَّتِي عَنِي بِتَشْيِيدِهَا .

قال : وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس، وإِنَّمَا الْعَمَلُ عَلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالْأَثْمَلِ الَّذِينَ أَعْطُوا كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ مِنَ الْقَوْلِ، وَوَفَوْهُ قِسْطَهُ مِنَ الْحَقِّ؛ فَلَمْ يَرْفَعُوا الْمُتَقَدِّمَ إِذَا كَانَ نَاقِصًا، وَلَمْ يُنْقِصُوا الْمُتَأَخَّرَ إِذَا كَانَ زَائِدًا؛ فَلِمِثْلِ هَؤُلَاءِ تُصَنَّفُ الْعُلُومُ، وَتُدَوَّنُ الْكُتُبُ .

وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين، وعين أعيانهم، فما ظنك بغيره ؟ .

لِكِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى رَوَاجِ سُوقِ تَأْلِيْفِي، وَنَفَاقِ سِلْعَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى اسْتِكْبَاحِهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ تَأْلِيْفِهِ، حَتَّى إِنْ قَلَمِي التَّأْلِيفِ وَالنَّسْخِ يَتَسَابَقَانِ فِي مَيْدَانِ الطَّرْسِ إِلَى أَكْتَابَتِيهِ، وَمُرْتَبَبَ نَجَازِهِ لِلَاِسْتِنْسَاحِ يُسَاهِمُهُمَا فِي ارْتِقَائِهِ . فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

قال المؤلف : نَجَزْتُ تَأْلِيفَهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وُنَجَزَتْ هَذِهِ النُّسخَةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْخَرِ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَةً وَسِتَّةَ قَبْلَةٍ ، فَقِيرٌ رَحِمَهُ رَبُّهُ الْغَنِيُّ الْفَاتِحُ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ
أَبْنُ مُحَمَّدٍ النَّاسِخِ الشَّافِعِيِّ ، نَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَابِلَةِ ، بِنَحْطِ
بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ عَيْبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

فهرس

الجزء الرابع عشر

من حبيب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

- الباب الرابع — من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك
الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول — في أصول لتعين على الكاتب معرفتها ،
وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول — في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها
من الألفاظ ... ٢
- » الثاني — في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،
وفيه نوعان ... ٧
- النوع الأول — ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام
وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني — ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر
والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء
المسلمين، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول — الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق
عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني — مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير
أوضاعها، وترتيب قوانينها ، وإحكام معاقدها ١١
- الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ،
ومذاهب الكتاب في ذلك، وفيه طرفان ... ١٦
- الطرف الأول — فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،
وتخذ منه نسخ بالأبواب السلطانية، وتدفع
منه نسخ إلى ملوك الكفر، وذلك على نمطين ... ١٦

صفحة

النمط الأول — ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج ... ١٦

» الثاني — ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧

النوع الأول — ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،

وفيه مذهبان ... ١٧

المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن عليه» الخ ١٧

» الثاني — أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» بعبدية ... ٢٦

النوع الثاني — من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر—

أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتاب

ثلاثة مذاهب ... ٢٩

المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»

ونحو ذلك ... ٢٩

الثاني — أن تفتح الهدنة بلفظ: «أستقرت الهدنة بين

فلان وفلان» الخ ... ٣١

» الثالث — أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» ٧١

الطرف الثاني — فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام

في كتابة نسخ من دواوينهم ... ٧٢

الباب الخامس — من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين

ملكين مسلمين، وفيه فصلان ... ٧٩

الفصل الأول — في أصول تعتمد في ذلك ... ٧٩

» الثاني — فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك

المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرة

والمتن، وفيه نوعان ... ٨٤

صفحة

- النوع الأول — ما يكون العقد فيه من الجانبين ... ٨٤ ...
- » الثاني — ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،
- وفيه مذهبان ... ٩٧ ...
- المذهب الأول — أن يفتح عقد الصلح بلفظ : «هذا» ... ٩٧ ...
- » الثاني — أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ «الحمد لله»
- وربما كرر فيها التحميد ... ١٠٠ ...
- الباب السادس — من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود
- السابقة ، وفيه فصلان ... ١٠٨ ...
- الفصل الأول — الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون
- الآخر ... ١٠٨ ...
- » الثاني — المفاخنة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩ ...

المقالة العاشرة

- في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتنافس في عملها ليس لها تعلق
- بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ... ١١٠ ...
- الباب الأول — في الجديّات ، وفيه خمسة فصول (الصاب : ستة
- فصول) ... ١١٠ ...
- الفصل الأول — في المقامات ... ١١٠ ...
- » الثاني — في الرسائل ، وهي على أصناف ... ١٣٨ ...
- الصنف الأول — الرسائل الملوكية ، وهي على ضربين ... ١٣٩ ...
- الضرب الأول — رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلّها ... ١٣٩ ...
- » الثاني — » الصيّد ... ١٦٥ ...
- الصنف الثاني — من الرسائل — ما يرد منها مورد المدح والتقريض ١٧٢

صفحة

الصفن الثالث - من الرسائل - المفانرات	٢٠٤
» الرابع - » » الأسئلة والأجوبة	٢٤٠
» الخامس - » » ما تكتب به الحوات والماجررات	٢٥١
الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،	
في قدمات البنوق	٢٨٢
» الرابع - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،	
في الصّدقات ، وفيه طرفان	٣٠٠
الطرف الأول - في الصّدقات الملوكة وما في معناها	٣٠٠
» الثاني - في صّدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم	٣١١
الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب	
عن العلماء وأهل الأدب ، مما جرت العادة	
بمراعاة النثر المسجوع فيه ، ومحاولة الفصاحة	
وباللاغة ، وفيه طرفان	٣٢٢
الطرف الأول - فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ،	
وهو على صنفين	٣٢٢
الصنف الأول - الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات	
الكتب ، ونحوها	٣٢٢
» الثاني - التقرضات التي تكتب على المصنفات المصنفة	
والقصائد المنظومة	٣٣٥
الطرف الثاني - فيما يكتب عن القضاة ، وهو على أربعة	
أصناف	٣٤٠
الصنف الأول - التقاليد الحكية	٣٤٠
» الثاني - إسجالات العدالة	٣٤٦

صفحة

- الصفحة الثالث — الكتب إلى التواب وما في معناها ... ٣٥٠
 » الرابع — مايكتب في افتتاحات الكتب ... ٣٥٣
 الفصل السادس — في العمرات التي تكتب للحاج ... ٣٥٥
 الباب الثاني — من المقالة العاشرة في الهزليات ... ٣٦٠

الخاتمة

- في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب ... ٣٦٦
 الباب الأول — في الكلام على البريد، وفيه فصلان ... ٣٦٦
 الفصل الأول — في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق
 الغرض من ذلك بثلاثة أمور ... ٣٦٦
 الأمر الأول — معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً ... ٣٦٦
 » الثاني — أقول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ٣٦٧
 » الثالث — بيان معالم البريد ... ٣٧١
 الفصل الثاني — من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز
 البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ... ٣٧٢
 المقصد الأول — في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي
 هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،
 وما تنتهي إليه مراكز كل جهة ... ٣٧٣
 » الثاني — في مراكز غزّة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية ٣٧٩
 » الثالث — في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨١
 » الرابع — في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨٣
 » الخامس — في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨٥
 » السادس — في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة
 المشرفة والمدينة المنورة ... ٣٨٥

صفحة

الباب الثاني - من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلى، وذكر أبراجها المقتررة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان	٣٨٩
الفصل الأول - في مطاراته	٣٨٩
» الثاني - في أبراج الحمام المقتررة لاطارتها بالديار المصرية، والبلاد الشامية	٣٩٢
الباب الثالث - من الخاتمة في ذكر هجن الثلج، والمراكب المعدة لحمل الثلج الذى يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول	٣٩٥
الفصل الأول - في نقل الثلج	٣٩٥
» الثاني - في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام	٣٩٦
» الثالث - في الهجن المعدة لنقل ذلك	٣٩٦
الباب الرابع - من الخاتمة في المناور والمحرقات، وفيه فصلان	٣٩٨
الفصل الأول - في المناور	٣٩٨
» الثاني - في المحرقات	٤٠١

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى
وترجمة مؤلفه

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول
رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي
بالمطبعة الأميرية

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

تَجَدُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَ مِنَ الْإِعَانَةِ وَوَهَبَ مِنَ التَّيسِيرِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى
مِنَ التَّوْفِيقِ فَهُوَ نِعَمُ الْمَوْلَى وَنِعَمُ النَّصِيرِ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صُبْحِ الْهِدَايَةِ
وَسِهَابِهَا السَّاطِعِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النَّجُومِ الثَّوَابِ وَالْبُدُورِ الطَّوَالِغِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْأُمَمَ بَنَاتِهَا ، وَالشُّعُوبَ بَسِيرِهَا وَأَخْبَارِهَا ، وَمِنَ الْأَعْظَمِ الْآثَارَ
قِيَمَهُ ، وَأَغْزَرِهَا دِيَمَهُ ؛ مَا تُعْرِفُ بِوَاسِطَتِهِ نَتَائِجَ أَفْكَارِ الْقَادَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ
قِرَائِحُ الْجَهَانَةِ الْحُكْمَاءِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَمُ الرَّائِيَةُ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ إِلَى وَقْتِنَا الْحَاضِرِ تُعْنِي بِشَأْنِ عُلَمَائِهَا :
عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَتَبَايُنِ مَسَارِيرِهِمْ ؛ وَتَحِلُّهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْإِجْلَالِ أَعْلَى
الدَّرَجَاتِ ، وَتَرْجِعُ فِي أَمْرِ مَعَارِشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَى آرَائِهِمُ السَّيِّدَةِ ، وَأَفْكَارِهِمُ الرَّشِيدَةِ ؛
وَتَعْمَلُ بِكُلِّ جُهْدٍ فِي إِنْشَاءِ دُورِ الْكُتُبِ وَتَشْيِيدِهَا ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَنْسِيقِهَا وَتَرْتِيبِهَا :
لِتَحْفَظَ فِيهَا دِفَاتِرَهُمْ وَطَوَامِيرَهُمُ الَّتِي أَوْدَعُوهَا ثَمَرَةَ أَفْكَارِهِمْ ، وَنَتِيجَةَ بَحْثِهِمْ .

وَلَقَدْ أَخَذَتْ مِصْرُنَا الْعَزِيزَةُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ تُسَاقِ «الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ» فِي هَذَا
الْمَيْدَانِ الْعَظِيمِ ، مَيْدَانِ التَّقَدُّمِ وَالْإِرْتِقَاءِ .

وسارت من بعدهما تناهض « بغداد » دار السلام، ومركز الملاحة العباسية وكعبة العالم، وقبلة الآداب - مع ما كان يبذله الخلفاء لعلمائها من أنواع التحف، ويفرغونه عليهم من بذر الأموال : حُبًّا في نشر العلم وبلوغه إلى درجة الكمال .

ولم تكن في ذلك أقل حظًا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا، حتى في أعظم عصورها الذهبية المملوءة بالمعالي والمفاخر، يوم كانت تنشر على العالم ألية الحضارة، وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .



وفتحت مضر ذراعيها : مرحبة بكل وافد عليها من أهل العلم والأدب ، خصوصًا بعد أن طوّحت يد الردى بمذن العراق وحواضر الأندلس ، ودارت عليها الدوائر، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجد والحضارة . فوفد علماءؤها على هذا البلد الأمين ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة وأمنيتهم الكبرى .

فأصبحت ميدانًا واسعًا يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف، وموردًا عذبًا يزدحم عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة، وجنة زاهية بأكار العلماء ونوابغ الحكماء .

وأصبح ملوكها وأمراؤها ينظرون إلى العلم والعلماء بعين ملؤها الإعظام والإجلال ، وأخذوا يساعدهم ، ويبالغون في إكرامهم وإدراج النعم عليهم ، ويسجعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا لا يؤسسون مسجدًا للصلاة ، ولا يبنون مدرسة أو معهدًا من معاهد العلم إلا ويسيدون في داخله خزانة كتب جامعة ، يودعونها الكثير من نفائس الأسفار والمصنفات في كل فن ومطلب : ميلًا منهم إلى نشر المعارف ، ورغبة في تخليد الذكر وجميل الأثر .

وقد كان لخلفائها الفاطميين خزانة كُتُب كُبرى ، كانت من أجل الخزانين وأعظمها شأنًا عندهم ، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم والفنون .

يقال : إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كُتُب أعظم من التي كانت بالقاهرة في قصر الخلفاء الفاطميين .



ولم تزل الأمة المصرية الكريمة سائرة على هذا المنهج القويم : ترد منهاهل العلم العذبة ، وتتغذى باللبان الطيبة - حتى أصابها ما أصاب غيرها من الأمم الإسلامية ، فتفرقت شيعًا وأحزابًا ، وأنصرفت عن الشؤون العامة ، وصار كل واحد لا هيا بذاته لا يشعر إلا بنفسه التي بين جنبيه .

قلل الاحتفال بالعلم وأهله ، وأهملت العناية بدور الكتب وخزائن الأسفار على كثرتها ، وامتدت إليها يد الخيانة تعبت بنفائسها أئى شاءت بدون محاسب أورقيب . وأستولى المغيرون على الديار المصرية على أنفيس ما كان مودعًا فيها من الكتب والآثار ، ونقلوا منه إلى بلادهم وممالكهم ما شاء الله أن ينقلوا .

وهاهى اليوم تُنادى أهل مضر من وراء البحار ، وتُناجيهم بما كان لسأفهم الناهض من آثار العمل ودلائل النبوغ .

وما بقي في تلك الدور والخزائن ، مما زهدت فيه نفوس الطامعين - صار رهنًا عليها ، لاتقع عليه الأبصار ، ولا يمر بفكر : كأنه كنز مدفون لم يهتد إليه بعد ، أو سجين حكم عليه بالسجن الأبدى لا يجد لنفسه خلاصا .



تلك كانت حالة مِصر حيناً من الدهر كادت تَذْهَبُ بِكُلِّ مَا بَنَى أَهْلُهَا فِي الزَّمَنِ
السَّابِقِ مِنْ مَجْدٍ وَأَسْسُوا مِنْ قُوَّةٍ - لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ بِهَا خَيْرًا ،
فَحَسَّ عَلَى أَرِيكَتِهَا ذَلِكَ الْمُصْلِحَ الْكَبِيرَ، وَالْعَصَامِيَّ الشَّهِيرَ، مُؤَسَّسَ «مِصرَ الحَدِيثَةِ»
سَاكِنَ الْجَنَانِ "مُحَمَّدَ عَلِيَّ بَاشَا" رَأْسَ الْعَائِلَةِ الْعُلَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ .

فَإِنَّهُ - نَوَّرَ اللَّهُ ضَرِيحَهُ - أَعَادَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ سَالِفَ مَجْدِهَا، وَنَبَّهَ الْأَفْكَارَ بَعْدَ
طُولِ رُقَادِهَا، وَنَشَرَ الْعُلُومَ وَالْمَعَارِفَ بَيْنَ أُنْبَاءِهَا، وَأَرْسَلَ الْبُعْثَاتِ الْعِلْمِيَّةَ إِلَى
أَشْهُرِ الْجَامِعَاتِ بِأُورُوبَا : لِيَتَعَلَّمُوا أُسَالِيبَ التَّعْلِيمِ الْحَدِيثَةِ، وَيُودِدُوا إِلَى مِصرَ
بِفُنُونٍ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّهْدِيبِ تَدْعُو إِلَيْهَا سُنَّةُ التَّقَدُّمِ وَالْإِرْتِقَاءِ .

وَقَرَّبَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءَ وَالْأَدَبَاءَ ، وَتَجَمَّعَهُمْ عَلَى التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ . وَوَصَلَ
الذَّيْلَ بِالنَّهَارِ فِي سَبِيلِ إِنْهَاضِهَا وَإِسْعَادِهَا، وَأَسَّسَ الْمَدَارِسَ ، وَشَادَ دَوْرَ الصَّنَاعَاتِ
وَالْمُعَامَلِ فِي حَوَاضِرِ هَذَا الْقَطْرِ السَّعِيدِ .

وَأَنْشَأَ "الْمَطْبَعَةَ الْأَمِيرِيَّةَ الْكُبْرَى" ، وَجَهَّزَهَا بِكُلِّ مَا يَلْزِمُ لَهَا مِنْ
الْآلَاتِ وَالْعُدَدِ ، حَتَّى صَارَتْ مِنْ أَرْقَى دُورِ الطَّبَاعَةِ فِي الشَّرْقِ ، وَاخْتَارَ
لَهَا نَوَائِغَ الْعُلَمَاءِ وَأَسَاطِينَ الْكُتَّابِ : لِيَقُومُوا بِتَصْحِيحِ مَا يُطْبَعُ فِيهَا . وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ
الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ فِي تَقْوِيَةِ التَّهَضُّةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي مِصرَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ ، وَلِنَشْرِ الْعُلُومِ
وَالْآدَابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المغفور له "إسماعيل باشا" خديو مصر، أنشأ "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأمة يتبرعون لها بما في دُور كتبهم وخزائنها من نفائس المصنفات .

وأهتم بها بعده ولده طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً ومائتة فدان من أجود أراضي القطر الزراعية ، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت عالة على إدارة المكاتب ، يُنفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأمتلأت خزائنها بنفائس الأسفار وجلال المؤلفات ، من مصر وغيرها من سائر الممالك ، بما كان يُنفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة ، والمؤلفات القديمة ، والمخطوطات العربية والنقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية . وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات ، وأثر خالد من الآثار الباقيات ؛ ولها على العلم وأهله الأيادي التي لا تُشكر ، والمفاتيح التي تُذكر فتشكر ، فقد أعدت للترديد إليها قاعة كبرى للمطالعة ، وجهازها بكل ما يلزم لراحتهم وسهيل أعمالهم - فأقبل عليها الطلاب والعلماء ، والكتاب والشعراء ، والمنجمون والحكماء وغيرهم : يردون نيرها ، ويؤلون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم ، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرف عليها حضرة صاحب السعادة "أحمد حشمت باشا"
وزير المعارف الأسبق وجهه — حفظه الله — عنايته إلى تنظيمها تنظيمًا يكفل لها
التقدم في طريق الإصلاح اللائق بمكاتها : لتأتي بالثمرة المطلوبة منها ، وتقوم
بالخدمة الواجبة عليها : وذلك بنشر العلوم والمعارف بين طبقات الأمة ، وطبع
الآداب العربية وإذاعتها بين أبنائها .

فأختار طائفة مما فيها من نفائس الأسفار ونوادر المؤلفات ، وخصوصًا
المؤلفات المصرية ، وأمر بأن تُطبع في «القسم الأدبي» بالمطبعة الأميرية ، فتُشترق
أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قرب ومن بُعد ؛ ضئلاً بما أن
تبقى مقصورة على قاعات المطالعة وغرفها ، لا ينتفع بها غير فريق من المقيمين
في مدينة القاهرة .

فكان أجل كتاب ظهر من هذه الكتب في سماء الآداب العربية ، كتاب :

”صبح الأعشى في كتابة الإنشا“

(للقلقشندي)

التعريف بهذا الكتاب

مَهْمَا أَطَالَ الْكَاتِبُ فِي وَصْفِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَجَوَّدَ فِكْرَهُ ، وَأَجْهَدَ قَلَمَهُ
فِي التَّعْرِيفِ بِهِ وَبِقِيَمَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ - فَانْه لَا يَبْلُغُ تَعْدَادًا مَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ
الْقَوَائِدِ ، وَأَنْطَوَى تَحْتَهُ مِنَ الدَّقَائِقِ .

فَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلُ الْقَدْرِ ، عَظِيمُ النِّفْعِ ، كَبِيرُ الْفَائِدَةِ ، لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مَنْوَالِهِ فِي عَالَمِ
التَّأْلِيفِ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ وَالْكِتَابَةِ . وَلَا نَعُدُّ مُبَالِغِينَ إِذَا قُلْنَا : إِنَّهُ أَنْفَسُ كِتَابٍ
أُلِّفَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَارِيخِ آدَابِهَا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ الْقَلَقُ شَدِيدُ مُؤَلَّفِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَالَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ،
وَكَيْفَ كَانَتْ فِي الْعُصُورِ الْأُولَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ
مِنَ الْإِنْتِشَارِ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ لُغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، لُغَةُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّمْحَةِ
وَالدِّينِ الْحَنِيفِ ، تَبَعًا لِإِنْتِشَارِهَا فِي أَكْثَرِ أَنْحَاءِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ : فِي بِلَادِ فَارَسَ
وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، فِي بِلَادِ الرُّومِ ، فِي الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ (وَقَاهَا اللَّهُ) فِي بِلَادِ أَفْرِيقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ، فِي بِلَادِ الصِّينِ ، فِي بِلَادِ
كَثِيرَةٍ مِنْ أَوْرُوبَا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ كَيْفَ زَهَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ الشَّرِيفَةُ فِي عُصُورِ الْخُلَفَاءِ : مِنْ
بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ ، وَغَزَرَتْ مَادَّتُهَا ، وَاتَّسَعَ نِطَاقُهَا ، وَدَنَا قِطَافُهَا : فَصَارَتْ
لُغَةُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، لُغَةُ الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ ، لُغَةُ الْقَضَاءِ وَالْأَحْكَامِ ، لُغَةُ الْحَدَلِ وَالْمَنَاظَرَةِ .
كَمَا صَارَتْ لُغَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ : فِي أَحْكَامِ الدِّينِ ، وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ ، وَتَثْقِيفِ
الْعُقُوفِ ، وَنِظَامِ الْمُلْكِ وَالْمَمَالِكِ ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ . وَعِلُومِ الْفَلَسَفَةِ ،
وَالرِّيَاضَةِ ، وَالتَّجُومِ ، وَالطَّبِّ ، وَالْكِيمْيَاءِ ، وَمَا أَشْبَهَهَا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ
مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْإِرْتِقَاءِ ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، تَبَعًا
لِضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِيلَاءِ الْمُغِيرِينَ عَلَى بِلَادِ الْخُلَفَاءِ وَمَمَالِكِهِمْ ، مَنْ لَيْسُوا
مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ ، أَوْ فِي اللُّغَةِ وَالْدِينِ . كَمَا بَيْنَ لَنَا طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ ،
وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَشُرُوطِهَا وَرُسُومُهَا ، وَمَنْ وَلِيَهَا :
مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَكَزِ وَلَايَاتِهِمْ ، وَخُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَخُلَفَاءِ
بَنِي الْعَبَّاسِ بِبَغْدَادَ وَمِصْرَ ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِالْأندلسِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَمُدْعَى الْخِلَافَةِ
مِنْ بَقَايَا الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ مِنْ
دَرَجَاتِ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ ، وَحُدُودِهَا ، وَأَنْظِمَتِهَا ، وَرُسُومُهَا ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
مِنْ الْقَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ ، وَالْخَوَاصِّ وَالْعَجَائِبِ ، وَمَا بَهَا مِنَ الْأَنْثَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَنْ وَلِيَهَا
مِنَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - وَهُوَ ذَلِكَ الْمِصْرِيُّ الصَّغِيرُ ، الَّذِي أَقْلَتْهُ أَرْضُ
مِصْرَ ، وَأُظْلِمَتْ سَمَائُهَا ، وَشَرِبَ حَتَّى رَوَى مِنْ نِيلِهَا - الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةِ ، وَفَضَائِلَهَا
وَمَحَاسِنَهَا ، وَخَوَاصَّهَا وَعَجَائِبَهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَنْثَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ
وَمَصْبِهِ ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمُقَابِلَتِهِ ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ
فِي النَقْصَانِ ، وَخُلُجَانِهِ الْمُتَفَرِّعَةِ عَنْهُ ، وَجُسُورِهِ الْحَاسَةِ لِمَائِهِ . وَبَيْنَ بَحِيرَاتِهَا ،
وَجِبَالِهَا ، وَزُرُوعِهَا ، وَرِيَاحَاتِهَا ، وَنَوَاحِيهَا ، وَمَوَاشِيهَا ، وَوُحُوشِهَا ، وَطُيُورِهَا .
وَبَيْنَ حُدُودِهَا ، وَأَبْتِدَاءِ عِمَارَتِهَا ، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ ، وَتَفَرُّعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوْلَهَا

عَنْهَا . وَبَيْنَ أَعْمَالِهَا وَقَوَاعِدِهَا الْقَدِيمَةِ ، وَمَبَانِيهَا الْعَظِيمَةِ الْبَاقِيَةِ عَلَى مُرُورِ الْأَزْمَانِ .
وَبَيْنَ قَوَاعِدِهَا الْحَدِيثَةِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَنْبِيَةِ . وَبَيْنَ مِنْ وَلِيَّهَا مِنَ
الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ . وَبَيْنَ تَرْتِيبِ أَحْوَالِهَا ، وَمُعَامَلَاتِهَا ،
وَنُقُودِهَا ، وَتَرْتِيبِ مَمْلَكَتِهَا ، وَوُضَائِفِ دَوْلِهَا الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ .

كِتَابُ دَوْنِ فِيهِ مَوْلُفُهُ عَدَّةٌ كُتِبَ أَدَبِيَّةً نَفِيسَةً بِتَمَامِهَا ، وَجَمَعَ فِيهِ كَثِيرًا مِمَّا تَفَرَّقَ
فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَوْلُفَاتِ .

وَرَتَّبَهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَعَشْرٍ مَقَالَاتٍ وَخَاتِمَةٍ ، بَنَاهَا بِالْإِجْمَالِ عَلَى التَّعْرِيفِ بِحَقِيقَةِ
دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ وَأَصْلِ وَضْعِهِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَفَرَّقِهِ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَمَالِكِ ، وَبَيَانِ كِتَابَةِ
الْإِنْشَاءِ وَتَفْضِيلِهَا عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ، وَصِفَاتِ الْكُتَّابِ وَأَدَابِهِمْ ، وَمَدَجِ
فُضْلَائِهِمْ وَذَمِّ حَقَائِقِهِمْ .

وَمَعْرِفَةِ كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَاتِبُ الْإِنْشَاءِ فِي الْأُمُورِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ : كَمَعْرِفَةِ الْمَوَادِّ
الْأَلَزَمَةِ لِلنَّشْئِ : مِنَ الْخَطِّ وَتَوَابِعِهِ وَلَوَاحِقِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَمَعْرِفَةِ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ (عِلْمُ تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ) : كَمَعْرِفَةِ شَكْلِ الْأَرْضِ وَإِحَاطَةِ
الْبَحْرِ بِهَا ، وَبَيَانِ جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ،
وَبَيَانِ مَوْقِعِ الْأَقَالِيمِ الْعُرْفِيَّةِ مِنْهَا ، وَذِكْرَ حُدُودِهَا الْجَامِعَةِ لَهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ
وَالْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ ، وَالْأَقَالِيمِ وَالْمَمَالِكِ وَالْبُلْدَانِ ، وَمُلُوكِهَا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ
وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ .

وَمَعْرِفَةِ الْأُمُورِ الَّتِي تَشْتَرِكُ فِيهَا أَنْوَاعُ الْمَكَاتِبَاتِ وَالْوِلَايَاتِ وَغَيْرِهَا : مِنْ ذِكْرِ
الْأَسْمَاءِ وَالْكُنَى وَمَوَاضِعِ ذِكْرِهَا فِي الْمَكَاتِبَاتِ ، وَذِكْرِ الْأَقْلَابِ وَأَصْلِ وَضْعِهَا ،
وَمَا كَانَ يُلْقَبُ بِهِ أَهْلُ كُلِّ دَوْلَةٍ إِلَى زَمَنِهِ ، وَكَيْفِيَّةِ تَوْزِيعِ الْأَعْمَالِ عَلَى كُتَّابِ

الإِنشاء ، ومَقَادِيرِ قَطْعِ الْوَرَقِ وما يناسبها من الأَقلام ، وغير ذلك من قَوَائِنِ
الكَتَابَةِ وَأَنْظَمَتَهَا .

ومَعْرِفَةُ الْمَكْتَابَاتِ الْعَامَّةِ وَأَصُولِهَا وَمَقَاصِدِهَا ، فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَمُصْطَلَحِ
الْمَكْتَابَاتِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ كُتَّابِ الْإِسْلَامِ ، وَكُتُبِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى أَهْلِ
الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِمْ ، وَالْكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَنِ الصَّحَابَةِ وَالْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ،
وَبَيَانِ مَذَاهِبِ الْكُتَّابِ فِيمَا تَفْتَحُ بِهِ الْمَكْتَابَاتُ ، وما يُخَاطَبُ بِهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ
وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومَعْرِفَةُ الْوِلَايَاتِ وَطَبَقَاتِهَا ، وما يَتَّبِعُهَا مِنَ الْبَيْعَاتِ وَالْعُهُودِ ، وَمَعْنَاهُمَا ، وَالْوِلَايَاتِ
الصَّادِرَةِ لِأَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ : مِنْ أَصْحَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ وَغَيْرِهِمْ .

ومَعْرِفَةُ الْوَصَايَا الدِّينِيَّةِ وما يُكْتَبُ فِيهَا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَالْمُسَامَحَاتِ
وَالْإِطْلَاقَاتِ وما يَكْتُبُ فِيهِمَا ، وَالطَّرْخَانِيَّاتِ وَتَحْوِيلِ السِّنِينَ ، وَالتَّوْفِيقِ بَيْنَ السِّنِينَ
الْقَمَرِيَّةِ وَالشَّمْسِيَّةِ ، وما يُكْتَبُ فِي التَّذَاكُرِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا .

ومَعْرِفَةُ الْإِقْطَاعَاتِ وَأَصْلِ وَضْعِهَا فِي الشَّرْعِ ، وما يَكْتُبُ فِيهَا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ،
وَأَوَّلِ مَنْ وَضَعَ دِيْوَانَ الْجَيْشِ فِي الْإِسْلَامِ .

ومَعْرِفَةُ الْإِيْمَانِ وما يَقَعُ بِهِ الْقَسَمُ ، وَالْإِيْمَانِ الَّتِي أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، وما كَانَ
يُخْلَفُ بِهَا الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وما يُقَسَمُ بِهِ أَهْلُ كُلِّ مِلَّةٍ وَنَحْوُهُ .

ومَعْرِفَةُ عُقُودِ الْأَمَانَاتِ وَالصُّلُحِ ، وَالْهُدَنِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ مَمْلُوكِ الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِمْ .

وَذَكَرَ فِيهِ فُنُونًا كَثِيرَةً يَتَدَاوَلُهَا الْكُتَّابُ وَالْأُدَبَاءُ وَيَتَنَافَسُونَ فِي عَمَلِهَا ، لَا تَعْلَقُ
لَهَا بِدِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ : كَعَمَلِ الْمَقَامَاتِ ، وَالرِّسَائِلِ الْمُلُوكِيَّةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْغَزْوِ

والصِّيد ، ورسائل المدح والذم ، ورسائل المفارحات بين الأشياء ، والرسائل
المُستَملة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتتبة بالحوادث والمآثرات
وغيرها ، وكقدمات البندوق ، والصدقات الملوكية وغيرها ، والعمرات التي تُكتب
للحاج ، وذكُرُ نسخ من ذلك كله . وما يُكتب عن العلماء وأهل الأدب : من
الإجازة بالفتوى والتدريس والمرويات ، وما يُكتب على الكتب المصنفة والقصائد
من التقريظات ، وما يُكتب عن القضاة : من التقاليد الحكيمة وإسجالات العدالة
وغير ذلك .

وتكلم فيه على البريد وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام ، وبيان معالمه
ومراكمه ، ومطارات الحمام الرسائلي وأبراجه بالديار المصرية والبلاد الشامية ،
ومراكب النلج والمجن المعدة لنقله ، والمناوير والمحركات .

وذكر فيه كثيراً من الآيات القرآنية الشريفة والأحاديث النبوية الكريمة ،
والأمثال والحكم العربية ، وأقوال الكثيرين من أئمة اللغة والتفسير والحديث والفقه
وعلم العربية .

وأتى فيه على كثير من أسماء الكتب والفنون ، وكثير من أسماء مشاهير المؤلفين
والعلماء والأدباء والكتاب والشعراء .

وأورد فيه من أصول الصنعة في الكتابة ما يغني قارئه عن تصفح كثير من
المؤلفات الأدبية وغيرها .

وضمَّه شيئاً كثيراً يفوق الحصر من الرسائل البليغة لمشاهير الكتاب وأهل الأدب
في الشرق والغرب والقديم والحديث .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يُحليّه من غرر منشأته
لنفسه بالمعجب والمُطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن
والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة
المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتابٌ مُمتعٌ، ودائرة معارف أدبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة
والذكاء، وطوبى الباع في هذا الفن الجليل فن كتابة الإنشاء، وقوة التمكن في اللغة
العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الاطلاع على دقيقتها وجايلها .

وإنَّ حسن نيّة مؤلفه، وأعماده على فضل الله تعالى في النفع به - ساعداً على
حفظه إلى هذا الزمن من أيدي العوادي، وانتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - تحدثاً بِنِعْمَةِ الله عليه - بعد أن ذكر أن
المُصنِّفات تتفاوت في الحُطُوظ إقبالاً وإدباراً: فن مرغوب فيه، ومرغوب عنه،
ومتوسط بين ذلك، وأنه قل أن ينفق تأليف في حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على
القُرب من زمان مُصنِّفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودي في كتابه
”التنبيه والإشراف“ عن الجاحظ . قال :

لكنّي أحمد الله تعالى على رواج سوق تاليفي ونفاق سلعته، والمُسارعة إلى
استيغائه قبل انقضاء تأليفه، حتّى إنّ قلبي التاليف والنسخ يتسابقان في ميدان
الطرس إلى اكتتابه، ومرتبب نجاهه للاستنساخ يساهمهما في ارتقابه، فضلاً من
الله ونعمة : ﴿ ذَلِكْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد ترجمه السخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء اللامع"، في أعيان القرن التاسع، فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن الجمال بن أبي اليمن القلقشندي، ثم القاهري الشافعي».

ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة، واشتغل بالفقه وغيره، وسمع على ابن الشيخة، وكان أحد الفضلاء، ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء، وناب في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في نظمه.

وعمل "صُبْحُ الْأَعَشَى" في قَوَائِمِ الْإِنْشَاءِ في أربع مجلدات، جمع فأوعى. وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وخير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عُقُودِهِ" والعيني وآخرون. وسمى المقرئ والدَه عَبْدَ اللَّهِ وهو وهم».



وترجمه صاحب "شذرات الذهب" في أخبار من ذهب، فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندى الشافعى ، نزيل القاهرة .
تفقه ومهر ، وتعالى الأدب ، وكتب فى الإنشاء ، وناب فى الحكم . وكان يستحضر
" الحاوى " ، وكتب شيئاً على " جامع المختصرات " . وصنف كتاباً حافلاً سماه
" صبح الأعشى " فى معرفة الإنشاء ، وكان مُسنّداً لا كثر ذلك ، وصنف غير ذلك .
وكان مفضلاً وقوراً فى الدولة إلى أن توفى ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة ، عن
(١)
خمسة وستين سنة » .



وقد وقفنا على شئ من ترجمته وقت تصحيحنا لكتابه " صبح الأعشى " ، نوره
هنا ، إتماماً لفائدة ، فنقول :

ميلاده ونسبته

وُلد المؤلف فى سنة ست وخمسين وسبعمائة كما ذكره السخاوى فى " الضوء
اللامع " ببلدة يقال لها " قلقشندة " من أعمال مديرية القليوبية بالديار
المصرية : من أصل عربى صميم ، من بنى بدر بن فزارة من قبس عيلان .
وكان بنو فزارة وردوا مصر مع من وردوا من العرب ، أيام الفتح الإسلامى وبعده ،

(١) سماه صاحب " كشف الظنون " مرة بأحمد بن علي ، ومرة أخرى بأحمد بن عبد الله ، وثالثة
بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان " نهاية الأرب " للمؤلف ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله
ابن سليمان بن إسماعيل القلقشندى ، الشهير بابن أبي غدة .
ووجد مكتوباً على بعض أجزاء " صبح الأعشى " الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله
ابن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَنَزَاوَا بِأَقْلِيمِ الْقَلْبُوبِيَّةِ ، وَاسْتَوَلَى بُؤْبُدِيرٌ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلٍ بِإِلَادِهِ . وَكَانَتْ لَهُمُ الرَّاسَةُ
وَالْغَلْبَةُ عَلَى جِيرَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمَّهِمْ بَنِي مَازِنَ بْنِ فَزَارَةَ . وَكَانَ بَقْلَقَشْنَدَةَ فِرْقَتَانِ :
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بَذِيرٍ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنَ ^(١) .

نَشَأَتُهُ وَتَرْبِيَتُهُ

وَنَشَأَ نَشَأَةً حَسَنَةً ، وَتَرَبَّى تَرْبِيَةً عِلْمِيَّةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى تَفَرُّدِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ
وَأَقَامَ بِهِ مَدَّةً مِنْ عُمُرِهِ ، وَطَلَبَ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورِي الْعِلْمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،
وَأَشْتَغَلَ بِفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافِرٌ مِنْهَا . وَأَطَّلَعَ عَلَى كَثِيرٍ
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

إِجَازَتُهُ بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ حِينَ كَانَ مُقِيمًا بِشَرْقِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَجَازَهُ الشَّيْخُ
سِرَاجُ الدِّينِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ الشَّهِيرُ بِابْنِ الْمَلَقَيْنِ - بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ -
عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ سِنُهُ إِذْ ذَاكَ تَتَعَدَّى لِاحْدَى
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا أَجَازَهُ بَأَن يَرَوِي عَنْهُ كُلُّ مَالِهِ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ
وغيرهما ، وَأَن يَرَوِي كُلَّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكُتُبِ الصَّحَاحِ
السَّتَةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُتِبَتْ هَذِهِ الْإِجَازَةُ بِحَظِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ غَنُومٍ مُوقِّعِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ
بِمَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ .

(١) أَنْظَرُ "نَهَايَةُ الْأَرْبِ فِي مَعْرِفَةِ أَنْسَابِ الْعَرَبِ" لِلزُّلْفِ (ص ١٥٠) .

تَصَدُّرُهُ لِلْإِفَادَةِ

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .
وعرض عليه كثير من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول
وعُلُوم العربية، فأجازهم بما حفظوه منها .

التحاققه بديوان الإنشاء

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة آلتحق بديوان الإنشاء بالأبواب
الساطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامةً في تقرّيط القاضي بدر الدين ، بن القاضي
علاء الدين، بن القاضي محيي الدين، بن فضل الله : رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ،
سمّاها "الكواكب الدرّية" في المناقب البدرية^(١) بناها على التعريف بكتابة الإنشاء
وعلو قدرها، وعظم خطرها، وأنها الحرفة التي لا يليق بطالب العلم غيرها، والصناعة
التي لا يجوز له العدول عنها إلى ماسواها، وضمنها كثيراً من أصول الصنعة في الكتابة
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما أشتملت عليه من كثير المعاني - أحتاجت إلى
شرح وإف يكشف إشاراتها، ويوضح عباراتها، فألف كتابه "صبح الأعشى"
وجعله كالشرح لها .

وفرغ من تأليفه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع
عشرة وثمانمائة .

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيمتُهُ في الكتابة والإنشاء

كانت كِتَابَتُهُ وإنشأؤه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التَّخِيل والتَّزَامِ
المُحَسَّنَاتِ البَدِيعِيَّةِ : من السَّجْعِ والجناس والتَّوْرِيَةِ وغيرها ، والغُلُوِّ فيها ، على نَحْوِ
ما كان من كِتَابَةِ « القاضى الفاضل » و « ابن نَبَاتَةَ » والقاضى « شهاب الدِّين
ابن فضل الله العَمَرِيّ » وأضرابهم . غير أنها كانت تَبْدُو أَخْفَ رُوحًا وأَعْظَمَ
وُضُوحًا من كِتَابَةِ أمثاله .

وإنَّ من قَرَأَ مَقَامَتَهُ الَّتِي أنشأها عند أَلْتَحَانَتِهِ بَدِيوانِ الإنشاء ، عَرَفَ ما كان
عليه : من غَزَاةِ المَادَّةِ ، وسَلَامَةِ الذَّوْقِ ، وقُوَّةِ الدَّائِرَةِ .

مؤَلَّفَاتُهُ

وله تَأْلِيفٌ كَثِيرَةٌ ، منها :

كِتَابُ «صَبْحِ الْأَعْشَى» فِي كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ ، وَهُوَ هَذَا الْكِتَابُ .

وَكِتَابُ «صَوْنِ الصُّبْحِ الْمُسْفِرِ وَجَنَى الدَّوْحِ الْمُثْمِرِ» ، وَهُوَ مُخْتَصَرُ كِتَابِ
«صَبْحِ الْأَعْشَى» . طُبِعَ الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ فِي مَطْبَعَةِ الْوَاعِظِ بِالْقَاهِرَةِ
فِي سَنَةِ ١٣٢٤ هـ .

وَكِتَابُ «الْغُيُوثِ الْهُوَامِيعِ» ، فِي شَرْحِ جَامِعِ الْمُخْتَصَرَاتِ وَمُخْتَصَرَاتِ الْجَوَامِعِ
فِي عِلْمِ الْفَقْهِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَكِتَابُ "نَهَايَةِ الْأَرْبِ"، فِي مَعْرِفَةِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ" فِي الْأَنْسَابِ، أَلْفَهُ لِلْفَتْحِ الْجَمَالِيِّ
يُوسُفَ الْأُمَوِيِّ^(١)، وَطُبِعَ فِي مَطْبَعَةِ الرِّيَاضِ بِمَدِينَةِ بَنْدَادِ (دَارِ السَّلَامِ) .
وَكِتَابُ "قَلَائِدِ الْجُمَانِ"، فِي قَبَائِلِ الْعُرَبَانِ" فِي أَنْسَابِ الْعَرَبِ أَيْضًا^(٢) .
وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ رَسَائِلُ كَثِيرَةٌ تَزِيدُ عَلَى الْمِائَةِ أَوْدَعَهَا كِتَابُهُ "صَبِيحُ الْأَعْشَى" .



هَذَا : وَقَدْ أَسْنَدَ إِلَيْنَا تَصْحِيحُ كِتَابِهِ "صَبِيحُ الْأَعْشَى" الْمَطْبُوعُ عَلَى نَفَقَةِ
دَارِ الْكُتُبِ، بِالْقِسْمِ الْأَدَبِيِّ بِالْمَطْبَعَةِ الْأَمِيرِيَّةِ . فَتَمُنَّا نَحْوَهُ بِمَا يَسِبُ بِإِزَاءِ مُؤَلِّفِ
جَلِيلٍ مِثْلِهِ، وَاجْتَهَدْنَا فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ .

وَأَسْتَعْنَا عَلَى مَا وَجَدْنَاهُ بِأَصْلِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ الْكَثِيرِ وَالتَّصْحِيحِ الْغَرِيبِ - زِيَادَةً
عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الطَّمَسِ وَالسَّقَمِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ - بِمُرَاجَعَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلِّفَاتِ
فِي الْفُنُونِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَنَسَخَ شَيْءٌ مِنْ رَسَائِلِ الْكُتُبِ وَدَوَاوِينِ الشُّعْرَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ،
بَاحِثِينَ فِيهَا عَنْ كُلِّ مَوْضُوعٍ تَكَلَّمَ عَنْهُ الْمُؤَلِّفُ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ . وَمَتَى تَوَقَّفْنَا
فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ أَثْنَاءَ التَّصْحِيحِ : لَعَدَمَ وُضُوحِهِ، أَوْ لِأَن يَدَ النَّاسِخِ مَسَخَتْهُ،
أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ - رَجَعْنَا إِلَى تِلْكَ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ فَصَحَّحْنَاهُ مِنْهَا، مَعَ الْحَافِظَةِ النَّامَةِ
عَلَى عِبَارَةِ الْأَصْلِ مَهْمَا بَلَّغَتْ مِنَ السَّقَمِ . وَمَا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ نِيهَا، أَبْقَيْنَاهُ عَلَى حَالِهِ،

(١) كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْمُؤَلِّفُ فِي خُطْبَتِهِ، وَذَكَرَ صَاحِبُ "كَشْفِ الظُّنُونِ" أَنَّهُ أَلْفَهُ لِأَبِي الْجَرْدِ «بَرْبَرِ بْنِ رَاشِدٍ»
أَمِيرِ الْعُرَبَانِ فِي الْبِلَادِ الشَّرْقِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ .

(٢) نَسَبَهُ صَاحِبُ "كَشْفِ الظُّنُونِ" لِوَالِدِ الْمُؤَلِّفِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ نَبَهَ عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ "نَهَايَةِ الْأَرْبِ" .
[وَقَدْ تَصَفَّحْنَاهُ فَلَمْ نَعثرْ عَلَى ذَلِكَ] .

وَوَضَعْنَا بِجَانِبِهِ عِلَامَةً تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَّلْنَاهُ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ وَعَبَقَرِيَّتِهِ ،
نَاسِبِينَ كُلِّ إِصْلَاحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَدَّنا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَاجِمِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،
وَبَدَّلْنَا الْجُهْدَ فِي تَقْرِيبِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ ، بَوَضْعِ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَأَجْزَائِهِ
عِبَارَاتِهِ .

وَمَيَّزْنَا مَا فِيهِ مِنَ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ
الْعَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا .

وَوَشَّيْنَا أَكْثَرَ صَفَحَاتِهِ بِمَحَاشِ شَرْحِنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَرِيبِ
اللُّغَةِ ، وَأَثَبْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْحِيحِ .

وَهَا هُوَ ذَا نَقَدْنَاهُ لِحَضْرَاتِ قُرَّانِهِ الْكَرَامِ - مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْيِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَسِّرُ النَّاطِرَ وَيُشْرِحُ الْخَاطِرَ ، مُعْتَذِرِينَ إِلَى
حَضْرَاتِهِمْ فِيمَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطِّ مُطْبَعِيٍّ وَقَعَ فِيهِ أَثْنَاءُ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْتَبِهْ لَهُ ،
وَالْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَفَقَّنَا اللَّهَ تَعَالَى إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَبَنَا
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحُسْنَ الثَّبَاتِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول
إبراهيم